محمد زفزاف

الأعمال الروائية الكاملة



محمد زفزاف

الأعمال الروائيّة الكاملة



المركز الثقافي العربي

الكتاب

الأعمال الروائيّة الكاملة

تأليف

محمد زفزاف

الطبعة

الأولى، 2017

عدد الصفحات: 784

القياس: 14 × 21

الترقيم الدولي:

ISBN: 978-9953-68-845-9

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء ـ المغرب

ص.ب: 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 0522 303339 ـ 0522 307651

فاكس: 305726 522 212+

Email: markaz.casablanca@gmail.com

بيروت ـ لبنان

ص.ب: 5158 ـ 113 الحمراء

شارع جاندارك ـ بناية المقدسي

هاتف: 750507 01 ـ 352826 01

فاكس: 343701 1 961+

Email: cca_casa_bey@yahoo.com

المرأة والوردة

1972

بيني وبين نفسي
حديقة من الحجر
من التين والرماح ومواء القطط
من المسافات وخوار الثيران

بيني وبين نفسي
عالم من العرب
من المجلات والخرائط، آه، يا إلهي
«لا أستطيع أن أتكلم».

أستعين بالمراسيم الملكية
لفتح ثقب غرائزي
لصرف شيك بلا رصيد
لبناء عمارة عالية
في أحلامي
للسقوط في صحراء الحدائق
يا إلهي
«لا أستطيع أن أتكلم».

روى محدثي في زمن غابر ما يأتي:

هذا العصر عصر جمع المال. لا تحاول أن تقلد هؤلاء الأغرار الذين يدّعون ادعاءات بعيدة من الصواب. وأقول لك إننا محظوظون في أوروبا أكثر مما نحن عليه هنا في الدار البيضاء. هنا تُسيّرنا أقلية بيضاء من المغامرين والقوّادين وبائعي نسائهم. فيبنون الشركات ويستثمرون الأموال. ويطردوننا من المقاهي والمراقص. يترك البوّاب أو النادل الباب مشرعاً في وجه الزبون الأوروبي بينما يقف في وجهك أنت ولا يقول «ممنوع» ولكنه يقول بأدب «معذرة. محجوز». وهكذا فلا مكان لك أو لي في هذه المدينة الكبيرة إلا إذا كنت ذات بشرة بيضاء وتتكلم الفرنسية بطلاقة الباريسيين. وإذا استنجدت بشرطي ضربك على رأسك وقادك إلى المركز حيث تشم رائحة الوسخ والقذارة. وربما كُلفت بتنظيف المركز من قيء السكارى، كل هذا لأن الشرطة أمّيون جهلة، قادمون من البادية. تحولوا من مكانهم وراء الماشية والإبل إلى مكان آخر وراء الشعب يرفسونه ويذلونه. اسمع لي جيداً. أنا لست ثورياً ولا أي شيء. لا أعرف شيئاً من هذا. ولكني أؤكد لك سبب حبي الكبير لأوروبا. إني أعرفها كما أعرف الحي الذي تربيت فيه. لا تعتقد أني عجوز طاعن في السن ولكني قدّك. كم تقدّر عمري؟ آه. لا تعرف. إذن

ثلاثون. ثلاثون سنة. جربت الكثير. إني لا أقبل وظيفة هنا في الدار البيضاء حتى ولو تقاضيت ألف درهم. لأنني هنا أشعر بأن إنسانيتي مفقودة. ولكن هناك تستطيع أن تصير ما شئت، ملكاً أو إمبراطوراً. أي ما شئت. وهناك، لك أن تشاء أو لا تشاء. ولا أحد يشاء في مكانك مثلما هو الشأن هنا. ولا شك أنك تفهمني الآن. هل تفهمني؟ نعم. شكراً. إذن تتبع ما أقوله لك. شخصياً، كنت أعيش هنا وكنت أعتقد أن العالم هو هذا العالم الذي أراه صباح مساء. ولكن الحقيقة غير ذلك. اكتشفت بالحدس فقط، عندما وقفت في البوليڤار بطنجة، أن تلك الأراضي التي تظهر لي عن قرب البحر الأزرق هي عالم مسحور رائع. اكتشفت ذلك بالحدس حتى قبل أن أصير فوق تلك الأرض. أنا لا أريد أن أحدثك عن حياتي. ولا كيف أصبحت أعيش في أوروبا. لا.. لا أريد هذا. ولكني فقط أتحدث لك ببساطة وباختصار عن شيء آلمني. إنهم لا ينظرون إليك هنا إلا بعين فوقية، تتخيل الواحد كما لو كان إلهاً. ولكنه إذا حدثك تجده بليداً أمياً لا يقرأ حتى جريدة. وعندما ينظر إليك ترهبك نظراته، وكأنه إنسان خطير يقرر مصير الأمم. الرجل الأوروبي على عكس ذلك. لا أريد أن أحدثك عن حضارة أوروبا، ولا عن المقارنة بين هؤلاء وأولئك. ولكني فقط أريد أن أقول لك إنني أحب أوروبا. ولا أقول لك هذا إلا لأني وجدت لديك نفس الشعور. قلت لك أعرفها جيداً، وإذا كنت تحب المغامرة فهي ميدان خصب لها. إنك هنا لا تستطيع أن تسرق حتى دجاجة. أما هناك فإنك تستطيع بسهولة الحصول على ورقة خبير في السوق الأوروبية المشتركة، وبذلك تستطيع أن تتجول في أوروبا كلها ومعك ما تشاء من الجواهر أو المخدرات، وتستطيع أن تبيعها بسهولة وتعود إلى هنا لتضحك على العالم وعلى هؤلاء الناس اللئام المتكبرين الأميين.

وإذا ما تكالبوا عليك تستطيع أن ترشي واحداً منهم، فيخلصك منهم بسهولة.

قل لي. هل لا تزال تتخدر؟ أريد أن أقول: هل لا تزال تكمي الكيف؟ آه يا صديقي! الكيف شيء رائع حقاً. لكن أقول لك حقيقة واحدة أنه سيودي بهذه الأمة كلها. أصبح الشعب كله يتعاطاه لينسى همومه الكبرى والصغرى. نعم؟ ماذا؟ ليس صحيحاً. أعتقد أن العكس هو الصحيح. كل الشباب يتعاطونه. حتى في العائلات يتعاطون ما هو أخطر. إنهم يتناولون المعجون. وأنت تعرف أن المعجون أدهى من الكيف. النساء يتناولن المعجون والرجال يدخنون السبسي. تجول إذا شئت ترى أنواعاً من السباسة مزوقة ملونة في جميع الواجهات وفوق كل الأرصفة. كيف تقول أيها الصديق إن الشبان لا يتعاطون تدخين الكيف؟ إنك واهمٌ فقط ولا أريدك كذلك.

وعندما وصل محدثي إلى هذا الحد سقط أرضاً. وعندما بحثت عن سبب سقوطه وجدت أن قدمه زلت فوق قشرة برتقالة، وقد جرت العادة ألا تزلّ الأقدام إلا فوق قشرة الموز. فتعجبنا لذلك نحن الاثنين. ثم لا يحدث له شيء. واستمر في حديثه:

أعتذر عن هذا السقوط. هذه أشياء تقع أحياناً ويتعرض لها المرء وهي خارجة عن الإرادة أعود لأقول لك: وجدت ذاتي في أوروبا، وبالخصوص في أمستردام. قضيت هناك أربع سنوات وعشت مثلما يعيش الملوك والأباطرة. هل تعتقد أني كنت أعمل يدي في شيء؟ لا لا. ذاك شيء يستحيل. أربع سنوات لم أشتغل. كنت آكل وأشرب وأرتدي أفخر الثياب وأنكح أجمل النساء. وقد تتساءل كيف فعلت ذلك. الجواب سهل وبسيط. سأقوله لك، فما هو بسرّ أبداً. كنا نتوصل بالحشيشة من النمسا. كان يبعثها لنا إيطالي

مقيم هناك وهو بدوره يتوصل بها من بيروت. لم أكن تاجراً ماهراً أو محتالاً. ولكني فقط كنت أود أن أعيش بدمي وأعصابي هذه الحياة التي لم أعشها. هل تعتقد أن الناس هنا يحيون؟ لا. أبداً. إنهم يموتون. أقول لك الحق: الإنسان لا يعيش بالخبز وحده. هناك أشياء أخرى في الحياة يجب أن يعرفها. لماذا يتزوج الإنسان وهو لم يعرف في حياته امرأة مثلاً؟ لماذا تتزوج المرأة وهي لم تعرف في حياتها رجلاً؟ هذا شيء غير إنساني. كان هذا هو هدفي. في النهار أبيع حصة أو حصتين، وفي الليل أمضي إلى علب أمر بها كلها تقريباً. أراقص فتياتها وأنكح الأخيرة التي تبقى بين يدي. ألا تعتقد معي أن هذه أروع حياة يتمنى المرء أن يعيشها؟ لماذا يفتعل الإنسان أخلاقاً يرغب في طرحا ونبذها. سمّني ما شئت. لكني متأكد من أن أي واحد من هؤلاء الأوباش الذين يمرون أمامك يرغبون في فعل ما فعلت. وهم لا يتورعون لفعل ذلك من أن يقتلوا أو يكذبوا أو يبيعوا أنفسهم. الواحد منهم ما إن يرى امرأة حتى ينسى الدائرة التي تحيط به. هدفه الوحيد هو أن ينكح وينكح حتى يغمى عليه. ويشدد على زوجته في حين أنها تنكح مع الحلاق الذي يسكن تحت شقته أو مع متعلم الفران الذي يأخذ إليها الخبز، أو مع الحلاب أو مع أي كائن له عضو قائم. ألا ترى معي أنهم بلداء وبلهاء؟ تقول إنني أقسو كثيراً. أعتذر إذن. أنت الذي سألتني عن حياتي وها أنا أجيبك. لا أتقن الكلام على أشياء مثل هذه. لكن لا بد أن أحدد لك بعض الحقائق التي تخصك. أنت تمضي شبابك في قبر. هل رأيت قبراً يحيط به الماء من جميع الجوانب؟ إنه هذه الخريطة الكبرى التي أمام عينيك. تسألني إذا كنت جنيت ثروة كبيرة؟ لا أقول كبيرة. لكني أعيش كإنسان على الأقل. زوجتي تدير محلاً لبيع القهوة. هو ملكنا. ألا يكفي هذا؟ كل ذلك وأنا لم أشتغل ولم أعمل يدي في

شيء. ماذا تعتقد أني أكون لو بقيت هنا؟ لا تدري. دعني أجيبك بنفسي. كنت أصير جيفة تأكلها الديدان في شارع من شوارع هذه المدينة. لكني حاولت أن أكون رجلاً على الرغم من كل شيء. اكتسبت بعض التجربة التي أنضجتني. لا تعتقد أن وراء البحر رجال. من يقول ليس هناك رجال هو كذاب ويستحق الصفع. هكذا. . . (يصفع الفراغ). أوروبا هي التي أخرجت الرجال وستخرجهم. المرأة هناك تساوي رجلاً هنا. دعك من تلك الوحشية التي يحكي عنها الذين حاربوا في صفوف فرنسا ضد ألمانيا وحرروا باريس. أولئك المغاربة حقاً لم يكونوا سوى وحوش. إذا أردت الدليل فها هو: كان هؤلاء الوحوش يغتصبون بكارة فتيات في الثانية عشرة وكانوا يعتقدون ذلك شجاعة. أية شجاعة هذه أيها الصديق؟ تقف أمام فتاة صغيرة - وكأن النساء انقطعن من الدنيا - وتغتصبها. هل هذه شجاعة؟ مع ذلك فهم يتحدثون عن كونهم رجالاً. أين رجولتهم وهم يبعثون نساءهم وبناتهم إلى بيوتات الأقلية الأوروبية هنا، ليمسحن لهم أحذيتهم، ويغسلن ثيابهم الداخلية التي تعاف نساؤهم غسلها. إنهم يعتبرون ذلك شيئاً طبيعياً. ومع ذلك، عندما تتحدث إلى أحدهم يقول إنه رجل. عفواً، أرجوك. تقول إنني أقسو عليهم. لن أعاود الكرّة. لكن دعني أكمل حديثي. هل تدري أيها الصديق (يسعل) أنه وقعت لي حادثة طريفة. ألقوا عليّ القبض في أمستردام وأدخلوني السجن حيث قضيت ستة أشهر. وعندما غادرت السجن نزعوا مني جوازي وأرسلوني إلى هنا. كانوا يعتقدون أنهم حكموا عليّ بصفة نهائية بالبقاء هنا. (يضحك) ألا تعتقد معي أنهم سذّج. خمّن ماذا حصل؟ عدت فوراً من طريق سبتة. قمت بذلك كما لو كنت آكل شوكولاطة. لكن المسألة كانت عويصة في الحدود الإسبانية الفرنسية. أنا بلا جواز فكيف أجتاز الحدود؟ فكرت

وفكرت ملياً. وما عليّ سوى أن أشتري خريطة المنطقة عند هانداي. وهكذا أيها الصديق مشيت ثمانية كيلومترات على الأقدام. ثم وجدت نفسي أجتاز الحدود ورجال الحدود. وانطلقت بعدها في فرنسا طولاً وعرضاً. ومنها إلى أمستردام. الإنسان يجب أن يتوفر على شجاعة قوية. إذا كنت شجاعاً تستطيع أن تدير أوروبا بأكملها على إصبعك. وبعد ذلك؟ تسألني عما حصل؟ لا شيء. الأمور سارت ببساطة. رشوت موظفاً بسيطاً وحصلت على جواز جديد غيّرت فيه اسمي المدنس. ومهما يكن فأنا لا أعرف في أمستردام وفي باريس وفي بروكسيل سوى باسم «جو». ما رأيك؟ أليس اسماً رائعاً؟ أطلقته عليّ الزوجة، ثم احتفظت به فأنا لا أُعرف سوى بهذا الاسم. إذا أتيت إلى هناك فمر بي. ستجدني في أمستردام، وسأقدم لك أية مساعدة. يجب أن تفكر في بناء المستقبل، لشاب مثلك يحمل أفكاراً مثل أفكارك لن يكون له مستقبل هنا. لا في الدار البيضاء ولا في طول المملكة السعيدة وعرضها. إني أنصحك كصديق أن تركب المغامرة. لا تخف. كن شجاعاً.

ثم توقف محدثي عندما وصلنا إلى ساحة مرسى السلطان. نظر حواليه في المقاهي كما لو كان يبحث عن شخص بعينه. تنخم وسعل. وخطا خطوتين بعيداً مني. ثم قال: «أعتقد أني سأراك في المساء. أين تكون؟» فأخبرته ثم ودّعني. ومن ذلك اليوم لم أرَ ذلك الصديق. ربما كان في أمستردام أو باريس أو بروكسيل أو شتوتغارت. من يدري؟ اختفى ولم يعد هناك أمل في أن أراه إلا بعد سنوات. لكني كنت متيقناً من شيء، هو أنه نفخ فيّ روحاً جديداً حتى كنت راضياً عن نفسي.

شعرتُ بألم لم أعرف مصدره، ولم أحاول أن أعرفه. ارتخيت فوق الكرسي وحاولت أن أطلب شيئاً آخر غير القهوة السوداء السريعة. لرابع مرة أشرب القهوة هذا اليوم. أحياناً أشعر بأن القهوة تضايقني وتشد أعصابي شداً، فأشرف على الانفجار. الانفجار ضد نفسي وضد كل شيء. فكان ضرورياً أن أطلب هذه المرة منبّهاً، لا بل مسكّناً. صفقت للجرسون ليأتيني ببيرة شربتها في الحال. وأحسست بقليل من الارتخاء والدفء في هذا الجو الخانق. ولم تعد أعصابي متوترة الآن مثلما كانت عليه فيما مضى. لكني في الواقع شعرت بأني أضيّع وقتي في لا شيء. فعوض النزول إلى البحر، أو اللجوء إلى غرفتي في الفندق، عرضت نفسي على بعض المارة القلائل الذين يمرون أمام المقهى. فعلت نفس الشيء في الأيام السابقة حتى مع الفتاة الألمانية التي تعرفت عليها في البايبرز. كنت أتركها تنزل إلى الشاطئ وحدها لتستحم ولتغير جلدها الأبيض بجلد آخر يشبه جلدي. قالت وهي تشير إلى ذراعي:

- أريد أن يصير جلدي مثل هذا.

وكانت تعني بـ«هذا» جلدي. وعندما قالت ذلك أمسكت ببعض الشعيرات وجذبتها بقوة حتى شعرت بدبيب كهربائي في كل جسدي. اقشعررت وقلت:

- أوه، ماذا تفعلين؟

- أريد أن يصير جلدي مثل جلدك ثم نأخذ صورة معاً.

إلا أن هذه الفتاة التي لم تصبح في مثل لوني ولم تأخذ معي صورة اختفت بصورة نهائية لأنها أنهت عطلتها وعادت لتستأنف العمل كضاربة على الآلة في إحدى الشركات الكبرى بألمانيا الفيدرالية. كنت أتركها تنزل إلى البحر وحدها، وأحياناً تعود بصديق جديد تعرفت عليه تقدمه لي ثم تعانقني وتقبّلني أمامه وهي تقول له وداعاً. وقتها كنت أشعر بالذنب. هل أنا عجوز؟ هل أنا معطوب حتى أخفي إحدى عاهاتي عن الناس. لا. لم أكن معطوباً جسدياً بل نفسياً. أتخيل جسمي نحيفاً ضئيلاً جائعاً. لكنه على العكس، كان موضة الصيف. النحافة كانت هي الموضة. مع ذلك، لم أعطِ لنفسي الجرأة حتى أنزل إلى الشاطئ مثلما يفعل هؤلاء الناس القادمون من أطراف الدنيا. تسمع جميع اللغات بالقرب منك ولا تميز أية لغة هي. فالحركات الميمية هي السبيل إلى التعارف.

عندما أحسست بانفراج داخلي بدأت أتذوق وأستعذب الموسيقى المندفعة من داخل المقهى. بدأت أوقع بقدمي الاثنتين لحناً إلى حد ما منفراً ليست له أية علاقة بالأغنية الإنجليزية المنبعثة من الجوك - بوكس. اللحن مألوف عندي، لكني لا أستطيع أن أتتبعه. الموسيقى عنيفة وصاخبة في هذا الجو الحار. هزتني رغبة عارمة في أن أرقص. وبالفعل، داخل المقهى، كانت امرأة في أرذل العمر تراقص شاباً إسبانياً. لا تتقن الرقص، لذلك ذهبت وجلست عند طاولتها أمام زجاجات بيرة كثيرة ومتنوعة. لم يستطع الجرسون أن يخلص الطاولة منها. ظل الشاب يرقص وحده بحركات أنثوية مغرياً العجوز (التي يبدو أنها تحب السحاق). هل هي أمه؟ عشيقته؟ لا أدري. الاحتمال في كل الأحوال ممكن.

أعدت الثقة بنفسي وأخرجت سيجارة من جيبي. العلبة فرغت وبعد قليل سأضطر إلى شراء علبة أخرى. ذلك أمر عسير. كل لحظة علبة وبيرة وقهوة... إلخ. ضربت بكفيّ للجرسون مرة أخرى فسكب البيرة الثانية أمامي. وأخذت أشرب بتلذذ. الهواء راكد لكني لم أعد أعترف به. انتظرت طويلاً إلى أن تلحق بي سوز. التقيتها أمس لأول مرة. لم يكن اللقاء غريباً ولكنه طريف. تركت ألان وجورج في المقهى الصغير الضيق الذي يوجد في منحدر نحو البحر. الحرارة مثل الآن. أردت أن أشم قليلاً من الهواء لأن قدميّ وجسدي ورأسي، كل هذه الأشياء كانت ثقيلة تعاني من إرهاق لا حدّ له. إرهاق أثقل من الإرهاق الذي شعرت به قبل الآن. انحدرت جهة البحر، وفكرت أن أنزع عني ثيابي قبل أن أبلغ الشاطئ. كان المايوه تحت البنطلون. لكني فكرت: «عيب.. عيب جداً». لم يفكر الناس في هذا العيب الذي فكرت فيه. النساء يتمشين في بيكيني شفاف تظهر منه الأعضاء وشعر الأعضاء وتشكيل الأعضاء. الرجال الحقيقيون والرجال المستعارون كذلك. لا أحد يفكر في العيب. غير أنه كان موجوداً عندي. تخيلته فقط وعانيت منه. أول أمس رأيت شاباً يفعل ما أفكر فيه الآن. انعزل في زاوية ونزع بنطلونه وقميصه. طواهما تحت إبطه وانحدر جهة البحر. لم يكن ينتعل حذاء. لذلك سهل عليه الأمر. أما أنا فقد أمسكني إحساس لاإنساني لدى مجرد التفكير في الأمر. أول أمس انشرحت وقلت: «آه. هذا شخص يصلح لي. سيد نفسه. لا عُقَد ولا أي شيء». وعندما قلت ذلك، رأيته ينظر إليّ دون أن يعيرني أدنى اهتمام، بل ذهب ونظر في الواجهة وسوّى شعره الأشقر المنفوش. سوّاه بيده أولاً، ثم لم يكتفِ بذلك. أمسك البنطلون وفتش في جيوبه، أخرج المشط وأخذ يمشط في حربة تامة. تركت الشاب وانحدرت نحو

البحر. وعندما أشرفت على الشاطئ بدا لي الناس مثل لا شيء وهم عراة. قلت: «لماذا لا يفعلون ذلك في حياتهم العامة. يتعرى الإنسان عندما يشعر بالحرارة». أضفت: «البحر ليس كيف كيف. البحر شيء والحياة الأخرى شيء آخر. هنا مراقبون. لا يستطيع الإنسان أن يفعل شيئاً غير أن يتعرى». أشفقت على الناس، وفي الواقع كنت أشفق على نفسي. لماذا لا أفعل مثلهم وأستريح. آه. هناك في العالم أناس يشبهونني. عددهم كثير. وتذكرت على سبيل المثال صديقيّ الفرنسيين ألان وجورج. لم أرهما قط ينزعان عنهما ثيابهما مع أن لهما جسدين جميلين. ظللت واقفاً. ثم بدا لي السلّم الحجري الذي يؤدي إلى تحت، إلى الشاطئ، طويلاً ومرهقاً. وقررت أن أعود لآخذ معي جورج وألان إلى تحت. عند ذلك نرى إذا كان في الإمكان الاستحمام ولو في مكان خلي من الناس.

عدت أصعد المنحدر. تلاقت نظراتي إذ ذاك مع سوز. نظرت من خلف نظارتيها العريضتين الواسعتين. بدأت تنظر، تنظر. أثارت انتباهي. كانت تنظر وقد أصبحت خلفي. توقفت. لا تزال تنظر. أشرت بيدي فتوقفت ثم جاءت:

- هللو. إنجليزية؟
- لا.
- تشربين شيئاً؟
- نعم.

مشينا جنباً إلى جنب. ابتسمت. لم يكن ذلك بالنسبة إليّ مغامرة. الهواء راكد والفتيات يحمن مثل الفراشات في الحقول دون أن يصطادهن أحد. أخذتها من يدها. ارتعشت وأرخت كفها التي عرقت في كفي. ارتعشت أيضاً ولم نتكلم. غير أني بدأت أفقد قليلاً من قلقي. رأيت الشاب ينحدر ورزمة ثيابه تحت إبطه. نزل نحو

الشاطئ وأثار انتباهي في الوقت الذي لم تلتفت له سوز. فالأمر عادي بالنسبة إليها. وأخرجت علبة السجاير سلطاس من شدة الانفعال. قدمت لها واحدة:

- تدخنين؟

- نعم. لكن في الشارع لا. الطبيب يقول سيجارة في الشارع تساوي مئة. يجب أن تحذر.

لم أهتم بكلامها أو ربما لم أفهم ما قالت. هززت برأسي وتنفست بعمق. حاولت أن أفتح خياشيمي وأعبّ كل الهواء البارد النقي. لكنه لم يكن نقياً. ليست هناك ضمانة لأن يكون.

قالت سوز:

- أين نذهب؟ نشرب هنا؟

- لا. صديقان فرنسيان ينتظرانني فوق. قلت.

- أين؟

- هناك، فوق.

- طيب. نذهب إليهما.

هززت برأسي وأخفيت ملامحي. ألقيت بالسيجارة التي لم أنهها عندما وقفنا عند باب المقهى. فتشت بعيني داخل المقهى الذي يشبه رواقاً ذا بابين. أحدهما عادي والآخر تبلغه بعد أن تصعد درجاً.

قالت سوز:

- أين؟ هنا؟

- نعم. لكنهما اختفيا.

- يمكن أنهما ذهبا.

- طبعاً، ذهبا. ذلك لا يمنع من أن نشرب شيئاً. تفضلي.

جلسنا في الزاوية وطلبنا زجاجتي كوكا كولا. لأول مرة نظرت جيداً في وجه سوز. نظرتْ في وجهي وعينيّ. نظرتُ بدوري في

عينيها. ظللنا صامتين وتبادلنا النظرات مراراً. وأخذنا نتكلم ببالغ المجاملة. ثم اعتذرت عن اللقاء اليوم. ذهبت لملاقاة أخيها وصديقته.

عندما شربت البيرتين انتعشت وفكرت في مجيء سوز. لم تثر اهتمامي أمس جيداً ولكنها لطيفة. تأخرت قليلاً لذلك أشعلت سيجارة جديدة. كانت الموسيقى لا تزال تنبعث من الداخل والشاب لا يزال يغري العجوز بالرقص. وزجاجات البيرة تتوالى على الطاولة لتحل محل زجاجات أخرى فارغة. تحسست جيبي. هناك رغبة ألحّت عليّ في إفراغ جيوبي مقابل إنقاذ نفسي. لكن جيبي أقوى من نفسي. الجيب هو الذي يقرر مصيري. وإذا لم أبالغ فالجيب هو الذي يعطي معنى لحياة الإنسان. وأكثر من ذلك، فالجيب هو الكرامة وهو الاحترام، هو الوضعية وهو المعنوية. لا أريد أن أبالغ ولكن الناس أساؤوا فهم حقيقة بعضهم البعض. وظلت تلك الأخلاق الخاصة المتخيلة موجودة فقط في الكتب مثل «الشريف هو شريف النفس». و«الحكيم هو من تجاوز ترهات الدنيا». هذه كلمات تصلح لأن تعلَّق هنا في متاحف يتفرج عليها الناس إذا كان لديهم قليل من الوقت، ويقرؤونها كما لو كانت تنتسب إلى عقلية أناس عاشوا في زمن قديم. وبالفعل، هذه الحكم قديمة، وضعها أقدمون في عصر لم يكن الإنسان فيه ينزل إلى البلاج بالرولز أو يذهب إلى مرقص بالمرسيديس. إن متطلبات الحياة كثيرة، وعندما لا يلبيها الإنسان ينتظره المتحف أو دار العجزة، هناك يستطيع أن يروي عن حياة غيره لا عن حياته.

عندما فتشت في جيبي لم أجد أنه يستطيع أن يعطيني كرامة أكثر. كرامتي إذن محدودة. لا أستطيع أن أتحرك إذا لم تتحرك يدي في جيبي. حولت عيني داخل المقهى. رأيت الشاب قد أصبح في

حالة مثيرة للانتباه. العجوز أكثر منه. تحولت المساحيق إلى أصباغ مختلفة كلوحة تجريدية. كانت ضحكتها بدائية حيوانية. وتخيلت أن لها صوتاً مثل زعيق القرود. بعض الزبائن يهتزون ويصفقون للشاب لكنهم يشربون على حسابها. ترفع يدها وتشير بسوارها الذهبي في وجوههم جميعاً. إنها تشتريهم وتغريهم أكثر باحترامها. الثمن بخس. لا يكلفها ذلك شيئاً. بيرة، بيرتان ويأتي الاحترام ذليلاً يجرجر نفسه كالكلب.

استعدت وضعي وأرخيت قدمي تحت الطاولة فتحركت الزجاجات الفارغة وأحدثت طقطقات. رأيت القطار الذي يخترق طوريمولينوس قادماً من بعيد دون أن يصفر. ليس ذلك من عادته. سمعت هديراً قوياً. ثم توقف القطار بعيداً وغادره بعض الركاب حاملين فوطات وشمسيات. قلت: «الاستحمام حتى في هذا الوقت. شيء غريب». أعدت: «ليس ذلك بغريب. الظهر والحرارة». وبالفعل كانت الحرارة شديدة. وقفت ونفضت عن نفسي غباراً وهمياً. غادرت الطاولة دون أن أترك بقشيشاً كما يقول المصريون. لم أعرف ماذا أفعل. سوز لم تأتِ بعد. وقفت عند حافة السكة الحديدية وبدأت أفكر دون أن أعبأ بأحد. بعد ذلك، وجدتني أنحدر بلا أدنى رغبة في الطريق المؤدية إلى البلاج. كانت بعض الواجهات قد بدأت تعلن عن نفسها. وفتحت المتاجر أبوابها مستقبلة الصاعدين من الشاطئ السفلي. وفي الواقع، لم يكن هناك صاعدون ولكن كان هناك استعداد للحركة المسائية غير العادية التي تحصل كل يوم. مشيت ببطء. أدخلت يدي اليمنى في جيبي وأخرجت سلطاس لأدخن، وتذكرت: «الطبيب يقول السيجارة في الشارع تعادل مئة. يجب أن تحذر». لكني لم أحذر، وأشعلت واحدة وبدأت أستنشق الهواء والدخان وكل شيء عمداً. برغبة أكيدة وبإصرار.

نفحنا هواء خفيف ففتحت القميص عن صدري، بينما فعلت سوز مثلما فعلت، فكشفت عن جزء من نهديها الكبيرين. وضعت ذراعها عند خصري وحاصرتني بقوة بحيث لم أستطع أن أجد متنفساً. كنا نمشي ببطء وسط الزحام. قليلون هم الذين يفعلون مثلنا يتعانقون بقوة بقوة بقوة بقوة أمام الملأ. (بعد ذلك سوف أعرف أن هذا بالنسبة إليها لم يكن سوى اغتنام فرصة لن تتكرر). كنا نمشي ببطء ولم يعرنا أحد أدنى اهتمام. حتى أنهم لم يكلفوا أنفسهم إفراغ الطريق لنا (ليس ذلك شرطاً - فكرت فيما بعد). نتضارب بالأكتاف ونقول عفواً مع ابتسامة باردة جاهزة يهيئها كل واحد منا لهذا الغرض وفي فرصة مثل هذه. مشينا دون أن نعرف لماذا. وإلى أين؟ (لم يكن ذلك ضرورياً). لم نكن نتكلم. أحياناً ننظر في أعيننا فتضمني إليها بقوة (لأن الفرصة لن تتكرر) دون أن أستطيع أن أفعل الشيء نفسه. لست أدري لماذا. هناك عطب داخلي يمنعني من ذلك. ثم، فوق كل شيء، ليست لدي رغبة. آه! يا إلهي! متى كانت لدي الرغبة في أي شيء؟ هنا سر العطب: لا أرغب في شيء ولا أرغب عن شيء. أعيش فقط وأخطط كل شيء بلا مبالاة. (يحدث أو لا يحدث. هذا غير مهم. كل شيء ممكن وكل شيء غير ممكن).

أدرت وجهي لسوز فنظرت، فيه وأعطتني قبلة على خدي. لم أعرف ماذا أقول لكني في الأخير قلت:

- الزحام شديد.

قالت بابتسامة ودود وبمحاباة:

- نعم. هذه أول مرة أزور فيها طوري. كنت أتصوّر ذلك.

- شخصياً كنت أتصور أكثر من هذا.

- لا يكفي هذا. الحرارة والزحام شيء مقلق.

- نعم مقلق جداً.

صمتنا وأحكمت شد خصري بقوة. وعندما لم أفعل مثلها انسحبت وأمسكت بذراعي. وضعتها خلف خصرها، فهمت إذ ذاك ماذا كانت تعني. تركت يدي راقدة فوق خصرها. ثم أمسكت ثوبها وشعرت أن تحته جسداً دافئاً راغباً في الانتعاش. تركت الثوب ينزلق من بين أصابعي. ارتعشت ووافقت على الانحدار إلى تحت. مشينا في المنحدر. ثم توقفت سوز عند الواجهة وأخذت تتأمل أشياء من الصناعة التقليدية. رأينا تمثال دون كيخوتي مصنوعاً من الأبنوس. قالت:

- أوه. رائع. دون كيخوتي دي لامانشا.

- نعم.

- فوق حصانه.

- نعم.

بدأت تنظر ثم انحنت بنصفها الأعلى حتى لامست نظارتاها زجاج الواجهة. وقفت وأشارت بإصبعها:

- رائع أليس كذلك؟ ما اسم حصانه؟

- حصان من؟

- دون كيخوتي.

- من هو دون كيخوتي؟

- دون كيخوتي دي لامانشا. دي لامانشا دون كيخوتي. حصان دون كيخوتي.

- من دي لامانشا دون كيخوتي. حصان دي لامانشا دون كيخوتي. حصان؟

- دون كيخوتي حصان؟

- آه نعم. لا أدري.

- سأشتريه غداً.

- طبعاً.

كنا لا نزال ننحدر، ووقفنا أمام أوتيل. برز ثلاثة شبان بآلات موسيقية شعبية وفي ثياب لمصارعي الثيران. وسّع لهم الجمهور الساحة. بدأ أحدهم يدور على نفسه ويعزف على ناي معدني، وضمتني سوز بقوة بحيث لامست مؤخرتها ما بين فخذي. ظلت في وضعها طويلاً وهي تكرر «أوه.. رائع. رائع. نايس، فيري نايس». وانطلق شاب ثالث في الغناء فأمسكت ضحكة كادت تنطلق. أثرت انتباه سوز فابتسمت واستمر الشاب في الغناء وأخذ يدور على نفسه. يدور، يدور، رافعاً إحدى يديه وملوحاً بها في هواء المساء الخفيف. قهقهات كثيرة تنتشر في الفضاء المسائي الخفيف. ولامست عجوز أميركية آلة التصوير المتدلية عند كتفيها. نظرت باشتهاء إلى الشاب ووشوشت للعجوز الذي يرافقها. ما زالت سوز واقفة بين فخذي (فيما بعد اكتشفت أنها لا تحب أن تفعل نفس الشيء في الفراش). لكن الحرارة قوية في نصفي الأسفل وركبتاي فيهما تنمل لذيذ.

ارتفع الصوت واتسعت الدائرة وقهقهت العجوز ولمع ضوء آلتها في وجه الدائرة. أخذ الشاب يدور وينظر إليها بينما الآخر صاحب

الناي يرفع رأسه إلى الأعلى ويعزف لأرواح بعيدة في الليل. أدركت بالبديهة أن عينيه تتركزان بوضوح على كل سائحة مبهورة. اتسعت الدائرة فغيرت سوز وضعها. بقي التنمل في ركبتيّ بينما اختفت الحرارة عند العانة. صاح صوت من الخلف: «خيطانوس». وأخذ يردد الصوت نفس الكلمة: «غجر غجر غجر». وعندما سمع الشبان الثلاثة الكلمة ارتفع نشاطهم وظهرت لي سلسلة ذهبية في يد أحدهم. لكنها اختفت وراء الثوب الذي يغطي كفيه. دخل الرجل الذي يصيح «خيطانوس» وسط الدائرة. بدأ يرقص رقصاً لا يتلاءم مع اللحن. دار على نفسه وحاول أن يقلّد الشبّان الثلاثة. توقف العزف فصار الهواء بارداً. اتجه أحد الشبان إلى المنفضة الزجاجية السميكة. دسّ الرجل الذي كان يصيح «غجر» يده في جيبه وأخرج حزمة من الدولارات. وضع دولاراً في المنفضة. أخذه الشاب ودسّه في جيبه في حين ترك المجال لقطع نقدية معدنية تتساقط في المنفضة. أخرجت العجوز قطعاً معدنية كثيرة، صفراء نحاسية، وبيضاء فضية. وضعتها في المنفضة ولامست آلة التصوير من جديد. وقف الثلاثة في صف واحد وقاموا بحركات بهلوانية فأخذت العجوز لهم صورة. انسحب أحدهم فتبعه الآخران ودخلوا إلى المقهى ليستمروا في اللعبة. أمسكت سوز من يدها. وقالت عفواً لامرأة صدمتها.

حاولت أن أتنفس بعمق شديد وبلهفة. الهواء خفيف والزحام كثير. بدأت الموسيقى تنبعث من مختلف الأزقة ومن مختلف العلب الليلية. ظلّت سوز تحاصرني دون أن نتكلم. أخيراً تكلمنا كلاماً غير مترابط ليست له أية علاقة، بعضه ببعض. على كل حال نستطيع أن نملأ الفراغ بأي شيء. بدأت كلمات تخرج وتتطاير في الهواء مثل «الزحام شديد»، «الجو رائع»، «الليل جميل»... إلخ. مشينا ببطء شديد وصرنا منعزلين عن الناس ثم لم نعد داخل الزحام. أصبحنا

منفردين. رأينا آخرين منفردين: نساء ورجالاً. نساء ونساء. رجالاً ورجالاً. لكن لم يكن هناك أطفال وأطفال. وقعت يدي بالصدفة على مكان حسّاس في جسد سوز. ارتعشت وضمتني إليها بقوة. قلت:

- إلى أين؟ الظلام هنا.

قالت وهي تنفصل عني لتغير وضع جرابها (كان لها جراب من الكتان بدل حقيبة اليد):

- الظلام حقاً لكننا لن نذهب بعيداً. إن طوري صغيرة. سننزل مع الدرج الحجري ونشم كثيراً من هواء البحر فوق المقاعد.

- أين؟ هنا؟

- نعم. وقبل أن نبلغ الفنادق. هناك مقاعد خشبية للعموم.

وافقت بابتسامة دون أن أفعل شيئاً آخر. أصبحنا وسط الظلام عند السلم الحجري. رأيت شخصاً ثملاً في الظلام وجماعة تختفي عند المنحرف. أيضاً، رأيت الضوء موزعاً من بعيد على مسافات. لكن المصابيح لم تكن قوية إلى الحد الذي تضيء معه كل هذا الظلام والسلم الحجري والمقاعد الخشبية. لم تكف الضوضاء بينما ظلّت الموسيقى تأتينا من فوق متدحرجة مع المنحدر. تخيلتها كذلك: كرات صغيرة متدحرجة أو حبيبات لا تُرى تكوّن في مجموعها هرمونيا غريبة، هرمونيا فيها الكثير من رائحة الغربة والليل والبحر. أيضاً، تخيلت الموسيقى تحمل رائحة نباتات بحرية. تشممت كمن يشك في شيء. انتبهت سوز وسبقتني إلى تحت. اختارت المقعد الأيمن. وفي الواقع لم يكن هناك اختيار لأن المقعد الثاني ليس شاغراً. رأيت فتى كثيف الشعر وفتاة ملتصقين يدخنان. يتبادلان السيجارة ذات الرائحة الخاصة. قالت سوز وهي تلصق جرابها بمتكأ المقعد:

- إنهما مثلنا . مثلنا إنهما .

قلت وأنا أنظر إليهما :

- اسمعي لهجتهما . أميركيان .

- إنجليزيان . أنت لا تميز بين الأميركي والإنجليزي والإنجليزي والأميركي والأميركي والإنجليزي والإنجليزي والأوروبي . . . إلخ . أليس كذلك؟

بالفعل لم أكن أستطيع ، فمعلوماتي في الإنجليزية لا تسمح بذلك . فقط أميز بضع كلمات . وقف الشاب وسار في الظلام . اختفى لحظة ثم عاد بسيجارة أخرى مشتعلة ذات رائحة غريبة . قالت سوز :

- مخدر !

- نعم . مخدر لأني لا أعرف سيجارة بهذه الرائحة ولذلك فهو مخدر لأنه مخدر ولأنه ليس هناك سيجارة . . . بهذه الرائحة فهو مخدر .

- نعم .

وقفت الفتاة في تثاقل . قصيرة القامة بلا جراب ولا حقيبة يد . وصعد الفتى إلى أعلى السلم الحجري ووقف هناك في انتظارها . ظلت هي تنفض شيئاً عن سروالها . سمعنا صوت بنطلونها العريض عند القدمين . أمعنت في ضربه بيدها . مضى الشاب واتجه من حيث تأتي الضوضاء . تبعته الفتاة واختفيا بصفة نهائية . لم تكن سوز تتبعهما بل كانت منشغلة بالتفتيش عن جرابها . أخرجت علبة «كامل» وأشعلت سيجارة واحدة دون أن تقدم لي واحدة . قلت أنا بلهجة الرافض :

- أفضل سلطاس .

- لكنها سوداء قوية .

- ندخن واحدة. ذلك رائع، هل جربت؟
- لا.

بدأنا نتبادل السيجارة وكنت أفكر في الفتاة القصيرة وفي الشاب. تركها دون أن يهتم بوجودها خلفه (يستطيع الإنسان أن يتأكد من أن العلاقة بينهما - قد تكون - تافهة إلى حد بعيد - في الدار البيضاء - عند الكورنيش - رأيت فتاة في حجمها - تخرج لي من بين نباتات كثيفة فوق المسبح - قالت - أعطني درهمين - قلت - لا أملكهما - أنا مثلك - كنت جالساً إذ ذاك على مقعد حجري في الظلام - أيضاً - قالت - تأتي معي - قلت بلا تصميم - لا - وعندما لفظت كلمة لا خرج شاب طويل ذو شعر طويل من بين النباتات وقال لها - تعالي إذن - عانقها وجلسا إلى جانبي فوق المقعد الحجري الطويل المجاور - أخذ يقبلها ثم نام فوقها - سمعت بلك بلك بللك بللللك فانسحبت في الظلام وتركتهما).

وقفت سوز وذهبت إلى حافة بعيدة ومدت ذراعيها ورسمت الصليب بجسدها في الليل. تركت ذراعاً تنزل إلى جانبها بينما بقيت الذراع الثانية أفقية بجهة الشمال. آه يا إلهي. لم أكن أُميز في الواقع بين الشمال والجنوب. تمددت الذراع الثانية وتمشت بخطوات بطيئة في الوقت الذي تمددت فيه أنا فوق المقعد. لامس رأسي جرابها المتدلي فأزحته بيدي. وضعت رجلاً فوق رجل وأنا أدخن آخر ما يمكن تدخينه. وبدأت النار تقترب من شفتي. عادت سوز ووقفت عند رأسي ورسمت الصليب مثل المرة الأولى في الظلام. قلت لها: «ابقي هكذا..».

تحركت وهي تضحك. قالت:

- لا.. مثل ميت. فظيع حقاً. حقاً فظيع. لا أريدك أن تموت. تموت لا، حقاً. فظيع. تموت.

طريقتكم.

- ماذا تعني؟

- بالصليب.

- أنا ملحدة لم أُعَمَّد. هل تُعَمَّدون؟

قالت ذلك ثم أنزلت ذراعيها إلى تحت. قلت وأنا أجلس:

- لا.. لا نعمَّد. هذا غير ضروري. أنا أيضاً ملحد لم أرَ في حياتي ما في داخل المسجد. أبي وأمي كذلك. رغم أنهما متعصبان. وإذا سمعني مسلم الآن يقتلني.

- متعصبان؟ من أجل ماذا؟

- لا شيء. لا يعرفان. إنهما أميان. متدينان بالغريزة كالحيوان.

جلست سوز وفتحت قميصها عن صدرها في الليل. برز نهداها الكبيران بلا سوتيان. وضعت يدي على صدرها فاقتربت مني وقبلتني. أرخيت يدي بين فخذيها ولم أعد أسمع الضوضاء.(كان مثل السلحفاة). بدأت الأصوات شيئاً فشيئاً تتضخم. هناك حوار يقترب من آذاننا. افترقنا في حين ظلت أيدينا وسيقاننا متشابكة والسلحفاة منعزلة. مرّ الحوار من تحت إلى فوق وأصبح وسط الضوضاء فلم نعد نميزه. أعدنا الكرّة، أعدنا الكرّة، أيضاً كذلك، أعدنا الكرّة، أيضاً، أعدناها فارتخت سوز نهائياً بين يديّ. رفعت رجليها عن الأرض وأمرتني أن.. أترك لها مكاناً إلى جانبي. وتزحزحت قليلاً من مكاني. شعرت بصلابة المقعد. فعلت سوز مثلما فعلته قبل لحظة: تمددت على ظهرها. ووضعت رأسها على فخذي وجعلت من رجليها زاويتين متوازيتين متساويتين. وضعت كفي فوق جبهتها التي برزت ولمعت مثل مصباح بعيد في الضباب.

قمت بنزع النظارتين عن عينيها. تغيرت نفسياً قليلاً. قالت: «أعدهما». لكني لم أفعل وحاولت أن أضعهما. تدلت النظارتان فوق أرنبة أنفي ثم فوق شفتي. وتخيلت نفسي في وضع مضحك جداً. نظرت إليها فوجدتها قد أغمضت عينيها وهي تتنفس برتابة. مدت يدها ببطء شديد وبحذر وهي لا تزال تغمض عينيها. أحسست بكفها دافئة على بطني تحت القميص. أمسكت بعض الشعيرات القليلة التي تمثل حبلاً طويلاً إلى الصدر. ظلّت تفعل هكذا وكان رأسها ثقيلاً فوق فخذي. حركت فخذي وفعلت مثلها. وعندما سمعنا كلاماً توقفت يد سوز فوق بطني وظلّت متجمدة في مكانها. لكن عينيها استمرتا مغمضتين. صعد جماعة من الرجال الشقر والنساء الشقراوات الدرج الحجري لكنهم لم ينتبهوا إلينا. ثم حركت يدي فوق صدرها. دلت رجليها إلى الأرض وضمتني إليها. وعندما التصقنا من جديد قلت لسوز:

- سوز. سو..

- نعم. ن..

- نذهب إلى الحفير عند الحافة، الحافة عند الحفير، نذهب..

مانعت أولاً ثم انفصلت عني ومشت ببطء تحت الدرج الحجري. رجعت وقالت:

- الفنادق تحت مضاءة. الضوء ضئيل. هناك مدخل غريب مثل الحديقة.

قالت ذلك وهي مبتعدة مني. ثم ذهبت مرة أخرى إلى الحافة ورسمت الصليب بجسدها. ذراعاها أفقيان ورأسها متدلٍّ جهة الشمال مثل شيء ما. صار شعرها أسود بفعل الظلام. دارت دورة خفيفة ثم قالت: «هاي». قفزت إلى الحفير فتبعتها وأنا أمسك بالجراب الكتاني. لم يكن هناك بدّ من ذلك بعد التهيؤ فوق المقعد.

وضعنا الجراب عند رأسينا وسمعنا بعض الحشرات تفعل مثلنا. وعندما استمعت إلى صوت الأمواج القريبة تخيلت أن الأسماك تفعل مثلنا. وأيضاً، عندما انتهت إلينا الضوضاء، تخيلت أنهم هناك يفعلون مثلنا، في الفنادق أو في الشقق. ظلت الحشرات تفعل مثلنا وهي تقفز. مرة فوق، مرة تحت، مرة فوق... إلخ. وأحياناً كانت الحشرات تصمت لكنها تتنفس تنفساً عميقاً غريباً، وأحياناً أيضاً تلهث لهاثاً دافئاً. ولا أدري ماذا كانت تفعل الأسماك، خصوصاً أن الماء يستطيع أن يتسرب من أي ثقب. لا أعرف كيف تتصرف الأسماك، لكنني متأكد من أن الحشرات تتقلب وتلهث وتتنفس وتشم رائحة بعضها البعض. وفي حالة خاصة يصدر عنها صوت يدل على نوعيتها. كثرت الحشرات من حولنا وسمعنا أصواتاً كثيرة في كل مكان، في النباتات وفي التراب، وعلى الأغصان. كانت زوجين زوجين. عندما تتكلم حشرة تصمت الأخرى أو تتنفسان معاً وتتشممان، إحداهما رائحة الأخرى. لكن الحشرات لم تضايقنا في قليل أو كثير وسط الحفير. (تنمو الحشرات - تزداد وتتكاثر دون أن تشعر بذلك - في كل مكان تتوالد - موجودة دون أن يكون لها اختيار - ولكن ما تفعله طريف - طريف جداً - لا تضايقنا - غير أني لا أعرف إذا كنا نضايقها - تتكاثر - تتكاثر وتزداد في كل مكان - مكان).

وهكذا فلسوز رائحة متميزة لا كباقي روائح النساء. تتسرب هذه الرائحة متميزة بليونة ويسر، تتسرب بسهولة وبلا شعور في المسام الجلدية حتى تبلغ القلب فتختلط مع دمه مجتازة الصمامات. تتسرب هذه الرائحة وتبقى هناك دائمة، حيوية، منعشة، دافئة، مثل المطلق.

تقلبت سوز في مكانها وهي تهمس:

- انظر الليل.. كم هو جميل!

- نعم.
- اسمع الحشرات.. هل تسمعها؟
- نعم.. أصوات كثيرة.
- والبحر؟
- أيضاً، أسمعه.
- رائعة.. رائعة جداً.
- ماذا؟
- الأصوات وكل شيء. كل شيء. ثم. وكل شيء.
- نعم. وكل شيء. و. وكل شيء.
(صمت)
- الحشرات تفعل مثلنا.
- ذلك ما كنت أفكر فيه.
- حقاً؟
- نعم.
- إنها تتقلب.
- نعم. وتتقلب. في التراب وفي النباتات وعلى الأغصان.
- أصوات ليلية جميلة.
- لا تنسى الضوضاء فوق.
- الضوضاء؟
- نعم.
- لا أسمعها.
- يمكن أن يكون التراب قد دخل أذنيك.
- لا.. لكني لا أحاول أن أسمع.
(صمت)
- هاتي لي سيجارة.

- لا . لا تفعل. اخفض صوتك.

- لماذا؟

- سيكتشفوننا.

- وبعد؟

- سيأخذوننا إلى المركز.

- من؟

- العَسَس.

وكما لو كنت لا أعرف عن الحياة شيئاً تساءلت عمن سيكتشفنا. وأجابت سوز بهذه السرعة: «العَسَس!». خفضت صوتي وخفت من العَسَس. إنهم أشرار حقاً. علّمهم ذلك الرجل كيف يخافون أمام رؤسائهم ويتشجعون في الأماكن الخالية، أمام العزّل.

(نزلنا في الصيف الماضي - أنا وباربارا إلى البلاج بعدما غادرنا البايبرز - كانت الساعة الرابعة ليلاً - كنا ثملين - واقترحت باربارا في ذلك الجو اللطيف من نهاية الليل أن ننزل إلى البلاج وننام حتى الصباح - نشاهد شروق الشمس وننزع ثيابنا في الفجر لنستحم - وربما فعلنا ذلك الآن - أي في الساعة الرابعة بعد خروجنا من البايبرز مباشرة - الفكرة جميلة في حد ذاتها - جميلة ورائعة - انحدرنا جهة الشمال - وعندما أدركنا البلاج تمشينا قليلاً وقبّل واحدنا الآخر - وقفنا وأرخينا جسدينا ليسقطا في الرمل - أدركنا تعب قوي فقلت لباربارا بألا ننام هنا - نختفي عند النباتات - وقفت باربارا وهربت وسط النباتات - أخذت تحدث بفمها صوتاً حيوانياً قريباً من بعض الطيور - فتشت عنها طويلاً لكنني لم أعثر عليها أعلنت عن نفسها - تمددنا عند جذع شجرة - رفعت روبها إلى بطنها وتخلصت من بنطلوني - بدأنا نفعل مثل الآن - مثل الحشرات - فجأة انهال علينا ضوء البطارية - رفعت رأسها ورفعت رأسي -

وجدنا الحارسين وهما يقهقهان - وقفت بصعوبة وظلت باربارا ممدة في مكانها فأرسل الحارس الجبان ضوء بطاريته بين فخذيها - كان يفتش عن شيء لم يره في حياته قط - خافت باربارا - طلب مني الجواز ولم يكن معي - قال اذهب هات الجواز واترك الفتاة - فهمت اللعبة وصعدت إلى فوق - اختبأت ورأيتهما يخفضان صوتهما ويطفئان ضوء بطاريتهما - أخذا يتعاقبان عليها مراراً - بعدها لم أستطع أن أرى باربارا).

لذلك خفت عندما قالت سوز سيكتشفوننا. خفضت صوتي وسرت في جسدي رهبة خفيفة. قالت سوز وهي تتقلب فوق التراب في الحفير:

- لماذا سكتّ؟ الجو جميل.

- جميل لكنه.

- جميل لكنه ماذا؟

- لا شيء أخفضي صوتك.

- لا أتكلم بصوت مرتفع. هل خفت أنت؟

- لا. لم أخف. لكن أخفضي صوتك.

صمتنا وقتاً غير يسير. الحشرات توقفت بدورها وصمتت. الأسماك أيضاً. لم يعد الماء يتسرب من الثقوب الموجودة بجسدها. بدأت الأسماك تعوم في حرية وتتلقف ما يمكن أكله من أسماك صغيرة فأصغر. سمعنا الضوضاء تخفت فوق. وأيضاً كلاماً عند حدود المقاعد الخشبية. أرهفت السمع ورفعت رأسي بصعوبة. لم يكن المتكلمون عَسَساً ولكنهم مثلنا. أصواتهم تشبه أصوات الحشرات إلى حدٍّ بعيد. لكنها متميزة مع ذلك.

لامستني سوز وهي تقول:

- فيمَ تفكر؟

- في لا شيء.
- غير صحيح. أنت شارد ومتوهم.
- لا شارد ولا حاجة. أتأمل الطبيعة.
ضحكت وكتمت ضحكتها:
- رومانتيكي. غريب! لم أكن أعرف أني أخرج مع رومانتيكي.
- لست رومانتيكياً.
- يظهر عليك ذلك.
(صمت)
- نصعد إلى طوري.
- نحن فيها.
- أعني نصعد إلى فوق.. إلى الضوضاء والزحام.
- طيب.

سبقتُ سوز ومررنا بالمقاعد الخشبية التي كانت فارغة. أخذت أستنشق من جديد هواء المكان، لعلي أسترجع رائحة السيجارة الغريبة التي كانا يدخنانها. عبثاً حاولت. تيقنت أن ذلك مستحيل. وصعدنا الدرج الحجري. توقفنا ورأينا الأضواء باهتة تحت، ناصعة فوق. ثم مشينا متعانقين. أصبحنا وسط الضوضاء والضجيج. توقفت الحشرات لحظتها عن القفز فوق بعضها البعض وصارت هذه المرة تتكلم. تشير إشارات علنية وخفية. أحياناً، الحشرات تتفرج على الفترينات وتتبادل كلمات الإعجاب والغزل والسباب والمجاملة... إلخ. كفّت الحشرات عن القفز بعضها فوق البعض الآخر، وصارت هذه المرة تتكلم أيضاً. لكنها استعدت لمعاودة اللعبة. الحشرات الآن وهي تمشي وتتأمل وتتفرج، تفعل ذلك فقط استعداداً للقيام باللعبة الدينامية الدائمة، لعبة القفز واللهاث والاسترخاء بعد القفز.

صرنا أنا وسوز حشرتين كبيرتين ضخمتين. ولكي لا يبقى هناك نشاز أخذنا نضحك ونتفرج على الفترينات ونتبادل الرأي في معروضاتها. وقعنا مع الحشرات أيضاً أمام السلف - سيرفس. رأينا الحشرات تدخل، تدفع عربات صغيرة، ذات سلاسل معدنية. تملأ الحشرات السلال وتمر قرب الفتاة الرابضة وراء آلتها الحاسبة.

قالت سوز وقد تحولت إلى حشرة كبيرة ضخمة:

- ندخل السلف سيرفس؟

- لماذا؟

- نتفرج ونشتري شوكولاتة وعنباً.

دخلنا وفعلنا مثل باقي الحشرات الأخرى الصغيرة والكبيرة. لم نشترِ عنباً ولا شوكولاتة. اشترينا باكيت تين مجفف. فتحته سوز وناولتني تينة جيدة. أخذنا نأكل في الشارع ونحن نفعل مثلهم. وضعت سوز الباقي في جرابها لأنني قلت «اكتفيت».

(في سنوات معينة - سنوات منطبعة بحدِّ السكين في ذاكرتي وقلبي - كنا نعاني من الجوع الشديد والفقر - قيل حينها إن العالم كله كان يجتاز أزمة اقتصادية - غير أنه في حقيقة الأمر لم يكن العالم هو الذي يجتاز الأزمة - ولكن - العائلة - عائلتي أنا - لذلك كان أبي يعود بأي شيء يستطيع أن يملأ البطن حتى لو كان براز بعض الحيوانات - وكان من العسير والصعب العثور على الخبز - لم أكن أعرف شكل الخبز الحقيقي الذي أصبحت فيما بعد لا أعبَأ به وهو أمامي في مطاعم فخمة أو عادية - كنا نأكل أي شيء - نبات غرنينش مثلاً - أو الحميضة التي تخلط مع البقولة - باختصار نأكل أي شيء - أي شيء - ولا أدري كيف حصل لأبي ذاك المساء: أن أتى بكمية كبيرة من التين الجاف وضعته أمي أمامنا على الحصير - والتففنا أنا وإخوتي - بينما أبي يراقبنا من فوق - إذ كان قد شبع من

تناوله - وأصبح يتجشأ مثل حيوان غريب رأيته فيما بعد في حديقة عين السبع في الدار البيضاء - غير أن الليلة كانت سيئة للغاية - نمنا أنا وإخوتي في الكوخ - وأبي وأمي فوق السرير يطقطقان ويفعلان مثل باقي الحشرات الأخرى - ثم حدث ذلك الشيء الغريب - أصبح الكوخ القصديري مثل غرفة تنفست فيها البوتاغاز - وقف أبي - رأيته في الظلام يفعل ذلك - يفعل مثل الحشرات - قفز - أمسك بأختي وقال لأمي أن تشعل مصباح الغاز ففعلت على الفور - ثم أمسك بي من قفاي وأخرجني أنا وأختي من الكوخ وهو يزأر:

- يا أولاد.

قالت أمي: أكلا الكثير من التين.

- إذا أكلا فليذهبا ويتنفسا بحرية في بيت الخلاء.

- الليل والظلام شديد. لا تتركهما.

- ليس هذا شأنك يا قحـ...

أغلقت أمي فمها ولم نعد إلى البيت إلا بعد أربعة أيام لأن أبي منعنا من ذلك وهددنا بالقتل).

قلت لسوز «اكتفيت». فنظرت إليّ وهي تضحك ضحكة وادعة وبريئة:

- طيب. نأكله فيما بعد. أو نترك منه قليلاً لبيير (أخيها) ولاينا (صديقته). ثم ذهبنا نستعرض أنفسنا أمام علب الليل. سألت سوز إذا كانت تتوفر على نقود كافية ندخل بها إلى البايبرز. أخرجت على الفور ما بجيبها ثم قدمته لي فأحصيته. وأخرجت ما بجيبي ثم أحصيته. قلت بعد ذلك لسوز:

- هل ندخل؟

فكرت ملياً وهي مطأطئة. ثم حركت رأسها وحركت شعرها إلى الخلف وهي تقول:

- ندخل إلى البيت. يكون ذلك أفضل حتى بالنسبة إلى جيوبنا.

كانت سوز تسكن مع أخيها في عمارة خاصة. شرحت لي ونحن ندخل أن الشقة هي لأبيها الذي يشتغل طبيباً نفسانياً في الدانمارك، هناك في الجنوب، وأن هذه الشقة رهن إشارة أي واحد من العائلة. وقريباً - أضافت وهي تضحك - ستكون واحداً من العائلة وسيكون لك الحق في أن تصير الغرفة رهن إشارتك. شكرتها على ذلك وقلت لها إني متعب ويجب أن أستريح.

ذهبت وتمددت فوق سرير عادي. سمعتها تحدث ضوضاء وصوت أواني معدنية وفخارية يأتيني من المطبخ. ناديت على سوز. جاءت بسرعة وقالت إنها تهيئ شيئاً في المطبخ. كنت تعباً للغاية. ارتخيت وشعرت بهدوء وأمان لا مثيل لهما. حركت يدي إلى جهاز راديو فوق الكومودة. حاولت أن أفتش عن موسيقى هادئة لكني لم أعثر على شيء. أوقفت الجهاز وارتخيت. شعرت بدبيب النوم. وفي الصباح سمعت كلاماً فسعلت وفهمت سوز أني استيقظت.

وقفت وذهبت إلى الغرفة الثانية.

رأيت وجوهاً ثلاثة قالت كلها بصوت واحد:

- «جود مورنينغ».

- «جود مورنينغ».

(عندما سمعت صفيراً من خلفي التفتّ. وقفت إزاء المقهى وأخذت أفتش عن مصدر الصوت. ورأيت ذراعاً تلوح من بعيد. كان جالساً فوق حاجز حجري يفصل البناء عن السكة الحديدية التي تخترق طوري. انحدرت ذراعه ولم يكن وجهه يظهر لأن الشعر الطويل المنسدل على كتفيه يغطيه. لست أدري منذ متى لم يزر الحلاق.

مشيت ببطء شديد منهكاً من جرّاء الحرارة الشديدة. هناك ريح خفيفة تحرّك القميص المفتوح فوق جسدي. شعر جورج من بعيد يتحرك. يتحرك. يتحرك. قفزت فوق السكة الحديدية وصدمت بعض الأحجار الصغيرة الناتئة دون أن أراها. وعندما توقفت أمام جورج رفع رأسه ولاحت إحدى عينيه بينما الأخرى يغطيها شعر أملس كثيف.

كنت قد تعرفت على جورج وألان في أحد المقاهي المنتشرة هنا.. وبتدقيق، في المقهى الصغير ذي البابين الذي قدت إليه سوز أول الامر. كان ألان هو الذي كلّمني وسألني إذا كنت قد اجتزت البحر بلا جواز. تعجبت للسؤال. وعندما قلت إني أملك جواز سفر تعجب بدوره. إن الحصول على جواز - في نظره - مستحيل. لكن هناك طرقاً خاصة لعبور المضيق. وعندما قلت لهما إني لا أشتغل تبادلا الحوار وقال جورج على الفور:

- أنا أيضاً لا أفعل شيئاً. الأفضل أن تبقى معنا. شكلك مريح على الأقل.

عندما وقفت أمام جورج أشار إلي أن أجلس إلى جانبه فوق الحاجز الحجري. فعلت ببساطة وقابلته وجهاً لوجه. قال:

- لم ترَ ألان؟

- لا.

صمتنا قليلاً ثم قال وهو يقف:

- إلى أين؟

- كنتُ ذاهباً إلى المقهى.

فشدّ خيوط حذائه المهترئ فوق الحاجز الحجري وهو يقول:

- هيا ننزل إلى البلاج.

وافقت دون أدنى معارضة. اجتزنا السكة الحديدية وانحدرنا نحو المقهى الضيق الذي يمتلئ بالهيبي. وعندما وصلنا إلى المكان رأينا ألان يجلس مع فتاة. كان ظهره إلينا ووجهه إليها. توقف جورج برهة وأحنى رأسه. أخذ يفكر ملياً ثم قال:

- ما رأيك؟ نذهب ونجلس.

قلت:

- لم لا؟ ربما هي تعرف صديقات أخريات.

سحبنا كرسيين وجلسنا إلى جانب ألان والفتاة. قال ألان إنها إنجليزية. تعرفنا عليها وطلبنا زجاجتي كوكا كولا. انطلق جورج في الكلام معها بينما اجتاحتني موجة من الصمت. وزعت نظراتي على الكراسي الفارغة. كانت الضوضاء تأتي من الداخل. كلام بالإسبانية سريع. وأصوات مرتفعة كأنها تتخاصم أو تتراهن أمام لعبة مصارعة الثيران. أمام المقهى مكتبة. جاءتني فكرة أن أذهب لأتفرج على الكتب في الفترينة. لم أعتذر وذهبت إلى الفترينة وأخذت أتفرج على

الكتب. أسماء كتّاب غير معروفين. كتب بالإسبانية والإنجليزية ثم لا شيء آخر. ظللت أتفرج وأبحث لعلّي أعثر على عنوان بالفرنسية. حتى لو كان هناك فإني لا أستطيع اقتناء كتاب. ليس معي نقود ولا وقت للقراءة. ذهبت حتى رأس الشارع وعدت إلى المقهى. جلست منهمكاً دون أن أتكلم. كان جورج لا يزال مسيطراً على الموقف وهو يتحدث بالفرنسية إلى الفتاة التي لا تتقنها بل لا تعرف كلمة واحدة منها. التفت جورج إليّ وهو يقول:

- هل تتكلم الإنجليزية؟

- قليلاً.

- ترجم لنا.

أخذت أقوم بدور المترجم ورفعت الفتاة رأسها إليّ وأخذت تنظر إلى شعري الأسود المشعث وهي تستمع بانتباه. لم تكن تعير أدنى اهتمام لما يقوله جورج. كانت تستمع إليه وهي تنظر إليّ. وأدركت أن الفتاة لا تستمع إليه إلا مجاملة وأدرك ألان ذلك وقال إنها تريدني فابتسمت وبقيت أحاول نقل بعض الجمل من الفرنسية إلى الإنجليزية ومن الإنجليزية إلى الفرنسية. لكني توقفت عن القيام بهذا الدور وأصبحت أتكلم مباشرة معها. رفعت يدها وأخذت تبحث عن بعض الشعيرات البيضاء في رأسي وهي تضحك. قالت وهي تلتفت إلى جورج: «إنه عجوز» لكنه لم يفهم شيئاً وسألني ماذا قالت فترجمت له وبقيت أحاورها. قالت إنها تستدعينا جميعاً إلى الرقص فقلت لهما ذلك ووافقنا. وشكرناها مسبقاً. وقفت بعد ذلك وذهبت إلى موعد. ووقفت عند فترينة المكتبة وهي تقول: «نلتقي أين؟» فقلنا «في البايبرز».

قال ألان إنها جميلة وغنية وتحب الحياة وهي التي كلمته أولاً وقال جورج وهو ينظر إليّ:

- لم لا نسرقها؟

قلت: لا أوافق... إنها طيبة ولا تستحق ذلك. وقال جورج محتجاً: أنت لا تصلح لنا إذن. ماذا نأكل وبأي شيء نذهب إلى المرقص ونجلس في المقهى. إنها غنية وتستحق ذلك. كل الأغنياء يستحقون السرقة.. قمْ أنت باستدعائها للرقص وأنا سأهتم بالحقيبة عندما تسكر.

قال ألان: نأخذها إلى البلاج ونتعاقب عليها.

قال جورج: نحن من الأمام والعربي من..

قلت لجورج: هيه! هل تعتقد أني أبله. الفتاة لطيفة ولا تستحق ذلك.

قال ألان: إنك أكثر من أبله. وماذا يفعل العرب الذين في باريس؟

غضبت ووقفت. اتجهت إلى الفترينة وأخذت أتأمل العناوين من جديد. وسمعت جورج ينادي عليّ ولكني لم ألتفت. أحسست بكف توضع على كتفي. التفت فكان جورج. قال وهو يضحك:

- هل غضبت؟ إننا نمزح فقط.

أخذني من يدي إلى حيث كان ألان جالساً. وقال إنه كان يمازحني وإنه لم يكن يريد إغاظتي. كان على ذراع جورج وشم. عندما سألته عنه قال إنه وضعه في السجن، إذ قضى عامين في أحد السجون في باريس. فسألت جورج:

- لماذا دخلت السجن؟

- السرقة. أصبحت ثرياً ورب مرقصَين. سيارات فخمة ونساء كثيرات. لكن أمثال هذا - وأشار إلى ألان - هم الذين يفسدون ما يبنيه المرء بدهائه طول عمره.

كان قد قام بعملية سطو مع عصابة. وعندما تمّ حجز متاعه أطلق شعره وذهب إلى الدار البيضاء ليهرّب الكيف. لكنه لم ينجح في ذلك. وهناك التقى بألان الذي يثرثر كثيراً. قال جورج: «أعدى أعدائي هم الشرطة. عندما أحصل على سيارة أستطيع أن أقتل شرطياً أو شرطيين. شركة التأمين هي التي.تدفع». ثم قال باندفاع مشيراً إلى رجل: «انظر إلى هذا مثلاً. له رأس شرطي. انظر كم هو أبله وبليد».

لم نعلِّق بشيء على ما كان يقوله.

نظرتُ إلى ألان ثم قلت:

- تدفع ثمن الكوكا.

أدخل يده في جيبه وأخرج قطعاً من النقود المعدنية.

قال: طيب سأدفع. لم يبقَ معي أي شيء. قال لي: هل معك تذكرة العودة؟

قلت: نعم في الفندق.

- ما رأيك تعطيني التذكرة وسأذهب لأبيع هذا الخاتم الذهبي أو أستبدله بكمية من الكيف في سبتة.

- أستطيع أن أفعل. لكن المسألة غير مضمونة. ما هي الكمية التي ستحملها من الكيف؟

- 20 كيلو.

- وحرّاس الحدود؟

- لا يهمك. سآتي من طريق سبتة - طريفة. هناك مراكب كثيرة لهذا الغرض تهرّب كل شيء حتى السلاح. يجب أن تعرف أننا سنصير أغنياء إذا ما أعطيتني تذكرة العودة. إن السيجارة الواحدة المملوءة بالكيف تساوي 50 بسيطة.

التفت إليّ جورج على اعتبار أنه خبير في الميدان. نظر إليّ بعدم اكتراث ثم قال ساخراً من صديقه:

- لم يفعل هذا حتى عندما كنا نتوفر على نقود في طنجة. لا تهتم كثيراً بما يقول. درست المشروع من جميع الجوانب لكنه لم يؤدِّ إلى أية نتيجة حتى الآن.

- هل تريد أن تفعل مثل ذلك الأميركي الأبله الذي ضبطوه في مطار النواصر. كان من البلادة بحيث إنه دفع الحقائب مملوءة بخلاصة الكيف وكأن الحراس سيخجلون منه ولن يفتشوها. أمور مثل هذه لا تتم بتلك السهولة التي تتصور.

سكت ألان أمام جورج ولم يرد عليه. كانت له كامل الثقة بما يتلفظ به هذا الأخير. إنه خبير في السرقة. حتى أني أصبحت أسميه الرئيس فيما بعد. كان رئيساً حقاً. يفترق عنا وجيوبه فارغة. وعندما يستدعينا لنأكل ونشرب تكون امتلأت جيوبه بقدرة قادر. عندما أسأله يجيبني ببرودة دم:

- لا شيء. فتاة تعرفت عليها في أمستردام... إلخ.

أو: لا شيء. فتاة تعرف ابنة عمتي. التقيتها في البندقية في العام الماضي.

أو: لا شيء. فتاة التقيتها وقلت لها كذا وكذا فأعطتني هذا المبلغ.

وأدركت أنه قادر على جمع المال وتحصيله. وصدقت أنه كان بالفعل رب مرقصَين وعنده سيارات ونساء، وله قدرة خارقة على كسب المال. إنه مثل الطيور «تخرج خماصا لتعود بطانا». لا شيء في جيبه. ولكن بركة المسيح تملأه بالقطع النقدية من فئات متنوعة ومختلفة. وبسرعة فائقة نصير أغنياء ونذهب لنأخذ لنا مكاناً في مطعم متوسط. جورج دائماً صامت. لا يتكلم كثيراً. يتأمل الأشياء

والأحجار والناس وكل شيء بدهاء وصمت. لا يمكن تخمين ما يفكر فيه. وعلى العكس كان ألان. فهو يتحدث ويثرثر ويبني مشاريع وقصوراً هوائية لا وجود لها. تهبّ ريح بسيطة وتهوي القصور الكرتونية، لكنه يستمر في الحلم دائماً، لا يعير أدنى اهتمام للفشل السابق. يبني من جديد فيهوي كل شيء. القصور كثيرة ومتعددة، مختلفة الأجرام والأحجار والأشكال. لكنها، في الواقع غير موجودة (بالنسبة إليّ يحصل الشيء نفسه أحياناً - ابدأ في الحلم ولا أكاد أنهيه - أبني ولا أنظر حتى كيف يتهدم ما بنيت - ومع ذلك أستمر في البناء - تتكاثر القصور وتتعدد وتتضخم - يكثر فيها الحشم والخدم وتتنوع الحياة داخلها - لكن عندما ينهار كل شيء أنهار بدوري - وبلا سابق اعتبار - أبدأ من جديد لأنهار من جديد - بانهيار القصور الكرتونية - وعلى العكس مني - فألان يبني ويبقى دائماً يحلم - يعيد البناء - يهوي البناء فلا يهوي ألان - يظلّ واقفاً ويبني من جديد كالمعتوه - لذلك - فأنا أعتبره أقل نضجاً مني - من يدري؟ - ربما كنت أنا غير ناضج).

كان جورج صامتاً دائماً. يفكر في صمت ولا يشرك أحداً فيما يفكر فيه. يستمع أيضاً في صمت ويعلّق: «أية سفالة!» أو «شيء رائع!» أو «أي معتوه!». يعلّق بكلمات قصيرة لكنه لا يشرح لماذا أو كيف حدث هذا. يوجز كلامه في تلك الكلمات القليلة البسيطة، ويخرج كعادته دائماً أثناء الانفعال سيجارة بلا مصفاة يبدأ في تدخينها بهدوء شديد وبلا أدنى توتر. أما الآخر فهو يتحدث ويقول كل شيء. وعلى سبيل المثال لم أعرف شيئاً عن جورج سوى أنه لص قضى عامين في أحد سجون باريس. بينما الآخر، ألان، تحدث عن كل شيء، عن السابق وعن اللاحق. ويعزّز كلامه ببعض الصور الشمسية التي يخرجها من جيبه. كل ذلك وجورج يتأمل، يصمت، ينطوي،

ويعلق: «أي معتوه!» ويُخرج سيجارة بلا فلتر، غالباً من نوع سلطاس، ويبدأ في تدخينها بهدوء شديد ومثير بالنسبة إلى من يراه. وأحياناً كان يقول عن نفسه إنه واقف عند حدود الوهم.

عندما شرب ألان آخر جرعة من الكوكا كولا امتعض ورفع كفه إلى فمه. أثار انتباه جورج فنظر إليّ. قال جورج:

- الأسنان الملعونة أيضاً!

- هل تؤلمه؟

- نعم. فمه كله.

- عليه أن ينزعها.

- لا يمكن أن ينزع كل فمه. يحتاج إلى عملية جراحية.

أخذ ألان يتألم. ثم وقف ودار على نفسه. ذهب إلى داخل المقهى وعاد بماء ساخن. أخذ يشربه جرعة فجرعة. كان يفتح فمه بصعوبة لا حد لها. وعندما أتى على الكأس بأجمعها حاول أن يفتح فكيه ليلمس غطاء أسنانه اللحمي. هدأ من جديد ولمعت عيناه ببريق حيوي. نظرت إلى لحم أسنانه المائل إلى الزرقة وقلت:

- يجب أن تجري عملية كما قال جورج.

قال ألان وهو يقف:

- حدث ذلك في الدار البيضاء. اسأل جورج. كنا نقبّل معاً فتاة عربية وكانت تشكو من ألم في فمها.

وقف جورج وهو يهمس في أذني: «إنه معتوه! لا تسمع ما يقول».

وقفت بدوري وسرنا في الرواق المؤدي إلى الشارع المرتفع. مشينا بين الفترينات اللامعة النظيفة. أخرج جورج علبة سلطاس وناولني سيجارة رفضتها. أشعل لنفسه واحدة. التفت إلى ألان وهمس في أذنه. قال ألان:

- هل تأتي معنا؟
- أين؟
- سنذهب لنقيل وراء السور. أنا في حاجة إلى النوم.
- لا . . نلتقي في المساء.

قال جورج:

- سوف ننتظر الإنجليزية أمام البايبرز.

مددت لهما يدي. ورجعت منحدراً جهة البلاج من الناحية الشمالية. وعندما بلغت الحافة التي تطلّ على الأجساد المنتشرة أخرجت سيجارة وأشعلتها. تنفست بعمق. أيضاً، فكرت في سوز. وأيضاً، قررت أن أنزع ثيابي وأنزل لأستحم.

كانت النافذة مفتوحة. متران على مترين.

سمعت سوز في المطبخ تحدث ضوضاء وضجيجاً. تضرب الأواني بعضها ببعض وتغني. صوتها يأتيني واضحاً وبلا تشويش مثل موسيقى حزينة، كنائسية، جنائزية. لا مجال هنا للتحدث عن الجناز والأناشيد الكنسية والحزن. يتسرب ضوء مصباح من الخارج، ويمتزج بضوء مصباح من الداخل. تبدو الشرفة ذات ضوء قمري. بعض الأصص موضوعة بشكلٍ غير منتظم. كان كرسي خشبي وكرسي طويل آخر متجاورين في الشرفة ذات الإنارة القمرية. ذهبت جهة الكرسي الطويل ومددت قدمي، بحيث غادرتا الشرفة. صوت سوز لا يزال يأتيني كنائسياً حزيناً جنائزياً. ليس جنائزياً ولكنه دافئ وحزين. انحدرت الأصوات كلها في البحر وفي الخارج وداخل الغرفة وبقي صوت سوز مرتفعاً. انخفضت كل الأصوات حتى صوتي. ولم يبقَ أيّ صوت سوى صوت سوز.

دخلت عارية من المطبخ وجاءت إلى الشرفة. رأيت كل شيء. كنت عارياً فرأت كل شيء. أمسكنا أنفاسنا وفتحنا سيقاننا وتبادلنا بعض العواطف الصادقة التي لا شك فيها. بعد ذلك عادت سوز وهي تأكل حبة عنب. عوض أن تجلس عارية أمامي فوق الكرسي الخشبي جلست على فخذي. ارتعشت وقلت لسوز:

- سيصيبك زكام حاد.

بالفعل عندما مرّت أيام قليلة أصبحت سوز تسعل. قلت لنفسي إني نجوت من هذا الزكام الحادّ، لكنه فقط جاءني متأخراً. أغلقنا علينا الغرفة وبدأنا نسعل. اشترينا دواء وضحك منا بيير وضحكت لاينا. وذات صباح استيقظ بيير وقال: كنتما تسعلان بشكلٍ فظيع ليلة أمس. قلت: غير ممكن. قال: طبعاً لا يمكن أن تعرف لأنك كنت نائماً. ضحكت وقلت : من يدري؟ قال: اسأل لاينا. لم تتركانا ننام. هذه المرة يجب أن تتقن فعل الحب في الخفاء لا في الهواء الطلق. ضحكت سوز وقالت أنتما أيضاً تفعلان هكذا.

نظرت سوز في وجهي. ظلّت جالسة فوق فخذي ثم قالت في الأخير:

- إن الهواء حار، حتى في الليل، كيف يمكن أن نصاب بالزكام.

لكني في الأخير أقنعتها. وقفت وأطلَّت من الشرفة عارية. رأيت بعض الحراس وفكرت في باربارا. هنا لا يمكن للحارس أن يصعد. أعتقد أن بإمكانه أن يكتب تقريراً فظاً يصير بمقتضاه مربياً وفيلسوفاً ومصلحاً. وفي الغد، يأتي حارس آخر باسم السلطة ويسلم لنا ورقة تؤكد على العقوبة نظراً لانتهاك حرمة. . .

رأينا الحراس فعادت سوز وقبّلتني. قالت إن الحراس يشربون البيرة. دخلت إلى المطبخ وتركتني. رأيت رشاش الحارس موضوعاً على الحاجز الحجري الذي يفصل البحر عن النباتات وهو يشرب البيرة. فكرت أنه لو سكر الآن لأصبح في خبر كان. كان الحارس الثاني، في الواقع، ينظر إلى رشاش زميله فوق الحاجز. عيناه تتجولان في الفضاء الواسع المظلم فوق البحر. يستمع لاصطدامات الأمواج ولصوت البحر. سمعنا نفير سيارة بعيدة. تلاشى النفير

ووقفت سوز. مشت نحو الغرفة الثانية وقد شعرت أن الهواء البحري يبعث في جسدها القشعريرة والرعشة. أما أنا فلم أشعر بشيء. لقد شربت بما يكفي لرد برودة فصل شتاء كامل. ظللت في مكاني أتفرج على الحارسين. أدخلت قدميّ من وراء الشرفة عندما رأيت أصواتاً وظلالاً في ضوء حانوت البقالة الوحيد. وقفت وأخفيت نفسي داخل الغرفة. أغلقت زجاج النافذة وجذبت الستارة السوداء فوق زجاج النافذة. تمددت فوق الفراش ونظرت إلى صورة على الجدار. عادت سوز وقد ارتدت قميصاً. تركت القميص مفتوحاً عند الصدر فظهر نهداها الكبيران وتدليا.

قالت سوز:

- لماذا أغلقت النافذة؟

- الناس متجمعون تحت.

- ضع سروالك وافتح النافذة. الهواء شديد الحرارة الليلة.

- ليس حاراً ولا أي شيء. ولكنّا شربنا كثيراً.

جلست سوز إلى جانبي فوق السرير. كنت لا أزال عارياً وقد أغلقت زجاج النافذة. أحكمت الستارة السوداء. حاولت سوز عبثاً أن تقنعني بفتح النافذة. قلت إن الناس متجمعون وإن ذلك غير ممكن. قالت: لا يهم. قلت: كلا. شيء مهم.

وضعت يدي تحت إبطها وتحسست لحمها الطري الذي ينبض بحرارة صيفية قوية. لم تكن تضع السوتيان. نزعت القميص فلم تمانع. قالت سوز وهي تضحك بإغراء:

- ماذا تفعل؟

- لا يمكن أن تتفرجي عليّ. افعلي مثلي. أنا عريان فيجب أن تفعلي مثلي.

- أنت أناني.

- لست أنانياً ولا أي شيء. تفعلين مثلي حتى لا أشعر بعقدة.
- أنت غير معقد.
- حقاً. ما هو دليلك؟
- أنت تتعرى بحرية أمامي. أعتقد أن ليس كل الرجال يفعلون هذا.

صمتت سوز وتمددت إلى جانبي فوق حاشية السرير. أدركت أنها مشرفة على السقوط. تداركت الأمر وجذبتها. أحكمت شد يدي تحت ذراعيها، وسمعت موسيقى غريبة تنبعث من خلف النافذة. تحت عند دكان البقالة الوحيد. كان بجانب الدكان كراسي مبثوثة. جعل من هذا الجانب إفريز مقهى مطل على البحر. قالت سوز:

- هل تعرف من الذي يعزف؟
- لا.
- سويسرية ضخمة. إنها تغني جميع الأغاني الأميركية الشعبية. تتقنها إتقاناً بالغاً.
- يظهر ذلك. اسمعي جيداً صوتها.

صمتنا وأصخنا السمع للصوت المنبعث والموسيقى الغريبة. التقت أصابعنا وأخذنا نسمع فتحولت الموسيقى إلى صوت حشرات بدأت تقفز فوق بعضها البعض وتتهامس. انتشر الدفء في جسد الحشرات. أخذت الحشرات تفعل كل شيء مثل الإنسان على نغمات موسيقى خارج النافذة وراء ستائر سوداء وداخل غرفة تؤدي إلى غرفة أخرى ومطبخ. خلف الغرفة تأتينا موسيقى غريبة وكلام متشعب غير مفهوم. كلام غير أنه منخفض، وغير مفهوم إطلاقاً. وضعت سوز كل جسدها الآن تحت تصرفي. شعرت بالدفء والحرارة وكل شيء. أيضاً، الحرارة، المطلق، وكل شيء. وأيضاً، وكل شيء. وكل شيء. ثم وكل شيء.

صمتنا بهدوء. أخذنا نتنفس باستراحة المحاربين. شعرنا بالأمن في العالم. كان العالم كبيراً لكنه صغير تحت ملكنا. على الأقل، تحت ملكي الخاص. يمكنني أن أذهب أينما أشاء وأحل أينما أشاء. فلا أحد ولا شيء يمنعني. هذه إحدى اللحظات التي أشعر فيها بالرهبة وتتباطأ أنفاسي، تصير رتيبة. تتوالى بحرية وهدوء وعافية. أفقد التوتر وأعترف لنفسي أنها صارت حرة. تعيش حرية مطلقة عفوية. تتضخم حريتها وتنمو في الوقت الذي تسقط فيه كل العراقيل التي نمّاها الماضي، وولّدتها تجارب بسيطة ومعقدة في الوقت نفسه.

ظللنا ممدّدين جنباً إلى جنب. الموسيقى لا تزال تأتي. الصوت الدافئ يرتفع وينخفض. وأيضاً، كان هدير البحر يخترق زجاج النافذة والجدران والستائر السوداء وطبلة الأذن. لكن كل شيء كان يتضاءل أمام جلالة اللحظة وعظمتها. شعرت أن لمسة الجلد الإنساني كافية لأن تغير كل شيء. يصير العالم بمقتضى هذه اللمسة عالماً حقيقياً غير مزيف. فلطالما بحثت في اللحظات الإنسانية التي اكتشفت فيها الصدق. ولطالما فكرت وتساءلت إذا كان هؤلاء الناس من حولي يفكرون في الشيء نفسه، أم أن هذا العالم لا يهمهم في كثير أو قليل، أن يكون صادقاً، آمناً، هادئاً مثل الآن. مهما يكن، فإن الناس الذين التقيتهم في حياتي لم يكن يهمهم كل هذا. كانوا يحاولون أن يكشفوا عن أنفسهم من خلال القضاء على الآخرين، بل إنهم لم يكونوا يوفقون في الكشف عن أنفسهم لأن ذلك غير ممكن. لم أكن في يوم من الأيام مثل هؤلاء الناس. تتاح لي فرص كثيرة فأغتنمها وأستفيد من روعة العالم ودفئه وتناسقه. أتأمل دقائقه وجزئياته وأقف أمامها بخوف وتقدير مثل الآن. كل شيء في هذه اللحظة له وجود ضروري. أشعر بالتناسق في كل شيء لا بالتنافر. شعرت أن سوز، لا كأي امرأة أخرى، تعرف كيف تساهم في إعطاء

العالم الحنان والعذوبة والتناغم. وعلى العكس، فبعض النساء اللائي عرفتهن، كنّ يجعلن العالم يكشر في وجهي فأشعر بخوف وإرهاب. أتقلص وأنزوي وأصير مثل السلحفاة التي تدخل أعضاءها تحت غطائها تجنباً لشر خارجي. أنزوي مثل السلحفاة. أدخل زاوية في العالم. ألعن كل النساء وأكره العالم. أفتح لقلبي هوة سحيقة مؤدية إلى ظلام. وآمر قلبي أن ينظر بكل شجاعة داخل هذه الهوة، أن يقول لنفسه «ذاك مصيرك».

على العكس، الأصوات التي أسمعها الآن خارج الستائر السوداء متناسقة منعشة. لكن تلك الأصوات منخفضة بينما صوت سوز هادئ ودافئ.

شعرت بدبيب خفيف في عيني. ارتخيت فوق السرير. حركت يدي فلامست جسد سوز العاري. ارتعشت سوز. أَزَّ السرير وقالت سوز:

- قم لا تنم. ليس الآن وقت النوم.

ظللت مغمضاً عيني. أحلم بدفء عالم آخر اخترعته للتو. فتحت قدمي فتسرب برد خفيف بين فخذي. يسير مع الدم ويتحول في الجسم إلى شيء لا أستطيع تسميته. آلمني هذا البرد الخفيف وأنا أغمض عيني. حرّكت قدمي وتلاقت رجلاي فشعرت أن الهواء البارد اختفى لأنه لم يبقَ له هناك مكان لكي يتسرب منه. وضعت سوز إصبعها عند صرتي. دفعت إصبعها لتوقف حلمي اللانهائي بهدوء العالم وتناسقه. قالت وهي تدفع إصبعها في بطني:

- محمد. قم لا تنم. هذا ليس وقت النوم.

فتحت عيني وقد ذهبت الصورة. صورة العالم الكبير الواسع الآمن. نظرت إلى سوز وهي تبتسم عارية أمامي تحت ضوء المصباح. قلت في وجهها:

- أستريح فقط.

- هل كنت تحارب؟

ضحكت وأمسكت بيدها وجذبتها لتجلس مرة ثانية على حافة السرير. جلست وتلامسَ جسدانا فشعرنا بدفء جديد حي. قلت لسوز:

- أعتقد أنك لا تحبين الحروب؟

- لا أحبها.

- لماذا وضعت في ذهنك صورة محارب؟

قالت سوز وهي تحرك السرير:

- لكي أغيظك. أعرف أنك العربي الوحيد الذي يرفض الحروب.

- من قال لك ذلك؟

- استنتجته من كلامك السابق.

ضحكت منها فلم تغضب. غمرني دفء جسدها الخاص. توقف الصخب الذي انبعث لحظة بسيطة فقط، لحظة قصيرة لم تقس. لكن ظلَّ هناك الصوت المنبعث من كل مكان. ذهبت سوز ووقفت عارية عند باب الغرفة المؤدية إلى الغرفة وانحنت. ووضعت كفّها عند خشبة الباب فرأيتها من الخلف. قالت:

- تريد أن تشرب؟

- لا أدري.

- كيف؟

- لا أدري.

- هل تشرب شيئاً؟

- لا أدري إذا كانت لدي رغبة.

فتحت سوز ساقيها عند الباب وأحنت ظهرها. أخذت تحك

ساقيها بأظافرها. أغمضت عيني عندما رأيت الشق الكبير وأخذت أستعيد صورة العالم الذي بنيته قبل لحظة. عندما فتحت عيني كانت سوز قد اختفت وسمعت دندنات في الغرفة المجاورة. وقفت وقد وضعت قميص سوز فوق جسدي. مددت يدي وفتحت النافذة. ذهبت إلى الشرفة ومن زاويتها ألقيت نظراتي على الحارسين اللذين كانا لا يزالان يخطوان أمام ضوء البقالة. صوت السويسرية الضخمة كفَّ عن الإنشاد. غير أن موسيقى العالم لم تكف عن الاستمرار. كلام كثير منبعث خلف دكان البقالة. كان فتى وفتاة جالسين إلى طاولة في الجانب الذي يكوّن إفريز المقهى ويتهامسان. وضع الفتى الكأس في يده وأخذ يشرب. تخيلته يتلذذ في الشرب لأنني لم أكن أراه. كان جسماً موضوعاً هناك مليئاً بالمشاعر الذي لا يمكن أن أدركها. ربما أدركت الفتاة مشاعره، وأحسّت أنها قريبة من مشاعرها فقبلت أن تجلس إلى طاولته. وربما ذهبا بعد قليل إلى الأحراج القريبة المظلمة وفعلا مثلما تفعل الحشرات. ربما أيضاً دخلا إلى غرفة ما هنا وتعريا. أو ربما لن يتعريا. يكشفان فقط عن أجزاء من جسديهما. ينتشيان بعدها ويعودان ليشربا البيرة على الإفريز ويتبادلان الضحك والكلام مع الناس. وربما أيضاً يطلان على البحر من فوق الحاجز فيمنعهما الحارسان من ذلك، ويتمنيان لو أنهما فعلا الشيء نفسه الذي فعله زميلاهما ذات يوم مع باربارا. قلت: «الأنذال!». وسمعت صوت سوز لحظتها. أدرت وجهي فلم أرها داخل الغرفة. سمعت صوتها من جديد فدخلت. قالت سوز:

- أغلق النافذة أنا عريانة.

- ضعي شيئاً على جسدك.

ذهبتْ ووضعتْ سروالاً وقميصاً بسرعة. وجاءت بسروالي وقميصي وقالت:

- ضع هذا . .

أخذت أرتدي ثيابي في الوقت الذي كانت تسكب سوز الشاي في الفناجين. لاحظت غياب السكّر مرة أخرى قرب براد الشاي. قلت:

- مليون مرة قلت إني لا أشربه بلا سكّر.

- لا تغضب. سأحضر السكّر على الفور.

ذهبت وعادت بالسكّر. حملنا الفناجين وقطع الكعك إلى الشرفة. جلست قبالتي وأخذت تقرب الفنجان من شفتيها بحركات سريعة. تنظر إلى الشاي وتنظر إلى الشابين: الفتاة والفتى. قلت:

- حب كبير!

- إني أعرفهما. ليس حباً ولا أي شيء. هما في طور الإعجاب.

كنا نرشف الشاي الأسود وننظر جهة البحر والضوء والفيلات البعيدة التي تظهر أضواؤها على مرتفعات على طول ساحل الشمس. سمعنا المفاتيح تُدار في ثقب الباب. نظرت في وجه سوز ففهمنا كل شيء. قالت: «بيير ولاينا».

صمتّ ورشفت الشاي. نظرت إلى البعيد. حاولت أن أرى الماء وزرقته. لكن الظلام وضع حداً فاصلاً لكل الألوان. صارت كلها رمادية أو سوداء. حتى البيضاء منها فقدت نصاعتها. صاح بيير بصوته الجهوري من الغرفة الثانية:

- سوز.

- بيير.

سمعت حواراً يدور بينهما باللغة الدانماركية لكني لم أفهم شيئاً. سمعت أيضاً صوت لانيا ويبدو أنها تدخلت للرد على سوز أو لإتمام وشرح ما قاله بيير. سمعت سوز تقول كلاماً.

- . . . . . . محمد . . . . . .

فهمت أنها تتحدث عني. سمعت بيير يثرثر:

. . . . . . محمد . . . . . . محمد . . . . . . مح . . .

قالت: كانا في طوري. قال بيير إنه كان يود أن يأخذني وإياك معهما. ذهبا إلى مقهى بيدروس. شربا ويسكي وتذكرانا.

صمتُّ ولم أعلِّق. استمررت في رشف الشاي من الفنجان. سمعت لانيا من الغرفة الثانية أيضاً تتكلم موجهة حديثها إليّ على ما أظن، لا إلى سوز. أصغت سوز ثم قالت كلاماً لم أفهمه. انخفضت الأصوات وسمعنا الباب يغلق. نظرت سوز من تحت نظارتيها الكبيرتين إلى وجهي. قرّبت الفنجان من شفتيها. رشفت جرعة ووضعت الفنجان فوق الصحن. قالت سوز:

- اشرب. سنتبعهما إلى تحت. نذهب إلى البقالة. نشرب قليلاً من البيرة ونتحدث إلى بعض الناس.

- هل فعل بيير ولاينا ذلك؟

- نعم. نزلا إلى تحت. قالت لاينا إذا كنا نريد أن نتبعهما فهما ينتظراننا على الإفريز. وافقت بهزة من رأسي. كنت أتيت على الفنجان بأكمله ولم يبقَ في قاعه سوى بعض وريقات أو بقايا وريقات اسودّت بفعل النار كما أعتقد. نظرت في القاع بتأمل فبدت الوريقات المفتولة مثل حشرات صغيرة سوداء، أو مثل براز الفئران في زاوية من البيت. كانت الوريقات ذات اللون القريب من الأسود قليلة (شيء طبيعي ذاك - لأن البراد صغير - ذو أنبوب صغير - تتسرب منه كل تلك الوريقات الغليظة - على العكس من ذلك - فالبراد الفضي الذي كان يستعمله أبي يطلق من أنبوبه كل شيء: الشاي مخلوطاً بالماء - والشاي بشكل وريقات). قلت لسوز: «وريقات صغيرة». وأشرت إلى قاع الفنجان.

- نعم، قالت.

- ليس مثل الشاي الأخضر عندنا، قلت.

- نعم. هل تحبه؟ نشتريه غداً.

نظرت في قاع الفنجان وقتاً طويلاً. تأملت براز الفئران في زاوية ما من البيت، أو في قاع الفنجان. وبدأت أتخيل أشياء كثيرة متنوعة، مجردة وملموسة.

وعندما انتصبت في الشرفة ورسمت الصليب، رأيت بيير ولاينا. قررت أن أنزل فقلت ذلك لسوز. نزلنا ومشينا تحت سقيفة العمارة. مشينا فوق طريق طويل مسفلت ثم صارت أقدامنا ملفوفة وسط الرمل. تخيلته أيضاً بارداً، ثلجاً، صقيعاً. الليلة جميلة ذات هواء رائع. آه، لكن المكان غير المكان. ففجأة يمكن أن يبرز اثنان ويفعلان مثلما فعل ذانك الآخران بباربارا: يبسطان ضوء بطاريتهما بين فخذيها. وربما قد لا يفعلان، بل يكتفيان في الظلام بالتعاقب عليها حتى ينتشيا.

سرنا وسط الرمل البارد في باطني، المعتدل الحرارة في الواقع. كنا ننقل أقدامنا بصعوبة. وعندما أصبحنا وسط الطاولات المعروضة في جناح من البقالة بين المتجر والحاجز الحجري أصبحت الأرض صلبة، واستوت فوقها الكراسي والطاولات وبعض الرؤوس الآدمية التي تتدارس مشاريع الحب، والسفر، والسعادة. رأينا بيير ولاينا في الجهة الأخرى. ذهبنا أمام المتجر وطلبنا بيرتين على الإفريز. ضحكت الإسبانية الصغيرة في وجه سوز وتكلمت معها بسرعة لغة لم أفهمها. ذهبنا إلى الإفريز وقلت لسوز:

- ننادي على بيير ولاينا.

- سوف يأتيان.

- أين السويسرية الغليظة؟

- لا أدري.

وضعت البيرتان وجاء بيير ولاينا. جلسنا إلى طاولة واحدة قرب الحاجز الحجري الذي يفصلنا عن البحر. كان الحارسان قد اختفيا ولم يظهر سوى قبعتيهما من خلف الحاجز. شعرت بانشراح وريح خفيفة تهب. رشفت البيرة ودغدغ حببها شفتيّ ببرودة ناعمة. برودة قاتلة ملساء كجلد الحية. تقززت عندما تصورت حية ملساء تقفز وتلدغني. إني كثير الخيال. هدأت أعصابي وحاولت أن أمحو صورة الحية القصيرة الملساء. امّحت الصورة لكن ظهر الحارسان من الجهة الأخرى يتمشيان بلا رغبة في المشي. لم أتمكن جيداً من رؤية وجهيهما. رأيت وجهين تحت القبعتين بلا ملامح. لكنهما فيما يبدو وجهان شريران. تخيلت أيضاً باربارا. ظهرت من جديد البطاريتان. ظهر الضوء بين فخذيها. بدأ الشريران يتعاقبان عليها. لم أستطع احتمال تلك الصورة.. أغمضت عيني وبدأت أتقزز. سمعت سوز تكلمني:

- هل تنام؟
- لا.
- عيناك مغمضتان.
- أغمضتهما فقط.
- لا تنم.

ضحكت وأخذت الكأس وقرّبتها من شفتي. شعرت أن الحبب اختفى من حفافي الكأس. الهواء رائع والكلام كثير. البحر يهدر والحشرات تقفز. وضعت يدي فوق فخذ سوز، ثم قربتهما قليلاً وأخذت أحلم في صمت دون أن أتكلم.

تحت السقيفة المنحدرة بشكلٍ هرمي تألفت مجموعة من الأزهار قبالتي. امرأة بدينة تحرس مجموعة الأزهار أمام بيتها. تمتد دوائر خيالية من الرماد، تخرج من مكان لامرئي. المرأة تقف أمام الأزهار وتحدّق إليّ. يا إلهي! ذاك مجرد حلم. رأيت سوز وقد صارت بدينة أكثر من اللازم. ورأيت الأزهار والسقيفة المنحدرة بشكلٍ هرمي. لا أتذكر أحلام النوم ولا أحلام اليقظة حتى لو تذكرت الآن ما عساي أن أفعل؟ لماذا بالذات تقف سوز وقد لوت شفتيها أمامي تحت السقيفة؟ والأزهار؟ ماذا تعني؟ والشكل الهرمي؟ لا أعرف. كلها أشياء غامضة بالنسبة إليّ. ولكنها، مع ذلك، تفرحني وتبعث في قلبي المسرّة. سوز إذن، لو أتيح لي تفسير الحلم (أي المرأة البدينة) هي زوجتي. والأزهار الجميلة المتفتحة تحت السقيفة الهرمية هي أولادي. لكن أنا؟ ما محلي من الإعراب؟ لا أتذكر أين كنت؟ أجالس أنا؟ في مقهى؟ على الرصيف؟ أمام مرحاض؟ على عتبة البيت؟ لا أتذكر. كنت موجوداً أثناء الحلم وكفى. كنت موجوداً، وأيضاً المرأة التي تشبه سوز، المرأة البدينة التي تلوي شفتيها بلا مبالاة وتنظر إلى الأزهار. لم تكلمني بادئ الأمر. ولكني من أعماق آلامي تحدثت إليها مثلما تحدث موسى إلى الرب. كنت منتفخاً مثلما يتحدث الأنبياء في لحظات الزهو

والغرور. انتفخت فصرت مثل المنطاد. وحلّقت بعيداً وتحدثت إلى المرأة البدينة. ذهبت ولامست زهرة من زهراتها. لوت شفتيها أكثر لكنها لم تتكلم. ثم عدت إلى مكاني وتربعت. جلست مثل بوذا، أو مثلما يجلس الناس عادة في بلادي لتناول الطعام أو لشرب الشاي، تحت الأشجار أو في باحة البيوت التقليدية في عز الصيف:

المرأة - من أنت؟

أنا - رجل، إنسان. لكن أحاول أن أصير إلهاً. هل هذا ممكن؟

المرأة - إن الألوهية شيء صعب وعسير على أمثالك. انظر هذه الأزهار مثلاً. كانت آلهة فصارت أزهاراً. الآلهة تتحول إلى شيء بينما الأشياء لا تتحول إلى آلهة.

أنا - (تربعت جيداً، وضعت كفي على ركبتي وقلت) أيتها المرأة البدينة. وأنت، من أنت؟

المرأة - أنا سوز، امرأة من الدانمارك. عندنا قصور قديمة مليئة بالجرذان والسحر والتعاويذ وقد جئت لأنقذك.

أنا - وهل هذا ممكن؟ لقد رغبت في أن أصير إلهاً فقلت إن ذلك مستحيل.

المرأة - نعم.

أنا - وما هو هذا الشيء غير المستحيل؟

المرأة - تطلب شيئاً آخر. كأن تتحول إلى زهرة، كأن تتزوجني.

فكرت ملياً. يا إلهي! ما هذه الحيرة والعطالة في دماغي. إن ساعة الاختيار قد حلّت. ما هي إلا فرصة واحدة تتاح في العمر كله. وأنا؟ من أي جنس أنا؟ عربي. ما لكل العرب تتحقق فرص

مثل هذه. لماذا لا أصير زهرة؟ ولماذا لا أتزوج المرأة البدينة التي يمكن أن تساعدني على أن أصير إلهاً. إن الألوهية والنبوءة لا تتحققان لكل البشر. أو، على الأقل، أصير زهرة لا أحقد ولا أفكر ولا أتألم. ولكن أضع عطراً رائعاً.

حرّكت قدميّ وتذكرت كل ماضيّ السيّئ الذي عشته واحداً مثل الملايين في قرى قذرة منتشرة في جبال الأطلس أو جبال الريف أو سهول الشاوية أو صحراء طنطان المترامية. وتذكرت صوت آلامي الكثيرة التي قصمت ظهري الضعيف. الآن وجدت الحل. امرأة بدينة تحبني وتنقذني من هذه الورطة الصعبة التي تتخبط فيها أوهامي وأحلامي. كانت المرأة البدينة (سوز) لا تزال واقفة تحت السقف الهرمي قبالة الأزهار المتفتحة ذات الرائحة النفاذة العميقة. ثم فتحت فمي لأتكلم. وتغلبت على كل المصاعب اللغوية. وصار العي الذي عقد لساني شيئاً وهمياً فقط.

المرأة - لماذا سكتّ؟ وفيمَ تفكر؟

أنا - أفكر في مصيري الأبدي. لم تعطني ضمانة ولم تقولي من أنت. جنسيتك غير كافية. فالجنس البشري في نظري واحد. والحواجز وحرّاس الحدود، كل هؤلاء لا يعنون بالنسبة إليّ شيئاً.

المرأة - طيب. سأقول لك، لكن من أنت بدورك؟

أنا - عربي. وإذا أردت أن تعرفي شيئاً آخر فاسألي وسأحاول أن أجيب بما فيه الإيضاح.

المرأة - لماذا بالضبط تريد أن تصير إلهاً؟

أنا - لأن اللّه له قيمة.

المرأة - هل لا يزال اللّه حياً عندكم؟

أنا - نعم. وفي كل مكان. هو معنا أينما كنا.

المرأة - في السجن؟ وفي السعادة؟ وفي الشقاء؟

أنا - نعم. حتى في الحرب والسلم وفي البرلمان وفي الأزقة وفي كل مكان.

المرأة - شيء غريب.

أنا - ليس غريباً ولا أي شيء. هل أدركت الآن كم هو مفيد أن يصير الإنسان إلهاً عندنا؟

المرأة - والأزهار؟ ماذا تفعلون بها؟

أنا - نحن شعب لا يحب الأزهار. نحب السياط ونحب اللّه.

المرأة - أمر غريب. أنت لا تصلح لأن تصير زهرة بل أسداً مفترساً أو زوجاً.

أنا - بما أني ضعيف البنية، قليل الجرأة، فلا يمكنني أن أصير أسداً سأصير زوجاً، وزوجاً لك.

ابتسمت المرأة البدينة وتمشت تحت السقيفة الهرمية الشكل. ذهبت إلى مجموعة الأزهار التي بدأت تحركها ريح خفيفة. لامست المرأة البدينة إحدى الزهرات الجميلة وأدارت وجهها إلى الجانب الأيمن ولم تحاول أن تنظر إليّ. أما أنا فحرّكت قدميّ تحت ثقل جسمي وجدّدت الجلسة البوذية، وأخذت أتأمل في الأزهار والمرأة. وأصاب لساني عي وحصر فلم أستطع الكلام وتوقفت رئتاي عن التنفس ومع ذلك لم أمت. استمررت في الحياة، جالساً متربعاً على شيء. لا أتذكر أكنت جالساً على حجر أم على الرصيف أم على كرسي. لم أكن أشعر بما تحتي. أغلب الظن أنها الأرض. أدارت المرأة في ذلك الوقت وجهها.

المرأة - طلبت وسألبّي رغباتك. لكن أعلم أن هذا مجرد حلم. إنك تحلم فقط. وأيضاً، سألبّي رغبتك في الحلم.

أنا - المهم أن تحققي رغباتي.

المرأة - لا عليك.

أنا - شكراً . . الحلم أو اليقظة عندي سيّان.

المرأة - هذا شيء غير مهم.

ثم ابتعدت من الأزهار وأمرتني أن أقف وأن أقترب منها تحت السقيفة الهرمية الشكل. وقفت بصعوبة ومشيت إلى جانبها. ثم قالت يجب أن أبتعد عنها قليلاً لأترك لها حرية الاختيار. ففعلت ووقفت في الجهة الأخرى من الرصيف قبالة الأزهار. فتحت سوز قميصها عن صدرها وألقت به تحت قدميها. فتحت أيضاً أزرار بنطلونها وألقت به تحت قدميها. أزاحت كل شيء وظلّت عارية. ظللت أنظر إليها كأني لم أكن رجلاً. فلم تستيقظ أعضائي ولم تتفتح الرغبة لدي في شيء، بل نظرت إليها بتعجب.

المرأة - تعال اقترب مني.

أنا - لماذا؟

المرأة - لتضاجعني.

أنا - فعلت في السابق.

المرأة - أعرف ذلك. افعل أيضاً. تعال وضاجعني حتى تتحقق كل رغباتك.

أنا - وهل ذلك ضروري؟

المرأة - بالنسبة إلى الحياة لا بالنسبة إليّ وإليك.

أنا - هل تحتاج الحياة إلى مضاجعة؟

المرأة - نعم، فهمت كل شيء إذن.

اقتربت منها وأمرتني أن أنزع ثيابي. لامست جسدها بيدي فلم ترتعش كأننا لسنا رجلاً وامرأة وحدهما في خلوة. لكن المرأة البدينة ذهبت عارية قرب الأزهار. اقتربتْ منها وقطفت واحدة وعادت بها لتقول:

المرأة - شمّ هذه الزهرة.

أنا - هل هذا أيضاً ضروري؟

المرأة - نعم، بالنسبة إلى الحياة لا بالنسبة إليّ وإليك.

أنا - سأفعل.

شممت الزهرة، وعندما فعلت ضربتني المرأة البدينة على كتفي وقالت: أنت منذ الآن زوجي. حققت رغباتك. والآن تعال لننام مثلما يفعل باقي الناس في أنحاء الدنيا.

يا إلهي! هل كان ذلك مجرد حلم؟ لا أعلم. كنت صامتاً كحجر، كهواء. لم أعد أفهم نفسي بالقدر الذي يفهم به الناس أنفسهم. لم أكن أعرف ما الفرق بين الحلم واليقظة. الوهم هو ديدني، والصمت هو ديدني. لست قادراً على تحمّل وهم الأحلام.

ورأيت سوز هذه المرة في اليقظة لا في الحلم. أمسكتها من ذراعها ونحن نمشي على رمل الشاطئ في الليل. وقلت لسوز:

- هل تحبين أن نمشي هكذا على طول الشاطئ؟

قالت سوز وهي تبتسم في وجهي:

- ولم لا. الجو ليس حاراً. ومنظر البحر مغرٍ. لنستمع إلى وقع خطواتنا.

قلت:

- إنك رومانسية.

- هذه تهمتي لك. لا تعدها إليّ.

ضحكنا وتعانقنا وسمعنا الحشرات وسط أشجار قريبة من رمل الشاطئ تحدث أصواتاً غريبة ولم نحاول أن نفعل مثلها لصعوبة الموقف. قبّلت سوز قبلة منعشة. شعرت بلسانها يخترق فمي ويتحرك داخله. مشينا قليلاً في الرمل وشعرنا بموسيقى العالم تتوالى في كل شيء. توقفت عند حافة الماء وقلت لسوز:

- الأحسن أن نعود. الحراس هناك.

- ذلك أفضل. لكن الأحسن ألا تخاف أكثر.

- لا أخاف. ولكنهم هناك.

وعدنا متعانقين في الرمل على حافة الماء نستمع لموسيقى العالم وحركة الحشرات وحفيف أوراق الغابة. وأيضاً، ننظر إلى تلك الأضواء القريبة والبعيدة. أحياناً، يحصل لي ألا أفرّق بين الحلم واليقظة. ولا أعلم إذا كان ذلك شيئاً مهماً أم لا. وأتساءل: ما هو المهم في حياتي؟ لا أعلم. إنني أعيش لأنني هكذا. بلا فلسفة. وقد تكون اللامبالاة طابع تفكيري. لكني لا أعي شيئاً سوى دفء العالم أحياناً.

مشينا دون أن نتكلم. شعرت أن الرمل تحت قدميّ لا يشبه رمل شواطئ الوطن. حتى الهواء كان غريباً إلى حدّ الجنون. حتى حركات انخفاض وصعود الرئتين في القفص الصدري تغيرت. صارت ذات نسق آخر حي. في السابق كان كل شيء رتيباً. كنت أشمّ الهواء وأشعر بقيود حديدية تكبلني. الآن، ورغم الخوف الهائل الذي يختفي وراء أحلامي، شعرت بالحرية.

عندما رأيت الأشجار القريبة منّا، وعندما رأيت الظلمة الخفيفة توقفت لحظة. وكانت سوز قد مشت عند حافة الماء وقد نزعت قبقابيها الجلديين. ورأيت قدميها تلمعان عند نهاية تكسر الأمواج في الظلام الخفيف. نقلت عيني من الأشجار إلى سوز ومن سوز إلى الأشجار. كانت قدماي تغوصان في رمل ناعم. توقفت وقلت لسوز: «سوزان». توقفت سوز ولم تلتفت إليّ ولكنها نظرت في الماء والضوء القريب. ثم التفتت إليّ:

- نعم.

- تعالي.

- لماذا؟ هل عثرت على شيء؟

- لا. تعالي.

ثم مشت نحوي. نزعت نظارتيها الكبيرتين ووقفت أمامي حتى غطت منطقة الضوء عند البقالة. قلت:

- نذهب إلى الأشجار.

- فكرة جميلة. ألم تعد تخاف العَسَس؟

- لا.

- إنهم هناك. انظر، بيير ولاينا يكونان قد صعدا أو أنهما ذهبا إلى نادٍ ليلي «نايتكلوب».

- تعالي أولاً. نذهب ونستريح في الغابة.

- الليل جميل بين الأشجار في هذا الوقت.

- نعم. أحب ذلك خصوصاً إذا لم يهددنا العَسَس.

- لا تخف أكثر أرجوك. خذْ كامل حريتك وتصرف كما لو كانت إسبانيا كلها لك وحدك. أخذنا نضحك وأمسكت سوز بكفّها فعرقت في كفّي. كانت كفّها كثيرة الشحم، رائعة الملمس. وكانت لها أيضاً رائحة الليل في الصيف. وعندما دخلنا وسط الأشجار القريبة من الماء رأينا فتى وفتاة في الظلام وقد استلقيا أرضاً. قالت سوز إنها تعرفهما. وعندما رأينا الفتى والفتاة يتضاجعان على مرأى منا، لم نخف فتضاجعنا نحن أيضاً. وأنجزنا العملية بسرعة فائقة كما لو كنا مطاردين أو محكوماً علينا بالموت.

قالت سوز بعد أن انتهينا:

- أنت لا تشبع مني.

- لا.

- وأنا أيضاً. جسدك دافئ.

- غير صحيح.

- أقسم لك.

- بماذا؟

سبقتها إلى الرمل ومشينا نحو البقالة. كان العَسَس يحرسون البحر قرب البقالة. في الواقع لم يكونوا يفعلون شيئاً من ذلك. ولكنهم كانوا يحرسون الفتيات والنساء السائحات القادمات من شمال أوروبا طلباً لدفء الرجال والطبيعة. وعندما وصلت إلى البقالة طلبت بيرة باردة فشربتها بلهفة. كانت صورة المغني أنطونيو سيفيليا معلقة بالباب. تأملتها قليلاً والتفتّ أبحث عن سوز. كانت خلفي وفي يدها قبقاباها الجلديان. طلبت بيرة هي الأخرى. دفعت ثمن البيرتين وصعدنا إلى الغرفة لننام منهكين دون أن يكون في إمكاننا الاستماع لأي شيء.

رشفت من زجاجة طونيك بالليمون وأعدت الكأس إلى مكانها. انطلقت طوري من عقالها. بدأت الأصوات النسائية المعتادة ترتفع وتتشابك. الرجال والنساء، والنساء والرجال. شعرت أنني واحد منهم في هذه اللحظة بالذات. شعور لم يكن عندي أبداً في السابق. الآن فكرت في شيء. كل واحد مثلي مهاجر، سائح، أو لص، أو لوطي. أنا مهاجر، نفسياً وكل شيء. لم يكن عندي شعور بالاستقرار أو بالأهمية. لكن، مع ذلك، أنا واحد منهم. رؤوسهم تختلف عن الأسود. هناك أيضاً رؤوس سوداء من البحر الأبيض. أمس تصفحت صحيفة فرنسية. قالت الصحيفة إن الفتيات الشماليات يجتزن دولاً كثيرة للوصول إلى إسبانيا أو شمال أفريقيا من أجل الرجال. تخيلت أن كل الرجال يمشون مطأطئي الرأس في شمال أوروبا دون أن يكلفوا أنفسهم عناء النظر إلى النساء المتعريات في الثياب القصيرة الكاشفة. وتخيلتهم أيضاً يضعون أكفهم على أعضائهم لحفظها من وباء النساء. الصورة مكتملة في ذهني الآن: نساء متلهفات ورجال انحنت رؤوسهم وتدلت أذرعهم تحمي شيئاً ثميناً. فكرت لحظتها في سوز. إنها لا تشبههن. كان الرجال والنساء يتزاحمون.. كنت جالساً أرشف ما تبقى من طونيك. وكان الثلاثة إلى جانبي يتحدثون في أمور لم تكن تهمني.

قال جورج: إسبانيا ليست للإسبانيين.

وقال ألان: صحيح. انظر على طول الشواطئ تجد القصور الفخمة للعجزة الأميركان أو الإنجليز.

قال جورج: الإسباني قوّاد أو لص بناء.

سمعت الحوار كله والتفتّ إلى جورج: «أوه، لا تقل هذا».

- هل أنت إسباني؟

- لكن غير معقول. إنهم رجال حقيقيون.

- يظهر ذلك.

صمتُّ ولم أحاول أن أستمر في الحوار. التفت جورج إلى ألان وأخذ يحاوره. استأنفا الكلام عن إسبانيا هل هي للإسبانيين حقاً أم لا؟

كانت الكراسي الحمراء قد ازدحمت على إفريز مقهى بيدروس. وازدحم فوق الكراسي رهط من الناس يتكلم لغة غريبة. وتذكرت بلا سبب رواية كنت قد قرأتها وأنا صغير لبيير بول، عنوانها **كوكب القرود** وتخيلت أن كل الناس الآن قرود لأنهم لا يستطيعون أن يفهموا بعضهم البعض إلا بالحركات. التفتُّ إلى جورج وقلت: «جورج!»

- نعم.

- هل تعرف بيير بول؟

- لا.

قال ألان: «ممثل؟»

قلت: «لا، كاتب».

ثم استأنفا الحديث دون أن يهتما بي. واستأنفت الشرود والتأمل. الكراسي الحمراء مزدحمة وليس هناك كرسي فارغ. أيضاً، ليس هناك مكان فارغ للوقوف بالنسبة إلى أي كان في الطريق. يجب

أن تسير مع هذا التيار أو أن تعود مع ذاك. بعد لحظات تفتح أبواب بيدروس السرية مثل قصر أسطوري. وبعد لحظات ستنطلق الموسيقى من جوف الأرض، وسيخف الازدحام، وسيتدحرج الناس إلى تحت في الأقبية لكي يرقصوا فرحة الإنسانية رغم أنهم لا يتفاهمون. بعد لحظات كذلك سيضبط البوليس شاباً إسبانياً أو مغربياً وراء مؤخرة عجوز أوروبي في مرحاض داخل مرقص.

نظرت بكل إحساسي إلى أذني ألان اللتين ظهرتا لي مثل غلاصم السمك البوري. إني كثير الخيال وتخيلته سمكة تضرب بذيلها ماء النهر العكر فيطير في الهواء ويستقر في النهاية ليعاود مجراه إلى حيث لا يدري أحد. وبدأت أفكر طويلاً: يسير النهر بسرعة أو ببطء، يسير ويسير بأسماكه وأوحاله ويعسوبه وهوائه وكل شيء إلى حيث لا يدري أحد. ولكن بوضوح، يسير نحو البحر فيختلط به، يتبخر من جديد فيطير إلى السماء، ينزل إلى الأرض ويعود إلى النهر، وأيضاً تتكرر العملية من جديد: البحر - النهر - البخار - السماء - البحر النهر السماء البحر النهر البخار... إلخ. وعندما تخيلت هذه العملية المعقدة واختلطت في ذهني هذه الكلمات شعرت بدوار حقيقي مفاجئ وشعرت بدوخة فرشفت رشفة طونيك. وحاولت أن أخرج نفسي من عزلتي. وتكلمت إلى جورج وألان، وازدحم الناس بكثرة في جيئة ورواح. وبديهي أني لست وسطهم في هذه الظروف الحرجة التي أُعاني منها في العمق. العمق الذي لا يدركه أحد غيري. وكان الضجيج قد ازداد حولنا وامتلأت الكراسي واصطفّت الزجاجات الفارغة والملأى بكثرة فوق الطاولات القابعة على إفريز بيدروس. وعندما صارت أمامي فجوة، إذ تفرق الناس قليلاً في الشارع، رأيت من الجانب الآخر باباً لمرقص وفوقه «ويسكي آغوغو» ولاحظ ألان أنني أنظر إلى مكان

معيّن ففعل مثلي. فتح فمه وتكلم:
- هل نذهب إليه هذا المساء؟
- اسأل الرئيس، قلت. وكنت أعني جورج طبعاً.
قال جورج وقد سمعني رغم أن وجهه وانتباهه كانا إلى الناحية الأخرى:
- لا نعرف ما في تلك العلبة.
- أناس بطبيعة الحال. لا أبقار ولا حلزونات.
- أعرف ذلك. لكن هل هناك ما يمكن إفادته بالمغامرة في الدخول وقضاء ليلة بأكملها هناك.
- كل شيء ممكن في أي مكان.
- حقاً؟
- نعم.
- أنا لا أغامر بليلة من أجل لا شيء. نلتقي في البايبرز.
- كما تريدان.
ثم كففت عن الكلام وعدت إلى الشرود من جديد. واستمرت الحكاية نفسها: الغادون والرائحون من كل جنس. لكن رؤوسهم في الأغلب الأعم شقراء وسحناتهم تختلف عن سحنتي. وجوه يبدو عليها أنها من تاريخ غير تاريخي، ومن منطقة مهما قيل عنها فهي ليست منطقتي. ثم عاد خيالي إلى نشاطه. وتصورت من جديد أن لهؤلاء الناس غلاصم مثلما للأسماك. وتخيلت هذه الأسماك مربوطة من غلاصمها إلى حبل. كانت الصورة مضحكة ودرامية في الوقت نفسه. وكان الناس لا يزالون يختلفون إلى المقهى ويغادرونه ونحن جلوس دون حتى أن نتحرك. لكن جورج قال لي:
- محمد، ماذا تفعل؟
- لا أعرف.

- هل تبقى هنا؟
- لا أعرف.
- تعال نقوم بجولة مع ألان.
- لا أعرف.
- أنت أجهل من تلميذ بليد. ابقَ هنا.

قال جورج ذلك ثم وقف وذهب ألان ليدفع عني وعن جورج وبقيت وحدي جالساً فجاء شخصان وطلبا أن يجلسا إلى طاولتي لأن كل الكراسي عامرة. وافقت برأسي وعندما أتى النادل وقفت وانصرفت في الاتجاه المعاكس الذي سار فيه ألان وجورج. مشيت وسط الناس، ومررت بالقرب من «ويسكي آغوغو» وقررت أن أسير نحو لاس بالوماس لأشتري سندويشاً رخيصاً من تلك المتاجر الضيقة المظلمة. كان بي جوع كثير: جوع كثير له آلام. ولم تكن نقودي القليلة تسمح لي أن أتناول طعامي في مطعم أو وسط طوري. فالأجانب الأغنياء من الأميركيين والألمان والإنجليز والهولنديين يدفعون دون حتى أن ينظروا إلى ما في أيديهم من فئات نقدية. وعندما يتسلمها الإسباني يقفز فرحاً دون أن ينظر إليها ودون أن يكلف نفسه عناء إحصائها. هناك شعور متبادل بأن هذا غني وأن ذاك فقير. ولعلّ فرانكو كان يشاهد هذه العملية يومياً ففتح نوافذ إسبانيا من كل الجهات إلا بعض النوافذ، أي من النافذة التي تسربت منها.

مشيت نحو لاس بالوماس وقد أنهكني الجوع، وبدا لي أن الطونيك التي شربتها على حساب ألان فتحت شهيتي للأكل. أستطيع أن آكل بقرة مشوية الآن.

كانت رغبتي في الأكل قوية لكني لا أستطيع أن أجد ثمن وجبة في مطعم متواضع. وعندما أبصرت أول بقال توجهت إليه. اشتريت خبزاً وسرديناً وقفزت فوق حاجز حجري وجلست فوق رمل الشاطئ

وأخذت آكل. كان هناك كلب فقط في الظلام. غير أنه خلف ظهري. وراء الحاجز كان زعيق السيارات وضجيج محركاتها. أكلت في ضوء ينبعث من مصابيح الشارع ولم أكترث للكلب. وعندما انتهيت مسحت يدي في الحاجز وعاودت القفز فوقه وسرت باتجاه لاس بالوماس. وتجاوزته ومضيت أفتش عن جورج وألان. وجدت نفسي من جديد وسطهم. منهم من كان مثلي وحيداً، ومنهم من كان يجد من يتحدث إليه. لا يهم. العالم ليس غريباً ولا أي شيء. لقد خلق كل منا وحده. ليس ضرورياً أن يعيش الإنسان مع غيره. تلك ليست سوى عادة قبيحة تعلمناها عبر العصور. أما أنا - فآه - وما أقسى ذلك. فأستطيع أن أعيش. وإذا لم أستطع أن أحقق ذلك فلأبقَ في العمق، العمق الذي لا يتسرب إليه ضوء. العمق المظلم الذي هو عمقي.

مشيت وسطهم ومشيت وسطهم. وأيضاً، مشيت وسطهم. كذلك، وسطهم مشيت. ومشيت فخفّ الزحام ودخل الناس العلب وانبعثت الموسيقى من باطن الأرض، وجفّ الهواء وصار بعد ذلك بارداً. كنت الآن قد انتهيت من إشباع رغبتي في الأكل. لم آكل كبشاً مشوياً ولا أي شيء. أكلت خبزاً وسردينا مالحاً، جافاً تعلقت رائحته بيدي وشفتي ولساني. وكنت أشعر أني في حاجة إلى أن أرتوي بجرعة ماء. لا أعرف ولا أريد أن أعرف. لأدع الفرصة تعرّفني بكل شيء. الأساسي هو أن آكل وأشرب. أشبع نزواتي الأولية قبل كل شيء. المهم من هذا كله أن يحصل المرء على طاقات حرارية جديدة بقدر الكون: هل هي حقيقية أم مجرد وهم؟ فما أكثر ما تختلط الأوهام بالحقائق. ليس هناك حد فاصل بينهما. مهما يكن فإني لا أتقن فنَّ إلقاء محاضرات في الفلسفة ولا أتقن فنَّ تنظيم التأملات. أترك هذا لهؤلاء الشبان الذي عرفوا كيف يذهبون

إلى الكليات بانتظام. لم يُتهموا بقتل آبائهم ولا أمهاتهم. لم يجدوا صعوبة في الحصول على عمل. بالنسبة إليّ، الشيء الأساسي والضروري حتى في أدنى مراحل الإنسان الحيوانية هو أن آكل وأشرب. أتزود بطاقات حرارية تجعلني أرى العالم بوضوح، لا من وراء ستر الضباب. ضباب الجوع والبؤس. لم آكل كبشاً صحيح. لكني أكلت سردينا ً. وأنا متيقن أن جورج وألان يفعلان مثلي الآن وراء تلك الأحراج التي ينامان فيها ليلاً. إنهما لا يملكان حتى أجرة الأوتيل. عفواً - جورج يملك كل شيء. العالم وكل شيء. ولكنهما يرفضان الأوتيل ربما لسوابق تسهّل أمر اكتشافهما من طرف البوليس. اكتشفت ذلك من كلام ألان، أما جورج الصامت فهو لا يقول شيئاً. ولكنه، مرة، وفي حالة نفسية خاصة دلّني على الحرج الذي يأويان إليه في الفجر عندما يغادران المرقص. وعندما تُشرق الشمس في الصباح ينزلان إلى البلاج وينامان من جديد، وهكذا. تتكرر القصة كل يوم وهما راضيان ظاهرياً، رافضان لذلك باطنياً. جورج وحده هو الذي يتألم من الداخل. أما الآخر فهو لا يعرف ماذا يفعل. إنه مثلي. أنا أيضاً لا أعرف ماذا أفعل. ولكن جورج يحكم على أني أَنضج من ألان. ربما بحكم السن. وأيضاً، ربما بحكم تجارب الطفولة والبؤس. إن طفلاً صغيراً منبوذاً في حيّ فقير من أحياء مملكة النمل السعيدة، لا يشبه بأي حال طفلاً يشتغل أبوه صحافياً في «الكنار أنشينيه». ابن صحافي مهما يكن، لا يستطيع أن يعيش مثلما عاش ابن لا أحد. ابن لا شيء. ابن نفسه. وابن الصحافي في حالة اليأس والانهزام يرجع إلى حضن العائلة مدلّلاً. أما ابن لا شيء، ابن لا أحد، المتهم بقتل أبيه، فإنه في حالة من الانهزام والسقوط ليس أمامه سوى المضي في حياة الانهزام والسقوط من جديد. وهكذا فسأمضي وسأمضي. إن رائحة السردين

في يدي وتحت أنفي لا تشبه بأية حال رائحة كبش مشوي. فهناك بون شاسع. هناك حضارة، وهناك تاريخ بين وجبتين. إحداهما في قرية أولاد عامر والأخرى وراء حاجز حجري في طوريمولينوس، وعلى مرأى من أفخم أوتيل تطل منه شقراوات العالم الثريات وبعض العجائز اللاتي يصرخن في حالة سكرهن: خيطانوس خيطانوس طوريرو فيفا إسبانيا. آه يا إلهي! لتحيَ إسبانيا عندما أشرب الشامبانيا وأسكن أفخم أوتيل وأرتاد أغلى المراقص. آه يا إلهي! لتحيَ إسبانيا عندما أستطيع في أرذل العمر أن أحصل على شابة، جميلة لكنها فقيرة. لتحيَ إسبانيا لتحيَ إسبانيا لتحيَ إسبانيا. لتسقط علب السردين والخبز الجاف. سأمشي. العالم كله لي مع ذلك. وهؤلاء الناس، وهذه الرؤوس. سأظل ماشياً وسأخفي رائحة السردين وسأحيي فتيات جميلات وأغازلهن، وسأدعوهن رغم أني لا أملك شيئاً سوى عضو متدلٍّ أنهكته حرب الاستنزاف من أجل لقمة العيش. وبلا حب مثل عاهرة سأمشي وسأوزع البسمات. أقول للعالم اضحك فأنت سعيد. أنا سعيد والناس سعداء. وحتى إذا لم أكن سعيداً فسأتخيل ذلك أو أفتعله.

قال جورج:

- فكرت في المسألة بجدّ هذه المرة. ما رأيك؟

قال ألان: إنه يوافق.

قال جورج: لم نطلب رأيك. أنا أوجه الكلام إليه.

قلت بوضوح: فهمت كل شيء وأعطيت رأيي فلا مانع عندي أيضاً. أنا أحب الحياة.

قال جورج: إنك تتكلم بغموض. ما علاقة حب الحياة بالمسألة؟

قلت: عفواً. لا أريد إزعاجك. أنا موافق مئة بالمئة. كنتُ

أفكر في هذا المستقبل الجميل الذي ينتظرني. مغامرة واحدة بسيطة. مغامرة جريئة تسهّل أمور العالم وتبسطه أمامك مثل خريطة: أضع إصبعي على أي بلد شئت.

قلت لجورج:

- أنا موافق مئة بالمئة. إنك كثير الحساسية. أنت لا تصلح لأشياء مثل هذه. يبدو أنك تقرأ الروايات البوليسية كثيراً. إنها تخدع السذّج مثلك. تجعل البطل هشاً مثل تبنة، يسقط بسرعة في قبضة البوليس.

- أنا لا أفكر في هذا إطلاقاً. ضع ثقتك بي. أنا لا أقرأ الروايات البوليسية.

قال جورج وهو يمدّ يده إليّ: - «إذن اتفقنا». وفي هذه اللحظة ظهرت صورة الرجل الغريب أمامي. ليس في حالة سكر لكن في حالة صحو. الآن أنا أمام الأمر الواقع. ضع ثقتك بي. جزائري كان يشتغل معنا. لا تكن كثير الأوهام. فقلت في نفسي «رواية بوليسية حقاً».

قال جورج: - فيم تفكر؟

- في لا شيء.

- إنك تشرد كثيراً. ليس ذلك من علامات النجاح. كن يقظاً. إن لك روح شاعر. هذا لا يليق بك يا محمد.

ضحكت وضحكت بجنون فاشمأز ألان. ارتعد وهو يقول لجورج:

- إنه يسخر بنا. جورج لا تغامر مع هذا العربي. إني أعرفهم جيداً.

ارتعشت وتوقفت عن الضحك ونظرت بعيني الصقر إلى ألان. قلت بهدوء:

- أيها الحقير.

تدخّل جورج ودفعني بعيداً. كنت نحيفاً لكني أقوى منهما. ألان طفل غِرّ، صبي أشقر، لا يتقن سوى الغضب والانفعال السريع. أما جورج فهو داهية، ذكي، محتال، لكنه ليس قوياً. بصقت أرضاً علامة الغضب. كنا نقف وراء الحرج الذي ينامان فيه والمؤدي إلى حديقة ففيللا فشاطئ البحر. بصقت مرة ثانية وثالثة. ارتعد ألان ونظر في وجه جورج. كان جورج قد أحنى رأسه فغطى شعره الكثيف المتدلي كل وجهه، ثم رفعه من جديد. نظرت في صمت إلى ألان. رأيته يرتعد وخفت أن يكون قد أصابه جنون أو مسّ. قال في غضب:

- حشرات!

قلت: من تعني أنا أم جورج؟

قال لي: ماذا فعل لي جورج حتى أعنيه يا. . .

سكت واقترب مني وجحظت عيناه. لم أشعر فضربته على وجهه بلكمة. ألقيته وسط الحرج، ورأيته ملقى وسط الحشائش وهو يضع كفه على وجهه. أمسكني جورج بعنف:

- أيه. . . محمد. ماذا تفعل؟ أرجو ألا يحصل مثل هذا في طنجة.

- ألا تسمع أنه يشتمني.

قال جورج: لا تكن صبياً مثله. إنه مع ذلك إنساني. وقف ألان عندما سمع ذلك. اقترب مني وكفه لا تزال على وجهه. كان غضبه قد كفَّ. قلت في نفسي «أي مازوشي هذا الحقير!» اقترب مني وفي نفس الوقت ابتعد جورج. كان يعرفه جيداً. اعتقدت أنه سيضربني أو سيغتالني أو سيقتلني. تهيأت للوقاية. لكن الآن مدّ يده إليّ. رأيتها. كانت صفراء منبسطة أمامي. وتساءلت لماذا يمدها إليّ؟

قال جورج وهو يبتعد مني:

- هيا صافحه وتعال اتبعني.

صافحت ألان ومضيت وراء جورج. تبعني ألان حتى وصلنا مقهى بيدروس وجلسنا هناك لنشرب طونيك. افترقت عنهما وسرت وحيداً. وحيداً مثل إله. ورائحة السردين في فمي، تحت أنفي وفي ثيابي. لكني لا أتذكر ماذا فعلت تلك الليلة. أعتقد أني حلمت في الفندق بسوز تلك الليلة. عفواً. لم أنم في الفندق لكن في الحرج مع ألان وجورج. نمت في هدوء كما لم أنم من قبل في هذه الليلة. كانت بعض الحشرات تضفي على النوم في الفجر نكهة خاصة. وفي الصباح وجدت أن جلدي قد احمرّ وظهرت عليه حبيبات من جراء لسع البعوض. كان شكل تلك الحبيبات يؤذن بدمل وخراج قبيح على جلدي. لكن ذلك زال بعد مرور ساعات قليلة. لم ينتشر الدمل ولم يظهر الخراج. كنت أشعر بألم على جلدي وكنت أقاوم الرغبة في حكّه. حككت لاشعورياً في الفجر، أثناء النوم، بعض الأماكن. لذلك ظهرت محلها بعض الانتفاخات والتورمات وهي تغري أيضاً بالحك. وتخيلت صراعاً بين الكريات البيضاء والحمراء، صراعاً تكون نتيجته انهزامي أنا. قلت: «غير معقول». وأيضاً، في غرفة سوز في اليوم الأول والثاني حصل ما يلي: تركت سوز النافذة مفتوحة لأن الحرارة شديدة وكنا قد شربنا كثيراً، وشعرنا كأن الجو أصبح فرناً حقيقياً وفتحنا النافذة ونمنا. دخلت جيوش البعوض وشعرنا بلسع حقيقي كذلك. أخذت سوز تحك وأخذت أحك. ولم أكن شخصياً أعرف ما سبب ذلك، لأنني استبعدت وجود البعوض في هذه المنطقة إطلاقاً. وقفت سوز على التو وأشعلت الضوء. ظهرت نقط سوداء كثيرة على جدران الغرفة: جيش حقيقي من البعوض. خفت أن يكون هذا البعوض كله قد عضّني. ارتعدت

للفكرة وقلت سأموت. كان خوفي من الموت إذ ذاك شديداً. لماذا أموت وأنا مشرف على أروع حياة؟ سوز، والحب، والجنس والخمر. جميع آلهات اليونان أصبحت أمامي: ديونيزوس، وأنا أيضاً إله. سأسمي نفسي: محمدوس، إله هذه الأشياء جميعها. لماذا الموت وأنا أشمّ رائحة عدن، بل أعيشها؟

كانت جيوش البعوض الملتصقة بالجدار كافية لأن تمتص دمي كله فلا يبقى مني سوى الهيكل العظمي. صورة: تتكفل سوز بحمل هذا الهيكل العظمي، تجمعه في كيس من البلاستيك وترميه من النافذة. تكون العظام طعام أول كلب ضال في العالم مثلي. يا إلهي! ما هذا الذي أفكر فيه؟ انتفضت من مكاني عندما ألقت لي سوز فوطة ثم شرعت أفعل مثلها. أخذنا نطارد البعوض ونضربه بقوة وعنف. بعضه مات ملتصقاً على الجدار وبعضه خرج من النافذة بعد أن ذهب بجزء من دمائنا. كانت الحكاية تلك الليلة بسيطة. في الصباح بعد حمام الشمس وملح البحر ذهبت كل التورمات واستعدنا قوتنا وسعادتنا. لذلك كنت متأكداً ليلة الحرج أن ما يسببه لي البعوض من لسع وتورمات سوف يزول للتو بعد مرور ساعات قليلة. وبالفعل، ذلك ما حصل، وأنا أمشي وسط هذا الزحام الخانق كنت أحاول أن أرى بقايا اللَّسع على ذراعي. مددتها أمامي. لم يكن هناك شيء. كنت في أتم القوة إلا أن رائحة السردين كانت تملأ خياشيمي، وكل الدائرة الهوائية التي تحيط بي. لم أكن أحب رائحته. وهكذا فقد قررت أن أتوقف في أقرب مقهى وأدخل التواليت، أغسل وجهي ويدي بالماء والصابون المعطر حتى أطرد الرائحة القبيحة، وحتى أستطيع بعد ذلك أن أشم هذا الهواء الذي يشمه جميع الناس. لتكون لي نفس الفكرة عن نفس العالم. ودخلت التواليت. غسلت يدي ووجهي بعنف كما لو كان أحد ينتظرني

بالباب. ذهبت الرائحة، رائحة السردين. وغادرت المقهى أبحث عن جورج، عن ألان وعن سوز. كنت أفكر في الغد. لا شيء بعيد أو مستحيل. سأجد نفسي في طنجة. سيتكفل جورج وألان بالتهريب، أما أنا فسأجني الثمرة ناضجة.

قال جورج:

«لا يهمك شيء. أنت ستبحث عن البائع وأنا وألان نقوم بالباقي. لا تفكر في اجتياز الحدود. هذا أمر أوكله إليّ». فقلت: «موافق ولا مانع عندي. أعرف الكثيرين في طنجة. وإذا لم ترد ذلك فسنقوم بالمهمة من طريق تطوان وسبتة».

قال جورج: أنا أفضّل طنجة، ولي تجارب عديدة من هناك.

قال ألان: طنجة أو سبتة لا يهم. أنا أستطيع عبور البحر والحدود من هنا أو من هناك.

قال جورج: اسكت أنت.

والتفت إليّ:

- لا تعبأ به. إنه كثير الكلام.

ثم ملتفتاً إلى ألان:

- هل استطعت هنا في إسبانيا أن تحصل حتى على ما تأكله. أغلق فمك.

سكت ألان ولم يرد. صار مثل كلب أليف. كنت أرى صدره العاري الأبيض مثل الشمع والذي لم تؤثر عليه شمس. كان أبيض مثل الشمع وعليه بضع شعيرات منتشرة، وحبيبات حمراء متناثرة وقد ابيضّت رؤوسها.

قلت لجورج:

- أعرف الكثيرين. سأقوم بدور الوسيط فيما أفهم بين المشتري والبائع.

- لا أكثر ولا أقل.

ثم أدخل يده في جيبه وأخرج حزمة من الدولارات وهو يقول:

- اسمع يا محمد... حياة أو موت. ثم إن خمس سنوات في السجن ليست في الحقيقة موتاً.

هذه الدولارات نستطيع أن نحصل بها على حوالي 15 كيلو من خلاصة الكيف والكيف الجيد. هل تعرف؟

سكت ونظرت من جديد إلى صدر ألان العاري الأبيض مثل الشمع. فكرت: ما هو دوري؟ لا شيء. أقوم بدور الوسيط. هؤلاء الأشخاص الذين أعرفهم جميعاً في السوق الداخلي ما فائدة معرفتي بهم؟ إذ ذاك رأيت الجنة، ورأيت عدن حقيقية ماثلة أمامي بكل ما فيها من صور خرافية، يوتوبية، حلمية. ثم كانت الرحلة بعد ذلك إلى طنجة. وكانت الجلسة الرائعة وراء كؤوس الشاي الأسود في طنجة مثل جلسة أو حضور في عدن. كانت الجلاليب والنساء الجبليات بالكرزية والقبعات الواسعة الأطراف التي تضعها النساء مثل عدن حقيقية، إيروس، ديونيزوس، محمدوس... إلخ.

وفكرت في أختي التي نضجت أكثر من اللازم:

«- بصراحة يجب أن تبحث عن عمل».

«- إن أمك عجوز ولا تستطيع أن تعيلك».

«- أبونا مات فيجب أن نفهم دورنا في الحياة».

«- كيف أن كل الكتب التي قرأتها عاجزة اليوم عن إطعامك».

وتنهدت بعمق وقلت: «هل في إمكاني أن أعرف؟».

كان مستحيلاً أن أعرف.

لم أكن أعرف أي شيء لكني في الواقع كنت أعرف أشياء ولا يدخل هذا في لعبة اللغة طبعاً. الحقيقة أنني أعرف أشياء كثيرة، متنوعة، طريفة وغريبة. في نفس الوقت بالذات لا أعرف أي شيء. تظل معرفتي نسبية إلى حدٍّ بعيد. العمل؟ أين العمل؟ لقد وجدته الآن، بسهولة. وصحيح أن كل الكتب التي قرأتها ولم يقرأها جورج وألان تجعلني ألعب دور الوسيط فقط بين البائع والمشتري. ومهما يكن فإنهما، أي جورج وألان، يبنيان عالمهما في الواقع، بينما أبني أنا عالمي - في الحلم. والحلم، كما تعرف، ينهار. تتخيل أي شيء أي شيء أي شيء. لكن ذلك لا يعطي لذة. فاللَّذة الحقيقية هي لذة الحواس. وعدن هي عدن الحواس لا عدن الخيال والحلم.

قال جورج:

- لا أؤمن بشيء سوى العمل.

قلت: أنت لا تحب العمل.

قال جورج: ليس بمفهومه في مخيلتك. العمل هو الذكاء والاحتيال السريع. والبطش. في رمشة عين تصير غنياً.

سكتُّ طويلاً وفكرت فيما قاله جورج وتأكدت أن هذه أيضاً فلسفة عملية لا غبار عليها.

كان جورج هو كل شيء. ولم يكن ألان سوى تابع. صرت

أيضاً تابعاً عن طواعية لا على الرغم مني. تأكدت أن ذلك أجدى من أي عناد أو صلف. وهذه أيضاً عملية وتفكير عملي كذلك.

وكنت، بالفعل، عندما وصلنا طنجة قد قمت بالمهمة التي كلّفني بها جورج: أن ألعب دور الوسيط ليس لأنه لا يعرف طنجة، فهو يعرف حتى تلك الأزقة المظلمة في الدار البيضاء التي تعثر فيها الشرطة على جثة إنسان مقتول من أجل نصف درهم لا غير. ولكن تجنباً لكل الشبهات يقول جورج أنا أصلح للعملية نظراً إلى الثقة التي أستطيع اكتسابها لدى المخبرين ذوي الحاسة الشمية الكلبية. لكن جورج كان مخطئاً في الواقع. هؤلاء الرجال المبثوثون هنا في جميع مدن وقرى شمال المملكة يستطيعون شم رائحة الكيف على بعد كيلومترين. ولكن مهما يكن فالمسألة قد تمّت أمس ببساطة عادية جداً، ففي مقهى «الحافة» استطعت وأنا جالس وراء كأس شاي أن أتحدث إلى النادل الحافي القدمين عمّن يمكنه أن يبيعني كمية صغيرة من الكيف لأدخنه الآن. فأشار إليّ أن أذهب إلى جماعة جالسة فوق الحصير المشرف على الهاوية. ذهبت فمدّ لي الرجل سبسياً لأدخن حتى أتعرف على نوع السلعة.

قلت: إنه مزيان، مزيان.

أخرج تويلتة، أي كمية من الكيف ملفوفة في ورق أصفر رخيص من تحت جلبابه قدمها لي. دفعت له نصف درهم وقبل أن أعود إلى مكاني وراء كأس شاي قلت للرجل:

- إذا ما احتاجك الإنسان فين يشوفك؟
- على الراس والعين. وقتما تشاء وأينما تشاء.
- غداً؟
- هنا نعم. هل هناك همزة (صفقة)؟
- أعتقد.

فدعاني الرجل إلى كأس شاي أخرى. اعتذرت لأني لم أكن قد أنهيت كأسي. وعدت إلى مكاني. أفرغت سيجارة من التبغ وملأتها كيفاً. أخذت أدخن بكل حواسي وأرشف الشاي. وفي كل مرة أدفع ورق النعناع بلساني فيعاود السقوط داخل الكأس. كان البحر أمامي شاسعاً تحت الهاوية، وحدود إسبانيا واضحة، وبنايات بيضاء تظهر ومرتفعات جبلية تغطيها سحب بيضاء قليلة. بدت لي الصورة في تلك اللحظة أروع لوحة طبيعية موجودة على وجه الأرض. استلذذت الشرب، وأفرغت سيجارة ثانية من التبغ وملأتها كيفاً. صرت جامداً كحجر أتأمل زرقة الماء والبنايات البيضاء البعيدة خلف البحر. وتصورت أني بعد يوم أو يومين سأكون هناك على تلك الأرض غنياً، ولن أحتاج بعد ذلك إلى تقليب مشاكل الطعام في رأسي. سأضع حداً لكل شيء. ولكن أليست هذه كلها حتى الآن مجرد أحلام؟ أين الواقع؟ وأفقت من تأملي وذهولي على يد الرجل.

- كيفاش السلعة؟

قلت بنشوة: جيدة، مزيانة. آه، مزيانة. نعم. جيدة.

- غداً نلتقي في «الحافة». هل أنت وحدك؟

- لا. معي أصدقاء. أو إذا شئت أنا وحدي.

خرج الرجل. عفواً لم يخرج، لكن اختفى غير أني لا أدري أين. ذهبت بعدها إلى جورج في الفندق وأيقظته. حكيت له كل شيء. أمسكني من كتفي وهو يقول:

- أنت بليد!

قفزت من مكاني. وحدّقت في عيني جورج مباشرة.

قال في غضب:

- وأكثر من هذا أنت تغضب. أنت بليد بليد.

وأطرق في تفكير شديد. ظلَّ يفكر وقتاً من الزمن، ثم رفع رأسه فارتمى شعره الطويل إلى الخلف:

- لا يهم. المسألة الآن يجب أن نغير لها الخطة. أجلسني على الفراش وجلس قبالتي وأخذ يشرح لي. قال: هل تعتقد أن المسألة تتم بتلك السهولة. أعرف أنك إذا عدت إلى ذلك الرجل فستنتهي إلى السجن فوراً.

قلت: لماذا؟

قال: لن أشرح لك. المسألة لا تحتاج إلى شرح. فالأمور لا تتم بتلك السذاجة. أفرغ مخك من كل تلك السذاجات إذا أردت أن تكون رجلاً حقاً.

ثم وقف وأخذ يذرع الغرفة جيئة وذهاباً وهو يتأمل البلاط والصنبور والجدار. إذ لم تكن بالغرفة الضيقة نافذة بالمعنى الحقيقي. ثم جلس في خفة إلى جانبي. وأخذ يشرح لي خطة جديدة. أعطاني تعليمات أخرى قال إنها جيدة. ثم أعلن وهو يمسكني من كتفي:

- لا تعد إلى قهوة «الحافة».

قلت كالطفل المذنب:

- لن أعود.

وغادرنا الفندق واتجهنا إلى مقهى سنترال في السوق الداخلي، حيث جموع المجلببين والهيبيين الإنجليز والهولنديين والأميركيين... إلخ. جلسنا وسطهم ولحق بنا ألان الذي كان في سوق برة (السوق الخارجي) وأخذنا نشرب الشاي ونتكلم عن الحب والجنس والسلام مثلما يفعل باقي الجالسين حولنا. وأخذ جورج يصرخ مفتعلاً سروراً لا حد له: «حب - حب - حب» ثم أحنى رأسه فتدلى شعره وحمل كأس الشاي الأسود، وأخذ يشرب. جاءت فتاة كانت تنظر إليه

عندما كان يصرخ. كانت مخدَّرة وطلبت أن تجلس بجوارنا. كانت إنجليزية قذرة تتكلم فرنسية رديئة. أجلسناها ولم نتكلم معها فانصرفت للتو. وقال جورج: «لا تتكلم في أي شيء سوى في الحب والسلام والجنس».

قلت بصوت مرتفع: «حب - حب - حب».

وكررتها بالإنجليزية فأخذنا نضحك ونضحك ونضحك ورشفنا الشاي اللذيذ. لكن تلك الليلة في غرفتي الضيقة القذرة في فندق «الشاون» تمددت في فراشي وأنشأتُ لي محكمة تاريخية تحاكمني. ومثلتُ أمام أعضائها الذين كانت الشرطة تنضم إليهم. وهكذا بدأت المحكمة عملها في تلك الليلة وبصفة سرية، وتوالت الأسئلة والأجوبة:

الرئيس - (متنحنحاً في لطف): إنك متهم هل تعرف هذا؟

أنا - (متنحنحاً بدوري ومستوياً في جلستي): نعم أعرف ذلك.

الرئيس - أولاً، لا تجلس (ملتفتاً إلى ضابط الشرطة) أليس كذلك؟ عليه أن يقف. (ثم موجهاً الكلام إلي) افعل كما لو كنت في محكمة حقيقية. (يضحك). إن الوهم يصير حقيقة في بعض الأحيان.

أنا - نعم. أعرف هذا. وهذا سبب إنشائي لمحكمة تحاكمني.

الرئيس - عفوك يا... نحن الذين أنشأناها ولست أنت. الحقيقة أنها من صنعنا جميعاً. أنت اخترت أن تُحاكم ونحن اخترنا أن نحاكمك.

ضابط الشرطة - تماماً. إلا أنه كان من الممكن أن تأتي بشهود ومتهمين آخرين... إلخ.

الرئيس - أعتقد ألا داعي لذلك. فالمحكمة هنا تاريخية وفوق ذلك هي وهمية وغير مقبولة من طرف عقول كثيرة. لنكتف باستدعاء

الأشخاص إذن للحضور إذا ما اقتضى الأمر. أما والحالة هذه فأعتقد ألا داعي لذلك.

أنا - معقول جداً. نكتفي بالأسئلة والأجوبة وبعد ذلك يصدر الحكم. سواء بحضور الناس أو بغير حضورهم.

ضابط الشرطة - بما أني أنا الذي ألقيت عليك القبض فأنا الذي سأشرع في الكلام أولاً. وسأحاول أن أكون موضوعياً بقدر الإمكان. غير أن كلامي لن يؤخذ مأخذ الجدّ إلا بعد أن يصدر الحكم. أما قبل صدور الحكم فهو لغو في لغو.

أنا - لك الحرية في أن تبدأ. (إلى الرئيس) أليس كذلك سعادة الرئيس؟

الرئيس - نعم. له الحرية في أن يبدأ.

ضابط الشرطة - سعادة الرئيس. ألقيت القبض على هذا الفتى العربي الشاب وهو متلبس بجريمة فظيعة، جريمة يندى لها الجبين. وهذه الجريمة تحاول القضاء عليها كل المؤسسات التي تسعى إلى صلاح الإنسانية.

الرئيس - إن الوثائق التي بين يدي لا تبيّن نوعية الجريمة. وتكتفي فقط بذكر لفظة «جريمة فظيعة».

ضابط الشرطة - ذلك نوع من المفاجأة.

الرئيس - طيب. هل لك أن تفصح عن نوعية هذه الجريمة؟ (ملتفتاً إلي) هل توافق أنت؟

أنا - نعم. بكل تأكيد.

ضابط الشرطة - إن هذه الجريمة فظيعة للغاية، سعادة الرئيس. والشرطة الدولية تسعى للقضاء عليها، لأن هذه الجريمة تهدف إلى تخريب الإنسانية. هل لك أن تتصور أن مفعولها أقوى من مفعول جميع الأسلحة النووية الموجودة فوق الأرض وتحت الأرض، في

الشمال والجنوب، فوق البحار وتحت المحيطات . إنها سم، جريمة. ولا شك أنك تعرف ما أقصد.

الرئيس - ليس تماماً.

أنا - تجارة المخدرات.

الرئيس - آه. إنه موضوع جيد ومثير. فهو موضوع الساعة الآن. وهو موضوع خطير أخطر من حرب الشرق الأوسط وفيتنام وأنغولا .

ضابط الشرطة - هل تسمح يا سعادة الرئيس أن نخرج عن جادة صوابنا ونطلع على ما كتبته الصحف بهذا الصدد، بعض الصحف أقصد؟

الرئيس - ولِمَ لا؟ ذلك ممتع جداً.

ضابط الشرطة - (يُخرج صحيفة. يفتحها ويبحث بين صفحاتها عن عمود معين). آه. هو ذا. لنستمع. (يقرأ): «صوّت مجلس الشيوخ، مساء يوم الثلاثاء الماضي، على الاقتراح القانوني الرامي إلى تنمية الإجراءات الصحية ضدّ التخدير وتعزيز مقاومة التهريب».

الرئيس - هذا كلام رائع. أية صحيفة هذه التي نقلت الخبر.

أنا - صحيفة (س). إنها صحيفة محايدة.

الرئيس - (موجهاً الكلام إلى ضابط الشرطة) هل لك أن تكمل ما جاء في الصحيفة؟

ضابط الشرطة - (يقرأ) أكّد وزير الصحة جدوى تعاون المحاكم مع مصالح العمل الصحي والاجتماعي.

الرئيس - هذا، بطبيعة الحال ما نسعى إليه. أليس كذلك؟ الهدف الرئيسي للمحاكم في نظري هو التعاون مع مصالح العمل الصحي والاجتماعي لمقاومة تهريب المخدرات.

ضابط الشرطة - (يقرأ) وهكذا وافق الشيوخ على البنود المختلفة للاقتراح القانوني، مع التعديلات الرئيسية التالية:

1) في إمكان القاضي أن يحكم على المهربين بمدد تتراوح بين عشر وعشرين سنة سجناً.

2) يمكن أن يضيف أيضاً إلى هذا الحكم أحكاماً أخرى كمنع الإقامة مدة خمس سنوات وسحب الجواز ورخصة السواقة.

3) يمكن للشرطة أن تحقق في المحلات التي تكون بمثابة أمكنة لتعاطي المخدرات بصفة جماعية.

4) تمتد الحراسة من ثماني ساعات إلى ستة أيام.

(ينتهي ضابط الشرطة من القراءة ويضع الصحيفة إلى جانب الكرسي الذي يجلس عليه).

الرئيس - هذا كلام رائع. إنها تعديلات فيما يبدو لقوانين عفى عليها الزمن. في أية دولة صدرت هذه التعديلات؟

ضابط الشرطة - لا أدري. ولكن الصحيفة مكتوبة بالفرنسية.

الرئيس - لا يهم. لنعد إلى المسألة التي تهمنا (لضابط الشرطة) قلت إنك اعتقلت هذا الفتى العربي لأنه كان متلبساً بجريمة.

ضابط الشرطة - نعم. جريمة فظيعة هي التهريب. ليس التهريب فقط، ولكن تهريب المخدرات. وهذا الشاب مع رفاق له يحاولون أن يهدموا الإنسانية وأن يخربوها من الداخل.

أنا - نعم. هذا حقيقي. لكن هناك أسباباً أساسية يا سعادة الرئيس، هي التي دفعتني إلى ذلك. وأعتقد أن من حقي أن أوضح هذه الأسباب.

الرئيس - ذلك من حقك. لكن دع الضابط يتحدث. فما نحن سوى أصدقاء فلا يجب أن تغضب.

ضابط الشرطة - اسمح لي يا سعادة الرئيس إذا تكلمت بهياج

أحياناً. أنا لا أنسى أننا أصدقاء ولكني، لكي تكتسب المحاكمة أهميتها التاريخية، يجب أن يكون هناك بعض الوقار، وافتعال الجدية والصرامة (ملتفتاً إليّ) أليس كذلك؟

أنا - نعم. هذا شيء ضروري. لكن لا تنسَ أننا أصدقاء.

ضابط الشرطة - لا عليك. لكن دعني أبدأ أولاً.

الرئيس - دعه يبدأ.

ضابط الشرطة - سعادة الرئيس هذا الفتى مجرم خطير. يجب أن تصدروا في حقه حكماً بمستوى الجريمة. (بصوت منخفض) هل يمكننا أن نستعين بما قرأناه في الصحيفة قبل لحظة؟

الرئيس - ليس الآن. لكن من الأفضل لكي تتم المحاكمة على ما يُرام أن ننسى ما هو مكتوب في الجريدة. أنت تعرف أن ما هو مكتوب في هذه الجريدة لا يهمنا نحن. ولكنه يهم دولة أخرى.

ضابط الشرطة - صحيح. ما دام الأمر يتعلق بدولة أخرى فلنحكم وفق قانوننا الخاص.

أنا - ما هو قانوننا الخاص؟

ضابط الشرطة - اسأل الرئيس. عفواً: سعادة الرئيس.

أنا - سعادة الرئيس. ما المقصود بقانوننا الخاص؟

الرئيس - لا أعرف. اسأل الضابط الذي تلفّظ بالكلمة.

ضابط الشرطة - لا أعرف بدوري. كنت أعتقد أن عندكما الجواب. لكن الأمر ليس مهماً إلى هذا الحد. لنتخلَّ عن لفظة «خاص» ولنستعمل كلمة «قانون» وحدها. هل في هذا كفاية؟

أنا - أعتقد ذلك.

الرئيس - كما تشاءان.

ضابط الشرطة - إذن هذا الفتى مجرم خطير. هو مهرب كبير للمخدرات فهو يستحق عقوبة خطيرة.

أنا - لا تنسَ أنك صديقي.

ضابط الشرطة - صحيح. قلت ذلك منذ الوهلة الأولى. منذ أن ألقيت عليك القبض. عاهدت نفسي على أن نبقى صديقين حتى النهاية. لكنه الواجب، أنت تعرف ذلك.

أنا - نعم إلا أنه عليك أن تخفف من حدّة الاتهام.

الرئيس - لا تخف. نحن كلنا أصدقاء: المهرّب، والشرطي، والقاضي. لا عليك. لا تنسَ أيضاً أن المحاكمة هي مجرد محاكمة وهمية. والوهم غير الواقع. نحن نمثل فقط بعض الأدوار في القسوة والعنف والحب... إلخ. وبعد ذلك نرجع إلى طبيعتنا الإنسانية الأولى. أتمنى أن نصير أصدقاء: الرئيس والمهرّب واللوطي والمحامي والوزير والقوّاد. كلنا سواء، اتفقنا على هذا المبدأ، وأعتقد أنه لا غبار عليه الآن.

أنا - نعم. لكن أكد ذلك من جديد للضابط.

ضابط الشرطة - مفهوم، مؤكد، طبعاً.

أنا - الآن استمر في توضيح التهمة للرئيس. لك كامل الحرية في أن تنفعل أو تفتعل.

أنا أيضاً - نعم. تنفعل أو تفتعل.

ضابط الشرطة - لا أفهم.

أنا - أعني لك كامل الحرية في أن تتكلم بهدوء أو هياج. وهذا هو الانفعال. كما أن لك كامل الحرية في أن تلفق لي تهماً أخرى عديدة لها، بطبيعة الحال، علاقة بالتهمة الرئيسية، وهذا هو الانفعال.

ضابط الشرطة - فهمت.

الرئيس - إذن استمر.

ضابط الشرطة (يسعل) - يا سعادة الرئيس، هذا مجرم خطير. ووجدنا في حوزته عدة كيلوغرامات من خلاصة الكيف كان ينوي بيعها في بلادنا لتخدير الناس، لجعلهم يغيبون عن وعيهم هنا في إسبانيا. وبما أنك تعرف أننا لا نغيب عن وعينا وأننا ملزمون دائماً باليقظة المستمرة والحضور المستمر فإن. . .

الرئيس - اسكت. اسكت أيها الضابط.

أنا - أسكت إنك. . .

الرئيس - تتكلم في أمر خطير، في السياسة. أنت تعرف عواقب هذا. قل تهمتك فقط ولا تعقب بشيء.

ضابط الشرطة - عفواً يا سعادة الرئيس، نسيت أني أتكلم في أمر خطير. (بصوت منخفض) بيني وبينك، اشتقنا مدة ثلاثين عاماً للحديث في أمور مثل هذه. ألا تجد أن الحديث في أمور مثل هذه شيء رائع ومسلٍّ؟

الرئيس - معك حق. لكن لا تنسَ أنك ضابط الشرطة، وأني آمرك بألا تتحدث في أمور مثل هذه.

ضابط الشرطة - (يقهقه ويقهقه) إنك غريب الأطوار. أنسيت أنك صديقي. وأننا نحن الثلاثة أصدقاء.

الرئيس - لم أنسَ ذلك. لكن يجب أن نمثل هذا الدور، في أمور مثل هذه. (ملتفتاً إليّ) أليس كذلك يا صديقنا العربي؟

أنا - نعم. لكن أنا أيضاً يعجبني الحديث في مثل هذه الأمور. ذلك شيء رائع حقاً، شيء مثير للعواطف والحنين إلى الوضوح البشري.

الرئيس - لكننا إذا استمررنا في حوار مثل هذا لن نخلص في النهاية إلى شيء.

أنا - ومن أدراك؟

الرئيس - تجربتي.

أنا - وأين تجربتنا نحن؟

الرئيس - لا تنسَ أنك مهرّب.

أنا - من قال لك ذلك؟

الرئيس - ضابط الشرطة.

أنا - قل له إني مثقف أولاً قبل أن أصير مهرّباً، إني مثقف بائس.

ضابط الشرطة - لماذا تُضخم نفسك؟ أنت لست مثقفاً بل طالب فاشل.

أنا - وأنت؟

ضابط الشرطة - تخرجت من كلية الشرطة.

أنا - على كل حال لم أرغب في أن أصير شرطياً. أنا إنسان قبل كل شيء.

الرئيس - هدوءاً أيها الصديقان. لا تنسيا أننا أصدقاء: الشرطي واللوطي والمهرّب والقاضي... إلخ. ندخل مباشرة في الموضوع. (للضابط) ما هي جريمته باختصار؟

ضابط الشرطة - مهرّب مخدرات ضبطناه ومعه حقيبة في الفندق مليئة بخلاصة الكيف.

الرئيس - هل هذا صحيح؟

أنا - نعم، كل الصحة. لكن قبل كل شيء أؤكد حقيقة هامة. أنا فعلت هذا وأعترف به. غير أن الأمر المهم الذي يجب أن ندرسه هو دوافع هذا الفعل: ما هي الأسباب الرئيسية التي جعلتني أصير مهرباً وحتى قاتلاً. وبين قوسين، أنا لم أقتل لكن سبق لي أن اتهمت بقتل أبي.

الرئيس - هذا مهم. ندرس أولاً دوافع هذا الفعل. لكن عليك أن تعرف أن المحاكم الحقيقية لا تنظر في دوافع الأفعال عادة. لكنها تنظر في النتائج فقط. ونحن سوف نتجاوز هذا لأن محكمتنا التاريخية هذه يجب أن تكون من نوع خاص. وعليه فإننا ننظر الآن في الدوافع الرئيسية للجريمة.

ضابط الشرطة - رائع! رائع!

أنا - نتفق أولاً على دراسة المسألة.

الرئيس - الحكاية بسيطة.

ضابط الشرطة - جداً.

الرئيس - سنطرح أسئلة وأنت تجيب. ويمكنك أيضاً أن تطرح أسئلة على نفسك وتُجيب عليها بنفسك ونحن نسمع. وسنحاول أن نساعدك في الإجابة. وهكذا عندما نعرف الأسباب الحقيقية، سوف نصدر الأحكام وفق نتائج الدراسة. وسنتجاهل في النهاية الجريمة كجريمة في حدّ ذاتها، أي الفعل بحدّ ذاته كفعل.

أنا - هذا شيء جميل. لأن الفعل ما هو إلا مجرد فعل. فالقتل فعل. والتغوط فعل. والأكل فعل. والمجامعة فعل. والمشي فعل.

الرئيس - رائع. إنك تعطي أمثلة ذكية جداً. يبدو أنك كنت طالب فلسفة. الفعل هو الفعل. لا أقل ولا أكثر. فهو فعل لأنه فعل. وما دمنا قد توصلنا إلى هذه النتيجة فلنعد إلى موضوعنا الرئيسي.

ضابط الشرطة - نعم. إلى دراسة أسباب الجريمة.

في هذه اللحظة بالذات اختفت صورة الأشخاص الثلاثة: صورتي وصورة الضابط وصورة الرئيس. ضاقت الغرفة أكثر من اللازم. وكانت بضع قطرات مائية تتساقط في حوض الصنبور. إلا

أن الأسئلة بدأت وتبعتها الأجوبة مباشرة. ولم أتخيل نفسي في طنجة، لكن في مكان آخر.

س - قبل أن نسألك عن سبب الجريمة نتعرف عليك.

ج - من مواليد 1930. الاسم محمد. الأب: فلان بن حسن أو حسين لا أذكر. الأم: فلانة محمد أو محمود لا أذكر. مكان الازدياد: عرباوة. هل هذا فيه كفاية؟

س - لا. لا نريد هذا. هذه أشياء محسوسة. يعني موجودة ومثبتة في أوراقك الرسمية. ونحن نريد ما هو غير ثابت في الأوراق الرسمية. أنت تعرف ما في أوراقك وما في أوراقي وأوراقه. هذه كلها أشياء نسبية وإن كانت تبدو أكيدة.

ج - طيب. اسألوا وأنا أجيب.

س - كم عدد النساء في حياتك؟

ج - كثير. ومن كل الجنسيات. ولمعلوماتكم يجب أن تعرفوا أنني محظوظ. ولو بقيت طالباً في الجامعة لما عرفت واحدة.

س - شيء غريب. لكن لماذا؟

ج - الجواب سهل. في الجامعة، الأساتذة مكبوتون. يأخذون كل الفتيات إلى غرفهم أو إلى الأوتيلات مقابل أن ينجحن في نهاية السنة. أما نحن فنمارس العادة السرية.

س - غير ممكن.

ج - لم لا؟ قوموا بإحصاء وسترون.

س - هل تعتقد أننا نصدقك؟

ج - لا تصدقوا. لذلك تجدون أن كل الطلبة يتهافتون على الدكتوراه حتى يصبحوا أساتذة في الجامعة، ليس حباً في العلم لكن حباً في الفتيات الضعيفات المعقدات.

س - وإذن أنت اخترت طريقاً آخر للنساء؟

ج - نعم. وهو طريق رائع.

س - لكنه طريق قبيح.. طريق الجريمة.

ج - ليست جريمة. فالجريمة في الواقع هي ما يرتكبه الآخرون لا ما أرتكبه أنا.

س - كلام منطقي. هل لك أن تقول لماذا اتهمت بقتل أبيك؟

ج - ليس لهذا علاقة بالتهريب.

س - حقاً، لكن لتسليط بعض الضوء فقط على القضية.

ج - أية قضية؟

س - القضية.. قضيتك ألا تذكرها؟

ج - التهريب؟

س - نعم.

ج - اتهموني ولم أعرف لماذا؟ لكن المسألة كانت بلا نهاية وبلا بداية - شأن باقي المسائل التي تشابهها.

س - هل ضربوك؟

ج - لا. أجروا تحقيقاً بسيطاً في الأمر. لكن أبي مات ميتة عادية.

س - قيل عكس ذلك؟

ج - العلم عندكم وعندهم.

س - لا... عندهم هم. نحن ما دخلنا؟

ج - لا أعرف.

س - سؤال آخر: ماذا كنت تنوي أن تفعل بهذه النقود التي تكسبها من تهريبك للكيف؟

ج - واحداً من أمرين: إما شراء بار في أميركا اللاتينية، أو

إدخال السلاح إلى جبال الريف، لأن هؤلاء حاربوا عام 1957 ضدّ السلطة ببنادق صدئة فارغة.

س - ألا تجد هناك تناقضاً بين شراء بار كطموح رأسمالي، وبين تهريب السلاح كطموح ثوري؟

ج - لا أدري.

س - لماذا؟

ج - لأنني لا أدري.

س - إذن أنت لست مثقفاً.

ج - بالعكس. كل المثقفين في العالم هكذا. إنهم موزعون بين طموح ذاتي وطموح جماعي.

س - ممكن. لكن حدّد طموحك أنت.

ج - لا أستطيع. أو قد أستطيع في المستقبل عندما أُشبع بطني أولاً.

س - هل أنت جائع؟

ج - أكثر من جائع. من يعطيني قطعة خبز؟

س - يجب أن تشتغل. الخبز لا يأتي هكذا.

ج - لكن أين العمل؟

س - لماذا لا تشتغل بنّاءً أو شيئاً من هذا النوع؟

ج - لا أستطيع.

س - لماذا؟

ج - لأني لم أتعود على ذلك منذ ثلاثين سنة. أطلب العيش من أسهل طريق.

س - ما هو أسهل طريق؟

ج - لم أهتدِ إليه بعد.

س - هل تعتقد أنك ستهتدي إليه؟

ج - ربما.

س - بأية وسيلة؟

ج - لا أدري حتى الآن. ربما بالتهريب.

س - آه. لنعد إلى موضوع التهريب. هل تعرف أنك اقترفت جريمة خطيرة تُعاقب عليها بعشرين سنة سجن.

ج - نعم، لكن هناك آخرين أجرموا في حقي.

س - هل لديك حجج مادية ضدهم؟

ج - لا.

س - إذن عليك أن تتحمل العقاب كما تحملته آلاف الأجيال من قبلك. هناك قوة أعلى منك ومنهم ومني، هي التي تحكم وتنفّذ.

ج - إذن، نفّذوا فيّ الحكم.

س - سنفعل على الفور.

ج - هل يكون الحكم قاسياً؟

س - نعم. وفيما يلي نصه: «حكمت عليك المحكمة، في هذه الغرفة الضيقة من فندق «الشاون» بطنجة بالنوم حتى الساعة الحادية عشرة صباحاً. الآن عليك أن تستريح فالجو حار. لكن قبل أن تنام عليك أن تحكم إغلاق الصنبور، لأن بعض القطرات تتساقط، وتثير قلقاً لا حدّ له».

كانت قد انقضت علينا أربعة أيام في طنجة: شربنا فيها الشاي، ونمنا في الفندق، وفوق الرمل، على الشاطئ. تخدرنا مثلما تفعل هذه الطيور الغريبة الوافدة من أصقاع العالم. بحثنا. دخلنا في العالم وخرجنا من العالم - خرجنا من العالم ودخلنا في العالم - تخدرنا. وقال جورج عندما سألته عن موعد الانتقال إلى إسبانيا وقد

وجدنا البائع: « - ليس الوقت وقته. لنتمهل قليلاً فالحراسة مشدّدة خَلا هذين الأسبوعين من تطوان إلى سبتة. فرجال الجندرمة مبثوثون في كل الأماكن هناك. ولا يمكن أن تمر حتى لو ارتديت جلباب أحد الجبليين الذين يعبرون الحدود خفية ليشتروا كيلوغراماً واحداً من السكر». وعندما اتَّخذ جورج هذا القرار لم يستطع ألان ولا أنا أن نقنعه بالرحيل فوراً وقد أصبح في إمكاننا أن نشتري الكمية التي نريدها. لكن جورج رفض وقال إننا لا نعرف ظروف العمل. وهكذا لم أكلِّف نفسي مشقة الرفض. فأنا لست خبيراً، ولم أضع وشماً على ذراعي في السجن. وحتى إذا وضعته في المستقبل فليس ذلك من شأني ولا يعنيني إطلاقاً.

عندما غادرت الميرادور أمس في الخامسة صباحاً، كان فندق الشاون مغلق الأبواب. وعبثاً حاولت أن أضرب الباب الخشبي بقوة يدي المتعبتين من فعل الشراب الكثير. لم تكن عادتي أن أشرب حتى أغرق. ولكن كل شيء تتعود عليه. وهكذا فقد تعودت على الغرق في نهاية الكأس، وفي نهاية الجنس. كنت أغرق وأحاول أن أنقذ نفسي من جديد، وأعاود الكرّة بطريقة سيزيفية عابثة لكن دون جدوى. هذا شيء غير مهم. فعندما أدركني التعب في الخامسة صباحاً ذهبت ونمت على الشاطئ الرملي مباشرة قرب الميناء. وكان يفصلني عن ضوء البواخر سياج حديدي ربما كان مكهرباً. نمت دون أن أنزع جزءاً من ثيابي، بل على العكس حفرت لقدميّ حفرة في الرمل الدافئ وأدخلتهما فيها، لم أستمع إلى الضجيج المتضخم مباشرة حولي. كان يأتيني كما لو كنت أسمعه في حلم. كان ضجيجاً صاخباً مثل يوم القيامة. يوم ينفخ في الصور فنأتي أفواجاً أفواجاً. ورأيت وأنا بين النوم واليقظة صوراً هندسية غريبة ليوم القيامة. كانت الأفواج مصطفة هكذا:

فرادى

فرادى

مثنى مثنى

ثلاث ثلاث ثلاث

رباع رباع رباع رباع

رباع رباع رباع رباع

ثلاث ثلاث ثلاث

مثنى مثنى

فرادى

فرادى

وكان بالقرب من هذا الشكل، شكل آخر مشابه. وقربه أيضاً شكل يشابهه. وهكذا إلى ما لا نهاية من: فرادى، فرادى إلى فرادى، إلى ما لا نهاية. وعندما فتحت عيني كانت الحادية عشرة والحرارة شديدة والأجسام مبثوثة فوق الرمل، منبطحة في أوضاع جنسية مثيرة بالنسبة إلى الرجال والنساء على السواء. وبعض هذه الأجسام كانت واقفة تمشي، أو تقفز، أو تضرب الكرة بأيديها أو بأرجلها. رغم أن هذا ممنوع من طرف شرطة الأخلاق. مسحت عيني بظهر كفّي ووقفت ونفضت عن ثيابي وجسدي الرمل الذي غطتني به الريح الخفيفة التي تهبُّ عادة على طنجة في أوقات معيّنة من الصيف. ظللت واقفاً في مكاني. تمططت ونظرت إلى الشاطئ الواسع الذي يملأه أناس من كل جنس. كانت لغتهم في الغالب الإنجليزية أو العربية. فإما إنجليزي يحاول أن يتحدث العربية، وإما عربي يحاول أن يتحدث الإنجليزية. والعربية، والأنجلو - عربية. وعلى كل حال فقد كنت أسمع ثلاث لغات من حولي: الإنجليزية، والعربية، والأنجلو - عربية.

كانت الأجسام من كل حجم ولون، تقفز أو تنام، أو تتحرك، أو تضرب الماء بأذرعها متجهة نحو المقافز الخشبية التي تبعد من الرمل مسافة يسيرة. وفركت عيني لأرى من جديد الصورة الحقيقية لما يدور أمام عيني. شعرت بالصهد يخنقني والثياب ثقيلة فوق جسدي، وتساءلت لماذا لم أستطع أن أستيقظ من النوم رغم هذه الحرارة المفرطة. في الواقع كنت متعباً إلى حدٍّ بعيد. ولم أستطع أن أجمع العزم على الوقوف رغم أني كنت بين النوم واليقظة. ويمكن أني كنت مستيقظاً. مشيت فوق الرمل نحو سان - بيتش. قفزت فوق الحاجز الصغير الذي يفصل المقاهي والبيتشات عن الشاطئ حيث الأجساد العارية. ورحت أدور على نفسي أولاً. كانت هناك نساء من جميع الجنسيات وحيدات ومنفردات. أما العربيات فلم يكن يثرن فيَّ أدنى شعور بالرجولة. هذا شيء غير مهم بالنسبة إليّ لكن مهم بالنسبة إلى الآخر. كنت أعرف، مثلاً، أوروبياً يحلم بالنوم مع عربية مهما كلفه ذلك من ثمن غالٍ. وفي الوقت الذي كان يرغب في ذلك، كان يدفع لي امرأته مباشرة وبلا مراوغة. ويقول إنها لم تعد تهمه، وإنها لم تكن تهمه في يوم من الأيام، وإن ما يفعله معها إنما هو مجرد تحقيق رغباتها لا غير. فكيف إذن لا يستطيع أن ينام مع عربية؟ والدار البيضاء واسعة عريضة، تعرض النساء فيها أنفسهن بثمن فنجان قهوة. يكفي فقط أن ترفع إصبعك وتعلن مجيئها. ولست أدري إذا استطاع ذلك الشخص الأوروبي الأشقر أن ينام لحد الآن مع العربية التي يتمناها. أما أنا فقد عرفت نساء من جميع الجنسيات. أما هو فكان خجولاً وكان يحلم بأن تأتي تلك المرأة من قمقم تاريخي في كهف عتيق. أما أنا فلم تكن لدي كهوف عتيقة، بل كانت كهوفي ذات أحجام أخرى.

عندما وصلت إلى سان - بيتش، نزعت ثيابي وذهبت لأجلس

هناك فوق كرسي أمام طاولة بيضاء مغروس في وسطها شمسية مخططة مثل جلد الحمار الوحشي. طلبت قهوة سوداء. وعندما مرّ بائع نظارات شاب اشتريت منه نظارتين سوداوين. ذهبت ونظرت في المرآة واخترت نظارتين سوداوين وضعتهما فوق عيني، حتى يظهر لي لون جسدي بنياً، مشمساً، برونزياً، وحتى لا أشمئز من منظر لونه القبيح. وعندما استرخيت فوق الكرسي أمام فنجان القهوة، شعرت بسعادة حقيقية. كانت عدن أمامي جاهزة حاضرة في فنجان القهوة، وفي صحن فنجان القهوة وفي قطعة السكر المتبقية. ورأيت عدن فوق الورقة التي تلف قطعة السكر المتبقية. قرأت على الورقة «قهوة ديبوا».

ثم تحولت الكتابة إلى شيء آخر: «قهوة عدن» ثم «عدن ديبوا» ثم «عدن عدن» ثم «عدن» وأزحت نظارتي ووضعتهما فوق الطاولة أمامي. ومددت يدي إلى الشمسية وحاولت أن أحركها حتى يمتد ظلها إليّ. حاولت عبثاً لأنها كانت مثبتة في الأرض. انضم إلى طاولتي فتى وفتاة، وجلسا قبالتي دون أن يكلم أحدهما الآخر كما لو كانا لا يعرف واحدهما الآخر. لكن الفتى مدّ يده إلى الطاولة أمامه وأخذ الولاعة. ثم انبعثت شعلة حقيقية تحت أنف الفتاة. أخذت تدخن وتتصفح المجلة النسوية. ثم وضعت يدها وراءها وأمسكت بالفوطة، نفضتها وأعادتها إلى مكانها. نظر الفتى في عيني مباشرة ثم أحنى رأسه خجلاً وأشعل لنفسه سيجارة.

قال الفتى:

- رجاء.

- نعم.

- ننزل إلى الماء.

لم ترفع عينيها عن المجلة. ظلّت تقلب صفحاتها.

قالت:

- ليس الآن. اطلب لي بيرة وانزل وحدك.
- تعالي انزلي معي.
- لا.

أخذت تدخّن ثم رفعت عينيها عن المجلة. نظرت في عقب السيجارة. ألقته فوق الرمل ودفنته بقدمها ثم عادت للمجلة تنظر فيها دون أن تقرأها. ذهب الفتى وفوطته فوق كتفه نحو الماء. لم ترفع عينيها ولم تهتم به. جاءتها بيرة باردة فتحت ووضعت أمامها فشربت قهوتي التي أخذت تبرد. وضعت سيجارة في فمي وطلبت منها أن تناولني الولاعة ففعلت وهي لا تبتسم ولا تنظر إليّ. أشعلت السيجارة وشكرتها فأتى شاب وطلب أن يجلس بجوارنا. قلت إن المكان غير شاغر. فانصرف ونظرت الفتاة في عيني وأفرغت بيرتها ومدت يدها إلى الشمسية لتحركها فقلت: «إنها مثبتة. حاولت ذلك، ولكنها مثبتة».

قالت الفتاة:

- الحرارة شديدة اليوم. لا أحتمل الحرارة القوية.
- أمس كان أخف من اليوم.

قالت نعم برأسها. أخذت أرشف القهوة وأتطلع إلى نهديها اللذين كانا يظهران بوضوح لحماً ودماً. قلت لها:

- يبدو أن زوجك يحب الاستحمام.

نظرت في عيني نظرة غريبة شاذة. وقلبت ورقتين بسرعة خفيفة ثم قالت برأسها نعم. ولم تضف شيئاً. رأيت نهديها الجميلين يهتزان وقلت:

- يبدو أني رأيت زوجك في مكان ما.
- ليس زوجي ولا أي شيء. إنه أخي.

أخذت ترشف البيرة وتحرك رأسها فيقفز شعرها إلى الخلف ثم إلى الأمام. قلت:

- يبدو أني أعرفه. وجهه مألوف لدي.

- ممكن.

سكتت وقلبت الأوراق. وقفت وذهبت إلى المرآة وقامت بحركات مثل عارضة أزياء. حرّكت رأسها فقفز شعرها إلى الخلف وعادت لتجلس في مكانها. حولت وجهها عني وكأنها لم تكن تهتم بي إطلاقاً. وقفت دون أن أنظر إليها وتوجهت نحو الماء. ألقيت نفسي في البحر وعدت لأتمدد فوق الرمل الحار. غرست نظارتي في الرمل وتمددت على بطني، واضعاً رأسي فوق ذراعي المتشابكتين واستعذبت أشعة الشمس التي تدغدغ ظهري. سمعت البحر يهدر وصوت ضرب كرة باليد: طف. ثم: طف طف. ثم: طف طف طف. ثم صمت. لا شيء. والو. ثم والوا، أي لا شيء. كان للبحر صوت عميق يهدر في مكان بعيد سحيق. في باطن الأرض وفي الحدود الإسبانية. المهم أن هناك صوتاً عميقاً يميز البحر عن غيره. وهذا الصوت هو رائحة، هو نغمة، هو صورة، هو ما شئت أو أشاء.

هبّت ريح خفيفة وداعبت ظهري ودغدغت ما بين فخذي لكنها لم تستطع أن تخترق المايوه الأحمر. ظللت دافناً رأسي بين ذراعي ولا أرى سوى الظلام الأحمر في داخلي. وفكرت في جورج وألان. هل ينزلان إلى البحر اليوم أو يكونان نائمين في الفندق؟ وخمنت أن احتمال ذلك ممكن الوقوع. هما في الفندق، أو في السوق الداخلي، أو هنا سواء. وإذا لم يكونا هنا أو هناك فإنهما يكونان أين يشاءان. وهذا شيء مهم. وفكرت أيضاً أن أنهض وأذهب إلى الفتاة التي تركتها في البيتش جالسة وحدها. إنه أخوها

ولا تعنيه مغامرة أخته. ويمكنها أن تقبلني وهو يشوف أمام الملأ فيضحك ويناكتني مثلما كان يفعل بيير مثلاً. أو على الأقل لماذا لا يكون مثلي. لماذا أمنع أختي من ممارسة شيء تريده؟ وإذن سأذهب إلى البيتش، وسأجلس قرب الفتاة وأحكي لها عن حياتي وأناكتها وأناكت أخاها. ثم أذهب معها لأنام في فراشها الخاص. وسينام أخوها في فراشه الخاص. ولكن مع من سينام؟ لا بدَّ له من أخرى ينام معها. ثم رفعت رأسي وحدّقت في زحمة الناس العراة وطردت هذه الأفكار المضنية. كنت ممدداً فوق الرمل إذ لم تكن معي فوطة. ورأيت على مقربة مني عجوزاً أوروبياً وقد تمدد قبالتي. عندما وقعت عيناي عليه رأيته يُحدّق إليّ بفضول كبير، فحوّلت نظراتي عنه، لكن الطيبة والبراءة كانتا ترتسمان في عينيه المتقدتين. لم يبقَ منه سوى العينين المتقدتين. أما الجسم فكان مهترئاً كثوب قديم رثّ. وعندما التفت من جديد جهته رأيته يبتسم جهتي. التفتّ لأرى إذا كان يبتسم لغيري. لا. لم يكن هناك أحد. نظرت إليه من جديد فابتسم وهزّ لي برأسه. إنه رجل طيب إذن. رفع يده بعلبة السجائر الحمراء وأخرج سيجارة. قلت برأسي نعم. وتلبية لطيبته وقفت وذهبت لأتناول السيجارة. لكنه سبقني بخفة شاب في العشرين ووقف. ناولني السيجارة وأشعلها لي بنفس السرعة.

قلت وأنا أحدق في جسمه المهترئ:

- شكراً، أنت طيب.

قال: «أوه».

ابتعد مني قليلاً فرأيت جسمه المهترئ من جديد. كان ينتظر القبر حقاً. جثة حقيقية حية لكنها ميتة. وقال الرجل بعربية رطنة:

- تمشي معايا.

- فين؟

- في بيتي. تمشي تنعس معايا.

ارتعشت. «أيها العجوز القذر!» لم أستطع أن أنهي السيجارة لأنها كانت مرة. تركتها تذبل في يدي وتنطفئ ببطء. قلت وأنا أنظر إليه:

- إنك عجوز معتوه.

- تمشي معايا.

- .....

وقف كثوب مهترئ رثّ قديم، أخذ يكرر مثل بيك - آب عتيق:

- تمشي معايا...

- .....

- تمشي تنعس معايا.

- .....

- تمشي.

- .....

- تمشي معايا.. تنعس معايا.. في بيتي تنعس معايا.

كانت تلك هي الكلمات التي يحفظها عن ظهر قلب فيما أعتقد. يكررها برطانة ورتابة، وتخرج من فمه الأهتم كما يتكلم ببغاء. وقفت في وجهه ونفضت التراب. قلت:

- سر في حالك، أحسن.

وعندما رأى الغضب المتطاير من عيني انصرف وفوطته وعلبة سجائره في يده اليمنى. ذهبت إلى الماء وغطست فيه وفكرت في أن أصل إلى المقافز التي ركّبها عدد من السابحين والسابحات. وبالفعل أخذت أضرب الماء بقوة وأناة نحو المقافز. لكني عدلت عن فكرتي إذ تذكرت الفتاة فرجعت إلى البيتش وقررت أن أتحدث إليها بجرأة:

- أعاد أخوك؟

- عاد بسرعة. لا يستطيع أن يغيب عني طويلاً.

تحدثنا طويلاً وذهبت الفتاة وأخوها ليتغديا ولم يعودا إلى البحر إلا في الغد، وعندما جلسنا وحيدين وذهب أخوها ليسبح قالت الفتاة التي ألفتني:

- هل تدري يا محمد؟

- نعم.

- إنه يحبني حتى الموت. فمنذ فقدنا أبوينا في حادث طائرة قادمة من السنغال وهو لا يفارقني.

- أنتما يتيمان إذن.

- ليس تماماً ولكنا نملك ثروة لا بأس بها. وهو لا يزال يتابع دراسته في كلية الآداب.

- حتى أنت، أعتقد.

- لا... أنا غادرت الليسيه لم أهتم بمتابعة الدراسة. المال موفور فلماذا العناء. هل تشرب بيرة؟

- نعم. شكراً، جرسون!

بعد صمت طويل:

- هل تدري؟

- نعم.

- إنه يحبني ويغار إذا حدثت رجلاً.

- لماذا؟ إنه أخوك وليس خطيبك.

- أعرف. لكنه هكذا. كانت أمي تدلله وهو طالب في الكلية. وهو الآن يحبني ويرغب في أن ينام إلى جواري في السرير.

- غير معقول.

- كل المعقولية. وهو لا يحب سوى شيئين أنا والقراءة.

- نعم.

- وماذا يقرأ؟

- كتباً بالعربية. أما أنا فأقرأ إذا كان لدي وقت، كتباً بالفرنسية. . أقصد روايات.

- هل تحبين القراءة كثيراً؟

- لا . . إذا كان لدي وقت فقط. أما هو فمعجب بكاتب اسمه نجيب محفوظ أو نجيب معضوض لا أدري. هل تعرفه؟

- نعم.

- قال إنه يتحدث عن أشخاص يشبهونه لا أدري. هل تريد بيرة أخرى؟

- نعم. شكراً. جرسون!

ثم دعوتها إلى النزول إلى الماء فأومأت للجرسون بأننا راجعان. أمسكتها من يدها وغطسنا في الماء ولامست نهديها فارتعشت وقالت: «- لنعد. إنه ينتظرنا. وسف يقلق إذا لم نعد». وعدنا فذهبت أبحث عن جورج وألان في الفندق وكنت لم أرهما منذ ثلاثة أيام. ويبدو أنهما غيّراه دون أن يعلماني بذلك. صعدت الدرجات الحجرية المتآكلة. اجتزت دار السينما القديمة وبناية المسرح القديم. مررت بين زحام الفنادق وتوجهت نحو فندقي المتواضع. ألقيت نظراتي على اللوح وصعدت إلى غرفتي لأستريح من عناء شديد. تمددت فوق السرير بضعف ووهن. أين ألان؟ أين جورج؟ وأخذت أفكر أين يمكنهما أن يكونا الآن. منذ ثلاثة أيام لم أرهما. قالت السيدة البدينة، صاحبة الفندق، إنهما أخذا ما كان معهما وانصرفا ولا تدري أين. ولم أكن أعرف سبب ذلك. ومن يدري فقد يكونان غيّرا الفندق لسبب أو لآخر. ولكن حتى لو غيَّرا الفندق فإني لا بدَّ أن أعثر عليهما في مقهى فوينتس أو تنخيس أو سينترال بالسوق الداخلي. لكني لم أعثر عليهما ولم ينزلا إلى البلاج

للاستحمام. أخذت أفكر وأتخيل أين يمكنهما أن يكونا. لكن لم أجد مكاناً أحسن يمكنهما أن يكونا فيه سوى السوق الداخلي أو البلاج.

تمددت طويلاً فوق السرير القذر. ثم وقفت إلى الصنبور وغسلت وجهي وذراعيّ ويديّ. ونقلت قدميّ وذهبت إلى حوض الصنبور وغسلتهما حتى الركبتين. ثم عدت لأستريح بعد أن نظفتهما من الملوحة التي تخز الجلد. كان عليَّ أن آخذ دوشاً. لكن أين؟ إن هذا الفندق لا يتوفر على دوشات. وعندما صعدت لم تكن «الحاجّة» صاحبة الفندق موجودة بالباب. وخرجت وأطللت عليها من فوق لكي أذهب وأسألها عن جورج وألان. لكنها لم تكن هناك. وقلت لحمادي أن يصعد إلي عندما تأتي. وبالفعل عندما كنت ممدداً أفكر في المكان الذي يمكن أن أجد فيه جورج وألان، سمعت طرقات على الباب الذي كان شبه مفتوح فقلت ادخل. ودخل حمادي وقال: «إنها هنا». اكتفى بقول ذلك ونزل. وسمعت صوت قدميه وهما تصدمان الدرجات. فوقفت للتو. وذهبت وغسلت وجهي من جديد ومررت عليه بقميصي أنشفه، لأنه لم تكن هناك فوطة. وعندما رأتني الحاجّة، قالت وهي تتمايل:

- أما تزال تسأل عن صديقيك؟

- نعم. نزلت لهذا الغرض. ألم يعودا؟

قالت الحاجّة وهي تنادي على حمادي أن يأتيها بمفتاح الغرفة 19:

- قلت لك ذهبا ولن يعودا.

- ولكنا جئنا معاً.

قال حمادي:

- المفتاح ليس عندي إنه عند العايلة وهي تنظف الغرفة.

لم تنتبه الحاجّة إليه وإنما وجهت الكلام إلي:

- أنا أعرف هؤلاء الأجانب. جئت معهم أو لم تجئ سواء. لا تثق بهم أبداً.

- هل سرقا لك شيئاً؟

- لا تكن مغروراً يا وليدي. أولئك لا يصادقون أحداً. أعرفهم جيداً. هم ليسوا سوى جماعة من اللصوص. لطالما هربوا دون أن يدفعوا لي ثمن الليالي التي قضوها هنا.

- ليسوا جميعاً كذلك.

- كلهم كذلك. كل واحد شعره طويل هو لص أو قاتل.

أطرقت وأخذت أنقر على الطاولة أمامي بأصابعي. سكتت الحاجة بدورها، ورأيتها ترفع ثوبها الطويل عن ساقها وتحكه ثم تعيد ثوبها إلى ما كان عليه، قلت لها:

- أريد أن أعرف أين ذهب صديقاي؟

- ذاك شأنك. أقول ليست معهم صداقة. أولئك المشعككون. تصور حتى الفتيات اللائي يكنّ معهم يفعلن نفس الشيء.

قلت:

- إنك تتوهمين ذلك؟

قالت بغضب:

- كيف أتوهم ذلك؟ أنا أقول لك عن تجربة. إني أملك هذا الفندق منذ خمس عشرة سنة. الفتيات يفعلن نفس الشيء. وعلاوة على ذلك هن مريضات بالزهري. إياك أن تنام مع إحداهن. قلْ لي يا وليدي لماذا تفعل مثلهم وتطلق شعرك أنت أيضاً؟

- أمي الحاجة. أنا أسألك عن صديقيّ فقط ولا دخل لك بشأني.

- لا تغتظ. أقول لك فقط ابتعد من هؤلاء. تصور مرة أن واحدة منهن صعدت فوق، وأخذت تنادي على حمادي من تحت بعدما تبوقت من جرّاء الكيف والمعجون. وأصرّت على أن يباشرها من الخلف. هل هي امرأة أم حيوان؟ فحتى أنثى الحيوان لا تباشر من الخلف. وعندما صعد إليها ونام معها أصيب بمرض اضطره إلى العلاج مدة سنة، بل إن الطبيب كان يهدده بقطعه. إنهن مجرد مريضات، أما الآخرون فهم لصوص. لا تبحث عنهما واصعد إلى غرفتك وشوف لك أصدقاء من أبناء عمومتك.

كانت الحاجّة تتحدث وأنا صاعد على السلم الحجري القديم إلى الغرفة. لم أرغب في الوقوف أمامها أكثر. لم يكن يهمني أن أستمع لها لأني أعرف ما أفعل، وأن هدفي هو أن أكتشف حياتي على طريقتي. وظللت بعد ذلك أياماً طويلة أنتظر ألان وجورج لعلهما يخرجان من زاوية في شارع، أو كرسي في مقهى، أو حجر في رصيف. مرّت خمسة، عشرة أيام بالضبط. كانت نقودي القليلة التي أحصل عليها بهذه الطريقة أو تلك قد نفدت. وكنت أحتار ماذا أفعل؟ أين حلم بناء بار في أميركا اللاتينية؟ أين عدن عدن عدن ن ن ن عدن... يا إلهي أين عدن؟ عدن الحقيقية أو عدن الزائفة؟ أين هي أحلامي؟ كيف أشبع جوعي؟

ونزلت ذلك الصباح إلى السوق الداخلي وعوض أن أصرخ «حب، حب، حب» نصبت لي محكمة أخرى صغيرة. كانت جلسة محاسبة فقط. وتخيلت أختي أمامي وهي تناقشني:

هي - محمد، أبونا مات.

أنا - أعرف جيداً. لكن ماذا تريدين أن أفعل؟

هي - ابحث عن عمل. أنت مثقف.

أنا - لكن أين أجد هذا العمل؟

هي - بأية طريقة.

أنا - وأنت؟ ألا تجدينه بأية طريقة؟

هي - لكنك رجل.

أنا - معنى ذلك أن الرجل يستطيع أن يجد وسيلة للعيش بسهولة.

هي - لا أعتقد.

أنا - انتظري حتى تتغير الأحوال. ربما صرت كاتباً مشهوراً وأصبحت غنياً.

هي - تماماً. فهمت. أمنا وحيدة وعجوز.

أنا - أنت ناضجة.

هي - أفكار مثل أفكارك تودي بك إلى الجحيم. قم واعمل ودع عنك ما يُسمّى بالكتابة.

أنا - (بغضب) وأنت هل تعملين؟

هي - كيف أعمل؟ دُلّني على عمل.

أنا - الوسيلة الوسيلة سهلة. إن لك فر.. فر.. فر.. هل أقولها؟

هي - قبل أن تقولها أقول لك بدوري: قم واذهب ابحث عن عمل. الرجال هم الذين يعملون.

وتذكرت عكس الفكرة التي يقول بها جورج. الرجل الحقيقي هو الذي ينبذ العمل بمفهومه عند الناس. وأخذت أرشف الشاي بعد أن اختفت صورة أختي. وجاءت جماعة من «الطيور الغريبة» وحلّقت حولي، وطلبت الشاي وعصير البرتقال. لكل واحد أفكاره عن العالم. وفكرت أن أنهض على التو، وأن أذهب إلى الفندق

وأشتري تذكرة العودة إلى الدار البيضاء، لعلّ ذلك يكون أحسن وأنفع من أوهام مريضة تنتابني. لكن قبل أن أفعل، ذهبت إلى الكشك المقابل لمقهى سنترال واشتريت كارت - بوستال وكتبت على ظهره:

«سوز، أحبك وأحب الدانمارك. أنتظر دائماً أن تنقذيني. أحبك. أحبك. أ ح أ. أ. إلخ. إلخ».

أرصفة وجدران

1974

كتبت هذه القصة بمدينة القنيطرة في الفترة ما بين 1966 و1967. أعيد النظر فيها بسان روكي بإسبانيا خريف عام 1968 وبمدينة الدار البيضاء خريف عام 1971.

إن هناك ما يشبه انتقاماً لقوى الظل من أطفال النور.

شارل بودلير

1

إن العالم يبدو لي في بعض الأحيان مهترئاً. جد مهترئ.
وأشعر بدخان زاكم ينبت في صدري، وينطلق إلى خياشيمي ببرود، ثم إلى الفضاء مختلطاً بظلال الأشياء وبالفراغ الكابوسي الثقيل.

كان متمدداً في العياء. وشعر للتو أنه في حاجة إلى تسلية على الأقل. كان شعوره بالاغتراب كبيراً. هذه الجدران الأربعة التي تتضمن قدراً من الهواء ليس فيها هواء.

كل شيء جاف ولزج.
حتى أوراق الكتب الراقدة باحترام
كجذوة حب ميت.
إن العالم مهترئ،
وقديم،
بل عادي جداً. . .
(وما أحوجه إلى تغيير!)

لو أنني أقفز هذه اللحظة ككُرة مطاطية وأصفع الزمان، فأغير وجهته، أو أجعله يقف لحظة ليجيب عن هذا السؤال:

«لماذا هذه الحركة تتضمن العفونة والرتابة والتكرار؟»

إنني مُقيَّد، وأشعر أن العالم مُقيَّد كذلك وهذا الزمان وهذه الجدران الأربعة، وهذه الأوراق الجامدة. .

ترى أين توجد مفاتيح هذه القيود جمعاء؟

ركل كتاباً بقدمه كان قد تعب من قراءته، ثم نهض مفككاً. «الحكيم إيزوب وسقراط.. لا شيء قد تغير. إن القيم هي الأخرى قد اهترأت باهتراء العالم».

وبتراخٍ مترف، داس بعض الأوراق التي ألقاها قبل لحظة. خشخشتها كصوت قطعة خشب تحترق. كيف لهاتين القدمين الميتتين أن تستطيعا خنق صوتها؟! بحث عن حافظة نقوده ودسّها في جيب سرواله. وقبل أن يعبر عتبة الباب ارتمى في حضن المرحاض. لقد شعر بألم في بطنه وبأنه في حاجة إلى أن يتبرز، لكن رائحة المرحاض الكريهة صدّته. إنه لم يُنظف منذ أمد. أجّل ذلك إلى أن يصل إلى أقرب مقهى. غير أنه وهو يقفل الباب وراءه أحسّ بالألم يتفاقم وأنه من غير شك لا بدَّ من التغوط.. ففعل.

وبعد لحظات داس إفريز المقهى التي يختلف إليها. الكراسي الخشبية الصلبة وجهتها للطريق. كالعادة شعر أنه يحس بالملل. لون الكراسي الأخضر الحزين انتشله من بروده. لا شيء غير كؤوس فارغة الأفواه، جائعة، تقعد فوق الطاولات. يبدو أن الجرسون هو الآخر قد احتجّ على تراكم هذا الملل.

جلس بومهدي بكسل ووجهه إلى المقهى لا إلى الطريق. كان يود أن يتمتع برؤية ذينك الرجلين الجالسين في قعر المستطيل الزجاجي. إن حركات أحدهما تبعث على الضحك. تذكّر نكتة لصديق عدمي. «لقد قدمنا ملتمساً إلى اللّه لكي ينفض الأرض فيتساقط منها الأوباش، ثم يبقى الأخيار».

هذا الرجل لا يعرف بأنه خيّر أو شرير.

سئم بومهدي من النظر إليهما (إن حركاتهما سخيفة) ثم إنه لا يسمع أحاديثهما فهو إذن لا يتسلى، بل يتضايق. وأدار وجهه إلى

الطريق وصفق للجرسون بعد أن رأى الكؤوس «قهوة، قهوة من فضلك».

وشرب بإرهاق، ودخّن بإرهاق كذلك.

ثم وضع ساقاً على ساق.

وبدأ يُفرغ الألم في نظرات بعض النساء الغامضة الكسلى، الملقاة على حذائه ورأسه. مرّت إحداهن وهي تتمايل بإغراء ليس يبعث على اللذة.

قالت بعينيها تعال فلم يذهب.

(سلبته مناداتها إثبات ذاته) إنه يحب كثيراً أن يطلبها فتمانع، ثم يطلبها فتمانع، ثم يطلبها فتمانع. ثم يطلبها فتمانع حتى ترتمي أخيراً بين ذراعيه، طيّعة كالهواء أثناء التنفس.

هذه المرأة أثبتت ذاتها على حسابه ولكنه يستطيع أن يدمرها الآن «لتمضِ دون أن أمضي معها» وحوّل عينيه إلى النبات الذي زرعه صاحب المقهى. كان ينبت بفضول. لقد اكتشفت ذلك منذ ترددي على هذه المقهى. لطالما شعرت بأنه يتحداني، هذا النبات الجريء، إنه يتحدّاني كما تتحداني جميع الأشياء.

شعر بالمرارة في فمه فطلب كوباً من الماء. ثم ابتلعه وهو ينظر إلى صديق وصل لتوه.

ثم جلس، وسأله:

- هل ذهبت إلى البحر؟
- خمّن.
- إن بشرتك مملحة ومشمسة.
- نعم..
- هل رأيتها هناك؟
- لا.. الأصدقاء سألوا عنك.

- كيف كان البحر؟

- هادئاً.

- جداً.

ثم طلب له قهوة وتركه.

- إن لدي أمراً مهماً. قال الصديق.

- هل الأمر أهم منّا..

ابتسم له. وفي قرارة نفسه كان يلعنه وهو يودعه. إنه صديق ثقيل.. في بعض الأحيان.. ثم إني لا أحس المقدرة على النفاق الآن فأضحك لنكاته المثيرة للتقزز أو أحتمل إطراءه لنفسه.

كانت فتاة طالما راودها تسير أمامه في الشارع.

اهتزّ للفرصة...

انطلق على الرصيف كورقة صفراء تدفعها الريح.

2

مضغ بومهدي عشاءه بسرعة وبلا شهية، فكّر في إقناع الفتاة لكي تضرب له موعداً أبيض. أمه كانت تنعق في الغرفة المجاورة بصوتها القبيح. لعلها كانت تلعن والده كالعادة. إنها تحطم أعصابي بلا هوادة وتدوس شعوري بجهل ومرارة وقرف. إني أكرهها وأكره حتى البيت الذي يجمعني وإياها. إنها تعطف عليّ، ولكنني أعتقد أنها لا تصلح لعطفي عليها. إنها لا تعجبني. لست أدري لماذا؟ يمكن أن أكون معقداً. لكن ربما أكون صائباً في موقفي من هذه الأمومة التي تبدو مجانية وباردة تجاه معطياتي الشعورية.

كانت لا تزال تنعق... ولذلك قرر أن ينزل إلى الشارع لا لغرض ما، ولكن مرغماً، فقابليته للقراءة لم تعد تسعفه.

(- هل أنت خارج؟ ألا يعجبك الخروج إلا بالليل؟

قالت الأم، فردّ بعصبية:

- أيعجبك أن أبقى هنا، كل الوقت؟

- ألا يكفيك الخروج بالنهار؟

- إني لست بنتاً؟)

أكّد لها ذلك بهدوء غاضب، وصفق الباب خلفه، وفي طبلة أذنه يتصارع النعيق. (إن الجو في البيت ليس مريحاً. ولذلك لا آتيه

إلا بعد أن أتعب أو أجوع. فالشارع على كل حال مسلٍّ وإن كان ناسه سخفاء وجبناء ومزيفين).

قطع الطريق لكي يمتطي الرصيف الآخر. كان يود أن ينحرف يميناً ليدخل المبولة العمومية... لم يشرب كثيراً ولكنه يعتقد أنه يرغب في التبول. ألقى بعقب سيجارة كاد يحرق أنامله وكان قد أشعله في غير وعي. ثم قبل أن يدخل المبولة سحقه بحذائه الجلدي الأسود.

وهو يخرج، رفع رأسه إلى أعلى لكي يقرأ عناوين الأفلام التي ستعرض هذا المساء. وفكّر بوعي لماذا يعلّقون هذه الصور والعناوين قرب مبولة رائحتها كريهة. ثم قفز له الجواب ليس يدري من أين: لأن الناس يترددون كثيراً على هذه المبولة، وليس هناك في الناس من لا يبول. أن تعلق هذه العناوين هنا أحسن من أن تعلق قرب كشك سجائر. فليس كل الناس يدخنون. وبفتور ابتسم. (بعض الأحيان يبتسم المرء كالأبله، ولكنه لا يعرف لماذا؟).

أدخلَ يده في جيبه، ثم مضى من مصباح على الطريق إلى مصباح.. ليس لديه رغبة في أن يدخل السينما. إن فيلم «امرأتان» شيء رائع. لقد قرأ القصة وروى له بعض الزملاء عن الفيلم. ولكن ليس لديه رغبة. إنه يحب مورافيا ولكنه يكره الممثلة.

وإذن فالفيلم لن يعجبه ما دامت بطلته لا تعجبه (سأكتفي بالقصة، وربما غيّرت فكرتي عن الممثلة في المستقبل فأشاهد الفيلم. أما الآن فيمكنني أن أذهب لقضاء الأمسية عند صديقي سالم..).

داسته امرأة في الطريق بكتفها (أنت أنت وأنا أنا. لكل حقيقته).

قال سالم:

- لماذا تطرق الباب بعنف؟

ضحك بو مهدي باستهزاء:

- النيام لا يستيقظون إلا بالعنف.

- لست نائماً يا أخي..

ضحك كالغدير وقرر:

- إنني أعرفك، أنت تنام وأنت مستيقظ.

لكمه على كتفه. ودفعه إلى الداخل وهو يكاد يتفكك.

قال بو مهدي:

- هل تقرأ أيضاً؟

- وماذا أستطيع أن أفعل؟

قال بو مهدي:

- والرسم؟ أين وصلت؟ ألا تزال ترسم الريح؟

دفعه وقال:

- يا لك من معاند. إنك تستثيرني أبداً، إنني رسام ولكنك تنكر ذلك.

قال بو مهدي:

- وأنا أيضاً سأصبح رساماً، بل إنني رسام فعلاً.

لم يجب سالم، ولكنه نظر إليه بغضب مفتعل، وأعلن:

- سأسكتك الآن، وستقول إني رسام فحل.

وذهب ليعود بزجاجتي بيرة، وقال:

- خذ، هذا هو دواؤك. ما رأيك الآن؟ هل أنا رسام الآن؟

- أوه، أنت رسام كبير، عبقري.

وطفقا يضحكان ويضحكان..

كانا يشربان ويثرثران كعشيقين، وأمسك بو مهدي بكتاب كان ملقى فوق السرير الذي جلس فوقه. كان يقلب صفحاته. بينما كان

سالم منشغلاً بتنظيف المنفضة بقطعة ورق. ورفع عينيه إليه بسرعة، ثم قال:

- إنه يصلح لك.

قال بو مهدي:

- هل تسخر؟

- لماذا؟ ألا تحب برنانوس؟

- لا، إني أكره هذا الملعون. لقد قرأت له **تحت شمس الشيطان** و**رسالة إلى الإنجليز** فضايقني.. ضايقني كثيراً.

- كيف، هل تكره كتابته؟

- لست أدري. إني أكرهه.

ضحك سالم:

- إنك كتلة من الكراهية.

ردّ بو مهدي:

- أيها النذل. إن بعض الناس لا يصلحون لغير ذلك.

- أنت متشائم.

- إني أعرفك جيداً وأعرف كلامك.

- نحن صديقان.

ووضع المنفضة. وألقى بقطعة الورق على الأرض.

- هل لديك سيجارة؟

- لا...

وذهب سالم ليأتي بالسيجارة.

(مهما يكن فإن وجودي في غرفة سالم شيء رائع ومسلٍّ في آنٍ واحد. إنني أحسبني إزاء إنسان يستعمل إرادته بلا مبالاة فيها الكثير من الرضا والحرية. إنه لا يهتم بالمعايير التي لا تصدر عن ذاته. فهو يعتبر نفسه مركز العالم، ويعترف لنفسه كما يعترف لزملائه أنه

يستطيع أن يعيش بلا حدود، وبلا مقاييس، وبلا عقبات. وسالم في مخبره طيب جداً. وهو يتلقى الفكاهة ضاحكاً كالبحر، واللوم أو العتاب بلا مبالاة. لأنه لا ينطلق سوى من ذاته. إنه يقرر رغباته بإرادة صادقة كما يؤكد).

كان يدخن بفتور وكان سالم يفعل كذلك، وأمامهما الكأسان وقد فرغا. والزجاجتان تنتظران أن تُملآ ولكن عبثاً. (إنه انتظار بلا جدوى! ما أفظع هذا!). وهو يدسُّ ذيل سيجارته في المنفضة الوحيدة التي كانت تقبع بينهما، قال سالم:

- إنني على وشك أن أنهي لوحة جديدة، غير أني أحس بالكلل.

ومدّ يده تحت السرير وأخرج القماش ثم فتحه في وجه بو مهدي:

- انظر، هل تعتقد أنها ستكون شيئاً رائعاً؟

- أوه، يا للروعة! أغوار نقولا دوستال.

- نقولا دوستال؟

- تماماً... أخشى عليك الانتحار، لقد كان يرسم موته. ما أفظع ذلك!

- ألا ترى أنها نغمة من نغمات براك؟

- لست أدري، ولكن...

- إنها ستكون رائعة، ستكتشف ذلك إذا انتهيت منها.

وهو يدسُّ قطعة القماش تحت السرير أضاف بصوت مخنوق:

- سأكملها بعد عطلتي السنوية.

قال بو مهدي:

- لقد كدت أنسى عطلتك.

وهو يحاول النهوض سمع سالم يقرر بجد:

- سأمضي بعد يومين أو ثلاثة.

قال وهو يضحك:

- ستجدني أباً لطفل أو طفلة.

- ما أبشع ذلك، خصوصاً مع عاهرة!

خيالات منتشرة في الليل:

تَرك سالم ممدداً على سريره وخيول النوم تجرُّ العربات على جفنيه وتدهس جسده بمونوتونية. وارتمى على الرصيف يجرُّ حملاً من العياء ماسكاً به من رقبته. البرد والظلام المصطخب كعاطفة جيّاشة كانا يحطّان فوقه. تخيل أنه شجرة من أشجار الساج التي نصبتها دار البلدية على طول هذه الطريق. وتخيل الليل يقفز فوقه وصبي شقي يهشِّم رأسه محاولاً أنٍ يصطاد عصفوراً بئيساً.

كان يرتمي على الطريق بخطوات تجرُّ تاريخاً من الأحزان والتعاسة وفي السماء كانت النجوم تضج...

اجتاز القنطرة التي يمر فوقها الطريق الرئيسي وتمتد تحتها سكة القطار. منذ غادر غرفة سالم لم يصادف أحداً ولم يسمع نأمة. كان يبحلق بلا رغبة في سيارة للشرطة مرابطة قرب مقهى مغلق تبيّنها بسهولة رغم الظلام الذي كان يدوس منطقتها.

صاح به شرطي أن قفْ:

- هويتك؟

قال الشرطي ذلك مرتاحاً وبلا غضب. فمدّ بومهدي يده إلى جيبه وأخرج ورقة التعريف.

قال وهو ينظر إليها في يده، ثم وهو يتناولها منه:

- ألا يعجبك الخروج إلا في هذا الوقت؟

(هذا سؤال طرحته أمي عليّ من قبلك) قال له:

- هل هناك شيء يقتضي ألا أخرج؟

- طبعاً.

وهو يُخرِج سيجارة من جيبه، قال الشرطي:

- ألست مغربياً؟

- أوه...

- كأنك لا تحس بالعالم من حولك.

(إني لا أحسّه طبعاً) أكّد بومهدي:

- إن المرء لا يهتم بعض الأحيان...

ناوله ورقة التعريف وهو ينفث الدخان في وجهه:

- ادخل سريعاً وإلا نمت في المركز على البصاق.

شكره ومضى. وتذكر أن هذا ليس سوى صدى لحادثة ما. نحن مراقبون إذن. والتجول ممنوع حتى لدينا هنا. انحرف يميناً.

كان الشارع خالياً. ثم وقف يلتفت. رأى سيارة الشرطة تمرق من الشارع الآخر هناك. (أنا لا أريد أن أنام في المركز على البصاق). وجذب نَفَساً بارداً من هواء الليل.

(أيعجبك هذا، أن توقظنا في منتصف الليل).

كانت أمه هي التي تتكلم، بينما ارتمى هو على السرير مكدوداً، وأحسّ بشيء تحته لم يكن سوى كتاب. ألقاه على الأرض: فأحدث فرقعة. وهو يتمطط على السرير انتابته رغبة في أن ينام..

3

على الرصيف المقابل صبيتان صغيرتان تفرغان الضحك الوادع في الجو. عيناهما تبرقان بفضول وبساطة، ويداهما تنبشان الفضاء بانشراح. كانت إحداهما ترتدي روباً أحمر والأخرى أسود، وشعر إحداهما أسود والآخر مائل إلى الشقرة قليلاً. عين بومهدي عليهما. وانقطع سيل السيارات المنسابة بنواح كسائل على الطريق المسفلتة. فعبرها بخطوات قافزة وعيناه ترقصان يميناً وشمالاً. عندما وضع قدميه على الرصيف كاد أن ينزلق فتصلَّب جذعه كسنديانة عتيدة. وكانت الصبيتان لا تزالان تنطان. داس ضحكهما وانطلق يعانق درجات العمارة بحبور وشوق - طق - طق (وانتظر) - طق - طق - يبدو أن سالم خرج هذا الصباح. الباب الصامد يقول ذلك بوقار.

انحدر مع درجات سُلَّم العمارة وهو يعبث بسلسلة مدلاة من عنقه نُقِش في آخرها حصان. أكد لنفسه أن ربما يكون سالم عند صاحب المتجر المجاور. وحمله هذا الحذر إلى المتجر. كان صاحبه البربري الوافد من الجنوب مشغولاً بتنظيف بعض السكاكين، ويمسح يديه في بلوزته الزرقاء. لم يشعر به لأول وهلة. كان ظهره إلى الباب. وعندما عبث بزجاجتي حليب فارغتين كانتا في صندوق فارغ إلا منهما، التفت إليه وعلى وجهه لا شيء، لا شيء على الإطلاق.

- أوه.. أنت هناك.

قال ذلك، وخرخر بضحكة اعتباطية، واستمر يمسح يديه.

- ألم ترَ سالم؟

- يمكن أنه سافر.

- لا ليس الآن. لقد قال إنه سيسافر يوم الأربعاء.

وفرك البربري جبهته. ثم تجشأ هذه الحروف:

- أنت متأكد؟ لقد سوّى معي الحساب أمس.

- أنا متأكد، إنه لم يسافر بعد.

ودار على نفسه:

- هات مشروباً بارداً. سأنتظره قليلاً هنا. وانطلق البربري إلى الداخل كالسنجاب. وأخرج بيرة زجاجتها منداة.

- هذا يصلح لك، شراب حلال وبارد. ابتسم بومهدي وهو يجلس على صندوق فارغ أُعدّ للجلوس، فأخرج البربري الأهتم بسمة لا تعني شيئاً على الإطلاق.

كان يكرع المشروب وهو ينظر من خلال الباب إلى الإسبانية العجوز التي تثرثر مع صبية متسخة، يبدو أنها خادمتها. لم يكن يسمع شيئاً. ولكن حركاتها كانت تدل على أن هناك سوء تفاهم بينهما. فالعجوز كانت تتحرك بصعوبة ونرفزة. وترفع يديها إلى أعلى راسمة دوائر وأنصاف دوائر في الهواء. ثم انفصلتا بآلية. واختفتا من أمام عينيه. كان البربري لحظتها يضحكُ مع امرأة جميلة عبرت من أمام بومهدي ولم يعرها كامل انتباهه. وإذ التفت إليهما وجده ممسكاً بها من خصرها. يا للمفارقات! هل يستحق هذا الأهتم أن يلامس هذه الخوخة الناضجة. يا للمفارقات. قالت:

- كفى أيها الوسخ.

- سأفعل يا نقاوة الدنيا.

وهي تنظر إلى بومهدي بطرف عينها اليسرى .

قالت:

- إنك نذل.

ومضت وهي تكتّلُ الشهوة في أعصابها وتخنقها. لقد شعر بالدم يفور كتنور. يا له من جسم يستحق أن يُعرى تماماً ويداس في ليلة عاصفة وتنتف شعره ريح هوجاء سادية.

قال البربري:

- ألا تخجل؟ من تكون هذه الكتلة؟

- زوجة شرطي مغفل يسكن في العمارة المجاورة.

- هل...

- طبعاً.

تمنى لحظتها لو أن له متجراً. وأنزل اللعنات مجاناً وهو يقف.

وقبل أن يمضي إلى غرفة سالم نفح البربري ثمن بيرته. وعندما انعطف شمالاً ألفى المرأة الحلوة ذات الشعر الشلالي الأسود تُحادث سجّاناً ذاهب للعمل. كانت وقفتها وجسدها يدعوان الدماء إلى السطح.

قفز الدرجات بنشاط وطرق الباب. فأتاه سعال حاد اختلط في أذنيه بصوت كعب امرأة في الطابق الموالي. وفتح سالم وهو لا يزال يسعل.

- ما لك يا أخي تكاد تموت؟

قال بومهدي.

استمر سالم في السعال، ولم يتبيّنه كثيراً فدفعه ودخل:

- لقد زرتك قبل نصف ساعة فلم أجدك. أين كنت؟

- نائماً.

- هل أفطرت؟

- نعم.

- ألم تزر أمك؟
(أمه مشلولة تتعفن في دهليز مظلم عند أبيه)
- لا . . .
- هل تنوي زيارتها؟
- نعم . . .
- متى؟
- قبل السفر طبعاً.
وذهب ليغير ملابسه.
- هل ستخرج؟
- انتظرني.
(ما أشقاك يا سالم. أمك تتعفن وأنت هنا تتعفن في الأوساخ واللاتنظيم. تعتقد أن الشرب والعاهرات والرسم شفاؤك. أبداً لا. أبوك يعيش لذاته. ويبول على أمك في الدهليز. وأنت هنا تحاول أن تنسى. أف. هل تعتقد أن المسالة مسألة نسيان؟ إنها أسطورة قديمة هذه التي تعيشها. أمك ينخر الدود رئتها وأبوك شاب جسمه أسلم من جسمك. إني أراهن على أنه يستطيع أن يجعل زوجتك - لو تزوجت - تحبه وتفضّله عليك. إنه شاب وأنت عجوز).
- ما رأيك في هذه الربطة؟ هل أُغيرها. تأملها بومهدي في يد زميله ملياً.
- لا تغيرها. إنها تلائم سحنتك ولباسك.
- ستذهب معي الآن إلى وكالة السفر بالباخرة.
- ألم تعرف البرنامج بعد؟
- لا . . ولم آخذ لي تذكرة؟
- وانطلقا يعبران الحي الأوروبي. كانت جدران الخواء تنتصب أمامهما في كل خطوة. كان سالم يبدو منفعلاً جداً، ويتحدث بتأثر

بالغ عن فراقه المؤقت لصديقه. ويؤكد له بثقة لا تقبل الاحتمال أنه يرغب في الاطلاع على أشياء جديدة.

كانا يضحكان الآن لأن بومهدي قال شيئاً طريفاً، وكانا يهدمان جدران الخواء.

خطواتهما تنثال كخطوات جنديين: ولما لاحت لهما الساعة العمومية المشرئبة برأسها المسدس في مفترق طريقين رئيسيين، أكد أحدهما للآخر:

- لقد بلغنا الوكالة.

- نعم.

وبعد أن دعك سالم أنفه أضاف:

- هل تدخل معي أم تنتظرني؟

قال بومهدي (وكان أحد ماسحي الأحذية قد ارتمى عند قدميه مثل جرو):

- سأنتظرك.

وألقى بقدميه إلى الصبي الصغير يدهنهما بخفة وجهد. وهو يشعل سيجارة، كان يراقب سالم من خلف زجاج الوكالة الأمامي. وأحسّ أن الصبي قد توقف عن عمله، فاستلفت انتباهه إليه. وقال أخيراً:

- سيجارة من فضلك.

وبلا شعور ناوله واحدة دون أن يُكلّف نفسه إشعالها له. ومرّت امرأة من أمامه. امرأة مرقت من باب الوكالة. كان حذاؤها ذو الكعبين ينقر نقراً خفيفاً على الأرض المبلّطة. وكانت حقيبة يدها تستجيب لهذا الواقع فتتمايل بلا انتظام. وكان شعرها الأشقر معقوفاً في شكل ذيل حصان صغير.

وطقطق الصبي على صندوقته السوداء الصغيرة ففهم بومهدي ما

تعنيه العادة. فناوله فرنكات ولم يلحق بسالم، بل لبث يتمشى تحت ظل جدار إلى أن خرج سالم. كان يتكلم مع المرأة التي رآها بومهدي قبلِ لحظة. وكانت تقهقه بإغراء، وتفتعل الحركات بينما سالم الحزين يبتسم بكلفة ويرجو الفكاك. ويبدو أنه لم يشأ أن يقدمها لزميله. ومضت في الطريق الأمامي حتى بلغت سيارة لم تكن فخمة، ولكن منظرها يبعث على الارتياح. لونها الأسود الجنائزي كان يبعث على الارتياح.

- أية دجاجة هذه أيها الثعلب؟

- لا شيء، امرأة ساذجة كانت جارتي سابقاً.

- يبدو أن الثعلب نتف الريش.

- بل مصمص العظام.

وضحكا.

- متزوجة؟

- طبعاً. ثلاثة أطفال ورجل مطافئ.

- هل تذكر يا سالم صديقنا القديم الذي أخذته امرأة في علم من زوجها إلى أميركا؟

- طبعاً.. وكانت في الأربعين.

كانا يتحدثان عن وباء اعتيادي في نظر بومهدي بكثير من الفضول: الجنس. وانتقلا بعد ذلك إلى الحديث عن السفر. فأكد له سالم أنه سيسافر غداً. أما هو فأكد لزميله أنه سيجيء لتوديعه في الميناء برفقة صالح وعبد الرحمن (الصديقين في العمل، واللذين يعرفهما سالم جيداً). وكانت الشمس إذ ذاك قد استوت في قبة السماء وقد أطلقت خيوطها العمودية على الرؤوس المحروقة ولم يبقَ أمامهما إلا أن يقولا: إلى الغد. فقد أحسّ أحدهما بأن بطنه توجعه وأنه في حاجة إلى أن يمتلئ كبرميل فارغ.

4

(لقد ترك سالم بعد سفره الفراغ الأجوف في يدي أدعكه، والبلاهة في فمي أمضغها. ذلك لأنه صديق تتعرى ذاته أمامي بوضوح، ويجعلني أفعل ذلك بوضوح أكثر. وباختصار إننا نتفاهم ونلتقي في التجريد والمحسوس بالسهولة التي تتعرى بها أيضاً. حقاً إننا سنستمر، أنا وصالح، وعبد الرحمن في علاقاتنا. ولكن هذه العلاقة ستكون على قسط كبير من الجفاف. لأن صديقنا البوهيمي الآخر سافر. وسنفتقده طوال إجازته).

هذا ما فكر به بومهدي. وقد أكد له صالح، وهما يودعان سالم قبل يومين أنهما لن يلتذا في لقاءاتهما، كما أن بومهدي أكد له بدوره صحة رأيه، وأنه إن شاء هو الآخر، أي صالح، أن يهتم بأطفاله وزوجته إلى أن يعود سالم فلا ضير عليه. غير أنه قال مختنقاً:

- يا لك من وقح!

ثم أضاف بعد قهقهة:

- وهل البطة تستطيع أن تهملني حتى يعود؟ ألا تعتقد أنها سوف تتهمني بالذهاب مع امرأة أخرى؟

قال بومهدي من خلال تجشؤ سريع:

- إذا ترددت على الغرفة فسأجعلها تنساك.

- إنك لن تستطيع.

وحقاً إنه يستطيع (ليس هناك امرأة مخلِصة. فرغم أني أعرف بطنه السمينة، ورغم أنه لم يسبق لي أن رأيتها مع رجل آخر، سوى زوجها طبعاً، رغم كل هذا: كنت متيقناً أنني لو انتهكت حرمة صديقي صالح وغازلتها لوقعت على خيشومها أمامي وعلّقتُ عجيزتها في السقف). ولأنه لا يرغب في ذلك فقد قال لصالح:

- حقاً إنها مخلِصة لك أكثر من إخلاصها لزوجها.

- بل أخلص من عشيقتك لك.

(طبعاً، بل أخلص من عشيقتي لي. أعرف ذلك جيداً. وأعرف المرأة كثيراً كما أعرف الرجل. فبقدر إخلاصك لزوجتك وبقدر إخلاص عشيقتك لزوجها، بقدر إخلاص عشيقتي لي).

لم تكن لبومهدي عشيقة كما هو المفهوم. ولكنها صديقة مرّت من هناك، وأحسّت أنها في حاجة إلى أن تمر من هنا. تشتغل مدرّسة في مدرسة ابتدائية. وقد طلّقها زوجها لسلوكها، أي لأنها كانت عاهرة. وقد سقطت عليه كالمطر بالصدفة. كان يعرفها سابقاً. ولم يكن يجد الشجاعة الكافية ليجعلها تعشقه. وطاردها مرة في الطريق فتعثر قلبها أخيراً ولم يجد من يسنده سوى هو الذي طاردها بعينيه باستمرار وبشهوانيته الغابية (وحملتُها يومها على محفّة من الريش الناعم إلى غرفة سالم،

وعوّدتها المجيء إلى هناك.

وعوّدتني الاتصال الدافئ الحالم.

ولم نفترق).

ولقد أحسّ لحظتها أن الفتنة قابلة للامتلاك، لقد علمته هذه الصديقة ذلك. كان جسمها المعتدل القوام حافزاً من حوافز التسامي عن واقعه. لم يكن يستيقظ ولم تكن تستيقظ. وكان العالم ولا يزال يساوي صفراً مستديراً. إذ اعتقد أنه عثر مؤخراً على جسم طالما أتاه

في الخيال. وطالما زحف على صدره كزوابع عنيفة في المنام. وكانت هي تؤكد له بحُرية أنه أب لطفلها قبل أن زرع أبوه ثمرته، وكانت تعلن بأنها أحبته سنوات قبل اللقاء. ولم يكن ليصدق ذلك إلا في الفراش (لحظتها كنت أعرف أن هذا الفناء يرجع طعمه العتيق كخمرة دَنّ منسي، إلى سنوات حب غابرة).

علّمته كيف يرفض القراءة. لقد تشوشت القيم إذ ذاك في خاطره، فلم يعد يستطيع أن يميز شيئاً. فقط كان يشعر أن العالم بدأ ينمو كسرطان. ولما نما انزاحت قشرته، وخرجت رائحته النتنة تزكم الفضاء والهواء (إنها لم تستطع أن تفعل شيئاً من أجلي، هذه المرأة الخبيثة، لكنها استطاعت أن تؤكد لي لاجدوى المبادرة في عالم جبان، تفرض الأوهام فيه وجودها على عقولنا. كما أنها استطاعت - وهذا ما أعرف به بصراحة - أن تجعلني أهرب إلى النسيان، إذ كنت قد بدأت أشعر أني طفل وُلد من جديد. وبدأت أجعل الأشياء تنطق عبثاً بما تعنيه. لقد سقطت على عتبات الحمق. وسُررت قليلاً عندما وجدت إنساناً يستطيع أن يقتلني جنسياً. أو على الأقل ينسيني. لأن صداقاتي كانت جد محدودة).

وحاولت هي أن تمددها. لأنها امرأة ركبت على ظهور الرجال، واستطاعت أن تضع اللجام في فمه، في انتظار أن تركب.

وإذ التقى بها، كان قد بدأ يتململ. لأن عالمه الحزين لم يطق اللقاء لأول وهلة.

كانت هذه المعلمة السمراء نقطة انطلاق له. وكان هو كذلك بالنسبة إليها، كما تؤكّد. لقد استطاع، كما استطاعت هي الأخرى، أن يهدما هذا التاريخ الذي مضى قبل أن يلتقيا. ومن جانبه هو، فقد جرف أحزانه إلى هاوية واسعة بما فيه الكفاية - كان يعتقد ذلك.

5

لم يذهب بومهدي إلى الكلية هذا اليوم. ولأنه لا يسكن العاصمة، والكلية توجد في العاصمة، فإنه يضطر في بعض الأحيان إلى عدم الذهاب للاستماع للمحاضرات، ويكتفي بأن ينقل المذكرات.

(كنت وحيداً في غرفتي كالعادة. وخيمة الألم مشدودة أوتادها في رأسي، في مكان ما من جمجمتي. إن التفكير الكثير يبعث الألم والقلق والاضطراب. وعلى جدران غرفتي تلك البلادة لا تزال، وذلك العناد لا يزال. إن طلاء هذه الجدران يبدو لي في بعض اللحظات كلساً يتجمد بحديدية على قلبي. وفي بعض الأحيان تنتابني خواطر غريبة. أن أعض هذا الجدار مثلاً بأسناني. أن أحكه بأظفاري حتى النهاية.

آه! يا للآلام ويا للفراغ!

أليس هناك في العالم شيء غير القراءة؟

حقاً إنها عالم غريب. ولكننا في بعض الأحايين نعيش الغرابة والاغتراب في الواقع).

طالما كان يشعر بثورات مريرة كالتي تصطفُّ الآن على ضلوع قلبه المخشبة. يثور على كل شيء، على هذه الغرفة، على الرفاق الضائعين المعقدين. على الكتب، وحتى على أمه التي تصيح. يثور

على صوتها. على معاملاتها. وعلى منظر وجهها الشبيه بلحاء شجرة بلوط. وهناك في أحيان أخرى يستطيع أن يتسلى بالراديو. (إن الاستماع إلى الموسيقى في بعض اللحظات يكون صلاة حقيقية تطهِّر من كثير من الآثام التي تحمّلني مسؤوليتها قوى خارجية لا شأن لي بها). ولطّالما ردّد مع نفسه: إن الموسيقى هي سلاح الأعزل الذي يواجه العالم بفرديته ووحدويته. إنه على كل حال يقاوم بعض الضغوط بطريقة ما. وهذا ما يحدث، إنه يقاوم ويقاوم، ويجد نفسه في النهاية منتصراً، متمثلاً هذا المسح الكبير الذي تفعله في صدره المتعفن الهواء أغنية أو لحن.

كان بومهدي قد انتهى من تناول غذائه للتو. وكان منبطحاً كشجرة مقطوعة، يرشف الشاي بتلذذ وتفكير. وخلف النافذة كانت السماء قطعة هندسية جوفاء. وفي قعرها كمشة من السحاب تتحرك بحرية، وتزحف لتختفي، كان الشاي ساخناً.

(- لا شك أنها عادت من السفر قبل يومين).

(- يمكنني أن أذهب لزيارتها في الغد).

النافذة قطع من الزجاج والخشب الذي يغلفه طلاء أخضر.

(- إن اللون الأخضر مبعث الآلام في نفسي، إنني لا أنفتح له على الإطلاق. لو أنني أُغير هذا اللون بلون آخر. إن صديقتي التي أنقذتني وأنقذتها - كما تدّعي - تنتظرني من غير شك في لهفة ورغبة وإلحاح، الحب شيء ضروري.

فمن غير الحب لا نستطيع أن نفعل شيئاً ذا بال.

تلك حكمة قديمة).

لقد برد الشاي. لقد بردت الكأس، هل يحبها أم لا؟ لا يدري. لكنه يعرف أنه يشتهيها كثيراً. وكانت أمه تصرخ في الجزء الآخر من البيت.

6

كانا يركبان دراجة نارية متجهين إلى البحر، حيث الأشياء تعيش في الضجيج الأبدي. كان الهواء رطباً، وكانت الدراجة تقفز بهما فوق الطريق المؤدية إلى خارج المدينة. الطريق حمراء. تصاعدَ التراب من جانبيها ثم صبغ وجهها بحمرة تتجه نحو الدكنة. الأشجار تنبت بفوضى وبلا نظام. هنا وهناك زرب من الصبير وأشواك العليق. وغابة في طور النمو غُرِسَت أشجارها الصغيرة مؤخراً، وخلف الخندق الذي يوازي الطريق تمتد أسلاك شائكة مكهرَبة تحمي مخازن الأسلحة. كانت الطريق ترتمي إلى الخلف بسرعة. وهما لا يتكلمان، فالسرعة والريح تمنعانهما من الكلام. وعندما كانا ينحدران بسرعة جنونية خرقاء أصبح من المؤكد أنهما بلغا المقهى. كان صديقه إذ ذاك قد ألقى إليه بعبارة لم يسمعها لأن الريح كانت تسد أذنيه. وقال بومهدي له إنه لا يسمع شيئاً.

قال صديقه وهو ينزل عن الدراجة بعده:

- من الأحسن أن تقضي ظهر اليوم هنا. في السينما.. ليس هناك شيء جديد.

ومطّ شفته وحرّك رأسه وهو يصعد درجات سُلَّم المقهى. قال:

- نجلس في الداخل أم على الإفريز.

وكان الصديق مشغولاً بربط دراجته. وهزّ رأسه:

- اختر مكاناً مناسباً.

ومضى بومهدي يقفز كالسنجاب فوق الدرجات.

كانت إحدى عشرة درجة تآكلت حتى أصبحت كبعض آثار رومانية أو فرعونية قديمة. إن هذه جزء من البناء القديم الذي كان سابقاً قصراً لأحد الملوك. وكانت تقع في أسفل البناء، وتنبّت بعيداً منها قليلاً، أشجار قصيرة، ونباتات أخرى كثيفة. وبعيداً جداً من الكراسي الخشبية كان كلب أسود يرابط دائماً هناك.

اختار بومهدي كرسيين قابعين تحت نافذة المقهى. ومضى إليهما بينما لحق به صديقه. كان ينزع قفازيه وهو يقول:

- ماذا تشرب؟

ولم يكن يعرف ماذا سيشرب، ثم أكد له أن عليه أن يمهله. غير أنه في الأخير وافقه على شرب قهوة سريعة.

جاءتهما الإيطالية العجوز صاحبة المقهى. كانت قصيرة الجسم وكفا يديها كبيرتين. كانت ترحب بهما بفرنسية رطنة. وكان نطاقها الذي يستر نصف جسمها الأسفل مبتلاً. كان صديق بومهدي يداعبها. وبعد أن انصرفت قال له:

- إن الجو معتدل.

وكان الجو معتدلاً، والهواء نسيماً عليلاً ولطيفاً. وتحت أقدامهما هناك، وعلى بعد عدة أمتار، كان البحر يستقبل النهر، والأمواج تعول لتموت في النهاية على الصخور الصلبة.

هناك عملية انتحار كانت تتم بتكرار وملل أمام أعينهما. واستغرقهما تأمل مستفيض (العالم يتكون من التراب والماء) وأشعل صديقه سيجارتين إحداهما لبومهدي والأخرى له.

السماء والبحر يلتقيان عند الأفق.

الصخور تنغرز بعصبية في الماء.

الأمواج عبثاً تريد أن ترفضها.
الزبد أبيض كاللبن.
المراكب الهرمة تمتد في الوحل في نهاية النهر.
الطحالب خضراء هناك بينما الغابة الكثيفة القصيرة الأشجار تفصل البحر عن المقهى.

وكان الصديق ينظر إلى صيادين يصعدون وهم يقهقهون.

وقال له في الأخير:

- لماذا نبقى صامتين؟
- ماذا نقول؟
- أي شيء. انظر هؤلاء الصيادين.
- إنهم مسرورون. يبدو ذلك من تصرفاتهم.

كان يلوك الدخان، ويضغطه في صدره، ويحاول عبثاً أن يمضغه بأسنانه.

في الضفة الأخرى من النهر، كانت هضاب رملية ترتفع، وفي قمتها نبتت نباتات خضراء. وفي بطن الهضاب تلوح بعض خيام الصيادين. كان الصخب قد بدأ ينبعث من قلب المقهى. ضحكة رنانة انزلقت من النافذة وسقطت في أذني بومهدي كحَجرة في بركة ماء. وكان الهواء لطيفاً وقد بدأ يستعيد حيويته. كانت عينا الصديق تتوهان. ولم يكن بومهدي يدري ما الذي يقف عائقاً بينهما عن الحديث. هناك سور من الجليد يتمطط في أشيائهما: في خارجها وفي داخلها.

الصمت تمثال رهيب من الذي نحته؟
الصمت والجليد عالمان مغثيان.
لكنهما عالمان يبعثان على التفكير.
اللحظات تقتتل بلا هوادة في دنيا الجليد والصمت.

أنا أساوي صفراً في هذا العالم. ربما صديقي يساوي شيئاً أكثر بينه وبين نفسه، لكنني متيقن أنه يعيش الخواء وأنه يساوي صفراً، وأن قدميه مكبلتان بكتل صقيعية سوداء كالظلام البارد في جوف دهاليز لامنتهية.

قال بومهدي في النهاية:

- انظر هذا العالم الفسيح.

- أي نعم.

كان يرشف القهوة وقد اتجهت سخونتها نحو البرودة.

كان الصديق يدخّن بعنجهية.

كان الدخان يتصاعد بليونة والسقف يضغطه أخيراً فيتلاشى.

الشمس تنزلق في منحدر إلى نقطة البحر.

وفي صفحة السماء الزرقاء المنبسطة كإزار كانت طائرة ضخمة تئز وتهدر، وتحت على الأرض في بطن الهضاب الخيام الهزيلة تختبئ من البرد والبحر والسماء. هناك نقط آدمية تتحرك على الضفة الأخرى من النهر. النهر أصفر. نصفه أصفر ونصفه أزرق.

كان رجل وامرأته يصعدان وهما ملتصقان إلى المقهى. عينا الرجل سقطت على الصديق الذاهب في التأمل الذهولي. ولم تكن المرأة جميلة ولا مثيرة بعكس الرجل الذي كان وسيماً. وكانت تحبه. لا شك في ذلك بتاتاً.

كانت تمسح عن كتفيه شيئاً بيديها وهي تُظهِر محبتها.

مرّت الإيطالية العجوز وحذاؤها لا يُحدث أي صوت في صدامه مع الإسفلت.

الهواء رطب وناعم كالفرو. الضحكات لا تزال تتوالى من داخل المقهى والصديق يشتهي المرأة التي قرب الرجل.

الدخان يتصاعد إلى السماء ويخرج من فمه كأنه يخرج من مدخنة أفقية أثناء الحديث. وعلى الجدار اتكأ بومهدي وهو يغير وضعه. الحذاء في قدميه كالجليد. وكانت الإيطالية تعبر وفي صينيتها الصغيرة زجاجتا بيرة. الرجل كان يسعل بفتور، والمرأة تزحزح الكرسي إلى الأمام قليلاً.

الشمس أخذت تؤذن بالغروب، والبحر لا يمسك من لجام العنف، ومركب أخير يضج في لسان النهر.

7

الأرض حجرية صلبة. وحتى المطرقة فلن يكون لها صدى. فكيف بالحذاء. هناك صوت تُحدثه الأقدام بالساحة الحجرية، ولكنه باهت: خششش.

في مقر الطلبة هناك تحت الرواق المنسي، ترتفع أيديهم وتتمايل أجسامهم، وفتاة تكاد أن تطير. النباتات وسط الساحة لا يحركها الهواء. إنها نباتات مخشبة واقفة بصلابة كالسفافيد، وهي كثيفة ومزدحمة. تشكل مستطيلين متوازنين بينهما ممر حجري صلب لا يسمع للأقدام فوقه وقع. هناك صوت. ولكنه باهت.

المرحاض قرب مكاتب الإدارة. وباب المرحاض مفتوح على النباتات. لا شك أن الموظفين والموظفات قد استاءوا من هذا النظام الهندسي: وأنهم قد لعنوا المهندس الذي صمم الكلية.

كان يجلس على حافة نافذة أحد المكاتب، وكان يراقب العالم وهو يتكون ببطء. و، وهو يتحلل ببطء. لم يكن يعرف تماماً. قطع من اللحم والدم مليئة بالوجدانات، تغضب وتكره وتحب وتقتتل وفي النهاية فهي تأمل أو ترفض.

كانت الشمس تندلق على صدره وعلى وجهه «أي حمّام دافئ وناعم!». عيناه ترفضان الأشعة التي تود ألا تنغرز فيهما. هناك تَحدٍّ، ولكن هناك ما يقابله - ردّ فعل بسيط ولكنه قوي - وكان

يستعين بكفّه، ليدفع الشمس وغلواءها. كان حديث هامس يدور بالقرب منه. فتى وفتاة مشوهان «يبدو أنهما بحثا عن بعضهما». كان الفتى مدفوع الجبهة بشكل مثير للانتباه بينما التجاعيد كانت قد تراكمت على سحنة وجهها التاريخي العتيق وأطلقت شعرها الأسود المصبوغ بمادة كيماوية. وفي حين كان هو يتكلم بتذلل، كانت هي تحاول أن تجيبه باستخذاء تام.

لم يكن بومهدي يعرف فيما يتحدثان. والظاهر أنهما يعوِّضان هذا النقض الذي يحسانه. ولكنه اعتقد أنهما لن ينجحا. فالسالب لا يقابله سوى الموجب. أما موجب وموجب، أو سالب وسالب، فلا أعتقد أن هناك نتيجة.

العالم رديء، وهو مع ذلك لا يستطيع أن يتحمل شيئين رديئين يتآمران عليه.

كانت الشمس تدق رأس الفتى بينما هزّ عينيه وكفّ عن الكلام، في الوقت الذي كانت تسبح فيه هي، في موجة من الغليان الغاضب. وكانت قد جمعت بعض أوراقها، وانطلقت تعبر الرواق الثاني في اتجاه المقصف، فتبعها.

أحسّ بومهدي أنه في حاجة إلى أن يتحرك. أن يجلس وقتاً طويلاً هكذا على حافة النافذة شيء غير مريح. ومدّ ذراعه بحيث أصبحت تكوّن خطاً هندسياً مائلاً. وجذب محفظته الجلدية السوداء المرمية في الزاوية. وبقفزة خفيفة ارتمى على الأرض.

كان يحسّ أن وتداً طويلاً ينمو في نصف جسمه الأعلى «آه ماذا لو أصبحت الآن جذع شجرة!» ومرّ بالمرحاض في اتجاه المقصف. وعندما انحرف قليلاً عانق وجهه لون اللوحة السوداء التي عُلِّقت عليها أوراق للإعلانات الطلابية. هناك رحلة، هناك تجمع طلابي. ثم هناك.. هناك ماذا؟ محاضرة مساء يوم الغد عن «الاشتراكية

العربية. . . » ولم يكن يقرأ. كان يستمع لضجة داخل المقصف وصوتاً نسوياً ينفجر في الفضاء عابثاً لا مبالياً. وحوّل الاتجاه ودخل. كان ثلاثة من الطلاب خلف الفاصل الخشبي يعبثون بمنفضة حجرية: يدفعها الأول فيتلقفها الثاني ليردها الثالث. وكانت الفتاة التي تضحك بصخب وجهاً مألوفاً لديه. إنهم ينعتونها بالحمقاء. فهي لا تبالي بأحد. وهي تتحدى المفاهيم المغلوطة والافتراضات والشروط. وطلب بومهدي قهوة. ودفع الثمن، وجلس في ركن قصي بعد أن غمز لزميل. وفي المقصف كانت الحركة دائبة، والكلام كعجينة في آلة للعجن: ينبعث طرياً ويمتزج ويلاك، حتى يصبح في النهاية لا يعني شيئاً على الإطلاق. كان هناك طالب ذاهب في القراءة. «لست أدري كيف يقرأ وسط هذا الضجيج، ووسط ضحكات تلك العاهرة المدعوكة الجفون».

وفي الباب كان هناك طالبان معروفان بنشاطهما السياسي. وكانت في أيديهما حزمة أوراق وهما يتحدثان بعصبية وانفعال. فخمَّن أن هناك شيئاً. وبدأ الطالبان يوزعان الأوراق المضروبة على الآلة. كان هناك إضراب إذن. . لماذا؟

وسرت همهمة بين الموجودين في المقصف. وبدأوا يخرجون واحداً واحداً. ورشف بومهدي آخر جرعة لكي ينصرف بدوره. وفي باب الكلية كانت الفتاة التي يشتهيها ببنطلونها، واقفة بشكل مغرٍ وتحت إبطها محفظتها. كان يحاول أن يحدّثها. ولكن لم يكن ليستطيع. فهو لم يسبق له معرفتها. أحبك. . هل تعرفين؟ لماذا تحادثين الآخرين ولا تحادثينني أنا؟

لم تكن جميلة، ولكن جسمها شيء رائع. «لو أتزوجك ثلاث ليالٍ فقط لأطلقك!» وضحك من نفسه.

كانت تنظر إليه بفتور وتحاول أن تغريه أكثر، غير أنه حاول ألا

ينظر إليها. «إن ذلك سلاح يقهر المرأة، لن أتنازل لك عن حريتي لأول مرة، إني أعرف أن هناك تعارضاً للحريات. ومع ذلك فسأبقى مصرّاً حتى تذعني أخيراً.

إنك تثيرين فيَّ اللذة والرغبة.. باختصار إنك حيوان وأنا لست كذلك بتاتاً..».

الشمس تنزل على قفاه. وهو يدوس الأشعة المتكسرة على الطريق. وكانت محفظته تزن آلاف الأطنان في تلك اللحظة.

الهواء صار دبقاً لزجاً متعفناً.

8

انضم بومهدي ظهيرة ذلك اليوم إلى سالم، وصالح، وعبد الرحمن في المقهى. كانوا على موعد. لم يكن هناك أمر خطير، ولكنه قتل الوقت. فالأيام كسلى ورتيبة. والساعات تتحرك باعتياد ممل. ولذلك، الدردشات على إفريز المقهى هي البحر الرحيم الذي يبتلع شتى الاعتبارات التي تواجههم. وهي الماسح الوحيد لأغشية الشمع الملصقة على حياتهم.

(الدقات الرهيبة انتحار لأيامنا القادمة لأيامنا المعاشة..)

كان المقهى غارقاً في الشمس، والكراسي الملونة فقاقيع من الصمت المطبق، تنتظر أي حركة أولية لتنفجر. وكان وجه صالح محتقناً ومنتفخاً. بينما سالم - وهو يداعب بومهدي - كان بادي الارتياح قليلاً. فالسوداوية انطمست قليلاً من عينيه. أما عبد الرحمن فيبدو أنه كان في شجار مع زوجته. وقال سالم لبومهدي بلهجة مرنة كالكاوتشوك:

- لقد تأخرت قليلاً. ماذا كنت تفعل؟
- كنت نائماً.

وكان عبد الرحمن يحصي نقرات حذاء ذي كعب تمرّ صاحبته من الرصيف المقابل. وكانت عيناه ملصقتين بها.

كانت مئذنة المسجد في الجهة المقابلة هناك، تبدو كجذر ترابي

مدبب. وخلف المئذنة قطيع من السحاب الأبيض، ضائع بلا هوية. لماذا لا أمارس الدين؟ هل صحيح أنه لم يكن هناك إله خلقنا؟ هل ما أفعله الآن يُعتبر عبثاً؟ هل حياتي شيء أكثر مما أعيشها عليه؟

وكان المذياع يئز أزيزاً قوياً كأزيز محرك سيارة. وأحسّ بومهدي أنه يتنرفز لهذا الصراخ وهذا الضجيج. لو أنني الآن أستطيع أن آمر فأُطاع.

(- النساء فارغات.

- اسكت، فأنت في حاجة إليهن دائماً.

- ليس دائماً.

- أنت مخطئ).

وكان صالح يحك ذقنه الحليق، وفي عينيه كان بريق سماوي مشع. «ما أشبهك بامرأة يا صالح! إن شفتيك تبدوان كأنهما في حاجة إلى أحمر شفاه».

(- إني أحب النوع الوادع من النساء.

- وأنا أحب الحزين

- المليء بالمشاكل).

وانطلق عبد الرحمن يضحك، وبدا لبومهدي أن أنفه شبيه بأنف بهلوان في سيرك. بينما قفزت العبارات من فم سالم كفقاعات الصابون:

- ولمَ لا؟ إن ذوات المشاكل إنسانيات.

وقال صالح:

- هل نبحث عن مدفن لأحزاننا أم نسعى إلى أن نكون مدفناً لأحزان الآخرين؟

- كلتا الحالتين شيء إنساني.

- أنا أرفض هذا.

وقال سالم:

- أنا لا أرفضه. ما دامت النتيجة هي القضاء على الأحزان. فلأكن أنا أو ليكن الآخر وسيلة. فإذا فقدت حزني فسيفقده الآخر بالتالي.

كانت بعض التلميذات يقفزن في مرح شديد. ثلاث فتيات انفجرت صدورهن. الشعر أحبه أسود أو أشقر. زوجتي ستكون نحيفة وذات شعر ناعم أملس. شعر ليليّ أسود وناعم. قلت لها مرة، كان من الأليق بك أن تكوني تمثالاً في متحف. أما التعليم فلا يصلح لك بتاتاً. وانطلقت تضحك في إغراء. وكانت شقيقتها تنرفزه.

(في بعض الأحيان يحار المرء في اختيار نوع النساء الذي يروقه. ليلى تبدو لي الآن ملائمة. فهي وإن كانت امرأة تحمل تاريخاً من الأحزان طويلاً، أحسها على كل حال ملائمة. الفتاة التي أشتهيها في الكلية شعرها أكرت. غير أن جسدها أفروديتي. الشعر هو مأساتي التي أعانيها. أما الجسد فمسألة أخرى).

كان عبد الرحمن يجرّ الكرسي إلى الأمام، ويقترب من سالم وهو يتحدث بعصبية صخرية. وفي زاوية المقهى كان رجل أسود يطالع صحيفة ويختلس النظر إلى شيء. وخلف صاحب الصحيفة، كانت نباتات شوكية تعلن وجودها. وخلفها أيضاً الزجاج، وخلف الزجاج نافذة مفتوحة. وكان المذياع قد انخفض ضجيجه قليلاً. أما الأغنية التي كانت تنبعث منه، فقد كانت دفيئة وحزينة.

(العالم يتكون من عناصر أربعة، ثم ماذا بعد؟)

هناك أطفال يعاكسون امرأة حمقاء. وفجأة برز رجل، وركض خلف الأطفال. ممّا جعل المرأة الحمقاء التي كانت قصيرة الجسم،

تحرك يديها، وتعلن أنها متزوجة، وأن أباها ميت، وأنها قتلته، وأنها ستضربه على قفاه إذا لم يبتعد. وضحك الرجل وانصرف واثقاً من نفسه ويداه في جيبي سرواله.

(- قلت لها إنها إذا لم تكن راضية عني فلتنصرف.

- وماذا فعلت؟

- لا شيء.

- إنها جبانة.

- كلهن كذلك.

- ألم أثبت لك قبل لحظة أنهن في حاجة إلينا؟

- أستطيع أن أتأكد من ذلك وقد لا أستطيع.

- يجب أن تتأكد.

- سأحاول أن أفعل).

ودخل بو مهدي في الحديث هو الآخر. فقد بدا ساهماً. ويبدو أن الحديث قد شغلهم عنه. إن انصرافهم عني كان تحت ضرورة احتداد الكلام. وبدأ وجه سالم يتغير شيئاً فشيئاً. وأخذ يبيضّ قليلاً قليلاً. بينما كان صالح قد استلقى على كرسيه وقد تعب من الكلام.

الساعات تمر فارغة

ونجتر الكلام نفسه.

(صالح وعبد الرحمن يخونان زوجتيهما. وسالم أمه تموت في الدهليز مسلولة. وأبوه يبحث عن لذاته في الماء العكر. إنه لا يزال قوي الجسم. وابنه قد أصبح شيخاً. يشرب كثيراً. وفي الرسم يقول إنه يجد لذته الكبرى، والفن إنما هو عطاء إنساني كبير. إنه أسمى ما يقدم الإنسان للإنسان. وأن تمارس الفن معناه أنك تؤنس الآخر. إنها تجربة منبعها السماء. إنها تجربة ترتفع عن الطين. عن الوحل.

عن الشر المتأصل في الأرض. وكان الحديث لا يزال يتضخّم بلا حدود.

- لا شك أنها تخونه.
- ألا تكف عن اغتياب الناس.
- أوف. إنهم يغتابونني أيضاً.
- من قال لك ذلك؟
- تجربتي الشخصية.
- أنت إذن تغتابهم ويغتابونك.
- بالمقابل.. نعم.
- هل أنت متأكد؟
- سأحاول أن أفعل).

كنت أعيش قطعة في السماء. أصبحتُ ذرات انتشرت في هذا الفضاء الواسع المزرق. ما أروع أن يتخلص المرء من القيود الواقعية التي تشهدها الشروط المزيفة.

كانت عيناه في السماء وتحولت إلى الأرض. المسجد جذر ترابي مدبب. والطريق هنا تحت إفريز المقهى رمادية ومستوية. وكانت هناك امرأة تعبر وهي ملفوفة في شرنقة من القرون الوسطى والإسلام. وقال بومهدي لسالم الذي كان محولاً عينيه إلى اليسار وكأنه يستمع لمناقشات الرجلين هناك. - انظر.. انظر. يا لها من رائعة -. وبدأ سالم ينفعل. وأحسّ بومهدي أن صديقه أوشك على الانهيار. وفي الواقع فقد اهتزّ بدوره من الداخل. هذا الجسم. هذه اللذة. إنها تساوي العالم.

(- ليس فقط لأنها كانت قد ذهبت معه. وإنما هناك مسألة أخرى.

- أنا أعرف الحكاية.

- ها أنتذا في مجرى الأحداث).

واختفت المرأة، وكان سالم أخيراً قد أطلق زفرة وفرك يديه. بينما أعلن صالح أنه يجب أن ينصرف فالساعة جاوزت السادسة، وهو يشعر بشيء من الجوع.

وعندما وقف بومهدي شعر بدبيب في رجله اليمنى، وتقدمه كلّ من صالح وعبد الرحمن، وكان سالم لا يبعد منه سوى بخطوات قليلة. وكان بومهدي يعرج بفعل الدبيب في رجله. يقف لحظة ويتوجع أخرى. ثم يستأنف السير. وكان صالح وعبد الرحمن لا يزالان يتحدثان. إنهما لا يشبعان من الكلام. إنهما لا يشبعان من الكلام.

حذاءاها قرب السرير، فارغان كأنهما ينتظران زيارة بابا نويل.
ليلى صوتها يأتيه من المطبخ في شكل دندنة أمومية حنون. حذاءاها قرب السرير. وفوق هذا الأخير، لوحة بريشة سالم تمثل امرأة في عريها التام. الجدران الصفراء مَسخ لونها نور الكهرباء. سالم ذاهب لزيارة أمه. غرفته حزينة جنائزية. وخلف النافذة مصباح أصفر في حجم برتقالة. الأشياء تبدو مضيئة.

المساء بدأ يتوغل في الليل.

ليلى تُعدّ طعام العشاء في بيت سالم. للمرة الثالثة سيأكل هذا الأخير طعامها. لقد تركت بيتها وجاءت لتقضي بعض الوقت هنا. أحبك يا ليلى. أشتهيك. رأسي ثقيل كالرصاص. في جمجمتي نغم كنسي رتيب. طن - طن - طن.

ليلى لا تزال تدندن. وحذاءاها قرب السرير ينتظران. كانت المجلة المصورة في يد بومهدي تكاد تبتل من العرق. لقد نسيها (كثيراً ما تشغلنا أشياء عن أشياء أخرى).

جاءت ليلى وفي قدميها خفّان لسالم. كانت تدور على نفسها كالخذروف.

- لماذا أنت ذاهب في هذا الشرود؟

قال فجأة:

- لا. لست شارداً.
- إن عينيك تقولان ذلك.
- ممكن. هناك خدعة نظر من غير شك.
- لا. أنا لا يخدعني نظري أبداً.
- أنت متأكدة؟
- طبعاً.
- أحسدك على هذه الثقة والتأكيد.

وجلست على حافة السرير في مواجهته. لم يكن في الغرفة سوى كرسي واحد. ثم.. ثم هذا السرير. فخذاها ثريان. وشعرها المعقوف كان يهزه. وضع المجلة المصورة. وزحف إلى ليلى فأفردت له مكاناً بجانبها. حذاؤها قرب السرير. عندما استوى بومهدي نزعت الخفين وانبطحت فوق السرير. انحسر ثوبها حتى بطنها. فخذاها مكتنزتان. فمها كفم طفلة عمرها سنتان وخلف النافذة برتقالة كهربائية تسطع. كتفاها رائعان. عيناها شبيهتان بالبندق. أنا أشتهيكِ. وأنت؟ هل تحبينني حقاً؟ محال.. أنت امرأة حجرية، أنت أفروديتية. لو كنت تحبينني حقاً لأحببت زوجك. عفواً.. إن هذا منطق غريب.. قد لا تحبينه وقد تحبين رجلاً آخر. هذا هو المنطق. غير أنني لا أحتمل أكذوبة أنك تحبينني. أنت جميلة. ولكنك للأسف.

قال ببرود وقد انفصلت شفتاه عن شفتيها:
- هل تذهبين إلى المدرسة على الأقدام دائماً؟
- لا.. آخذ الأوتوبيس.
- والزحام؟
- لا يكون هناك عادة زحام في الوقت الذي أذهب فيه إلى المدرسة.

كانت عيناها معلقتين بالسقف. أما شعرها فلم يعد معقوفاً. تشتت تحت رأسها بينما ارتمت خصلات سود على جبهتها. أمسكت بالخصلات ودفعتها إلى الخلف. إنك ماكرة. أنت بئر عميقة أسطورية. من يستطيع أن يُدلي بالحكم النهائي عليك؟ إنك غامضة.. أنا شخصياً أفكارك لا تعجبني. أنت فتاة غير مثقفة. وأنا أحب هذا النوع. لكن على الأقل يجب أن تطالعي بعض الكتب الجادة. سيصبح مستواك في مستوى تلامذتك ولن تفوقيهم يوماً إلا بالتجربة والسن. لو جاء الآن سالم ورآك بهذا الوضع. هل تظنين أنه سيظل في حالة سوية؟ أنت لا تعرفينه. أنت الآن مسترخية في سريره. وقال بفتور:

- هل نطفئ الضوء؟

- افعل إذا شئت.

وكانت تضحك. وعرف أن سؤاله ينمّ عن بلادة. أرجوك لا تؤاخذيني. إن الرجل الذي يشاور المرأة في أمور كهذه يجب أن يُدفن في ثيابه. أليس كذلك؟

هل كان زوجك يعاملك هكذا؟ إذا كان كذلك فأنت محقة في خيانته. أما هو فليس محقاً في طلاقك. يجب أن يحتمل نتيجة فعله، حتى لو كان هذا الفعل غير دموي.

كان يدخل في جسد ليلى. وكانت تدخل في جسده. خلف النافذة الضياء باهت. وفي الغرفة ضوء شبيه بضوء القمر. وشعر بومهدي أن شعوراً ينتابه، شعوراً غامضاً في بعض الأحيان. كل شيء يبدو لي نسبياً ومزيفاً. حتى أنت يا ليلى، في بعض الأوقات لا تساوين شيئاً بالنسبة إلي. كانت قد تحركت وذهبت إلى المطبخ. أما هو فلا يزال ممدداً في مكانه. هذه المرة كان هو، يراقب السقف. قفز في النهاية إلى الأرض. حذاءاها لا يزالان قرب السرير. أف.

إنها تأبى إلا أن تضعهما قرب السرير دائماً. أرجوك.. غيّري هذه العادة. إنها عادة لا تليق بك. لماذا تتصرفين بوحي حيوانيتك؟

وتبعها إلى المطبخ مفكَّكاً محطوماً. جسده كان ثقيلاً مثل كيس من الخيش مملوء بالبطاطا. كانت تغسل يديها. وضع يديها على كتفيها وأعلن لها هذه المرة:

- أنت رائعة!

دفعته بإغراء:

- دعني أتمم شغلي.

- لم أفعل لك شيئاً.

- إنك ثعلب.

- وأنت؟ هل أنت دجاجة؟

- أنا أضعف من دجاجة.

وكان الندم بادياً على وجهها. ليس يدري لماذا تندم بسرعة مع أن الأشياء تتم بشكل عادي؟ إنك رائعة.. رائعة. (ها أنذا أقولها لنفسي. ألا تريدين أن أقولها لك بصراحة) كما تشائين، أنت لست رائعة..

ولوى راجعاً من المطبخ إلى قلب الغرفة. جسده ثقيل ومفكَّك. يا للفظاعة! لماذا حذاءاك لا يزالان قرب السرير؟ جمع قوّته وضربهما برجله فأحدثا ضجيجاً هزّ الغرفة وحطّم الصمت الليلي الثابت في المكان. ومن المطبخ صاحت ليلى:

- هل جننت؟ ماذا تفعل؟

- لا شيء.

إنكِ حتى لو عرفتِ ماذا أفعل هل تستطيعين أن تفعلي شيئاً. عندما تجيئين وستجدين حذاءيك ليسا في مكانهما ماذا تفعلين؟

وجاءت ليلى بسرعة. إن العشاء معدّ. أين سالم؟ ألن يجيء؟

وكان يتوقع أنها ستقول من الذي غيّر مكان حذاءيها عندما جلست على السرير. لكنها - وعيناها في اتجاه الحذاءين - لم تقل شيئاً. وكأن الأمر لا يعنيها بتاتاً - كانت تبدو عادية تماماً. . قال لها:

- يجب أن ننصرف. ونترك له كلمة. أنا ليست لدي رغبة في الأكل.

وقامت لتحمل حذاءيها فوضعتهما في قدميها وألقت بخفي سالم. ثم اتجهت أخيراً إلى المرآة لتسوي شعرها. وبعد لحظات كانا يهبطان درجات العمارة. وفي الطابق الأخير التقيا سالم.

أكدت له أن عشاءه في المطبخ. وكان بادي التأثر وحزيناً. فاعتذر له بومهدي لأنه لم يسأله عن أمه أولاً، فقال إنها في حالة سيئة، وأن أباه لا يزورها بتاتاً.

انطلقا يعبران الطريق والليل يلمس وجهيهما. كانت ليلى تشدّ شعرها بيدها. . فالريح كانت تنزلق عليه. الجو ليس حاراً وليس بارداً. الليل أصفر وأسود. المصابيح مدلاة كبرتقالات في حديقة أسطورية. أعناق أشجار الخروب مدلاة وكأنها لا تتحرك. الصمت وفقاعات الهواء تنفجر داخل رئتيه. كانت ليلى تحثّ خطواتها. إن المدينة تبدو في هذا الوقت وكأنها خلت من الناس. واقترح بومهدي أن يركبا سيارة أجرة فوافقتْ. ولما وافقت لم يجدا سيارة تقلهما. ولذلك فقد قررا في النهاية أن يتمشيا على الأقدام. آه يا ليلى! إني لأذكرك وأنت ذاهبة إلى المدرسة وأنت تلميذة. أنتن تكبرن بسرعة. لماذا تكوينكن الجسمي غير تكويننا؟ قولي يا ليلى. . وتزوجتِ - وأصبح لك طفل. وأنت كم عمرك؟ تسع عشرة سنة. . ألست صغيرة إذن؟ أصغر مني. . ثلاث وعشرون سنة عمري. أوف فليكن يا ليلى. أنت الآن أضخم مني وتبدين ذات تجربة في الحياة أكثر مني.

كان الليل يزحف شيئاً فشيئاً، وفي صمت مطبق نحو الغرب.
كان بومهدي يحس أن الليل جيش من الآلام والأحزان يمتطي آلاف الجرارات والزحافات نحو الغرب.. يتجه لغز هذا البحر الذي آلى على نفسه أن يعيش حركات عبثية: جرز ومد. جزر ومد. المدينة راقدة وليست راقدة. ليلى انظري هذا السكون. تخيلي أننا الآن في جزيرة مهجورة وحدنا. تخيلي هذا أرجوك.

قالت ليلى:

- الريح كأنها في صراع.. تتحرك وتهدأ.

ردّ بومهدي بِودّ:

- والليل أيضاً صامت. ألا تشعرين؟

- كأن الناس جميعهم نيام في هذا الحيّ.

كانا لحظتها يسيران تحت أشجار الخروب التي لم تستطل. والتي لم ترتفع عن الأرض. كان ضوء المصابيح العمومية يحاول أن يخترق الأوراق ليُنير الأرصفة والطريق. كان في محاولة جادّة لتأدية مهمته بينما كانت الأشجار غير مبالية بالمصابيح ولا بالضوء. شاحنة كانت تدق الأرض. وبعض الأطفال الذين يقفزون هناك بعيداً، كانوا يتبادلون كلمات قبيحة في وقت متأخر.

مشينا مسافة طويلة. ولذلك فقد أحسّ بومهدي بأن ليلى تستنشق الهواء بيسر وليونة. وكان سيل أشجار الخروب قد انتهى.

- ها قد وصلنا!

أعلن لليلى بينما أكدت هي بدورها:

- لقد مشينا مسافة طويلة وبسرعة.

- لا أظن. إن المسافة طويلة بما فيه الكفاية.

- على كل حال لقد شعرت بأنفاسي تضطرب.

- أنتن تتعبن بسرعة.

ولم يبقَ أمامهما إلا خطوات. وعرجا يميناً. والتفتت ليلى إليه. وفهم ما الذي تحاول أن تقوله. فهم منها كل شيء بحكم العادة. طمأنها على أنه فهم. وقالت هي: متى سنلتقي!؟

وبعد لحظات من الصمت في زاوية الطريق أعلن لها رأيه في يوم الخميس القادم. ولم ينتظر حتى تفكر، بل وافقت بلا روية. وودعها بكلمات منفتحة...

لم يعد الليل صامتاً كما كان قبل لحظة، بل كان هناك ضجيج، وكانت هناك حركة، وبدا لبومهدي كأن الليل قد توقف عن الزحف نحو الغرب، في اتجاه البحر..

10

كان كل شيء يغوص في الضباب. الأشياء لم تتمطط بعد في حيّز الشمس، ذلك الصباح - والندى فوق النباتات والطرقات - كان الجو ينذر بحزن أكيد. وكان بومهدي يشعر بداخله انقباضاً كبيراً شبيهاً بهذا الانقباض الذي تعيشه المرئيات في هذا الوقت.

كان قد توقف فجأة أمام باب الكلية. لم يكن هناك طلبة كثيرون. الجو هنا حزين أيضاً. الضباب فوق الأسطح بعيداً. النباتات المخشبة منداة. وخطا إلى الداخل ونشر عينيه في الساحة. وعندما رأى أحد الزملاء مشى إليه وكأن بقدميه أقفالاً حديدية. كان وجه صديقه كالصفيح. وكان متكئاً على جدار هناك: على بعد مسافة قريبة. . . وبعيداً منه قليلاً، كان طالب جالس على درج سُلَّم يؤدي إلى قاعات داخلية. . كان هذا الأخير يتأمل صحيفة في يده. سلّم بومهدي على الصديق. ثم توجها إلى المقصف الذي كان خالياً تقريباً من الطلبة. . وهناك، حيث الصمت الغامض، بدآ يتحدثان بهمس شديد. لم يكونا يخافان شيئاً في الواقع. ولكن واعزاً خفياً كان يقول لهما بألا يرفعا صوتيهما. . أعطى بومهدي للصديق مهلة إشعال سيجارته وعندما انتهى أشعل له سيجارة. وكان ينفث الدخان في وجهه. ثم قام واتجه إلى الفاصل الخشبي فأحضر فنجاني قهوة. . كان بومهدي يدخّن بتفكير وعيناه تتأملان حذاءيه مرة وأرض

المقصف مرة أخرى. وفي الخارج كانت تنبعث قهقهة خفيفة.. ما هذا؟ ألست حزيناً أيها الوغد؟ وقال له الزميل في النهاية:

- إنهم لا يزالون هنا (!!)

ولم يرد عليه. كان منشغلاً بالنظر إلى قدميه الجامدتين كالحديد. ودخل فوج من الطلبة إلى المقصف دفعة واحدة. أمسك أنفاسه عندما رأى الفتاة التي يشتهيها. هذه المرة لم تكن ترتدي بنطلوناً كانت ترتدي لباساً عادياً. ذهب عنه ذهوله فلم يعد يفكر بعمق، واتجه إلى التفكير فيها بكليته - ذهبت إلى الفاصل. وما زال يتابعها بنظراته.. عنقها طويل وطري شيئاً ما، إنه يلمع. غير أن شعرها الأكرت قليلاً كان لا يعجبه.. أنت لست جميلة، ولكنك هائلة. ما معنى هذا؟ إني لا أستطيع أن أُميز بين الكلمتين. إني أشتهيك.. جسدك! جسدك! التفتت عن يمينها. وبدأت توزع نظراتها في المقصف الذي كان شبه فارغ قبل لحظة. آه! انظري إليّ. غير أنها لم تكن تنظر إليه. كانت قد بدأت تنشغل بتذويب قطع السكر في الفنجان. وأخيراً حملت فنجانها وكعكاً هلالياً، وتوجهت لتجلس في الوسط، حيث كانت كراسي أربعة تنتظرها. إنها رائعة الجسم. يا للأسف عيناك منتفختان ووجهك ليس جميلاً إلى الحد الذي يُرضي. قال لصديقه الذي كان منشغلاً بالنظر إلى طالبين يناقشان بحدة:

- انظر.

ولكزه بذراعه فالتفت مستفهماً. فأشار بومهدي بحاجبه إليها وهي منشغلة بالأكل. فقال صديقه:

- إنني أعرفها. جمالها ليس مميزاً.

- إنها تعجبني.

وتحوّل الحزن في عيني صديقه إلى ما يشبه المسرة. وأكد له

أنها ترافق رجلاً متزوجاً، وأنها تحبه رغم أطفاله. وهي تحبه بلا أمل. وكانت هي تأكل كعكها الهلالي بنهم. وفي الأخير.. وفي الأخير.. مسحت على عينيه بعينيها.. أخيراً أيتها الملعونة نظرت إليّ! كنت أتوقع أنهم. ولكن، إنهم لا (...) مثيلاتك، أليس كذلك. وكان صديقه ينفث الدخان في وجهه وهو يتكلم:

- انظر.. انظر.. إنهم لم (...) وأشار إلى طالب معروف بنشاطه. دخل هذا الأخير إلى المقصف، وبدأ يوزع نظراته وكأنه غير مبالٍ. وبدأ يتمشى بخطوات وتيدة في الوسط وهو مُطرق الرأس. يبدو عليه وكأنه يعيش جواً جنائزياً. في النهاية لم يعيراه اهتمامهما. غرق الصديق في تصفح كتاب أمامه، بينما كان بومهدي يطالع الأسرار في عينيها وقد أنهت كعكها وألقت بجسدها على متكأ الكرسي. وقابلته بوجهها المصبوغ بمواد كيماوية لمّاعة. وقال الصديق: «هناك إضراب..».

وتأكدا من ذلك. كان الطلبة قد بدأوا ينصرفون من المقصف واحداً وراء آخر. وكان الطالب النشيط قد اختفى. لقد أعلن ذلك واختفى. لم يرد بومهدي أن ينهض. كان منشغلاً بغرامياته. أنت لم تسمعي شيئاً؟ لماذا لا تنهضين؟ لقد نهضوا جميعاً إلا أنت...وو...و.. أنا.

ثم وقف بتفكك. وتبع صديقه الذي نهض قبله. كانت هي لا تزال جالسة وكأن الأمر لا يعنيها. وواتته فكرة: أن يذهب إليها وأن يقول لها بأن هناك إضراباً. وستكون فاتحة خير. ثم.. ثم بعد ذلك سنتعارف. ثم.. كل شيء سيتم كما أريده. كان يفكر هكذا. وكان يتبع صديقه. فحتى محاولة الالتفات إليها لم يتجرأ عليها. كان يخطو خطوات ثقيلة ورأسه إلى الأرض. وكان يسمع صوت حذاء نسوي أمامه. وكانت هي تتبختر. لماذا تمشين هكذا بدلال؟ هل

تعرفين مفعول جسمك فيّ؟ أرجوك. لا تحاولي معرفة هذا. إنك إذا عرفت فستتلذذين بعذابي. ألا تحترمين الزوجية؟ أنت التي ستشردين الأطفال. ها أنذا أقولها لك. وإذا شئتِ فتأكدي أنت من ذلك بنفسك بعد أن تتجردي من عواطفك التي انحرفت بلا إرادة.

كانت محفظتها في يدها تتحرك في كل خطوة. وكان قلبه ينط هو الآخر إثر كل خطوة. كانت خطواته مفيدة. وكانت هي قد اختفت.

في خارج الكلية الضباب لا يزال. السيارات قطع من الضباب. الطريق منداة لا تزال. وكانت كمّاشة الضباب تقبض على قلبه بيد صلبة كالزلط. وكان يفكر في أشياء كثيرة. رأسه لا يزال ثقيلاً ورجلاه تخونانه، وكذلك يداه وجسمه.

11

رجل مات. في الشارع قبضوا على القاتل. رجل مات ورجل سيموت.. لماذا قتله؟ لا بدّ أن هناك حافزاً خارجاً عن طاقة القاتل والمقتول معاً. والآن، الناس يتأسفون وبعضهم يلعنون. وبعضهم يقولون كلاماً بذيئاً مليئاً بالمرارة والحقد. هناك موت حقاً. لكن من يستطيع أن يقول إن هناك شيئاً اسمه الموت. موت ثابت وأكيد. إني لأتذكر واحداً يقول إنه في لحظة الموت يحضر الانتحار. تأتي فكرة الانتحار مجلوة واضحة وطيبة غير شريرة. أن أنتحر بسهولة ويسر.. أن أتناول أقراصاً مميتة. لم يسبق لي أن عشت لحظة موت. ولكن فكرة الانتحار ألحّت عليه إلحاحاً شديداً. هناك برم شديد بالحياة لديه أحياناً. كل شيء يسودُّ. كل شيء تافه. كل شيء لا معنى له. ليس له جدوى. أنا خُلقت من جديد. أفكر أحياناً في الفرق بيني وبين هذا الجدار وهذا النبات. ربما يكون أحسن حالاً مني. ثم تلح على بومهدي بعض التساؤلات التي تبدو تافهة ولكنها في الواقع عميقة وذات دلالة. الإنسان يسير بشعور جماعي.

الفردية تؤدي إلى الحقيقة

لكن ما أمرَّها.

في داخل الذات هناك آلام وانتحارات باردة كالصقيع.

الهاوية مظلمة داجية كالخرافة.

عندما أنفصل عن العالم الخارجي أتبيّن لاجداوي فأرجو رجاءً حاراً هؤلاء الناس الذين يضحكون في حالة مرارة أن ينتبهوا.

فالمرارة تغلفنا ولكننا نضحك.

الشعور العام الذي يمسكنا جميعاً كخيوط الكراكيز. يغلف حقيقتنا. إن الموت شيء طبيعي. أن أقتلك أو تقتلني شيء طبيعي. نحن جميعاً سنموت. فماذا إذن إثارة هذا الغبن الذي يسود لاحقيقتنا؟

كانت أفكار كثيرة تضطرب في رأسه. الرجل مات. الآخر أُلقي القبض عليه. وبعض لحظات سيموت. لحظات تطول أو تقصر. والانتحار يحضر في لحظة الموت. أنا لم أعش تجربة موت. العالم لا يكتشف حقيقته لأنه لم يعش فرديته. طغيان الشعور العام يتمادى. كان ذاهباً إلى سالم مليء الرأس بكتل إسفنجية من الأفكار. يضغط بعضها، فيخرج منها الماء العكر. كانت يداه في جيبيه، والجو ساخناً هذه الظهيرة. نفير السيارات يمتد، والجدران تمتد، والسماء تمتد في اللانهاية. وكل شيء صاخب، والرجل مات وآخر سيموت. وربما هناك من يموت الآن والآن والآن والعالم لا يزال يسير. البعض يضحكون، وآخرون يبكون. وسالم ربما كان مستلقياً الآن على سريره ينظر إلى السقف، أو جالساً يتأمل وجه السماء خلف النافذة، أو يرسم لوحة يصبّ فيها مأساة أمه المسلولة وأبيه الزنديق. والعالم لا يأبه لأي أحد. الحركة تحتد وتلتهم باقي الحركات الأخرى.

كان بومهدي يسير ورأسه تكاد تنفجر، والقلق يضغط قلبه الكسير، ويبعث الآلام والغثيان والنرفزة في أعصابه التي تتوتر. كانت عقارب ساعته لا تتحرك. بطيئة كانت تسير. الزمن يتوقف ولا يتوقف. في ساعته هو يتوقف. وخارج إطارها يسير بسرعة لا يشعر بها.

أنا لا أستطيع أن أشعر بها. هو الآن في وقت الظهيرة: سأذهب الآن هنا أو هناك. وسآكل وسأضحك وسأحزن. وفي النهاية سأُعيد هذه المسرحية.

كانت الأفكار في رأسه كشريط سينمائي. وكانت قدماه تقفزان في درجات سُلَّم العمارة. وكان يتخيل سالماً خلف الباب يقبع وراء النافذة. لقد منعه انشغاله بالتفكير حتى عن إلقاء نظرة قبل لحظة إلى نافذة غرفة سالم. طفف طف على الباب. وكان صالح هو الذي فتح الباب. كان بادي الفرح. عيناه تجمدت فيهما المسرة وغلفتهما. صورة الطفلة الصغيرة الضاحكة في مواجهة الباب كانت تضحك. هذه الطفلة رسمها سالم مراراً وأعاد رسمها مرات ومرات. إنها تضحك على العالم الوغد، العالم الوحش، العالم الرديء كما يقول سالم. أنا لا أوافقك يا سالم. إن ضحكتها ليست ضحكة سخرية. هذه المرة يجب أن تتأمل الصورة جيداً. هذه ضحكة فرح وليست ضحكة تشفٍّ. أنت تنظر بعينك الداخلية لا بعينيك الحقيقيتين. أنت تحكم من خلال وضعك. هذا ليس حكماً نهائياً وصحيحاً. ووثوقياً. يجب أن تنفصل عن وضعك وتحكم. وقال صالح:

- أقدم لك.

وقالت الفتاة:

- ......

ولم يسمع اسمها جيداً. وقال تشرفنا. ومضى إلى الكرسي ليجلس. كانت في وضعٍ مزرٍ على السرير. وسالم أين هو؟ أنت وحدك هنا يا صالح.

قال لصالح:

- أين سالم؟

- ذهب يزور أمه.

- متى؟
- قبل لحظات ليست بعيدة.
- هل سيتأخر؟
- أكيد.

وكان يتكلم من خلال فرحه. وهو جالس إلى جانب الفتاة كان يبرم شاربه. شارباك قبيحان أيها الوغد، وأكد له أنه يجب أن ينصرف وسيزور سالم في المساء. فألحّ صالح على البقاء. وفي عينيه لمح بومهدي شيئاً من التردد. كانت تتوسل إليه ووجهها إلى الأرض أن ينصرف. أن ينسحب من هذه الساحة. ورغم إلحاح صالح على أن يبقى معهما، قرر في داخله أن ينصرف. ثم أمسكه شيء غريب. ألحّت عليه فكرة أن يروي لهما قصة الرجل الذي مات والذي سيموت والذين ماتوا والذين سيموتون.

وبدأ لاشعورياً يروي لصالح القصة. في الطريق ألقوا القبض على قاتل. هل تعتقد أنه قَتَل بحُرية؟ هل كان يمتلك حريته وإرادته؟ لا أظن. لقد كان الفعل لاإرادياً.

وبدا لبومهدي أن الفتاة لا تفهم. ولعنها في داخله. بينما كان صالح تتغير سحنته. وقال من خلال آلامه وانتحاراته:

- المسكين! سيقتلونه الآن.

وخرجت الفتاة عن صمتها.

- من يقتُل يقتَل؟

ونظر بومهدي إليها في صمت. لقد قالت شيئاً ذا أهمية كما يبدو. لا أيتها الآنسة المجهولة. هذه ليست الحقيقة. نحن جميعاً مخطئون منذ بدء الخليقة. الحقيقة غير ذلك. وخرج عن صمته وتفكيره متوجهاً إليها بالحديث:

- سيراعون ظروف القاتل.

قالت:

- فلتكن ظروفه هكذا أو هكذا. من يقتُل يقتَل.

- لا تتعصبي.

وبدا عليها شيء من الغضب. وكان صالح لامبالياً بكلامها. يبدو أنه ملّها وملّ حديثها. إنها تقول كلاماً عادياً، يقوله جميع الناس. ما ذنبها؟ لا شيء.

كانت السماء قطعة هندسية زرقاء. خلف النافذة بنايات قصيرة تبدو تحت جناح العمارة. الهواء يدخل بارداً منعشاً. صالح يتحرك فوق السرير، يغير من وضعه. الفتاة جامدة. شاربا صالح كثان كذيل حمار. الفتاة في الصورة تضحك ضحكة فرح وليس ضحكة تشفٍّ وسخرية. سالم ذهب ليزور أمه. والغرفة لا تبدو كما كانت طبقات من الأزبال. لقد تغير منظرها قليلاً.

وقال بومهدي من خلال صمته:

- صالح.. لدي شغل. سأنصرف الآن.

- قلت لك ابقَ معنا.

- لدي شغل. دعني أنصرف.

وهو ينفث هذه الكلمات بفتور كان يقف.

الهواء بارد يدخل من النافذة. الفتاة شعرها ينسدل بفوضى على وجهها وكتفيها. أنت تشبهين مومساً. من يدري ربما كنت مومساً. صالح ليس له ذوق. يخون زوجته لكن مع نساء ليس لهن جمال بارز. أنت جميلة ولكني أعتقد أنك ثقيلة الظل.

ومدّ يده للفتاة فودّعها. وودّعه صالح في الباب. قفز درجات سُلَّم العمارة. واحتضنه الشارع عند قدم العمارة.

ضجيج السيارات والشاحنات.

الناس يمشون بلا هوية.

الحياة غير مجدية.

العبث في كل شيء.

هذا العالم لا يُحتمل.

وكان يجتاز الشارع إلى الطوار المقابل وقد انقطع سيل السيارات. بحث في جيبه عن علبة السجائر فلم يجدها. فقط علبة الثقاب كانت في جيبه فأخذ يتلهى بها. وكان رأسه غارقاً في بركة من القلق والضيق. لأن صورة الرجل القاتل قد بدأت تظهر وتختفي. كأنها غريق. كأنها غريق.

12

المدرسة كتلة من الحجر طلاؤها أصفر. اليوم يوم الخميس. الساعة تقارب الخامسة. واعد ليلى بأن يلتقي بها بباب المدرسة التي تدرّس فيها. لم يكن متضايقاً اليوم ولا قلقاً مثلما هو دوماً. يفرح ويحزن في مواسم فجائية. كان قد انتحى مكاناً ليس ببعيد من باب المدرسة الرابضة ككتلة من الدمن في صحراء. وعلى أحد أعمدة الكهرباء أرض ثقيلة. وجسمه لم يعد رهن إشارته. أصبح طرياً كدودة الأرض. ورخواً كالعجين. وكان يرفع ساعته غبّ كل لحظة. الساعة الخامسة أوشكت ومع ذلك فهو لا يزال يعتبرها بعيدة جداً. ما أمرّ الانتظار! ليلى الآن ربما تعيش في حالة نفسية مماثلة. ترى هل تنظر إلى ساعتها مثلما أفعل الآن؟ أم هي تلقي درسها. أم تعاقب تلميذاً يحاول الإخلال بنظام الفصل. اسكتوا أيها الشياطين. ستخرجون من الفصل بعد قليل، امرحوا كيفما شئتم. كان يتخيل ليلى كذلك، وكان يتخيل الفرحة تنزُّ من عينيها، وتطفر دموع الابتهال على وجنتيها فتبادر إلى مسحها بمنديلها المطرّز بأناة. ليلى، أنا أيضاً في وضع مشابه. أنا أيضاً عيناي تنزّان دمعاً. ولكن الدموع لا تطفر فوق وجنتي. أراهن على أني عاطفي أكثر منك. أنا أتألم كثيراً وأفرح بسرعة وأتعاطف وأتواجد بقوة.

وغيّر من وضعه عندما رأى أول طابور من التلاميذ يلتهمه

الشارع. كان الأطفال صغاراً في المجمل. ولبث ينتظر المعلم أو المعلمة التي ستتبعهم. كان معلم عجوز هو الذي أطلّ عليه خلف نظارتيه الرخيصتين. ثم توالى سيل التلاميذ وهم يخرجون. أوه ليلى. أنا أنتظرك هنا. تعالي. أنت أجمل مما ينبغي. وأمسك الحوار في نفسه. كانت ليلى قادمة من بعيد. ساقاها فوق حذائها ذي الكعب العالي كقلعتين فوق مرتفع. وأمسكها من ذراعها. لم تكن دموع الفرح في عينيها كما كان يتخيل. عيناها طبيعيتان. ليلى أنت خدعتني مراراً. وقال لها بسرور:

- لقد جئت في الموعد.

وكانت تسوّي وضع محفظتها تحت إبطها. ومن خلال خداعها له قالت:

- أنت حريص على المواعيد. هذه خصلة حميدة فيك.

وشعر بشيء من الزهو. ليلى أنت رائعة. كانا يتمشيان ببطء. كانت خطواتهما بطيئة للغاية. فكأنما كانا يستمعان إلى هذه الموسيقى التي تحدثها أحذيتهما مع الطريق. وسحب يده من يد ليلى. كان يمشي بمحاذاتها تماماً. ولأنه فطن إلى أن الناس ينظرون إليه أكد لنفسه أنه محظوظ. امرأة جميلة أرافقها. لم يكن يدري ما هو شعور ليلى. هل هي الأخرى تحسّ بزهو. شاب جميل (لست أدري ما إذا كنت جميلاً) يرافقها. وهو قوي وو... إلخ. هناك صفات أخرى ربما تتبادر إلى ذهنها. وقال لها:

- ألا تحسّين بالجوع؟

- تماماً.

وأشار إلى بائع معجنات لا يبعد قليلاً. وبدت كأنها لا تحسّ بالجوع. وقال لها بحذلقة:

- هل نذهب لنشتري قطائف؟

- لا.

- لماذا؟

- لا أريد أن آكل في الشارع.

- نأكل في الداخل.

- لا.. لا أريد. بعد قليل سنكون عند سالم. وسنأكل هناك.

- وإذن اسمحي لي أن أحمل معي القطائف.

- شأنك.

ومضيا في اتجاه الغرب. المدينة في غلواء. وليلى تحت إبطها محفظتها وهو يحمل قطائف ملفوفة. في بادئ الأمر كان الصمت يغلف عالمهما. لا شك أن كل واحد منهما كان يتكلم في داخله. أما الآن فقد تساقطت الأسوار، واندلق الكلام كالشلال.

كانت ليلى بادية الفرح أخيراً. قبل لحظة عندما كانا في باب المدرسة كانت عادية. ويبدو أن أحد تلامذتها ضايقها. ليلى، أنت تتقلبين بسرعة تفرحين بسرعة وتغضبين بسرعة. أنت شبيهة بي.

- ليلى أين تقضين يوم الغد؟

- في البيت.

- اليوم كله؟

- نعم.

- ألا تخرجين؟

- لا.

- لماذا تجيبين بإيجاز

- ...

ولم تجب. لم يعد هناك إيجاز ولا إطناب. كانت تنظر إلى

بعيد. لوحة للإعلانات عُلقت عليها حروف لاتينية كبيرة وتحتها قنينة. ليلى هل أنت مشغوفة بالإعلانات؟ هل تحبين الدعاية؟

وحوّلت نظراتها إلى الضوء الأحمر الذي استطاع أن يوقف سيل السيارات بقوة خفية جبّارة. وقالت له:

- هيا تحرك. السيارات توقفت.

ووضعت يدها في ذراعه بحركة لاشعورية. واجتازا الممر المسماري. لم يكن حذراً وهو يجتاز الممر إلى جانب ليلى. كل ما وعاه أن هناك إنساناً آخر ضبابياً في داخله ينتبه لليلى. وفي الطوار خففت من سرعتها. وتوقفت قليلاً تنتظره - لأنه كان قد تخلف عنها بثلاث خطوات - وقال لها:

- المدينة مرة تمتلئ بالضجيج، ومرة تموت.

- إنها عادة في الساعة الخامسة تنطلق.

- وحتى في الثانية عشرة زوالاً.

- أجل.

وكان هناك شعور كبير يلحُّ عليه. أنه بالنسبة إلى ليلى طفل صغير تنقصه التجربة. وهو أكبر من ليلى بثلاث سنوات أو أربع، ومع ذلك فهي تبدو امرأة في الثلاثين ناضجة. ربما تجربة الزواج علّمتها الكثير. هو لم يتزوج ولم يتحمل مسؤولية بعد.

أعلنت ليلى:

- لقد وصلنا.

- أخيراً.

وكانت لفافة القطايف في يده تعرق. الجو ليس ساخناً ومع ذلك فقد أحسّ بأنها تسبح في العرق. وتقدم ليلى بينما لبثت هي خلفه مطرقة الرأس تنظر إلى قدميها. ثم صعدا الدرجات. وجذب

المفتاح من جيبه وفتح الباب. ثم دفع ليلى إلى الداخل. كانت صورة الفتاة الضاحكة لا تزال في وضعها. أراهن على أن هذه الضحكة ليست ضحكة تشفٍّ. إنها ضحكة فرح. ومضت ليلى ووضعت محفظتها فوق السرير. لم تضعها ولكنها ألقتها بقوة.

وقال لها بشعور طفل:

- ليلى، هل هذه الضحكة في الصورة تعبّر عن تشفٍّ أم عن فرح؟

وأجابت بلا روية:

- عن فرح.

ولبثت عيناها معلقتين بها فكأنها لم ترها قط. وكأنها لم تدخل هذه الغرفة قط. وفتحت النافذة فدخلت كمشة من الهواء إلى الغرفة. وبدت الطريق مملوءة بالسيارات عندما اشرأب بومهدي بعنقه. وخلف النافذة كانت السماء فسيحة للغاية. آه أيتها الآفاق الواسعة المجهولة. والتفت أخيراً فوجد ليلى تنزع كعبها لتضع في قدميها خُفي سالم وقال لها:

- تعالي انظري هذه اللوحة خلف النافذة. السماء فيها إكبار وإجلال.

وقالت إنها ستجيء لترى. بينما وقف هو مشدوهاً في لحظة تأمل وذهول مستفيض. وأحسّ أن ركبتيه بدأتا تخونانه. وقال لليلى هل أقفل زجاج النافذة أم أتركه مفتوحاً؟ فاقترحت أن يتركه مفتوحاً. وأخذت لفافة القطائف، واتجهت نحو المطبخ لتعدّ القهوة من غير شك. ليلى لو كنت زوجة لي. ولكنك مع الأسف خائنة. كل ما فيك رائع إلا الخيانة. ليلى أنت ربة بيت رقم 1. وحوّل عينيه إلى الصورة. الفتاة لا تزال تضحك في سرور عارم. ثم تحول بعينيه إلى

السماء. بعض السحاب كأنه يزحف خلف النافذة، وسمع ليلى تقول من خلال ضجيج صامت:

- تعال الآن لتأكل القطائف. أنا لا أحب أن آكل في الشارع.

والتفت إليها وخطا نحوها. ومن أعماق أعماقه كان يعبّر لليلى عن شعوره بأنها ربة بيت رقم 1 وأنها تستطيع أن تعيد صنع العالم من لا شيء وأنها وأنها... إلخ.

13

انحلّ الإضراب هكذا بلا مقدمات. غير أنه لم يذهب إلى الكلية أمس أو اليوم. وفي الصباح مكث بومهدي في البيت حتى وقت الغداء. لم يفعل شيئاً ولكنه كان يفكر ويفكر. كان شعور عارم يجتاحه. شعور عارم بالاختناق. العالم لا يريد أن يتغير. في بعض اللحظات يشعر أنه مركز العالم. لكني للأسف تمثال هش لا يساوي شيئاً. ظلّ يدخّن ويدخّن ويستمع إلى الموسيقى. أما الكتب فإن شعوراً نافراً إزاءها لا يزال يلحُّ عليه. ما معنى أن أقرأ؟ إن في الواقع تتجسد جميع الحقائق. لماذا أبحث عنها خارج هذا الواقع؟ فالجدران تمثل أشياء ذات قيمة بالنسبة إليه. وهذه الطاولة وتلك الصورة وذاك الطلاء. كل شيء في الواقع له قيمته الجوهرية الخاصة. كانت أفكار تدور في رأسه طوال هذا الصباح. وأمسكه دوار عنيف. فلا السجائر تجدي ولا الموسيقى تجدي. وهكذا فقد تغلبت عليه الوحدة هذا الصباح. وبعنفوان كان ينتفض. وبعنفوان كذلك يرفض جميع هذه الحيثيات التي تحطمه، والتي تكاد تجعل منه إنساناً لا معنى له. وبعد أن تناول غداءه كان قد قرر الذهاب إلى سالم. فهو لم يذهب إلى «المديرية العامة» أمس أو اليوم. قال له ذلك صالح عشية أمس. لم يذهب إلى العمل لأنه كان يستعد لإقامة أول معرض له. وكانت الفكرة في حدّ ذاتها مغرية.

وذهب بومهدي إلى سالم ظُهر ذلك اليوم فوجده نائماً. تحدثا عن المعرض فأكد له أن جميع الإجراءات قد اتُّخذت الآن. وراح بومهدي يجرّه من السرير لكي يدله على اللوحات التي سيعرضها. كانت كلها مكوّمة في المطبخ. وبدأ يقول هذه ستعرض وتلك لن تعرض. وجعل يفرز اللوحات وكان بادي التأثر كثيراً. فكأنه لم ينم بما فيه الكفاية. وجرّه من يده وقال له إنه لم ينم فيجب عليه أن ينام الآن. فتضايق من كلامه. وقال إنه يجب أن يبقى معه، فبقي معه فترة قصيرة من الوقت. غير أنه قرر في النهاية أن ينصرف. فقد كانت لديه رغبة ملحّة لمشاهدة فيلم من أفلام الحروب. كانت هذه الأفلام تعجبه ولم يكن يدري سر إعجابه بها. وبعد مرور قليل من الوقت كان بباب السينما وحجزَ تذكرة. ثم دخل وكان الفيلم لم يبدأ. كانت هناك موسيقى جاز تنطلق في قاعة العرض. ولم يكن هناك متفرجون كثيرون. القاعة واسعة والكراسي فارغة. كان اليوم يوم ثلاثاء. لا شك أن الذين جاءوا لمشاهدة الفيلم شبيهون به، لديهم أوقات فراغ كثيرة، أو هم على الأقل أعطوا لأوقاتهم صفة الفراغ. وكانت العاملة تنظم الجلوس على المقاعد الفارغة، وفي كل لحظة كانت تضرب كتفه ربما عن عمد لأنه كان يجلس في مقعد جانبي، فرأى أن يغير مكان جلوسه وغيّره بلا إذن منها. وكان يتوقع أنها ستجيء بشخص ما وتقول له هذا مكانك فتغيره من مكانه. غير أنها لم تفعل طوال العرض. كان الفيلم مؤلماً إلى حدّ بعيد، وكان راضياً عن ذلك. فقد وجد نفسه ينشرح انشراحاً لا حدّ له بعد مشاهدة الفيلم. هناك عدد عديد من الجنود الذين ماتوا، وهناك البطل الذي بقرت بطنه ومات أخيراً في مستشفى معلناً: «أن الحروب يجب أن تزول» وغيرها كثير من «المآسي» ومع ذلك كان يحسّ بمزيد من الانشراح، بل إنه

طالما تمنى أن يكون جندياً. أن يحمل الرشاش وينهال على هذا العالم المُغثي بالرصاص.

كان الظلام قد بدأ يسقط وكان كل شيء قد بدأ يغوص فيه، والمصابيح العمومية تغسل الأشياء والطريق والرصيف بسائل أصفر لزج. الليل الآن قد حلّ. في الصباح كان يتألم من ثقل الأفكار، واحتدادها. أما الآن فإن رأسه فارغ. إن رأسه يستعد لمزيد من الكتل الهوائية التي يجب أن يحشوها. وكان الهواء قد بدأ يلطف. الآن كل شيء سوف يتغير. هناك مسخ شامل لجميع المرئيات. في داخله عاطفة كبيرة تتضخم تجاه جميع هذه المرئيات. كان لا يحسّ بخطواته. فهي مقيدة تارة ومنطلقة أخرى. كان يشعر أنه مومياء انطلقت من متحف قديم في ضاحية المدينة. والناس تماثيل من الهواء. الناس مناطيد. وكان يمسح سائلاً لا وجود له على جبهته. لقد شعر بشيء بارد عليها. الناس دمى متحركة. وأنا غفل لا أفرح ولا أحزن. والبطل السينمائي قال وهو يحتضر «يجب أن تزول الحروب». أما بومهدي ففكر أنه يحب أفلام الحرب. ثم انطلق في سلاسل الظلام إلى هناك. . إلى بعيد. وكان مع ذلك مقيداً.

14

جلس في مقعد خلفي. . الأستاذ يتكلم بانفعال. . الطلبة رؤوسهم ككُرات من الرمل. والفتاة التي يشتهيها أذعنت أخيراً قبل لحظات في مقصف الكلية. تحدثا. كانت الصدفة قد لعبت دورها. وكان الأستاذ يتكلم بانفعال وكان يردد بأن المبدأ الأول هو علة كل شيء، وأن هذا الكون، وأن هذه النفس، وأن هذه الأشياء جميعها إنما هي. . ولا يسمع شيئاً. الفتاة التي يشتهيها لم يسبق له أن استمع إليها وهي تتحدث. صوتها دافئ (اكتشف ذلك فيما بعد). وجد أن: ألفاظها مقطع من أغنية رومانسية تحمل شتّى الأحزان. . ثم. المبدأ الأول هو علة كل شيء وعند سبينوزا أن اللّه علّة لا تنفصل عن المعلول. وكان الأستاذ متأكداً من أنه يقول شيئاً ذا أهمية. والرؤوس مقطوعة وموضوعة فوق جثث عفنة. والمقعد مثل سفود.

- ما اسمك؟

- ليلى.

يا للمصادفة! هناك ليلى وهنا ليلى. لقد وقعت في التباس إذن. أرجو أن تغيري هذا الاسم. وقال:

- أنا أسميك نانسي.

- لماذا؟

- لأن الاسم يعجبني.

- وأنا يعجبني ليلى.
- إن كثيراً من الفتيات يحملن الاسم نفسه.
- وماذا في ذلك.
- أنت لا تشبهينهنّ.

كانت تشرب قهوتها أمامه بينما كان ينفث جداراً من الدخان بينه وبينها. كان وجهها يبدو من خلال الدخان سادياً بشعاً مشوهاً. وكفّ عن التدخين. وهو لا يريد أن يرى وجهها هكذا مشوهاً. فهو وإن كان لا يحب وجهها أكثر من جسمها، فإنه لا يريد أن يراه مشوهاً، سادياً، وبشعاً. تضع ساقاً فوق ساق. وكان هو يحترق في داخله.

ثم..

- كنت تثير انتباهي قبل أن نتعارف. هل تقبل الصراحة؟

وأخذ يعيش لحظة من الاضطراب. ماذا يقول؟ كانت الكلمات قد انعقدت في لسانه. وفي حلقه تكوّم دبق لزج ومرّ.

- وأنت أيضاً كنت تثيرين انتباهي.
- إنها الصدفة. كيف لم نتعارف قبل اللحظة؟

لكن العالم يا نانسي هكذا، لا يسير في اتجاه الرياح. وكان الأستاذ يتكلم بانفعال. أما بومهدي فلا يسمع شيئاً. العلة والمعلول لم يكونا يعنيان شيئاً بالنسبة إليه. أما الرؤوس فهي مقطوعة ومثبتة فوق جثث عفنة. وصوت شاحنة بعيد ينطلق إلى القاعة فيدغدغ آذان هذه الرؤوس المقطوعة.

ثم..

لا تحولي ساقيك هكذا يا نانسي. إنك إذ تفعلين تمدين سلكاً من الكهرباء في جسمي كله. لكن يجب أن تنسي الرجل المتزوج. لماذا بالضبط رجل متزوج وله أطفال؟ أنت مسؤولة يا نانسي..

نانسي أحبك وأشتهيك معاً. ثم أخذت الرؤوس المقطوعة تتحرك فوق الجثث، وألقت الأرض بموتاها. وها هم الموتى يدفنون أمواتهم.

وقف ومضى باتجاه الباب. يجب أن نلتقي بعد المحاضرة فإياك أن تنسي.. لكني لا أستطيع أن أنسى يا نانسي. وكانت نانسي واقفة بالباب. كانت تحادث صديقة لها. هل تتحدثان عني؟ من المحتمل نعم ومن المحتمل لا. ثم التحق بها وقدّمت له صديقتها بفتور:

(- كان يجب أن يمضي وحده.

- ولكنها ترفض. إنها ترفض دائماً.

- من غير شك أنها مخطئة وستعرف خطأها يوماً ما. اسمحي لي سأودعك الآن).

وودعتها فودعها بومهدي بدوره. وكانت تسأله عن المحاضرة. كانت خطواتها تسرع على الرغم من أنها في المنحدر. وعندما وصلا الرصيف المحاذي للنباتات المنتشرة بفوضوية كانت قد بدأت تلهث. هكذا بسرعة بدأت تلهث. وقالت نانسي:

- يحتمل أن يكون هناك إضراب غداً.

- هل أنت متأكدة يا نانسي؟

- ليلى..

- لا. دعي لي حق تسميتك بهذا الاسم فهو ملائم. إنه يعجبني.

- إن خيالك واسع. أنت لا شك تعيش على الأوهام.

وكانت ابتسامة خفيفة تطفر على شفتيها. وكان شعرها الأكرت قليلاً لا يحركه الهواء. خشخشة الأشجار فقط كانت تدق طبلة أذنيها أثناء لحظة الصمت. الجو بارد شيئاً ما. وتعمد أن يتكئ عليها.

(نانسي أنت غريبة الأطوار. لماذا رجل متزوج وله أطفال. النهاية أبداً ستكون لصالحنا).

- هل تهتمين بالسياسة؟
- أجل.
- معنى ذلك أنك منتمية؟
- شيوعية.
- أنا لست شيوعياً.
- أنت طفل.

هل يكفي أن تكون المرأة شيوعية لكي لا تكون مغرية. لا يا نانسي. أنت مغرية. غير أن إغراءك جدّي. وكانا قد بلغا السور القديم الذي يفصل المدينة إلى جناحين. حركة السير كانت قد بدأت تحتد. ونانسي تتكلم مرة وتصمت أخرى وهو ذاهب في التفكير. وقال بومهدي خلال صمتهما:

- نانسي، هل لك هواية؟
- نعم.
- ما هي؟
- الشيوعية.

وبدأ يضحك فلاحظ تضايقها. ثم كفّ عن الضحك. أنت قاسية ورائعة. لبؤة ضارية.

- أنت تهوين الشيوعية فقط.
- نعم.
- كم هو شيء محزن.
- محزن لماذا؟
- لست أدري. ولكن رأسي يقول لي ذلك.
- إن رأسك خاوٍ.

ثم لم تكمل حديثها. ولم يجد الجرأة ليستحثها. وكان السور الذي يفصل المدينة إلى جناحين ينحدر وسط غابة كثيفة من النباتات، ووسط كتل كبيرة من الطحالب الخضراء. وبمحاذاته كانت الطريق التي يحفها طوار من الرمل والحصى تمتد إلى أسفل. وقالت نانسي شيئاً لكنه لم يسمعها. كان يتأمل السور. وطلب منها أن تعيد له ما قالت فتمتمت:

- أنا الآن ذاهبة لزيارة صديقة.

قال:

- متى نلتقي إذن؟

- في الكلية.

وأضافت بانكسار:

- هل تسكن قريباً من هنا؟

ضحك ضحكة أقرب إلى الابتسام. وأكد لها أنه يأخذ القطار كل يوم إلى مدينته الصغيرة التي تبعد من العاصمة كيلومترات قليلة. وبدا على وجهها شيء من الاستفهام. علامة استفهام امتدت ثم امّحت.

- إذن أنت لا تسكن في الرباط؟

- كلا.

وبيّن لها أنها إذا كانت ترغب في زيارة مدينته فهو رهن إشارتها. وشكرته بابتسامتها الجادة. وكان ينظر إلى ساعته. الوقت حان. قال في نفسه ويبدو أن نانسي قد أدركت ما يجول بخاطره.

ثم قالت:

- يبدو أنه آن الوقت كي أودعك.

ومدّ لها يده دون أن ينبس بكلمة. وأطلق خطواته. ومضى في

اتجاه القطار. أما نانسي فقد حوّلت اتجاهها نحو الجهة المعاكسة. التفت لفتة أخيرة فوجدها تنظر إليه. كان جسمها الرائع يوغل في الاختفاء. وفي زاوية الشارع كانت قد غابت. ولم يكن يصدق عينيه. نانسي إلى اللقاء. وكان القطار يصفر صفيره المعهود، وهو يصعد درجات سُلَّم القطار. وفي رأسه كانت هناك أفكار تعلو وتهبط في احتداد «نانسي جميلة نانسي رائعة... إلخ... إلخ».

15

«أم سالم لا تزال تعاني».

قال ذلك صالح لعبد الرحمن. فردّ هذا الأخير من خلال اختناق آخذٌ به: «إنها تعذبه».

«لا شك أنها ستنتهي».

وكان عبد الرحمن يسوّي الأوراق في يده قبل أن يشرع في اللعب. ثم أخيراً أعلن:

«أنا أيضاً زوجتي تكاد تنتهي».

«مريضة؟».

«أجل. المرض في احتداد».

كان بومهدي يشعر وهو ممدّد على السرير بألم ثقيل في رأسه. كانت الكلمات تتسرب خلال أذنه بلزوجة وفرقعة ميتة. «ومع ذلك أنت لا ترأف بها. أنت وهذا الوغد زوجاكما تتألمان من أجلكما وأنتما مستهتران».

أخذ يلعن هذه الأفكار التي بدت له صبيانية خليقة بطفل. واسترسل عبد الرحمن:

«أنا أمس لم أنم. كنت أعاني».

«ما دامت هي الأخرى تعاني. طبعاً».

قال صالح:

«استيقظ أنت. تعال نلعب».

حرّك بومهدي جسده المهدود ببطء وألم. زحزح الكرسي وجلس. شرعوا يلعبون ثلاثتهم. أثار انتباه بومهدي ساعة صالح. كانت بلا عقربين. قال له:

«أنت تضع ساعة بلا عقربين».

ابتسم وقال: «سأصلحها. لقد تشاجرت».

«هل سقطت؟».

«أجل».

امتلك بومهدي إحساس كبير بالعدم. هذه الساعة لها تكتكات ولكن لا معنى لتكتكاتها. إنها لا تهدف لشيء على الإطلاق. كان يضم الخادم إلى الملكة، ثم إلى الملك. وقال عبد الرحمن:

«ألا تلعب؟».

رمى بومهدي بورقة، في حين كان هناك كلام يدور بين صالح وعبد الرحمن ولكنه لم يكن ليستطيع أن يتفهمه. لم يسمع شيئاً. كان في داخله تهويم. كانت عيناه لا تزالان مركزتين في الساعة. الهواء لافح يدخل من النافذة. كومة الورق بدأت تكبر وسط الطاولة. وفي النهاية أعلن صالح أنه ربح الجولة الأولى.

قال بومهدي:

«إنك تحسن اللعب».

«لا. فقط الحظ ساعدني».

«كيف يساعد الحظ مراراً؟ أنت دائماً تربح الجولات؟».

قال عبد الرحمن:

«هناك الحظ وهناك الذكاء».

دخل سالم فجأة وهم يلعبون. منذ ساعتين كان قد ذهب لزيارة أمه المسلولة في الدهليز المظلم. كان سالم حزيناً. وكانوا جميعاً

يلعبون الورق دون أن ينتبهوا إليه. فقط بومهدي هو الذي انتبه، وكان الآخران منشغلين بلعبهما، ومن قبيل المجاملة قال لسالم وكان قد تهالك على السرير:

«كيف حالة أمك؟».

كان بومهدي يسوّي الأوراق في يده. شعر بأن سؤاله كان مجانياً. ربما شعر سالم أيضاً بذلك، ومن خلال ألمه المعهود قال، وهو يحك شعر رأسه الوسخ:

«أمي انتهت».

لم يفهم بومهدي شيئاً وأكد لسالم أنه لم يفهم شيئاً ولا يستطيع أن يفهم. كانت حواس سالم متوترة وغليانة، وبفتور قال:

«يجب أن تفهم».

كان الآخران لا يزالان يلعبان. إنهما ليسا من هذا العالم «أين الإنسان فيكما؟» ودفع بومهدي عبد الرحمن.

«ألا تسمع؟».

«دعني ألعب».

عطّل بومهدي اللعب. كانت يد صالح ذات الساعة التي بلا عقربين ملقاة فوق الطاولة.

«صالح، عبد الرحمن، ألا تسمعان؟ أم سالم انتهت».

لا بدّ أنهما شعرا بألم. ارتخت أيديهما. وتكومت الأوراق فوق الطاولة. وقف عبد الرحمن وتمشى وسط الغرفة وهو يدمدم. بينما لبث صالح جالساً لا يريم.. كان رأسه مطرقاً ولم يقل شيئاً. بدا سالم عادياً جداً. حزنه لم يكن أقل أو أكثر من حزنه الدائم. «ألم يؤثر فيك موت أمك، هل أنت أيضاً وغد؟ عفواً صبياني». تكلم صالح وتكلم عبد الرحمن وكذلك بومهدي وقالوا له جميعاً أن

يصبر. سالم جالس فوق السرير. ارتخى نهائياً وألصق عينيه بالسقف. كان بومهدي يتخيل أن الدموع تنحدر من عينيه كالشلال. غير أن شيئاً من ذلك لم يكن. فقط كان حزيناً. كان عادياً. أعلن بومهدي بتحفظ: «العالم هكذا. نجيء بلا ميعاد وننتهي بلا ميعاد».

كانت السماء جامدة منتشرة خلف النافذة. بدا الهواء وكأنه قد توقف عن الحركة.

اتكأ عبد الرحمن على الجدار. الطلاء باهت. الصبية في الصورة تضحك دائماً بسرور أو شماتة. لم يكن أحد يدري. عينا سالم كانتا مغلقتين الآن، ربما بتأثير الألم. تحرك عبد الرحمن واتجه نحو النافذة ليغطي وجه السماء بقامته الفارهة. في النهاية عاد إلى مقعده وأعلن ألا حول ولا قوة إلا باللّه.

كانت زوجته هو الآخر مريضة. قيمة المرض الآن تبدو واضحة أمام موت محقق.

انتصب سالم وقال لصالح الذي كان يحدّق فيه بإشفاق. في عينيه كان شقاء. كان قلق. كان برم. كانت أشياء أخرى.

«هل معك سيجارة؟».

«نعم».

بينما كان صالح يفتش عن العلبة كان عبد الرحمن قد استجاب لسالم. وكان هذا الأخير قد بدأ يذرع الغرفة جيئة وذهاباً. ثم وهو يمرّ بعينيه على صورة الصبية الضاحكة اتجه نحو النافذة حيث لبث طويلاً ينظر بعينيه إلى الشارع وإلى البنايات الجامدة. دخان كثيف كثيف من سيجارته. قام بومهدي واتجه إلى المرحاض. كان ضوء شمس الظهيرة ينعكس على جدار مقابل. الرائحة بالمرحاض نتنة. جذب بآلية مقبض الماء ليغسل النتانة. التحق بالثلاثة. كانوا جميعاً جالسين الآن. سالم أيضاً جالس على السرير. وضع رأسه بين

كفيه. كانت أصابع يديه تتخلل شعره. قميصه الأبيض المغسول لم يكن بلا ربطة. قال عبد الرحمن:

«هل توفيت الآن؟».

«لا. البارحة. ودفنوها، أيضاً، البارحة. لم أزرها منذ يومين».

«يؤسفني أن أقول لك إن الموت في بعض الأحيان يكون راحة».

«لماذا تتأسف، هو كذلك بالطبع. راحة ممتدة إلى ما لا نهاية». كان وهو يتلفظ بهذه الكلمات يضرب بمقدمة حذائه الأرض ضرباً لطيفاً. أخرج بومهدي علبة السجائر من جيبه، وقدّم لسالم سيجارة وأشعلها له. كان صالح لا يزال عازفاً عن الكلام ولا يزال يحدّق في سالم بإشفاق.

قال سالم:

«يظهر أن جو الغرفة خانق. أقترح جولة لاستقبال المساء في بار».

أيّد الثلاثة قراره. في الشارع انطلقوا جميعاً يحملون ألماً، يحملون حزناً وضياعاً. اتجهوا صوب المقهى. كانت الكراسي فارغة. والعالم ساكن سكون المستنقع. لم يكن العالم يأبه بشيء.

16

«نانسي يا سالم، هذه نانسي التي حدثتك عنها».

أجاب سالم بحذلقة:

«كنت أتخيل صورتها هكذا».

ضحكت نانسي وقالت:

«لا شك أنه وصّاف ماهر».

كانت تعني بومهدي ثم أضافت:

«أنا مسرورة بمعرفتك. سالم، هذا الوغد، حدثني عنك كثيراً. أنا أحب الفنانين».

قال سالم لبومهدي:

«صديقتك جميلة. أنت سعيد ومحظوظ». لم يجلس سالم بعد. حرّك له بومهدي الكرسي فجلس. قالت نانسي:

«شكراً، يبدو أنك طيب أكثر من اللازم». تذكر بومهدي أن سالم في حاجة إلى أن يشرب شيئاً.

كان المقهى هادئاً، تحت الشمس الساخنة، ومن بعيد، كان البحر يهدر. المقهى الرصيف الطريق الرمل البحر. عينا سالم كانتا تبحثان بين حذاءيه عن شيء لم يكن له معنى. هناك فوق الرمل الهواء يتضخّم وينفجر. كان بومهدي يتخيل ذلك. لم يكن متيقناً من وجود شيء ولكنه مع ذلك كان يتخيل.

جاء الجرسون وطلب سالم بيرة. قالت نانسي مرة أخرى: «أنا مسرورة جداً بهذا اللقاء يا مسيو سالم».

ورفع سالم رأسه. غرس عينيه في عينيها المتوحشتين «أنا كذلك. على كل حال نشكر الذي مهد لنا هذا اللقاء». استيقظَ بو مهدي من شروده إذ عرف أن الأمر يتعلق به.

«إنها.. أنت فنان».

«ما وجه المقارنة إذن. تبدو لي في بعض الأحيان تافهاً يا (بيبي)..».

ضحكت نانسي وطلبت رأي سالم في الموضوع، فقال هذا الأخير كلاماً لم يسمعه بو مهدي بحيث ضحكا هما ولم يضحك هو.

قالت نانسي:

«هل أنت غاضب؟».

«أبداً».

«لماذا لا تضحك؟».

«لأنني لم أسمعكما».

«أين كنت إذن؟».

«في البحر».

«أنت تحلم من غير شك».

قال سالم:

«كثيراً ما يحلم في اليقظة، هو يتهمني بذلك»، ووجّه كلامه إلى بو مهدي.

«ها قد تبيّن لك أنك مخطئ. أليس كذلك». استنشق الهواء بعروق أنفه جميعها وضغطه بأعصابه، ثم لفظه أخيراً. وقال:

«أنت لا تفهمني في بعض الأحيان يا سالم».

ضحك سالم بنرفزة بينما طغت ابتسامة نانسي على شفتيها وهي تستلذُّ النظر إلى البحر. عيناها كانتا في البحر. قالت في الأخير:

«لماذا تلك الباخرة لا تتحرك؟».

قال سالم:

«إنها تنتظر».

«تنتظر ماذا؟».

«أن يسمحوا لها بالدخول إلى الميناء».

«من؟».

«هم».

«ماذا تقصد؟».

«ألا تفهمين؟ رجال الميناء».

قالت نانسي:

«أنا أفهم، لكن من طبيعتي محاولة الإغاظة. لا تؤاخذني مسيو سالم».

«أنت لم تقولي شيئاً يستحق اللوم».

كان بومهدي يستنشق الهواء بعروق أنفه جميعها. البحر يمتد إلى ما لانهاية. السماء تكوّن معه خطاً أفقياً يبدو لبومهدي أسود اللون. الأمواج تصطخب لتموت في النهاية فوق الرمل. الشمس تنثال أشعتها بحرارة. قليل من الناس يعبرون. الباخرة ميتة في الأفق. قطعة سوداء على شكل لعبة من الورق المقوّى مركزة في لوحة. قال بومهدي لنانسي: «نانسي هل تحسنين السباحة؟».

«كالرصاص».

«لماذا؟ يجب أن تتعلمي».

«أنا لم أنشأ في مدينة شاطئية».

«أليس في مدينتكم مسابح؟».

لم تحاول أن تجيب. البريق في عينيها قد خبا. ربما الماء الأزرق، ربما البحر العريض اللانهائي يذكرها بشيء. كان الحزن في عيني سالم لا يزال. وكان يشرد بينما نانسي قد استغرقت في جريدة فوق الطاولة. كان شعر سالم الأملس تحركه الريح. في عينيه كان هناك رماد أزلي. كانت هناك نار خايبة، كانت هناك صرخات أليمة تنطفئ في أغوار سحيقة. وكان ينفض الرماد من سيجارته التي كادت أن تنتهي. وقال بومهدي: «نانسي».

رفعت نانسي عينيها عن الجريدة بتثاقل. كانت ابتسامة في حيز ضيق من فمها. أكمل بومهدي:

«إن سالم سيفتتح معرضاً».

«لقد قلت لي. هل نسيت؟ لكن متى؟».

شعر أن السؤال لا يعنيه فأوكل الإجابة لسالم وقال هذا الأخير من خلال الدخان الذي ينبعث من بين شفتيه:

«ربما بعد أسبوع».

قالت نانسي:

«أنا لم أرَ رسومك. فيَّ حاجة ملحاحة إلى...».

قال بومهدي بالنيابة:

«سترينها قريباً».

كانت الشمس تتغلغل في أجسامهم. وكان الفضاء واسعاً وجامداً. الهواء يتقلص ويتمدد. شعر بومهدي أن به جوعاً قوياً. شعر أنه في حاجة إلى أن يأكل شيئاً. كان يتنفس الهواء بسهولة. وتخيل أن الرذاذ الذي يتطاير فوق الصخور هناك يقفز فوق صدره. وقال لسالم وهو يشير إلى سيارة واقفة قرب الطوار المقابل:

«إنهم سيّاح من غير شك. انظر».

قال سالم:

«ألمان؟».

صححت نانسي:

«لا أعتقد. إنهم هولنديون».

«كذلك».

وافقها بومهدي بدوره. لبثوا ينظرون إلى الرجل والمرأة وهما يروضان جسميهما في الهواء. لا شك أنهما تعبا من السفر الطويل. وكانت نانسي قد كفّت عن النظر إليهما. وانشغلت في الأخير بالنظر إلى الجريدة. بينما لبث هو يتابعهما بنظراته حتى اتجها أخيراً إلى المقهى الذي يجلسون فيه. أشعل سالم سيجارة أخرى. عيناه منغرستان في البحر. وبدا لبومهدي أن سالم قد بدأ يتَجاوز حزنه على أمه شيئاً فشيئاً. كانت هيئته الأنيقة تناقض هيئة وجهه الحزين القلِق. بحث بومهدي عن السجائر في جيبه فلم يجدها. تناول علبة سالم وأشعل لنفسه سيجارة. وقال لنانسي وهو يمدّ لها العلبة:

«هل تدخّنين؟».

تناولت السيجارة بشكل مثير. كانت قد أثارته حقاً. أشعل لها سالم. استمرت تنظر إلى الجريدة وتدخّن. كانت في استغراق تام. عيناها كانتا تتنقلان بإمعان بين السطور. قال بومهدي:

«نانسي أنت غريبة».

ضحكت وكأنها لم تكن تقرأ.

«أنا غريبة؟».

«نعم».

«لماذا؟».

«لا أستطيع أن أجد السبب».

«أنت تطلق أحكاماً تافهة».

كانت سحابة ضعيفة من الدخان تقف حاجزاً بينهما.

كان يود أن يقول لها أنت تدخنين بشكل مثير، لكنه لم يجد الجرأة. قال لها في الأخير:

«لم تقولي أي شيء منذ أن جلسنا».

«ماذا أقول. لقد تكلمت بما فيه الكفاية».

ونظرت إلى سالم. كان هذا الأخير مستغرقاً في النظر إلى بعيد. وقال بومهدي إن سالم ليس معنا. فأدار هذا الأخير رأسه وقال:

«أنا معكما. ماذا تريدان؟».

«نانسي لا تتكلم».

«إنها تقرأ».

كانت قد ارتخت كلية إلى الخلف، وبين أصابعها كانت السيجارة تنتهي بمأساوية. وفي عينيها كان هناك ارتخاء، وكان تراب.

«نانسي، إن في عينيك طيناً».

«أنت أحمق. ماذا تقول؟ أنت تتكلم بتفاهة».

قال سالم:

«وهو في عينيه حجر».

قالت نانسي:

«يجب أن نؤدبه نحن الاثنين. إنه من غير شك في حاجة إلى ذلك».

انطلقت تضحك من خلال السعال. ثم غيّرت جلستها. وسرحت نظراتها في الأفق، حيث البحر يمتد، وحيث اللانهاية أزلية وحيث أشياء تولد باستمرار. وقال بومهدي إنه يجب أن ينصرفوا.

وقالت نانسي:

«إن الجلسة هنا ممتعة. الهواء البحر السماء. كل شيء جميل».

وقال بومهدي:

«أحب البحر السماء الهواء».

مرّ في نفسه «أحبك».

كان التعب قد بدا عليهم جميعاً. كانت الشمس حارة والسماء زرقاء جميلة. كان للبحر هدير خافت كأنه في احتضار. والمدينة كانت رابضة تحت ثقل كابوس وهمي.

17

صعدوا درجات سُلَّم العمارة. كانوا الآن في الغرفة. هناك تحسينات طرأت. بعض الصور علقت من جديد. صور لفنانين وممثلين سينمائيين مشهورين. قال بومهدي:

- سالم، أين صورة الصبية التي تضحك؟

- مزقتها.

- لماذا؟

«انظر يا أعمى».

نظر حيث أشار. كانت في زاوية الغرفة في مكان لم يخطر على بال بومهدي أن تُعلق فيه هذه الصورة. وفتح النافذة الوحيدة في الغرفة. أشعة الشمس تسربت فجأة بفضول إلى الداخل. كانت نانسي قد جلست وألقت بالجريدة فوق الطاولة. نظراتها كانت معلقة بالجدران تتأمل الصور. كان بومهدي يلاحظ أنها فاغرة فمها. وكان سالم منشغلاً بنزع حذاءيه ليضع في قدميه الخفين اللذين تأبى ليلى إلا أن تضعهما في قدميها.

قال سالم:

- سأهيئ القهوة.

قالت نانسي:

- أنا الذي سأهيئها.

- أنت ضيفة.

- أنا امرأة.

وقفت نانسي. جسم رائع حقاً. وجهها ليس جميلاً إلى الحد الذي يستطيع معه المرء أن.. جسم رائع حقاً.

لذة.

جسم.

شهوة. جسم رائع حقاً.

(اليوم فقط أستطيع أن أقرر في أمرك يا نانسي شيئاً) ثم بدا بومهدي لنفسه تافهاً وذا أوهام.

(أنا في بعض الأحيان حقير. أعتقد في أفكار ليست ذات قيمة. مركز العالم أنا مثلاً. لكني لا أملك شيئاً من الجرأة والصمود).

كان سالم قد لحق بنانسي في المطبخ. وعاد بعد أن تركها وحدها.

- صديقتك ربة بيت رقم 1.

- هل تعتقد ذلك؟

- تعال انظر إذا شئت.

حاول بومهدي أن يقوم ليتجسس عليها في المطبخ. ولكنه عزف عن الفكرة. إنها ليست لائقة على كل حال. نانسي امرأة ورجل في الوقت نفسه. هي قمينة بكل شيء. يجب ألا أكذب هذا. هي امرأة رائعة.

رائعة. لذة!

جسم.

شهوة. هي كل شيء. كل شيء.

18

يجوس بومهدي في المدينة وحيداً كحيوان خرافي. في البيت حزن. ألم.

شقاء وحزن. صمت.

(منذ شهور لم يتناول كتاباً. فقط يستمع لمقطوعات مؤثِّرة من الموسيقى. لا أقرأ شيئاً على الإطلاق لأن ذلك لن يفيدني. طلاسم. غفل. أشياء لا تعني شيئاً).

شعور بالغموض يلحُّ عليه وهو يجوس في المدينة. الجدران عليها طلاء صامت. يتحرك بومهدي الآن بلا إرادة. يتصفح هذا الشيء أو ذاك. شعر من كثرة المشي والنظر أن عينيه قد تعبتا، وأن قدميه قد تعبتا كذلك. اجتاز أرصفة عديدة، وجلس في الأخير على إفريز مقهى. كان الكلام، والموسيقى، والبنات.

- هن - يعبرن وأعينهن في السماء.

في البيت كان قد تيقن من أنه لا شيء. لم تكن هذه هي المرة الأولى التي يكتشف فيها هذه الحقيقة. ربما تكون المرة المليون. كان يؤكد لنفسه أن الناس لا يستطيعون أن يشعروا بقلق موجود ومتأصل فيهم. ولكن من الذي يستطيع؟

(أنا وحدي أتفرد بهذا الاكتشاف).

كانت قدماه تسيران بلا إرادة في اتجاه المقهى. كان بائع

صحف يحاول أن يعرض عليه صحفه. لم يكلف نفسه حتى مجرد الرد عليه. انصرف الصبي في الأخير، ومشى بومهدي متهالكاً فوق الرصيف. اجتاز القنطرة التي توجد وسط المدينة، والتي تمتد تحتها سكة القطار. انتابته رغبة في أن يمس الحاجز الحديدي الأملس. كان يفعل ذلك أيام الطفولة. للحاجز نعومة طرية. لطالما حاول أن يلبي هذه الرغبة وهو ذاهب إلى المدرسة ذات صباح بارد لكن البرد القارس كان يمنعه من ذلك. لكن الآن لم يعد يجد أي متعة في لمس هذا الحاجز، كما لم يعد يخاف البعد بين علو القنطرة وانخفاض السكة الحديدية.

بلغ المقهى. كانت رؤوس مقطوعة فوق الطاولات، وفي فم كل رأس كوب مليئة أو نصف مملوءة، وأحياناً، فارغة. انتحى زاوية، سرّح نظراته فوق الشارع والبنايات القصيرة. صومعة المسجد تختفي وراء سحابة من دخان معمل مجاور. طفر لذهنه منظر السجن الموجود بالقرب من المسجد. ثم تعجب لهذا التصميم الغريب الذي تم بالصدفة. مسجد يُقام قربه سجن.

لقد كان المجرمون والمؤمنون على السواء.

- ماذا تشرب؟

كانت الطاولة حمراء جامدة أمامه.

- قهوة.

- باللبن أم سوداء؟

- سوداء.

- دائماً سوداء.

- أجل.

انصرف الجرسون في النهاية، وعاد بفنجان قهوة سوداء. كان في عينيه خبث.

امتد ضجيج السيارات في الطريق. سيل لا انقطاع له. وتنبّه بكامل وعيه. غير أنه عاد لوحدته. وجعل يرشف القهوة بتلذذ واستغراق. أغنية رتيبة تملأ الجو. وفي رأسه مطارق. كان يرشف بهدوء ورتابة. قليل من المسرة المزيفة في قلبه الآن. وبعيداً ماتت الشمس وقد صبغت كل شيء بصفرة مشربة بالحمرة. انجلى الدخان عن صومعة المسجد. تذكّر لحظتها وليس يدري لماذا - ليلى. منذ أسبوعين لم يرَها.

وتساءل مع نفسه هل تكون نانسي قد عوضتها في قلبه؟ وبدأ يفاضل بينهما. في الختام، انتهى إلى أن ليلى رائعة وأن نانسي رائعة كذلك ثم خطر له أن يقدمهما إلى بعضهما. هذه صديقة في الجامعة، وهذه معلمة رفيقة الصبا. ثم لا شيء آخر. وأكد لنفسه أنه لا بدَّ مخطئ فيما يفكر فيه.

ظلّ جالساً في المقهى. وكان الظلام قد بدأ يتساقط ثم قرر في النهاية أن يذهب إلى سالم. وعندما التحق به وجده في أحضان مومس. وعندما رآه سالم قفز من الفراش وعانقه. خمّن بومهدي أن الآخر لا بدَّ أن يكون قد شرب كثيراً. لكن رائحة الخمر لم تكن تفوح من فمه. وتعجب لهذا التحول الذي بدأ يطرأ على حياة سالم بعد وفاة أمه.

قال سالم:

- ألم تسمع شيئاً؟

- لا.

- أبداً؟

- أبداً.

- انتهت الإجراءات بصدد إقامة المعرض.

- متى؟

- اليوم.

- أعني متى ستقيمه.

- بعد ثلاثة أيام.

- سأقول لنانسي.

- لقد قلت لها.

- يجب أن تعرض أروع أعمالك.

- بالطبع. تماماً.

وتثائب سالم فتثائبت صديقته. وشعر بومهدي أنه سيتثائب بدوره. وفعل ذلك رغم رفضه الملحاح للعملية. كان مرغماً من غير شك.

كان الظلام خلف النافذة يتقلص تحت تأثير الضوء العمومي في الشوارع. وقال لسالم الذي كان يعرّض وجهه للفحات الهواء الليلي عند النافذة.

- سالم يبدو أنني..

- لا أبداً. يمكنك أن تبقى معنا.

وحوّل بومهدي عينيه بسرعة إلى وسط الغرفة وركز نظراته بوجه الصديقة التي كانت تستمع لحديثهما. استنتج أنها كانت متضايقة من وجوده. ثم نقل نظراته إلى الصور على الجدران دون أن يقول شيئاً.

بحث بعينيه عن صورة الصبية..

كانت لا تزال تضحك.

أسرع بومهدي في هبوط درجات السُّلَّم. كان يتدحرج على الرصيف وأخذ يقفز في الهواء بتراخٍ كسكير. أخذ يحرك يديه وجسمه بطريقة غريبة مجنونة. توقف في النهاية وبحث عن أفكار في رأسه. لكن لم تكن هناك أفكار. ثم عبر الساحة الكبيرة وانحشر في جموع من الناس.

19

في باب الكلية رأى بومهدي نانسي مع إحدى زميلاتها. كانت ترتدي بنطلونها الأحمر الذي يجعلها رائعة. وتساءل هل يذهب إليها أم يتركها ريثما تفارق زميلتها؟ التزم في الأخير الحل الثاني. قفز درجات المقصف ودخل. طلب قهوة وكعكاً. جلس وحده في حين كان الطلبة منشغلين بأحاديث لم يكن يسمع منها شيئاً. جعل يرتشف محتوى الكأس في يده. السائل الأسود كان يسري في دمه كالسم.

وكانت هناك فتاة جميلة واقفة أمامه. قالت لزميلة لها:

«إنه فارغ وتافه».

تساءل بومهدي عمّن يكون هذا الفارغ التافه. هل هو هو أم هو الآخر الغاضب؟ وفكّر في تفاهة الآخر لأنه ربما كان واثقاً الآن من نفسه، ولا يدرك بتاتاً أنه فارغ وتافه.

أطلّت نانسي من الباب. لم تكن وحدها كما كان ينتظر، بل كانت مع زميلتها الأولى. وعندما رأته أسرعت إليه، وهي تقول لرفيقتها كلاماً. اهتز داخله شعور عارم، شعور من اللذة.

كانت نانسي في بنطلونها الأحمر تبدو كملاك.

- متى وصلت؟

- الآن.

- الآن فقط.

- نعم. الآن.

بعد لحظة صمت.

- هيا تفضلي. وقولي لصديقتك أن تتفضل.

- إنها ستنصرف.

جذبت الفتاة نانسي من ذراعها وعندما ابتعدتا منه قالت لها كلاماً ثم تركتها. ورجعت نانسي تختال.

رمت بنفسها أمامه، ثم قالت:

- كيف حال سالم؟

- جيدة.

- هل أوشك أن يفتتح معرضه؟

- يوم الخميس القادم. هل تحضرين؟

- سأحاول أن أحضر.

كان بو مهدي يشعر بقليل من الألم في بطنه. وكان قد أتى على فنجان القهوة بأتمه. وفكر في أن يطلب فنجاناً آخر. كان يحسّ بثقل في رجله اليمنى. صمت داخلي.

رنين أصم.

تقوقع.

وضحكت نانسي بهستيريا لأنها تذكرت شيئاً.

وقال بو مهدي دون أن يهتم بضحكتها:

- هل حقاً تحبين رجلاً متزوجاً؟

سؤال لم يكن بلا مقدمات وربما لن تكون له نتائج. كانت نانسي عادية تنظر إليه. مطّت شفتيها في لامبالاة ثم قالت:

- لماذا هذا السؤال؟

- سؤال يهمني بقدر ما يهمك.

- هل تريد إذن جواباً.

- نعم.

- لكن قبل أن أجيبك. أجبني أنت على هذا السؤال: هل تعتقد أنك تحبني؟

- لست أدري.

- أريد جواباً حاسماً يدل على شخصية.

أخذ بومهدي يفكر في إحراج. ثم حاول أن يفرض الجواب.

- نعم يا نانسي. أنا أحبك.

- أنت تحبني. هل هذا صحيح؟

لم يجب، بل أخذ يحدّق فيها لعلها تعثر عن جواب في عينيه. لكنها أكدت فجأة.

- أنا أحب المتزوج. وقد لا أحبه. مع أني مع الحرية الجنسية. هل تفهم؟

ثم نهضت وودعته. غادرت المقصف. لبث وحده مسمّراً فوق الكرسي. كان العالم ضيقاً بالنسبة إليه آنذاك.

20

مرت فترة لم يرَ فيها بومهدي سالم. كان لا يذهب لزيارته بالغرفة. وكان سالم قد افتتح معرضه منذ أيام، غير أن الصحف لم تتكلم عنه. ترى هل كان غير مفهوم؟ إن سالم لا يستطيع أن يفهمه أحد إلا إذا عرفه من قرب، في حياته الخاصة.

في تلك الظهيرة فكر بومهدي في زيارته. كان يعرف أنه لا يذهب إلى المديرية العامة في ذلك الوقت.

عندما ذهب التقى صورة الصبية الضاحكة في الجدار.

كانت تنظر إليه كأنها افتقدته منذ سنوات. وكان سالم غارقاً في القراءة وأكد له أنه كان يتوقع زيارته، خصوصاً وأنه لم يره منذ مدة.

21

- سالم، ألا تعرف النبأ الأخير؟

- لا. أي نبأ؟

- نانسي؟

- ما لها؟

- لقد اعترفت لي بأنها قد تكون محبة للرجل المتزوج وقد لا تكون. وقالت إنها تؤمن بالحرية الجنسية.

- إنها ساقطة. ألا تعتقد ذلك؟

- لا أدري. ولكنها كانت تجيء إلى الغرفة لتبيت هنا.

- منذ أن افتتحت المعرض.

- نعم. وأؤكد أنها التي راودتني.

أحسّ بومهدي بشيء. وكانت النافذة تفتح فاها. والسماء كانت تبدو له صفحة صمّاء باردة. ثم تأثر كثيراً لأنه كان يعتقد أنها تبادله بالخصوص شعوراً ما.

وبحركة آلية وضع يده على أرنبة أنفه. لبث صامتاً كحجر. صامتاً كأزل. صامتاً كمدى.

نهض سالم وذهب إلى الجاكيت المعلّقة بأُكرة النافذة. وجذب منها علبة سجائر. عاد إلى الخلف وقدّم سيجارة لبومهدي ولم

يشعلها له. تمشى قليلاً في الغرفة. ووقف بقامة أسطورية في وجه النافذة. نفث كمشة من الدخان في وجه الفضاء.

عاد بومهدي مطرقاً ويده خلف ظهره.

قال في النهاية:

- لماذا تتغير سحنتك؟ هذه أشياء عادية.

- كنت محتاطاً ولكني في النهاية انهرت.

- يجب ألا تفعل.

- هل تعتقد أني أقدر؟

- أنت قوي.

صمت.

- لا فرق بين ليلى ونانسي.

اتجه سالم إلى النافذة مرة أخرى. لبث برهة متكئاً عليها. ثم غيّر وضعه وتوجه إلى بومهدي قائلاً:

- هل تعتقد أن هناك فرقاً؟

انتفض بومهدي من مكانه كطائر مفزوع. اتجه بسرعة وانفعال إلى الباب. ثم، في النهاية، تسمّر واقفاً بالباب. رجع خطوات إلى الخلف. توجّه إلى النافذة بطريقة من سينتحر. أخذ ينظر إلى البنايات والطريق الذي يبعد من عينيه بأمتار. كانت سحائب من الضباب أمامه. لم يكن يبكي ولكنه لم يكن يرى بوضوح. كل شيء اتخذ له لوناً رمادياً غامضاً. وأحسّ أن هذه تجارب عنيفة يجتازها. ثم غادر النافذة. وقف في وسط الغرفة. ووضع يده على حافة الطاولة. أخذ ينظر إلى سالم. كان هذا الأخير يجلس على السرير وفي عينيه أشياء بلا تعبير، ربما.

- يبدو أني سأتركك الآن.

- هل تعود مساء؟

قال ذلك ولم يرفع إليه عينيه، بل كان ينظر إلى بلاط الغرفة بين قدميه. لم يستطع بومهدي أن يقول شيئاً. فقط، توجّه إلى الباب في حالة مؤسية. كانت موسيقى تنبعث في داخله. قطعة من البلوز تذكَّرها الآن وكان يحبها.

أميركيون سود في أعماقه.

في الشارع كان يتوه وحده. في اتجاه غير معيّن. يداه في جيوبه. وهو يفكر في أشياء. من جملتها ليلى ونانسي وأخريات.

قبور في الماء

1978

انزلقت قدم علال فوق التراب الجاف، ثم أوقفتها نباتات متمكنة من الأرض. وتنفس بملء صدره. وقال في ضيق وألم للعيساوي:

- غير ممكن. عشرة أيام. هذا مستحيل.

ظلّ العيساوي صامتاً. ونظر بعينين يملأهما القهر إلى البحر المنبسط باستسلام خادع ثم قال:

- قدرة اللّه.

وأخذ نفساً عميقاً من سيجارته التي أوشكت على الانقراض بين أصابعه. وقال من خلال أنفه الأفطس المثبت بإحكام في صفحة وجهه:

- ليس من عادة المراكب أن تغيب لمدة مثل هذه. وإذا غابت وقتاً طويلاً كهذا معناه أنها ضاعت.

ظلّ البحر مستسلماً على حاشية الأرض الجافة. وبقي الرجلان لحظات صامتين لا يفكران. كان هناك جمود باطني. أعقبه شلل في الذهن والجسد. ولم يكن هناك سوى دخان يرتفع من فمين ذوي شفاه غليظة مشققة وأسنان كأسياخ الحديد لم تنظَّف منذ مدة طويلة. لم يكن علال يتألم بالقدر الذي كان يتألم به صديقه. ففي القرية بدأت نوبات البكاء تسري وتمتد. النساء يبكين والأطفال يهزجون

بالبكاء في اللعب. والرجال يتألمون في صمت. شعر العيساوي الآن بتشنج عصبي في بطنه ووجع في رأسه. فالكارثة إذا وقعت لا شكّ أنها ستودي بعدد لا بأس به من سكان القرية. ولا شكّ أن أمه الضعيفة القلب ستموت من جرّاء بكائها وحزنها على أخيه. وشعر علال أن صديقه العيساوي متألم وأن ألمه بلا حدود ولا نهاية. ولم يكن هو الآخر بأقل ألماً منه، ولكنه كان يخفي ما يحسه. وكان يدّعي ظاهرياً شيئاً آخر غير الذي يتمكن منه ويرديه. ولقد تخيَّل أن البحر مقبرة رهيبة. وأن هذا الخصم الهائل لا يتغذى سوى من جثث آدمية. وجعل ينظر بعينين ثابتتين إلى الماء الذي يبدو منبسطاً وادعاً متمسكاً بالأرض. وقال العيساوي:

- هل صادف أن غاب مركب لمدة مثل هذه؟

قال علال:

- ألا تذكر؟ مركب دحمان. ألم تأتنا أخبار غرقه إلا بعد أربعة أشهر؟

حدّق العيساوي في البعيد. كان في عينيه نهم بشري كبير، ورغبة كبيرة في اكتشاف مجهول رهيب. وظلّ يحدق، وتجمعت كل إحساساته في أنفه الملصق على صفحة وجهه ثم قال:

- أذكر ذلك. كانوا خمسة عشر ولم ينجُ منهم سوى واحد. أذكر هذا. ظلّ يسبح مدة يومين إلى أن وجد نفسه في بقعة غريبة. ومشى مدة قبل أن يبلغ المناطق الآهلة.

استمع علال إلى صديقه بانتباه. وبدا كما لو كان يسمع القصة لأول مرة. وضغط يده على وركه، وأخذ يحك أسفل بطنه. ثم اجتذب سيجارة وأشعلها وظلّ صامتاً كالبحر. وكانت الأرض جافة تحت قدميه تلين وتستحيل إلى طراوة، لذلك فقد نظر تحت قدميه، والتفت ببطء إلى الخلف، ونظر في مرتفع عالٍ وأشجار متشابكة في

تضامن. أشجار لم تنبت وروداً قط ولم تعطِ ثماراً قط. أشجار تتغذى من ملوحة البحر، ومن جفاف الأرض، ومن هواء مالح ضبابي. أخذ ينظر. ثم اعتدل في كتلة الفضاء المضغوط، وقال للعيساوي:

- غير معقول. عشر أرواح تذهب هكذا بلا مقابل.

نظر العيساوي في وجه صديقه:

- غير معقول أن تذهب أرواح حتى بالمقابل. إن أمي تنتظر أخي وأنا أنتظر أخي. وأنت تنتظر ابن عمك.

انحنى علال إلى الأرض وأمسك بعود مُلقى فوق الصفحة الجافة للأرض. ونظر إليه العيساوي فاكتشف - كما لو كان ذلك لأول مرة - أن سروال صديقه مرقّع وقذر. ونظر في سرواله هو. كان أيضاً مرقّعاً وقذراً. بدأ علال يتلهى بمضغ العود وتكسيره بأسنانه القذرة التي لوَّثها الكيف وذهب ببعض حواشيها. ثم أخذ ينظر في صمت إلى طفل يدس رجليه في ماء البحر على بُعد أمتار عديدة. وقال لصديقه:

- من يكون ذلك الطفل؟

قال الآخر بلا مبالاة:

- لا أدري. يمكن أن يكون أبوه خلف الأشجار.

عمّ الصمت مرة أخرى. اشتدت ملوحة الهواء وكثافته. شعر العيساوي بصعوبة في التنفس. خفقت لذلك رئتاه. واضطر إلى أن يسعل وهو يرقب الطفل الذي يدس قدميه في ماء البحر، ويتقدم شيئاً فشيئاً كمن يريد أن يسبح وعاقته برودة الماء عن ذلك، وقال للعيساوي:

- لا بدّ أن النجدة ستدركهم ولا بدّ أن يعودوا.

شعر أن صديقه قد كفّ عن مضغ العود. ألقى العود أرضاً

وارتمى فوق التراب الجاف. وتمدد فوقه. تأمل الماء المترامي على بُعد أقدام. فعل العيساوي الشيء نفسه. ظلّا يبحلقان في أفق بعيد. كان الطفل قد تراجع عن قراره. ثم أخذ يمشي بعيداً، حتى اختفى نهائياً في الغابة. ولم يعر الرجلان للمسألة أدنى اهتمام بل ظلّا يحدقان في الأرض الجافة تارة، وفي الماء المستسلم تارة أخرى. ولم يكن أحدهما، الآن، يشعر بوجود الآخر. كان علال يشعر أنه قد بدأ ينام تحت قيظ الشمس، وأن الحرارة المنبعثة المتدفقة من فوق كانت تردُّها سحب كثيفة من الضباب. استرخى وشعر باللطف مهيمناً على جسده وعلى حجم رأسه المشعث الشعر. أدرك العيساوي أن صديقه يكاد ينام فنبهه إلى نقطة سوداء في البحر.

- انظر، باخرة.
- نعم باخرة. هل تعتقد أنها مركب صيد؟
- كنت أعتقد ذلك.
- لا أعتقد أنهم سيرجعون.
- لا تقل هذا. أخي هناك. إذا سمعتك أمي فإنها تموت.
- لم أقل شيئاً.

أخذ العيساوي ينظر في ثياب صديقه المهلهلة القذرة. وحوّل عينيه إلى ثيابه هو. كان يشعر أن الجو قد بدأ يزداد حرارة. بدأت أصابع قدميه تنعقد وتسترخي في عصبية والبحر يمتد على بُعد أقدام، وخلف البحر أفق مجهول. وكان يُحوّل عينيه إلى الأشجار الكثيفة القصيرة القامة التي تزهر ولم تثمر يوماً، ولكنها دائماً خضراء. ومع ذلك فالمواشي لا تأكلها ولا تتغذى من أوراقها. إنها نباتات مُرَّة تصيب بالوجع والاحتراق في المعدة واللسان. في نهاية الموسم كانت تموت أغلب الأغنام. لذلك فقد تخلَّى الجميع عن كسب الماشية. وأصبح العيساوي اليوم، بعد أن كان راعياً، شخصاً بلا

هوية ولا هدف. وكان يأمل ذات يوم أن يصبح صياداً، تأخذه المراكب بعيداً. كان يتقن السباحة وقيل له إن ذلك ليس كافياً لكي يصبح صياداً ماهراً. فالأسماك الكبيرة والدرافيل تتطلب قدرة خارقة غير القدرة على السباحة. لذلك فقد ظلّ ينتظر أن يأتي يوم يفتح فيه اللّه عليه. ونظر في الماء المستسلم الأزرق. وقال لعلال:

- هل تتوقع أن يجيء العياشي هذا المساء؟

ظلّ الآخر صامتاً. لكنه أجاب فيما بعد:

- وماذا تعتقد؟ إنه سوف يجيء لكي يطمئن على مركبه. فإذا ضاع فسيكون ثالث مركب يضيع له.

- أرجوك. لا تقل ضاع. ما نحن على فألك.

وجعل علال ينظر إلى أنف صديقه المثبت على صفحة وجهه. وظلّ منخاراه ينقبضان ويرتخيان كالرابوز الجلدي. وطبيعي أن الهواء كان يجد صعوبة في اختراق منخاريه، والانطلاق إلى الرئتين اللتين أثّر عليهما التدخين المستمر للكيف.

- إن العياشي رجل غني. وهو ليس في حاجة إلى مركب. وهو يستطيع أن يعيش سواء أضاع المركب أو لم يُضِعهُ.

- ولكننا نحن، إذا ضاع شخص منا فقد ضاع كل شيء. إن الواحد منا أثمن من مركب.

- هل تعتقد ذلك؟

- ولم لا؟

بدأ علال ينبش بأصابع قدميه التربة الجافة. وسمع حفيف الماء. فنظر إلى تلك الانحناءات البيضاء بين الأرض والبحر. وأخذ يتأمل بعض الصدفات الملفوظة عبر إهمال الماء لها. كانت فارغة ولامعة تحت وهج الشمس. وتخيَّل أنها في ذات يوم كانت تحوي

حيواناً طرياً فمات وانساب إلى قعر البحر، ودفعت الأمواج هذه الصدفات إلى هنا فبدأت تلمع وعكست الضوء.

أخذ علال يمعن النظر عند حدود ركبتيه اللتين كانت إحداهما تخرج سمراء متشققة متسخة من فتحة في السروال. وظلّ ينظر إلى ركبته القوية وقد انطبعت فوقها كدمات من جراء السقوط والاصطدام الكثير بالأرض الصلبة. وقال للعيساوي:

- يمكن أن العياشي سيغير المهنة.

- لماذا، لقد أثرى من الصيد.

- صحيح. ولكن خسارته أصبحت لا تقدَّر.

- من قال لك ذلك؟ من الخاسر نحن أم هو؟

صمت علال. حدّق بعيداً. ثم حوّل عينيه إلى الصدفات اللامعة تحت وهج الشمس.. نظر في نقطة بعيدة في البحر. تخيَّل المركب عائداً، والرجال الأشداء يغنون فوقه، وينشدون بسرور عارم مبتهجين بالعودة وبالتغلب على الموت. ثم قال من خلال هذا التصور:

- في كلتا الحالتين نحن الخاسرون.

انتفض العيساوي فجأة. أعطى صدره للبحر، حيث كانت هناك رياح قادمة بلطف وذات ملوحة. استنشقها بجمع صدره. حكّ جنبه مدة طويلة. وقال لصديقه:

- إن القمل يكاد يقتلني.

- لماذا لا تفلّي ثيابك؟

- ليس لدي ما أضعه إذا أزلتها.

- أنت كسول فقط. الشمس حارة. يمكنك أن تغادر المكان وتتعرى ثم تفلّيها.

صمت العيساوي. ثم أخذ من جيبه سيجارة أخيرة. أشعلها ثم أخذ يدخّن وهو يقول:

- سوف نمضي. لن نظل هنا طول الوقت. ربما جدّ عندهم جديد.

- أي جديد. حكّ جنبك واسكت.

- سيأتي العياشي. ربما عنده الخبر اليقين.

- إن المركب ضاع. ألا تثق بي؟

- لماذا تصرّ على ذلك؟ أنت متشائم.

- لست متشائماً ولكنها التجربة. كل سنة يذهب مركب في قلب الماء.

أخذ العيساوي ينظر إلى الماء. غير ممكن أن يذهب مركب كل سنة. كان العيساوي يعرف تمام المعرفة أن ذلك شيء ممكن لكنه ينكره.

مضى علال بخُطى متثاقلة فوق التراب الجاف. اختفى خلف الأشجار الكثيفة التي لم تزهر ولم تثمر يوماً. وظلّ العيساوي واقفاً في مكانه، بعد أن كان قد اقترح العودة إلى المهدية، حيث الأطفال والنساء متجمعون باستمرار، وفي عيونهم آلام لا حدود لها. مضى يتبع العيساوي وقد أطرق رأسه إلى أسفل. وعلى قفاه بدأت الشمس تنتشر. شعر بوخزها وأخذ يحك ظهره وقفاه. شعر بالحرارة شديدة وقوية. وازداد أنف العيساوي انتفاخاً كما اتسعت صفحة وجهه. شعر أن أحجاراً صغيرة تخزه في بطن قدميه. وتساءل ما إذا كان علال يشعر بالشيء نفسه. إن قدميه غليظتان ومتحجرتان فهو لم يعد في حاجة إلى وضع حذاء. لأن قدميه اكتسبتا متانة وصلابة.

كان علال الآن قد اختفى بين الأشجار الكثيفة. وظلّ العيساوي ينصت إلى أصوات منبعثة من بين الغصون المتماسكة والمتشعبة حواليه. كانت هناك خشخشات مستمرة ترتفع وتنخفض ثم تَمّحي. أرهف السمع فأتته كلمات من خلال كثافة النباتات الخضراء. ولم

يميز الصوت المتحدث لذلك استمر يدوس الجذوع والتراب بقدميه الحافيتين. ثم أمسك نبات شوكي بسرواله المرقّع، فأوقفه لحظة. وعندما خرج إلى الطريق التي غطتها الأتربة رأى علال فلم ينادِ عليه. لكنه التحق به للتو. ثم قال له:

- لا شكّ أنهم يبكون الآن.

قال العيساوي:

- ولم لا؟ هم الذين يجب أن يبكوا. إن أمي المسكينة ستموت من فرط الألم.

- بل القرية كلها ستموت.

ظلا يمشيان فوق الأرض المبلطة التي غلفتها الأتربة الحمراء. ومرقت سيارة صغيرة فأبعدتهما إلى حافة الطريق. ثم اصطدم علال بصديقه وهو يقول:

- أمك عجوز، ستموت.

- إن البحر ذهب بأسرتها كلها. لقد فهمت لماذا كانت تعارض فكرة أن أذهب إلى البحر.

التفت العيساوي إلى الخلف، وبدت له الطريق ملتوية كحَيّةٍ رقطاء غليظة. وكانت الأشجار الكثيفة التي تحفّ الطريق من الجانبين تخفيه في تلك الآونة. شعر أن منظرها رهيب أكثر من منظر البحر الغادر. وقد أعلن ذلك لعلال. أجاب هذا الأخير:

- هذه الأشجار أيضاً أخفت كثيراً من الجرائم. منذ شهرين فقط عثروا على جثتين واعتقدوا أن البحر لفظهما، ولكنهما ماتا مخنوقين.

قال العيساوي:

- إن هؤلاء الذين يجيئون من المدينة شرسون. ثم دقّ الأرض بقدميه الحافيتين وأضاف:

- سنجدهم متجمعين كالمعتاد. وسيسألون أيضاً هل رأينا المركب.

- نقول لهم: رأينا باخرة ولم نرَ مركباً.

- أو ربما يكون العياشي قد أتاهم بالأخبار.

- هل تعتقد أنه إذا غرق المركب سيجيء ويعلن ذلك؟

- لم لا؟

- مستحيل. إنه لا يدفع واجب التأمين.

- يستطيع أن يدفع الدية.

- سوف يكون ذلك أحسن.

- لا يجب أن نتحدث هكذا عن أناس ضاعوا. إن الدية لا تفيد شيئاً.

- ومن قال إنهم ضاعوا؟ نحن نتحدث فقط. يجب ألا نأمل في ذلك.

وعندما انحرفا، صعدا المرتفع. وبدأ علال يشعر بإرهاق عنيف وهو يتسلق الطريق الترابي إلى القمة. وقال للعيساوي إنه يشعر بتعب لا حدّ له.

كان البناء القديم المهدم يبدو من جهة اليمين حزيناً. ولمحا البحر. وكان بينهما وبين البحر أشجار كثيفة متشابكة تقع فيها الجرائم. ثم بدت لهما منارة المسجد. وكان عليهما أن يمشيا مسافة خمسمئة متر لكي تظهر لهما الأكواخ. ثم سمعا أصواتاً ولغطاً. فتوقف العيساوي وأرهف السمع. وقال لعلال:

- لا بدّ أنهم هنا.

- صحيح يمكن أنهم متجمعون هناك.

- يمكن أيضاً أنهم يبكون ويعولون.

اندفعا في صعودهما إلى القمة. وفجأة رأى العيساوي حمودة.

ثم بعيداً قرب الأكواخ رآهم متجمعين وقد استلقى بعضهم على الأرض. ورأى أيادي ترتفع في الهواء وترسم خطوطاً ومنعرجات. ولكنه لم يكن يسمع ما يقولونه.

قال حمودة:

- هل رأيتما المركب؟

قال العيساوي:

- رأينا باخرة، ولكننا لم نرَ المركب. هل عاد العياشي؟

- لا لم يعد. قيل سيجيء بعد ساعتين. لا يزال يستقي الأخبار.

- يتسقط الأخبار في المدينة. هذا غريب. إن المركب لم يغرق في المدينة.

- إنه يكاد ينفجر من الألم. وقيل إن زوجته الحامل تكاد تجهض.

قال العيساوي:

- فلتجهض. إن له سيارات وفيلات في المدينة. ويرتدي كل يوم أثواباً جميلة.

- لا تقل هذا. إذا أجهضت فسوف تموت.

- نحن أيضاً مات أحباؤنا. أين المهديون؟ كلهم ماتوا. لقد ذهبت بهم مراكب العياشي ودحمان. لماذا لا يشتريان مراكب جديدة. إنهما يريدان الربح فقط.

صمت الثلاثة. كانوا يمشون في إطراق نحو الجماعة. ولم يكن أحد قد انتبه إلى وجودهم بعد. وعندما التفت العيساوي إلى الخلف رأى البحر منبسطاً أزرق، بعيداً في الخلف تحت المرتفع. شعر أن الأرض صلبة تحت قدميه الحافيتين. استرخى كلية في وضعه. وأحسّ أن يديه زائدتان عن جسده، وأحسّ أنه لا حاجة له بهما

الآن. كان يشعر بشلل غريب يسري فيهما. وحاول أن يحركهما، لكنهما كانتا لا تستجيبان له، لأنهما كانتا ثقيلتين فاقدتي الإحساس. تبع حمودة وعلال اللذين أصبحا وسط الجماعة. ازداد أنفه انتفاخاً، واتسعت صفحة وجهه الأسمر القذر. ثم انفرجت شفتاه عن أسنان متسخة كأسياخ الحديد، متراصة بلا نظام. وتثاءب. وحمل يده إلى وجهه. مسح بظهر كفه شفتيه الغليظتين. . ظهرت له أمه وهي ممسكة بعلال. كانت متشبثة به وتسأله بكلمات لم يكن في إمكان العيساوي أن يسمعها. وعندما رأته هرعت إليه:

- أين أخواك؟

- لم نرَ المركب. رأينا باخرة. كانت تتجه نحو الجنوب.

- آه يا وليدي! العياشي لم يعد وأخوك مات.

- لا تقولي هذا يا أمي. لا تكوني متشائمة.

ثم تجمع حول العيساوي كثير من النساء والأولاد. فقال لهم جميعاً:

- لم نرَ المركب. سوف ننتظر حتى يعود العياشي ويقول لنا.

قالت امرأة:

- غير ممكن. عشرة أيام كلها. وماذا يأكلون؟ إن الجوع وحده يكون قد قتلهم.

- سوف يشربون القهوة ويأكلون السمك. لقد أخذوا معهم كمية وافرة من القهوة. كان قد اشتراها الرايس وكأنه كان يتنبأ بهذه الحادثة.

قالت حدوم:

- وهل القهوة مثل الخبز؟

ثم جرّت طفلها الصغير القذر من يده. وانسحبت لأن أحداً لم

ينتبه إليها. ومضت وحيدة وقد لفّت الحايك حول جسمها السمين. وكانت قدماها الحافيتان تدكّان الأرض بقوة وألم. قال العيساوي:

- إن الإنسان لا يموت جوعاً إلا إذا مضى على ذلك أربعون يوماً.

قالت الحاجة:

- غير صحيح. يقال ذلك عن الجمل. أما الإنسان فيموت بعد أربعة أيام.

انضم إلى المجموعة أربعة رجال. كان العجوز عزوز المقوّس الظهر يدب كالسلحفاة. وكان يحكي للثلاثة الآخرين قصصاً مماثلة عن غرق المركب. كان يهزّ عصاه موضحاً. لم يكن الثلاثة يستمعون له. وعندما رأوا علال توجهوا إليه، الواحد تلو الآخر. وتبعهم عزوز الذي قال على الفور:

- هل عاد العياشي؟ ألم تريا المركب؟

- لا. لكن العياشي سيعود بعد قليل. وإذا سمع بغرق المركب فإنه لن يعود.

- لماذا؟

- لكي لا يدفع التأمين.

وقال الثلاثة بصوت واحد:

- سيدفع الدية.

ثم صمتوا كما لو كانوا قد ارتكبوا خطأ في حق الأموات.

قال علال:

- الأموات لا يُفدون. الإنسان أكبر من الدية.

قال عزوز:

- صحيح. ولكن إذا وقع مقدور..

- إنك تقول هذا لأنه ليس لك في المركب أحد من عائلتك.

- عائلتي؟ ألست مهدوياً؟

كان بلعربي ينظر إلى كل هذا. لم يرد أن يتدخل. كان مُطرقاً وشعور من الألم يحطم نفسه. كان الآخران يستمعان وعلى وجهيهما علامات استفهام وغموض. فالحسن ذهب أخوه مع الصيادين والحسناوي كذلك. ولا شكّ أن الموت قد ألجم فمه فلم يستطع الحديث. ولم يحاول أن يدافع عن نفسه أمام هذا الشيء الغامض الذي يقع.

ولكنه قال بعد صمت رهيب:

- لكن البحر كان هادئاً طوال الأيام العشرة الماضية.

قال علال:

- قدرة اللّه ومشيئته.

قال عزوز:

- فهو وحده الذي يهب الموت والحياة.

ثم لوّح بعصاه وانسحب قليلاً إلى الخلف. وعاد إلى الاتكاء على العصا. نظرت فيه الجماعة ولم يحاول أحدهم أن يعقّب على ما بدر منه. لكن بلعربي خرج من صمته الرهيب:

- يمكن أن العياشي قد وصل الآن.

ثم نادى على طفل صغير وقال له:

- اذهب إلى الحافة وانظر هناك هل ترى سيارة العياشي؟

جرى الطفل الصغير وتبعه آخرون، كانوا قذرين ومتسخين وقد غلّف المخاط أوجههم فأصبحت سوداء. وعندما اختفوا وانحدروا نحو المنحنى انسحب بلعربي وانضم إلى جماعة من النساء. كان العيساوي وسطهن يتكلم بصوته الأجش. ثم تبعه عزوز بينما ظلّ الحسن وعلال واجمين. جلس الحسن وفعل مثله علال. كان التراب حاراً وجافاً. وجعلت قدما علال تتوغلان في رخاوته. فتح

فمه ذا الأسياخ الحديدية وتثاءب. أخذا يتكلمان عن مصير الصيادين الضحايا برثاء أليم. كانت النساء يرفعن أصواتهن المنتحبة دفعة واحدة. ولم تكن سوى واحدة تستطيع الكلام هي عيوشة: عجوز لا أبناء لها. زوجها له خبرة بالبحر ولا قوة له. كانت صامتة ووجهها أزرق وألم خانق في عينيها. أمس كانت قد قالت لعزوز في نغمة مهزومة:

- هل تصدق يا عزوز أني سأعيش بعد موته؟

صمت هو، ومدّ يده إلى عصاه التي كانت موضوعة إلى جانبه. ثم قال في نهاية الأمر:

- ولكنك ستأخذين ديته.

- لا تقل هذا. ثلاثون سنة ونحن متزوجان.

- أعرف ذلك. ولكن إذا حلّ قدر فلا مرد له.

بكت عيوشة بدموع أم فقدت أبناءها كلهم في حرب خاسرة. ظلّت ذاك المساء غريبة الحركة، غريبة التنفس، غريبة النظرات، غريبة الإنصات والكلام. وهي هنا، في اليوم العاشر لا تتكلم. كانت تستمع للنساء وهن يتحدثن بصوت مرتفع مقترحات وباكيات. وعندما رأت جماعة من الرجال وقد جلسوا فوق التراب الجاف، جاءتها رغبة في أن تفعل مثلهم. لأن جسدها الضئيل كان لا يقوى على الوقوف. ثم انفصلت كقطعة من كتلة.

عيوشة، فوق تراب جاف ولا يصلح للحرث، انفصلت ورفعت ثيابها وبدأت تقضي حاجتها. تعسر عليها ذلك أول الأمر. تذكرت العلاقة بينها وبين عزوز قبل عشرين سنة ثم استمرارها بفتور طوال هذه المدة. دخلت في المجموعة من جديد وظلّت صامتة. تقدمت نحو العيساوي: شاب قوي ولكنه قذر. غير أن كل شيء هنا قذر. وقالت عيوشة:

- هل سيدفع لنا العياشي دية؟

فقال العيساوي:

- ومن قال لك ذلك؟ إنه لا يدفع واجب التأمين. لو كان يفعل لدفعت الشركة.

وسألته عن معنى الشركة. فقال لها إنها شيء معقد. ولم يكن هو نفسه يعرف عن الشركة شيئاً. شركة التأمين هي شيء يدفع كثيراً من المال للمعطوبين في العمل ربما. وقال لها إن العياشي لن يجيء إلى هنا إذا كانت الأحوال في غير صالحه. وانسحب ونظر في أنفه كل الرجال وكل النساء. وقال علال للطفل:

- هل رأيت سيارته؟

- لا.

وقال طفل آخر:

- هناك سيارة ولكنها ليست له.

- هل أنتما متأكدان؟

- نعم.

قالا ذلك بصوت واحد وبثقة.

مضى العيساوي وقد انتفخ وجهه وازداد تفلطحاً. كان يدوس بقدميه الحافيتين التراب الجاف في المنطقة. وكانت أحجار تنوء تحتهما ولكنهما كانتا كالأحجار، صلبتين وحديديتين فيهما كثير من القوة والعناد. ثم أخذ ينحدر في اتجاه المقهى المطل على أسفل الطريق. كان المقهى يبدو رابضاً كالعلبة. ظلّ ينحدر بقوة وسرعة. لأن المنحنى كان يدحرجه إلى تحت. أخذ يتدحرج بلا إرادة. ثم توقف بإرادة. أمسك بالنباتات المنتشرة في المنحنى بشكل أشجار شوكية. فكّر ملياً. ثم دخل في جوف النباتات وخرج إلى الطريق

وجعل يتدحرج إلى تحت. ظلّ تحت الشمس عند قدم المقهى المعلّب ينتظر العياشي. كان يفكر في وفاة أخيه. وربما أيضاً في وفاة أمه. فهي ضعيفة لا تحتمل أكثر مما يجب. ثم فكّر أيضاً وعيناه في أصابع قدميه المتسخة الغليظة، في مقدار الدية التي يمكنه أن يحصل عليها. كان كالآخرين الذين يفكرون في الدية عندما يخلون بأنفسهم ويضعون حساباً وتصاميم لمصاريف طويلة الأمد. حتى أمه المتألمة التي ستموت من جرّاء فقدانها ولدها، كانت هي الأخرى تناقش بينها وبين نفسها هذه المسألة. كم تُقدّر الدية التي سيدفعها العياشي؟ هل تستطيع أن تشتري بها شيئاً؟ هل يمكنها أن تعولها إلى آخر حياتها؟

كان الليل في أوله يوم أن مضى على غياب المركب ثمانية أيام. نظرت أمه في عينيه، ثم في أنفه المركّب بطريقة غريبة على صفحة وجهه:

- يا وليدي. المركب فُقد من غير شكّ. إن واعزاً باطنياً يقول لي ذلك.

- العلم عند اللّه يا أمي. فالحياة والممات بيده.

- صحيح. ولكن أخاك ضاع.

- هل تعتقدين في ذلك حقاً؟

- لا يخونني حدسي، وأمك ستموت من فرط الألم على فقدانه.

- إنه أعزّ لديّ من أي إنسان في هذه الدنيا.

نظر في وجهها المحتقن الأزرق وظلّ صامتاً إلى أن أضاف:

- لقد ذهب البحر بكل المهدويين.

سكتت أمه ولم تجب. كانت أطرافها ترتعد. ثم قالت:

- ولكن يا ابني يا العيساوي. هذه مشيئة اللّه كما تقول. ولكن

ذلك قاسٍ على قلب أمك. إني لا أستطيع أن أتحمل هذا. لم يعد في القرية سوى النساء والعجائز الذين لا يقدرون على شيء.

نظرت أمه في أظافر قدميه القذرة. ثم حكّت رأسها لأن الحشرات الصغيرة كانت تثقب جلدة رأسها الذي لم تضع له الحناء منذ مدة. ثم تأملت سرواله الممزق وركبتيه الغليظتين البارزتين من خلال اهتراء السروال. قالت بصعوبة:

- إذا قدّر اللّه وضاع أخوك فلي فيك تعويض.

أحسّ العيساوي أن أمه بدأت تفقد إحساسها الأصلي.

- ولكنه كان يحبك.

- أعرف ذلك. أمك أيضاً تحبكما. هل تستطيع أن تنكر ذلك؟

- حاشا يا أمي.

خرج ذاك المساء، ونظر في اتساع رحب وداس في الظلمة ثم عاد. كان الجو لطيفاً والهواء غير لزج. وقال بتشكك:

- إن العياشي لن يستطيع دفع الدية. لأنه لم يؤمِّن على مركبه.

- ولكن الحكومة ستدفع. إذا لم يدفع هو فهي التي ستتكفل بالأمر.

- ماذا تعنين بالحكومة؟

- القائد والمقدم والآخرون؟

- أنت لا تعرفين شيئاً.

ثم غيّر مجرى الحديث وقامت أمه لتنام. كان قلبها متفطراً، موزعاً بين العودة والدية.

كان الآن عند قدم المقهى جالساً. وقد أحنى رأسه وهو يحدّق في التراب الجاف بين قدميه، تراب المنطقة الجاف الذي لا يصلح سوى لأشجار لا تثمر، على الرغم من أنها خضراء باستمرار، طوال العام والعام. كان أنفه يزداد انتفاخاً على صفحة وجهه الغليظ

الأسمر الذي لوّحته الشمس والملوحة. رفع رأسه من تحت الدرج، ولم يكن هناك أحد ينحدر من المقهى المرتفع قليلاً عن الأرض، لأنه برز في المنحنى ويطل على البحر. هنا يأتي العياشي باستمرار وهنا ينزلون ليشربوا، هو ومن هم في طبقته يشربون عندما يحصلون على بعض النقود بطريقة مشروعة أو غير مشروعة. كان يحسّ أن جسده الآن، في هذه اللحظة بالذات، موهن. على الرغم من ذلك، وقف بخفة كمن يستعدُّ للقفز. صعد الدرجات التي لم يكن يشعر بوخز أحجارها الصغيرة الناتئة بقدميه. سَلَّم على المعطي الذي كان منكبّاً على أظافره ينظفها تحت السقيفة. نظر إليه الأخير بتثاقل وسأله عن المركب. قال العيساوي:

- نحن ننتظر العياشي. ذهبنا إلى البحر ولم نرَ شيئاً.

- سيصل بعد قليل ويمكن أن عنده أخباراً.

طلب العيساوي من المعطي سيجارة، ففتش هذا الأخير وأعطاه واحدة وهو يقول من خلال سعال دائم أورثه إياه داء السل الذي لا يعرف أحد متى وفي أي مكان أصابه:

- سيدفع العياشي ديات كثيرة. وهذا فيه الكفاية. فما دام الإنسان يموت بلا تعويض عادة، فليمت هذه المرة بتعويض.

- أنت تتكلم بطريقة غريبة.

- أبداً. الحقيقة نموت بلا تعويض. أنا شخصياً أريد أن أموت بدية لأنني سأموت لا محالة. اليوم أو غداً.

- أنت تتكلم بطريقة غريبة.

وقف المعطي وقد اشتدّ عليه السعال. كان صاحب المقهى يعرف أنه مريض ويشغّله مع ذلك مقابل ثمن بسيط. سمع صوته الأجش من الداخل فترك العيساوي وحده. انطلق إلى الداخل وهو يسعل. بقي العيساوي يفكر في كلام المعطي: معنى أن نموت بلا

تعويض معنى أن نموت بتعويض. ورأى صورة أخيه وأمه المتألمة التي فكرت هي الأخرى في الدية رغم حبها لولدها. وتخيل أن الدية أصبحت شعار المهدويين. ما من أحد يذهب أو يختفي إلا ويفكر أهله في الدفع: من يدفع؟ من يعوض عن هذا الموت؟ وبدا له أن هذه أشياء غريبة حقاً: أن نطلب تعويضاً ونرضى بموت إنسان عزيز.

كان ينفث سيجارته بتأمل وينظر إلى البحر البعيد. ثم إلى الأشجار الخضراء التي لم تحاول أن تثمر. وقال لنفسه: «مهما يكن فهل يستطيع العياشي أن يدفع الدية للجميع. وهو لم يدفع واجب التأمين في حياته قط. من أين له بالنقود؟».

ذات مرة، بعد أن طلع العيساوي من الماء كالسلحفاة، وكان يسبح هو والحسناوي في البحر المالح، وعندما استلقيا فوق التراب الجاف الذي كانت تغطيه آنذاك أحجار صغيرة ناتئة لا يدري أحد من أين نبتت، قال الحسناوي بأسف شديد:

- ليتني كنت كالعياشي، أملك المراكب الكثيرة وتكون لي سيارات ويكون لي. . .

قاطعه العيساوي:

- لا تغتر بالمظاهر. إن ما يربحه يدفعه ثمناً لإصلاح هذه المراكب.

- ولكن مع ذلك فهو غني. أعتقد أنه أغنى واحد في المدينة. أنا شخصياً أتمنى أن أكون مثله.

- إني أعتقد أنك أحسن منه حالاً. فهو دائماً يشكو ويتبرم. لا أريد حياة مثل تلك.

قال الحسناوي:

- اسمع يا العيساوي. أنت تهذي فقط. إن شيئاً قليلاً خير من لا شيء. لا شكّ أنك أَلِفت حياة الكلاب هذه.

قال العيساوي:

- أنت تقول كلاماً معقولاً. ولكن كيف تصبح مثل العياشي. لقد ترك له أبوه ثروة وأنت ماذا ترك لك أبوك؟

- إن أباه لم يترك له شيئاً. يقال إنه كان ماسح أحذية. يوم دخول الأميركيين كان صغيراً إذ ذاك وسموه (بوي). هل تعرف معنى بوي؟

- لا. أعتقد أن معناها لصّ.

- معناها طفل. هو الذي قال ذلك. وهو لا يحب هذا الاسم. ويصيبه هوس لا حدّ له إذا نودي عليه بـ(بوي).

عندما انتهى الحسناوي من الكلام وقف وقفة خفيفة. مضى نحو الماء. انتفض العيساوي وتبعه إلى الماء. ثم أتمّا حديثهما عن العياشي وهما يسبحان ويرشان بعضهما بالماء المالح.

يذكر العيساوي الآن، تحت السقيفة، أنهما قالا في ذلك اليوم إن العياشي لا يدفع واجب التأمين. أصبح في أذهان الناس أن العياشي لن يدفع الدية إذا ما حلّت المصيبة. فكّر الجميع أن الدية ستقوم مقام التعويض الذي تقوم به شركات التأمين في مناسبات مثل هذه.

كانت الكراسي بعيدة قليلاً من العيساوي. وكان هو يجلس في الظل وقد غلّف وجهه يأس. وعندما فتح فمه ليتثاءب، كانت أسياخ الحديد القذرة المتآكلة في فمه تنتأ بفوضى وتزداد بروزاً. وظلّ هناك يروض الأفكار في ذهنه. وكانت السيجارة التي أعطاه المعطي إياها قد انطفأت منذ لحظات. وكان قد دخّنها عن آخرها، وفكّر بعد ذلك في جرات من السبسي. لم يكن يملك سبسياً. كان له واحد ولكنه تكسر لأنه كان يضعه دائماً في جيب سرواله الخلفي وينساه. وعندما جلس تكسَّر إلى قطعتين.

عندما خرج المعطي سأل العيساوي:

- لماذا ناداك المعلم؟

- لقد ضاعت له بعض الكؤوس وقال إني سرقتها.

- إنه دائماً يتهمك.

- وماذا أفعل؟ لقد كانت الكؤوس خلف رأسه وهو يفتش بعصبية. إنه طيب مع ذلك.

- لكن أسوأ ما فيه أنه يتهمُكَ دائماً؟

قال المعطي:

- أجل. ولكنه لا يطردني.

- ألا تعرف لماذا؟ إنه لا يعطيك ثلث أجرة خادم.

ضحك المعطي وأجاب بثقة:

- ماذا أفعل هنا؟ لا شيء. ليس هناك زبائن كثيرون. فبدلاً من أن أبقى في البيت أجيء إلى هنا. ثم أني أشرب النبيذ مجاناً. وفي بعض الأحيان يعطيني كمية لا بأس بها من الكتامية الرفيعة.

- صحيح. ولكنه ينهرك.

قال المعطي:

- ثم إني مسلول. هل تعتقد أن هناك أحداً سيشغّلني؟

لم يقل العيساوي شيئاً. وظلّ صامتاً برهة وجيزة. وفي الوقت الذي كان فيه المعطي يبحث عن شيء في جيبه، كان علال يصعد درج المقهى. وكان يُسمع لقدميه الحافيتين وقعُ ارتطام بالأحجار الناتئة في السُّلَّم الحجري. ورفع العيساوي رأسه. وظلّ صامتاً لا ينبس بكلمة. بادره علال:

- ألم يأتِ العياشي بعد؟

- لا، لم يأتِ.

وقال المعطي لعلال مفاجئاً:

- تعال هنا واجلس. لقد قلت للعيساوي إنه سيعود بعد فترة قليلة.

فقال علال:

- محال أن يعود إذا وقعت الكارثة.

- لا تكن متشائماً. سيعود، وسيدفع الدية إذا وقعت الكارثة.

- إنه لن يدفع أي شيء. وها أنا أقوله لكما.

قال المعطي:

- سيدفع. وإذا لم يدفع هناك الحكومة وهناك...

- وماذا ستفعل الحكومة؟

نظر علال بعمق وتركيز في أنف العيساوي الذي ازداد انتفاخاً عندما استمع لهذا الحديث الذي لا يدور إلا لماماً بينهم. وقال له:

- ما رأيك في هذا؟ العيساوي، أنت نائم.

- لا، لست نائماً. أفكر فقط كيف يستطيع أن يدفع العياشي الديات لعشر عائلات. ماذا يتبقى له؟ ومن أين تأتيه أموال الدفع؟

قال المعطي:

- عندي فكرة. يستطيع أن يدفع لكم بالتقسيط.

قال علال:

- إنك تهذي. هذا كلام غير معقول. الناس لا يريدون تقسيطاً. لقد مات أعزاؤهم ولا يريدون تقسيطاً. ولا بدّ من التعويض أو الانتقام.

ثم وقف علال، وانحدر مع السُّلَّم الحجري. وكان ينصت إلى صوت ارتطام قدميه بالأحجار. صوت باهت وغير حاد. وقف العيساوي كذلك ثم تبعه وهو يصعد المنحنى ويسير باتجاه البيوت. كانا يبدوان كحيوانين. ولم تكن على جسديهما سوى خرق ممزقة متسخة. كان ذلك شيئاً طبيعياً بالنسبة إليهما. وكانت تدور أفكار

غريبة في رأس علال. أما العيساوي الذي كان يتبعه فلم يكن يفكر سوى في أخيه وأمه في هذه اللحظة بالذات. كان يتذكر حوادث كثيرة ومواقف حدثت له مع أخيه. وعندما رفع رأسه رأى علال يتلهى بإمساك بعض النباتات المنتشرة على جانبي الطريق الصاعد إلى القمة نحو القرية. وخطر له أن علال أحكم منه، فهو يفهم أشياء كثيرة. وقال في نفسه لو أنه سبق له أن دخل إلى المدرسة لكان رجلاً لا كالرجال، فهو مؤهل لأشياء كثيرة. لكن قريتهم لم تعرف يوماً المدرسة. كان هناك مسجد فقط. والذين يحفظون القرآن لا يستطيعون أن يصبحوا موظفين كباراً. والوظيفة تتطلب تعلم الفرنسية والحساب. فكل الموظفين مع القائد يتكلمون بالفرنسية ويتقنون الحساب.

عندما توقف علال في القمة التفت إلى العيساوي وقال له:

- إن أمك تنتحب. أسرع إليها.

قال العيساوي بصوت خفيض:

- أعرف ذلك. إنها ستموت حزناً على ابنها. لقد ذهب ولن يعود.

أخذ يركض. أمسكت بتلابيبه نباتات شوكية فمزقت جزءاً من سرواله المهترئ. ولكنه لم يعر للأمر أهمية. كان فقط يندفع نحو أمه كالحصان القوي. وعندما بلغ المكان الذي وجدها مرتمية فيه ألقى بنفسه عليها وهو يقول:

- كفي عن البكاء. لا أعتقد أنهم ضاعوا. سيعودون لا محالة.

- ومن أدراك يا بني؟ أخوك ضاع والسلام.

قال العيساوي:

- لا تكوني متشائمة يا أمي.

- كيف لا أكون متشائمة؟ المهدويون كلهم ذهبوا. منذ صغري

وأنا أرى الموت يُخيم على هذه القرية. الموت يا ابني في كل مكان. كيف تقول لأمك بألا تتشاءم؟

كانت هوام صغيرة تنتشر في رأسها الأشعث. حدّق العيساوي في جبين أمه. رأى قملة سارحة بحرية. ثم قال:

- اذهبي يا أمي وفلّي القمل. سيأكلك وأنت حية.

- لا أستطيع ذلك. كيف أفعل وأخوك ضاع. لم أعد في حاجة إلى زينة. إن حياتي زائدة وبلا معنى.

وقفت وهي تمسح عينيها. كان حزن كبير يجثم على وجهها العجوز الذي يبدو كالقناع. انصرفت دون أن تقول كلمة للعيساوي. ظلَّ هو في مكانه وتابعها بنظراته. كانت تمشي بتثاقل. بلغت البيت الواطئ المغروس في التراب الجاف. كانت هناك أكواخ صغيرة أخرى مبثوثة إلى جانبه. وكان خلف بيتهم صومعة مصنوعة من الخشب ومغلفة بالعلب التي جلبت من مكان ما. لذلك فقد كانت الصومعة تلمع وتعكس أشعة الشمس، فالعلب لم يغطها الصَّدأ بعد. كان العيساوي يفتخر بوجود مسجد بالقرب من بيتهم. لكنه لم يذهب يوماً ليصلي فيه، لأنه كان في حاجة إلى وضوء مستمر. غير أنه عندما كان صغيراً، كان يذهب ليصلي في ليلة القدر مع رفاقه، وذلك حتى يستطيعوا في النهاية أن يتمكنوا من الحصول على الطعام الذي يوزعه المحسنون والمحسنات في المسجد. كان يفعل ذلك عندما كان صغيراً. وكان هو ورفاقه يتعبون وراء المصلين. وكانت تتوزعهم الرغبة بين الخروج - لأن الوقوف مدة ساعات شيء متعب - والبقاء للحصول على طعام في نهاية الصلاة. أما الآن فإنه يذهب إلى المسجد في وقت متأخر، يرتدي جلابته التي يحتفظ بها لهذه المناسبات، هو وبعض الأقران، ويجلسون يتحدثون عند باب المسجد حتى يقدم الطعام. فيأكلون حتى يشبعوا، ولا ينسى أن

يحتفظ لأمه كما يفعل الباقون بقطعة لحم. ولم يكن هذا شيئاً محرماً البتة، فكل الناس - حتى الفقهاء - يفعلون الشيء نفسه: يحتفظون لأزواجهم بقطع من اللحم توضع عادة في قب الجلابة. ولم يحاول يوماً أن يذهب إلى الصلاة رغم افتخاره بأن المسجد يوجد قرب بيتهم.

كانت أمه قد اختفت نهائياً. لقد دخلت البيت فظلت الصومعة تعكس أشعة الشمس في المكان. ثم التفت ونظر في الجماعة التي لا تزال تتحرك أياديها في الفضاء. مشى نحوهم بحذر. كانت الأرض والأحجار تخز قدميه الحافيتين. رأى عزوزاً قادماً من بعيد. كان يبدو له الآن أن هناك عدداً لا بأس به من الناس. كانوا حوالي الثلاثين. لم ينتبه إلى بعض الأطفال الذين تجمعوا بعيداً، حول خُذروف يدور بنشاط واستمرار. رأى عزوز كذلك يدخل إصبعه في أنفه وهو يتدحرج كالسلحفاة. كانت عصاه معلقة بين السماء والأرض. وكان يحركها دون توقف في غضب ظاهر. وعندما اقترب من الجماعة التي كانت لا تزال تهدر كالبحر وتتجمع وتتفرق بحسب رغبتها، أسرّ للدرقاوي كلمة. فكر هذا الأخير ملياً. لم يعره الباقون أدنى اهتمام لأنهم كانوا منشغلين بالتساؤلات عن مصير المركب وبالاقتراحات والافتراضات ثم التفت الدرقاوي الذي كان هو مدرِّس الصبيان وإمام القرية وقال لعزوز كلمة فهزّ هذا الأخير رأسه وأبدى إعجابه. فَخَلُصَ الفقيه بذلك إلى رأي: أن يصلّوا من أجل الأشخاص الضائعين. رفع عزوز عصاه ولوّح بها في الفضاء وهو يقول:

- استمعوا يا بني آدم، استمعوا...

غير أن أحداً لم يستمع إليه. كان هديرهم وحركاتهم كثيرة بحيث استطاعت أن تغطي على صوته وحركاته. صرخ مرة أخرى. كان الدرقاوي يرفع يديه وتتحرك شفتاه، غير أن صوته لم يكن

مسموعاً. ثم بدأت الأصوات تنخفض شيئاً فشيئاً. وبدأت الأعين تتوجه بتتابع إلى عزوز والدرقاوي. ولما أيقن هذا الأخير أن الأمر أصبح بين يديه وأن كل شيء موكل إليه، قال باحترام وبثقة في الوقت نفسه:

- اسمعوا يا جماعة. في حالة مثل هذه يجب الابتهال إلى اللّه والاعتراف بقدرته، وتجب كذلك الصلاة من أجل هؤلاء الذين ماتوا بلا قبور.

هيمن الصمت عليهم. بدأوا ينظرون إليه وقد ألجم الاندهاش والحيرة ألسنتهم. كانت امرأة هي من غير شكّ، حادة بنت مسعود، متدلية النهدين، عارية الصدر، وقد تعلق طفلها بعنقها، تنظر إلى الدرقاوي بإعجاب كبير. ولمّا لم يستطع أحد أن يتكلم أو يوافق أو يبدي عكس ذلك قالت:

- ولكن يا السي الدرقاوي، الصلاة لا تكون إلا بعد الموت. أليس كذلك يا السي عزوز؟

قال عزوز:

- صحيح. تلك صلاة الجنازة. ولست أدري ما رأي الفقيه الدرقاوي في هذا. هل نصلي على الأموات أم على الأحياء؟

قال صوت مغمور:

- كلاهما معاً.

سكت. ولمّا التفتوا لم يتعرفوا إلى المتكلم. غير أن الدرقاوي تأمّل برهة في التراب الجاف. ثم نقل نظراته إلى بُلغته الجديدة. وكان هو الوحيد الذي يضع البُلغة. قال بزهو:

- المركب غاب ولم يعد. هذا هو اليوم العاشر. وبعد قليل سوف تغرب الشمس وسيحل اليوم الحادي عشر. وأنتم مراكبكم لم تكن تتخلف كل هذا الوقت. ومعنى ذلك أن صاحب الأمانة

(سبحانه) استعاد أمانته. فرحم اللّه من قضى وأطال عمر من بقى. والصلاة على المؤمنين كانت حقاً. فمن أراد أن يصلي فذاك ومن لم يرد فملقاه مع ربه.

ثم رفع الدرقاوي عينيه، ورأى الصومعة، كانت تلمع بفعل الشمس. كان لمعانها يبدو له ضوءاً إلهياً. رفع إصبعه إلى بعيد وأشار:

- يجب أن تكونوا مسلمين وكل مقدور لا محالة حاصل.

كان وجه الفقيه الدرقاوي نظيفاً من كثرة الوضوء، يلمع بنور يبعث على الاحترام. نظرت حادة بن مسعود في الجماعة، ثم قالت:

- ماذا تنتظرون؟ إن السي الدرقاوي لا يرِد لكم إلا الخير. اذهبوا وصلّوا.

قال الصوت الذي يأتي من الخلف دائماً:

- لكن علام نصلّي؟ على الأموات أم على الأحياء؟

دار الدرقاوي حول نفسه:

- لقد حصل المقدور. واللّه بيده كل شيء. وأنا لست مسؤولاً عن أحد. كل مسلم بعمله.

انصرف الفقيه الدرقاوي. تكتلت الجماعة التي ازداد عددها بعد لحظات وجيزة. ارتفع الهدير. بدأت الأيدي تتحرك، ترسم في الفضاء أشكالاً هندسية مختلفة. لم يكن بالإمكان آنئذٍ الاستماع إلى صوت من هذه الأصوات المختلطة، أو فهم ما يدور من حوار. كان العيساوي معزولاً عن الكتلة البشرية التي تتحرك، ثم انفصل نهائياً عنها. ضرب على كتف الحسناوي وهو يقول:

- لقد قال لي المعطي إن العياشي سيعود بعد قليل. سنذهب لنرى.

نظر إليه الحسناوي برثاء وهو يقول:

- إنها كارثة. غير معقول أن تحدث أشياء مثل هذه.

قال العيساوي:

- لا أظن أن العياشي سيعود بعد اليوم إلى هنا. كيف يستطيع أن يدفع لنا الديات؟

قال الحسناوي:

- لا تكلف نفسك التفكير هكذا. ما من حشرة إلا وعلى اللّه رزقها. إذا لم يجئ فالقائد هو المسؤول وهو يعرف كل شيء. ثم إن الحكومة أقوى من العياشي.

قال العيساوي:

- القائد لن يفعل شيئاً لأنه صديق العياشي. فهو يجلب له الويسكي ويهديه له مجاناً.

نظر الحسناوي بلا مبالاة وأكد لصديقه:

- إنهم يفعلون كل ما ليس ممكناً.

كانا يتحدثان وهما يسيران باتجاه المقهى. لم يكن في إمكان أحدهما أن يتخلى عن حزن الآخر. تدارك الحسناوي الأمر وهو يقول:

- لماذا لا نذهب للصلاة؟

قال العيساوي بصوت غليظ:

- أنا لم أصلِّ منذ مدة. ثم إني لا أعرف كيف أصلّي.

قال الحسناوي:

- هيا بنا. إن الجماعة ذاهبة إلى المسجد. فلنترحم على أرواح موتانا.

قال العيساوي:

- غير ممكن. اذهب أنت. ستجدني في المقهى ولن أعود إلا برفقة العياشي.

انحدر في الطريق المؤدية إلى تحت. بينما وقف الحسناوي متردداً قليلاً. ثم قرر أن يذهب للصلاة.

كانت الطريق تنوء تحت قدمي العيساوي وهو يتدحرج. تنوء دائماً. لم يكن يشعر بذلك كالعادة. وعندما رفع رأسه أدرك أن الشمس ستغرب بعد قليل وتذكر أيضاً أنه لم يأكل شيئاً طوال هذا اليوم. وأغلب الظن ألا أحد استطاع أن يتناول لقمة من الطعام في القرية.

كان بيت صغير من الخشب لا يخضع لأي نظام هندسي قابعاً في مواجهة ساحة متربة فيها بلل وصلابة وأوساخ. كان هذا البيت هو دكان المهدية الوحيد. له فم مفتوح على الفراغ في الوسعة. ينقسم الباب إلى قسمين: الأول في الأعلى يطل منه رأس إبراهيم، بينما الجزء الثاني يغطي أسفل جسده ويستعمل بمثابة خزّان لبعض قناني الزيت الفارغة والجوالق القصديرية التي أُفرغت من محتوياتها. وعندما يقف إبراهيم ليقدم خدمة للزبون، تصطدم قدماه بالجوالق أو الزجاجات، فيسمع لها صوت موسيقى فيها نشاز. موسيقى محسوسة لا تخضع لنوتة. كان إبراهيم أَهْتَمَ لا يتحدث العربية العامية بطلاقة. عندما يريد أن يخاطب مذكراً فإنه يستعمل المؤنث والعكس عندما يريد مخاطبة المؤنث. كان بربرياً من سوس. وكان عسيراً على مثل عدد كبير من أمثاله تعلم اللغة العربية العامية والتحدث بها بطلاقة. لذلك عندما زحفت عيوشة أمام دكانه أطلّ من فجوة في الباب، وظلّ أسفل جسده مختفياً وقال:

- آجي انتا. اعطني فلوسي.

وقفت عيوشة أمامه غير مضطربة ولا مبالية بشيء. كانت تشعر أنها في حاجة إليه. لقد بدأ الزمن يأكل من جسدها ومن قوتها. كانت خرقها البالية ترتعش فوق جسدها النحيل بفعل الهواء الخفيف الذي يهبّ قادماً من جهة البحر الذي يقع خلف الأشجار القصيرة الخضراء. ظلّت واقفة لا تجيب. ولكنها فتحت فمها كالسمكة العطشى التي أُخرجت من الماء فوراً وقالت:

- إبراهيم. رابعة سكر ورابعة زيت. أوقية أتاي. لقد طردتني أمس لكن أين أذهب؟ هل هناك حانوت آخر في القرية؟

- أعطيني فلوسي يا عيوشة.

- اسمع يا إبراهيم. أنت تعرف أن القائد يماطل وأملاك العياشي لا تزال هنا. سيدفع لنا الدية وسنردُّ لك دينك.

- لن يدفع لكم العياشي حتى خرية. أنتم لا تزالون تحلمون. كم مضى على غرق المركب؟ أجيبي. لماذا أنت صامتة؟

- لا أدري يا ابني إبراهيم.

- لست ابن أحد.

كان في الأربعين وملامح من الصلع قد ظهرت على رأسه الصغير المكور الفارغ من فوق مثل تفاحة. أحياناً، يقولون له عمي إبراهيم، وأحياناً، ولدي إبراهيم، وأحياناً أخرى، با إبراهيم. التسمية لا علاقة لها سوى بالزبون فهو الذي يجعله عماً أو جداً أو ولداً. أما عيوشة فتجعله دائماً ولداً. وقالت من جديد، بينما الهواء الخفيف يدفع ثيابها وخرقها البالية في كل اتجاه، بحيث تلتصق بعظامها النخرة:

- ولدي إبراهيم.

قال إبراهيم بعصبية:

- ماشي ولدك. ماذا تريدين؟

- تترك عيوشة تموت. عجوز لا حول لها ولا قوة. ماذا فعلت يا رب؟ باللّه عليك يا ابني قل لي: ألا نتعامل معك منذ أن جئت إلى هنا؟

- لا يهمني هذا. ما تريدين بالضبط؟

- لقد قلت لك. رابعة سكر ورابعة زيت. أوقية أتاي.

- ما عنديش.

- أرجوك يا وليدي.

- طيب إذا أعطيتك من الذي سيدفع الدين الذي عليك؟

- العياشي.

- العياشي لن يدفع حتى خرية. أين العياشي؟ أمي عيوشة بدلي هذه الساعة بأخرى. اذهبي من فضلك وإلا فككت رقبتك عن جثتك.

- أن تفعل ذلك خير من أن أعيش. ماذا سآكل؟

قفز ظلٌّ إلى المكان. ظل كبير ضخم كظل شجرة بلوط. وعندما هزّ إبراهيم رأسه، رأى حدوم ملفوفة في شراوطها. اقتربت منه وقد لوت مؤخرتها بسرعة وأدارتها نحو الساحة الصغيرة مباشرة. وتكوّن في مؤخرتها حفير واسع كوّنته الثياب التي دخلت بين فلقتي المؤخرة. ويمكن رؤية لحمها من وراء ثقب واسع في ثوبها، الذي لم تكلف نفسها عناء خياطته أو ترقيعه. كان الأطفال الصغار عندما يرون ذلك الثقب الذي ظهر منه لحم أبيض كالشحم يتفكهون. وأحياناً كان أحدهم يقول: «سأذهب لأخوّ (. . .)» فيجيب الآخر:

- إذاً خوّ (. . .) تقتلك.

- إنها تحب ذلك.

- اذهب وحاول.

ويذهب أحدهم فيحاول أن يلمسها، فتدور مسرعة وتصفعه

بقدمها حتى يئنّ فيهرب الآخرون، ويتفرقون إما بين الأكواخ القليلة الصغيرة المنتشرة بلا نظام، وإما ينحدرون إلى النباتات الشوكية جهة المقهى.

عندما رأى إبراهيم ظل حدوم، حكّ أم رأسه وقال لها:

- حدوم، انظري هذه السيدة. عليها دين كثير وتريد رابعة سكر ورابعة زيت. هل هذا معقول؟ من سيدفع عنها؟

قالت حدوم:

- ماذا تفعل يا إبراهيم؟ عيوشة مسكينة، ما عندا حد.

- وأنا.. آش عندي؟

- عندك اللّه.

قالت عيوشة:

- سبحانه! يرضى عليك يا بنتي.

وأخرجت حدوم درهماً ودفعته لإبراهيم:

- ثمن الصابون ورد الباقي.

انسحب إلى الخلف ومدّ يده إلى الرف، حيث بعض زجاجات ماء جافيل وباكيتات الملح والصابون. أخذ قطعة صفراء من الصابون الرخيص. قدمها لحدوم. حركت جسدها كله في خفة وهي تتناول الباقي. عندما أصبحت على بعد مترين منه حك أم رأسه من جديد، ورأى الثقب في مؤخرتها. وعندما ابتعدت حدوم قال لعيوشة:

- آش بغيتي؟ اذهبي وخليني نسترزق.

دون أن تتكلم أو ترد عليه. جرّت جسدها الهزيل مهزومة. اختفت مباشرة من أمامه. مرّ أمام إبراهيم أربعة أطفال. تفرقوا كالخراف وانسحبوا جهة المسجد وهم يقولون في صوت واحد:

دا إبراهيم

سراق الطحين

فينك فين

وجيتي منين؟

دا إبراهيم. . إلخ.

قال إبراهيم بصوت مرتفع وهم يبتعدون نحو المسجد:

- اللّه يمسخكم. أولاد الحرام.

مدّ له كل واحد إصبعه وانحدر في طريق المقهى. وعندما أصبحت عيوشة على مقربة من كوخها، رأت عزوز جالساً وقد دلى عصاه إلى جانبه. كان الحسناوي هناك أيضاً. وكانت بين أصابع العيساوي لفافة. لم تعد تميز الأشياء من بعيد. تراه ينقل يده إلى فمه. إنه يدخن من دون شك. أما ما يدخنه فهذا ما لم تستطع رؤيته. لقد ضعف بصرها، وأصبحت تؤكد لنفسها أنها لا محالة ستصبح عمياء. وما أفظع أن يصبح الإنسان أعمى في أرذل العمر. وقالت في نفسها: لا يجد الإنسان حتى من يقدم له إناء يبول فيه أو يأخذه إلى حفرة ليقضي فيها حاجته. وقالت أيضاً: عندما نصل أرذل العمر، القبر أرحم من الحياة يا رب. ثم قالت أيضاً: إبراهيم شلح كلب. الشلوح لا يرحمون. وهزّت الريح خرقها البالية ثم ألصقتها بجسدها النحيل الذي أصبح كفزاعة طيور.

وقال عزوز من خلال اختناق ناتج عن سيجارة الحسناوي:

- عيوشة. هل كنت نحو المقهى؟

- من عند إبراهيم الشلح. لم يعد يرحم.

- خصوصاً في هذا الوقت بالذات.

قال الحسناوي:

- لقد تفرعن. الحوانتية كيف كيف!

قالت عيوشة لعزوز:

- أمس ذهبت معي ورأيت بعينيك. أما الآن فحدوم تقول لك.

لقد رأت بعينيها ما الذي حصل. من أجل قليل من السكر والزيت طردني كالكلبة.

قال عزوز:

- لا حول ولا قوة. لو كان المرحوم على قيد الحياة..

قالت ببكاء:

- كان المرحوم بذراعه يقفل الأفواه ولا يرضى بمد يده لأحد. ولكن الدنيا غدّارة. شي طالع شي هابط.

قال الحسناوي:

- لن نموت جوعاً مهما يكن. لن يموت أحد جوعاً. أقل ما نفعله صنارة وقصبة.

سكتت عيوشة. قرفصت أمامها. خرج الدرقاوي من باب المسجد واتجه نحوهم. وفي هذا الوقت بالذات، كان صياح بعض الأطفال الصغار يرتفع بتلاوة القرآن. كان خليطاً من أنغام تكون في مجملها هديراً مزعجاً ثقيلاً على الأذن أيضاً. عندما اقترب الدرقاوي من الحسناوي وعزوز وعيوشة، ارتفع زعيق طفل في المسجد. وقال الدرقاوي وقد ابيضّت عيناه: «أولاد الكلاب!» قالها بهدوء. ثم عندما اقترب وأصبح على مقربة منهم قال:

- من نزل منكم إلى تحت؟

قال الحسناوي:

- أين؟

- المقهى.

قال عزوز:

- تغلبني العقبة. لم أعد أستطيع النزول. اشتقت ولو لطرح واحد من الضامة تحت.

قال الدرقاوي:

- لا ضامة ولا أي شيء. أريد أن أتحدث عن العياشي.

كانت أصوات الأطفال لا تزال ترتفع ثم تنخفض. أطلّ رأس صغير من باب الجامع ثم اختفى في الوقت الذي كان الدرقاوي يولي فيه الجامع ظهره. ولو رآه لأدركه فوراً وأشبعه ضرباً على قدميه. لكنه لم يره. استطاع رأس آخر أن يعيد الكرّة.

قالت عيوشة:

- آشنو عند العياشي؟

قال الدرقاوي:

- لم يبع أملاكه. لكن كل شيء لا يزال في ملكه.

- من أين لك هذا الخبر؟

- المعلم، صاحب المقهى. لذلك قلت لكم. سألتكم عمّن يكون قد نزل إلى تحت.

قال الحسناوي:

- غير ممكن.

قال الدرقاوي:

- يمكن أن تتأكد من ذلك بنفسك. اذهب إلى تحت واسأل المعطي أو أياً كان. سيقولون لك إنه هنا. ولم يذهب إلى آسفي أو إلى أي مكان آخر.

قال عزوز:

- اسمعي يا عيوشة. الرحمة لم تنقطع من الدنيا. إذا عاد فبعودته الخير والبركة.

قالت عيوشة:

- كم سيعطينا حتى لو عاد؟ هل يطعمني حتى أموت؟ أنا عجوز ولم أعد أطيق العمل. أصبحت جثة.

سكتت عيوشة. سكت الجميع كذلك. أخذ الدرقاوي يخرج

قدمه اليمنى من البُلغة. ثم يرفعها بأصابع قدمه، ويفعل كما لو كان يفرغها من تراب وهمي. بالفعل تساقطت بعض حبّات التراب التي لا مناص منها للابس البُلغة. وعندما أعادها إلى قدمه قال لعيوشة:

- أنت ما لك؟ هل تريدين الخبز؟ تعالي أعطك إياه. ثم أخرج قدمه من جديد فظهرت نظيفة. قدما الدرقاوي نظيفتان بيضاوان كالشحم. لم تكونا بيضاوين ولكنهما تميلان إلى الصفرة، خصوصاً عند مؤخرة القدم. وقال من جديد وهو لا يزال واقفاً:

- عيوشة. لماذا تشتكين وتبكين؟ إنك كثيرة النواح من أجل لا شيء.

ردّ الحسناوي:

- إنها تشعر بنهايتها، لذلك فهي الآن تعتبر نفسها وحيدة في الدنيا.

قال عزوز:

- الزغبية! (البئيسة!)

ولم يضف شيئاً، في الوقت الذي عاد فيه الأطفال الأربعة الذين انسحبوا وتفرقوا إلى أماكن مجهولة قبل لحظة. لم يكونوا يذهبون إلى الجامع. لذلك تفرعنوا وأطلقوا لأنفسهم العنان وزرعوا الفوضى في المكان. فما إن تسرق دجاجة مثلاً إلا وتلصق التهمة بواحد منهم. فهم علامة الشرور جميعاً. إنهم يتجرأون على كل ما لم يتجرأ عليه أحد. لكنهم عندما يبصرون الدرقاوي ينسحبون على الفور. لأنه إذا رأى أحدهم مقترباً من الجامع أخذه من أذنه، وأدخله ليكيل له الضربات على قدميه. وحتى أبوه أو أمه لا يستطيعان أن يعارضا في ذلك، لأن في ضربة الفقيه بركة. وعدم تقبّلها معناه عدم تقبّل قضائه سبحانه.

ها هم الآن، الأربعة أنفسهم، رأوا الدرقاوي لكنهم لم يتفرقوا

ولم ينسحبوا، بل أصروا على أن يبعثروا التراب في وجوه بعضهم ويتصايحوا. في هذه اللحظة بالذات كان رأس صغير يطلّ من المسجد ولم يرد أن يختفي. لكنه أخيراً اختفى عندما همّ الدرقاوي بالالتفات. ازداد صياح الأطفال مرتلي القرآن. انتفخ صدر الفقيه، لأن ارتفاع أصواتهم معناه إثبات لسلطته وتفوّقه. أخرج قدمه من جديد ونفض تراباً وهمياً عنها. ثم أدخل يده من فتحة الجلابة. حكّ مكان العانة. وقال للحسناوي:

- اذهب لتسمع الخبر بنفسك. اسأل المعلم أو اسأل المعطي. العياشي لم يبع شيئاً من أملاكه.

قال عزوز:

- إن القائد سوف يتولى الأمر. وسيحل المشكلة مهما صعبت.

قالت عيوشة:

- سيقوم ولا شكّ بالإنصاف والاقتصاص منه.

انسحب الدرقاوي ومشى نحو الجامع. خرج رأس صغير وأطل. عندما رآه الدرقاوي هدّد صاحبه من بعيد بيده. لكنه لم يزد أن ينقص من مشيته. كان فخوراً بنفسه إلى حدّ النرسيسية. يعتقد مع نفسه أنه أعلم من في هذا العالم. وعندما اقترب من الباب ارتفع صراخ الأطفال من جديد. وفي هذا الوقت بالذات وقفت عيوشة. ثم مشت نحو كوخها البارد الذي تخترقه أشعة الشمس. في نفس الوقت فكّر عزوز في الدرقاوي. فكر أيضاً في إبراهيم صاحب الدكان. إنه أيضاً يحفظ القرآن ومنظومة ابن عاشر وأشياء أخرى. إنه يتحدث عن الرؤساء والحكام في العالم كما يتحدث عن سكان المهدية. أما الدرقاوي فلم يكن يعرف من هذه الأشياء حاجة. كان كثير الوضوء وكثير الصلاة والأذان. وأيضاً كثير النهي عن المنكر. هذا حرام وهذا حلال وهذا مستحب. . . إلخ.

قال عزوز للحسناوي:

- هل تعتقد أن ما يقوله الفقيه للدرقاوي صحيح؟

ردّ الحسناوي:

- لم لا؟ إنه يعرف ما في قلب المعلم. لا شكّ أنه قال له.

قال عزوز:

- وإبراهيم؟ لا شكّ أنه يعرف.

قال الحسناوي:

- ليس أعرف من المعلم. فهو خادم العياشي المطيع. هل تريد معرفة إحدى الحقائق؟

هزّ عزوز ثوبه فتسرب هواء خفيف بين فخذيه. انتعش انتعاشة غريبة. قال عزوز:

- ما هي هذه الحقيقة؟ قُل.

- المعلم ومقهاه. قصة المعلم ومقهاه.

- أعرف ما تريد قوله.

- ماذا؟

- إن العياشي هو الذي اشترى له المقهى.

- تماماً.

انتعش عزوز من جديد. شعر أنه سيحقق انتصاراً ثم قال على الفور:

- إنك تخرف وتخرف.

انقبض وجه الحسناوي عندما رأى نفسه منهزماً. فاجأه عزوز وهو يمسك بعصاه استعداداً للوقوف:

- إنك تخرف. العياشي جاء عام 45. أما المعلم بيوض فهو هنا منذ العام 38. هل فهمت. إن بيوض يملك المقهى منذ 38..

شعر عزوز بطقطقة عظامه وبثقل في رأسه. ضرب الأرض برأس العصا، كمن يختبر متانة الأرض أو قوة العصا. وقف الحسناوي بدوره ووضع يده اليمنى على القصدير. أصبح مائلاً في وضع متهالك. وقال لعزوز:

- أنا لم أخترع هذا الكلام. هو الذي يقول هذا. اسأل المعلم. إنه يقول إنه لولا العياشي لأصبح جيفة تعافها الكلاب.

قال عزوز:

- الحقيقة هي ما قلت. اذهب واسأله بنفسك لتتأكد.

ثم مضى عزوز نحو بيت عيوشة. بينما مضى الحسناوي في الاتجاه الآخر، نحو المنحنى، تجاه المقهى. انبثق الأربعة الصغار من جوف الأرض. وقالوا لبعضهم تعالوا نقفز فوق ظهر عمي عزوز. وقال أحدهم إنه يستطيع أن يدركني رغم ضعفه، وهو يتقن إلقاء العصا.

كان أحد الأربعة الصغار قد فقد أباه في المركب، ولكنه استطاع أن ينسى موت أبيه، وتصوَّر أن ذلك شيء طبيعي، وأنه غير مطالَب بالحزن أو البكاء. كان الأطفال الأربعة قد فقدوا صديقاً لهم آخر هو أقلهم خفة وحيلة، لذلك استطاعت أمه أن تنتزعه من بينهم لتدفعه عند بائع الإسفنج كمتعلم. يستيقظ مبكراً ليوقد النار وليساعده على إلقاء الأعواد تحت المقلاة التي أصبحت كقطعة من الزفت قذفتها البواخر عند شاطئ المهدية. أما هؤلاء الأربعة فكانوا لا يذهبون إلى الجامع ولا يمتهنون أي حرفة لقلة الحرفيين بالمنطقة، فهم ينتظرون - كما انتظر آباؤهم - حتى يبلغوا سن الصيد. لذلك فهم يتدربون منذ الآن على السباحة رغم أن أمهاتهم يزجرنهم مخافة أن يودي بهم البحر في غفلة عنهن. لم يعد هؤلاء الأربعة الصغار يفكرون في صديقهم، ولكنهم نسوه فوراً لأنه لم يكن يشبههم في

شيء. فهو فاقد للحيوية والخفة والشيطنة. وكان أول من يفضح السر ويقع في أيدي المجني عليهم. لذلك فتعلُّم حرفة بالنسبة إليه، أجدى من أي شيء آخر في الدنيا.

عندما كان عزوز يتدحرج وراء عصاه، جرى أحدهم وضرب العصا بقدمه ثم فرّ مسرعاً. غير أن عزوز لم يكن عاجزاً إلى هذا الحد، إذ لوّح بعصاه وضربه على قدميه فأسقطه. لكنه لم يستطع اللحاق به. فقد وقف الصبي بخفة وتناول العصا وفرّ بها. جرى نحو الجامع. أطل رأس الدرقاوي بالصدفة، فأطلق الصبي العصا وبال في سرواله. ثم انحرف من الجهة اليسرى، واتجه نحو النباتات الشوكية، حيث كان الآخرون ينتظرونه وهم يلهثون. سكتوا. أخذوا ينصتون هل يتبعهم أحد. لكن لمّا تأكدوا أنه لم يكن هناك أحد على الإطلاق، بدأوا يغادرون النباتات الشوكية القصيرة التي كانت تخفي أجسامهم القصيرة القامة والضئيلة. سارعوا إلى الوسعة أمام الجامع. كان إبراهيم يبدو لهم داخل الدكان ووجهه نحو الرف، حيث اصطفت زجاجات ماء جافيل وباكيتات الملح والصابون الرخيص الأصفر. وقال أحدهم عندما التفت إبراهيم إليهم:

- يا اللّه مرة أخرى! دا إبراهيم.

كان إبراهيم لا يزال وراء الباب، ولكن وجهه الآن جهة الرف. وبدأت الكلمات في صوت واحد صارخ غطى على أصوات الصبية داخل الجامع:

دا إبراهيم

سراق الطحين

فينك فين؟

وجيتي منين؟

رفع إبراهيم يده في الهواء ولوّح بها مفتعلاً الغضب الشديد فتفرقوا من جديد. وقال إبراهيم:

- آولد الحرام. أبوك مات وما تحشم. اذهب وابك قبل أن تضحك.

لكن من يسمعه؟ من يعرف عمّا يتحدث؟ كان أبو الصبي حقاً قد مات. لكن حتى أمه تألمت وسكتت وأخفت الألم. عندما لامست جسدها ذات مرة قالت لنفسها إنها لا تزال شابة. وهذا اللحم، تعني جسدها، لا يزال صالحاً للرجال. وجنس الرجال لم ينقطع نهائياً من الدنيا. في تلك اللحظة، وضعت العطر ونظفت أسنانها بالسواك وخرجت تطالب بالدية وتسأل هل حقاً أن العياشي باع كل أملاكه. وقالت إن جنس الرجال لم ينقطع ولي طفل وحيد أحميه من كل الشرور حتى لو صرت من أجله قحـ (. . .). لكن في الواقع، إن هذه المهنة لم تكن لتفيد هنا. فكل الرجال لهم نساؤهم. وحتى الشبان معدودون على رؤوس الأصابع، ولا يملكون سنتيماً واحداً. وعندما فكر إبراهيم في أم هذا الصبي قال:

- اذهب يا ولد القحـ (. . .). سأهشِّم رأسك.

ولو سمعته أمه لما افترقت معه حتى يثبت أنها بالفعل ليست قحـ(. . .) ثم رجع إبراهيم إلى الرف، وأخذ يرتب بعض الزجاجات الفارغة قرب زجاجات أخرى مليئة بماء جافيل. ولم تكن عنده زجاجات زيت. فالزيت كان يبيعه من البرميل الذي ألصق به صنبوراً صغيراً من النحاس. فلا أحد هنا يشتري زجاجة بكاملها من الزيت. وعندما كان منشغلاً بترتيب الزجاجات، جاءه عزوز وطلب أن يناوله المقعد ليجلس عليه. فقال له إبراهيم لقد تكسر، ورفع خشبة الباب أمامه وخرج. جلس قرب عزوز قدام باب الحانوت. وقال لعزوز:

- أولاد الحرام حيروني.

قال عزوز:

- لا عليك. سوف أعرف كيف أربيهم. معهم ولد القحـ(. . .).

هل يعرف أنه يتيم وأن كل يتيم علة؟

لم يتذكر عزوز أنه نشأ أيضاً يتيماً. لكنه يعرف بالضبط أنه كان علة، أي شريراً. استمر في كيل الشتائم النابية. ونظف إبراهيم المكان بيديه، ثم نفخ في التراب بكل هواء رئتيه. جلس في مواجهة عزوز. كانت تلك هي عادة إبراهيم، يغادر الدكان المظلم لأنه لا يبيع كثيراً رغم أنه مول الحانوت الوحيد في المهدية. فالمشتريات قليلة. أحياناً يضايقه صغير، اختطف ريالاً من زاوية ما في بيتهم، وجاء ليطلب حلوى.

كان إبراهيم يجلس ليلعب الضامة أو يثرثر. ويحاول أن يتحدث عن أشياء قالها الراديو. مثلاً حاول أن يشرح لعزوز ما قيل أمس في الراديو. كانت خطبة سامية، تحدث فيها الملك. قال إنه يجب ألا نفقر الأغنياء. وقال إبراهيم ذلك لعزوز وشرحه له. لكنه لم يفهمه. وقال عزوز: كل شيء مكتوب، الغنى والفقر.

قال إبراهيم:

- أنت لا تفهم هذه الأشياء. إنك لا تقرأ جريدة ولا تملك حتى راديو.

قال عزوز:

- إن أبي كان صياداً، وأصبحت من بعده صياداً. وهذه الأشياء صعبة على أمثالي ولا أعرف فيها شيئاً.

سكت إبراهيم وتضايق. لم يحاول أن يقول إنه غير مقتنع، بل أحنى رأسه ودخل من تحت البوابة. بينما تنحنح عزوز وتمخط في التراب. ثم غطى المخاط بكفه المحروقة. وطلب من إبراهيم بصوت مرتفع أن يخرج لوح الضامة ليلعب طرحاً. فقال إبراهيم نعم. وظلّ

يفتش عن شيء تحت برميل كان يجلس عليه. برميل أسود مكتوب عليه بالحروف اللاتينية «ميد إن جرماني». ولم يكن إبراهيم يعرف ما هي الأشياء التي كان يحتوي عليها البرميل. ولكنه اشتراه فارغاً ليستخدمه للجلوس. وأحياناً كان يضع تحته أشياء ثمينة، كالوثائق والحسابات والفاتورات. ولعله كان يبحث الآن عن فاتورة أو ورقة حساب. ثم ظهر إبراهيم من جديد خلف الباب القصير الخشبي. ومدّ يده بلوح الضامة، فتلقى عزوز اللوح وصندوق البيادق. ورتبها أسود وأبيض بخفة حتى يخرج إبراهيم. وبدأ يفكر في اللعبة القادمة للانتصار. وعندما خرج إبراهيم ظهر الحسناوي في الوسعة. وسأل إبراهيم بصوت مرتفع هل رأى العيساوي. فقال إبراهيم إنه لم يره. وقال أيضاً: يكون في المقهى.

قال الحسناوي:

- جئت منه.

وقال لعزوز أمامه:

- ماذا يريد من العيساوي؟ إنه يكرهه.

وقال عزوز:

- إنهم ينتظرون العياشي.

قال إبراهيم:

- أنا أعرف كل شيء. لن يأخذوا حتى خرية.

- خرية تطليها. العب واسكت.

بدأ اللعب. وكان الحسناوي قد انحدر من جديد في المنحنى وسط النباتات الشوكية. كان أيضاً شبه حافٍ. لا ينتعل سوى قطعتين جلديتين استهلكهما طول المشي. كان هو الآخر صياداً. لكن لم يكن يشتغل مع العياشي ولا يقوم بالرحلات الكبيرة داخل الأطلسي. كان يكتفي بنشر الشبكة عند الشاطئ فقط بواسطة قارب صغير. لم

يكن يخشى غرقاً أو هبوب عاصفة. كان فقيراً ومتزوجاً، وما يحصل عليه لا يقيم به أوده أو يسد رمقه. شيء قليل، لكنه كافٍ على الأقل لردّ الجوع.

عندما اختفى وراء المسجد واتجه نحو المنحنى لم يعد عزوز ولا إبراهيم يعيرانه اهتماماً. انشغلا فقط في التفكير في الضامة. في كيفية أكل الكلاب والسقوط في الواد أو تجاوز الواد للوصول إلى درجة الضامة. كان التنافس الحاد قد بدأ فوق رقعة اللوح. أما الحسناوي فعندما أصبح على مقربة من المقهى لم يرَ العيساوي. كذلك المعطي لم يكن هناك. كانت الكراسي - التي هي بشكل قطع خشبية مركّبة بسرعة وقديمة وعلى استعداد للتكسر لدى أول ضربة خفيفة - واقفة كالجذوع. مشى نحو الكراسي كالحيوان المتوحش المفترس. لم يكن غاضباً. وأيضاً، لم يكن مسروراً. أي لم يكن لديه أدنى انفعال. وعندما أصبح في مواجهة الباب مدّ عنقه، بحيث بقي جسده مندفعاً إلى الوراء. القهوة عامرة في الداخل. أشخاص لهم هيئة الصيادين وأشخاص آخرون لهم هيئة المسافرين الذين هم على عجل. وفجأة أطل المعطي من الباب الخلفي، وتبعه العيساوي. خرجا على الفور وسط ازدحام المقهى. جلس العيساوي على الحافة، لأن الكراسي قليلة. فهم أن الحسناوي يريده في شيء ليس خطيراً على الإطلاق.

قال المعطي:

- العيساوي. سأعود. لقد نسيت كأس الشاي والسبسي.

ظلَّ العيساوي صامتاً. وحين اقترب منه الحسناوي، قال:

- هل تريد شيئاً الحسناوي؟

- سمعت الخبر؟

- نعم.

- جئت فقط من أجله. هو شائع هناك فوق.

- أعرف ذلك. لكني لا أعتقد فيه.

- لماذا؟

لم يرد العيساوي أن يجيب. ظلّ ينظر بعيداً، وراء النباتات الخضراء على الدوام. غير أن الحسناوي كرر السؤال:

- لكنك لم تقل لماذا؟

- هكذا فقط.

- اذهب واسأل المعلم. إنه صديقه.

- حتى لو قال ذلك المعلم.

- اسأل المعطي.

- سألته. قال هو الآخر الشيء نفسه.

- إن العياشي سيعود؟

- نعم.

- ولم لا؟ يجب أن تثق. بعد ذلك سيشغلك وسيشغلنا. وأعتقد أيضاً أن الدية ضرورية.

قال العيساوي:

- ألا تزال تعتقد في الدية؟ تقاهة. إن الذي يعتقد في ذلك حمار له أذنان طويلتان.

خرج المعطي. انضم إلى الحسناوي والعيساوي. في يده كأس، فيها قليل من الشاي بالنعنع أسود. كان في اليد الأخرى سبسي، شقفه فارغ وملتصق في صعوبة برأسه. كان الشقف على وشك السقوط والانفصال عن رأس السبسي. ركز الحسناوي عينيه على الشقف وكذلك فعل العيساوي. كان المعطي قد أدرك الأمر فجلس على الكرسي الخشبي الواقف بصعوبة إلى جانب العيساوي. وضع الكأس شبه الفارغة. وقد ظهرت في وسطها أوراق النعنع التي

اسودّت. مدّ أظافره الوسخة، وألصق من جديد الشقف وثبته في رأس السبسي. جلس الحسناوي هو الآخر قبالتهما على الأرض ووسع رجليه. ثم رفع يده وأخذ يحك رأسه وجبهته. وقال إذ ذاك للمعطي بينما كان منشغلاً بتثبيت الشقف في رأس السبسي:

- المعطي! هل صحيح أن العياشي سيعود؟

- قلته للعيساوي فلم يصدق.

- وأنا أيضاً، إنه لا يريد أن يصدقني.

- لست أدري لماذا؟ المعلم يعرف جيداً العياشي. والمعلم لا يكذب. وقال أيضاً إنه شافه وقال له إنه لم يبع ولم يشترِ. وإن الرجل الذي هناك إنما هو مجرد وكيل.

فكّ العيساوي عن نفسه حصار الصمت:

- لنسلّم أنه سيعود. هل سيدفع الدية لأحد؟

قال المعطي بعد أن رفع رأسه وقد ثبّت الشقف جيداً:

- لا أعتقد أنه سيدفع شيئاً. ولكن المعلم قال إنه سيقيم زردة للجميع، وسيترحم فيها على الذين ماتوا.

عندما كانوا يتحدثون عن الدية في الخارج، كان الضجيج يأتي من داخل المقهى، ضجيج الذين هم في شكل صيادين وضجيج الذين هم في شكل مسافرين يتناولون الشاي الأخضر أو النبيذ خفية، وراء الباب الخلفي. بينما فوق، بين الأكواخ في مواجهة الجامع، كان قد اجتمع عدد من النساء وأربعة رجال وقفوا يتفرجون على طرح الضامة الدائر بين عزوز وإبراهيم. كانت أم عيساوي من بينهم جميعاً واقفة بصعوبة مثل شجرة عجوز، شجرة لم تنبت جذوعها جيداً في الأرض، لذلك لاحت كما لو كانت مائلة إلى جهة ما. كانت كفزّاع الطيور. وكان شعرها الذي يظهر من خلال ثقوب الفوطة المتسخة على رأسها، يشبه نباتات المنطقة في الكثافة والفوضى. إلا أن

النباتات كانت خضراء بينما شعرها أبيض وسخ، وأسود وسخ.
توقف إبراهيم عن دفع البيادق على اللوح، وهزّ رأسه، فلفت الانتباه من جديد إليه. توجّه بالخصوص إلى أم العيساوي:

- هل تثقين الآن أم لا؟

قال صوت غير واضح:

- إذا عاد العياشي فلا بد أن يدخل السجن.

وقال صوت آخر:

- ومن الذي يدخله؟ أنت أيها المقمل.

قالت أم العيساوي لإبراهيم الشلح:

- الآن لا يهم. يعود أو لا يعود. أنا ولدي مات اللّه يرحمه. ومات آخرون اللّه يرحمهم. ولم ننسَ شيئاً من هذا.

قال إبراهيم:

- تنسين أو لا تنسين. الأمر لم يعد يعني أحداً.

عاد من جديد إلى لوح الضامة. كان عزوز لا يهتم باللعب إطلاقاً. لأن سمعه كان مشغولاً بالتقاط الحوار الدائر فوق رأسه، رغم أنه ليس له في الأمر ناقة ولا جمل. ثم نفض يده من اللعب. وقال لإبراهيم: غلبت. وتنازل له عن الطرح. توجه مباشرة إلى أم العيساوي. وقف قبالتها منكبّاً إلى الأمام. في حين دخل إبراهيم إلى الحانوت. أخذ يتحاور مع طفل. ثم اختفى داخل الدكان المظلم. عاد بشيء ملفوف في ورقة صحيفة مكتوبة بالحروف اللاتينية.

قال عزوز:

- كنا نعتقد أن أم العيساوي ستموت مباشرة بعد غرق المركب.

قالت أم العيساوي:

- هل تريد أن تتشفى يا عزوز. أتريدني أن أموت؟

قال عزوز:

- حاشا. الموت بيد اللّه. ولكنك كنتِ متألمة وهذا ما أعنيه فقط، كنتِ متألمة إلى حدّ الموت.

أما تحت في باب المقهى، عندما خرج بعض الذين هم في شكل بحَّارة أو شكل مسافرين، كان يدور الحديث نفسه عن الموت والدية والعياشي والقائد. قال المعلم بصعوبة فائقة:

- إن العياشي لم يبع ولم يشترِ. انتظروا حتى ينادي عليكم القائد غداً أو بعد غدٍ.

قال العيساوي:

- لماذا ينادي علينا القائد؟

قال المعلم:

- هو الذي سيتولى القضية والبتّ فيها.

قال الحسناوي:

- إنه يعطيه الويسكي.

قال المعلم:

- اتقِ ربك. الويسكي حرام والقائد رجل محترم.

قال الحسناوي:

- هل تعرف الحلال من الحرام؟ إن أسنانك سقطت من جراء النبيذ.

قال المعلم:

- ليس هذا سوقك.

قال الحسناوي:

- أنت مول كل شيء.

قال المعلم:

- أنا مول كل شيء. أشرب البحر. وعندما ينادي عليكم القائد، لن يستطيع أحد منكم أن ينبس بكلمة.

في هذا الوقت بالذات، كان المعطي يختنق بسبب السعال الذي أمسك بخناقه ولم يسلمه حتى احمرّ ثم اصفرّ، ثم احمرّ ثم ازرقّ حتى كادت تزهق روحه.

وقف المعلم بصعوبة. كان شيخاً طاعناً في السن لا يطيق الشجار والخصومات والتنابز بالألفاظ. وقف بصعوبة وانسحب داخل القهوة. وعندما استعاد قوّته، قال للحسناوي:

- لماذا تتشاجر من أجل لا شيء؟ الكلام وحده لا ينفع.

قال العيساوي خارجاً عن صمته:

- النساء هن اللائي يتخاصمن.

فتح المطوي وطقطق بإصبعه على شقف السبسي وملأه بالكيف. ثم أخذ يدكّ الكيف بظفره الذي يشبه ظِلف الثور. وعندما امتلأ الشقف عن آخره، حكّ عود ثقاب على رجل الطاولة وأشعل السبسي. أخذ يتنشق الكيف بصعوبة، كأنما كان يريد الوصول بسرعة إلى مرحلة اللاوعي حتى لا يستمر في التفكير في مثل هذه الأشياء.

قال للحسناوي:

- خُذ ودخّن.

لم يرد الحسناوي أن يدخن. لكنه هزّ يده وانسحب، غير أن العيساوي مدّ للمعطي السبسي فتناوله ووضع فمه على فمه. قال الحسناوي بغضب:

- أنت تستمر في التدخين مع المعطي من نفس السبسي ولا تعرف أن رئته مثقوبة. ستصاب بالسل، وهذه الدجاجة العواقة ستقتلك.

قال المعطي:

- إنك لا تعرف ما تقول، الحسناوي. ماذا فعلت لك؟ لست

دجاجة عواقة ولا أي شيء. اذهب وتشاجر معه. إنه داخل المقهى. أنا لست سوى متعلم.

لم يسمع الحسناوي هذا الكلام كله، لأنه كان قد انحدر إلى قلب الطريق. ثم ما لبث أن غاب وسط الأشجار القصيرة الكثيفة باتجاه البحر. بينما بقي العيساوي والمعطي يتبادلان السبسي تلو السبسي. ثم خرج المعلم. قال العيساوي:

- أين ذهب ذلك المعتوه؟ إنه يعتقد في نفسه أنه رب الدنيا.

ثم أضاف:

- سيتحقق كلامي. وسترون فيما بعد إذا كنت أكذب. غداً أو بعد غد ينادي القائد عليكم ومن لم يرد أن يستقيم عرف كيف يقوّمه. من يستطيع أن يقول شيئاً أمام القائد؟

كان العيساوي ساكتاً. وكان مستمراً في تدخين الكيف. وعندما شعر أن رأسه ثقل عليه، وأن الأشجار بدأت تزداد خضرة والبحر زرقة والسماء انخفاضاً. وقف متهالكاً وصعد إلى المرتفع ليقول كل شيء لأمه. ليقول لها إن القائد سيدفع لهم الدية وإن العياشي لم يختفِ وإن القائد شخص في المنطقة وإن المعلم يعرف كل شيء وإن المعطي ليس سوى متعلم وإن الحسناوي ذهب جهة البحر وإن السماء ازدادت انخفاضاً والبحر زرقة. . وإنه دخن كثيراً من الكيف مع المعطي وإن المعطي كان يختنق لأن رئته مثقوبة.

وعندما أبصرهم متجمعين أمام الدكان، سار نحوهم كالخنزير الوحشي. جرّ أمه من شرواطها نحو الكوخ. بدأ الآخرون ينسحبون من الوسعة. بقي إبراهيم وحده يطلّ برأسه على الوسعة الفارغة في انتظار زبون جديد. كانت الزجاجات الفارغة من ماء جافيل مصطفة فوق رأسه قرب باكيتات الصابون. وكان صراخ الأطفال لا يزال ينبعث من الجامع مردداً آية من القرآن، لأن كل الآيات والسُّوَر

كانت تُقرأ دفعة واحدة. تعسر على إبراهيم أن يسمع ما يقرأون لاختلاط الأصوات وارتفاعها في وقت واحد. ربما كان الأطفال يقرأون ويصيحون فقط للتخلص من عصا الفقيه الدرقاوي. يفتحون أفواههم صارخين مصطنعين الحفظ والقراءة.

عندما أصبح العيساوي وأمه داخل الكوخ المنخفض، بدآ يتحدثان عن عودة العياشي وعن الدية. فرح العيساوي وبكت أمه طويلاً لأنها تذكرت ولدها الغريق.

في الطريق السفلي صباح اليوم التالي، توقفت تحت القهوة شاحنة زيتية اللون، خرج منها شخصان بعد أن سكت المحرك. توجه الشخصان إلى القهوة. دخلا وطلبا من المعلم كأسي شاي. كانا مبعوثين من القائد: الشيخ وأحد مساعدي القائد الذي يقوم بسياقة الشاحنة. نظر الشيخ في وجه المساعد وهو يقول:

- نأخذ بعضهم إذا لم نجدهم جميعاً.

قال المساعد:

- طلب القائد خمسة فقط فلان وعلان وفرتلان.

نظر الشيخ إلى المعلم:

- القائد يطلبهم في قضية المركب الغريق. هم ولا شكّ يطلبون أموالاً وتعويضاً.

قال المساعد:

- لن يستطيعوا أن يقولوا شيئاً أمام القائد. هل يستطيع أحد أن يفتح فمه أمامه؟

قال المعلم:

- لقد نسوا الحكاية. لكنهم يستبعدون أن يعود العياشي. اعتقدوا أنه فرّ بجلده ولا أدري لماذا؟

وعندما أنهى الشيخ والمساعد كأسيهما غادرا المقهى وسارا في المرتفع إلى فوق. وعندما وقف المساعد أمام دكان إبراهيم تكلف الشيخ بجمع خمسة أشخاص: الحسناوي والعيساوي وأمه وحادة وعزوز. وقال عزوز إنه لا ناقة له ولا جمل في القضية. لكن الشيخ نظر في وجهه وقال:

- أنت عجوز شارِف. ستذهب معنا نيابة عن الآخرين.

قال عزوز:

- لكن لا ناقة لي ولا جمل. خذوا إبراهيم أو الدرقاوي. إنهما يعرفان كيف يتحدثان مع القائد.

قال الشيخ:

- قلت كلمتي ويجب تنفيذها. تعال معنا. فالشاحنة قرب المقهى، في الطريق السفلية. ستذهب معنا. إن القائد يريد خمسة. ها أنتم الآن خمسة.

ثم انحدر السبعة في المنحنى. كان عزوز يتلكأ في مشيته، وأحياناً كانت تغلبه الطريق فيتشبث بعصاه بالأرض. ويتفادى محاولة السقوط على أنفه أو وجهه. وعندما أصبحوا أمام القهوة، لم يكن هناك أحد من الزبائن. حتى المعطي كان مختفياً داخل القهوة مشغولاً بتنظيف الكؤوس وتنشيفها وترتيبها فوق المرفع الخشبي. وفي الباب الخلفي أيضاً، كان المعلم بيوض يفرغ زجاجة نبيذ في جوفه. وعندما احمرّ وجهه، وشعر بنشوة غير عادية، غادر الباب الخلفي وخرج ليرى السيارة بعد أن سمع محركها وهي تغادر الطريق نحو القيادة. وشعر برغبة في الضحك عندما رأى الخمسة مكومين في الشاحنة داخل شراوطهم. ثم عاد إلى الداخل وقال للمعطي:

- لقد أخذوهم إلى القائد. هل تعرف ماذا سيفعل بهم؟

قال المعطي:

- لا أعرف بالضبط. ولكنه ربما أعطاهم المال من غير شكّ. سيعوضهم عن موتاهم.

قال المعلم:

- لن يعوضهم عن شيء. أعرف القائد وأعرف العياشي. سيملأ أفواههم ببضعة قروش حتى لا يتكلموا.

- إنهم لا يطلبون أكثر.

- لقد كانوا في السابق يطلبون الكثير. الآن يعرف القائد كيف يهددهم إذا لم يستلينوا.

قال المعطي:

- من أين يأتيهم العياشي بهذا المال كله؟

قال المعلم:

- ماله كثير وخيره وفير. ولكن من غير الممكن أن يدفع كل هذا المال من أجل ثقب في المركب ربما لم يحدثه بيده.

ثم توقف حديثهما لينشغلا بالزبائن القلائل. وعندما عادت سيارة القيادة بعد الظهر تجمّع عدد كبير من سكان المهدية. ثم فتح الحوار:

الفقيه الدرقاوي:

- لماذا لم يدفع القائد لكم شيئاً؟

عزوز: - أنا المكلف بهذا الأمر.

كلهم: - نعم، تحدث.

عزوز: - المركب لم يحطمه العياشي بنفسه. فاللّه وحده أراد له ذلك.

إبراهيم: - هناك قوانين إلهية وهناك قوانين بشرية.

كلهم: - لا نفهم هذا الكلام.

قال عزوز لإبراهيم:

- الأفضل أن تغلق فمك، فهم لا يفهمون كلامك. سيقيم العياشي زردة كبرى، تأكلون فيها اللحم وتأخذون لأبنائكم في قَبِّ جلاليبكم وعُبِّ دفائنكن.

بعضهم: - نحن موافقون.

ثم ينصرفون وقد ظلت وسعة قرية المهدية فارغة، خالية إلا من التراب. كانت أصوات الصغار في الجامع قد خفتت. وارتفعت مئذنة المسجد لامعة تحت وطأة شمس غربية. كان باب دكان إبراهيم مفتوحاً ينتظر الزبائن. لم يكن هناك أحد غيره في مواجهة الساحة.

بعد أن كان الجميع ينتظرون دية أصبحوا ينتظرون زردة يأكلون فيها حتى يشبعوا. ثم يأخذون لأبنائهم اللحم في العب والقب.

كما كان غرق المركب غير متوقع، وغياب وعودة العياشي غير متوقعين، كذلك لم تكن الزردة في حساب أحد، خصوصاً أن المهدية لم تشهد حفلاً منذ وقت ليس بقصير. لذلك جاءت الفرحة وقد خفّت آلام الموت. وبدا لبعضهم أن الفرح ضروري بعد عتمة للنفس استمرت طويلاً.

قالوا:

- سيبدل اللّه حالاً بحال. لماذا نغرق النفس في هذا الألم وقد وهبنا اللّه قدرة على تخطي الآلام.

- هذا معقول. إن ما نفعله هو تكليف للنفس، واللّه لا يكلف نفساً إلا وسعها.

- إذا كتب أمراً فلا مرد له. لا أحد يستطيع الوقوف في وجه قدرته.

- نقيم زردة وننسى ما فات. هل رأيتم ميتاً وقف يوماً من قبره وعادت إليه الحياة؟

- نعم. خربوعة. قبل أربع سنوات كنّا قد دفناها فسمعنا صياحها فهببنا لإنقاذها. وجدناها حية لكنها لا تعي شيئاً.

- نتفق أولاً على مراسيم الحفلة. لتكن الزردة سخونة لا باردة.

- لتكن كما تشاؤون. أنا أقترح عزوز والحسناوي والمعلم بيوض ليتكفلوا بها.

انسحب إبراهيم وخلّفهم متجمعين. جرّ خطواته المتعبة وقد أثقلها نعلان قديمان. وعندما بلغ الدكان، توقف برهة وجيزة، وتنفس هواء آخر غير الهواء الذي يشمه طوال الأيام الأخيرة. ومع هبوب ريح بحرية خفيفة منعشة، شعر كأنه يسبح في ماء بارد، ذات يوم حار. تمطط في الهواء ثم طوى قامته وانحنى، فدخل إلى الدكان. وبعد أن ألقى نظرة تائهة وسط الحانوت الذي تلتمع فيه الزجاجات الفارغة، جلس على البرميل، وهو يفكر في لا شيء تقريباً. وتصور القائد يقول بلهجته القوية: «الآن ستنهون كل شيء. ومن سوّلت له نفسه أن يذهب إلى الرباط من أجل الشكاية فإنه لن يلوم إلا نفسه».

وعندما كان رأسه يموج بتساؤلات، سمع صوتاً من الخلف، صوت ارتطام الزجاجات الفارغة. حرّك رأسه المستدير قليلاً، بحيث ظهرت خطوط عريضة من الألياف واللحم على عنقه. ولمّا لم يرَ شيئاً يثير هذا الارتطام التَفَتَ من جديد ليستأنف تفكيره. كانت الجماعة لا تزال أيديها ترتفع وتنخفض وإبراهيم يرى الأفواه تتكلم بسرعة. لم يكن يسمع شيئاً على الإطلاق. كانت المجموعة تتكوم على نفسها. تنفصل أحياناً. يذهب بعضها إلى مكان غير محدد ليعود من جديد أو لا يعود. أصاب إبراهيم شعور قوي بالوحدة والانعزال

عنهم. لم يكن منهم في يوم من الأيام، انتابه شعور ذلك المسافر الغريب، انزوى وحيداً. لم يفقد أحداً في المركب، وهو لا يهمه في قليل أو كثير إقامة زردة أو إقامة مأتم. أدلى هو الآخر بكلمة أو رأي ثم انسحب.

ظلّ إبراهيم ينظر إليهم، بعض الأفكار الطارئة تقفز في رأسه. رأى شخصاً ينفصل عن المجموعة ويتوجه نحوه، شخصاً حافي القدمين. ثم سمع إبراهيم ارتطام الزجاجات الفارغة وراءه من جديد. أدار رأسه. ظهرت الألياف والعضلات على عنقه. ظلّ يحدّق في الزجاجات الفارغة، سمع خشخشة خلف باكيتات الصابون. ثم توجّه إلى المكان فلمح جرذاً كبيراً. كان أقبح شيء عند إبراهيم أن يرى الجرذان. إنها تفسد كل شيء يقف في طريقها: تثقب الكاغيد وتتبرز في الدقيق، وتعبث بالجبن - إذا وُجد جبن - وأحياناً أخرى تتبرز في كيس الشاي، فيضطر إبراهيم عندما يريد أن يزن كمية قليلة منه أن ينظفه أمام الزبون، فيرفضه الزبون ويهدده بأنه سيشتري «شايه» هذه المرة من السوق يوم الاثنين. وغالباً ما يفعل ذلك الزبون إذا كان عنيداً.

وقف إبراهيم بحذر، كقط يحتال على الفأر. ارتمى بسرعة وخفة على باكيت الصابون البودرة. قفز الجرذ إلى الأرض. لكن إبراهيم أدرك جثته الغليظة بنعله. وضع قدمه على رأسه. ترك ذيله يتحرك في الفراغ. تنفس بعمق وانتصار. شعر أيضاً أن الجرذ له قوة خارقة تحت قدمه. قوة إنسان أو أكثر. انتابه الفزع فضغط بقدمه على رأس الجرذ. رأى الدم يخرج من تحت نعله. سمع على إثر ذلك زعيقاً فزاد من حدّة الضغط. كفّ ذيل الجرذ عن التحرك في الفراغ. شعر إبراهيم أن الجرذ قد همد، وأنَّ دبيباً يسري في جسده، كما لو كان طفلاً يحتضر ببطء. ثم انحنى وأمسك الجرذ من ذيله ورفعه في

الهواء متقززاً. طوّح به خارج الحانوت دون أن يعير اهتماماً للشخص الواقف في باب الحانوت.

قال الرجل:

- كدت تلقيه على وجهي.

ردَّ إبراهيم وهو لا ينظر إلى وجهه بل إلى الجرذ المُلقى على بُعد أمتار من الباب:

- إن لي عينين في رأسي. هل تخاف من الفئران؟ أفترض أنك لست امرأة.

قال الرجل:

- كنت ستلطخ وجهي بالدم.

- وجهك أسود لا تظهر عليه حمرة الدم.

- هل تتهكم عليّ يا وجه الحبس؟

سكت إبراهيم ولم يردّ عليه. فتح الرجل فمه دون أن يبدو عليه أدنى تأثر:

- هل تعتقد؟

لم يعرف ماذا يقول. نظر إبراهيم إلى الجرذ الذي تلوث جسده بالتراب. لم يعد يميز الدم الذي لطّخ جلده قبل لحظة. ثم قال للرجل:

- إنها تتبرز في الدقيق الذي تأكلون وتبعر في الشاي الذي تشربون.

قال الرجل:

- أنا لا أشرب شايك ولا آكل دقيقك. هم الذين يفكرون في شراء كل أكياسك لإقامة زردة.

- لن يدفعوا شيئاً. العياشي وحده هو الذي سيدفع ثمن الزردة.

- هل تعتقد أن العياشي سيتنازل ويأتي لسيادتك يشتري منك أكياس الدقيق وباكيتات الملح والشاي؟

- اذهب وقُل له ألا يشتري من عندي. لدي جرذان وبراز في الدقيق والشاي.

جاء طفل صغير في يده زجاجة فارغة. تحدث إلى إبراهيم. تناول هذا الأخير الزجاجة الفارغة من الطفل. زجاجة مملوءة في السابق بماء جافيل. خشي إبراهيم أن يكون أثر هذا السائل لا يزال بالزجاجة. قرّبها من أنفه وتشممها. رائحة الزيت طاغية. وضع الزجاجة أمامه. أدخل في فمها دوازاً أسود من كثرة الاستعمال. وقف قبل أن يكيل مقداراً بسيطاً من الزيت بواسطة مكيال صغير. قال للطفل أن يناوله الثلاثة ريال. فعل الصبي وقال إبراهيم:

- ما عندكم غير هذه الزجاجة؟

قال الصبي:

- صافي.

قال إبراهيم:

- قُلْ لأمك أن تطبخ طعامها هذه المرة بماء جافيل.

- نعم.

ثم وضع إبراهيم الزيت في المكيال. صبّه في الدواز. وعلقت في نهاية الزجاجة قطرات من الزيت، مقدار ثلاثة ريالات.

بعد أن انصرف الصبي، غادر إبراهيم الحانوت. كان الرجل قد انصرف. وتوجه إبراهيم نحو مجموعة عادت للساحة. آثار الجرذ لا تزال مرسومة على التراب وقد تبلل بعض التراب من جرّاء الدم. وعندما رآه الحسناوي قال:

- ما رأيك؟ الزردة ستقام غداً.

- قُلْ النعي ولا تقل الزردة.

- إبراهيم أنت متشائم. نسينا الحادث. لماذا تعود من جديد إليه؟

قال إبراهيم:

- لن أفعل بعد الآن. كم أنا فضولي!

تدخلت حادة في الحديث بعد أن استرقت السمع إليهما:

- القائد قال كلمته. نغتنم الفرصة. قليل خير من لا شيء.

قال إبراهيم:

- كيف ستتم الزردة إذن؟

قال الحسناوي:

- سيأتون بالشيخات، وستقام زردة للجميع.

قال إبراهيم:

- هذا جيد.

عندما قال ذلك، رأى امرأة تقف أمام الدكان فأسرع إليها ليناولها ما تريد. كانت حسنة زوجة الساحلي التي لا يهمها شيء مما يدور في القرية. زوجها الساحلي لا يهمه شيء من ذلك ولا يجتمع بأحد. فهو ليس صياداً. كان حطّاباً لحساب غيره. عندما اقترب منها إبراهيم، قالت:

- هل أصبحوا أغنياء؟

قال إبراهيم:

- إن من يطمع في الميت لا يقبضْ إلا التراب.

قالت حسنة:

- كل شيء بيد اللّه. قال لي الساحلي أمس إنهم سيقيمون زردة.

قال إبراهيم:

- ذلك شغلهم. لم يمت لك أحد.

قالت حسنة:

- اللّه يحفظني.

- إذن اسكتي وقولي ماذا تريدين؟

- سكراً ودقيقاً.

ناولها السكر والدقيق فمضت إلى كوخها. نادت عليها أم العيساوي، لكنها لم تسمعها. أو، ربما سمعتها ولم تعرها اهتماماً. ثم خرج إبراهيم من الحانوت. توجه نحو الحسناوي الذي انفصل عن الجماعة التي قلّ عددها. كان الحسناوي ينظر جهة الجامع الذي توجه نحوه الدرقاوي، بينما علب القصدير الملصقة على المئذنة تلمع بفعل أشعة الشمس.

لمّا بلغ إبراهيم المكان الذي يقف فيه الحسناوي، قال بصوت خفيض:

- ما الذي توصلتم إليه إذن؟

- لا شيء. نحن ننتظر الأمر من صاحب الأمر.

- العياشي تقصد؟

- نعم.

- ماذا سيفعل لكم العياشي؟

- يقرّر ثمن ما يدفعه لإقامة الحفل.

- اذهبوا عند المعلم بيوض.

- لقد نزل العيساوي إليه. وسيسأله عن العياشي. لأن هذا الأخير لا يفتح قلبه إلا للمعلم، وهو الذي يتصل به.

قال إبراهيم عندما تدخلت أم العيساوي:

- لقد ذهب ابنك في البحر. وها قد نسيته. سترضين ولا شكّ بالقدر المالي الذي سيقدمه لك العياشي؟

قالت أم العيساوي:

- رحمة اللّه عليه. كلنا لها. ترك مكانه فارغاً وسيملأه غيره. هذا قضاؤه وأنت ماشي شغلك.

لكن إبراهيم لم يسمع هذه الكلمات، بل انشغل بالاستماع إلى الحسناوي في الوقت الذي تتكلم فيه أم العيساوي. بدا كما لو أنه يستفزهم جميعاً.

انسحبت أم العيساوي عندما لم يهتم بكلامها. استفزها ذلك. جلست على التراب، بعيداً. ثم ظهر العيساوي في رأس المنحدر، بين النباتات.

قال إبراهيم للحسناوي:

- لا بدّ أن عنده خبراً جديداً.

قال الحسناوي:

- عاد بسرعة.

توقفا عن الحديث. بدت شفتا العيساوي متشققتين بشكل دائري. كان فمه يبدو مثل إست أتان، عليه بقايا من الروث.

قال الحسناوي:

- هل وجدت المعلم؟

- نعم. ولقد جاء العياشي أخيراً.

نظر الثلاثة في وجوه بعضهم باندهاش. وقفت أم العيساوي، ثم انحنت كما لو أنها تريد أن تلتقط شيئاً من التراب. وقفت من جديد. انضمت إلى الثلاثة الذين انضمّ إليهم آخرون. قال العيساوي:

- لقد تكلف المعلم بيوض بإقامة الزردة. ستقام صدقة للجامع، وستجلب شيخات من بني حسن. كما أن ما نتقاضاه عن الموتى، سيدفعه لنا القائد بنفسه في الشهر القادم.

قال الحسناوي:

- من قال لك هذا الكلام؟

- المعلم بيوض. كان عنده العياشي بنفسه. رأيت آثار عجلات السيارة في التراب أمام المقهى. أراني المعطي ذلك لأني لم أصدق.

قال إبراهيم:

- أعتقد أن المهم هو أن يقدم لكم تعويضاً. أنتم لا تملكون قيراطاً.

انتفخ أنف العيساوي، برز بتضخم على صفحة وجهه. انتابه خاطر تأويل ما يريد إبراهيم قوله. تدخّل الحسناوي:

- هذا شيء كُلف به القائد. من كان يعتقد أن أحداً سيأخذ تعويضاً بعد التهديدات التي سمعناها. إن التعويض على ما أعتقد الآن مضمون.

قالت أم العيساوي:

- الروح عزيزة عند اللّه، لا يمكن أن تذهب هباء.

انبسطت أسارير أم العيساوي وقالت:

- كل ما أطلبه، وسأقوله لبيوض هو أن يجد العياشي لابني عملاً. لكن ليس في البحر.

قال الحسناوي:

- قبر الميت في البر يزار، أما في البحر فلا يمكن. قبر الميت في البر يسقى أما في البحر فلا يمكن.

ادلهم وجه أم العيساوي. قالت بنبرة فيها بكاء:

- إيه يا ابني، لا قبر يُسقى ولا قبر يزار.

وقال إبراهيم:

- كُفّي عن البكاء. لقد حم القضاء يا امرأة، ادعي لابنك بالرحمة والمغفرة.

تهالكت أم العيساوي من جديد على الأرض. وسَّعت قدميها، حتى لعب الثوب القذر بين فخذيها العجوزين المستهلكين. قال العيساوي من خلال أنفه الغليظ:

- قومي واذهبي إلى بيتك.

وقفت أمه بتهالك صعب وعناء شديد. مشت حافية نحو كوخها. مرّت بالقرب من الجامع. لم ترَ الدرقاوي الواقف بالباب. كان يمدّ قدمه النظيفة من كثرة الوضوء عارية فوق البُلغة الصفراء الجديدة. لا شكّ أن تفكيره يحوم حول الزردة التي ستقام للجامع. وعندما رأى أم العيساوي تختفي، قال في نفسه: «وما من دابة على الأرض إلا وعلى اللّه رزقها». ظلّ واقفاً معرضاً جسمه النحيل للهواء الخفيف والشمس الجانحة قليلاً في خطٍّ مائل. ظلّ في وضعه لحظات قليلة. ثم دخل الجامع ليختفي بصفة نهائية، بين الصبيان.

أصبحت الجماعة قليلة في الوسعة أمام دكان إبراهيم وقد انضم إليها بعض الأطفال الذين شُغلوا بالاستماع إلى حديث الكبار، حديث الزردة الذي أصبح متداولاً يُغري كل من يستمع إليه. تحلبت أفواه الذين يشربون، وحلموا بصناديق من الخمر الرخيص، وتفتحت شهية من لم يأكل لحماً طوال أشهر، بينما فرح الأطفال ناقصو التغذية، وصوّر لهم خيالهم قصعة من ثريد أو كسكسي فوقه رأس غنم مبخّر بأكمله.

بدا لإبراهيم كأن الأمر لا يعنيه في شيء. لن يبيع ولن يشتري، مهما يكن فمن حظه الطعام اللذيذ. وقال بصوت مسموع للعيساوي:

- ضعوا شروطكم للزردة. اجلبوا طبّاخات. ليكن النعي في مستوى الألم.

قال العيساوي:

- هذا أمرنا. من ضيّع ميتاً أو أكل رزقه فعين اللّه تشوف. إذا لم يفعل العياشي واجبه فاللّه سوف يحاسبه.

ثم التفت إبراهيم جهة الحانوت. وقال للعيساوي من جديد:

- اذهب وأكِّد على المعلم بيوض.

قال العيساوي:

- ذلك ما سأفعل.

وقال الحسناوي:

- ذلك ما سنفعل الآن.

ثم نزل الاثنان إلى المقهى. اختفيا وسط النباتات والحشائش الكثيفة الخضراء. تفرّق الصغار في الساحة. طاردوا بعضهم بعضاً، فأثاروا ضجيجاً وغباراً في المكان. لم يخفهم في هذه اللحظة أي شخص، لا الدرقاوي ولا إبراهيم ولا حادة ولا أياً كان. شعروا بواسطة حاسة خاصة، أن الجميع مشرفون على فرح وعيد. لذلك استمروا في المشاغبة والفوضى. وحلّق بهم خيالهم إلى بعيد، فاقترح أحدهم أن يقوموا بدورة جهنمية حول حانوت إبراهيم.. عرجوا على الجامع حيث صياح أطفال آخرين داخله، يتلون القرآن بأصوات ترتفع وتنخفض، لا يستطيع الإنسان أن يُميز بين آية وأخرى. ثم اصطفوا بشكل قطار. قلّد أولهم بفمه صوت المحرك، ومشوا مسرعين، منحدرين وسط النباتات الكثيفة الخضراء.

خاتمة

في الساعة الرابعة والنصف بعد منتصف الليل خمد كل شيء في المهدية. انتشرت بعض الأكواخ وهبّت ريح خفيفة باردة نوعاً ما. ارتفعت أيضاً أصوات بعض الحشرات التي لا يعرف أحد اسمها. زقزقت بعض الطيور لتسكت على الفور مستكملة نومها. ظهرت القهوة منعزلة، شبيهة بمعتقل سياسي، أو معتقل حربي لم يعد صالحاً للاستعمال. الباب الخشبي الكبير يبدو مهترئاً، لا يستطيع أن يقف في وجه ضربة قدم ضعيفة.

في هذه الساعة بالذات كان خلف القهوة مخموران لا يزالان يتحدثان. صمتا بصفة نهائية ليتكئ أحدهما على قدم الآخر بانتظار شروق الشمس.

لقد انتهت الزردة الآن. وزّع الكسكسي وطعم من طعم. أكل الصغار والكبار. أدخل المهدويون اللحم في بطونهم وأعبابهم وأقبابهم. خبأ بعضهم جزءاً من اللحم لمن لم يستطيعوا الحضور. اجتمع الشبان تلك الليلة في القهوة. وبدِّلت كؤوس الشاي بكؤوس الخمر. تحوّلت براريد الشاي إلى براريد خمر. وبما أن الليلة ليلة نعي فقد غنت الشيخة أغنيتين ثم مُنعت من الغناء، وقيل إن هذا لا يليق بمناسبة مأتمية. وقيل أيضاً، لقد مرّ وقت ليس بيسير على الغرق فما على الشيخة إلا أن تغني حتى الصباح. لكن الرأي الأول

انتصر. بعدها ارتفعت عقيرة بعض حفظة القرآن، وتفننوا في التلاوة والإنشاد. وكذلك قُرئت بعض القصائد في الأمداح النبوية. لكن بعضهم لم يستسغ هذا الجو، فوشوشوا في الآذان وانسحبوا الواحد تلو الآخر. خرجوا جهة القهوة. سكروا وضحكوا وعربدوا. خطرت لبعضهم أفكار جهنمية. اقتُرح جلب المومسات، ورفض الاقتراح لأن الظرف لا يلائم. فالمناسبة لا تسمح بذلك على مرأى ومسمع، خصوصاً وأن الأمر يتعلق بموت. وهكذا تمّ الاكتفاء بالشرب في القهوة أو بين الأشجار الكثيفة بعيداً من الأنظار. وعندما حلّت الساعة الرابعة والنصف كان كل شيء قد خمد. ليس هناك من صوت أو نأمة سوى بعض الحركات أو الأصوات التي تأتيها حشرة أو حيوان، أو عواء كلب أو كلبة لم يدركها النوم هذه الليلة لكثرة الغادين والرائحين، وهي لا تزال تترقب أدنى حركة لتنبح من جديد. كان كل شيء الآن يغطُّ في النوم. لكن الرجلين اللذين اتكآ على بعضهما في تعب قرب القهوة استيقظا من جديد، وحاول كلٍ واحد منهما أن يتفحص وجه الآخر. وقال أحدهما الذي تجشأ رائحة كريهة هي مزيج من الخمرة الرديئة والكسكسي والقرع والحِمَّص:

- ترى كم سيأخذ كل واحد منهم دية؟

قال الآخر وقد مرّ بظهر كفه على شفتيه:

- لا أدري. ولكن أعتقد أن الأمر سيطويه النسيان.

- هل تعتقد ذلك حقاً؟

- لم لا؟

- إن العياشي رجل كريم. سترى كم سيدفع لهم.

- لن يدفع لهم شيئاً. لقد أكلوا وشربوا وتصالحوا. ثم إن القائد إلى جانبه.

- لقد وعدهم القائد بالدفع.

- لا تثق بذلك الكلام. فهو يعرف مسبقاً أنهم مجرد أكباش.

- مهما يكن فنحن لسنا من المهدية. لقد أكلنا وشربنا ولم يغرق لنا مركب.

ثم أرخى أحدهما رأسه إلى الخلف. تمدد فوق النباتات القصيرة المنتشرة في المكان. لم يكن الجو بارداً، وكان الصمت مهيمناً على المنطقة في تلك اللحظة. وسرعان ما أغمض الرجل عينيه. فعل رفيقه الشيء نفسه. وسمع نباح كلب بعيد، وشيء شبيه بمحرك سيارة قديم، لكن هذا الصوت نفسه اختفى. ثم ارتفع شخير عالٍ، وارتفع شخير آخر بالقرب منه.

الأفعى والبحر

1979

الإهداء

إلى: أ. صامد

1

كان سليمان قد وصل المدينة الصغيرة التي توجد قرب البحر أول أمس. وبما أن الحرارة شديدة وقوية في الدار البيضاء، فقد أثر ذلك عليه وجعله عصبياً لا يطيق العالم من حوله. لذلك نصحه أبوه بأن يذهب إلى هناك، حيث البحر على الأقل يستطيع أن يعطي الشعور بالانشراح وعفوية الحياة وبساطتها. وقال له إنه سيجد في انتظاره خالته حليمة، وسيرتاح من هذا الضجيج الذي حوله، ولن يرى أناساً لا يرغب في رؤيتهم يطلون عليه كل وقت بسحناتهم القبيحة والفضولية، وقد استطاع أبوه أن يوفر له على الأقل ثلاثة بيوت هي ثمرة عمله وجهده الشاق كسائق في الشركة الوطنية للنقل. مرت أربعون سنة ولم يكن سليمان يشبه أختيه في شيء. فقد كانتا عاديتين إلى حدٍّ بعيد. لذلك كانت نهايتهما طبيعية جداً. فقد تزوجتا وأنجبتا واهتمتا بأبيهما أما والدتهما المرحومة فقد توفيت دون أن يريانها، ومع ذلك فهما تتمنيان لو أنها لا تزال على قيد الحياة لاهتمتا بها أكثر.

وصل سليمان أول أمس، وارتاح جيداً للمكان الذي اختاره له أبوه. حتى تمنى لو يسكن فيه هو وأبوه بصفة نهائية بعيداً من تلك الضوضاء القبيحة والمثيرة للعصاب. وسأل خالته أول الأمر:

- أما زال يسكن نفس الجيران هنا؟

قالت الخالة: لا شيء تغير. هل تعتقد أن سنة كافية لتغيير كل شيء في مكان يرتبط به الناس أشد الارتباط. وأما تلك البيوتات الصغيرة والأكواخ فهي كما هي. لم يحدث ولن يحدث أي تغيير هنا. الناس بسطاء والبحر جميل. انظر البحر هل تراه؟

وأطل سليمان من النافذة، ووقف ذاهلاً متأملاً دون أن يتمكن من معرفة أي شيء يفكر فيه. وقالت خالته مرة ثانية:

- كان عليك أن تسافر قبل أن ينصحك والدك بذلك. لقد قضيت سنة طويلة في الدراسة. وذلك شيء متعب حقاً.

- أعرف. لكني لا أحب الحركة وإنما السكون.

وأضاف سليمان: لقد كتبت يا خالتي لثريا حتى تقضي معنا هنا أياماً. إنها الفتاة الوحيدة التي أرتاح لها. أما الأخريات فهن تافهات إلى حدٍّ يبعث على الجنون. ثم إنها رفيقتي في الجامعة. وهي على قدر كبير من الثقافة. باختصار: إنها تفهمني كثيراً.

قالت خالته: ذلك أحسن. رجل بلا امرأة شيء صعب. وامرأة بلا رجل شيء صعب. سأجد مع من أتحدث على الأقل؟ إنك تقضي وقتك كله كما أعرفك في مطالعة الكتب والنظر إلى البعيد، حتى أني أعتقد أنك أحياناً ستفقد عقلك.

- ألا تجدين أن ذلك مريح بالنسبة إليّ وإليك على الأقل؟

وطلب إلى خالته أن تذهب وتهتم بشؤونها في المطبخ لأن به جوعاً فائقاً. ثم أغلق عليه الغرفة، وتمدد فوق السرير وشعر براحة فائقة، وبدبيب خفيف يسري في جسمه. ثم أخذ يفكر في ثريا، ويستعرض طريقتها في الحديث، وملامح وجهها، وتحركات حاجبيها أثناء الانفعال. ولم يكن سليمان يهتم إلا بخصائص قليلة في المرأة تميزها. وكانت ثريا من ذلك النوع من النساء الذي يثير اهتمام شخص مثله. لأنه صعب وغير مفهوم إطلاقاً من طرف نوعية

خاصة من النساء. إنهن ينظرن إليه إما كأب صغير أو ابن كبير لهن. ولم يكن هو يحب ذلك. أما ثريا فيشعر أنها لا تعتبره هذا أو ذاك وإنما تلائمه، ولا تشبه الأخريات. ولعل ما شدّه إليها، انطواؤها على نفسها وعزوفها عن الناس والعالم، واهتمامها فقط بالكتب، الشيء الذي يجعلها تقترب من اهتماماته الخاصة. لكن هو، كان يحب السكون الكامل والخلود إلى الهدوء والانطواء. وكانت ثريا تقول له باستمرار:

- أتمنى أن نعيش معاً منعزلين في قرية صغيرة على جبل دون أن ننجب. نتأمل الطبيعة ونقرأ الكتب.

- ونفعل الحب. لكن هناك الملل.

- سنحاول أن نطرده بالقراءات الكثيرة وبالمناقشة.

- ذلك شيء حسن، لكننا لا يمكن أن نحققه. نحن في حاجة إلى مال.

- الأمر سهل. سنشتغل أربع أو خمس سنوات وندّخر لذاك اليوم العظيم.

ثم أخذ سليمان يضحك من أفكارها، في حين كانت تنظر هي إلى الأمر بجدية، وقالت له وقد تقوس حاجباها وبدت عيناها حالمتين:

- إنني لا أمزح. اسمع يا سليمان: أنت تمزح كثيراً حتى أثناء مواجهتك لأمور جدية.

وقال سليمان:

- في الواقع أنا لا أدري. لا أدري أي شيء على الإطلاق.

وسمع خالته تناديه بعد مرور وقت قليل. فقد سلقت له بيضتين وقطعة لحم. وحاول أن يطرد التعب الذي كبّل جسده، ووقف وتمطط، وقال لخالته أن تدخل الطاولة إلى الغرفة حتى يتمكن من

الأكل هنا. ففعلت ذلك على الفور وجلست قبالته على كرسي قصير، لكن لم تكن لديها شهية للأكل. ولم تكن الخالة عجوزاً، بل كانت السنوات الأربعون ظاهرة على جسدها السمين المكتنز. وحتى وجهها فهو يكتسي براءة وأنوثة.

كانت خالته قبالته وقد أسبلت جفنيها الحالمين وبدا نهداها بارزين بشكل ملحوظ تحت الدفينة الأنيقة التي تبرز انحناءات جسدها. وتساءل سليمان وهو يمضغ، ما إذا كان هناك رجل في حياتها، أو مجموعة رجال. وعلى كل حال، فهي تتحدث دائماً عن شخص يدعى السي أحمد. . إن السي أحمد هذا يقول، وهو يشتري، وأحياناً ذهب سي أحمد لكنه عندما زار طنجة توقف في أصيلة. ولم يعجب السي أحمد. على أن ذلك الرجل قال السي أحمد فسمعتها وكان سي أحمد. آه لو فعل ذلك فقط السي أحمد. أنا لا أدري يا ابني غير أنني سأسأل سي أحمد. صحيح. معقول، فسي أحمد قال ذلك تماماً. إن أحمد اشترى، والسي أحمد لم يشترِ. لكن سي أحمد. مثل سروال سي أحمد.

على كل حال يمكن أن يكون هناك سي أحمد آخر في حياتها، لكن سليمان لم يره قط ولم يتسنَّ له التعرف إليه. وقالت خالته وقد بدا عليه أنه اكتفى من الأكل:

- كُلْ. . لقد قلت إنك جائع.

- صحيح، لكن يجب أن أستريح قليلاً. إن وضعي لا يسمح لي أن آكل كفاية.

- ليست عندك شهية لأنك تفكر في ثريا.

- لا . . أفكر فيك.

- فيَّ؟

- نعم.

- لكني لست ثريا.

- اسمعي. اذهبي وهيئي لي فنجان قهوة.

- حالاً، لكنك تعطيني الأوامر كما لو كنت ثريا.

- إنك خالتي.

واتجهت صوب المطبخ. وتابعها سليمان بنظراته. كان جسدها المكتنز يهتز بشكل ملحوظ. وأخذ يتصور سي أحمد. ومن يدري؟ فقد يكون سي أحمد هذا في سنه هو. كل شيء ممكن. واختفت وراء الباب، وسمع مع ذلك صوت خطواتها فركّز أكثر على خيال سي أحمد ولم يشعر تجاهه بأي عاطفة؟ لم يحقد عليه ولم يحبه وتمدد فوق سريره وركّز نظراته على السقف، وشعر بألم في ظهره لكنه مع ذلك لم يتكئ على جنبه الأيسر أو الأيمن، بل فضّل أن يبقى في وضعه ذاك. وتلمّس علبة السجائر تحت السرير، وأشعل له سيجارة وأغمض عينيه. كان صوت خالته قد ارتفع وراء الجدار بلحن، ثم خفت الصوت وامّحى في نهاية الأمر. وشعر بلفحة الهواء فوق رأسه من النافذة ممتعة حقاً. وأغمض عينيه وأخذ يسمع حديثاً متقطعاً لخالته. حديثاً غير مرتب مثل هذيان. لأن السي أحمد كان هناك. فوحده السي أحمد يعرف أن النساء...

وقالت خالته:

- ها القهوة! إذا أردت أن تدخن.

2

تأبّط سليمان فوطته وغادر البيت في الصباح متوجهاً إلى الماء. كانت الرمال حارة، رغم أن الوقت مبكر، بل إن الشمس كانت تبدو مكتملة في السماء. ولمح سليمان مراكب صغيرة مربوطة في مكان يشبه ميناء، ومراكب أخرى سوداء قليلة في المدى. وخلفه كانت مرتفعات وأشجار الرتم كثيفة والطريق الذي يفصل بعض البنايات الصغيرة التي تحوي مكتباً للتبغ ومقهى وبقالة وحوانيت أخرى، تبدو لامعة نظيفة. وعندما اقترب سليمان من الماء ألقى بثيابه إلى الأرض من دون نظام وأخذ يقوم بحركات لتدفئة نفسه. ولاحظ أن شبحين على بعد كيلومترين يفعلان مثله عاريين. وكان البحر هادئاً ومغرياً. وقد قرر سليمان أن يتمتع بهدوئه وإغرائه حتى يحين وقت الغداء. وتوقف عن القيام بحركاته. وأخذ ينظر إلى جسده ويضغط على البثور ذات الرؤوس المدببة المصفرة. فيُخرج حبيبات طرية ملساء ويدعكها بين رؤوس أصابعه حتى تذوب مثل الشحم.

نشر سليمان الفوطة، وحاول أن يجمع ثيابه بقدمه التي لم تكن سوى بلودجين وقميص بلا أكمام. أما فردتا الصندل فقد حفر لهما حفرة في الرمل ودفنهما فيها. وعندما رأى الجسمين البعيدين يطاردان بعضهما في الماء، ذهب من دون أن يفكر إلى الأمواج وألقى بنفسه فيها. وسرعان ما ألفها. وحاول أن يفتح عينيه فشعر

بأثر الملح وأغمضهما من جديد، وقرر أن يغطس هذه المرة، مغمضاً عينيه بشدة حتى لا يتسرب إليهما الماء. لكن أذنيه كانت قد ثَقُلتا. فحرّك شعر رأسه وانتفض وأخذ يضرب بيديه مصارعاً الموجات القليلة المتتالية بلا ترتيب والتي تحمل معها الرمل الكثير وتمنى سليمان أن يلتحق بذينك الشخصين ليلعب معهما في الماء، لكنهما بعيدان، ويبدو أنهما رجل وامرأة لا يريدان أن يضايقهما أحد. وتمدد فوق الفوطة على بطنه وأخذ يفكر ويتأمل في أشياء غير مترابطة. لم يكن معه كتاب، فقد نسي أن يأخذه معه، خصوصاً أنه في حاجة إلى أن يتحدث إلى أحد، ولو كان شخصية روائية، وأن يستمع إليه ويُعطي رأيه. كان الآخران الآن يلعبان، ورآهما ملتصقين بعد ذلك واقفين. وتخيل ما يمكن أن يحدث في خلوة كتلك بين رجل وامرأة.. فتشهّى ثريا. الفتاة الوحيدة التي تشعره بدفء خاص. فقد كان يشعر وهما ملتحمان بأنهما لن يفترقا أبداً. شعور لم يعرفه مع امرأة أخرى. فقد كانت الأخريات ينظرن إليه فترهبه نظراتهن التي تبدو ماكرة وغادرة. أما ثريا فتغمضهما بصدق وتصدر عنها أنات دافئة، يشعر معها هو، بأنها تحتمله كثيراً، وتود المزيد من ذلك إلى ما لا نهاية له من الوقت. لكنه، مع الأسف، طاقته محدودة. طاقة أي رجل محدودة. أليس كذلك يا ثريا؟

- نعم يا سليمان، يكفينا هذا الآن. يجب أن لا نستنفد كل شيء دفعة واحدة. نترك ذلك إلى فرصة أخرى، وأصابعها مغروسة في شعر رأسه في حين تظل رؤوس أصابعه هو، تتجول بالقرب من نهاية النخاع الشوكي في الأسفل. ببطء حتى يناما نهائياً.

ذهب سليمان راكضاً إلى الماء وتعرض للموجة التي لم تكن بلا زبد واستحلى نعومة الماء وبرودته. كان المكان قد بدأ يمتلئ. فقد انتشر على الرمل، هنا وهناك، عدد من المستحمين. ورأى سليمان

كلباً يحوم حول فوطته، لكنه لم يبل عليها كما أنه لم يذر الرمل بأظافره بحثاً عن صندل سليمان، بل ظلّ الكلب واقفاً ينظر إلى كومة الثياب دون أن يقربها. وحاول سليمان من بعيد أن يطرده بصراخه لكن الكلب لم يسمعه. ومشى سليمان نحو الكلب والماء المالح يتسرب إلى عينيه فيغلقهما. وعندما اقترب من الكلب ظلّ هذا الأخير جامداً ينظر إليه باستسلام دون أن يهتم به. رماه سليمان بحفنة رمل حملها على ظهر قدمه. فانصرف الكلب بهدوء باتجاه البنايات. ثم رآه يعود نحوه وخلفه صبي صغير. وكان الصبي حافياً وقد ارتدى بلودجين أزرق مقصوصاً عند الركبتين، وقد تدلت أهدابه. وعندما اقترب الطفل لاحظ سليمان أنه مرسوم بالمداد الأحمر على السروال قلب يخترقه سهم، وتحته بالإنجليزية: لوف..

قال سليمان: من رسم لك هذا؟

- أنا.

- ومن كتب لك هذا؟

- أنا.

- ما معنى هذه الكتابة؟

- لا أدري، رأيت أختي تفعل هذا في سروالها ففعلت مثلها. نحن لسنا من هنا، نحن من الدار البيضاء، نقضي عطلتنا هنا. إن لأختي فخذين أبيضين هل رأيتهما؟

- نعم.

- أين؟

- لا أدري.

- آه، فهمت. أنت الذي كنت نائماً معها عندما كانت ماما وبابا نائمين في الغرفة المجاورة.

- تماماً.

- إن بابا يعرفك، ويعرف أن لأختي فخذين أبيضين. لقد قال ذلك لأمي وسمعتهما.

ثم مشى الطفل، نحو مجموعة من الناس فتبعه الكلب.

وقال سليمان: هيه.. أين أختك؟

لكن الطفل لم يسمعه. وذهب سليمان وغطس في الماء وهو يشعر بسرور عارم. ولم يكن يدري سببه على الإطلاق. إن دبيب الماء فوق الجسم يشعر سليمان بانطلاقة غريبة. انطلاقة من عالم جميل رائع. إلى حلم. مثل ذلك العالم الحالم الذي يقرأ عنه في سلسلة معينة من بعض الكتب. عالم سحري.

وقالت ثريا: إنني لا أحب السحر، لا أفهمه، لكن أحب التأمل فقط.

وقال سليمان: أنا مادي، ومثلك أيضاً أحب التأمل في المادة لا في أشياء أخرى. قالت ثريا: مثل ماذا يا حبي؟ قال: مثل لا أدري يا حبي. إن لك جسماً متناسقاً جداً. عليَّ أن أتأمل تناسقه.. ثم نفض سليمان شعر رأسه من الماء، ورأى الطفل يركض في اتجاهات مختلفة والكلب يتبعه.

كان الكلب يقف أحياناً على قدميه الخلفيتين ويكرر ذلك لكن الطفل يهرب ويذهب إلى الماء فتضرب الموجات ركبتيه دون أن تمس فخذيه. وقال سليمان إن ذلك لا يمنع من كون الماء سيبلل كل جسده. وصاح سليمان بعد أن كوّر كفيه حول فمه:

- ووور هـ. و ا و..

ثم قال لنفسه بصوت مرتفع وهو يلتفت حوله حتى لا يسمعه أحد: «يَداكَ أوكَتَا وفوكَ نَفَخ». وحاول أن يسأل نفسه لماذا ولمن قال هذا المثل العربي الذي تعلمه في دروس البلاغة. ولم يهتم لذلك. فالمكان خالٍ من حوله والحياة جميلة. ثم بدت له التقاسيم

الرائعة لجسد ثريا. وحاول أن يتصور أخت ذلك الطفل ذات الفخذين الرائعين، وأن يتصور الشخص الذي كان ينام معها في علم أبيها وأمها.. لا شك أنها جميلة. غير أن ذلك لا يمنع كونها بليدة ولا تتحدث في الكتب والثقافة، بل تتحدث عن مغنين غربيين رأت صورهم في مجلات رخيصة. وشعر سليمان بالتقزز لأنه لا يحبّ هذا النوع من الناس البورجوازيين التافهين، الذين ليسوا لهم همٌّ سوى رفع المهور، وتزويج أبنائهم ببعض الأسماء التي تبدأ بـ(بن). ولا يهمهم الشخص بقدر ما تهمهم (بن). فـ(بن) هي التي تتزوج و(بن) هي التي تلد، و(بن) هي التي تحزن و(بن) هي التي توسع تجارتها في إفريقيا و(بن) هي التي تدفع الرشوة من أجل الحصول على منصب في سفارة خارج المغرب، حتى تقضى جميع أغراض (بن) الأخرى التي توجد داخل المغرب. وهكذا فـ(بن) تجري وراء (بن) ومن ليس (بن) عليه أن يصبح (بن) حتى يقبله وسط (بن).

وفكّر سليمان أن أخت ذلك الطفل هي من غير شك (بن) حفيدة (بن) وأن الذي كان ينام معها في علم (بن) و(بن) إنما هو (بن) مثلهم. وتقزّز لهذه العقلية التافهة المريضة المصابة بـ(بن) وحمد اللّه أن صديقته اسمها ثريا واسمها العائلي غير مبدوء بـ(بن) وإلّا سبّب له ذلك قرفاً لا حدّ له. خصوصاً أنه عصبي تجاه أخلاق إنسانية من نوع (بن).

وغادر سليمان الماء، وجرى فوق الرمل وهو يقوم بحركات رياضية لطرد البرودة عن جسده. ولاحظ أن عدد السبّاحين قد أخذ يتزايد، لكنهم كانوا متفرقين بحيث تبدو البلاج كما لو كانت خالية. ورأى الطفل يركض لا يزال، والكلب يفعل مثله يتمرغ في الرمل، بألفة شديدة. ونادى سليمان على الطفل، فجاء هذا الأخير وهو يقول:

- بعد قليل ستنزل أختي إلى البلاج وستراك.

- هل تعرّفني بها؟

- إنها تعرفك.

وفكّر سليمان في أن يكون هذا الطفل معتوهاً أو به خلل. ولم يتعجب لذلك، فقد بدا له شيئاً طبيعياً، خصوصاً أن (بن) لا تخلو من الخلل وأشياء أخرى.

وقال له:

- هل أنت معتوه؟

وأجاب الطفل: لا أفهم هذه الكلمة.

- طيب أختك، هل فخذاها جميلان؟

- لقد رأيتهما بنفسك. لقد رأيتك حين كنت تمر بأصابعك على الشعر الذي يحيط بشيء أحمر.

وقال سليمان:

- لا شك أن أباك معتوه.

- لا، أبي أصلع، وهو يعرفك. سترى أنه يعرفك. لكن من المستبعد أن ينزل إلى البلاج الآن. إنه يخجل من كرشه.

- هل يمكنك أن تدلّني على البيت الذي تسكنونه هنا؟

- نحن لا نسكن في بيت، ولكن في فيلا. أبي يقول لنا دائماً قولوا فيلا ولا تقولوا بيت.

ثم ركض الطفل في غير اتجاه وتبعه الكلب، فتمدد سليمان فوق فوطته وأعطى ظهره للشمس وأخذ يبحث عن سيجارة ليدخن نصفها ويحتفظ بالنصف الآخر حتى يشعر بالرغبة في ذلك. ظلّ سليمان ممدداً فوق الفوطة وهو يتمتع بأشعة الشمس تدغدغ ظهره. وفكّر أنه لا بدَّ أن ينتظر مجيء أخت ذلك الطفل وأن يراها. فقد تصور كل شيء عنها. خصوصاً عن الفخذين الجميلين.. فسليمان يثيره في

المرأة فخذاها وساقاها. وكثيراً ما كان يتمنى لو يضع رأسه بين فخذين جميلين، ثم يعانقهما بذراعيه، ويظل على هذا الشكل أطول وقت ممكن.

وقالت ثريا:

- إنك تتعبني بذلك يا سليمان.

قال سليمان:

- أجد منتهى اللذة في هذا.

- وأنا؟ أين لذتي؟ فأنا أيضاً أريد أن أعانق شيئاً. لا تكن أنانياً. تعال نتعانق بشكل طبيعي.

- إني أعبد فخذيك.

- أنت تكذب. لو كنت تحبهما لأمكن لك أن تجد أحسن منهما عند امرأة أخرى. لماذا لا تقول إنك تحبني؟

- ولكن فخذيك يا ثريا.

- لا أفهم. انهض. عانقني هكذا، لا تكن شاذاً.

رفع سليمان رأسه، وأخذ ينظر إلى الشارع الضيق الذي يفصل بعض البنايات الموجودة عند رأس البلاج وأثار انتباهه رجل يجر دراجة في مؤخرتها صندوق وقد سقطت الدراجة فوقه. أخذ سليمان يضحك بصوت مرتفع ويحك جلد مؤخرته. بعد قليل سينتفخ جلده، فذلك يحدث له باستمرار عندما يتعرض جسمه للشمس. لكن ذلك لا يطول، بل تختفي الانتفاخات الصفراء وتصير بقعاً حمراء. ثم لا شيء. وبعد ذلك يبدأ جسده، على مدى أيام، في التقشر. فينشغل طوال أيام بتقشير جسده. وفكّر سليمان أنه يشبه الحيّة إلى حدٍّ بعيد إذ تُغير قشرتها. وقالت ثريا:

- إنك مثل الحية، تتسرب في جسدي في الفراش مثل الحية.

- لست حية، وإلا كنت قد لدغتك.

- لقد فعلت مراراً. كفّ عن دغدغتي، فذلك يرعش جسدي، ويؤثر على حالتي النفسية.

ثم رأى سليمان الرجل وهو يغالب الدراجة وحده. وقف ونفض سرواله وامتطى دراجته من جديد. رآه يدوس منطلقاً ببطء، وهو يتمايل فوق السرج، ثم مرّت سيارة كادت تصدم الرجل فانحرف في الأخير، واختفى عن عيني سليمان. وقف وذهب إلى الماء وغطس فيه. أصبح بالقرب منه مجموعة كبيرة من الناس تقدّر بالمئات. وكان الطفل الصغير وكلبه قد اختفيا عن أنظار سليمان. وظلّ يتمنى أن يرى الأخت الجميلة الرائعة. كما تمنى أن يرى الأب ذا الكرش وقال: سأتحدث إليه حتى ولو كان اسمه يبدأ بـ(بن). إن ذلك لا يمنع من أني سأستطيع الاستفادة منه. أو، على الأقل سأتعرف على ابنته. وأخذ يتلهى ببعض نباتات البحر التي طفت فوق الماء. أخذ يطاردها ويلصقها بصدره، لكنها كانت تنزلق لأنها ملساء فيعاود مطاردتها وإرجاعها إلى مكانها فوق صدره. وسأل نفسه عما إذا كانت هذه النباتات تحمل ميكروبات مضرّة للجلد. كفّ عن ذلك، وغطس في الماء من جديد. وأخذ يفرك جسده موهماً نفسه أنه ينظفه.

3

مرّ على سليمان بالمكان خمسة أيام. قرأ فيها قليلاً وتأمل كثيراً في أشياء ذات بال، وتحدث إلى خالته عن ثريا وسي أحمد. ولكنه لم يكن مرتاحاً بما فيه الكفاية. فالوحدة قاسية حقاً، خصوصاً أنه كان ينوي الانعزال بصورة نهائية. وقد تيقن أن ذلك يستحيل عليه بتاتاً. فالناس موجودون من حوله. وهو يتحدث إليهم عن أشياء لا تهمه أحياناً، شأنه في ذلك عندما كان في الدار البيضاء أو حتى أثناء السنة الدراسية في الجامعة، الأشياء تتم بشكل مختلف. هناك أحاديث عن الثقافة.. وهناك تطلعات لا تشبه في شيء تطلعات الناس في الحياة العادية. على كل حال، قال سليمان إنه سيكون مضطراً لانتظار ثريا والحديث عن سي أحمد حتى تتغير الأحوال من حوله. وسيخرج للغابة المجاورة. وهناك البحر بشساعته. والعالم غير مكتظِ، يمكن أن يقرأ. وربما حاول الشيء الذي لم يفكر فيه قط - أن يكتب انطباعاته، أن يكتب فلسفته الخاصة، لكنه يعتقد أنه لم ينضج بعد. وربما ألّف كتاباً واحداً بالاشتراك مع ثريا عندما ينعزلان ذات يوم في بيت يملكانه على رأس جبل هناك في الجنوب قرب تامنار أو سميمو. لكن هذا الكتاب الوحيد الذي يحتار سليمان في اختيار موضوعه.

وقالت خالته:

- إن ثريا تهتم بالسياسة كثيراً. وهذا هو عيبها الأوحد.

قال سليمان:

- إن ثريا جميلة ولها جسد متناسق.

- نعم كل رجل يشتهيها لذلك فهي تهتم بالسياسة.

- إن أي رجل يهتم بالسياسة لا بدَّ أن يشتهيها.

ورأى ذبابة تطن في الفضاء من حوله. تلقفها في السماء، وأمسكها من جناحيها. وفكر في أن يربطها بخيط صغير مثلما كان يفعل وهو طفل صغير في المدرسة. تطير الذبابة وخلفها خيط ملون أو أبيض يحدث في الفضاء تعاريج. وقالت خالته:

- دعْ الذبابة وحالها. إنها قذرة.

- لكننا عندما كنّا صغاراً كنا نربط خيطاً بـ. . .

- هل تعتقد أنك صغير. اذهب لتتجول قليلاً، اخرج إلى المقهى وخذْ لك كأساً من الشاي وتأمل الفتيات الجميلات اللائي يمرَّنَّ أمام المقهى.

في الواقع، لم تكن هناك فتيات كثيرات. فالمدينة صغيرة، لم تسلَّط عليها الأضواء من طرف الأجهزة الدعائية الرسمية. هناك بعض الفيلات التي اشتراها أو اكتراها أغنياء. وهناك فقراء وهم كثيرون يجلسون في المقهى يحتسون الشاي الأخضر ويسمعون الراديو ويثرثرون حول موسم الصيد القادم. أما الآخرون الأغنياء فيذهبون إلى الشاليه مع زوجاتهم وبناتهم ذوات الأفخاذ الرائعة ويحتقرون كل الناس، وينطقون الراء بنغمة خاصة. وتبدأ أسماؤهم بـ(بن) في الغالب. هؤلاء لا يحبهم سليمان ولكنه مع ذلك يذهب أحياناً إلى هناك فيطلب بيرة خلف الواجهة الزجاجية يتأمل الماء أو يطلب قهوة إكسبريس على الإفريز ويقرأ الصحف. وقال سليمان لخالته:

- أنا في حاجة إلى ثريا. أشعر كلما فات يوم أني في حاجة إليها كثيراً. لا بدّ أن رسالة منها ستصلني اليوم أو غداً، لكني لا أعرف ما إذا كان البريد هنا يسير بشكل عادي.

- إن ساعي البريد يمرّ كل يوم أمام البيت. لو كانت معه رسالة لك لما نسيها. هل تعتقد أن الأمور تسير بشكل فوضوي إلى هذا الحد.

تلقف سليمان ذبابة أخرى، فصاحت خالته من هذه القذارة. أطلَقَ الذبابة في الفضاء وهو يمسح يده بتقزز في سرواله.

وقالت خالته:

- هل تعتقد أنك لا تزال طفلاً؟ انظر إلى شاربيك.

لم يكن له شاربان فتحسس تحت أنفه ليتأكد من أن خالته متيقنة مما تقول.

- لا أدري لماذا تعجبني لعبة الذباب هذه؟

- هذا لا يهمني. يمكنك أن تخرج الآن وتذهب لتتجول قليلاً.

لبّى سليمان رغبتها، غادر البيت وسار باتجاه الشاليه. كان الجو معتدلاً، لذا لم يفكر في أن ينزع ثيابه ويسبح. ثم أحسّ بيد توضع على كتفه فالتفت متفاجئاً. كان أحد الأصدقاء الذين يعرفهم في الدار البيضاء، وقال سليمان:

- غير ممكن.

قال الصديق الذي كان يدعى كريمو، والذي لم يكن يحب النساء:

- كل شيء ممكن. ماذا تفعل هنا؟

قال سليمان:

- وأنت؟ ما الذي تفعله هنا؟

- أنا من هنا.

- من هذه المدينة الصغيرة؟

- وماذا في ذلك؟

ثم عرض عليه سليمان أن يذهب إلى الشاليه، ليشرب قهوة أو بيرة ليتفرجا على البحر وعلى الناس. تمنَّع كريمو أول الأمر. ولكنه في الأخير قبل. وفكّر ماذا يستطيع المرء أن يفعل في هذا المكان الصغير إذا لم يقبل دعوة مثل هذه، ومن شخص مثل سليمان؟

كان الشاليه بعيداً من البحر قليلاً، ولكن كان يخيل للمرء أن الماء يجري تحته. لم يكن هناك زبائن كثيرون. ولكن الناس كانوا على البلاج ممددين. واختار سليمان زاوية معينة، قرب صندوق الأغاني. وقد تفضل الجرسون فوضع فيه قطعة نقدية وسألهما ماذا يشربان. تردد كريمو قليلاً لكنه لم يطلب قهوة بل طلب بيرة مثلجة. وقال سليمان:

- كنت أعتقد أني لن أعثر على أحد هنا من معارفي. هل تعرف ثريا؟

- من ثريا هذه؟ لا أعتقد.

- صديقتي الجميلة ذات..

- بما أن اسمك سيروق لها، فإني سأقدمها لك ولا أعتقد أنها سترتاح لك.

- لا لزوم لذلك إذن.

وأخذ سليمان يضع في ذهنه صورة لسي أحمد. وحاول أن يوجد أوجه الشبه بينه وبين كريمو. ولكن ذلك كان عبثاً. فهو لم يرَ سي أحمد في حياته قط، وقال:

- هل تعرف، يا كريمو، سي أحمد؟

- من هو سي أحمد هذا؟

- غير مهم. كنت أعتقد أنك سمعت به. إنه رجل.

- كنت أعتقد أنه قط؟

- قط أو رجل سواء؟

وأخذ يضحك، وقال لصديقه:

- لماذا لا تضحك؟ يبدو أنك صعب المزاج.

- أبداً، لكني لم أسمع ما قلته.

وألقى كريمو بنظراته بعيداً، حيث كانت فيلات صغيرة ذات ستيل معاصر جداً.

- هل ترى تلك الفيلات؟ قبل سبع سنوات كان المكان بلقعاً. هذا آخر ستيل في الهندسة المعمارية. يقال إنها بنيت من نقود الوزراء الذين حوكموا بتهمة الرشوة واستغلال النفوذ.

- لا أعرفها.

- غير ممكن.

- كل شيء ممكن.

وأدار سليمان الملعقة في الفنجان، واستلذّ طعم القهوة وأخرج سيجارة وأخذ يدخن. ولم يناول صديقه سيجارة لأنه كان يعرف أنه لا يدخن إذا لم تخنه الذاكرة. وقال له سليمان:

- كان من اللازم أن تدعى ماكاميش.

قال الآخر:

- ماكاميش أو كريمو سواء. إنها تفيد معنى واحداً. أشكر اللّه أنه أعفاني من عادات سيئة مثل التدخين والنساء. ولكن ذلك لا يمنع من أني أحب أن أعيش.

وقال سليمان:

- في الواقع، إنها صدفة سعيدة.

- صحيح، صدفة سعيدة. وأستطيع أن أريك هنا أماكن لم تكن تعرفها. لا تعتقد أن صغر هذه المدينة يعني أنها لا تستحق أن تُزار.

- لم أكن أعتقد ذلك. ولكن نيتي كانت هي أن أستريح، وأقضي أوقاتاً طيبة مع ثريا وخالتي حليمة، هل تعرف خالتي حليمة؟

- لا . . . لم تتح لي فرصة التعرف إليها.

- إن أسماءهم كانت تبدأ بـ(بن).

- هذا صحيح.

- وكانوا ينطقون الراء بنغمة خاصة.

- هذا غير صحيح.

- لماذا؟

- ستحاكم بتهمة التحريض والتفرقة والعنصرية إذا سمعوك تقول هذا الكلام، نحن كلنا مغاربة.

- أنا لم أشترِ فيلا بالرشوة.

- ولو . .

- طيب لنغير هذا الحديث. الفيلات جميلة، والبنات لهن أفخاذ . .

- لا يهمني ذلك.

ورشف كريمو آخر جرعة من بيرته ونادى على الجرسون ليناوله أخرى.

وقال سليمان:

- لا شك أنك تود أن تسكر في الجو المعتدل الجميل.

- لا أريد أن أسكر ولكني سأنزل إلى الماء، إني أرتدي المايوه تحت السروال. هل معك المايوه؟

- لا . . ثم إني لا أستطيع أن أسبح الآن، فأنا أخشى أن أصاب بزكام.

- هل صحتك تتأثر إلى هذا الحد؟

- نعم، وأكثر. يمكن أن تسأل خالتي عن ذلك.

- سنرى ذلك فيما بعد؟

ثم أنهى كريمو بيرته الثانية، وقال لصديقه:

- انتظرني. سأذهب إلى الماء بسرعة. بعد ذلك سأشرب قهوة وسنتحادث معاً.

كان كريمو يحب البيرة، ولا يريد أن يسكر لأن ذلك في نظره يبعده من واقعه القاسي. لكن أحياناً كان يفضل أن يسكر على أن يتناقش في ريلكه الذي يحبه حتى العبادة. ولم يكن أحد يفهم لماذا يحاول كريمو أن يجمع بين ريلكه وأبي إسحاق الصابي، لم تكن له ثقافة عالية، ولكنه كان شبه متخصص في شعر ريلكه وأبي إسحاق. فهو يعرف حتى طريقتهما في الأكل أو النوم. وكان يردد بلا مناسبة أحياناً أشعار ريلكه، ويحاول أن يعطيها أبعاداً لا تحتملها تلك الأبيات ولا يحتملها ريلكه نفسه.

أخذ سليمان ينظر إليه في تفكير وهو يشق طريقه إلى الماء وسط الناس المنتشرين على البلاج تحت. إنه شخص غريب حقاً، مثالي جداً. ويبتعد تماماً من سليمان في كل شيء. لكن هذا الأخير يحب فيه روحه الهادئة وحبه للحيوانات وحتى كرهه للنساء. فهو يتجنبهن عن مذهب لا عن شذوذ. الشيء الذي ليس في ميسور أحد. وساءل سليمان نفسه فيما إذا كان بمستطاعه هو أن يتجنب ثريا. أن يتخلى عنها. وحاول أن يحلل هذه الفكرة ويقنع نفسه ولو مؤقتاً، في هذه اللحظة بالذات، بأن ابتعاده من ثريا ممكن. ذلك كله عبث في عبث فسرعان ما أخذت تظهر له عارية، وهي تتنهد، تبكي أحياناً، تغمض عينيها، وتتلوى بين ذراعيه، وتحت جسمه. رأى أيضاً شعرها الأسود الجميل وقد غطى كل وجهها. كان نهداها مستديرين واقفين وبينهما فجوة مريحة للرؤيا، كانت له كلها روحاً، وكل شيء. ارتمى فوقها ولكنه لم يستطع أن ينك (. . .) وظلّ يتحسس بإصبعه الشعرات

المعرية تحت بطنها. يفعل ذلك بإصبعه ويفكر في هذه المخلوقة الجميلة التي تبعث فيه إحساسات نرسيسية قديمة. وأخيراً، لم يكن في إمكانه أن يقنع نفسه بالافتراق عنها. وكان متأكداً أيضاً، أن الأمر سواء بالنسبة إليها. ثم طرد ذبابة كانت تحوم حول وجهه. ورأى عندما اختفى كريمو من أمام عينيه.. صديقه الصغير الذي لا شك يبدأ اسم أسرته بـ(بن)، وقرر أن يذهب وينادي عليه ليسأله عن أخته، وحتى عن أمه إذا كان ذلك ممكناً. وأغلب الظن أن أمه ستلبي رغبته أكثر مما ستفعل أخته.. لأن هذه الأخيرة ربما كانت مراهقة مغرورة معجبة بفخذيها وبانتفاخ مؤخرتها وبروز نهديها. فهذا النوع مُتعِب في كل شيء. في العلاقات العادية، وفي فعل الحب. زيادة على أنه يسبب المشاكل نظراً إلى الإهمال الشديد الذي يتميز به هذا النوع من الجنس الثاني. فأول نطفة تكلف إجهاضاً أو مثولاً أمام المحكمة. ثم قفز سليمان الدرجات إلى تحت. مشى فوق الرمل المحرق. توجّه نحو الصبي الذي كان يجري بلا هدف، ويقوم ببهلوانيات في الفضاء ورآه يتوجه نحو امرأة ففرح لذلك، إذ اعتقد أنها أمه أو أخته. وأغلب الظن أنها أخته، فقد كانت طويلة ذات خصر نحيف جداً، وربما بفعل الاعتناء به جداً، واستعمال الفيبروماسور بنظام فائق، أمه على كل حال لن تكون ذات جسد طويل ونحيف.. ولا بدَّ أنها سمينة مثل بقرة، مترهلة، كثيرة الفكاهة. وتعمل كل شيء من أجل إسعاد الشباب الذي يشبع رغبتها النهمة. هذه هي الصورة التي كانت عند سليمان عن هذا النوع من النساء، وكانت خالته تقترب منهن إلى حدٍّ ما، لكنها لم تكن لتشبههن. وصاح سليمان في الفضاء:

- هيه..

لكن أحداً لم يسمعه. وأخذ يصفر، ويحدث أصواتاً مختلفة

لإثارة انتباه الصبي، لكنه أثار انتباه عدد من الناس ولم يثر انتباه الصبي الصغير. وقرّر أن يركض وراءه حتى يدركه ويتحدث إليه. لكن الصبي ابتعد من المرأة وأخذ يجري بلا هدف. فقرر سليمان في الأخير أن يجري وراءه. ثم أخذ يجري وهو يتألم من شدة حرارة الرمل. فأوقفه جسد رجل. كان كريمو هو الذي أوقفه. لم يعره سليمان أدنى اهتمام واستمر يجري. وقال كريمو: «لا بدَّ أنه أصيب بجنون» وأخذ ينظر إليه باستغراب، وتوقف سليمان بالقرب من الصبي. غير أن كريمو لم يفهم شيئاً. ورآهما يتجهان نحوه فقال لا بدَّ أن الصبي من عائلته. كانا يتحدثان مثل رجلين عاقلين بينهما شيء من الاحترام. تعجّب كريمو لذلك، وقال في نفسه: «إن هذا الشاب سيصاب بحمق. إنه غير عادي على الإطلاق.. إنه غير عادي على الإطلاق... ولا أدري كيف يفهم الحياة». وهمّ كريمو بصعود الدرجات القليلة المؤدية إلى فوق، إلى الشاليه، لكنه سمع سليمان ينادي عليه فتوقف، وكان الرمل يحرق قدميه والشمس تخز جسده المبتل، وخصوصاً ما بين كتفيه.. وتقطر الماء فوق جبهته وتسرب إلى فمه فتفل. وقال سليمان:

- هذا هو الصديق الذي حدثتك عنه. له أخت جميلة وأم جميلة أيضاً. أراهن على أنك لا تستطيع أن تخمن جمالها الخارق.

- لم تحدثني عن صديق لك. هل جننت؟ كيف تتخذ من هذا الصبي الصغير صديقاً؟

- لا فرق بين الكبير والصغير. المهم هو إيجاد حوار بين اثنين. وأنا أستطيع أن أتحاور مع هذا الصبي إلى ما لا نهاية. إنه ذكي وإن كان ينتسب إلى تلك الطبقة القذرة.

- ماذا تقصد؟

- الطبقة البورجوازية. ألا تفهم؟ مهما يكن فالبنات

البورجوازيات يعرفن كيف ينك (. . .) وإن كنّ يكثرن من ذلك. هنّ نظيفات وسهلات إذا استطعت أن تتحمل كلامهن الفارغ وادعاءهن الذي لا معنى له.

وقال الصبي الصغير:

- سأنصرف. لأن أختي تنتظرني.

قال سليمان:

- هل معها أحد في البيت؟

- لا، ليس معها أحد في الفيلا. إنها تقلّم أظافرها الآن وأمي في الحمام وقد كوّنت قبراً كبيراً أبيض من رغوة الصابون. هل تعرف أن أمي غليظة بشكل مثير. مرة ضغطت على أبي بجسمها حتى كادت تخنقه. أخذ يستغيث ويستنجد بالولي الصالح مولاي إدريس. أخذت أبكي أنا وأختي فصفعته وتركته صريعاً فوق الأرض.

وقال كريمو:

- لا بدَّ أن هذا الصبي معتوه حقاً. ولا بدَّ أنك أحمق يا سليمان. دعه ينصرف وتعال نكمل حديثنا ونشرب بيرات أخرى.

- لا أريد، انتظر قليلاً. أود أن أتعرف إلى أخت هذا الصبي. إنها ترسم قلباً يخترقه سهم على فخذيها. وتكتب بلون مغاير: لوف. ألا تعرف ما معنى هذا؟ إنها تبحث عن واحد مثلي ومثلك.

- وإذا كانت عذراء؟ إنها لن تثير لك سوى المشاكل.

- سأغتصبها، سأفعل مثلما فعلت بثريا.

نفض كريمو شعر رأسه. وحاول أن ينصرف إلى الشاليه مستاء. لكن سليمان أمسكه من ذراعه وهو يقول:

- لا تغضب، سنقتسم هذه الغنيمة. لك الأم ولي البنت. على كل حال لك الاختيار.

- لا أريد ذلك. أنت تعرف أني لا أحب النساء. فدع الصبي ينصرف. إني أرى امرأة تنادي عليه.

التفت سليمان فرأى امرأة بالفعل تنادي جهتهم. لكنها لم تكن تقصد واحداً من الثلاثة. تأكد من ذلك لأن فتاة كانت بالقرب منهم ترد على المرأة بإشارات.

وقال سليمان للصبي:

- هل يكون أبوك بالليل في البيت؟

- أبي يكون دائماً في الفيلا. ليل نهار. إنه يخاف أن يُصاب بزكام. له كرش ورأس أصلع. يتقن عدّ المال فقط. لكن أختي تسرق منه وتشتري لي الآيس كريم وتُدخل الرجال من الباب الخلفي.

- وأمك؟ هل تعرف ذلك.

- نعم. أحياناً يكون رجلان واحد لأمي والآخر لأختي.. أما أنا وأبي فليس لنا رجال ولا نساء. على كل حال، أنا لا أزال صغيراً ولا أعرف في هذه الأشياء. شعر كريمو باستياء كبير، ودون أن يتحدث إليهما انصرف إلى الشاليه. جلس إلى طاولته وطلب بيرة ثالثة، وأخذ يتمتع بالاستماع إلى الموسيقى. وأثار انتباهه صورة ضفدعة خضراء كبيرة مرسومة على زجاج الشاليه. وسأل الجرسون فأجاب هذا الأخير:

- إذا أردت أن تتمتع. اختصاصات المطعم يوم الخميس أفخاذ الضفادع. لقد ظلّ مطعمنا يحتفظ بهذا التقليد منذ إنشائه رغم أن المسلمين مثلي ومثلك يأنفون من أكل الضفادع. هل أحكي لك قصة؟

وقال كريمو:

- لا. ليس لك الحق بمضايقة الزبائن بحكاية أشياء تخصك.

وقال الجرسون: صحيح. ثم انصرف.

ورأى كريمو الصبي ينصرف وهو يقفز ويذري الرمل في الفضاء. كان سليمان جامداً في مكانه يفكر في شيء. ثم استدار بسرعة وقفز الدرجات القليلة بخفة. التحق بكريمو وقال:

- وجدتها. هذا المساء سيكون ممتعاً. إذا كنت تود أن تعيش فالحياة قصيرة. تعال معي هذا المساء سنتسلق جدار الفيلا وستكون واحدة لي والأخرى لك.

- إني لا أحب النساء. يمكنك أن تشرب بيرة حتى تستعيد رشدك.

- آه. فهمت. لكن ريلكه كان يحب النساء.

- لا يهمني.

- طيب، هل تريد أن تتزوج برجل. إن ذلك فضيحة حقاً. افعل مثل أوسكار وايلد إذا شئت.

- لا وايلد ولا هم يحزنون. لا أحب النساء. أحب نفسي وأعذبها كما يحلو لي. لا أريد أن أكرر أسطورة تاريخية قديمة.

وقال سليمان بانتباه:

- قل لي بصراحة: هل تمارس العادة السرية؟

- فخجل كريمو من السؤال. وظلّ يحدق في صديقه باشمئزاز. وأعاد سليمان السؤال ما أثار حفيظة صديقه. وقال هذا الأخير:

- اسمع. لا أحب مثل هذا الكلام. إذا كان ذلك سيستمر فمن الأفضل أن نفترق الآن.

- لكنك لم ترَ خالتي بعد.

- شوف لخالتك رجل آخر ودعني وشأني.

وقال سليمان وهو ينادي على الجرسون:

- أعتذر. سأكف عن هذا المزاح إذا كنت تعتقد أن ذلك مزاح حقاً. سأسحب كل ما قلت. هل أنت مسرور الآن؟

وقال كريمو:

- حسناً تفعل.

4

قال سليمان:

- كيف وجدت أمها؟ إن ابنتها كانت رائعة. ذلك ما كنت سأقوله لك.

- أنا لم أمسس لا أمها ولا أباها. قلت لك إني لا أستطيع أن أفعل. سأحاول ما أمكن أن أترفع عن كل شيء من شأنه أن يدنس جسدي الطاهر هذا.

- لكنهما رائعتان يا كريمو. أراهن على أن الزوج كان هناك مختفياً في غرفة أخرى مجاورة. وربما، هو الذي شجعها على ذلك. هذا المجتمع يجب أن تعرفه جيداً، إنه غريب، غريب.

كان هواء الليل منعشاً حقاً. وكان ضياء القمر واضحاً في السماء ورائحة الأزهار تملأ المكان وقد تدلت أعناقها من حيطان في الفيلات. سمعا كلاكسون سيارة في هذا الليل فغادروا الطريق إلى الرصيف. وقال سليمان:

- هذا البليد يزعج الناس. ألا يعرف أن ذلك ممنوع.

- ممنوع أو غير ممنوع سواء. كل شيء مباح في أي وقت وفي أي مكان.

- ليس ذلك صحيحاً.

- لماذا؟

- لأنك لم تبح لنفسك تلبية حاجة فيزيقية عادية مثل الطعام والشراب والهواء.

- هناك فرق يا سليمان. لا أدري ما الذي تدرسونه في الجامعة إذا كان تفكيرك قاصراً إلى هذه الحد.

- ليس قاصراً، ولا أي شيء. لكني أحاول أن أفهم ما أريد. هل تعرف؟ إني أفهم أشياء كثيرة لكني أترك ذلك لنفسي. وإذا حاولت إيصال ذلك إلى الآخرين يقع الاصطدام فوراً معهم.

- المسألة ليست إذن في فهمك العميق للأشياء. ولكن في طريقة إيصالك ما فهمت للآخرين. قل لي هل تحب القطط؟

- لماذا؟

- أردت أن أعرف فقط.

- أحب كل الحيوانات. وأنت؟

- أحب الكلاب والقطط والجرذان والسماء والماء وكل شيء.

كانت الفيلات في هذه الساعة هادئة، مستكينة. وحاول سليمان أن يتصور ما يجري الآن داخلها. وقال لنفسه ترى ما عساه يجري سوى ما جرى قبل لحظات في الفيلا التي كان فيها. لا بدّ أن أرباب هذه الفيلات نشأوا قوّادين أول الأمر. وقال ذلك لكريمو فقال هذا الأخير:

- نشأوا قوّادين ولا يزالون. إنهم في حاجة إلى قليل من الصوفية حتى يطهروا أنفسهم من هذه التفاهات.

- صوفية ماذا يا كريمو؟ لا أحد يريد أن يتطهر.

- تلك هي مأساة الناس. حتى تلك العجوز السمينة لا تريد أن تتطهر.

- إنها ليست عجوزاً. لها فخذان رائعان وتشرب حتى يمكنها أن تنام مع ولدها لو كان لها ولد.

وقال كريمو:

إن هذه الطبقة الوافدة من البيضاء قد أفسدت هدوء المدينة الصغيرة. في هذه السنوات الأخيرة كان كل شيء سعيداً هنا. وفي هذا الليل كنت تسمع، ومن كل مكان ضربات البنادير والدفوف والطبول. وكانت الأعراس والحفلات الدينية الكثيرة. كان الناس سعداء. أما الآن فانصت إلى هذا الصمت اللئيم. لقد أصبح الناس هنا يخافون من هؤلاء. لم تعد تستطيع أن تسمع صوت بندير أو ناي، لقد منعوهم من حفلاتهم الجيلالية.

- آمولاي عبد القادر الجيلالي.

ومن حفلاتهم العيساوية.

- آسيدي الهادي بنعيسى.

وقال كريمو:

- يبدو أنك تتهكم. إن كلامي هذا لا يعني أني مع هذه الحفلات وحلقات الذكر. ولكني أحدثك فقط عن التغيير الذي أحدثه هنا أصحاب الفيلات.

لم يكن سليمان يسمعه الآن، بل ابتعد منه إذ رأى مجموعة من الناس وهي تتشابك بالأيدي بعيداً منهما.

أما كريمو فلم يهتم للأمر. سار بخطواته البطيئة المتأنية يتبع صديقه. بينما كان هذا الأخير قد التحق بالمجموعة المتشابكة. كانت هناك امرأة وقد تلطخ وجهها بالدم وهي تصرخ، متعلقة برجل مهتاج، وكان الرجل يصرخ، والناس يحاولون أن يفصلوا النزاع..

- اتركيني أيتها القحـ (...).

- لن أتركك أيها الزا (...)، حتى نصل إلى مركز الشرطة.

وكان الناس يهدئونهما:

- العنا الشيطان. ما هكذا يفعل زوجان أمام الناس في الشارع.

وفهم سليمان أن الأمر يتعلق برجل وزوجته. وسأل أحد المتجمعين عن فحوى القصة لكنه لم يجبه. وسمع المرأة الملطخة بالدم تُكثر من سبابها البذيء.

- تعال معي إلى الشرطة أيها الزا (. . .). تترك أولادك وتذهب عند تلك القحـ (. . .).

وخجل الرجل الذي سبق أن أشبعها رفساً وركلاً أمام الملأ.

وقال رجل عجوز:

- احشمي يا ولية. ما هذا الكلام الذي يصدر عن زوجة؟

وقالت المرأة البذيئة، السليطة اللسان:

- ادخل سوق راسك. أنا التي أعرف هذا الزا (. . .).

وقال الرجل العجوز:

- أعوذ باللّه ما هذا الكلام؟

ثم اهتاج زوجها من جديد. وعقد كفّه وألقى قبضته في وجهها حتى ارتمت أرضاً، وأخذت تتمرغ في دمها وهي تردد:

- قتلتني. . قتلتني آلزا(. . .). . آز. . آز. .

ومثل شاة ذبيحة تركها سليمان وصديقه. أكملا طريقهما دون أن يناقشا ما رأياه بل اكتفى أحدهما فقط بالقول:

- غير معقول.

وقال الآخر: كل شيء ممكن، كل شيء معقول.

- لكنها سليطة اللسان. إنها تستحق أن يُقطع لسانها. ما هذا الكلام الذي يصدر عن زوجة أمام الملأ؟

- لو كنت مكانها ما عساك تفعل.

- لست امرأة.

- لنفرض أنك امرأة.
- لا أريد ذلك. أتمنى أن لا تهينني أكثر.
- لا أهينك. ولكن قلْ لي: هل تحب القطط؟
- لماذا؟
- أردت أن أعرف فقط.
- أحب الكلاب والقطط والجرذان والسماء والماء وكل شيء.
- ما معنى كل شيء؟
- كل شيء وكل شيء. لا أدري بالضبط. دعني أستعيد تأملي في عالم الليل الغريب.

أخرج سليمان سيجارة وأخذ ينفث دخانها في الظلام. الأضواء قليلة منتشرة بعيداً في الطريق الذي يؤدي إلى الحي الشعبي الصغير. هناك مسافة تفصل الفيلات عن هذا الحي لكن الناس في الصباح يلتقون عرايا على البلاج يقذفون بعضهم بعضاً بالكرة. وأحياناً يذرون الرمل بعضهم على بعض ويقهقهون. ويضحك البورجوازي مع الرجل الشعبي. وأحياناً يقدم له ما تبقّى في آخر الزجاجة من ليمونادة. فيأخذها الرجل الشعبي وقد يشربها أو لا يشربها لاعتقاده بأن ذلك إهانة له.

وقال كريمو وهو يضرب كفاً بكف:
- قل لي: هل فكرت يوماً في إهانة غيرك؟
- دائماً.
- لا بدَّ إذن أن الآخرين يفكرون في إهانتك.

وقال سليمان:
- وكأنك لست من هذا العالم. إنهم يفعلون دائماً. إن تلك المرأة بسبابها البذيء ذاك كانت تهينني ولم تكن تهين زوجها.

وقال كريمو:

- لم أكن أعرف أنها تهينك. على كل حال فأنا لم أسمع إلا القليل من السباب.

وكان البحر يمتد عن يسارهما شاسعاً ومضاء. تنتهي المياه بيضاء الطرف موشوشة والطريق خالية. كانت شاحنات هرمة رابضة على جانبي الطريق. ويظهر الحي الشعبي غير البورجوازي منكمشاً على نفسه. وخلفه بكل تأكيد بيوت من الصفيح كثيرة ومتزاحمة وغارقة في الظلام. لكن الهدوء لم يكن يسودها بالفعل. وهما يقتربان من البيوت الواطئة، ويبتعدان من الفيلات، سمعا صوت الدعاديع خافتاً آتياً من بيوت الصفيح.

وقال سليمان:

- هل تسمع صوت الدعدوع قادماً من هناك..

وأشار بيده، فقال كريمو:

- إنه صوت البندير والدعدوع معاً.

- الدعدوع والبندير لا يجتمعان في حلقة واحدة. ألا تعرف أن عيساوة يفضلون الضرب على البندير والاستعانة بالعوادة؟

وقال كريمو:

- لا أعتقد أن ذلك ضروري.

- إنه ضروري وأكثر. أما حمادشة فهم الذين يستعملون الدعاديع ويضربون عليها واقفين لا جالسين.

وقال كريمو:

- يبدو أنك خبير في شؤون هذه الحيثيات.

- لست خبيراً ولكنها طفولتي. هذا ما تبقّى لنا فقط من ذلك الماضي الذي أحسه ممعناً في القدم.

وقال كريمو:

- الهدوء الآن والصمت. يبدو أنه آن أن نفترق ونلتقي غداً.

- لكني لم أقدم لك بعد خالتي.

- نؤجل ذلك. لكني لست شبيهاً بذلك الشخص الغريب الذي أسميته سي أحمد.

- خالتي، الأمر عندها سواء. سي أحمد أو كريمو لا يهم.

- لكني لا أستطيع ذلك الليلة وربما حتى في الأيام القادمة.

- إن كل شيء بمستطاع الإنسان. أقنع نفسك أولاً وسترى أن كل شيء ممكن التحقيق.

وقال كريمو وهو يبتعد منه:

- أستطيع إقناعها في أشياء دون أشياء أخرى. هل فهمت؟

- ممكن وغير ممكن.

5

قالت الخالة لسليمان:

- يبدو أنك لم تعد تفتقد ثريا الآن، بعد أن التقيت صديقك كريمو.

قال سليمان:

- المرأة ليست كالرجل. لكني بالفعل لم أعد أشعر أني في حاجة ماسة الآن إلى ثريا. أتساءل فقط لماذا لم ترد على رسائلي المتوالية. الشيء المستبعد الذي أفكر فيه الآن هو أن تكون قد حصلت على رجل آخر.

- ممكن وغير ممكن.

- غير أني لن أستطيع أن أهضم ذلك.. وإلا فإن تأوهاتها في الفراش كانت مجرد نفاق. سأفقد ثقتي إذ ذاك في جميع العواطف البشرية.

- إنك تتكلم ونسيت أنك تخاطب خالتك. أنا لست صديقتك. أنا خالتك.

- أعرف ذلك جيداً. لماذا نخجل من الحديث عن أشياء نفعلها ونستلذها: ألا تتأوهين، وكانت أمي تتأوه.. ويتأوه أبي وسي أحمد وثريا وسليمان و.. و..

انسحبت الخالة وتركته يسرد أسماء الذين يعرفهم والذين يتأوهون ويستلذون في ذلك، وفي قرارة نفسها كانت تقول إن معه الحق. فهي مثلاً تتأوه عندما تذكر اسم سي أحمد وربما تأوهت عندما ترى كريمو. فهي امرأة وحيدة مغلوب على أمرها كثيرة اللحم والشحم ولم تجد إلى حد الآن من يُذهب هذا الشحم عن جسدها. فالبركة في سليمان الذي يُعرفها إلى كريمو. ولكن اسمه هذا غريب، له أكثر من دلالة. والأغلب أنه مخنث لا هو بالمرأة ولا بالرجل.

وهذا النوع من الرجال لا فائدة فيه، إنه يتحدث كثيراً ويعرف في شؤون النساء أكثر مما تعرفه النساء أنفسهن. لكنه في نهاية الأمر، مسلٍّ وممتع. وربما أخطأت الظن فلم يكن اسمه ينطبق عليه. وعادت الخالة من جديد تسأل سليمان:

- متى تأتي بصديقك كريمو إلى البيت؟

- لا أدري. لقد حاولت، لكنه أصر على ألا يأتي معي. وقال إنه ربما لن يفعل حتى في الأيام القادمة.

- يبدو أنه عنيد.

- لا أدري. لكنه يحمل أفكاراً غريبة ويقرأ الكثير من الكتب.

- مثلك.

- بل أكثر.

- إن ذلك لم يمنعه من..

- من النساء.

- اخجل من خالتك.

- سأفعل في المستقبل إذا أصبحت مثل الآخرين. أما الآن فأنا نفسي. سليمان فريد عصره.

- ما رأيك لو تستدعيه لتناول الغذاء معنا اليوم؟

- لقد تواعدنا على أن نلتقي بعد الظهر. ولا أعرف أين يسكن. قال إن بيتهم يبعد من بيتنا بثلاثة شوارع فقط.

وبعد لحظة صمت قال سليمان للخالة:

- ما رأيك أن تذهبي وتهيئي لي فنجان قهوة؟ سأقرأ قليلاً.

فلبّت خالته رغبته وتناول هو كتاباً. وأعجبه أن يكون الكاتب فقيراً ومريضاً ولا يغادر بيته ويكتب بلغة إنجليزية متينة لم تستطع إطعامه. وتمنى أن يكون مثله دون أن يكتب بلغة عربية متينة لا تستطيع إطعامه. وأخذ يقرأ في **شهادة راندولف كارتر**. وأتت القهوة وقالت الخالة:

- ألا تجد أن خالتك لا تزال شابة؟

قال: هو كذلك يا حليمة. لك فخذان ونهدان كبيران وكل شيء. ولو لم تكوني خالتي...

- اسكت فإن الحيطان لها آذان.

- لن يسمعنا أحد. ثم إن ذلك غير ممكن حدوثه. فأنا قد تعودت على كسكس معين من صنع ثريا.

- تعيش وتربي الريش.

- دعيني الآن أقرأ. في المساء ربما جئت بكريمو وستقضين أحسن أيامك في هذا المكان المنطوي على نفسه.

هذه الرغبة تنتاب سليمان أحياناً. فهو يود أن ينفرد بنفسه مع كتاب يقرأ فيه بتمعن صفحات قليلة حتى ولو كان الأمر يتعلق بكتاب تافه. يقرأه بتمعن ولكنه لا ينهيه إذا لم يشده إليه. وأحياناً أخرى يفضل أن ينفرد بنفسه دون أن يكون معه كتاب. يدير مشاريع كثيرة في رأسه تبقى في الغالب من دون تنفيذ. منها مثلاً مشروعات الكتابة، فهو يعتقد أن أفكاره لن تؤدي به إلا إلى الجحيم، وهكذا يظل يكتب ويكتب ويستعرض باهتمام آراء النقاد الأذكياء فيه الذين فهموا عبقريته

وقدروها. حتى إذا انتهى من ذلك خلد إلى الراحة فالنوم. وعندما يستيقظ تكون جميع أحلامه قد ضاعت منه فلا يتذكر منها شيئاً.

أخذ الآن يقرأ بتمعن في **شهادة راندولف كارتر**، وكان يختلط في رأسه ما يقرأه وما يفكر به. باختصار، لم يكن يركز ذهنه. وأخذ يتقلب في الفراش. ووضع الكتاب جانباً وحاول أن يتحدث لنفسه، فتحدث إليها حديثاً متقطعاً. ورأى الكثير من الذباب يحوم حوله ويطن طنيناً مزعجاً. وتصور الغرفة مثل مزبلة. وحاول أن يضع هنا بقية طعام معاف وهناك لحماً نتناً وهناك جثة كلب تجمّع فوقها الذباب. وأخذت الصور تختلط في الذهن لتتشتت في نهاية الأمر. تصور أشياء كثيرة. وأعياه التصور. وقال لا بدَّ أن ينام. لكنه استيقظ قبل لحظات من النوم. ولم يعرف ماذا يمكنه أن يفعل بنفسه. وعاد إلى كتابه وفتحه على فصل **شهادة راندولف كارتر** وأخذ يقرأ من جديد وتذكر أن ما كان في حاجة إليه دون أن يعرفه بالضبط هو تدخين سيجارة. فتّش عن واحدة وأخذ يدخن ويقرأ. ثم يرفع رأسه عن الكتاب ليتأمل الدخان المتلاشي في الغرفة. فهذه إحدى النوبات التي تصيب سليمان أحياناً. يكون محتاراً. مشتت الذهن، لا يعرف ما الذي يفعله بنفسه. وعندما تكون بجواره ثريا فإنها تستطيع أن تسرّي عنه، لأنها تأخذ في مناقشته حتى يقتنع فيهدأ فيسترخي. أما خالته حليمة فهي ضيقة الأفق، لا يستطيع أن يناقشها في شيء. هي شبيهة بأغلب النساء حتى أن المعرّي لو بُعث من جديد وأخذ يقرأ من **رسالة الغفران** لما وجدت أن تقول شيئاً سوى أنه قبيح لأنه أعمى. أما ثريا فهي ليست من هذا النوع من النساء. ليس فقط لأنها ذات عقل وقّاد، ولكنها أيضاً ذات عاطفة سامية غير عادية. وعلى الرغم من ذلك فإن سليمان الآن قد أخذ يشعر بأنه ليس في حاجة إليها. سيجد من يعوضها ولو مؤقتاً، إذا لم ترد أن تلبي دعوته للحاق

به في هذا المكان. فهناك س.. أخت الصبي ذات الفخذين، لن يناقشها في شيء، ولكنه سيعرف كيف يقبّلها أو ينام معها في الغابة أو في البيت. وليس عنده أي مانع أن يفعل الشيء نفسه مع أمها إذا رغبت في ذلك وظلّ كريمو في سلبيته تجاهها. ثم فجأة وضع الكتاب وغادر البيت دون أن يقول شيئاً لخالته. كان الماء الأزرق ممتداً في رأس الطريق. وشعر سليمان بعطش فاخترق صفوف الطاولات وقد تجمع حولها أناس في جلابيبهم يثرثرون، كانوا يختنقون داخل جلابيبهم الصوفية. لأن الحرارة شديدة، بل كان منهم من يرتدي جلابتين وقد ظهرت أقدام بعضهم حافية غليظة مثل أظلاف البقر. طلب كأس ماء وشربها في جرعة واحدة وقال «ميرسي» وسمع صوتاً من خلفه يقول «ما حناش نصارى». لم يهتم لذلك بل كان منجذباً بسحر ماء البحر والأمواج البيضاء المتكسرة وهي تعانق الطريق. قفز إلى تحت وأخذ يجول بنظراته في البلاج. ويُخمّن أين يمكن أن توجد س الآن. عن الشمال أو عن اليمين. وسار بغير اتجاه فوق الرمل المحرق. كان يقترب من الماء فيلفحه هواء البحر الرطب وفتح قميصه عن صدره. ومرّ بكفه على جسده فشعر بقشعريرة.. ثم استحلى ذلك ودار على نفسه دورات متوالية وألقى بكلمة إلى امرأة ممددة فوق الرمل. لكن المرأة لم تسمعه وأعاد الكرّة وهو يتوقف عند رأسها:

- إن لك فخذين رائعين..

- ...

- نهداك كبيران.

- ...

- خصرك نحيف وشفتاك جميلتان.

- ...

- لا أحد يستطيع أن يضاجع مثلي.

نظرت المرأة إليه هذه المرة بغضب شديد ثم أخفت وجهها تحت ذراعيها وهي تقول:

- تفو.

وأضافت المرأة:

- هل أنت أحمق؟ اذهب إلى حال سبيلك أيها الزا (. . .).

أخذ سليمان يقهقه وهو يبتعد منها. وأعجبه أن يرى الغابة كثيفة خضراء ممتدة وبجوارها الفيلات الواطئة. وتمنى لو تكون له فيلا حتى يعرف كيف يشغلها. بالتأكيد، لن يعيش مثل ذوي الكروش الغليظة وبالتأكيد أيضاً لن يصبح قواداً. كان الشاطئ شبه فارغ. ولكن هناك مجموعة من الناس توجد بعيداً بعيداً. قرب مكان يسمونه دار السلطان المهدومة. وفكّر أن يلتحق بهم، لكنه لا يستطيع أن يمشي مسافة ثلاثة كيلومترات. فهو يريد الآن أن يبحث عن س، عن سوسو. إنها تعاني من الفراغ والوحدة. وليس لها حب هنا. على أنها لا تنكر أنها عرفت الكثير من الرجال في الدار البيضاء.

وقال سليمان:

- لكن أخاك الصغير قال إنه رأى شاباً معك.

- إنه لا يرى ولا يسمع، إنه يكذب.

- لا يهم أن يكون لك صديق. المهم أن أكون معك في لحظات معينة.

- أنا شخصياً لا أريد هذا. أريد أن يغار عليّ الرجل الذي يصاحبني.

- ليس ذلك من عادتي. ولكني سأحاول أن أفعل إذا كنت تريدين ذلك حقاً.

ونفثت سوس دخاناً مخدراً من سيجارة الكيف. ناولته السيجارة وهي تقول:

- في الواقع الرجال الذين عرفتهم كانوا يدخنون الكيف. آه لو كنا نتعارف في الدار البيضاء لأريتك أماكن لا تستطيع أن تغادرها 24 ساعة على 24 ساعة. الموسيقى والكيف. هل تضرب على الطبلة؟

- لا. ولكني أتقن الضرب على البندير. هل عندكم بندير؟

- للأسف لا. إن أمي كانت تنظم لنا حفلات مثل هذه. أبي لا يعجبه ذلك. ولكنه يجد نشوة لا حدّ لها بحسب ما تقول أمي. ثم إنه لا يستطيع أن يعاكسني أبداً. أفعل ما أشاء.

وعندما ناولها سليمان السيجارة من جديد سحبت نفساً عميقاً عميقاً. وقفت عارية أمامه بعد أن تخلصت من الروب القصيرة التي لم يكن تحتها شيء. وأخذت تردد كلمات بالإنجليزية.

وقال سليمان:

- هل تتحدثين الإنجليزية؟

- نعم. تعلمتها في الليسيه وكنت في إنجلترا في العام الماضي. عمي يملك معمل نسيج في...

لم يكن سليمان قد وصل إلى المرحلة التي وصلتها. وطلب منها أن تدلّه على الكيف حتى يملأ سيجارة ثانية. إن هذه الليلة رائعة جداً، ولا أحد يدري ما الذي يفعله كريمو الآن مع أمها في الحديقة. فتحت سوسو صندوقاً صغيراً وأخرجت منه قطعة من الحشيش. قالت وهي تجلس بين فخذيه عارية:

- هل تعرف كيف تصنع شيلوماً؟

- لا.. أعرف كيف أدخنه فقط.

أخذت تكسر جزءاً من قطعة الحشيش. ذرته فوق ورق بسرعة.

وقالت إن عليه أن يتعلم كيف يفعل. مزجت كل ذلك مع التبغ الأصفر. وملأت الشيلوم. وسحبت نفساً عميقاً. ثم ناولت الشيلوم إلى سليمان وهي تقول:

- رحلة سعيدة.

ثم أضافت:

- هل تعرف كيف تضاجع؟

قال سليمان:

- نعم. أتقن ذلك مع ثريا.

- ستريني ذلك فيما بعد. أي أسطوانة تختار؟

- لا أدري.

ذهبت س إلى البيك آب، انحنت فظهر شق خلفها. أخذت تدير مؤخرتها على نغمات الموسيقى لكنّ سليمان في هذه اللحظة أصبح مثل كريمو. وقال لا شك أن هذه هي اللحظة الإنسانية السامية حيث لا يشعر الإنسان برغبة جنسية. لم ينبض فيه عرق. وكان يحس بأنه بدأ يسافر مع س، ومع أمها ومع كريمو.. ونادى على س وناولها الشيلوم. فتركت البيك-آب وجاءت لتجلس بين فخذيه وأخذت تدخن بعنف. وقال سليمان:

- إنك تدخنين كما لو كان بك جوع قوي إلى ذلك.

- إني أحب ذلك. اسمع شيري، دعني أفعل ما أشاء. إني لا أدري ما الذي تفعله أمي الآن.

- ما تفعله أمك لا يهم. هل عندكم قطط هنا في هذه الفيلا؟

- لا مع الأسف. نحن لا نحب القطط. نحن نحب الكلاب. هل تحب الكلاب؟

- نعم أحب القطط والسماء والماء و...

- هل تحب أمي؟

- لم أرها بما فيه الكفاية. هل أبوك قوّاد؟
- لا تقل هذا. إنه أبي مع ذلك. وأنت؟ هل أبوك قوّاد؟
- لا.. إنه متقاعد.
- وأنا أيضاً أبي تاجر. ليس قواداً ولا أي شيء.
- لكن اسم العائلة يبدأ بـ(بن).
- لا تكن عنصرياً وإلا طردتك.
ثم نهضت من فوق فخذيه، وأخذت تتلوى في الغرفة كالأفعى.
ثم قالت:
- نحن نحب أن نعيش. أقصد، أنا التي تحب أن تعيش. ما رأيك في أن نفعل الشيء نفسه كل مساء؟
قال سليمان وهو يسحب نفساً من الشيلوم:
- ليس عندي أي مانع. لكن ما رأيك في موشيه دايان؟
- لا أدري. كان عندنا كلب ولم يكن يُسمى موشيه دايان. كان يسمى، كان يسمى. لم أعد أستطيع أن أتذكر.
- اسمه موشيه.
- لا.. اسمه دايان. (صمت) ليس صحيحاً، لم يكن اسمه دايان. آه عفواً. كان اسمه موشيه. هل كلبك يدعى موشيه؟
وقال سليمان:
- إن هذا الحشيش رائع.. لست مدمناً. ولكن أجد متعة في تدخينه. بعد قليل سأرحل.
- رحلة سعيدة.
- وأنت، هل رحلت؟
- لا أدري.
- لا شك أنك رحلت.
- أريد أن نرحل معاً.

- انتظري قليلاً.

واجتذب نَفَساً عميقاً من الشيلوم. ثم تمدد فوق السرير. فتح أزرار قميصه. ألقى بالقميص إلى الأرض. وشعر أن بنطلونه يضايقه. وكانت الغرفة قد امتلأت بالدخان. فالنافذة لم تكن مفتوحة. ومع ذلك فقد كانت الموسيقى تتسرب إلى الحديقة من الجهة الخلفية، هادئة ممتعة. ولم يكن يدري سليمان ما الذي يفعله كريمو في الحديقة. وسيعرف فيما بعد أنه لم يفعل ولن يفعل شيئاً.

كانت الحرارة شديدة. وكان الناس يتراشقون بالرمل، ويضربون الكرة بأيديهم وأرجلهم ورؤوسهم. أما النساء فكانت تنفلت الكرة منهن بسرعة وتسقط على صدورهن وبطونهن وأفخاذهن. وأحياناً يتعثرن فيسقطن فيهرع رجل ليساعدهن على الوقوف. ومن شدّة تكرار ذلك، بدا لسليمان أنهن يتعمدن الدلال والضعف. وقال في نفسه لا بأس، يمكنه أن يفعل الشيء نفسه الذي يفعله هؤلاء الرجال. أما أهل المدينة الصغيرة الذين لم يكونوا سيّاحاً، فقد التفوا في جلابيبهم قرب مجموعة من النساء لا تظهر منهن سوى العيون. وأحياناً يزلن اللثام ويرفعن الجلابة عن سيقانهن الصفراء المترهلة ويمضغن المعلك بفرقعة مسموعة، ويعلقن على البورجوازيات وينتقدن نحافتهن. فالمرأة الجميلة هي المرأة السمينة. وهي التي تعرف كيف تدير حوضها أثناء النوم.

وقالت امرأة لامرأة وهما جالستان فوق السور دون أن يتمكن رجل من سماعها:

- لا أدري كيف تفعل هؤلاء الفتيات في المدينة مع أزواجهن.

وأجابت الأخرى:

- إنهم يحبون فيهن الأصباغ فقط. ليس لديهن لحم ولا شحم.

وقال سليمان لنفسه:

ذاك هو صديقي الصبي. سأدركه فوراً وسيدلني على أخته. وسأسبح حتى أنهك. وربما دخنت حتى أرحل.

وأخذ يجري بطريقة جنونية فلم ينتبه له أحد. ثم رفع عقيرته بالنداء مخرجاً جميع الأصوات البدائية التي لم تكن تعني شيئاً. وسمعه الصبي الصغير، وكان هذه المرة يلعب بكرة. يجري خلفها ويقذفها للموجات المتلاشية، فتطفو فوق الزبد المختلط بالتراب. توقف الصبي عن ذلك. وعندما تأكد من أن سليمان هو الذي ينادي عليه، تأبط كرته وأسرع نحو سليمان. وحاول أن يبسط ذراعيه ليعانق سليمان ربما، لكن الكرة سقطت وهربت منه منحدرة نحو الماء. سبقه إليها سليمان وطوح بها بعيداً. تبعها الصبي وهو يقهقه عالياً. وقال سليمان: «هيه. اتركها. .أين سوسو. . أين حبيبتي سوسو؟».

وأمسك به سليمان من كتفه وقال له:

- سأحتفظ لك بالكرة. اصعد إلى الفيلا وقل لسوسو أن تأتي. سأنزع ثيابي وأنتظرها هنا.

وقال الصبي:

- لا أستطيع؟ الفيلا بعيدة.

- إذا ذهبت سأعطيك دجاجة.

- طيب، احتفظ بكرتي. سأعود سريعاً.

تمدد سليمان فوق التراب الجاف. ولم تكن معه فوطة. وضع سرواله وصندالة عند رأسه. وفكّر أن يذهب إلى الماء. لكنه لم يحتمل أن يلتصق التراب بجسده بعد ذلك، وقال سأنزل إليه بعد مجيء سوسو بالفوطة. وقف وأخذ يلعب بالكرة بقدمه وبطنه وظهره. انحدرت الكرة إلى الماء فأسرع إليها حتى لا تجذبها الأمواج إلى الداخل. وعندما كان الصبي متوجهاً نحو الفيلات، كانت تدور في

رأسه بعض الأفكار حول الدجاجة. سيتمكن من نتف ريشها وتعويمها في الماء. أو أيضاً، سيحتفظ بها في قفص مثل عصفور نادر ويقدم لها الزؤان. ورآها سليمان قادمة. وشعرها الأسود يتبعها من الخلف وقد لعب به الهواء الخفيف والريح المندفعة فجأة. كانت ترتدي سروال جين قديم. وتصور سليمان أنه مفتوح من الأمام. وقال إنها لا تخجل. لكنها عندما اقتربت لم يكن سروالها مفتوحاً ولا هم يحزنون. ولم يكن أخوها معها.

وقال لها سليمان:

- كنت أعتقد أنك نزلت إلى البحر. هل تغدّيت؟

- لا . . كنت أستمع إلى الموسيقى. دخنت سيجارة واحدة بعد الإفطار. وأخذت أستمع لموسيقى البوب.

وقال سليمان:

- انزعي ثيابك.

ضربها بالكرة وهو يقهقه عالياً، وضربته بدورها فطوحت بها إلى الماء. لكن الأمواج ردتها فتلقفتها امرأة سمينة وردتها برجلها فسقطت على مؤخرتها الكبيرة وقالت: «آويلي!».

وضحك سليمان وسوسو. وقالت سوسو:

- سنسبح قليلاً. نتمشى. ثم نذهب إلى الأشجار. هناك يمكننا أن ندخن.

- لندخن هنا. ليس ممنوعاً ولا أي شيء. لقد رأيت بعض الهيبيين يدخنون السبسي على مرأى ومسمع من الجميع.

- بالنسبة إلينا الأمر يختلف. سيمرّ بعض الناس الذين يعرفون أبي. وسيتقوّلون كثيراً.

- كما تشائين. أنت أدرى بكل شيء مني. لكن أخاك ربما ينتظر دائماً دجاجة أو حمامة.

لم ترد عليه سوسو، بل تمددت على بطنها فوق الفوطة التي جلس سليمان على طرف منها. أخذت تفرغ السيجارة من محتوى التبغ بشكل سري. ثم ملأتها وأشعلتها له. وقالت إنها الآن مطمئنة لأن لا أحد استطاع أن يراها. لا أحد من معارف أبيها. لكن الرائحة عندما انتشرت في الفضاء رأى سليمان فتاة شقراء تقترب. كانت متكئة تحت الحاجز الذي يفصل الطريق على البلاج. وقال سليمان لسوسو:

- انظري كم هي جميلة.

- انظر شفتيها المقلوبتين.. لا شك أنها تحب السحاق. على كل حال، فأنا لا أحتمل ذلك الشذوذ. إذا راودتني أصفعها أو أغرقها في الماء.

- كيف عرفت ذلك؟ لا تكوني شرسة إلى هذا الحد.

- لست شرسة. لكنهن كنّ يتبعنني في إنجلترا أينما حللت وارتحلت. إنها قاعدة سيئة تلك.

وعندما اقتربت الفتاة الشقراء، لم تنتبه إلى سوسو، بل كانت نظراتها عالقة بشفتي سليمان الذي تدلت السيجارة من فمه. وقالت الفتاة الشقراء:

- هيلو. الجو جميل.

جلست بالقرب منهما على الرمل الحار. وفهم الاثنان أن الجو جميل جداً. وأن الرائحة المنبعثة من المكان تعطره. وناول سليمان السيجارة لسوسو وقال لها إذا انتهت عليها أن تعيدها له. لكن سوسو لم تفعل، بل وجدت الفتاة ذات وجه بريء. وهي بعيدة كل البعد من أن تكون سحاقية. وناولتها السيجارة، فتلقفتها هذه الأخيرة بلهفة، وهي تقول شكراً. ثم أضافت بعد أن جذبت نَفَساً عميقاً اهتزت له رئتاها:

- إنه جيد. لكن عندنا أحسن منه.
- أين؟
- في البيت.
- هل تسكنين وحدك؟
- لا.. مع مارييتا، صديقة من فنلندا وتامارا من السويد نسكن بيتاً في درب صنديو. هل أنتما من هنا؟

قالت سوسو:

- نحن من الدار البيضاء. إذا شئت فأنا من هنا. أسكن هناك.

وأشارت بيدها حيث توجد الفيلات.

لكن الفتاة الشقراء لم تستمع لها. كانت تهتم بسليمان وكانت تنظر إليه بإعجاب شديد. ولاحظ سليمان ذلك. ورأى أن الشبه كبير بينها وبين ثريا. في ملامح الوجه وفي نحافة الجسم، وحتى في نظراتها الذكية الهادئة. وحاول أن يسترجع صورة ثريا. لكن الفتاة الشقراء أعادت خياله إليها عندما ناولته السيجارة التي أوشكت على الانتهاء. وشعرت سوسو بنوع من المضايقة. وقالت لسليمان إن هذه الفتاة ثقيلة الدم. وأجاب سليمان بأنها جميلة وبريئة. وسألته سوسو:

- هل يمكنك أن تنام معها؟

قال سليمان:

- ممكن. إنها مثل ثريا.
- سأضطر إلى الغضب إذا عدت إلى تكرار ما قلته الآن.
- لماذا سألتني؟ نحن لسنا متزوجين.

وقفت سوسو في انتفاضة قوية وتوجهت إلى الماء بسرعة. لاحظت الفتاة ذلك، وسألت سليمان عماذا كان يدور بينهما. وأجاب سليمان: لا شيء.

وقالت الفتاة:

- هل هي صديقتك؟

- ممكن.

- أستدعيكما لتدخين حشيشنا. درب صنديو ليس بعيداً. إننا نعاني من الملل وحدنا. خصوصاً تامارا، الشديدة الانفعال.

وقال سليمان:

- لماذا تعاني صديقتك تامارا من الملل؟ هل هناك داعٍ إلى ذلك.

- لا أدري. لكننا جميعاً نعاني من أشياء. وأنت؟ هل تعاني من شيء؟

- أنا أعاني من ثريا. وأحياناً أعاني من شيء آخر، من وجود هؤلاء البورجوازيين مثلاً، إنهم يكثرون، ينمون، ينتشرون ويحقدون.

- أنت مثلي إذن، أنا لا أحب عائلتي. إنهم بورجوازيون كثيراً. منذ سنتين وأنا أسافر. أحياناً يرسلون إليّ بعض النقود. تامارا كذلك؟ ماريبتا أيضاً. كانت في السجن. لأنها فوضوية. وصديقتك هل كانت في السجن هي الأخرى؟

- لا يمكن، عندنا لا ندخل السجن بالسهولة التي تتصورينها. خصوصاً إذا كان الإنسان من طبقة معينة.

- شيء غريب.

- نعم. وسوسو لها فخذان جميلان، هذا ما أحبه فيها. علاوة على أنها تتقن المضاجعة بشكل جيد.

- هل تحب ذلك كثيراً؟

- ماذا؟

- النكا (...).

- آه أحياناً. إذا راقت لي المرأة التي سأفعل معها ذلك. مثلاً أنت. شفتاك وعيناك. كل هذه الأشياء توحي بالبراءة. لا شك أنك في الفراش ممتازة.

- لا أدري. لكنك لو عرفت تامارا لما عدت تهتم بي. ألا تغار صديقتك؟

- ممكن. ولكن ما هي الغيرة؟ يجب أن نسألها عن ذلك. ونادى سليمان على سوسو فعادت تجري نحوهما وقد ابتلّ جسدها. كانت تضحك وقد نسيت غضبها الأول. قالت سوسو:

- متى نذهب عند هؤلاء؟

- اسأليها بنفسك. ليس الآن على كل حال. سأذهب لأرى خالتي. سأتغدى وسنلتقي فيما بعد.

وقال سوسو للفتاة الشقراء ذلك، وملأوا سيجارة ثانية. ووافقت الفتاة الشقراء على أن يلتقوا بعد قليل في درب صنديو. ثم قالت سوسو لسليمان:

- إنها ليست جميلة.

وقال سليمان: لكنها بريئة؟

- هل تريد أن تنام معها؟

- لا أدري. لقد سألتني عن ذلك قبل لحظات.

- أريد أن أعرف فقط.

- يمكنك أن تعرفي ذلك فيما بعد؟

وهي تنفث الدخان في وجهه:

- معك حق. على الإنسان أن يحاول معرفة الأشياء فيما بعد، عندما تقع.

6

كانت غرفة مستطيلة، يُصعد إليها من طريق سلَّم حجري عتيق يكاد يتحطم، سلَّم حجري متآكل ضيق، ومظلم. وتحت، تسكن عائلة من حاحا، وهي قبائل مشهورة باللواط والانطواء على النفس وحتى غناؤها متميز بتلك الأصوات الرقيقة المتتالية، والتعاريج الطويلة النحيفة ذات النفس الدقيق الحاد. وقد سأل سليمان الفتاة الشقراء كاري، ما إذا كنّ يجدن مضايقة من طرف العائلة تحت، لكن مارييتا أجابت:

- إنهم طيبون وفقراء. وأحياناً يصعد الأب العجوز ليقدم لنا الحريرة، ويدخن معنا بعض الكيف ثم ينصرف لأنه لا يتكلم الإنجليزية.

وقالت تامارا:

- إن زوجته مريضة بالسل ويبدو أنه ليس للعائلة مرحاض. فقد رأيت الزوجة تقضي حاجتها ذات مرة في فناء النار.

وقالت سوسو عندما رأت الطبلة موضوعة في زاوية من الغرفة:

- من يتقن الضرب على الطبلة؟

وعلى الرغم من أن الموسيقى كانت تنبعث من مانييطوفون فوق الحصير، فإنه يبدو ألا أحد كان يستمع لها. وتناولت مارييتا الطبلة وقدمتها لسوسو، لكن هذه الأخيرة رفضت ودفعتها بيدها، فتحركت

ماريبيتا على عجيزتها، دون أن تقف، إلى الخلف واتكأت على الحائط. فتحت فخذيها ووضعت الطبلة بينهما. وذهب خيال سليمان بعيداً. في حين أخذت ماريبيتا تضرب ضرباً رتيباً على الطبلة، وقد تدلى شعرها الأشقر وظهر نهداها بلا سوتيان من تحت التريكو الشفاف الذي كانت ترتديه، فتشهّى سليمان أن يضم ذينك النهدين الصغيرين المدببين. وقال سليمان موجهاً كلامه لتامارا:

- هل عندكم شيلوم؟

- نعم. ندخن بالسبسي أم بالشيلوم؟

قالت كاري:

- أفضِّل الشيلوم. (ثم لسليمان) هل تعرف كيف تدخن بالشيلوم؟

- أعتقد ذلك.

- هل تعرف كيف تعمل لنا شيلوماً؟

- لا أعتقد.

التفتت كاري خلفها. وأخذت تبحث عن شيء دون أن تراه. ثم توقفت يدها فجأة، وأخرجت شيلوماً من مكان ما. نفخت في داخله، وتناولت قطعة خشب صغيرة وأخذت تنظفه من الداخل.

وقالت كاري لتامارا:

- هل عندك سيجارة شقراء؟

دست سوسو يدها بسرعة بين نهديها وأخرجت علبة «أل. أم» وناولتها لكاري.

قالت هذه الأخيرة:

- ميرسي. أعطيها لتامارا تفرغها وتهيئها مع الحشيش، سأنظف الشيلوم. لقد أصبح مختنقاً.

كانت ماريبيتا لا تزال توقع بعنف على الطبلة، وتضرب ضرباتها

الرتيبة التي لم يصبح لها معنى إلا بعد جذب نفس أو نفسين عميقين من الشيلوم.

وكانت تستمع للحوار دون أن تشارك فيه. وعلى الرغم من أن هناك كوة صغيرة في الغرفة، فلم يكن من الممكن للضوء أن يتسرب إليها، لذلك بادرت ماريتا إلى القول موجهة كلامها إلى سليمان:

- هل معك أعواد ثقاب؟

- نعم.

- أشعل الشمعات.

وقف سليمان بسرعة وتوجه إلى الشمعات وأشعلها، وعاد بالسرعة نفسها ليجلس على الحصير في مواجهة كاري ذات الشفتين المقلوبتين. كان يشعر بأنه يجب أن يملكها عاجلاً أو آجلاً. وكانت نظراتها الموجهة إليه مغرية. لكنها كانت تنقل نظراتها أحياناً إلى سوسو فتخاف منها، لأن سوسو تبدو قوية وعنيفة وشرسة، لمجرد أنها مغربية. وفي الواقع لم تكن سوسو كذلك، لكن من يدري فبين فتاتين جادّتين كل شيء محتمل.

أخذت كاري تملأ الشيلوم بأناة، في حين حوّل نظراته إلى ماريتا وقد اشتدّ ضربها على الطبلة، لم يعد في إمكانه الآن رؤية وجهها، فقد غطّاه الشعر الأسمر الجميل. وبعد الضرب السريع والمتوالي على الطبلة، توقفت فجأة وحركّت رأسها، فعاد شعرها إلى الخلف. ومرّت بظهر كفها على وجهها وعلى جبهتها موهمة نفسها أنها تمسح العرق. ثم بدأ الشيلوم يدور، وعندما كان دور ماريتا تناولته، وجمعت يديها كما لو كانت ستقدم تحية آسيوية.. كان الشيلوم بيديها، وقالت:

- بامبولى سيبا شنكار..

كان ذلك طقساً يجب ممارسته قبل البدء في التدخين، ويبدو

أنها أخذت هذه الكلمات من الهند. لم يكن الآخرون يعرفون معنى هذه الجملة. ولكنهم، جميعاً، تعلموها بصعوبة. وأخذوا يلفظونها قبل البدء في التدخين. وقالت مارييتا:

- كان صعباً عليّ أن أعثر على مثل هذه الأشياء عندما كنت في الهند. إن المغرب جميل.

وقالت سوسو:

- كيف كنت تعيشين؟ أستغرب كونك لم تموتي جوعاً..

- لا يمكن للمرء أن يموت جوعاً أبداً. كنت أشتغل مع الرهبان الهنود في الجبل. أجمع الأعواد وأساعدهم في إشعال النار. وكانوا يقدمون لي ما تيسر من الطعام. لكن أغرب ما وقع لي لم يكن في الهند إنما في أفغانستان.

وقالت كاري:

- لقد حُكي لي أن المرء في أفغانستان عليه أن يصنع قانونه الخاص. عرفت شاباً هولندياً، قال لي إنه ظلّ يتجول مئات الكيلومترات ببندقيته. لقد كان يصنع قانونه.

وقالت سوسو:

- فيري سترينج!

- ليس غريباً ولا أي شيء. إنه الواقع.

ومدّت تامارا يدها إلى المانييطوفون، فسمعت موسيقى دافئة وهادرة في الوقت نفسه.

وكان سليمان إذ ذاك منكباً على الشيلوم، يجذب منه النفس تلو النفس. وأخذ يفكر فيما عساه يكون موقف ثريا لو كانت هنا الآن. وتوصل بسرعة إلى نتيجة: إنها ولا شك ترفض هذا الوضع الإنساني المنحط. فهي لا تحب عالم الحشيش، وتود دائماً أن تبقى بكامل وعيها، حتى تنظر إلى العالم نظرة سليمة. وقال لنفسه إنها على حق

وإنه كذلك يؤمن بها. لكن، في نظره، ليس هناك أي مانع للدخول في تجربة جديدة، شرط ألا يستمر فيها. سينتقل إلى أخرى. ومن الممكن، حتى لو أنه استمر فيها، فلن يكون هناك أي خطر. إن خالته مثلاً تتناول المعجون باستمرار.. وأحياناً تقيم وصديقاتها حفلة «رأس حانوت»، حيث تجتمع النساء ويهيئن الشاي، ويوقعن على الصينية، ويغنين وهنّ متربعات على الأرض، ويتحدثن غالباً عن الرجال بتحفظ. وبعد تناول رأس الحانوت، لا يصبح هناك تحفظ، بل يبدأ الحديث عن الفروج، بشكل علني، تعقبه تأوهات وارتخاء وفتح الثوب عن الصدور، ومدّ الأفخاذ فوق الأرض، وتعرية السيقان.. إنها لحظات سعيدة ولا شك، لكنه مع ذلك لا يريد أن يتورط في شيء من هذا. إنه يفكر دائماً في أن يبقى في كامل وعيه. وقال لماريتا:

- إن كاري بيضاء أكثر من اللازم.

وقالت تامارا:

- نحن لا نحب البحر. نحب أن نتحدث فقط ونتناقش وندخن.

وقالت سوسو:

- أنا أيضاً أحب هذا. حتى أن أبي يخشى ألا أعود إلى الليسيه هذه السنة، خصوصاً أنها سنتي النهائية. هو يتمنى أن أصير محامية. لكني أنا شخصياً أريد أن أعيش.

وقالت كاري:

- شيء جميل. لكن أعتقد أن الإنسان عليه أن يعمل لكي يكسب حياته، لقد أصبحت أفكر في هذا جيداً الآن. هذه الحياة لا يمكن أن تدوم. لا أدري. إنه مجرد افتراض.

وقال سليمان:

- سأنام معكن جميعاً.
وقالت سوسو إن عليه أن يخجل. وقالت تامارا:
- أرى صرصاراً فوق الحائط.
وقالت واحدة:
- إني أرى قرون استشعار الصرصار.
قالت سوسو:
- ذلك مجرد وهم.
وتوجهت إلى سليمان:
- لم نأكل. بعد الحشيش يجب أن نأكل.. ويبدو أن عليّ أن أنصرف. ينتظرني طعام طيب في البيت. كان سليمان قد ارتخى، واتكأ على حائط الغرفة المستطيلة، ومدد قدميه فوق الحصير. انتهزت كاري هذه الفرصة. فتمددت ووضعت رأسها فوق فخذي سليمان. فتدلى شعرها الأشقر وغطّى حوضه.
وقالت كاري:
- إني أشعر بفأر تحت أذني.
قالت ماريتا:
- لا.. ماذا يفعل بين فخذيه. يمكن أن يكون صرصاراً.
- لا أشعر بقرني استشعاره.
قالت سوسو بالعربية:
- إنهن مبتذلات.
وأجابها سليمان:
- لا تكوني حاقدة إلى هذا الحد. يبدو أن الجوع أثّر عليك. يمكنك أن تنصرفي إلى بيتكم.
- لن أخرج، حتى تأتي معي.
- لماذا؟

- سنفعل الحب في الغابة أو في أي مكان. في الحديقة أو في سرير والدتي. لا يهم. إني أشتهيك الآن.

- سنفعل ذلك فيما بعد.

- لا. . الآن. . لكن ليس أمامهن.

وكانت الأخريات قد دلين أهدابهن، وارتخى الشيلوم في يد ماريتا. وأخذ سليمان يتلهى بشعيرات خفيفة على حنك كاري، فشعرت هي بالدفء وأغمضت عينيها. ولم يكن أحد يستطيع أن يعرف ما إذا كانت لا تزال تحس بالفأر تحت أذنيها بين فخذيه. وأصاب سوسو نوع من الجنون. فأخذت تلقي بثوبها. . وأصبحت عارية تماماً، وتمددت فوق الحصير على بطنها. ظهرت علامة على ظهرها فصرخت تامارا:

- فأر فوق ظهرها. فأر هندي.

وقالت كاري:

- لا. الفأر هنا. هيئي شيلوماً آخر.

ثم بعد صمت:

- بامبولى بامبولى شيبا شنكار.

كان سليمان يرى كثيراً من الألوان والصور، وأحسّ بأن ملاكاً صغيراً يوجد الآن بين أحضانه. أحب ذلك واستعذبه. ولم يعد يفكر في ثريا، وظلت سوسو في وضعها ذاك. وكانت الموسيقى لا تزال تنبعث من الآلة التي توجد بالقرب من الجدار. وشعرت أن الحصير يدغدغ جلدها الناعم فاستعذبت ذلك ونسيت الغداء الطيب الذي ينتظرها. وكانت تامارا تتأمل الفأر الهندي بتعجب كبير فوق ظهر سوسو. وأخذت تضحك بهستيريا. في حين ارتخى الجميع. وكان رأس سليمان يتحرك يميناً وشمالاً، وأصابعه تلعب بشعر الملاك الأشقر الذي يوجد بين أحضانه. كان النور لا يكاد يتسرب من الكوة

الصغيرة بالجدار. وكانت إحدى الشمعات قد انطفأت فلم يكلف أحد نفسه البحث عن شمعة أخرى وإشعالها. وتحرك سليمان. رفع رأس الملاك الأشقر ووضعه برفق على الحصير، فصدرت عن الملاك أنّة فيها ضعف أنثوي ظاهر وحنين إلى شيء مجهول. تمدد بالقرب منها، واحتضنها بين ذراعيه. ظلّ في هذا الوضع لحظات. ثم أحسّ رجلاً ترفس مؤخرته. كانت سوسو عارية منفوشة الشعر، تنظر إليه نظرات غريبة. بدت له مثل ساحرة ماكرة. أمسك بيدها وجذبها رغم تمنّعها. ومددها بالقرب منه. ألقى بذراع عليها وبذراع أخرى على الملاك الأشقر. فهدأت سوسو وكان الجميع يشعرون بأنهم في عالم سحري عجيب. استعذبوا ذلك، واستسلموا للهدوء والراحة. وكانت الموسيقى تتشوّه، ترتفع، وتنخفض، وتزعق، وتعذب. كانت تعبّر عن كل شيء، ولا تعبّر عن شيء إطلاقاً...

7

كان هواء المساء منعشاً. والبحر يبدو عن يمينهما أبيض ناصعاً تماماً. فقد أثر ضوء القمر على سطح البحر حتى صار يعكس أشعة تغشي العيون، وبدا مثل مرآة عريضة، صافية. فأحسّ كريمو بانتعاش كبير، خصوصاً أنه لم يشرب كثيراً من الخمر، وكذلك الشأن بالنسبة إلى سليمان، فلم يكن قد تناول الكثير من الخمر لشعوره الآن أنه في حاجة إلى المزيد حتى يرى الشاة حماراً.

وقال سليمان:

- كيف كان انطباعك عن خالتي هذا المساء؟

- إنها تطهو جيداً.

- لا أقصد الطعام. أقصد أشياء أخرى. شخصيتها مثلاً.

وكان كريمو يسبق سليمان بخطوات، وأجاب:

- لا أعرف في النساء كثيراً. أعتقد أنها لطيفة لكنها لم تحبني كثيراً.

- أنت مخطئ. أنت لا تعرفها جيداً. أنت من النوع الذي يروق لها.

- لا يهم على كل حال أن أروق لها أو لا أروق. فهي في سنِّ والدتي.

- عجيب!

- ماذا؟

- لا شيء. منظر القمر، والموسيقى المنبعثة من بعيد.

- آه! فهمت. سترى كيف أنهم سيحتفلون بنا، وسنتفرج الليلة، منذ كم من الوقت لم تحضر حفلة جيلالة؟

- لا أذكر بالضبط. على أني أود أن أتفرج هذا المساء. هل البراريك بعيدة جداً؟ إن صوت البنادير يقرّبها إليّ.

- ليست بعيدة. سنجتاز هذا الحي، وسنصل مباشرة. البراريك معزولة عن الدور المبنية بالآجر كما لو كان بها جذام.

- مثلما هو الشأن في الدار البيضاء. إن الناس يأكلون وينامون ويتغوطون في براريكهم.

- مثل الحيوانات.

- وأكثر. الحيوان يتغوط أحياناً في الخلاء.

- إن الدولة تقول إنها ستقضي على هذه البراريك في نطاق التصميم الخماسي.

- قالت ذلك في جميع التصاميم السابقة.

وكان كريمو لا يزال يتقدم سليمان وخفض صوته، فالحيطان لها آذان. وهو لا يريد أن يبيت ليلته في مركز الشرطة، أو يقبر نهائياً فيه، منسياً مثل عنكبوت في بيت مهجور.

وقال لسليمان وقد أصبح وسط خلاء غير فسيح:

- انظر البراريك هل تراها؟ إنها تلمع تحت ضوء القمر، هل ترى اللهب المتصاعد؟ هناك تقام الحفلة رغم أن الصوت يأتي من ناحية أخرى، ألا تعتقد أنهم سيحتفلون بنا؟

- لا أدري. على أني أتمنى أن تكون الحفلة في العراء وليس داخل براكة من البراريك. وهكذا لن يستطيع أحد منعنا من التفرج.

كانت أصوات البنادير ترتفع كلما اقتربنا من اللهب المتصاعد،

وكان صوت الناي القصبي المتحشرج لا يكاد يُسمع، وقد غطت عليه أصوات البنادير، ودكات الأقدام فوق الأرض، وصيحات بعض النساء اللواتي ربما اشتدّ بهنّ «الحال». وقال كريمو:

- الجو ساخن هناك.

- نعم. أعتقد ذلك. إذا شمّوا رائحة الخمر هل يؤذوننا؟

- لا.. هل أنت أحمق؟ أنت لست ذاهباً إلى مسجد. ألا تعرف أن الحفلة ليست دينية؟ هناك من الراقصين من يكون سكران الآن.

- أتمنى ذلك. أتمنى أيضاً أن نجد من يعطينا الكيف حتى نرحل أكثر.

- أنت تعرف أني لا أحب ذلك.

وعندما بلغا البراريك، كان عليهما أن يهتديا بضوء القمر في الدروب الترابية الصغيرة المتعرجة. كانت هناك حفر كثيرة. ولكنهما استطاعا أن يميزا أغلبها فتجنباها، وأحياناً كانا يسمعان هرير كلاب مربوطة داخل البراريك. وعندما رأى سليمان ثلاثة كلاب متجمعة في فسحة صغيرة مظلمة، قال ذلك لكريمو وأبدى تخوفه فأجاب هذا الأخير:

- يجب ألا تخاف أكثر. هذه الكلاب لا تؤذي.

- إنها ثلاثة.

- ولو.

- لا أريد أن أصاب بداء الكلب.

- لا تكن خوّافاً. سترى كيف أن الكلاب الوديعة باستطاعتها أن تخلي لنا الطريق دون أن تؤذينا.

- سنرى ذلك.

وعندما صارا على مقربة من الكلاب. كانت هذه الأخيرة

متجمدة في الفسحة الضيقة. لا تبدي أي حراك. وهرَّ كلب أسود وتراجع إلى الخلف. لكن الآخرين لم يتحركا. اجتاز سليمان وكريمو الفسحة بقليل. وشعرا أنهما بأمان. وعندما أراد أحدهما أن يقول للآخر إنهما نجوا، قفز كلب آخر رابع قفزة عدوانية على كريمو، فتحرك هذا الأخير حركة مضادة وضرب الكلب على بطنه ضربة آلمت قدم كريمو بقدر ما آلمت الكلب فنبح وفرّ وهو يعرج ناجياً بنفسه. وقال كريمو:

- كيف تجدني؟
- إنك شجاع. لم أكن أعتقد فيك ذلك.
- انظر كيف أنه يتلوى ويعوي.
- أرى ذلك. أخشى أن تتبعنا الكلاب الأخرى.
- لا أعتقد.

وسارا في الدروب الترابية، بين البراريك الرابضة في أمان، باتجاه الإيقاع المنبعث. وكانا كلما اقتربا من المكان، انتشر الضوء حولهما، شيئاً فشيئاً. وقال سليمان:

- بصراحة يا كريمو إنك تشبه سي أحمد.
- في أي شيء؟ إني لا أعرف هذا الشخص.
- أنا أيضاً لا أعرفه لكنه دخل حياتي. صار صديقاً لي، لأنه دخل حياة خالتي.
- أنت لا تعرفه وتقارنني به.
- ليس ذلك مهماً، لا بدّ من إيجاد مقارنات وهمية أحياناً.
- هل هو أميّ؟
- لا أدري.
- هل هو عجوز أم شاب؟
- لا أدري.

- هل هو عيساوي أو جيلالي؟

- ذاك شأنه. يبدو أننا اقتربنا، وستتفرج اليوم كما لم يحصل لنا أبداً من قبل. أخشى أن يشموا فينا رائحة الخمر فيرجمونا. إن هؤلاء الناس متعصبون دينياً.

- سترى كيف أنهم جميعاً سكارى ومحششون.

- سنرى ذلك.

وعندما انحرفا جهة اليمين، أصبحا مباشرة في وجه وسعة كبيرة. كانت غاصة بالناس واللهب يتصاعد وسط حلقة الراقصين والجالسين على التراب والواقفين وهم يتزاحمون بالأكتاف في هذا الجو الصاخب الشديد الحرارة.

مشيا بخطوات بطيئة حذرة. التحقا بالوسعة. لم ينتبه لهما أحد، بل أفسحوا لهما مكاناً دون حتى أن يلتفتوا لهما. إلا أن رجلاً صدمته رائحة الخمر فغير مكانه دون أن يكلف نفسه عناء معرفة مصدر الرائحة. وكان هنالك حوالي سبعة أشخاص، ثلاثة رجال وأربع نساء وسط الوسعة يدكّون التراب بأقدامهم بعنف، وأياديهم تقوم بحركات هستيرية في الفضاء. وكانت هناك امرأة ثامنة ممددة على التراب، وتبدي حركات كأنها في النزع الأخير. وقد أصابها الوهن من شدة الرقص واشتداد «الحال» بها. لم يكن يهتم بها سوى رجل يمكن أن يكون زوجها. كان يقرب من أنفها بصلة، ويطلب من عازف على البندير أن يغير طريقة الإيقاع حتى لا تموت هذه المرأة المسكينة، فما يعزفونه الآن ليس هو (حالها).

وقال كريمو:

- ما أروع هذا العزف!

قال سليمان:

- لكن تلك المرأة المسكينة ستموت.

- إذا عزفوا لها (حالها) فسيسقط الآخرون في مكانها. الأفضل التضحية بواحد بدلاً من سبعة.

- لا يمكنهم أن يسقطوا لأنهم ليسوا صادقين.

- ومن أدراك؟

- أعرف ذلك.

واقترح كريمو:

- الأفضل أن نبتعد من هنا. إني أرى شخصاً يدخن كيفاً. نذهب بالقرب منه؟ من أجلك أنت فقط. أما أنا فلا أستطيع أن أكون شارباً وأدخن الحشيش في الوقت نفسه. ألا تعتقد أن ذلك يقضي على حياة الإنسان بسرعة؟

- لا أدري. لكننا سنلتحق بالرجل فوراً.

ثم غادرا مكانهما، وأخذا يدوران حول الناس. لكنهما لم يعثرا على الرجل إلا بصعوبة فائقة. كان متربعاً فوق التراب، وسبسيه في يده وهو يهزّ رأسه مع إيقاعات البندير وبفعل المقدار الذي تناوله من الكيف.

وقال كريمو لسليمان:

- هل تتقدم وتطلب منه؟

- تقدم أنت.

- لا.. أنت

في الأخير تقدم كريمو، وسط الأجسام المتزاحمة، وجلس بالقرب من الرجل على التراب، تبعه سليمان، وجلس إلى جانبه. وطلب من الرجل عندما أشعل سبسياً أن يمده بنثرة صغيرة. فالتفت هذا الأخير، وقال له إنه يمكن أن يشتريه، وإنه حصل عليه بعرق جبينه. فاشمأزّ كريمو من هذا الجواب ولكنه تمالك أعصابه:

- بع لنا إذا كنت تملك كمية لا بأس بها.

- هات درهماً ونصف.

دسّ كريمو يده في جيبه وناول الرجل الدرهم والنصف. يبدو أن الرجل كان يتاجر في الكيف. وعندما رأى النقود دسّ يده في جيبه وأخرج كمية لا بأس بها وناولها إلى كريمو. أخذها هذا الأخير مسروراً، وأعطاها لسليمان حتى يتبيّن ما إذا كان هذا الكيف من النوع الجيد أم هو مجرد سلعة رديئة. لم يكن سليمان يفهم كثيراً في هذه الأمور، ولكنه فتح الكاغيد، وأخذ يتأمل الكيف الموجود داخله على ضوء النار المشتعلة وسط الدائرة. وعلى الرغم من أنه لم يفهم شيئاً، فقد قال كريمو:

- يبدو أنه جيد.

- كيف عرفت ذلك؟

- انظر. إنه يبدو أخضر.

- وإذا لم يكن جيداً فكيف يكون؟

- أصفر.

- لا أعتقد.

- هو كذلك. يمكنك أن تثق بي. لست حشاشاً، ولكني أعرف ذلك من طريق التجربة.

ثم طلبا من الرجل الذي باعهما كمية الكيف أن يعيرهما سبسيه. وبالفعل أعطاهما الرجل السبسي فملآ شقفين اثنين فقط. دخن كريمو شقفاً واحداً بينما دخن سليمان الشقف الثاني. وقال سليمان:

- يبدو أن الليلة ليست ساخنة بما فيه الكافية.

أجاب كريمو:

- انتظر قليلاً. سوف تسخن الليلة.

وما إن تمّ كلامه حتى أخرج رجل سكيناً طويلة حادّة وهو

يجذب وسط الحلقة. كان الزبد يتطاير من فم الرجل، ورفع ثوب قميصه عن ذراعيه، تفل على السكين، وعلى ذراعه، ثم أخذ يضرب ذراعه بالسكين ضربات رتيبة وهو يدك الأرض ويرغي ويزبد. كانت ذراعه النحيفة تقاوم حدّ السكين، وعلى الرغم من ذلك فقد ظهرت خطوط من الدم حمراء على ذراعه، فزغردت بعض النسوة. إلا أن رجلاً آخر تقدم من الحلقة وانتزع السكين من الرجل حتى لا يقتل نفسه تلبية لنداء هيجان أعمى. وقال كريمو: يكفينا الليلة. يجب أن ننصرف.

وقال سليمان: ذلك رأيي. سنغادر هذه البراريك قبل أن نتعرض لبعض المتاعب.

وغادرا الحلقة فوراً. مضيا وسط الدروب الترابية، اجتازا البراريك. وبعد قليل من الوقت كانت أصوات البنادير قد خفتت، ووجدا نفسيهما وحيدين في الطريق الشاطئية. كانت بعض الأشباح الآدمية تتحرك على البلاج مثل شياطين خرجت من البحر. وقال سليمان:

- ما رأيك يا كريمو أن ننزل إلى تحت وندخن؟

- ليس معنا سبسي.

- نملأ السجائر.

وأجاب كريمو:

- إني أفضِّل، في الواقع، أن أشرب.

- لا يمكنك أن تجد خمراً الآن.

- أعرف أين أجدها، إنها تُباع عند البحارة. ثمن الزجاجة مرتفع قليلاً، لكن الشراب رائع في نهاية الليل، قرب البحر...

اقترح كريمو أن يمشيا حتى المرسى، حيث ترابط بعض مراكب الصيد العتيقة. هناك، يوجد مجموعة من البحارة يسكرون أو

ينامون، أو يفعلون أشياء أخرى فوق الصخور. . اجتازا مكاتب الجمارك ومرّا فوق قوس حجري، وعندما بلغا بعض الصناديق الفارغة المتراكمة، أمر كريمو سليمان أن ينتظر هناك. ظلّ سليمان واقفاً في مكانه، يتأمل السور الضخم القديم الذي بناه ملك معجب بنفسه. أخرج سيجارة وذهب ليجلس على حافة المرسى، ودلى قدميه تحت. كانت رائحة كريهة تنبعث من الماء، ينقلها الهواء إلى أنفه فيزكمه. ثم وقف وذهب ليجلس بعيداً من الرائحة الكريهة. وسمع كريمو ينادي عليه، وبجانبه شخص قصير القامة يضع طاقية فوق رأسه. اتجه نحوهما سليمان، وصدمت قدمه اليمنى قطعة حجر فكاد أن يسقط. وسمع سليمان الرجل يقول لكريمو:

- هل هو هذا؟

- نعم.

وسار الرجل أمامهما، وسبقهما بقليل، ثم قفز إلى أحد المراكب، ورأياه يسحب حبلاً متدلياً في الماء.

كان في نهاية الحبل سطل من الميكا. وأخذ الرجل يُخرج زجاجات البيرة باردة من السطل، وسمعاه يقول: كم واحدة؟

قال سليمان نيابة عن كريمو: بيرتان وزجاجة نبيذ.

ثم ابتعدا من المركب، ولحق بهما الرجل: أنتما تعرفان أن بيع الخمرة بهذه الطريقة ممنوع.

وقال لكريمو: لو لم أكن أعرفك ولد الناس.

وقال كريمو: أشكرك.

دفعا له الثمن. ومشيا نحو بعض الصخور القليلة التي تكوّن كهوفاً واقية، وتساءلا أين يمكنهما أن يشربا هذه الزجاجات. واقترح سليمان أن يشرباها على رمل الشاطئ.

وقال كريمو:

- يمكن أن تكون هناك دورية.

- نجلس تحت السور. . ثم إنهم جبناء لا يمكنهم أن ينزلوا في مثل هذا الوقت إلى البلاج. إنهم يخافون على حياتهم من أجل أولادهم ونسائهم.

- لكنهم أحياناً ينزلون ليصطادوا اليربوع.

- عندما يكونون قد فقدوا عقولهم.

وتلافياً لأي شر قررا أن يبتعدا قليلاً. وهناك انضما إلى مجموعة من الناس كانت مخيمة هناك، وقد سكروا قبلهما. وكانت فتاة أوروبية عارية تماماً تسبح في الماء، والآخرون يصدرون أصواتاً قبيحة وشهوانية.

وقال سليمان: عندما نسكر ونتحشش، نلتحق بها ونفعل لها ذلك.

أجاب كريمو: سنرى ذلك فيما بعد.

جلسا على التراب. وحاول كريمو أن ينزع سدادة الزجاجة بأسنانه فنجح في ذلك.

8

درب طويل وضيق، أمام سليمان. الجدران قديمة مهترئة، والنوافذ ذات الألوان الباهتة تكاد تسقط عن الحيطان. مائلة، متشققة. وبعض الأبواب لا تكاد تُدخل حتى جسم طفل صغير. أما الشارع الضيق فكان مليئاً بالحفر، وعلى جانبيه حوانيت تعرض بضائع غير ذات قيمة. وخلف سليمان، كانت خالته تراقبه من فجوة بين ضلفتي الباب. وقالت «اللّه!» عندما تعثّر ولم يسقط. كان هاجس داخلي يقول له إن خالته تراقبه حتى يختفي عنها. انحرف قليلاً وبدا له المقهى الشعبي غير مكتظ. على الأقل في الخارج. هناك شخصان جالسان أمام كأسَي شاي لا يبدوان فارغين. أو هما فارغان لكن النعناع يملأهما وقد اسودّ. عندما وقف أمام المقهى، أخذ يتأمل في الداخل المظلم، رغم الشمس المحرقة، وفكر في أن يدخل أو ينتظر سوسو. توقف لحظة ثم دخل وجلس في زاوية وأعطى ظهره للتلفزيون المثبت في زاوية أخرى. كان بعض الناس متفرقين حول طاولات قليلة مزدحمة. ولم يكن المقهى شديد الحرارة، على الرغم من أن الجو في الخارج حار. أثارت انتباهه فتاة هيبية مكتنزة وجميلة تقتسم وصديقها القذر إسفنجة واحدة ويتناوبان على شرب كأس شاي واحد. كانت الفتاة جميلة حقاً. وفكر أنها لا شك ابنة أسرة غنية وأنها تفتعل هذه الحياة لمدة قصيرة

على سبيل التجربة وتمنى لو يتحدث إليها. لكن ذلك لم يكن في إمكانه الآن. إذ لم يكن عنده استعداد لمحادثة أي شخص. وقال إنها خير من ثريا، ومتحررة ومغامرة، وتسافر. وحرّك رأسه ليلتفت إلى جسم إنسان يقف عند كتفه. وقال للإنسان: هات كأس شاي. وعندما ذهب الإنسان لاحظ سليمان أنه يلبس فردتي حذاء مختلفتين، والوسخ قد علق بعرقوبي قدميه، وقد ارتفع السروال وكشف عن ذلك. وعاد الإنسان بكأس الشاي بسرعة وعندما شرب منه رشفة وجد أنّ السكر ينقصه فالتفت ليجد وراءه امرأة موشومة اليدين والوجه، وقال لها أن تأتيه بالسكر ففعلت. ويبدو أنها ربة المقهى. حرّك السكر وتمنى الفتاة المكتنزة الجميلة، هذا إذا صدقت تخميناته ولم تكن مصابة بالزهري. على كل حال هذا هو الامتياز الوحيد الذي تنفرد به ثريا وسوسو ليستا مصابتين. ثم رأى جسماً آخر أروع في الخارج، كان يتحرك ويتلوى مثل جسد أفعى، ولم يكن هذا الجسد سوى جسد سوسو. كانت بشرتها العربية واضحة، رغم أنها ترتدي مثل الهيبيات. وسمع من خلفه رجل يقول: «اللّه على حليوة». أما ما لم يسمعه فكان كما يلي: قال رجل ملفوف في جلابته لصديقه: كم تفعل لها؟

وأجاب الآخر: ستة.

قال صديق لهما: وأنا عشرة.

قال الملفوف في جلابته: لا تبالغا، لنتكلم بصراحة.

وقال رجل خلفهم وسبسيه في يديه، وقد لعب الكيف برأسه: ذاك هو المسخ؟ عشْ رجباً ترى عجباً.

وقال سليمان: كيف قضيت البارحة؟

لم تجبه سوسو، ولكنها كانت تنظر إلى الفتاة الهيبية الجالسة بالقرب منهما. وقالت بدلع مغرٍ:

- هنا على الأقل لا يمكن أن يكتشفني أبي. هذا المكان تنقصه موسيقى.

- لكن هناك تلفزيون.

ووقف الإنسان وراءهما. فقالت سوسو دون أن تنظر إليه بأن يأتيها بشاي أخضر. وجاءها الشاي الأخضر فأخرجت علبة سجائر وناولت سيجارة لسليمان. وسمع سليمان مذيع التلفزيون يذيع بلاغاً من وزارة الداخلية. وقال لسوسو أن تسمع فقالت إن ذلك لا يهمها. كان المذيع يتحدث عن مجموعة من الرجال المسلحين الذين هاجموا بعض الثكنات العسكرية قرب جبال الأطلس. وسمع المذيع يذكر بعض أسماء الأماكن: مولاي بوعزة، وتنغير. وقالت سوسو بالفرنسية: هل هي ثورة؟

قال سليمان: نعم.

قالت سوسو: ذلك ليس جيداً.

قال سليمان: من قال لك ذلك. أبوك أم أمك؟

قالت: أنا.

قال سليمان: من الذي بات مع أمك ليلة أمس؟

- عزيزي. لا تكن شريراً.

- لست شريراً. اسمعي ماذا يقول المذيع.

- لا يعجبني. أحب في التلفزيون فقط برامج الأوروفزيون المنقولة عن إسبانيا.

كان المذيع قد كفّ عن ذلك، وجاء بعده معلق يطعن في ليبيا بالدارجة، ويصف زعماءها بالصهاينة.

وقال سليمان:

- أنا أيضاً لا أحب التلفزيون.

- من الأحسن أن نتفق على شيء.

- أو لا شيء.

- إني لا أفهم كلامك.

- ليس ضرورياً أن نتفاهم. لقد قررت أن أسكت لحظة. ما رأيك أن تسكتي وتدخني؟

- سأحاول أن أفعل.

كان الرجال الجالسون هناك قد نسوا سوسو بعد أن تمنوها للحظة وجيزة. وكان سليمان ينظر خارج المقهى ويرشف من شايه. لقد أصيب بنوع من الذهول. لم يكن هناك سبب لذلك. نسي نفسه ونسي سوسو وسمعها تتحدث فالتفت إليها. لكنها كانت تتحدث إلى رجل آخر بجوارها يبدو أنه بحّار، وسمع الرجل يقول لسوسو:

- هل أعمر لك يا مادموزيل.

- ما كرهتش.. ميرسي.

ودفع لها الرجل السبسي، فأخذه منها سليمان:

- ألا تخجلين؟ وأمام الملأ؟

- دعني أدخن.

وأعاد سليمان السبسي للرجل:

- لا نريد أن ندخن شكراً.

قال الرجل:

- طيب، دخن أنت. فوج على قلبك.

- لا. شكراً. لقد جئنا لننتظر أحد أصدقائنا لا لنتحشش. هل تعرف؟ نحن لا نتحشش.

قال الرجل: اسمح لي.

وقال سليمان لسوسو وهو يقف:

- هيا قفي. سنغادر المكان فوراً.

سار أمامها. وكانت هي مشغولة بأزرار سروالها تنظر إلى

الخلف وإلى الأمام. لم ينتبه لها أحد. فكأن عيون النساء خلف الحجاب لا تبصر شيئاً. في حين أن هذه العيون أشدّ انتقاداً. كانت تتبع سليمان وهي تمضغ شيئاً في فمها. ثم قفزت قفزيتن لتتجنب حجراً. وقالت امرأة ملفوفة في حايك، وقد نزل الحجاب إلى أسفل أنفها فبدت كمومس محترمة:

- لو لبست مثلها. ألا تعتقدين أن جسدي يكون أروع من جسدها؟

أجابت الأخرى:

- إنها تمارس الرياضة. جسدها قوي.

- لكنها تنک (. . .) كثيراً.

- من قال لك ذلك؟

- أعرف هذا النوع من النساء اللائي يأتين إلى مدينتنا الصغيرة.

- إنها ليست امرأة، ولكنها فتاة صغيرة، مكتنزة فقط.

- انظري طي(. . .) ها.

قالت الأخرى وهي ترفع الحجاب قليلاً فوق أنفها:

- اسكتي. رجل وراءها.

وقال الرجل الذي خلفها: اللّه على الحياء.

وقال سليمان لسوسو:

- سنذهب لنأكل السردين المشوي.

- ليس بي جوع، قالت.

- نشرب بيرة في البيجو - بار. ستكون لك شهية للأكل فيما بعد.

- لا أدخل إلى ذلك البار، لأن فيه بعض البحارة المكبوتين.

- إنهم طيبون. لا تكوني عدوانية.

جذبها من ذراعها. ودفع الباب المصنوع من دفتين على طريقة

أبواب مقاهي القرن التاسع عشر في أميركا. لم يكن البار كما توقعت، بل كان فارغاً ومظلماً. أخذت تتأمل الرسوم على الجدران. أعجبت بها. وبالألوان الباهتة المختلفة. تخيلت أعماق البحار. فالرسوم توحي بذلك. وقالت سوسو:

- إن أستاذة الرسم في الليسيه ترسم مثل هذه اللوحات.
- لا شك أنها هي التي رسمت هذه الرسوم.
- لا أعتقد أنها تأتي إلى هنا.
- إلا إذا كانت في حاجة إلى رجل.
- أنت معتوه. هل تعتقد أن الرجال انعدموا في الدار البيضاء؟
- لا أدري.

(للجرسون):

- بيرتان باردتان. أدر الحاكي من فضلك. أم كلثوم لا أحبها.

دخل شابان وقد عريا صدريهما. وقفا إلى جانبهما وطلبا خمراً عادية. ألقى أحدهما نظرة على أسفل سوسو، وتلمظ بلسانه. أما الآخر فلم ينتبه لها، بل دفعها قليلاً بمؤخرته حتى كادت تفرغ كأس البيرة على ثيابها. وقالت بالنيابة عنه: «باردون». ولكنه لم يهتم لها مع ذلك. فاغتاظت وشربت كأسها جرعة واحدة. أما سليمان فأدخل يده بين نهديها وأخرج علبة السجائر. رأى البارمان الحركة فتمنى لو يفعل ذلك مكانه. ولكنه تذكر بأن هناك حاجزاً بينه وبينها، فانشغل بالنظر إلى زجاجات الويسكي القابعة فوق عينيه. وقال سليمان:

- لا بدّ أن شهيتك الآن تفتحت لأكل السردين.
- لا أدري. قالت.
- أنا أيضاً لا أدري. لكن من المؤكد أننا سنذهب إلى هناك. ادفعي ثمن البيرتين.
- ما معنى ذلك؟

- ادفعي من نقود أبيك؟

- لا بد أن أقتصد. أنوي أن ألتحق بلندن عندما أحصل على الباكلوريا.

- لا يزال أمامك دهر.

- أنت لا تحبني. إنك تتكلم بطريقة خبيثة.

- أنا أحب ثريا.

- يلعن دين أبوها.

ثم انسحب سليمان من البيجو - بار وتبعته سوسو وهي تدس بعض النقود في جيوبها. ومشيا في الشارع الرئيسي الضيق. ثم انحرفا يميناً. ورأيا الناس يتزاحمون في البنك. ثم سارا في الساحة الصغيرة. وتمنى سليمان أن يجلس في الكافي دي فرانس. كان الإفريز مغرياً وتجمع الشبان والشابات وراء كؤوس الشاي والقهوة. يناقشون - من غير شك - كيفية العودة إلى أوطانهم، أو الاستمرار في الرحلة إلى العالم الفسيح. عالم الفقر والحب والحرية. ولم تكن ثيابهم القذرة تستطيع أن تخفي فتوتهم وجمالهم وطموحاتهم. كانوا يفعلون كل شيء بلا رقيب. ولعلّ أغلبهم لم ينهِ دراسته. ومع ذلك فآمالهم واسعة وحبهم للحياة كبير جداً. تجاوزا المقهى إلى الكشك. ومرّا بالقرب من التياترو المتنقل. وقد تجمع حوله بعض النساء المحجبات ينتظرن افتتاح العرض الأول الذي يحتوي على اسكتشات ساذجة ورقصة أو رقصتين من جبال الأطلس.

وقالت سوسو:

- هل دخلت التياترو؟

- لا أحب ذلك. أعرف مسبقاً ماذا يجري هناك.

- ثمن الدخول غير مرتفع. نصف درهم فقط.

- أعرف. ما يهمنا الآن هو أن نذهب لنأكل السمك ونتفرج على الصيادين. الحياة جميلة، أليس كذلك؟

- لا أدري.

- يجب أن تدري.

سارا باتجاه المرسى الصغير، وقد تركا خلفهما جموع الشباب يثرثرون على إفريز الكافي دي فرانس، وتركا خلفهما كذلك النساء يغتبن بعضهن البعض أمام التياترو. وتركا كذلك الصيدلي التركي المهاجر والمصاب بشذوذ جنسي مبالغ فيه. وتركا الشارع الرئيسي الضيق، والبيجو - بار، وأيضاً ذلك العالم المنزوي داخل الدكاكين والدور التي لا تدخلها الشمس، والتي تكثر فيها النميمة، والفقر، واللواط. وكان البحر..

رأى سليمان الطاولات المسودّة بفعل زيت السمك والأوساخ، والكراسي الطويلة الممتدة بمحاذاتها. وقال:

- إذا كان الصيد متوفراً اليوم، فالكمية ستكون بنصف درهم.

- لا أحب أن آكل هناك.

- إن أباك جمع ثروة لأنه كان يأكل طوال حياته في أماكن مثل هذه. إنها قذرة، أليس كذلك؟

- لماذا تتحدث عن أبي دائماً؟

- لأن اسمه يبتدئ بـ(بن).

- لا أفهم شيئاً. اسمع شيري، لا تكن قاسياً.

ثم عانقت خصره، وضمّته إليها بكل قوة وعنف. وقالت وهي تضمّه:

- سأذهب معك إلى الجحيم. أرجو ألا تتحدث مرة أخرى عن ثريا تلك.

كانت المراكب موزعة على صفحة الماء، والشِّباك منشورة فوق رصيف المرسى. وهناك الصيادون الذين تجمعوا أو تفرقوا فوق هذه الشباك يرتقونها. وحول الطاولات الكثيرة تجمع الناس يلتهمون السمك المشوي بنهم كبير. وأعجب سليمان بالأسوار القديمة التي تحمل مدافع قديمة كذلك. كانت مؤخرات المدافع الصدئة سميكة ومتدلية إلى تحت. في حين تصعد أفواهها جهة البحر نحو السماء. هذه هي وسيلة الدفاع الوحيدة التي كنا نملكها في السابق. وقال سليمان:

- انظري المدافع والأسوار.

- لا أعرف فيما تتحدث.

- المدافع والأسوار.

- ما لها؟

- جميلة.

- هل جئنا لنأكل أم لنتفرج على هذه المناظر التي لا توحي بشيء.

- أنا أحبك.

- أعرف ذلك.

- أريد أن أفعل معك الحب الآن.

- لا أشبع منك أبداً.

- أعرف.

- أنت تشبهين أمك.

- كفى.

- وأنت مثل سردينة.

- أنت أحمق.

انفصلت عنه بغضب، ومشت فوق الشِّباك المنثورة فوق الرصيف. اقتربت من المراكب وجلست هناك. دلت رجليها نحو الماء. في حين كان يفكر هو فيما إذا كان أحمق.. مشى نحو السور العتيق، ووقف تحت الشمس يتأمل ويلمس بكفه مؤخرة المدفع. ولم يكن يشعر بأي شيء. ثم أخذ يصرخ: «سوسو...» ويبدو أنها حاولت ألا تسمعه.

9

حين نسمع صوت البحر
تنبعث الأرواح
مثل خمرة معتقة
تتفتح
وروداً، ، ملحاً، ، صمتاً، ،
لا أدري. . غير أن البحر
يحتوينا
ونداء الأجداد،
يحتوينا.
والغراب الطريد
والجحيم السفلي الأبدي
وصدى الحروب
يحتوينا. .
حين نسمع صوت البحر. . صوت الزمن
نعرف إذ ذاك أن العالم لنا.
وحين. . .
إلخ. . . .
فوق شبه نهر صغير متصل بالبحر، تنتصب قنطرة من البازلت.

وتطفو فوق شبه النهر الصغير قشور الليمون، والمعلبات. . . وأحياناً فضلات آدمية، وأشياء سوداء مثل أحذية قديمة. وتنبعث من النهر الصغير رائحة نتنة هي خلاصة جميع النفايات التي تطفو فوق الماء، أو تتكوم في القاع. وعلى حافة النهر الصغير، صفّت مقاعد خشبية، وأمامها طاولات في حجمها وفي لونها. وراء كل مقعد مجامر فحم، وسطل وسردين مكوم وخبز بلدي. كان الناس يتعاقبون على المقاعد الطويلة يلتهمون السردين المشوي، ورائحة الليمون. إن المنظر شاعري وأليف. وهناك من يأكل بفعل العادة، وهناك من يأكل بفعل الفقر. أما سليمان فأراد أن يأكل بفعل الاشتهاء في حين كانت سوسو ترفض ذلك كله. لا عادة ولا فقر ولا اشتهاء. مشى سليمان فوق الشِّباك، ونظر إليه العمال ولم يقولوا شيئاً. مشى نحو سوسو وكانت هذه الأخيرة تتمشى الآن عند امتداد الرصيف قرب مكتب الجمارك. ولم تحس إلا وهو يمسك بذراعها. استحلت ذلك. وسمعته يقول:

- هل غضبت إلى هذا الحد؟

- لا. . أنا لا أغضب أبداً.

- انظري المراكب كم هي جميلة.

- . . .

- البحر أزرق، والسور يمتد من النهر الصغير إلى مكتب الجمارك.

- . . .

- عندما لا يشعر الإنسان بالشعر يجري في دمه يكون حماراً.

- تكلم بالفرنسية. أنت تعرف أني لا أفهم العربية الكلاسيكية.

- طيب، عزيزتي. . تعالي نأكل السردين. وبعد ذلك نلتحق بالكافي - هيبيز. نشرب الشاي وندخن الكيف، ونستمع للموسيقى.

- إني لا أحب ناس هذه المدينة. إنهم يغتابون بعضهم كثيراً.

ولم يكن رأي سليمان فيهم كذلك، بل كان له رأي آخر. قال الإسكافي لسليمان: إن شباب هذه المدينة لا يفتخرون بالانتساب إليها. إنهم لا يرضون بأن يُقال عنهم إنهم قوادون. اسمع أيها الصديق، إن جميع الشباب هنا يرون أمهاتهم ينـ (. . .)ن وكذلك أخواتهم. يُقال إن هذا الداء، داء الزنا، أُخذ عن اليهوديات. أنت تعرف، إذا قرأت تاريخ هذه المدينة، أنها كانت عاصمة لليهود في القرن التاسع عشر.

وقال سليمان:

- لم أقرأ عنها شيئاً للأسف. ولكن الخبر المثير الذي قرأته هذه الأيام هو هجوم قطيع من الخنازير البرية على سكان ضيعة في أولاد تايمة، فتركهم بين قتيل وجريح.

قال الإسكافي:

- يا للفظاعة! وهكذا داء الزنا منتشر هنا بكثرة. وهو فظيع وأشد إثارة من هذا الخبر الذي ذكرت. ورحم اللّه المجذوب موماد الذي لم يكن يهتم بأحد إطلاقاً. كان يتعرى في الشارع أمام الملأ ولا يكلم أحداً.

وقالت سوسو:

- على أنهم يغتابون بعضهم البعض. إني لا أحتمل هذه الرياح التي تأتي من جهة الجزيرة.

- نأكل سرديناً بسرعة. ونعود لندفأ في الكافي - هيبيز.

مشيا نحو الباعة المصطفين بالقرب من النهر الصغير النتن. لم يجلسا، بل ظلا واقفين خلف الناس الجالسين على المقاعد أو على الأرض. وعندما وصل دور سليمان دفع بعض الأطفال الذين ينظرون بشراهة إلى الآكلين. ناول سردينة لسوسو فرفضت في تأفف. وقالت

إنها لا تحب ذلك. إن السردين جميل فلماذا يأكله الناس. واقترحت أن يمتلك كل واحد من الناس (أكواريوم) في بيته.

أطلّت الأميرة من الشرفة ورأت المتظاهرين يصرخون. وقالت لخادمها:

- ماذا يريد هؤلاء الرعاع؟
- إنهم يطالبون بالخبز يا سيدتي.
- إذا لم يجدوا خبزاً فما عليهم إلا أن يطعموا من الكعك.
- أنت حمقاء. لو لم أكن أحب جسدك لصفعتك.
- لماذا عزيزي؟
- هل تعتقدين أن الناس هنا لم يبقَ لهم همّ سوى امتلاك أكواريوم في بيوتهم؟
- اسمح لي يا عزيزي.

10

هل هذا هو الهدوء الذي كان يبحث عنه سليمان حقاً؟

هل هذه المدينة الصغيرة تستطيع أن تكون نموذجاً لمدينة المستقبل؟

نموذجاً لمدينة صغيرة هادئة يستطيع الإنسان فيها أن يعطي نفسه كلية للتأمل والسكينة. والحب غير المبتذل؟...

هذه هي الأسئلة التي يطرحها سليمان الآن على نفسه. أسئلة تتكرر وتتعدد ولكنها واحدة. كان يود أن ينفرد بثريا هنا، وخالته تقوم بشؤون البيت. يتناقشان ويتأملان، ويفعلان ذلك الشيء غير العادي بينهما: الحب. لكنها لم ترد على رسائله طوال هذه الأيام. وأخذ يتخيلها في حالات انفعال مختلفة. ثم ضمها إليه. وكانت مثل عصفور صغير بين ذراعيه، يحتمي من الخطر. ثم أرهقه الضوء المتسرب من النافذة المفتوحة على باحة بيت مغربي ومدّ يده وحرّك الستارة الملونة قليلاً. وقالت خالته وهي تطل بنصفها الأعلى من الباب:

- متى يأتي صديقك كريمو؟
- ربما هو الذي يضرب على الباب الآن.
- إني لا أسمع شيئاً.
- اذهبي وشوفي.

اختفت الخالة وذهبت لتشوف. أما سليمان فقد جذب الستارة مرة ثانية. وأخذ يحرك قدميه في الهواء، ويصدر صوتاً شبيهاً بصوت محرك سيارة. وكان يشعر أنه سعيد أثناء قيامه بتلك الحركات. ما أروع أن يفعل المرء ما يشاء دون أن يأمره أحد بالتخلي عما يفعل. لكن خالته وهي تطل مرة ثانية بنصفها الأعلى، وقد تدلى شعرها الأسود فغطى وجهها المتورد، قالت له:

- هل أنت طفل؟ ليس صديقك كريمو هو الذي يخبط على الباب.

استمر سليمان في تحريك قدميه في الهواء، وإصدار ذلك الصوت من دون حرج، ودون أن يهتم لخالته. وظلت تنظر إليه. كانت النظرة غير واضحة لأن الشعر غطى عينيها. انسحبت في الأخير، وذهبت تدور على نفسها في باحة البيت. أما هو فكفّ عما كان يفعل. وأخذ ينظر إلى السقف. ثم أغمض عينيه وفتحهما. ورأى شيئاً أمام عينيه اختفى بسرعة. وقال: «عجباً! ذلك هو اللّه». ثم أضاف: «من يدري! ربما كان الشيطان أيضاً». ثم قال صوت مرتفع: «ما أشدّ حمق هذا الإنسان!» وسمع هذه المرة طرقات حقيقية في الخارج. ودون أن يقول ذلك لخالته، سمعها تتحدث إلى شخص، في باحة البيت. واستطاع أن يعرف عندما ميّز صوته أنه كريمو. وأدخلته الخالة وهي تقول:

- الشاي أم القهوة؟

قال سليمان:

- لا هذا ولا تلك. إنه يحب البيرة.

قالت الخالة:

- مع الأسف يا وليدي. البيرة لا تباع في هذا الحي.

وقال كريمو:

- إن سليمان يا خالة يتكلم كثيراً. لا تؤاخذيه. أريد شاياً.

انصرفت الخالة لتعد الشاي. وقال سليمان لكريمو عن الخالة حليمة:

- إنها دائماً تود أن تراك. كل النساء يردن أن يرينك وأنت لا تريد أن تراهن.

قال كريمو:

- أنت تعرفني جيداً. ولا أحب ذلك.

- المهم أن الخالة تريد أن تراك.

- ألا تعتقد أنها رأتني الآن؟

- ذلك ليس من شأني. ولكنها اليوم تريد أن تراك.

دخلت الخالة حليمة، وهي تحمل صينية عليها إبريق وثلاث كؤوس. كانت تبدو من خلال حركاتها أن عمرها نقص عشرين سنة. لم تعد في الأربعين ولكن في العشرين. وأرادت أن تقلد فتاة العشرين في حديثها. لكنها أصبحت مثل الغراب الذي أراد أن يقلد الحمامة في مشيتها، ففقد مشيته الأصلية. ولم يقلّد الحمامة إطلاقاً. وهكذا بذلت الخالة جهداً كبيراً لتستعيد نبرة صوتها الأول. وقال لها سليمان:

- ابذلي مجهوداً أكبر.

- إني لا أعرف عمّا تتحدث.

- ولكن كريمو يعرف.

- إنه شاب ذكي و...

وقال سليمان لكريمو:

- ألا تسمع ما تقوله الخالة حليمة عنك؟

قال كريمو:

- أسمع ذلك. إنها امرأة طيبة. ما أخبار صديقتك ثريا؟

- اسأل الخالة حليمة.

وقالت الخالة:

- بل اسأل سليمان. لا شك في أنها لم تعد تحبه.

وتظاهر سليمان بالغضب. وقرر أن يترك كريمو مع الخالة عقاباً له، ويذهب ليبحث عن سوسو. وعندما أصبح قرب الشاليه، كان الشاطئ شبه خالٍ. قرر أن يمضي على طول الشاطئ فوق الرمال، وأن يتمتع برؤية البحر. ثم بعد وقت قصير التحقت به سوسو. تعانقا ومشيا نحو الأشجار الكثيفة قرب دار السلطان المهدومة. وحدثها عن المجذوب موماد لكنها لم تعرفه. إنه رجل التاريخ الحقيقي. وقال لها:

- كريمو.

- ما له؟

- إنه مع خالتي حليمة. ما الذي يمكنك أن تتصوري حدوثه بين رجل وامرأة في خلوة؟

- أشياء كثيرة.

- مثلاً؟

- الحب.

- هذا شيء عادي. أشياء أخرى غير الحب.

- يتحدثان عن الناس والعالم.

- خالتي لا تتقن الحديث عن الناس والعالم.

- لا شك أنها مثل ماما.

انفصلت سوسو عنه. وجرت فوق الرمل الذي كان يتطاير خلفها. لم يكن سليمان يهتم بها عندما ابتعدت، بل كان يسير بهدوء متأملاً زرقة البحر. وقال لثريا:

- اشربي قهوتك إنها تبرد.

- لا أحب القهوة كثيراً. إنها تثير أعصابي.

- قولي لي أي شيء إذن.

- أحبك. ولا أظن أننا سنفترق ذات يوم.

وقال لها وهو يتمشى الآن وسوسو أمامه:

- غير ممكن. سأظل أحبك دائماً.

ثم ضمّها إليه. وأخذا يمشيان متعانقين على حافة الأمواج المتلاشية والزبد يدغدغ أقدامهما. ثم ضربته سوسو بكمشة ماء. وصاح منتفضاً:

- اخجلي يا ثريا.

قالت سوسو:

- أنا لست تلك المومس ثريا. أنا سوسو. سأبكي إذا لم تناديني باسمي.

اعتذر لها سليمان. تعانقا من جديد. مشيا بعيداً في مكان خالٍ والبحر يهدر من حولهما. عندما تعبا جلسا على الرمل. أعاد سليمان سؤاله:

- ما الذي يمكنك أن تتصوري حدوثه بين رجل وامرأة في خلوة. كريمو وحليمة مثلاً؟

- يمكن أن يحدث ما يمكن أن يحدث بين رجل وامرأة في خلوة.

- الحب مثلاً؟

- مثلاً.

- شيء آخر غير هذا.

- سوف أسأل ماما.

- هل تعرفين أن خالتي تبلغ الأربعين.

- لا أعرف.

- هل تعرفين أن أمك جميلة؟
- لا أدري.
- وأن أباك مصاب بالعجز الجنسي.

وقفت سوسو وابتعدت عنه. أخذت تلقي بثيابها على الرمل في جنون. كان سليمان ينظر إليها في تأمل. فتنة حقاً. جرت نحو الماء وأخذت تغطس تحت الأمواج وتتلهى برفع قدميها فوق سطح الماء. بدأ سليمان يلقي بثيابه. وتبعها إلى الماء. حاولت أن تفر منه لكنه أدركها. وقال لها:

- ما الذي يمكنك أن تتصوري... إلخ.

هربت سوسو منه.. جرت بين شجر كثيف متشابك فوق مرتفع رملي. لم يتمالك سليمان نفسه. جرى نحوها والتصقا وسط الدغل. صارا جسداً واحداً. أخذت الريح تذري فوقهما الرمال. لم يكونا يشعران بشيء سوى أنهما جسد واحد. لم يكونا يتحدثان بل كانا يلهثان..

وكان البحر إذ ذاك يتسع ويتسع.. يزرقّ، يحمرّ، يخضرّ. يتلوّن والرمال تمتد مثل صحراء في الجنوب. رمال البحر أصبحت صحراء. كانا يريان نخيلات قصيرة منتوفة ومتفرقة. وأحياناً نخلاً طويلاً جداً، سامقاً مثل نخيل أسطوري.. كانا يلهثان. بحيرات السراب تمتد على مدى البصر. والقوافل الكثيرة لا تكاد تُرى قادمة من كل مكان. وكان الرجال الزرق من قبائل عريبات يركضون فوق الجمال ويديرون البنادق في الهواء. تلك لعبتهم المفضلة. وأخذ كل شيء - كل الصور - يتلاشى في ماء البحر. ولم يعد هناك شيء. وكان سليمان قد ارتخى الآن على ظهره. ذراعاه مرميتان إلى جانبه. وكانت حواء من حوله تغطيها حبات الرمل التي تذروها ريح خفيفة. ارتدى المايوه من جديد. وقف بسرعة وجرى نحو الماء. كانت

حواء تنظر إليه بعينين متعبتين. وقد اندسّ شعرها في الرمل. وخلف ظهرها كانت ظلال الشجر الكثيف تنسحب إلى الخلف. ولم تكن ترى بوضوح سليمان، بل كان أمامها آدم عملاقاً. . ذا عضلات، يدخل في الماء. يضرب الأمواج بذراعيه القويتين. يغطس. وحوله صور لأشخاص غرباء صغار الأجسام يفعلون مثله. ثم أخذت الصور تتبدل. تتغير. تتلاشى. وذهبت سوسو في نوم عميق.

انتهت يوم 13/ 12/ 1974

بيضة الديك

1984

باب من فتح اللّه عليه

أحياناً لا أدري كيف يُدفع كراء هذه الغرفة في نهاية الشهر، أو نهاية الشهرين، كثيراً ما دفعت «غنو» عنا، اسم غنو لا يعجبها. تسمي نفسها جيجي. هي صديقتي ولا أعرف ما إذا كانت قد خانتني مع الثلاثة الآخرين. ولكن ذلك لا يمكن، لأن هناك احتراماً معيّناً بيننا. على الأقل هذا ما أشعر به عندما تراودني نفسي عن واحدة من نساء أو فتيات أصدقائي. لا أستطيع أن أفعل ذلك، حتى لو وضعوا المشنقة حول عنقي. ثم إني لست من ذلك النوع من الرجال الذين تحدّث عنهم تولستوي في **سوناتا إلى كروتزر**. قليلة هي الكتب التي قرأت ولكن أروعها هو **سوناتا إلى كروتزر**. أقرأه وأعيد قراءته. قيل لي إنه لكي تفهم كتاباً ما أكثر، عليك أن تكون حاصلاً على الباكالوريا. هذا غير صحيح. كثيراً ما أتناقش مع بعض طلبة الكلية لكنهم يفكرون مثل أطفال. أنا لم أحصل على شهادة. طردتني أستاذة رومانية عندما أعطتني صفراً في مادة الفيزياء على دورتين. وبدا أني شاب غير مرغوب فيه، علي أن أترك مقعد المدرسة لشاب آخر، خصوصاً أن البلاد تجتاز حالة تقشف. والتقشف معناه النقص في المدارس والنقص في أقراص الدواء والحقن والأسرَّة في المستوصفات والمستشفيات، لكن لا يهم. كل واحد يولد برزقه، ولا حاجة بنا إلى ما يمليه أستاذ العربية: «أعقلها وتوكل». لأنني

أتوكل دون أن أعقلها. ولن يستطيع أحد أن يسرقها أو يركبها لأني متوكل ولأني ولدت برزقي. وهكذا تمسك يد الرومانية على التراب أو على الصفر. فأنا أعيش.

قالت غنو:

- إنك برزقك، رغم أنك لا تشتغل. لم أرَ رجلاً مرزاقاً مثلك. ولذلك أحببتك وسوف أظل أحبك إلى أن نموت معاً.

المهم أنني لا أموت جوعاً. غنو تشتري لي أحياناً بعض الثياب، الأصدقاء يشترون السجائر. ونأكل من مائدة واحدة لا أدفع عن محتواها قرشاً. كانت صاحبة الصيدلية هي التي توسطت لي أول الأمر لأكتري هذه الغرفة فوق سطح عمارة من خمسة طوابق. الغرفة ليست ضيقة وليست واسعة. لكن المرحاض يوجد في إحدى زوايا السطح. يكون ذلك متعباً جداً خصوصاً في فصل الشتاء، وعندما يستيقظ المرء في عزّ الليل ويريد قضاء حاجته. لها شبه مطبخ ينام فيه واحد أو اثنان أحياناً. دخلت معي صاحبة الصيدلية التي كنت مستخدماً عندها إلى الغرفة ذات يوم. رفعت عينيها إلى سطح الزنك. كانت فيه بعض الثقوب التي عرفت كيف أغطيها فيما بعد. جالت بنظراتها في الزوايا، ثم ألقت بنظرة خلف الباب إلى المرحاض في الخارج:

- أنت الآن مستريح. لن تصل بعد متأخراً عن العمل من حي مبروكة. سوف تربح فلوساً، سوف تدّخر، وسوف يكون لك أبناء في هذا البيت المريح.

- أشكرك. هذا ما كنت أبحث عنه. مكان مثل هذا أحسن من النوم مع سبعة إخوة في بيت ضيق يتنفسون عليّ كل ليلة.

لكن صاحبة الصيدلية طردتني بعد عام من العمل لديها. قالت إن ذلك فضيحة، ولا يمكن لفضيحة من هذا النوع أن تلحق بالعائلة.

أختها لا يمكنها أن تحب مستخدماً فقيراً مثلي. وأنا لم أكن أعرف ما إذا كانت تحبني حقاً. لم يظهر لي ذلك في تصرفاتها أبداً. لكننا كنا نتفاهم. نتناقش. وكانت تقول لي يجب أن تكون ماركسياً. حياة الكلاب هذه التي تعيشها لا تليق بشاب مثلك. طردتني صاحبة الصيدلية رغم أني حاولت أن أشرح لها كل شيء.

قالت لي:

- هؤلاء المراهقات لا يعرفن أين يضعن أقدامهن. عندما تكبر سوف تعرف أي خطأ ارتكبت.

- ولكنها، سيدتي لم ترتكب أي خطأ. إنها فتاة طيبة وذكية.

- لا يهمني.

حاولت أن أبحث عن عمل آخر في إحدى الصيدليات. لكن دون جدوى. في الشهور الأولى كان حسن هو الذي يدفع الكراء وثمن الأكل. ذلك يضايقه كثيراً، لأنه كان يرسل بعض المال إلى عائلته في مكناس. بعدها سكن معنا دحو والمختنر، أخذت الأمور تهون. وبعدها تعرفت إلى جيجي فأصرّت على أن تحبني وأن تعيش معنا. هذا شيء رائع، كل واحد يولد ويولد رزقه معه. ويمكن للمرء أن يتوكل دون أن يعقلها. ولا أحد يستطيع أن يركبها أو يسرقها. ويد الرومانية أو صاحبة الصيدلية على الصفر أو على التراب. كان والدي الذي يبيع بعض الخضر المتعفنة في سوق الحفرة لا يستطيع أن يُعيل هذه الأفواه كلها. كل شيء ارتفع ثمنه. أربعة إخوة لا يذهبون إلى المدرسة لأنه لا يستطيع أن يدفع عنهم. يظلون يتسكعون، يتشاجرون، أو يتاجرون في أقراص المخدرات لأطفال في سنهم. الاثنان الآخران ليسا متفوقين في دراستهما. وكان والدي يقول:

- يجب أن تدرس. أنت الكبير. عليك أن تحصل على وظيفة مع المخزن لكي تساعدني.

أما الوالدة:

- أبوك ما عادت له صحة. وخضرواته المتعفنة، يلقي بنصفها في المزبلة. عليك أن تصبح شرطياً لترفع رأس أمك عالياً في الحي. إخوتك دائماً مظلومون من طرف الأطفال. هم في حاجة إلى من يدافع عنهم.

لكن مع الأسف لم تستطع الرومانية أن تحقق آمالهم فيَّ. مزّقتُ نتيجة الطرد المدرسي وفررت من البيت. وعندما وجدت عملاً لدى الصيدلية عدت إليه. شيء قليل خير من لا شيء. لكني فررت من البيت مرة أخرى. ليس في طاقتي أن أعيل كل هذه الأفواه. ولم أعرف كيف كان أبي وأمي يستطيعان أن يعيلانا. الحاجّة صاحبة العمارة حاولت طردي بعدما طردتني صاحبة الصيدلية، لكني صمدت. هذا غير ممكن. إلى أين أذهب؟ شيئان يجب أن يتشبث بهما الإنسان: بيته في الحياة، وقبره في الممات. المأوى هو كل شيء بالنسبة إلى الإنسان في الحياة أو في الموت. استطعت أن أتدبر أمري معها؛ رغم أنها حاولت أن تهددني بشخص ذي عضلات كأنه مصارع روماني. كنت ألتقي به في سُلّم العمارة ولا أتحدث إليه. تدّعي أنه ابنها، ولكن الناس كانوا يتحدثون عن علاقة أخرى بينهما. ذلك ليس أمراً مستحيلاً. قالت إحدى الجارات ذات يوم:

- وماذا تنتظر من يهودية أسلمت؟

قال عجوز:

- إن اليهود يدخلون دين الإسلام لكي ينجبوا من المسلمين، فيقووا شعبهم. إنهم يرتدون - طوال الأسبوع - الجلباب والبلغة والرزة ويذهبون إلى المسجد. لكنهم يوم السبت يغيرون ثيابهم ويذهبون إلى البيعة.

- ما سمعت بهذا.

- أنا الذي أعرفهم جيداً. أنا أكبر منك سناً، وعشت معهم منذ طفولتي في حواري المدينة القديمة.

حرّضت الحاجة مراراً عليّ ذلك البغل. ولكني كنت أتجنبه، فجسمه يساوي ثلاثة أضعاف جسمي، لكنه عندما شرب زجاجة نبيذ، ظلّ ليلة بأكملها يركل باب الغرفة:

- اخرج أيها الكلب، لأفصل رقبتك عن جسدك، هل هذه الغرفة تركها لك أبوك إرثاً؟ هل صحيح يا ابن... أنك شتمت سيدتك الحاجة، ونعتّها بتلك الصفة؟

حاولت الساعات الطوال ألا أهتم لهياجه. كان يركل الباب ثم يذهب ليعود مرة أخرى وهو أكثر اهتياجاً.

اختفى الصوت. لكنه عاد في الثالثة صباحاً. كانت الكلمات تخرج من فم ذلك البغل بطيئة بفعل الخمر. وكان يدفع الباب بقوة وهو يشتم. لم أتمالك نفسي، مددت يدي إلى قطعة حديد في الدوش. تربصت وفتحت الباب. لم أكن أعرف ما أفعل. واحدة في الرأس والأخرى في الكتف وأخرى في الهواء. خرّ البغل مجندلاً أمامي تحت الضوء الخفيف المنبعث من الباب. ألقيت بالحديدة داخل الغرفة، اقتربت منه وأمسكته من شعر رأسه. سمعته يهذي ويشتم دين أمي، قال أيضاً إنه غداً صباحاً سوف يقتلني. لم يعد يهمني السجن أو القتل لكن حياة الكلاب هذه أرفضها، تذكرت «كُن ماركسياً» لكني لا أعرف شيئاً عن الماركسية، إني أقرأ تلك الأشياء ولا أفهمها. لا أفهم سوى بعض الروايات. القتل أو السجن شيء واحد. لقد خسرت كل شيء على الرغم من أني لم أربح قط شيئاً. هذا البغل، يأكل ويشرب وينام عند أمه الحاجة. إذا ذهبت معه إلى السجن فسوف أحرمه ولو لأيام من متعه تلك. متع أي بغل أن يأكل وينام ويشرب ويفعل الحب.

سمعت خطوات امرأة على السلّم، فابتعدت من هذا الجسد العريض الطويل. وقفت عند باب الغرفة، حجبت قليلاً من الضوء الباهت الذي كان ينتشر على السطح. سمعت صوت الحاجة:

- عمر.. عمر.. أجبني أين أنت؟

أطلّت الحاجة برأسها، صرخت:

- ناري! ماذا فعلت يا ولد الكلبة؟ هل قتلته؟ سوف تؤدي الثمن غالياً. ألا تعرف يا ولد الحرام أني أعرف المقدم والخليفة والعامل والكوميسير؟

- سأقول لهم كل شيء هؤلاء الذين تعرفينهم. سأقول لهم إنه ليس ابنك وإنك تتاجرين في الخمر والكيف والنساء. عندي شهود. هل تعتقدين أني لا أعرف من أين تعيشين يا شارفة؟

- متى تعلمت الكلام يا ابن الكلبة؟ لقد كنت لا تستطيع حتى رفع عينيك في وجهي.

- أنت التي علمتني كل شيء يا حاجّة. تريدين طردي من هنا. سوف أموت هنا. حتى لو استعنتِ بشكنة من العسكر.

أغلقت ورائي الباب، وتمددت فوق السرير الصغير الذي لا يتسع لشخص، وسمعت الحاجة في صوت متحشرج باكٍ وهي تنادي عليه:

- عمر.. عمر. أفق. هل أجلب لك بصلة؟ إن دمك لا يسيل بغزارة. لماذا شربت كثيراً هذه الليلة؟

سمعت صوته، ثم صوت خطواته متوجهة نحو الباب. ضربه بقبضة ضعيفة:

- غداً أقتلك. سوف تعرف من أنا. لن أذهب إلى الكوميسارية. أنا أعرف كيف أصنع قانوني بنفسي.

لكنه لم يقتلني في صباح ذلك اليوم. كانت الضمادات حول

رأسه. رأيته جالساً على كرسي عند باب العمارة وهو يدخن بنهم شديد. عندما اقتربت من الباب رفع رأسه إليّ، وعيناه تتقدان إنسانية هذه المرة. لم يعد ذلك الوغد القذر الفظ. تساءلت كيف يمكن لتصرفات إنسان ما أن يكون الغرض منها شيئاً معيّناً، إلا أنها تعطي نتيجة معكوسة. لاحظت أن ذلك يتجلى بالخصوص في العلاقات النفسية للبشر. كثيراً ما تحل حالة مكان أخرى: غضب بدل فرح، وحقد بدل حب. قال عمر:

- إن ما فعلته أمس لا يليق بشاب مهذب مثلك.

- لقد كنت أنت البادئ. حاولت مراراً أن أتمالك أعصابي، لكنك أثرتها في نهاية الأمر، هناك بشر لهم قدرة خارقة على إثارة أعصاب حتى الجماد.

- لقد كنت سكران. كان عليك أن تفهم ذلك.

- لو لم أفعل ذلك لكنت قد ارتكبت أكبر حماقة في حياتك.

- لا تؤاخذني. إني لا أستطيع أن أفعل شراً بالبشر أمثالك.

سلمني سيجارة بيد عليها خدوش ربما كانت نتيجة ما وقع أمس. صعدت إلى الغرفة، وقلت هذا كسب جديد. سوف أستريح من كابوس طالما أرقني. الحاجّة من دونه لن تستطيع أن تفعل بي شيئاً. إنه كل شيء. هو قلبها حين تحب وتكره، هو عقلها حين تفكر أو تأتي أي فعل. لقد كانت معركة أمس مفتاحاً جديداً لحياة أخرى جديدة، ربما لن أعرف نهايتها. في المساء صعد إلى الغرفة بزجاجتي نبيذ ونصف دجاجة مشوية اشتراها من محل «تشيكن هاوس» على بعد حوالي أربعين متراً من العمارة. وفكرت أنني مرزاق فعلاً. ذهبت ونظفت طبقاً وكأسين. وقال عمر:

- يجب أن نصلح خطأنا. الإنسان الحقيقي هو الذي يكون قلبه كبيراً، يحاول أن ينسى أخطاء الغير..

قلت:

- متفق معك يا عمر. أنت رجل طيب. لكن لا أدري ما الذي أصابك ليلة أمس.

- لقد كانت العجوز هي السبب. لقد ملأت عقلي بأوهام كثيرة. تحت تأثير الخمر.

- إنها عجوز شريرة. أعرف أنك لست ابنها بالتبني.

- متى كانت لي أم مثل تلك العجوز؟ لا أكتمك شيئاً يا رحّال، إني أبحث عن مكان أدخل فيه مسماري فقط. أنا أعيش. إذا لم أفعل ذلك فإلى أين أذهب؟ حتى السجن دخلته ثلاث مرات. المرة الرابعة هي التي أنقذتني حينما حطمت وجه شرطي أراد أن يأخذ فتاة بالقوة.

- إنه لشيء ضروري لأي إنسان أن يجد له حائطاً كي يدق فيه مسماره. أنا لم أجد إلى حد الآن سوى الخشب المسوس.

- عليك أن تصبر. أعرف أن حياتك قاسية. اعتمد عليّ ما دمنا قد ربطنا علاقة صداقة.

صببت لعمر، شرب الكأس الأولى جرعة واحدة ثم ضرب بالقاع:

- تلافياً لمرارة الكأس الأولى يجب أن تشرب دفعة واحدة. هل تدري لماذا اشتريت نصف الدجاجة هذه؟ من أجلك أنت فقط. أما أنا فالطعام متوفر لدي تحت. الفتيات تحت يتقنّ الطبخ. سوف آكل مثل خنزير، وسوف أتذكرك.

ثم أضاف عمر:

- هل تدري لماذا أرادت الحاجة طردك؟

- لأنني لا أدفع ثمن الكراء.

- إنها تريد شباناً آخرين يعيشون تحت رحمتها. كل يوم تأتي

مجموعة وتسأل عن غرفة فارغة. لم تكن تفكر إلا في غرفة السطح هذه. ما رأيك أن تُسكن معك اثنين أو ثلاثة أشخاص يدفعون ثمن الكراء ويخففون عنك الكثير؟

- فكرة جيدة.

ثم بعد ذلك كان حسن ودحو والمخنتر. كانت لي علاقة سابقة بالمخنتر وحسن أما دحو فهو صديق المخنتر. بعضنا ينام في الغرفة وبعضنا ينام في المطبخ. لم يكن يهمّنا المكان الذي ننام فيه. كنا نشعر أحياناً أول الأمر بإحراج عند وجود النساء. لكن كل شيء يؤلف ويتعود عليه.

وقال عمر:

- هل تعرف أني لست من الدار البيضاء؟

- لا أعرف.

- أنا من مراكش، اغتصبت فتاة وفررت بنفسي من هناك. كانت تحبني، لكن أباها كان شريراً. لقد جنت عليّ تلك الحادثة. اجتزت مباراة للالتحاق بالجمارك. نجحت في الامتحان، ولكن عندما وقعت الحادثة اضطررت للاختفاء. إن طريق النساء هي طريق الشر. تفو عليهن! وبعدها جئت إلى الدار البيضاء. دخلت السجن، والتقيت فيما بعد بهذه الشارفة الهارفة.

- على كل حال لقد وجدت لك ملجأ.

- إني أعيش كملك. ولا أعتقد - فيما لو كنت قد أصبحت جمركياً - أن أعيش مثل هذه الحياة. إني لا أفعل شيئاً الآن. لكن حياتي قد تصبح مهددة ذات يوم. هل تعرف أي عالم هذا الذي

تعيش فيه الحاجّة. إذا ما وقعتْ فسوف تجرُّ معها العشرات من الناس. وأنا طبعاً، سأكون في أول القائمة.

- إني أثق بذكائك. لا يمكن لامرأة مثل تلك أن تورطك.

- يجب أن تعرف النساء.

الوقت تجاوز الثانية عشرة ليلاً. كنا قد شربنا. وقد اقترح عمر أن ينادي على المرأتين من تحت. قلت له:

- لا نريد مشاكل مع تلك العجوز.

- صحيح. يجب أن تنسى حادثة أمس أولاً، إنها امرأة حقود. أنت لا تعرفها.

- يظهر عليها ذلك، لكن يبدو أنها لا تستطيع أن تحقد عليك.

- عندما تحقد فإنها لا تميز بين عمرو وزيد. لقد علمتها الحياة كيف تحقد. ومع ذلك فحياتها لا يستطيع أي إنسان أن يعرفها كلها حتى لو سكرت.

- هل تشرب؟

- إنها تشرب مثل بالوعة، رغم أنها حجت ثماني مرات.

كانت الكلمات ثقيلة في لسان عمر. أنا أيضاً شعرت بنوع من الارتخاء. عظام الدجاجة بعضها ممضوغ والبعض الآخر علقت به نتف من اللحم. الخبز أيضاً فوق الطاولة اكتسب لوناً أصفر، لون الزعفران. وقال عمر:

- سأنزل إلى تحت، لأرى ما يحدث هناك. سوف أكمل السهرة.

- إنك ملك فعلاً. لاتستيقظ حتى ساعة متأخرة من النهار.

- لا شك أن إحدى الشخصيات البارزة تكون الآن في بيت الحاجّة. ومع ذلك فأنا شخصياً لا أثق برجال السلطة. إنهم يمكرون مثل الثعالب.

- حسناً تفعل. لا تثق بأمثالهم.

هذه حياة أخرى تبدأ بالنسبة إلي. لقد أصبح كل شيء سهلاً. ضمان المأوى والأكل. ليست هناك مضايقات. الحاجّة نفسها بعد مرور ثلاثة أيام أصبحت تستدعيني إلى البيت لأتغدى أو أتعشى معهم. كثيراً ما كانت تعدني:

- لقد كان معنا كوميسار أمس، تحدثت له عنك. وعدني أن يشغلك في البوليس.

- إني لا أحب تلك المهنة.

- وهل هناك شخص في الحياة لا يريد أن يكون من رجال المخزن؟

- أنا.

- هل تعجبك هذه الحياة. ماذا سوف تأكل. تبدأ أول الأمر كشَكَّام (مخبر). ثم سوف تترسم معهم. سيكون لك كل شيء في الحياة. أنا نفسي أعمل معهم.

ثم أخرجت الحاجّة بطاقة لم أميزها من بعيد. كانت تخفيها في أحد الجوارير عند زاوية السرير.

هذا نوع آخر من الحياة إذن. ولكني لا أريد أن أشتغل إلا في صيدلية أو شركة، أو أي عمل حر. ولا أدري لماذا تذكرت إخوتي وأمي وأبي. هل أصبح من أجلهم مخبراً. لا أستطيع. يمكنني أن أفعل أي شيء إلا ممارسة تلك المهنة. كان أبي يريد دائماً أن أصبح شرطياً. وربما اعتقد أني سأحميه عندما يداهم رجال القوات المساعدة جميع الباعة المتجولين، ويأخذون منهم سلعهم إلى المقاطعات بدعوى أنها ستقدم إلى الملاجئ الخيرية. ولكن ذلك لم يكن يحصل، بل كانت توزع تلك السلع على موظفي المقاطعات،

والنصيب الأكبر للخليفة أو للقائد. مسألة المأوى أو الأكل لم أعد أفكر فيها فيما بعد. ما كنت أفكر فيه هو بيت فقير حقير في حي مبروكة. كان ذلك هو الشيء الذي يؤرقني كثيراً، ولكن كل واحد يزداد برزقه. كم طفل لم يلتحق بالمدرسة ولكنه استطاع فيما بعد أن يكوّن له ثروة. الحاجة لم تعرف المدرسة لكنها أصبحت غنية. كم من حاج ومن حاجة يمتلكون الفيلات والحسابات في الأبناك والأسهم، ولا يعرفون كيف يمضون أوراق معاملاتهم. إذن لا داعي للتفكير في ذلك البيت الفقير في حي مبروكة. فكل الأحياء في الدار البيضاء فقيرة وحقيرة، باستثناء تلك الأحياء التي يتنافس سكانها على تنويع معمار فيلاتهم. إنهم لا يعيشون معنا ولا يعرفوننا. حتى ثيابهم ولوازم بيوتهم يجلبونها من أوروبا. وبناتهم لا ينظرن إلينا، ولكنهن ينظرن إلى أولئك الشباب الشقر من الأوروبيين. وكثيرات منهن يحببن اليهود. تفو عليهن وعلى آبائهن وأمهاتهن وعلى من كبَّر لهن الشأن. وكثيراً ما تمنيت أن يقع زلزال في الدار البيضاء حتى يصبح عاليها سافلها وسافلها عاليها. ولكن أبعد اللّه عنا الشر. أولئك الكلاب سوف ينتفضون كما تنتفض العنقاء من الرماد، ويبنون ثروتهم من جديد، أما نحن فسوف نزداد فقراً ونفقد مآوينا.

وقالت الحاجة:

- إذا لم ترد أن تشتغل شَكَّاماً مع البوليس فإني أعرف مدير أحد معامل البلاستيك في عين السبع يمكنه أن يجد لك عملاً.

- لكن يلزمني ركوب ثلاث حافلات.

- كم أنت ولد مدلل.

- لست مدللاً يا حاجة، ولكن أعرف أولئك الاستغلاليين. وما سوف يدفعونه لي، سأدفعه من أجل وجبة غداء وعلى سجائر وركوب الحافلات ست مرات في اليوم.

- معك حق. هذا كلام معقول. إذن عليك أن تشتغل شكّاماً.
- لن أفعل حتى لو متّ جوعاً.
كل إنسان يزداد برزقه في الدنيا. ولا شك أن صاحبة الصيدلية سوف تندم ذات يوم وسوف تعيدني إلى العمل عندها. ظللت على ذلك الأمل طويلاً لكنه لم يتحقق. كما ظللت أحلم دائماً بحصولي على جواز سفر، ولكنه لم يتحقق حتى الآن. ومع ذلك فإن الإنسان يستطيع أن يعيش وألا يموت جوعاً أو عطشاً. جيجي أيضاً ظلت تمنيني بعمل. كانت تشتغل في أحد الملاهي الليلية. لكنها بعدما استطاعت أن تغري مسير الملهى. جاءت في ذلك الفجر وهي تكاد تطير من الفرح. كنت نائماً:
- رحال. أفق.
استيقظت مذعوراً. خمنت أن هناك شيئاً ما في حياتي سوف يتغير. قبلتها وهي جالسة قربي على السرير:
- ما لك؟ هل اكتشفت كنزاً؟ إذن أصبحنا أغنياء منذ اليوم.
نهضت من فوق السرير وأخذت أرقص. وقفت جيجي وعانقتني من الخلف:
- بالفعل اكتشفت كنزاً، وجدت لك عملاً في الملهى. سوف تشتغل نادلاً. كل الجراسين أغنياء، لهم عمارات وسيارات... إلخ. سوف تصبح مثلهم. لقد وافق المسيّر.
توقفت عن إبداء أية حركة. هذا شيء رائع، عمل غير متعب في الليل يدر أموالاً، إن جيجي امرأة رائعة حقاً. عانقتها بحرارة. كانت أنفاسها حارة عند عنقي. عندما أبعدتها مني قليلاً رأيت الدموع تسيل من عينيها.
قلت:
- جيجي!

- نعم.

- هل تحبينني حقاً؟

- ولماذا أفعل كل ذلك من أجلك إذا لم أكن أحبك؟ أنا لم أفعل هذا من أجل أي إنسان أبداً.

ضممتها من جديد بحرارة أكثر .

- سوف أفعل من أجلك الكثير أنا أيضاً.

بدأت حياة أخرى جديدة من يومها. فكرت أيضاً في أولئك الذين يحاولون أن يكونوا مثل عصا تعرقل دوران العجلة. لكن أنا أؤمن بطبيعة الخير دائماً في الإنسان. أما أصحاب الطباع الشريرة، فإن أيديهم دائماً لا تمسك سوى على التراب أو على الأصفار.

بابُ التي وجدت ما أرادتْ

ليس من السهل في شيء أن يجد الإنسان له مكاناً في الحياة. ذلك يتطلب نوعاً من الصبر والتحمل. لقد صبرت وتحملت، ربما هناك من صبر وتحمل أكثر من مني. عرفت أقبية الكوميساريات عدة مرات. دخلت السجن أيضاً. حصل ذلك من أجل إيجاد هذا المكان المعيّن في الحياة. السجن لا يمكن أن أدخله الآن. المغفل هو الذي يقع بين براثن الشرطة. كل الأشياء تُحل في المهد. يكفي فقط استعمال هذا المخ الذي أعطاه لنا سيدي ربي. وبالنسبة إلى امرأة ذكية فإنها تستطيع أن تستعمل شيئاً آخر. لكن هذا الشيء الآخر لا يستعمل إلا باستعمال المخ. كانت والدتي توصيني دائماً:

- عليك أن تكوني يقظة. إنك أنثى. ذات يوم سوف تحملين من مسلم، وأنت تعرفين ما بيننا وبين المسلمين.

أمي كانت لها علاقة مع المسلمين والمسلمات. ولكنها مع ذلك كانت تحذرهم. لكنها في نهاية الأمر، وقعت فيما كانت تحذّرني منه. عندما توفي والدي ربطت لها علاقة مع السي العربي، ذي الكتفين العريضتين. لا أزال أتذكره، كان يشرب برميلاً من الخمر ولا يسكر. ترك زوجته وأطفاله، وربط مصيره مع أمي. زوجته كانت سوداء وأمي بيضاء مشحمة. ويبدو أنه كان يحب هذا النوع من النساء. لم أرَ أمي تحب رجلاً في حياتها أكثر مما تحب

السي العربي. لا أزال أذكره بطاقيته المائلة إلى اليمين دائماً. والوشم على ذراعيه. لم يكن يرتدي سوى الثياب الأميركية التي يجلبها من الميناء أو يشتريها من سوق البحيرة.

قالت أمي:

- إن السي العربي بمثابة أبيك. يستطيع أن يحمينا.

ولكن السي العربي عندما بلغتُ السابعة عشرة أخذ ينظر إليّ نظرة أخرى. قلت ذلك لأمي. لكنها قالت إني صغيرة ومعجبة بنفسي. وأضافت:

- انظري إلى جسم أمك كم هو مكتنز. إن السي العربي لا يحب إلا نساء مثلي. إنه مثل أبيك.

وكفّت والدتي عن أن توصيني بالابتعاد من المسلمين. كيف يستطيع إنسان أن ينصح آخر، وهو يمارس ما ينصح عنه. ذات يوم وقعت في يد مسلم. لا يشبه السي العربي في شيء. فرّ من بيتهم، وفررت من بيتنا. سكنا في فيردان. لكن اليهود كانوا يشتمونني. أسلمت وتزوجنا واختفى من حياتي. وتعلمت كيف أصبر وأتحمل. رجعت إلى البيت، وكانت أمي تحاول أن ترسم لي طريقاً أخرى غير التي ذهبت فيها. قالت لي ذات يوم:

- يجب أن تكوني عاقلة. السي العربي سوف يزوجك. عليك أن تستقري.

كيف أستقر مع شخص لا أعرفه، إن من أحببته اختفى، لا أعرف كيف تنقلب عاطفة الرجال بهذه السهولة. كل شيء ممكن. عرفت فيما بعد أن البشر ينقلبون بسهولة. لا أحد يستطيع أن يتحكم في إحساساتهم. قد يكون الملل هو الدافع، لا أدري. فضّلتُ ألا أتزوج. حاول السي العربي أن يقنعني لكن عبثاً. بعدها لم أعد أرى أمي. خرجت من البيت ولم أعد إليه إلا قليلاً. بعدها بلغتني

وفاتها، وعودة السي العربي إلى زوجته الأولى. كانت أقبية الكوميساريات هي المحك. ولإيجاد مكان في الحياة لا بدّ من محاولة مواجهة الحياة نفسها. قطعت علاقتي مع مجتمع اليهود. كنت أشعر أنهم بعيدون مني تماماً. أنا مسلمة رغم أني لا أصَلّي. ما إن أرى يهودي حتى أتقزز. ولا أعتقد أني نمت ذات يوم مع يهودي. لا أتذكر، ربما فعلت ذلك، ذات يوم في حالة سكر. لكني لا أتذكر، كان البار الذي كنت أشتغل فيه يمتلئ باليهود الذين لا يتحدثون إلا بالفرنسية نسوا حتى لهجتهم المغربية. إنهم يتحدثون عن المغاربة المسلمين مثلما يتحدث الأجانب عنهم في البار. لكنهم في بيوتهم يتذكرون تلك القرى الصغيرة في الجنوب أو في وزان أو ابن أحمد. يتحدثون بالعربية إذ ذاك، وعندما يشربون الماحية ويسكرون يتمجنون على بعضهم. تفو! أنا أعرفهم جيداً. علمني ذلك البار الذي اشتغلت فيه أكثر من خمس عشرة سنة الشيء الكثير، منه كسبت كل ما أملك الآن. وكان بإمكاني أن أملك أكثر، لكن لم يكن لي عقل. كنت طائشة وأثق بالرجال كثيراً، كنت أعطيهم كل شيء ولا آخذ منهم شيئاً. أخذت عواطف زائفة أحياناً. تعلمت أيضاً أنه لا يمكن الثقة بزبائن البارات إنهم يكذبون في الليل وينسون في النهار. يكذبون من أجل الجسد فقط. من أجل رغبة عابرة أو متكررة. ثم ينفضون أيديهم منك. ما أنت إلا امرأة كذّابة، وهذا الكلام الذي تقولينه لي تستطيعين قوله للآخرين، هذا غير صحيح. كنت أكذب، ولكن كثيراً ما كنت أصدق. لكن بقدر ما كنت أكذب كنت أنجو بنفسي وبقدر ما كنت أصدق كنت أسقط. مارست لعبة الكذب هذه مع صاحب البار، الشاذ جنسياً، لذلك استطعت أن أستمر في عملي مدة خمس عشرة سنة. إن هؤلاء الرجال يغيرون البارميدات مثلما يغيرون التقشيرة - حاشاكم - ! حياتهم عادة تكون

قاسية، يبدأون كجراسين، وماسحي أحذية. ثم بعد ذلك يمتلكون البارات وأشياء أخرى. أعرف الكثيرين منهم. عندما تصبح الثروة بين أيديهم فإنهم لا يصدقون أنفسهم. ذاكرتهم تعود بهم إلى ماضيهم. يخشون أن يكون مستقبلهم مثل الماضي لذلك تجدهم ينافقون. جبناء أحياناً، وأقوياء في مواقف ضعف الآخرين. يحتاطون دائماً من الناس، في الوقت الذي يظهرون فيه لهم صداقة زائفة. مع هذا النوع من البشر يجب أن تكون ثعلباً لكي تكسب ثقته. لم أكن أمارس أي غش. سددت لصاحب البار فمه بجديتي. لكن الكذب شيء رائع أحياناً. عندما تمارس الحقيقة أو تقولها، تجعل الناس يشكّون في صدقك. فقليل من الملح في الطعام يجعله لذيذاً. لم يكن يفكر ذلك العجوز أبداً في الزواج. ولكنه مرة اقترح عليّ ذلك. ولماذا لا أفعل؟ سوف يصبح البار ملكي. والديك لا يبيض إلا مرة واحدة كاذبة في الحياة. يكفيني أني استطعت أن أعطي القدرة للديك لكي يبيض. تزوجته وكان أكبر مني سناً. لم يكن عنده اعتراض على أن أبقى على علاقاتي مع الزبائن. هذا شيء لا يمكن لأي امرأة أن تحلم به. أنا حققته ولم أكن أحلم به. ثم يبيض الديك مرة ثانية فيموت العجوز وأصبح صاحبة البار. لم يكن له أحد يطالب بالإرث، كان المسكين مقطوعاً من شجرة. غصناً مرمياً في برية. غصناً جافاً في خلاء. غير أن البيضتين كانتا فاسدتين. توفي الكتكوتان في المهد. بدأت مضايقات السلطة لي، ورجال الضريبة وسماسرة النهر العكر، بدأوا يخوضون في مائه. لكني عرفت كيف أتخلص من كل هذه المضايقات فيما بعد. نجوت بنفسي وبعت البار الذي أغلق نهائياً الآن.

قال وكيل جلالة الملك، الذي كان أحمد الرواد:

- اسمعي أيتها اليهودية الجيفة. إما بي أو بك!

- لكن ماذا تريد يا سيدي؟ كل ما توده موجود، هل تريد فتيات؟ هل تريد أن تشرب؟ ماذا تشرب؟ لن تدفع شيئاً. البار بارك.

- أنا أريدك أنت.

- وخّا، يا سيدي في أي وقت تشاء.

- أنا أريد جلدك.

- ماذا تريد أن تفعل بجلدي؟ خذ لحمي يكن ذلك أفضل.

- أنا لا أحبك لأنك عاملتني باحتقار مراراً.

- واللّه يا سيدي لا أذكر. ربما حصل لك ذلك في بار آخر.

وقال الكوميسير:

- يا ابنة الكلبة، حتى أنت أصبحت ثرية، إنكم تثرون على ظهورنا. كل ما نجمعه نحن بعرق جبيننا تخطفونه أنتم منا بالحيلة.

- ولكن يا سيدي، إنك تشرب مجاناً في أغلب الأحيان.

- الزبائن هم الذين يدفعون، أما أنت أيتها الكلبة...

وذات يوم افتعل الكوميسير معركة في البار، تمّت إجراءات خاصة فأغلقوه مدة خمسة عشر يوماً. ثم قال مفتش الشغل، ثم قال مفتش الضريبة، ثم قال مفتش الصحة، وقلت أنا: «يجب أن أتخلص من هذا البار، لا بدّ أن أبيعه». الآن أنا مستريحة. أملك عمارتين. ليس ضرورياً أن يمارس الإنسان تجارة من ذلك النوع. إني أعيش دون أن أدفع ضريبة. الكوميسير يقبّل قدميَّ، القائد يحميني وعمر يؤنسني. وكانت والدتي دائماً تقول:

- لا تحبي من الرجال إلا من كان قاسياً معك. إن في قسوتهم يظهر حبهم لك. والقسوة هي غير العنف.

ربما كان ذلك صحيحاً، لم أجد الصدق إلا في الرجال الذين كنت أعتقد أنهم أجلاف. هؤلاء الرجال الطيبون لا يعرفون كيف يخاطبونك بكلمات مختارة. إنهم يتحدثون بعفوية. ولكن مواقفهم

الإنسانية هي التي تبرهن عن نواياهم، إنهم يتصرفون دون أن يتكلموا. كثيراً ما لا يكون كلامهم مطابقاً لأفعالهم. لا يعرفون كيف يعادونك. ولكن في اللحظة الحرجة تجدهم سباقين إلى مساعدتك. آه! إن عمر من هذا النوع. تجربتي الكبيرة مع الرجال تعطيني هذا اليقين. لم أكن أعتقد أبداً أنه في يوم من الأيام يمكنه أن يكون مخادعاً ولن يكون. هذا النوع من الرجال أعطيه كل شيء. ليس ضعفاً أن أعطي كل شيء. ولكن من الضروري أن يعطي الإنسان لإنسان آخر يستحق عطاءه. عمر يستحق كل شيء. هل أنا أحب؟ لا أدري ولكنني أحس أنه أقرب إليّ من أي رجل آخر. مراراً وقفت بجانبه في أحرج المواقف. حاولت عدة مرات أن أفتح له المجال لكي يصبح رجلاً آخر. ولكنه لا يمكن أن يكون غير ما هو كائنه، وعلى كل حال، فهو رجل، حتى من دون تلك الأشياء التافهة التي يعتقد الناس أنها تصنع الرجل الحقيقي. كاد مرة أن يقع في خطأ. سمعت أنه يحب إحدى الفتيات اللواتي يرتدن بيتي. طردتها للتوّ ولا أعرف ماذا فعل اللّه بها اليوم. لكني متأكدة أنها قطعت علاقتها به. كل شيء أريده إلا أن يحب امرأة أخرى. قلت له:

- يبدو أن رائحة علاقتكما بدأت تفوح.

- إني لا أحبها.

- كل شيء أقبله إلا أن تحبها. افعل معها ما تشاء لكن لا تحبها.

- كيف يستطيع إنسان أن يفعل شيئاً مع إنسان لا يحبه؟

- افعل مثلما يفعل الرجال. لقد تركوا قلوبهم في أماكن معينة وأغلقوا دونها الأبواب والنوافذ. دع قلبك أنت أيضاً هنا. سوف أخبّئه لك في مكان أمين، على الإنسان ألا يلعب بقلبه وإلا ضاع منه.

- إن قلبي موجود في مكان معين.
- أخشى أن يكون عند تلك الكلبة.

لقد تعلمت كيف أحافظ على قلبي. استرددته مراراً بعد أن كان قد ضاع. لكن أشياء مثل هذه قلما تضيع، إنها تعود إليك أحياناً مثخنة بجراح كثيرة، غير أن الجروح يمكن أن تلتئم. وإذن؟ ماذا يمكن لعمر أن يفكر فيه بعد الذي يعيشه اليوم؟ إنه لا يستيقظ حتى ساعة متأخرة من النهار. ثروتي هي ثروته. ثم أني لست عجوزاً حتى ولو كان يناديني أمام الآخرين بأمي. أنا أمه. ولد الحاجة فعل، ولد الحاجة ترك، الشيء الذي يؤلمني كثيراً هو أني لم أخلِّف ولداً، إن الأولاد في سن معينة هم أمتع ما يمكن أن يملكه الإنسان، كل شيء يذهب. ما يبقى هو ذلك الدفء الذي لا يملك أن يقدمه لك أي إنسان سوى الذي يكون أقرب إليك. وكلما كان قريباً منك، كان الدفء أقوى.

كانت والدتي تقول:

- حاولي أن يكون لك بيت وأن تنجبي أولاداً.
- لا أستطيع أن أفعل ذلك إلا مع من أحب.
- ألم تجدي رجلاً تحبينه مع أن الدنيا عامرة بالرجال؟
- وجدته لكن.

لكنه اختفى. وقال الطبيب إنه حتى بألف رجل لن أستطيع أن أحمل من أحدهم. ولم أحمل من كل الرجال الذين عرفت. وقيل لي مرة يجب أن أزور مكة المكرمة حتى يفتح اللّه عليّ بولد. وقال لي يهودي إنك لن تحملي ما دمت تركت دينك ودخلت دين المسلمين. لكن كم من اليهود الذين أسلموا استطاعوا أن ينجبوا أولاداً؟ صدّقت الناس وذهبت إلى الحج. ذهبت عاقراً وعدتُ عاقراً. مكة المكرمة لم تعطني ولداً. فاللّه هو الذي يعطي الأولاد

لمن يشاء. وهو أيضاً يرفض أن يعطيهم لأي كان. تلك حكمته، وليس لمخلوق أن يتدخل فيها. التقيت بكثير من الحاجّات كنّ أيضاً لم ينجبن. بعضهن أيضاً كان يتاجر بالذهب. واحدة كانت تحب مطوفاً سعودياً. وتحج من أجله كل سنة. وكان هو يحج إليها طول العام. كانت امرأة ثرية من صفرو توفي عنها زوجها وترك لها فنادق في فاس وطنجة. أنا حججْتُ من أجل الإنجاب ومن أجل أن يغفر لي اللّه كل ذنوبي السابقة واللاحقة. وفي الحج لم أرفث ولم أفسق، ولذلك عدت كيوم ولدتني أمي. لكني عدت أيضاً عاقراً. الآن لم تعد لي رغبة في الإنجاب. كل شيء له وقته، وإذا فات وقته فاتت قيمته وأصبح كطعام بلا ملح.

قال لي عمر مرة:

- إياك أن تنجبي مني يا شارفة. سوف يكون ذلك فضيحة كبرى.

- أنا لا ألد. هل تصدقني؟ لو كنت أنجب لكنت قد أنجبت أبناء في سنك يا بغل.

- إن أحابيلكن كثيرة.

- الأحابيل لا تكون إلا في موضعها. لا أحد يريد أن يلعب بالنار سوى الشيطان، هل تعتقد أن الحاجة شيطان؟

- كانت حواء قد تآمرت معه.

- أعوذ باللّه. هل تقول هذا الكلام لأمك الحاجة؟

- متى كنت أمي يا شارفة؟

كم كان عمر خوافاً رعديداً. لم يصدق إلا بصعوبة أنني لا أستطيع أن أنجب ويبدو أنه الآن استراح من تلك المشكلة. ثم إنه كيف لامرأة في سني أن تحمل من رجل في سنه. يا للحمق!

تذكرت أيضاً أن السي العربي كان يخشى أن تنجب منه والدتي

على الرغم من أنه كان يحبها وكانت تحبه بجنون، الفرق أنها كانت أصغر منه سناً، أما عمر فهو أصغر مني. أتساءل كيف أن الرجال يخافون من الإنجاب. وما الحياة من دون أولاد. صحيح أن السي العربي كان مثقلاً بالأبناء من زوجته الكحلاء الزيتونة. ولكن كل واحد يزداد في الحياة برزقه. لقد كان والدي مجرد إسكافي يرقع البلاغي في المدينة القديمة وأحياناً يشتغل بخياطة المضارب، ولكني مع ذلك ازددت برزقي. ها أنا أملك ما لو كان أبي يعرف أني سأملكه لبقي على قيد الحياة. ولو عرفت أم عمر أن ابنها يعيش الآن حياة طيبة لأكثرت من إنجاب الأطفال، وأطلقتهم في الأرض يسعون كالهوام، كل دابة إلا وعلى اللّه رزقها. قالت أمي ذات يوم وهي تترجرج في شحمها للسي العربي:

- آه! كم أتمنى لو أنجب منك ولداً يا بو أكتاف.

- وماذا تفعلين به؟ ماذا سوف يأكل، يكفي أن أعيل أبناء تلك الكحلاء.

- كل واحد يزداد برزقه.

- أنا لا أوافق. يجب أن تستعملي أعشاب العطار باستمرار. تجنبي أن تحملي.

- إن الأعشاب قد تضر بصحتي.

- لكنها لم تضر بكل النساء اللواتي استعملنها.

ولم أكن أعرف لماذا كانت أمي تصر على الإنجاب، كانت نفسها في طفل ذي كتفين. ولم أكن أعرف أيضاً، كيف أن هذا الهاجس ظلّ يراودني أنا نفسي. لا بدّ من أن أنجب طفلاً، غير أن اللّه لم يرد لي ذلك. ولا شك في أن كل امرأة تريد أن تنجب أكبر عدد من الأولاد. وبما كان الإنجاب هو أكبر قدرة على الاستمرار في الحياة. فقد عرفت مجموعة من المومسات اللواتي كنّ يرتدن

البارات والملاهي الليلية ويصررن على تفريخ الأطفال الملونين، ويوزعنهم في كل أحياء الدار البيضاء. كم من ابن حرام أصبح رجلاً مهماً في الدولة اليوم، أصبح منهم حتى الوزراء. أليس كل واحد يزداد في هذه الحياة برزقه؟ غير أن سيدي ربي هو الذي يريد كل شيء. حكى لي القايد أنه استطاع أن ينجب ثلاثة أطفال دفعة واحدة من زوجته الأخيرة. كان كل الأطباء يقولون لزوجها الأول إنها لا تستطيع أن تنجب، ولكنها عندما طلّقت وتزوجت القايد، انتفخت بطنها في الأشهر الأولى. سبحان اللّه! وولدت له أطفالاً أجمل من الدمى! إن اللّه أعطاه وأعطاه فبصحته وبصحتها، واللّه إذا أراد لامرأة أن تنجب فلا حاجة إلى أن تزور طبيباً أو ساحراً يهودياً أو فقيهاً أو ولياً صالحاً. قلت لعمر مرة:

- يجب أن تنجب لي ولداً أو ولدين من هؤلاء الفتيات اللواتي يرتدن بيتي. دعني أتكفل بالأمر.

قال عمر:

- أنت تريدين أن تدخليني السجن. أنا لا أطيق أن أنجب ابن حرام.

- كل الرجال وكل النساء ينجبون أولاد حرام. يكفي دسّ بضعة دراهم في يد شخص ما وتحل المشكلة.

- أنا لا أريد ذلك. عندما تختارين لي زوجة شرعية فإني إذ ذاك أنجب منها.

- لكني أخشى أن تحبها.

- المهم أن تكون شرعية. مسألة الحب هذه تجاوزتها. ما عاد لقلبي أي منفذ تدخل منه امرأة.

- حتى أنا.

- حتى..

- قلها.

لكنه ضرب الباب بقدمه وخرج. وكنت أودّ صادقة أن ينجب لي ولداً أو ولدين. ولكن رأسه مثل الحجر، إنه لا يفعل إلا ما يريد، وما يمليه عليه مخه، إذا كان له مخ. حاشا. إن له مخاً وعقلاً. سامحني يا رب. ربما كان له أكبر مخ. لكنه أحياناً يصغر حتى يصبح في حجم حبّة خردل. كلنا تكبر أمخاخنا أحياناً، وتصغر في أحيان أخرى. ما وقع مثلاً تلك الليلة مع رحال، كافٍ لكي يبرهن على أن مخه أكبر من مخي. تلك الليلة صغر مخي حتى أصبح في حجم حبة خردل، وكبر مخه حتى أصبح في حجم جبل. قلت له مراراً أن يصعد إلى السطح وأن يلقي بمتاع ذلك الشاب إلى الخارج ولكنه أصرّ على ألا يفعل ذلك. كان يشرب بكثرة وبسرعة يقول: «لا يجب أن أفعل ذلك. إنه شاب مسكين. سوف يدفع لك ثمن الكراء في أي وقت تتاح له الفرصة». ظل يشرب، وتحت تأثير الخمر، صعد إليه ووقع ما وقع. لم تكن الخمر وحدها هي التي فعلت ذلك. (اللّهم أعطنا العقل!) كنت أيضاً أحرضه وأحثه.. لعنة اللّه على الفلوس. كان الناس كثيراً ما يفتشون عن شقق. الكراء أصبح غالياً. ولا يمكن لإنسان أن يجد حتى غاراً يسكن فيه. قال لي الكوميسير إن سبب ذلك هو حرب الصحراء. وأنا لا أعرف في تلك الأشياء. أعرف فقط أن مخي يصغر أحياناً، وتلك الليلة صغر أكثر. بدا لي أني لو طردت رحال لكسبت من وراء تلك الغرفة في السطح الشيء الكثير. ولذلك حرضته فيما بعد على قتله. لكن مخ عمر كان كبيراً. صحيح أنه ذهب وتشاجر معه. لكني متأكدة أنه لم يبذل مجهوده لقتله أو لإلقاء متاعه من الغرفة. في عمقه يكون إنسانياً أحياناً. حسناً فعل. ذلك شاب لطيف ومسكين، ولذلك فسيدي ربي لم يخيبه أبداً. ها هو اليوم يأكل ويشرب ويتمتع بالحياة، رغم أنه لا يشتغل. اللّه

يفتح عليه دائماً. وفوق هذا وجد امرأة تحبه. إنها ليست امرأة بمعنى الكلمة، ولكنها مع ذلك عرفت كيف تحب وتضحي من أجل شاب قد يستحق ذلك. أنا لا أعرفها كثيراً، ليست لي أية علاقة بها. دخلت عندنا مرة أو مرتين. وكانت تبدو محتشمة وبنت حياء. ويبدو أنها أرغمت على ذلك العالم الذي تعيش فيه، أقصد عالم أولئك النساء الفاسدات - حاشاكم وحاشا تراب أرجلكم! - لكن ذلك غير مهم. كلنا فاسدات. وقيل فينا إن النساء ضلعة عوجاء، هذا صحيح. لأننا ناقصات عقل ودين. ولو لم نكن كذلك لما حرضت عمر على فعل ذلك مع رحال. وها قد فتح اللّه عليه. سمعت أنه أصبح يشتغل في أحد الملاهي الليلية، ذلك شيء رائع. لو كان له عقل - وما أظن إلا كذلك - لاستطاع أن يربح الشيء الكثير من عمله ذاك. أنا أعرف جيداً أية أموال تنفق في تلك الأماكن، وأية أموال تكسب بالحق أو بالباطل. ربي يجازي تلك الطفلة غنو، لأنها هي التي أوجدت له ذلك العمل، ولا شك أنهما سيتزوجان ذات يوم، وذلك خير جزاء، أن يتزوج الإنسان إنساناً يحبه. اللّه على الحب. أحببت لكنه اختفى من حياتي. لا أزال أشتم رائحته الآن، حتى بعد مرور تلك السنوات الطوال، رائحة عمر تشبه رائحته إلى حد بعيد. الحب شيء كبير عند اللّه. ومن أحبّ بصدق جازاه اللّه وزوجه وسهل عليه أموره في الدنيا قبل الآخرة، ومهما يقل عن امرأة قليلة العقل، فإنها عندما تحب تصبح أكبر امرأة في العالم.

قلت لرحال:

- هل أنت متأكد من أن تلك الطفلة غنو تحبك؟

- لا أدري. ولكن يظهر ذلك، لماذا تفعل كل شيء من أجلي مع أني عاطل؟ أنا أيضاً أحس شيئاً تجاهها لا أعرف ما هو.

- ذلك هو نفسه.

- ما هو؟

- الحب. حافظ عليه.

- لا أدري.

- يجب أن تدري.

وتساءلت كيف لا يعرف الإنسان في سن معينة هل هو يحب حقاً أم يعطف أم يحقد؟ أنا أيضاً وقعت في ذلك. عرفت فيما بعد أني كنت أحب أو أكره أو أحقد أو أحس بأي شيء آخر. يا سبحان اللّه! كل شيء لا يدركه الإنسان إلا بعد فوات الأوان. لكن هناك أشياء قد تدرك في حينها. وإن كانت غالباً ما تفوت على أهلها، لا فوّت اللّه عليكم أشياء أنتم أحوج إلى إدراكها في وقتها. وقد فوّت اللّه عليّ أشياء لن أدركها حتى لو انطبقت السماء على الأرض. وكنت أنا سبب ذلك. هذا شيء أعترف به. وما يضيرني لو اعترفت. وأَنَّبْتُ نفسي على ضياعها. وقال عمر:

- إن رحال يحب تلك الفتاة. لقد قال لي ذلك مراراً.

- خير له أن يحبها، لن يجد فتاة أحسن.

- لكن يمكن أن تتدخل أشياء أخرى خارج طاقتهما لتفسد عليهما ذلك الحب.

- ذلك محتمل. ولكن نفسي تقول لي إنه لن يفرقهما إلا القبر. إلا إذا اختفى رحال كما اختفى ذاك.

- من ذاك؟

- آه! ماذا أقول؟ شخص كان يحب امرأة ثم اختفى.

- هل أعرفه؟

- لا يمكنك أن تعرفه أبداً.

- هل يرتاد هذا البيت؟ هل هو واحد من الزبائن؟

- لا ليس زبوناً. وهو أكثر ترفعاً عن ارتياد مثل هذه الأماكن.

- أين يسكن إذن؟ هل هو جارنا؟

- إنه يسكن هناك. لكنه اختفى ذات مرة. لن تستطيع معرفته مهما حاولت أن أحدثك عنه. أنا وحدي أعرف سره.

- لا شك أنك تمزحين؟ أو أنك تقصدين أني سوف أختفي ذات يوم.

- لا أقول ذلك، ولكن له رائحة تشبه رائحتك..

- هل لك واحد في حياتك يا شارفة؟

- حاشا يا عمر.

كيف يمكن للإنسان أن يخفي أشياء، وقد كان هو السبب في خلقها. كل ما يقع لنا نحن طرف في وقوعه سواء أردنا أم كرهنا. إذا تزوج رحال وغنو فهما السبب في ذلك. وإذا وقع شيء لعمر فلا شك أني كنت سبباً خفياً في رحيله. يا اللّه! كم نكون سبباً في وقوع أشياء كثيرة ونحن لا نعرف ذلك إلا بعد فوات الأوان.

باب النساء

لماذا سُميت النساء نساء؟ قال والدي: لأن اللّه نسيهن من رحمته. واك.. واك! هذا أبلغ تعبير سمعته في حقهن. لولا تلك الحمقاء الصغيرة لما كنت قد غادرت درب الطوارق في مراكش. لكنت قد أصبحت موظفاً واسترحت. ولكن لا يهم ها أنذا أعيش ملكاً. إن بعضهم يتقول فيّ. كلام كثير أسمعه. منهم من يثق بكون الحاجة والدتي. بعضهم يحلف بأغلظ الإيمان على أنها ولدتني من رجل من مكناس، هجرها وتركني لها عالة. قال واحد ذات مرة:

- هل تعرف من هو أبوك؟

- لا. أمي قالت إنه مات وأنا صغير جداً.

- إن أباك من علية القوم. ربما كان وزيراً. تركك وترك أمك الحاجة لسبب ما.

كم كان كذّاباً هذا الرجل. متى استطاعت الحاجة أن تنجب حتى فأراً يا بغل؟ أصل كل شيء في الحياة أن يبقى الناس في وهمهم يعمهون. وهكذا فالحاجة والدتي. ولا يهمني أن تملك بيتاً للدعارة. فكل الناس داعرون. وشريف النفس لا يملك عمراً طويلاً. لو لم تكن الحاجة لكنت الآن في سجن غبيلة أو سجن علي ومومن. عسير جداً أن يجد له الإنسان ثقباً ينفذ منه إلى مجتمع الدار البيضاء هذا. الحياة في مراكش تمر في بطء وهريد الناب. أما هنا

فكل شيء مغاير. صدمت أول الأمر لكني تعودت. كل شيء يتعود عليه في حينه. حتى العلاقة بين شاب وامرأة مسنة كهلة شيء يتعود عليه. الناس يقولون، وينتقدون أفعالاً ما، لكنهم يرتكبون جرائم، ويفعلون أشياء لا يستطيع فعلها حتى الشيطان. آه! يا للشيطان! لعنة اللّه عليه في حضوره وفي غيابه. وهل هناك شيطان أكثر من امرأة؟ فهي التي تطردك من مراكش، وهي التي تستطيع أن تضمن لك حياة في الدار البيضاء، وتقف حاجزاً في وجه رجال البوليس. حتى الشيطان لا يستطيع أن يقف في وجه هؤلاء. لكنها هي تستطيع ذلك.

وقالت الحاجة:

- لا تعتقد أنني فعلت هذا من أجلك ولكن من أجلي. إنني أريدك لي.

- بأي معنى يا حاجة؟

- بكل المعاني. وعليك أن تتعلم كيف تتعامل في الحياة، هل تعتقد أن الدنيا سائبة؟

قلت للحاجة:

- لن أنسى لك هذا الجميل. أنت أنقذتني من أيديهم. إن ظروف الحياة صعبة ولكن رجال المخزن لا يعرفون ذلك.

- أعرف لنفسك بدل أن يعرف لك الآخرون. ثلاثة أشياء يجب أن تحذر منها: النار والبحر ورجال المخزن. لا تثق بها أبداً.

- يقال أربعة أشياء يا حاجة. الشيء الرابع هو المرأة.

- أضفها إذا شئت. لكن لا تنسَ المخزن.

تبدو الحاجة في الظاهر امرأة لا تهتم بشيء، لكنها في الواقع تهتم بكل شيء. شأن كل امرأة. غريزة الفضول تمتلك عليها نفسها وحواسها. بقدر ما تبدو الحاجة عاطفية وحنوناً، فهي حقود وممعنة

في الحقد. تنقلب عاطفتها بسرعة ومن دون سابق إنذار. هذا ما كان وقع لها مع ذلك الشاب اللطيف، طيب القلب رحال. لو كنت قد اتبعت رأيها لكنت قد قتلته أو قتلني. يا للكلبة! وبعد ذلك أصبحت تحنو عليه، هو يستحق ذلك طبعاً. أقول: إن الحاجة تتقلب. ما رأيت امرأة مثلها تتقلب من حال إلى أحوال. يا اللّه! هل كل النساء هكذا. لا أعتقد. ولكن مع ذلك، هناك من يعتقد أنهن كذلك. ذات ليلة زارنا سي لحسن. رجل حمّال في الميناء لكنه أقرع وبفلوسه. أعتبره صديقاً، لأنه ليس من تلك العينة الأخرى التي تزورنا. عفواً، تزور الحاجة. سكرنا وسكرت المرأتان فقال سي لحسن وهما تسمعان:

- اسمع يا عمر. لن أبدّل صديقاً بكلبة واحدة من النساء. كلهن يتشابهن ولا يمكن أن نثق بهن. إنهن يستطعن أن يبعنك وأنت بكامل وعيك.

- ماذا تقصد سي لحسن، فاطمة وحادة أم كل النساء؟

- كل النساء.

- حتى زوجتك وبناتك.

- حتى زوجتي وبناتي. كلهن يتشابهن.

ياه! هل معقول ما يقوله سي لحسن؟ لكن الحاجة ونساءها يتشابهن. ولا أدري ما إذا كانت بقية النساء تتشابه. في تلك الليلة نفسها سكتت فاطمة وحادة، ربما كانتا متيقنتين من أن كل النساء يتشابهن. وطبعاً، هذا لا يعني أحداً بقدر ما يعنيهما والبقية. وما أنا إلا رجل يعنيني ما يعنيني في الحاجة. فهي تتبدل وتتقلب. وأنا أعرف ذلك جيداً فيها. لكن أن تعرف أو لا تعرف فهذا يخصك وحدك. ومعرفتك بأمور أو عدم معرفتك بها شيء ينفعك أو يضرك ولا ينفع أو يضر أحد غيرك. أن تكون الحاجة متقلبة فهذا يعنيني

وأن تكون النساء متشابهات فهذا يعني سي لحسن. والدار البيضاء مدينة كبيرة، وفيها أناس يعرفون لأنفسهم ولا يعرفون لغيرهم. وفي مراكش، الناس يعرفون لغيرهم دون أن يعرفوا لأنفسهم. ولذلك كثر فيهم الكسل وهريد الناب، والحنين إلى من أنشأ لهم ساحة يجلدهم ويعلقهم فيها. حمداً للّه وشكراً على ما أعطى لكل مخلوق من المعارف والعواطف آمين! كلٌّ يحب ما ومَنْ يشاء، وكلّ يعطف على ما ومَنْ يريد. هم في مراكش يحبون شاعراً كان يشتمهم ويمدح أسيادهم، وهنا في الدار البيضاء يحبون المال والفسق وكل واحد عينه في زوجة صاحبه. لقد عرفت كل شيء، ولكن الحاجة لم تترك لي ما أعرف. إنها تعرف كل شيء وكل شيء، وأيضاً كل شيء، ولم يبقَ أي شيء لم تعرف فيه الحاجة شيئاً. لا أدري، ربما لم يكن ارتباطي بها له علاقة بفلوسها. وإذا لم يكن كذلك، فما هو إذن؟ أحياناً أتصور أني لا أستطيع أن أهجرها حتى لو كانت من دون فلوس. آه. ماذا أقول. هل سقطت؟ لا يهم. كل حصان كبا أو سقط، ليس بالضرورة أن يبقى على الأرض. لقد كانت طفلة مراكش سبباً في سقوطي. لكني استجمعت قواي. ومع ذلك لا أستطيع أن أحقد عليها. ربما كنت أحبها. ويبدو أنها كانت تحبني أكثر. لو وقع ما وقع لي في مراكش، هنا في الدار البيضاء، لكان الأمر غير ذي بال. ولكنهم في مراكش يفضلون أن تغتصب صبياً على أن تفعل ذلك بامرأة. ولذلك فررت بجلدي، وخير لي أن تغتصبني امرأة شارفة عجوز، من أن أغتصب فتاة، تجنباً لأية عواقب، خصوصاً إذا كان شخص ما من عائلتها ينتمي إلى رجال المخزن. كما كان الشأن بالنسبة لكنزة، لعنة اللّه عليها وعلى مثيلاتها، إنهن لا يملكن حتى القدرة على ضم أفخاذهن إلى بعضها. في لحظة واحدة يرتخين ويصبحن مثل شحمة الأرض وبعد ذلك يقلن لك:

- ناري فعلتها.

ثم يبدأ البكاء واللطم على الأفخاذ والأحناك. أتذكر كنزة ذلك اليوم. لم تكفّ عن البكاء طوال أكثر من ساعتين. ظللت أهوّن عليها ما وقع دون جدوى. كنت أعرف العواقب. يا إلهي! عرفت فيما بعد، أنهم في أوروبا يأخذون فتياتهم، في سن معينة لكي تُفتض بكارتهن. وهنا ماذا يفعل الحلوف؟ يأخذون مواطنيهم إلى السجن خمس سنوات من أجل نزوة مشتركة. خمس سنوات يستطيع فيها ذلك الشاب أن ينهي دراسته ليعود بالنفع على أولئك الحلوف. ولذلك أصبحت الفتيات يؤتين من الخلف فانتشر ذلك في البلاد بين العباد.

وقالت الحاجة:

- لن تجد فتاة تفعل الحب مثلي.

- أن يمدح الإنسان نفسه ليس عيباً.

- هل تتهكم يا بوكتاف؟

- أقول الحق. أستطيع أن أمدح نفسي أيضاً. ولا أحد يمنعني من ذلك.

- أريد أن أقول ألا تجد فرقاً بيني وبين أولئك؟

- من أولئك؟

- الصغيرات القذرات.

- لا أدري. لكن لكل فاكهة طعمها، وما كل الفواكه تتشابه.

- الفتيات الصغيرات غبيات في فعل ذلك الشيء.

- ولكنهن.

- لا تعاكسني.

- لن أعاكسك. لكن من أدراك؟

- المرأة تعرف المرأة.

غير أن للصغيرات طعماً رائعاً، رائحتهن الخاصة تنفذ إلى أعماق الرجل مثلما تنفذ رخية روائح الزهور الجميلة في الربيع. كانت كنزة من ذلك النوع، لكنها للأسف دفعتني إلى السقوط، لو لم تكن فقط تنتمي إلى أسرة مخزنية لسارت الأمور سيراً آخر. لبقيت في مراكش، ولما زرت السجن هنا في الدار البيضاء. غير أن كل شيء أحياناً يمكنه أن يتم، دون أن تكون لنا يدٌ فيه. ومع ذلك، فليس بالضرورة أن كل حصان يتعثر سيظل ملقى على الأرض، لقد سقطت ونهضت وإذا كنت قد نهضت، فإن بعض أعضائي، من غير شك، لا تزال توجعني.

الحاجة تفتح فمها وتتكلم. أما أنا فلا أريد أن أتحدث كثيراً، أريد فقط أن أعيش، كل النساء يتشابهن، وأيضاً كل النساء يختلفن عن بعضهن ولا يعنيني بقدر ما يعنيني إلا كل ما يعنيني.

باب التي تكْره أباها وتحبُّ رحَّال

لم أعرف أحداً مثله. رجل فحل. صامت لكنه يتحدث في الأوقات التي يريد أن يتحدث فيها دون أن يكون حماراً مثل جميع الحمير الذين يتحدثون بكثرة عن أنفسهم، فوق هذا، إن رحّال يتشبث بي رغم كونه يعرف أنني كنت مجرد قحبة في حي مبروكة. لكني واللّه، لم أكن قحبة. كنت أغمض عيني وأتركهم يفعلون بي ما يشاؤون. كنت أتقزز من رؤيتهم لكن لقمة العيش هي التي دفعتني لفعل ذلك. هذا شيء آخر، لا داعي لكي أتحدث فيه، رحّال رجل شهم. ومن أجله سوف أدفع كل حياتي. إنه يكره والدي كما أكرهه. كم تمنيت قتله، وكم تمنى رحال نحره من قفاه مثل جمل. رحال يفهمني كثيراً، وله سوف أخلص إلى نهاية حياتي. والدي لم يخلص لأمي. تركنا وذهب ليعيش مع قحبة في درب ميلا. من يدفع ثمن الكراء ومن يدفع نفقات البيت على أطفال، زُغْبِ الحواصل لا ماءٌ ولا شجرُ، كما علمني أستاذ العربية الذي نكحني لأول مرة. لعنة اللّه عليه، من أجل خمس نقط في مادة اللغة العربية. ياه! شفت الشيء الذي أتمنى أن يشوفه أعداؤكم في الدنيا قبل الآخرة. كنت أتصور أني سوف أرى في حياتي أحسن من الأستاذ، لكنني وقعت في من هم أكثر شراً. وبعد ذلك يقولون إنها امرأة غير محترمة. ما هو إلا جسد أشتغل به كما يشتغل الإنسان بيديه لكي يعول نفسه ومَنْ

هم في حاجة إليه. أما الشيء الآخر، الحب. فهذا أحتفظ به لنفسي ولا أعطيه إلا لواحد مثل رحال. ولا يبدو أن جسدي هو في متناول أي رجل. على العكس هو جسدي، أستطيع أن أتحكم فيه متى أشاء.

قال رحال:

- أنت لا تهتمين كثيراً بعائلتك.

هذا رجل طيب ، يفكر فيّ وفي عائلتي بصدق. رأيت آخرين لم يكونوا يفكرون إلا في جسدي.

- كيف ذلك؟ إني أدفع لهم كل أسبوع.

- ليس ما تدفعينه كافياً. ادفعي أكثر إذا كان ذلك ممكناً.

- أنت تعرف ما أتقاضاه كل ليلة.

- لا أستطيع أن أخمن. لكن حاولي، من أجل إخوتك فقط.

- لطالما أتخوف من أن يعود ذلك الكلب أبي وينتزع منهم تلك النقود البسيطة لينفقها على شيخته في درب ميلا.

- إنه لن يستطيع أن يفعل ذلك.

- من أدراك؟ أنت لا تعرفه.

- لو كان أبي لقتلته. هذا النوع من الرجال يستحق القتل.

- أنا أيضاً أتمنى ذلك. لكني مع الأسف لا أستطيع تنفيذه.

عندما تعرفت إلى رحال، اكتسبت مناعة ضد بعض الشرور في العالم، أحب فيه طريقة تفكيره، إنه لا يحب الأغنياء، كما لا يحب المفسدين والأشرار مثل والدي. والده هو، لم يكن شريراً ولكنه كان غبياً وكسولاً، لا يملك ولو حبة خردل من ذكاء لتحويل بعض منافع الحياة لصالحه.

لم يكن حبي فقط لرحال هو الذي جعلني أبحث له عن عمل،

حتى لو اقتضى ذلك أن أغمض عيني وأفتح فخذي، ولكن لأنه كان رجلاً حقيقياً، إنسانياً، قلبه ودمه مع نوع من النساء والرجال.

قال رحال:

- لو ظلت الأحوال هكذا لأمكننا أن نُغير هذه الغرفة فوق السطح، نكتري ثلاث غرف في مكان من الدار البيضاء.

- وسوف نتزوج.

- ذاك أمر ثان. سوف ننظر فيه فيما بعد.

- الحاجة أصبحت تتشبث بنا أكثر. فثمن الكراء يُدفع لها بانتظام، إنها تعتبرني ابنتها، ولكنها أحياناً تنظر إليّ نظرة امرأة لامرأة. قد لا تفهمون ذلك. ولكنا نحن نحسه. هذا غير مهم بين امرأة وامرأة، ما دام الامر يتوقف هنا، ولا يتجاوزه إلى رجل. أنا لست امرأة في سنها، هي تعرف أكثر مني في كل شيء. لكن يبدو لي أن ما أعرفه لم تعرفه هي قط في حياتها. يبدو أن حياة ذلك النوع من النساء كانت غريبة ومختلفة. هنّ يتحدثن عن الميركان والفرنسويين. أما نحن فشيء ثان. عندنا عرب البترول الذين لا ينتعظ عضوهم إلا إذا وضعت إصبعك في إستهم. والعياذ باللّه! شحال فيهم من فساد، رغم أنهم جاؤوا من البلاد المقدسة. ونراهم يتحدثون في التلفزيون عن أمور الدين كتحريم الخمور والزنا، ولكنهم يدلقون زجاجات الويسكي على صبايا فقيرات من الحي الحسني أو عين الشق أو درب السلطان أو المدينة القديمة. ياه! رحال لا يحبهم كثيراً، وأنا عمري ما نمت مع واحد منهم. أعافهم مثلما تعاف الجيف. لكني شربت مع كثير منهم وتقاضيت وسرقت لهم فلوساً كثيرة. اللّهم فينا ولا في الأوروبيات الكافرات. على كل، بين مسلم ومسلمة يهون الحال.

صعدت الحاجة عندنا ذات ظهر، كانت تبدو عليها علامات

السكر. أخرجت علبة الكنت وناولتنا سيجارتين، كنت مع رحال في الفراش. الآخرون لم يكونوا في الغرفة. كل ذهب إلى حيث لا يمكن أن ندري. جلست الحاجة على حافة السرير وقالت:

- يبدو أنكما أصبحتما غنيين. إني أعرف الأموال التي تنفق في تلك الأماكن.

وتوجهت إلى رحال:

- هل أنت مسرور بعملك الجديد؟ اعمل عقلك واعمل علاش ترجع.

- الرجوع للّه يا حاجة. قال رحال.

- صحيح. الرجوع للّه. لكن اعمل يا عبدي وأنا أعينك.

قال رحال:

- لا يمكن للإنسان أن يصبح غنياً ووراءه طابور من الإخوة.

- زغب الحواصل لا ماء ولا شجر. (تذكرت الأستاذ).

وقال رحال:

- بأي لغة تتحدثين؟

- هذا الشيء تعلمته في المدرسة، يعني بالضبط ما تقول.

وشعرت بالخجل من نفسي إذ قلت هذا الكلام، شعرت بأني أسأت إلى رحال من حيث لا أدري. لكنه لم يعطِ أهمية لما قلت. وقال للحاجة مغيراً الحديث:

- شربت كثيراً اليوم يا حاجة. أخشى أن يأخذوك هذا المساء إلى قسم المستعجلات لو أنك استمررت في ذلك. أين عمر؟

- هو الذي أسكرنا أثناء تناول طعام الغداء. إنه ينام مثل خنزير الآن. أما البنات فقد تقيأت واحدة منهن كل ما أكلت وما شربت حتى قلنا إنها لا شك مشرفة على الهلاك.

- ياه! كانت حفلة رائعة إذن؟ بأية مناسبة يا حاجة، قلت.

قال رحال:

- كنت تتمنين أن تنزلي عندهم تحت، لو فعلت لكنت في المساء قادرة على تكسير كل الزجاجات والكؤوس على رؤوس الفتيات في الملهى.

- أنا لا أفعل ذلك. أنت تعرف أني أشرب ليلاً فقط. الليل ستار العيوب.

وقالت الحاجة:

- ما لهذا الغرض صعدت إليكما.

قال رحال:

- لماذا إذن يا حاجة؟

- أود أن أقول لكما فقط. عفواً. أن أنصحكما فقط. عليكما أن تطردا الآخرين وأن تؤثثا غرفتكما، وأن تعيشا في سعادة لأن كل شيء موفور الآن.

- والآخرون يا حاجة، أين يذهبون؟

- سيفتح اللّه عليهم كما فتح عليك.

- كم زجاجة شربت يا حاجة، حتى أتأكد من سلامة عقلك؟

- ليتراً واحداً من النبيذ، ربما أكثر قليلاً.

قال رحال:

- الأفضل أن تذهبي لتكملي ما تبقى في الزجاجة وتنامي مثلما فعل عمر.

وقفت الحاجة وهي تقول:

- وخّا يا وليدي.

وقال رحال لي بهمس وهي عند الباب:

- لتنامي مع عمر.

كتمت أنا ضحكة، كادت تخرج في ظرف غير ملائم.

وأضاف رحال:

- هل رأيت كيف أن الناس يتدخلون فيما لا يعنيهم؟

- إنها عندما تسكر تفقد كل شعور بما تفعل أو تقول. إنها يمكن أن تنام حتى مع ابنها. ألا تعرف اليهود؟

كانت أشعة الشمس تتسرب من فجوة الباب المفتوح. وقف رحال وذهب إلى الباب ودفعه دفعة خفيفة بقدمه اليسرى. كم كان يعرف كيف يتحدث ويفكر ويناقش ويحب ويعامل امرأة. إنه رجل حقيقي. لهذا كنت أحبه. وسوف أظل أحبه. بعض الفتيات معنا في الملهى يحاولن أن يحمْن حوله. لكنه لا يعيرهن اهتماماً. هو أقوى من لذة عابرة. وأحياناً لا يرغمني على فعل الحب إلا إذا شعر بأن عندي رغبة أكيدة في ذلك. لو فقدته لفقدت ضماناتي في العالم. والدتي أصبحت تحبه دون أن تراه. أخواتي كذلك. ورغم أنه ليس طبيباً ولا محامياً ولا قاضياً ولا كوميسيراً ولا عربياً من عرب البترول، فهو أحسن منهم جميعاً، ويتحدث أحسن منهم.

رجع إلى الفراش بالقرب مني، وقال:

- قومي وهيئي لنا شيئاً نأكله، المساء ينتظرنا. اليوم يوم السبت. سيكون عمل كثير هذه الليلة.

وقفت بسرعة، كانت أوامره صارمة، ولا يمكنها أن تردّ أبداً. ولا يردها إلا من لا يعرف رحال جيداً. أما أنا، فعرفته وأعرفه.

باب الحبّ في مراكش

تعطلت الدراجة فجأة عند مفترق الطرق، فنزلت عنها ودفعتها متجنبة السيارة التي كان كلاكسونها يزعق من خلفي. وقفت بين نخلتين عاريتين على الطوار وأنا ألهث. تركت الدراجة متكئة على النخلة وابتعدت منها أفكر فيما أفعل. لم يكن معي فلس لدفعها للتصليح. المسافة بين الثانوية والبيت لا تزال بعيدة. اقترب مني عمر. تحدثنا عن الدراجة وساعدني على إصلاحها ووصلت إلى البيت، ثم أحببته، ثم اغتصبني، ثم ربطني والدي طوال أيام وظللت في مكاني أياماً لا أشرب سوى الماء، ولا آكل سوى الخبز، مثل جروة تماماً، مثل جروة بئيسة كان يملكها جيراننا وماتت من تلك المعاملة، وخفت أنا أن أموت لأنني أصبحت أعامل مثل الجروة. فاضطررت أن أحكي كل شيء. وخفت على عمر أن يدخل الحبس فلا يتزوجني. لكنه فرّ إلى مكان معين ولم يتزوجني. وقيل إنه يعيش في الدار البيضاء. والدار البيضاء نساؤها كثيرات وأخشى أن تخطفه واحدة منهن. لهنّ كثير من الفلوس. إني أشاهدهن في مراكش يرتدين أفخر الثياب ويركبن أفخم السيارات وهنّ قليلات الحياء. ويشبهن الرجال إلى حدٍّ ما، ولا يتحدثن مثلنا، فلهجتهن غريبة مثل لهجة بدو الرحامنة أو بدو قلعة السراغنة. يتحدثن كثيراً بالفرنسية، ومنهن من يكنّ عادة مع أجانب أوروبيين والعياذ باللّه. هذا في

مراكش عندنا عيب. المغربية مع مغربي حتى لو كان بياع الفول أو الكرعين في ساحة جامع الفناء. كم أحببت عمر وكم كان يحبني، ولا أعتقد أنه نسيني. أغلب الظن أنه يعود إلى مراكش خفية عن أهلي. ولكن أهلي نسوا كل شيء وتمنوا لو يزوجونني به، لأنهم علموا أنه شاب كان يستحق أن يفعل بابنتهم ما فعل. وأن نيته كانت حسنة، ولم يفعل ذلك إلا لكونه كان يحبني. وقالت والدتي ذات يوم لأختي الكبرى:

- المرأة التي تجد رجلاً يحبها اليوم عليها أن تعض عليه بالأسنان والأظافر. ما كل الرجال يحبون النساء.

وفهمت أنها كانت تعني أختي التي كان زوجها يحبها. ولا بأس من أن تعنيني أيضاً، أنا منتكسة الحظ التي وجدت من يحبها لكن الظروف حالت دون أن يكتمل ذلك الحب بالزواج. وأضافت الوالدة:

- كنزة مسكينة، ليس لها حظ. وسوف يأتي لها اللّه بولد الناس. اللّه يهدي أباها الذي غضب عندما وقعت لها تلك الواقعة البسيطة. كم أن الرجال لا يفهمون أن كل ذلك شيء عادي. والمرأة المسكينة لها الحق أيضاً في أن تفعل قليلاً من الحب هي الأخرى، مرة مرة، لأنها ليست حجراً جامداً، أو صخراً جلموداً، اللّه يهدي من خلق.

بعد عمر لم أعد أعرف ما أفعل بنفسي. لقد علمني الشيء الكثير في الحياة. لم أكن أعرف حتى المدينة التي ولدت فيها. هو الذي أخذني إلى كثير من الأماكن في الضواحي. ذهبنا مرة إلى إسني، وتمتعنا برؤية الخضرة والأشجار وسبحنا في المسبح هناك، وقدَّم لنا قائد المقاطعة مشروبات على حسابه. كم كان ظريفاً ذلك القائد. لكن عمر لم يحبه. لأن القائد سكر وأخذ يقرّب خياشيمه من

نهدي، فسحبني عمر من ذراعي وعُدنا إلى مراكش. قال عمر إنه يستطيع أن يقتله رغم أنه قائد. فأولئك الكلاب لا همّ لهم سوى السكر وتشمم رائحة النساء أينما كانت، حتى لو كانت هذه الرائحة قذارة آباط المومسات. وعمر كان رجلاً فحلاً وزوين في كل شيء. والكلمة إذا قالها فعلها. ولذلك أحببته. ولو كنت أعرف مكانه في الدار البيضاء لأخذت من أمي فلوساً ولاستقللت الحافلة وذهبت أبحث عنه هناك. ولكن الدار البيضاء كبيرة ويمكنني أن أضيع فيها. غير أنني مراراً أحاول أن أقنع والدتي بأن أنتقل إلى الداخليات في الدار البيضاء. ولو ذهبت هناك لقضيت عمري كله في البحث عنه. والعثور على رجل مثل عمر، خير من الدراسة. فالدراسة لم يعد فيها نفع. كثير من حملة الإجازة يتجولون في الشوارع عاطلين. وقيل إن بعضهم انتحر، والحكومة لا تريد أن تفعل شيئاً من أجلهم. هذا ابن جيراننا الذي يحمل إجازة في الحقوق، قضى عامين في الخدمة المدنية، وهو الآن عاطل، يظل يدخن الكيف والحشيش حتى كاد عقله أن يطير، خسارة فيه، شاب جميل مثقف. لكن لا أدري ماذا تفعل هذه الحكومة عندنا. وهل الشيء نفسه يقع في بلدان أخرى أوروبية. في التلفزيون على الأقل لا يظهر الحشاشون ولا العاطلون، والعالم كله مزيان إلا المغرب. كيفاش؟ لقد درسنا في التاريخ أننا كنا في الأندلس وبعنا واشترينا في الذهب والملح في إفريقيا. وكان الرخاء والحياة جميلة، والعلماء موجودون في كل عصر. فكيف أصبح الجامعيون عندنا يتسكعون في الشوارع، يشربون الكحول الخالص ويتحششون؟ هذه أشياء لا أفهم فيها. ولكن اللّهم الطف واستر. وأنا لا أريد حتى الحصول على الباكالوريا فأنا أعرف مصير الحاصلات عليها من صديقاتي، كلهن يقحبن مع عجائز صلع الرؤوس منتفخي الأوداج لكي يدفع عنهن هؤلاء تكاليف الدراسة في

الكليات. ياه! صديقة أختي حصل لها ذلك، كانت في السنة الثانية طب، طردوها فأصبحت لا تعرف ما تفعل بنفسها وقيل إنها التحقت بأحد مراكز تكوين الأساتذة في مكناس أو فاس لا أدري. وربما ذهبت مع سعودي لجلب المال من هناك. وماذا يهمني أنا من كل ذلك. لو عثرت على عمر فقط، لسار كل شيء على ما يرام. ولا شك أنه يشتغل في الدار البيضاء وله وضعية مالية جيدة لأنه يعرف ما يفعل، ويستطيع أن يضمن عيشه بأية طريقة:

وقالت أمي ذات يوم:

- هل كنت حقاً تحبين ذلك الشاب عمر؟

- نعم. وكان يحبني أيضاً.

- أنت متأكدة من ذلك؟

- متأكدة.

- ولماذا فعلتماها؟

سكتُّ وخجلت أن أرد، كررت والدتي السؤال. قلت:

- لم نفعل أي شيء يا أمي. لو كانت عندي دراجة جيدة لما وقع ما وقع.

- وما علاقة الدراجة بذلك؟

- هي سبب هذه الطلية.

ولم تكن الوالدة تعرف شيئاً عن ذلك اللقاء الأول، ولكن، هل كان الأمر يعنيها إلى هذا الحد؟ فوق ذلك هي أمي. ولا شك أن أي والدة تهتم بما يحصل لابنتها كما أن كل زوج يهتم بما يحوم حول زوجته.

كم كان عمر خوافاً! لو أنه بقي هنا فقط، وتحمل المكوث بضعة أيام في قبو مركز الشرطة؛ لكنا قد تزوجنا، لكانت عائلته

دفعت قليلاً من الرشوة إلى أحد الضباط الكبار إذ ذاك يسقط في يد عائلتي، ونعيش أحسن قصة حب لم يعشها اثنان أبداً. ومع ذلك، لا بدّ أن أزور الدار البيضاء، ولا بد أن أرى عمر. وأنا متأكدة من أن عمر هو أيضاً يرغب في أن يراني...

م.ز: احلمي طول عمرك. واللّه لن تشوفي عمر في حياتك يا خوينزة. ما أنت بالأولى ولا بالأخيرة. ما كل امرأة تتزوج من تحب وما كل رجل يتزوج من يحب...

باب الكيْد

انسحب حسن إلى جحر آخر في الدار البيضاء. صعب أن تجد جحراً هذه الأيام في المدينة لكي تأوي إليه، ولكن مع ذلك استطاع حسن أن يحفر في الأرض لكي يعثر عليه (انتهى!). بقي دحو والمختنر، وقال دحو:

- يجب أن يطرد المختنر لأنه ينظر إلى جيجي نظرة معينة.

وقال المختنر:

- لا فائدة في شخص مثل دحو. فجيجي تتضايق منه ولقد لاحظت كيف أنه يضايقها.

وقالت جيجي:

- إن دحو والمختنر شابان طيبان. أتمنى أن يفتح اللّه عليهما فيجدا لهما سكنى خاصة.

ما كنت أعرف ما يقع، ولم يكن في إمكاني أن أعرف. غير أني كنت متأكداً من أن جيجي تحبني وأن شعوري تجاهها ربما كان حباً أيضاً. ولم أدرِ كيف أن الناس يستطيعون بذلك المكر البشري الكيد لبعضهم. في الظاهر، لم تكن تبدو على أي واحد من دحو والمختنر علامة استياء عندما يلتقيان. غير أنهما قلما كانا يلتقيان. فأحدهما يتغيب عن سطح العمارة أحياناً ثلاثة إلى سبعة أيام. ليعود بقليل من الدراهم يدفعها لجيجي التي ليست في حاجة إليها طبعاً في هذه

الظروف. وحاولت أن أجد لأحدهما عملاً في الملهى الليلي. قلت ذلك لجيجي. وافقت. الفكرة جيدة. لكنهم لم يكونوا في حاجة إلى نادل، بل في حاجة إلى قوادين ممكن...! المختتر رفض أن يصبح قواداً. ودحو رفض أيضاً لأنه قبل أيام التقى بأوروبي، يدير إحدى الشركات في الدار البيضاء. ووعده بأن يجد له عملاً في الشركة نفسها، بل إنه اقترح عليه ثروته، يفعل بها ما يشاء.

قالت جيجي:

- لا شك أن لدحو.. (وقامت بحركة ما).

- احشمي قليلاً.

- ولماذا أحشم؟ كثير من الناس يكسبون حياتهم من فروجهم سواء كانوا قحابين أو شاذين جنسياً. أعرف الكثير من هؤلاء الذين أدركوا الحياة التي لا تدرك، إلا بطرق مثل تلك.

وبالفعل تغيرت أحوال دحو عندما تعرف على ذلك الأوروبي في حديقة السندباد. كان دحو عادة ما يرتاد الحديقة في أوقات معينة. لم يكن يجد ما يعمل. اقترب منه ذلك الأوروبي وتمدد بالقرب منه على العشب. ناوله سيجارة، تحدثا، ثم اختفيا في الدغل. ووجده رجال القوات المساعدة فوقه. دفع ذلك الأوروبي رشوة وأخذه معه بالسيارة الفولفو إلى البيت، شرب دحو كثيراً، وعاد إلينا في نهاية الليل سكران وفي يده حزمة من الأوراق النقدية.

- من أين لك هذا يا دحو؟

- سأقول لك غداً.

سحبته إلى السطيحة. قال:

- لقد كنت مع أوروبي. عندما سكر سرقت منه هذه النقود، خذها يا رحال احتفظ لي بها. من الآن فصاعداً لن أعيش إلا معهم

ما دامت ليست لنا قدرة على النساء، الرجال يدفعون أما النساء فيأخذون.

قلت له:

- إذا أدمنت على هذه العادة فسوف تصبح في آخر أيامك مثلهم.

- إني أريد أن أعيش. لا يهمني أن أصبح مثلهم. إني أكبر فاشل الآن لأني لا أستطيع أن أجد حتى ثمن علبة سجائر، الفلوس وحدها تصنع منك رجلاً.

قلت لدحو:

- لا شك أنك سكران الآن. عليك أن تنام وربما تحدثنا في الموضوع غداً.

جررت دحو من ذراعه وهو يتجشأ رائحة كريهة. أدخلته وألقيت به في مكان ما. دمدم ببعض الكلمات، ثم سمعناه يشخر.

قالت جيجي:

- سوف يصاب بزكام هذه الليلة.

قلت لها :

- نامي. لا يهمك أنت من هذا شيء. هناك الصيدلية التي تستطيع أن تحل مشكلته.

ومرة أخرى، لا أدري كيف يستطيع البشر أن يكيدوا لبعضهم بتلك السهولة، ودون أدنى شعور بتأنيب الضمير. ما هو الضمير؟ لا أدري. غير أني أعتقد أنه شيء ما، بعيد من إدراكنا، يقول لنا هذا قبيح وذاك مقبول. لكن ذلك الشيء مع الأسف يكون في أغلب الأوقات غائباً عند الناس. هل هو الذي يحضر من تلقاء نفسه في الأوقات المناسبة، أم نحن الذين نستحضره. في الحقيقة هناك أشياء كثيرة تحيرني، مثل الضمير، العقل، الروح. أين هي هذه الأشياء؟

وفي أي مكان من أجسادنا توجد؟ وأتصور أحياناً أن الإنسان لو استطاع العثور على مكامنها في الجسد لحلت الكثير من المشاكل اليومية، لكف الناس عن الاقتتال فوق السطوح، ولأغلقت النساء أفواههن التي تشبه المزابل في حالات الغضب، ولعاد كل قائد مقاطعة إلى زوجته وكف عن خيانتها، ولما اعتدى وكيل نيابة أو كوميسير على امرأة مسكينة بئيسة تدير باراً عادياً، ولكفّ مفتش الضريبة عن طلب الرشوة، ولأصبح الحكام ملائكة منزهين يحبون الخير لكل الناس ويعطونهم المثال في المحبة والإخاء والعدالة. لكن مرة أخرى كيف يستطيع الناس أن يكيدوا لبعضهم، كيف يكيد دحو لحسن؟ وكيف يكيد حسن لدحو؟ وكيف حاولت الحاجة أن تكيد لي؟

في تلك الليلة، استيقظ دحو مرتين، وسمعناه يقيء ويتألم. تقيأ حتى لم يبقَ في جوفه شيء، كان ذلك واضحاً لأنه كان يتألم، واعتقدنا أنه سوف يموت في تلك الليلة، لكنها حالات كانت تمر بسرعة وتتكرر باستمرار، وفي الصباح استيقظ شاحب الوجه لأنه لم ينم بما فيه الكفاية ولم ينم كما اعتاد أن ينام، خرج، نعم خرج. ربما ذهب إلى ذلك الأوروبي في عين السبع. لم يقل لنا شيئاً، وكان ذلك أفضل. أحياناً، على الإنسان أن يقفل فمه، وأن يقول ما يريد قوله لنفسه، تلافياً لكي لا يفهمك أحد. لأنه ربما أوّل الشخص الذي تتحدث إليه كلامك، وجعل من البقرة حماراً ومن الحمار ثوراً، ومن الثور دجاجة، وتلك هي المشكلة الحقة في كلام الناس، إذن خرج. نعم خرج ولم يقل لنا شيئاً.

وقالت جيجي:

– لا بد أنه خجل من ليلة أمس، لذلك لم يستطع المكوث في البيت.

- قد يكون على حق. شيء رائع أن يشعر الإنسان بخجل من تصرفه حتى لو كان لاإرادياً. ذلك ما يعوزنا جميعاً.

- على كل حال، لقد كان عادياً، وتصرف بتلقائية.

- بعض الناس لا يفهمون ذلك.

- تماماً.

- ويعتبرون ذلك ضعفاً فيك. الإنسان لا يكون قوياً إلا بضعفه. خصوصاً إذا اعترف به. الضعف البشري أحياناً يكون هو القوة الفعلية، عندما يدركه الإنسان في نفسه قبلْ أن يدركه في غيره.

قالت جيجي:

- إنك تتحدث في أشياء صعبة، لكنك قوي في فهم تلك الأشياء التي تغيب عني، هذا ما يجعلني أزداد حباً وتعلقاً بك.

قلت:

- تلك أشياء في متناول الجميع، يكفي فقط أن نُعمل العقل وأن نحرك أدمغتنا. لا بد أن نحركها أحياناً حتى لا تصبح جامدة مثل كتلة صقيع. إذا جمد الدماغ جمد الجسد وجمد كل شيء: الحياة مثلاً. نصبح مثل الحمير.

قالت جيجي:

- كثير من الناس يشبهون الحمير، لا شك أن أدمغتهم جامدة.

- ها.. تماماً. لقد أصبحت تفهمينني جيداً.

- ومتى لم أكن أفهمك؟ لا تستهن بي، لو لم أكن أفهمك لما كنت قد أحببتك. لا تستطيع أن تتصور أنني أفهم بعض الأشياء التي ليس في مقدور أية امرأة فهمها حتى لو تعلمت في أوروبا.

- لا تتحدثي عن أوروبا. إن الأوروبيين مجرد شاذين جنسياً، والأوروبيات مجرد سحاقيات، وهذا لا يمنع من كونهم..

- من كونهم ماذا؟ قُل، تحدث، إني أريد أن أستفيد منك.

- لا داعي لأن أتحدث كثيراً. ثم إن خيط الحديث يطول دائماً، ويجب ألا يقطعه المرء في لحظة واحدة..

- كل ما تقوله صحيح.

ثم مرة ومرة أخرى.. ماذا يمكن للإنسان أن يقول. فالحياة عامرة بالغرائب والعجائب التي لا يمكن للإنسان أن يكف عن القول فيها أو عنها. قال لنا مدرس العربية ذات يوم:

«اعمل لرزقك كل آلة   لا تقعدَنَّ بكل حالة..»

وقد عمل مدرس العربية كل آلة حتى أصبح مدرساً في إحدى الإعداديات، لأنه كما روى لنا بنفسه كان يبيع الجوارب في البحيرة، وذات يوم تولى الوزارة رجل اسمه محمد الطاسي أو محمد الساسي لا أذكر، أراد أن يعرِّب التعليم فاستدعى كل من هبّ ودب. أجروا لهم امتحاناً في التلاوة ودفع بعضهم شيئاً من الرشوة، وصاروا - تبارك اللّه - معلمين في الابتدائي.. ثم انتقلوا كأساتذة إلى الثانوي، ومنذ أيام فقط شاهدت حفلة لمدير ثانوية، كانت الخراف المشوية وزجاجات الويسكي تتقاطر على بيته احتفالاً بترقيته، ولما سألت عنه قيل لي إنه كان مجرد متعلم خياط. وهو مثل مدرّسي الذي عمل لرزقه كل آلة. أعود فأقول: إن على الإنسان أن يعمل أي شيء لكي يكسب حياته ما دام لا أحد يستطيع أن يعولك، أو أن يطببك، أو أن يدفع ثمن كراء بيتك، واللّه وحده يعلم أني لا ألوم في أعماق نفسي ما يقدم عليه دحو. وإن كنت لا أرضاه لنفسي ولا أبغيه لمسلم. وما أقبح أن يعيش الإنسان من ذلك الشيء سواء كان امرأة أو رجلاً. وجيجي طبعاً تعرف أن كثيراً من الناس يعيشون من ذلك، وأنا أيضاً أعرف. ولكنه شيء خايب وحشومة وحرام.. ولكنها الحياة التي لا ترحم، والإنسان ذئب لأخيه الإنسان، وكل واحد منهم يكيد لأخيه،

وإذا تحدثت عن مدرّسي فإنما أتحدث فقط، وليس بغرض أن أكيد له. ومع ذلك فالناس طيبون، وبقدر ما يكيدون لبعضهم فهم يريدون الخير لأنفسهم وللناس. المهم أن هناك شيئاً ما ينقصهم لكي يصبحوا أخياراً. غير أنه يبدو لي أحياناً أن قليلاً من الشر هو ملح الحياة، ولا أستطيع أن أتصور تلك الجنة التي وعدنا بها اللّه سبحانه، حيث كل حياتنا اليومية سوف تكون خيراً في خير. يا رب سامحني، فأنا لا أجدف بنعمتك ولا بقوتك. أنا لا أتصور عالماً سوف يكون فيه الناس متساوين في الجمال والثروة والعاطفة والشباب والخلود.. ولا أتصور عالماً مثالياً مثل ذلك إلا بقليل من الكيد والشر، لا بكثيره.. يا ربي سامحني مرة أخرى؛ لأنني لا أريد أن أكيد لأحد، ولا بأس في قليل من الكيد، لأن الكيد درع للنفس. درع واقية واللّه أعلم، لقد كدتُ لبعض الزبائن عندما سكروا مراراً. وقد أقنعتني نفسي بأن ليس في ذلك غضاضة، فواحد يسكر ويبذر المال يميناً وشمالاً. وهناك آلاف العائلات تبحث في قمامات الشوارع لتعثر على قطعة خبز أو فضلات طعام. وإذا كان أحد زبائني من أولئك الذين يملكون الفيلات الكبيرة، وفيها المسابح الباردة والدافئة والحدائق الغنّاء، فإني لا بد كائدٌ لهُ. غير أن هؤلاء لا يرتادون مثل تلك الأماكن، لأنهم يخافون على أنفسهم وسمعتهم. ولا يزورنا منهم إلا من كانت لديه مشاكل جنسية في بيته. وهكذا فالكيد بين هؤلاء واجب، غير أني لا أحب كيداً في السطوح وفي الأزقة، وكيد ربة عمارة لمستأجريها وكوميسير أو وكيل نيابة لمواطن مسكين مثل هذا وذاك.. وعليه، فدحو شاب طيب، والمختنر كذلك، والحاجّة أصبحت طيبة، وكلنا طيبون. وهذا شيء جميل رائع، وعلى الإنسان أن يكف عن الكيد لأخيه الإنسان، حتى لا يُكاد له بما هو أفظع، لأن من كاد يُكاد له. وحتى إذا لم يستطع

بشر أن يكيد له فاللّه خير الكائدين وأيضاً، اللّه سبحانه، خير الماكرين في الكيد. وقالت جيجي:

- إن الضرايبي، صاحب الملهى الليلي، يحبك كثيراً، لأنك رجل جاد في عملك، وغير غشاش.

وعندما نطقتْ كلمة غشاش، ضحكتْ، وحاولت أن تخفي ضحكتها، ضحكتُ أنا بدوري وقلت لها:

- ما يهمك في الأمر كله؟ أخشى أن يكيد لنا ذات يوم.

- لهذا يجب اتخاذ الاحتياطات اللازمة، لقد كادوا لك ما شاؤوا أن يكيدوا في السابق، وقد آن الأوان لكي تعرف كيف تكيد لهم.

لا أدري، كل شيء تغير، البيت في السطح تغير، جيجي امرأة حاذقة. الورق الملون والثلاجة والسلسلة ستيريو. كيف حصل ذلك؟ لا أدري دائماً. ورغم أني أعرف فإني لا أحاول أن أعرف، لم أكن أجد ما أشتري به علبة سجائر، أما اليوم فالأحوال تغيرت، وشيء رائع أن ينطلق الإنسان من الصفر، أقصد من صفر روماني، إلى أرقام معينة من الفلوس. وعل كل حال، فالدار البيضاء مدينة يمكنها أن تعطيك الفرصة لكي تعيش. عليك فقط أن تتنازل عن بعض الأشياء، لا داعي لشرحها، ولماذا لا نقولها؟ يمكن للمرأة أن تقحب قليلاً، أقصد حتى زوجتك أو أختك أو ابنتك، ويمكنك أنت أيضاً أن تكشف عن أعضائك، فهناك الشواذ الذين يرغبون في فعل ذلك، وعليك أيضاً أن تكذب قليلاً أو كثيراً وأن تنافق قليلاً أو كثيراً. وأن تفعل هذا أو ذاك. باختصار، أن تكيد إما لنفسك وإما للآخرين، وهذه هي الدار البيضاء. ومن دون ذلك لا تستطيع أن تعيش. وأحياناً أتصور ما الذي سوف يمكن أن يقوله أولئك الذين سوف يولدون، وسوف يتجولون في نفس الأزقة والشوارع التي

نتجول فيها الآن. . . أتصور ذلك بعد عشرين أو ثلاثين سنة قادمة. إني لا أفهم في تلك الأشياء، غير أني أجد متعة قوية في الاستماع إلى صديق كاتب، لم أقرأ له شيئاً، كاتب مثل تولستوي. رأيت صوره في بعض المجلات والجرائد، هذا شخص يحدثني عن المغرب الذي لا أعرف. وأنا أيضاً أحكي له عن الأشياء التي لا يعرف ولا يمكنه أن يعرفها، لأنه كاتب، والناس لا يثقون بالكتّاب. يخافون منهم. ربما فضحوهم. ورأيت كثيراً من ذوي كروش الحرام يدفعون ثمن ما يشرب ذلك الكاتب، لكنهم يغتابونه ويحاولون أن يبتعدوا عنه ما أمكن. مع أنه مسكين وظريف ولا يسكر ولا يؤذي أحداً، ونحمد اللّه على أن بلادنا أصبح يوجد فيها مثل تولستوي وماركس وشوقي الذي يكتب عن الربيع وحافظ الذي يكتب عن النيل، وذلك الكاتب الذي يكتب عن السيارة الملعونة، وإن كان لم يعجبني قط. أنا لا أقرأ ولكني أحب ماركس، وأحب سوناتا تولستوي، وأحب هذا الكاتب الذي قرأت له بعض الاستجوابات، يسب فيها الوضع ويتحدث عن الفقراء، وإن كنت لا أفهم أحياناً ما يقول في استجواباته. استدعيته مرة إلى البيت فزارني وشربت معه ولم تشرب جيجي، وظلّت تنْصتُ إليه وأعجبت به، وقالت جيجي:

- يا حليلي! حتى نحن أصبح عندنا مفكرون، وسنصبح مثل الدول الأخرى وسيصبح المغرب معروفاً في العالم كله، هذا شيء رائع. سوف نتحضر نحن كذلك، ولن يقحب نساؤنا من أجل كسرة خبز، ولن يغض بعض رجالنا الطرف منذ الآن عن بناتهم اللواتي يفتحن أفخاذهن للسعوديين وللبحارة الأوروبيين.

قلت لجيجي:

- ما علاقة هذا بذاك؟ أنت تخلطين شعبان برمضان.

قالت جيجي:

- وما لي؟ ألا أقول سوى الحق؟ إن البلدان التي يكثر فيها الكتّاب والمفكرون لا يعاني سكانها من الجوع والفقر مثل بلادنا.

قلت لجيجي:

- أنا لا أفهم في هذه الأمور. وخير للإنسان ألا يدلي بدلوه في بئر جافة. قال لي ذلك الكاتب، إنهم كادوا له وتحدثوا عنه في مدينة فاس، وقالوا عنه إنه ولد الحرام ويريد أن يزرع الفتنة والعنصرية في البلاد، مسكين! فهو ما يظهر عليه ذلك. ولكنه لا يقول إلا الحق، وهو الذي عندما رأى بعض المجلات وبعض الكتب في بيتنا قال إنه ما رأى كتاباً واحداً في بيوت أولئك الذين يشتمهم في كتبه، بل رأى أشرطة الفيديو الخليعة والأسطوانات. وقال لي أيضاً إنهم ينكحون أخواتهم وبناتهم والمحرمات عليهم، تفو.. يا العياذ باللّه. وكان هذا في عهد الفراعنة إنه المسخ! ولهذا فهم يكيدون له ويكتبون عنه في جرائدهم كلاماً سافلاً ومنحطاً وقذراً. ولا شك أن اللّه سبحانه سوف يبعث ويسلط عليهم من يكيدون لهم، إنه خير الماكرين.. آمين. في هذا البلد عندما يوجد إنسان يريد أن يقول الحق يتهمونه بالحمق، وهذا كاتب مسكين يحبنا ويحب الخير لبلاده، وفيه شيء واحد قبيح هو أنه يكره النساء ولا أدري لماذا؟ ربما كان على صواب، وهو أعرف مني في هذه الأمور. الحقيقة أنه لا يكره النساء ولكنه يكره الرجال الذين جعلوا من النساء دمى، ووضعوا على قريباتهم القيود في حين استباحوا لأنفسهم نساء الآخرين. هذا عيب. ومعه حق. إما أن تنكح أختي وأنكح أختك أوْ بلاش. والنساء أيضاً يهديهن يفتحن أفخاذهن لأول رجل يكذب عليهن.

وقالت جيجي:

- من حقه أن يتحدث عن النساء بذلك الشكل لأنهن حراميات وخلاطات.. وليحمد اللّه لأنه ليس شاذاً ولا أي شيء. ومظاهر

الفتوة والرزانة بادية عليه. هكذا يكون الكتّاب وإلا فلا، ولو لم أكن أحبك لعميت من أجله وأحببته، ودفعت كل ما أملك من أجله، يا حليلي! بلادنا فيها الرجال وما كنا نعرف ذلك.

وعندما استقللنا وحدنا، أنا وجيجي، فوق السطح، أصبح يزورنا ذلك الكاتب باستمرار. أصبح صديقاً لي ولجيجي. والناس يقولون: «يجب معاشرة من هو أحسن منك». رجل كتوم ولا يبوح بالسر مهما كان، وهو يعرف جيداً أني قتلت شخصاً بالسكين. اعترض سبيلي أنا وجيجي، وكان معه أشخاص أرادوا أن يغتصبونا. عندما طعنته بالسكين فرّ الآخرون. وركلتْ جيجي واحداً منهم عند الإليتين، لكنه رغم الألم انسحب يجري ككلب. ولو كان شخص آخر غير هذا الكاتب لبلّغ عنا للبوليس. ولكنه رجل كتوم. واعتبر ذلك مشروعاً ودفاعاً عن النفس. وقال لي إن البوليس لن يغفر لك ذلك لو ضبطك. ولقد أخذت ثأرك بنفسك ولو لم تفعل ذلك لكانوا قد اغتصبوك أنت وجيجي، ألا تعرف أنهم اعتدوا على امرأة عمرها نصف قرن في سيدي البرنوصي، إن على الإنسان أن يحرص على طيزه حتى في الأوتوبيس ولا أدري ما الذي أصاب الناس؟

يأتينا الكاتب أيضاً في المساء، أمرر له بيرات مجاناً، إنه يستحق ذلك لأنه صديق وهو أعز عندي من أبي وأمي وبؤبؤ عيني. إنه يستحق ذلك لأن رأسه عامر بالعجب. اللّه اللّه! ما أروع أن يكثر في بلادنا أمثاله. وقال لي إن في بلادنا كتّاباً كباراً، وله واحد منهم صديق مشهور في العالم اسمه محمد شكري، يعيش في طنجة. أنا أريد أن أراه قبل أن يموت. وسألته هل كتب شيئاً مثل سوناتا تولستوي، قال لي نعم. وحياته غريبة، يبلغ الخمسين من العمر ولم يتزوج، يفطر بنصف زجاجة ويسكي وعندما يسكر تأتيه رغبة في خنق النساء. قلت له ما لكم ومال النساء.

وعلّقت جيجي:

- معهم الحق. لقد كثرت القحاب. أنا التي أعرفهن لأنني قحبت معهن، ولا يحببن في الرجل شعرة، وليست هناك امرأة تحب رجلاً إلا إذا كان جيبه مليئاً.

ياه ياه! رأسه عامر بحكايات من هذا النوع. لقد حكى لي عن زوجة رئيس حكومة كندا. قال لي إنها فرت، وتركت طفليها (هل لها قلب هذه المرأة؟) وذهبت إلى مراكش، وأخذ الصبيان يحششونها ويتعاقبون عليها، الواحد تلو الآخر. هاك من عند النساء! وقال لي إنها أرادت أن تشوه سمعة المغاربة، فكتبت عن رسام مغربي وقالت إنه يأخذ الأطفال الصغار إلى بيته يحششهم وينكحهم. بنت الحرام! لكن الرسام قيد بها دعوة في المحكمة. برافو عليه، حتى يرفع راية المغرب التي بدأت تنزل في هذه الأيام. محمد شكري! سأقرأ السوناتا التي كتب. ولماذا لا أقرأ لكتّابنا؟ وقال لي إن هناك كتّاباً آخرين كباراً، إلا أن بعضهم توقفوا عن الكتابة لأنهم تزوجوا، وشغلت زوجاتهم كل أوقاتهم، وزججنهم في الحياة اليومية. البطاطس والآجر والإسمنت والزبدة والسيارة والأولاد. هاك من عند النساء مرة أخرى.

ولو ذهبت إلى طنجة لحملت لمحمد شكري زجاجات ويسكي مهربة، لكنني حتماً سأمنعه من خنق النساء. لا لشيء إلا لأني لا أريد للكاتب أن يموت من أجل قحبة. ولو أراد القحاب فليأتِ إلى الدار البيضاء، وسأرغم اثنتين على النوم معه كل ليلة، وهو أولى بذلك من هؤلاء الكلاب الذين يرتادون الملهى.

باب طبيعة الكاتب

قالت الحاجّة:

- تخلصت من أولئك وجئت بهذا لا أدري من أين؟ يظل صباح مساء صاعداً نازلاً درجات العمارة.

قلت للحاجة:

- إنه رجل محترم. كاتب كبير، وأحسن بكثير من الذين يرتادون بيتك. أنت لا تعرفين معنى أن يكون الإنسان كاتباً؟

- ومن يكون في ملك اللّه؟ لقد حدثني عنه المقدم. فهو يعرفه جيداً.. إنه مجرد سكير وكافر وملحد.

- إن المقدم لا يفهم في هذه الأشياء.

انتفضت الحاجة وقالت كيف لا يفهم في هذه الأشياء؟ ولو لم يكن يفهم لما أصبح مقدماً عليك وعليّ. قلت لها إنه مقدم عليك لا عليّ، وقالت إنها ستبلغ عني، وسيأخذني إلى المقاطعة، إذ ذاك سوف يشبعني أعضاء القوات المساعدة ركلاً وضرباً حتى أزن كلامي هذه المرة بميزان الحكمة، واه واه! لو كنا نخاف من الدجاج لما نتفنا ريشه وأكلناه. سيضربونني، ثم ماذا بعد؟ يدخلونني إلى السجن، ثم ماذا بعد؟ ليس لي وظيف رسمي مع الحكومة حتى أتوقف عن العمل. ما أنا إلا قواد في ملهى. وقال عمر:

- تهددني بالمقدم.

- إذا أردت أن تنصب له شركاً فما عليك، زجاجة خمر وفتاة، وبعد ذلك نستطيع أن ننزع له سرواله، لن يرفع عينيه في وجهك حتى القبر.

- هو لم يفعل شيئاً إلى حد الآن. الحاجة هي التي تتدخل في أمور لا تعنيها.

- تلك امرأة خير من ألا يتحدث عنها الإنسان.

- وهي ماذا تفعل في بيته؟ تتهم ذلك الكاتب بالفسق وأشياء أخرى.

- إنه رجل طيب، ويتحدث في أشياء كثيرة لا أفهم فيها. ليتني كنت أمتلك ثقافته، لأصبحت كوميسيراً.

- إنه فوق كوميسير.

- إلى هذا الحد؟

- وفوق وزير.

- إلى هذا الحد أيضاً؟

- أنت لا تعرف من هم الكتّاب؟

- لا أعرف شيئاً في هذا الأمر، ثم إني لا أقرأ إلا الصفحة الرياضية في بعض الصحف أحياناً، والأشياء الأخرى لا تهمني. يبقى ذلك شغلهم وحدهم، قالوا لي مرة تعال تدخل إلى النقابة فهربت منهم. ماذا سوف تعطيك النقابة لو لم يعطك ذراعك؟ أليس كذلك؟

- يجب أن تتناقش مع الكاتب في هذه الأمور. أنا لا أعرف إلا تولستوي وماركس. هل تعرف ماركس؟ هذا أيضاً يكتب عن مثلي ومثلك ويدافع عنا.

- أسمع بماركس، إنه شيوعي. أنا مسلم ولست شيوعياً، ثم إني في الحقيقة لم أقرأ له شيئاً، عليّ ألا أتحدث في الأمور التي لا

أفهم فيها شيئاً. اسمع يا رحّال، أعتقد أننا في بعض الأحيان في حاجة إلى أناس يُفَقِّهوننا في مثل هذه الأمور مثل ذلك الكاتب.

- هؤلاء الناس يجب أن تبحث عنهم، لا أن يبحثوا عنك. أنت تظل تسكر وتتشاجر من أجل. . .

سكتُّ لأني كنت أريد أن أقول من أجل تلك العجوز لكني خفت أن يغضب. . ولكن الأكيد أنه لم يكن ليغضب، لأنه هو نفسه يشتمها. ولكن من يدري؟ ربما غضب. كل شيء محتمل في الحياة، حتى العصا التي يمكنها أن تصبح حية والحية التي تتحول إلى امرأة، لا يهم، كل شيء ممكن وكل شيء غير ممكن. والحاجة تفتح فمها دائماً، خصوصاً إذا ما شربت جرعة أو جرعتين من الخمر. وقال لي صديقي الكاتب:

- لا تهتم بها. أنا أستطيع أن أغلق فمها. مثيلاتها كثيرات، والمرأة لا يمكنها أن تغلق فمها إذا لم تغلقها من تحت.

قلت:

- هي لا تهمني، بقدر ما يهمني ما يمكن أن يحكيه المقدم.

- ذاك شأني، تعودنا على خياطة وحياكة من نوع معين، وكل ما يمكنه أن يخاط يمكنه أن يلبس حتى لو كان ثوباً من شوك.

وقالت جيجي:

- يدخل ويخرج كيفما يشاء، ونحن ما وجدنا صديقاً ورجلاً مثله. ولتخرج الحاجة والمقدم من ثقب إبرة. ما أنا إلا قحبة، ومستعدة أن أدخل السجن من أجل رجل يحمل أفكاراً مثل أفكاره.

كانت جيجي تقترب دائماً من أفكاري. إنها امرأة ليست كالنساء اللواتي عرفتهن. فكل النساء اللواتي عرفتُ لا يحترمن أزواجهن أو أصدقاءهن إلا لكونهم ذوي علاقات أو شهرة أو سلطة. وما الذي تحبه جيجي في قواد مثلي؟ ! إنها امرأة تستحق كل حب. وحتى

الإنسان الذي يمكنه أن يفكر في الحب، يستطيع أن يقع فيه مع جيجي.

نبحت الحاجة وعوت ومأمأت وأمأمت ونقنقت وزأرت وطنت وسكتت في الأخير. وخرج المقدم من ثقب الإبرة، وصديقنا ظلّ صديقنا. وماذا يمكن لأي كان أن يقول في ذلك. هذا رجل خير من مئات الرجال. وقال لي إنه ينوي أن يغير عقليات الناس وأن يقلب مفاهيمهم العوجاء لأنهم يكذبون كثيراً، وينافقون بعضهم من أجل الوصول إلى شيء ليس أبعد من فروجهم لا من أنوفهم. معه حق، لذلك فهو قوي بذاته. وطز على امرأة خانزة مثل الحاجة. امرأة مارجة وهجالة ومعفونة وكل شيء. رجل ما رأيت مثله. إنه يشتم حتى اللغة العربية، وأنا لا أفهم فيها شيئاً. ومن حقه أن يشتمها، فالقصائد التي قرأت في الثانوية كلها في المدح الذليل وواحدة منها فقط تصف بركة نتنة وقذرة اسمها بركة المتوكل، هو الذي قال لي هذا الكلام، ولم أنتبه قط إلى أن تلك البركة نتنة وقذرة حتى قال لي ذلك، يفهم في كل شيء، وقال لي لا تهتم بالحاجة، دعها تقول ما تشاء، فالنساء يتشابهن، وإذا أردت أن تعرفهن فاقرأ كتاباً لجيوفاني بوكاتشيو، أي أي! كم يقرأ الكتب ويتحدث في كل شيء. ألا يستحق الإنسان أن يموت من أجل أشخاص كهؤلاء؟

زارنا مرة في النادي الليلي، كان سكران ولكنه كان عاقلاً مع ذلك، اقترب منه شخصان اثنان، وخشيت أن يعتديا عليه، فكثيراً ما تقع هذه الأشياء بين هؤلاء الأشخاص متوسطي الدخل، يتقاطرون علينا من درب السلطان ومن سيدي معروف، ومن سيدي البرنوصي، وعندما يسكرون يغرزون في بعضهم السكاكين أو زجاجات البيرة. اقتربت منه، سمعته يتحدث معهما في شؤون نقابية. كان الرجلان معجبين بنفسيهما، بادئ الأمر، لكن في النهاية رأيتهما يقبلانه

ويناديان له على بيرات أخرى، لقد اكتشفا عقله وثقافته. عجيب وعفريت، غير أنه يسكت كثيراً، ولا يتحدث إلا في الوقت المناسب، ذلك أحسن. وخير للإنسان أن يسكت حتى يعرف ما الذي يريد أن يقوله عدوه، لأن الحياة مليئة بالأعداء. وأعتقد أنه على الإنسان أن يفترض في إنسان آخر العداوة حتى يتأكد من صدق صداقته. ذهب أحد الرجلين إلى المرحاض، والتحق الثاني بساحة الرقص مع فتاة، ذهبت إليه:

- هل ضايقاك؟

- لا.

- إذا فعلا، قل لي ذلك، هناك من بمقدوره أن يشبعهما رفساً ويخرجهما.

- لا، لا.

- أنت لا تعرف هؤلاء الأوباش، ما إن يشربوا بيرة واحدة حتى يريدوا أن يحولوا الدنيا إلى آخرة.

- لا يهمك، أنا متعود على أمثالهما.

- تريد أن تشرب بيرة أخرى؟

- هات.

فتحت البيرة ودفعتها له، شرب أخرى وأخرى، حتى شعر باسترخاء في مفاصله وأعضاء جسمه وثقل في لسانه. كان يعرف ما يفعل. ثم غادر الملهى لأراه فيما بعد.

غادر الرجل الراقص، وتأخر الذي ذهب إلى المرحاض، لا شك أنه كان يتقيأ، أو أصيب بإسهال. طلب الذي كان في ساحة الرقص بيرة «التاج» للفتاة التي كانت تراقصه، كان يتلعثم ويترنح، قال الرجل:

- إن هذا الرجل الذي كان معنا قبل لحظة مهم جداً.

قالت القحبة:

- هل هو كوميسير؟

أجاب الرجل:

- نعم كوميسير في المقاطعة الأولى، إنه صديقي، درسنا معاً منذ الطفولة.

- عظيم.

أخذت ترتجف، ولم تعد تعرف ما تفعل بالبيرة ولا بالكأس. لم ينتبه الرجل السكران لذلك. التحق به زميله:

- أين ذهب؟

- لقد ذهب. لا أدري، ربما انتقل إلى الجناح الآخر ليتفرج على الجوق.

- كان عليك أن تمنعه من ذلك. نحن نريد أن نتناقش معه.

- تناقش مع هذه. ألم تعجبك؟

- هذه لك. أريد واحدة لي.

نادى عليّ أحد الزبائن، فتحت له بيرة، وعدت بالقرب منهما. أخذ الذي كان يرقص يقرّب الفتاة منه، ويحتضنها بعنف حتى كادا يسقطان أرضاً. لكنها بقدر ما كانت خائفة من الكوميسير، كانت تحاول أن تتخلص منهما بطريقة غير مزعجة. قالت الفتاة بعد أن رشفت نصف كأسها دفعة واحدة:

- هل تريدان فتاة أخرى؟

قال أحدهما:

- نعم. لتكن لطيفة مثلك.

ذهبت وأحضرت فتاة. أخذوا يشربون، نسيا كل شيء، النقابة وكل شيء وعندما ينسى المرء بعض الأشياء، فإنما ينساها ليعيش أشياء أخرى بانتظار أن ينساها في وقت لاحق آخر.

باب الخيانة

كانت خطواته مثقلة. يجر قدميه بتعب وتلكؤ. وقف معطياً ظهره لواجهة متجر هندي للملابس، خرج أحد الهنود مهرولاً:

- تفضلا، ثياب آخر طراز، أثمان مناسبة أيضاً. إذا لم ترقكما الملابس فيمكنكما أن تستبدلاها حتى بعد أسبوع. أثمان مناسبة، صناعة متقنة، آخر موضة، صناعة.. آخر.. متقنة.. مناسبة.. أسبوع.. جيدة.. تفضلا.

لم يهتما به. اجتاز الطريق وتبعته جيجي. عاد سيل السيارات إلى الهدير بعد أن سمح له الضوء الأخضر بذلك. دخل قبلها إلى المنتغمري. جلسا قبالة الكونتوار. أشعل لجيجي ولنفسه، قالت:

- يبدو أنك لست على ما يرام.

- لقد قلت لك لماذا قبل لحظة.

- لا تعقد نفسك. يبدو أنكم أنتم الكتّاب تجعلون من الحبة قبة.

- الأمر ليس كذلك. ولكني لم أتعود على أمر مثل هذا.

- لا تهتم كثيراً. لأن رحال سوف يضحك منك وأنا ماذا أفعل في ذلك الملهى؟ إننا لسنا متزوجين. إني أحبه وهو يحبني، ولكننا من غير شك سوف نفترق ذات يوم من يدري؟

- إنكما تأخذان الحياة ببساطة إذن. أنا لم أتعود على هذا.

رفع رأسه إلى الجرسون:

- قهوتين باللبن.

قالت:

- لا. واحدة إكسبريس من فضلك.

وأضافت:

- لا بد أن أشرب أكبر كمية ممكنة من القهوة لكي أسهر الليل.

- تحطمين أعصابك فقط. إنها تجلب الانهيار.

في الخلف كان رجل كهل في حوالي الأربعين يلعب بسلسلة في عنق فتاة في حوالي الخامسة عشرة. محفظتها المدرسية موضوعة على الكرسي عن يمينها. كانت تضحك وهي تلتهم برتقالة مجمدة. أتت عليها كلها ثم استرخت على الكرسي إلى الوراء. قال الكهل:

- Une autre orange givrée?

- D'acc.

- Garçon!

ينظر إليهما وكأنه لا يراهما. تظهر أسنان الصبية بيضاء الآن وهي تضحك. تتلمظ بين الفينة والأخرى. جيجي تنظر إليه بتركيز، ثم تتحرك نظراتها إلى الكونتوار، ترى الدجاج المشوي والسلطة وشرائح اللحم وآنية الخردل، شمت رائحة الخردل عندما تذكرت تلك السندويشات المحشوة بالبطاطس والخردل. قالت:

- هل بك جوع؟

- لقد أكلنا قبل لحظة.

- آه صحيح تذكرت. لكن ما لك تبدو واجماً؟ هل أعجبك منظرهما؟ ذلك شيء عادي في الدار البيضاء، كأنك نزلت من كوكب آخر. أنتم الكتّاب..

- الأمر لا يتعلق بالكتّاب ولكنه يتعلق بي.

- وما الأمر الذي يتعلق بك؟ هل قتلت الجيلالي بوحمارة؟

- لا. قتلت الجيلالي المعگاز.

- هل تمزح؟ من الجيلالي المعگاز؟

نظر إلى الشارع من خلال الزجاج وهو شارد دائماً. التفت إليها. كانت نظراتها تنتظر جواباً.

- آه! الجيلالي المعگاز مثل الجيلالي بوحمارة، ثارا على الدولة.

- يا إلهي! لا أعرف شيئاً عن هذا ولا ذاك، أسمع الناس يتحدثون عن بوحمارة فقط، ولكني لا أعرف عنه شيئاً.

- خير لك ألا تعرفي. لقد جررتُ إلى ما لم أكن أرغب في فعله.

- تعود أيضاً إلى ذلك الحديث، طيب، سوف أقول ذلك لرحال، أنا الذي داهمتك وأنت عارٍ تماماً تغير ثيابك. التصقتُ بك مثل علقة، ثم وقع ما وقع. هل يرضيك هذا؟

رشف جرعة من فنجانه. الواقع أن الأمر لا يتعلق بي، ولا بك. لكنه يتعلق به هو. إنه أكثر من صديق. لو لم يكن كذلك لهان الأمر بالنسبة إلي. أشياء طبيعية تقع بين امرأة ورجل، لكن عندما لا تتدخل فيها اعتبارات أخرى. هذه الاعتبارات تختلف من إنسان لآخر، من ظرف لآخر، ومن مكان لآخر، قد يحب لورد بايرون أخته ونيتشه وأوديب. وقد يكره شوبنهاور أمه. لكن أنا...

قالت وهي تنفث دخان سيجارتها في وجهه:

- إنك تحرك شفتيك. ماذا تقول؟ هل تشتمني؟

- آه! عفواً. أفكر في شيء ما، شيء يؤرقني كثيراً، بعيد من كل ما قد تفكرين فيه.

كانت الفتاة الصغيرة تغرس الملعقة في البرتقالة المجمدة، وتأكل ببطء هذه المرة، والآخر يتأمل يدها النحيلة وهي تنقل الملعقة إلى ما بين شفتيها الملطختين بأحمر خفيف، كأنما تتشبه بأمها إذا كانت لها أم حقاً. انتهت البنت من الأكل، وقفت قبل الرجل الكهل. اقتربت منهما وهي تنتظره وتضحك. كان الرجل يتحدث إلى الجرسون.

صرخت الفتاة فيه:

- بابا، لا تؤخرني. عندي درس الآن في الرابعة.

- انتظري. سوف أوصلك بالسيارة.

- فتيحة تنتظرني في البيت. J'ai laissé mon tablier chez elle...

- Attends une minute

قالت جيجي:

- إنه أبوها.

- همم.

- كنت أعتقد. . لكن كل شيء مختلف في هذه المدينة.

التحق الرجل بالبنت. وضع ذراعه على كتفها:

- يجب أن تنتظريني في السادسة حتى آخذك. في الخامسة والنصف تغرب الشمس، الأوباش كثروا في المدينة. هل تفهمين؟

- نعم يا بابا.

خرجا. ظلّ صامتاً، يدخن، فكر هو الآن أن يغادر المكان ويذهب ليعب زجاجة من النبيذ في أقرب بار. إذا اقترح على جيجي الفكرة فإنها ستلتصق به كعلقة فوراً، وسوف تسكر، ولن تذهب إلى عملها هذا المساء. قرر أن يحتفظ بالسر لنفسه. بعض القرارات الشخصية يجب أن تبقى شخصية، مهما بدت تافهة وغير ذات قيمة.

عندما يطلع عليها الآخر، دون حتى أن تكون لديه الرغبة في المشاركة فيها، فإنها تفسد وتبطل فوراً.

الموسيقى تملأ قاعة المونتغمري، الوشوشات. وهناك ضحكات فتيات في مكان منزوٍ، ربما تحولت في البيت، أو في زمان آخر في المستقبل إلى بكاء. ظلّ صامتاً ينظر في كل شيء، لكنه لم يكن يعي في أغلب اللحظات وجود أي شيء يحيط به. شعر أنه من الصعب على إنسان في مثل حالته أن يركز تفكيره على موضوع واحد، ومع ذلك:

- لقد ورطتني فيما لم أكن أريد أن أفعله

- هل تريد العودة مرة أخرى إلى ذلك الموضوع؟ ما رأيت رجلاً مثلك يبكِّتُه ضميره بهذا الشكل. كل الرجال الذين عرفتهم يشعرون ببطولة خارقة عندما ينامون مع امرأة. لو لم أكن أعرفك لقلت إنك شاذ جنسياً.

- ما كل الرجال يتشابهون.

- أعرف. لكنك تبالغ في الندم. طبعاً، عليك أن تندم إذا ارتكبت شيئاً عن قصد.

- أنا لم أقصد شيئاً ولكني نادم. عليّ أن أقلب جميع مفاهيمي عن علاقة المرأة بالرجل.

- لا تذهب بعيداً. سوف أقول ذلك لرحّال، وسوف ترى كيف أنه سيضحك منك. إنه يعرف كل شيء عني. أنا لستُ قديسة، أحب من أحب. وأحياناً إذا فعلت ذلك الشيء للضرورة، أبصق ولا أندم. أبصق على ذلك الرجل الذي لم أحبه ولم أبغه.

- لا أدري ما إذا كان ضرورياً إخبار رحال.

- ما دمت نادماً بهذا الشكل فلا بد من إخباره.

- معنى ذلك أن امرأة واحدة يمكن أن يكون لها العدد الذي تريده من الرجال.

- لا أقول هذا. ولكني أبغيك وأحب رحال.

- لا أفهم شيئاً.

- طبعاً، لأن رأسك عامر بأفكار الكتب.

- تريدين أن أحرقها.

- حاشا. كنت أتصور أنها تستطيع أن تبعد منك الندم. هل تندم عندما تتعرى في الحمام؟ هل تندم عندما تدخن أو تأكل أو تشرب بيرة؟

- ذاك شيء وهذه أشياء.

- لا أدري.

- لو كنت في مكاني لعرفت كل شيء.

- لا أستطيع أن أكون في مكانك، لأنني لم أقرأ الكتب الكثيرة التي قرأت.

وقف وهو يضغط على عقب السيجارة في المنفضة التي امتلأت عن آخرها. لم يعرف لماذا توقف؟ أحس بذلك. ثم انهار على الكرسي مثل بذلة بلا جسد. أخذت جيجي تتأمله في دهشة:

- ما بك هل أثارك شيء؟ هل فكرت في شيء؟

- لا أدري.

- إنك إنسان غير عادي. كنت أعتقد أنكم أقوى من جميع البشر، غير أني تأكدت أن حادثة بسيطة تجعلكم تنهارون. على هذا الأساس فقراءة الكتب خايبة وسيئة إذا كان الكتّاب يشبهونك.

- لا، إنهم لا يشبهونني.

- لن أقرأ كتاباً بعد الآن.

- لو قرأت كثيراً من الكتب لما فكرت بتلك الطريقة.

- أية طريقة؟ أنا مجرد بارميد. لو قرأت كثيراً من الكتب لما ندمت مثلما تندم على شيء عادي، يضحك منه رحال، رحال الذي لم يقرأ كتباً كثيرة. ولكن يبدو لي أنه أحسن من الكتّاب رغم أنه يقدرهم، أنت ساكت. لماذا؟ هل تريد أن تغير المكان؟ ما رأيك في بيرة قبل أن يحل المساء؟

- لا، سوف أذهب لأستريح.

- ذاك شأنك. كن متأكداً أني سوف أخبر رحال. سيضحك منك لا محالة. أنت لا تعرفه. إن تفاهات من هذا النوع، تجعله يسخر من العالم حوله.

غادرا المونتغمري، ضجيج السيارات. الازدحام الكبير في الدار البيضاء يكاد يدوخه، قال لها إنه سيدخل إلى البيت. فدخل إلى بار كوميرسي وأخذ يعب في الشراب دون أن تكون لديه رغبة في أكل تلك السردينات البئيسة التي دفعها الجرسون أمامه في صحن صغير من البلاستيك. نظر إلى السردينات وهي مكومة على بعضها في الصحن، تبدو طازجة والزيت يلمع على أجسامها النحيفة. لم تكن للسردينات مناخير. أو هكذا تصور. تخيلها أيضاً تحرك الذنب في الماء وهي تنزلق ملساء عَلِكَة. دفع الصحن بخنصره متأففاً. وقال لنفسه: هذا أوان الشد. ثم حمل الكأس إلى فمه وأعادها على ظهر الطاولة أو على ظهر وضم. ما يهمني إذا اشتدت الزِّيَم؟ غير أن ما يهمني يمكنه أن يهم رحال أيضاً. لكنه على كل حال، لا يهم كل هؤلاء الذين يستمعون أو قد لا يستمعون لأغنية جيمي سميث التي تنبعث من الآلة القابعة في زاوية ما من البار.

قال رحال:

- تعرف أن لي موقفاً من النساء، لكنه لا يشبه موقفك. يبدو أنك تبالغ كثيراً، لكن لا أدري ما إذا كان كل الكتّاب لهم نفس

الموقف. أنا لست كاتباً. تعرف هذا. وجدت ذلك في سوناتا تولستوي. يتحدث كثيراً عن المرأة، عندما تكون الفتاة عزباء تعمل ما في مستطاعها لإثارة انتباه كل الرجال. أقول كل الرجال. وعندما تحصل على واحد، تحاول أن تسيطر عليه. قرأت عن تولستوي أن زوجته حاولت أن تسيطر عليه. تفو! يخ!

- في الواقع، أنا ليس لي موقف معين بالضبط.
- لا. إن لك موقفاً. إنك تكرههن.
- ليس تماماً. أنسجم مع نوع معين منهن. لا أشعر بأي حرج.

قرقب بائع اللوز ملعقته على الصينية:

- Des amandes!

- درهم.

لماذا لا يأكل لوزاً. إذا كان قد عاف تلك السردينات البئيسة في الصحن؟ أخذ يلتقط اللوزة تلو الأخرى ويلقيها في فمه بدون شهية. كانت اللوزات مالحة جداً. توقفت الأغنية وتلتها أغنية أخرى تتحدث عن امرأة متعذبة والطرف الثاني لم يحاول أن يفهمها مع أنه في مستطاعه ذلك، لكن ربما كان الذي لم يحاول أن يفهمها يعرف أن لها علاقة مع شخص آخر، مثلما هي العلاقة الموجودة بين رحال وجيجي. أما هو فلم يستطع أن يفهم حتى ما الذي وقع. كيف تم ذلك؟ لا يدري.

وقال رحال:

- إن جيجي ذات قلب طيب. فتاة تحب الخير، ربما لم تعرف الشر في حياتها قط.
- بالفعل.
- تعرف كيف تحتال على البحارة فتبتزهم جميع دولاراتهم.
- يستحقون أكثر من ذلك. هل تنام معهم؟

- لا أعتقد. إنها لا تحبهم. ربما حصل لها ذلك مرات قليلة جداً.

- ألا تشعر بالغيرة عندما تفعل هي ذلك؟

- لماذا أغار؟ إنها مهنتها.

شرب جرعة من الكأس. وحاول أن يضع نفسه في موضع رحال. شعر بنشوة عارمة تغزو خلايا مخه. أخذ يردد بعض كلمات الأغنية ، كانت الزجاجة قد فرغت. غمر البار ضوء، وخلف الزجاج، أضواء مصابيح الشارع والسيارات الهادرة. نهض متثاقلاً، جرجر قدميه بعد أن دفع الحساب، قرر أن يأخذ تاكسي ويلتحق برحال ليقول له إنه نام مع جيجي، لن يدعها تكذب عليه. سيقول له إنه لم يعرف كيف حصل هذا. ولكنه مع ذلك قد حصل، مثلما بالإمكان أن تحصل أشياء أخرى في هذا العالم، خارجة عن إرادة البشر...

مُحاولة عيْش

1985

1

وقف يراقبهم من بعيد، يتأمل حركاتهم كيف يتدافعون بالأذرع. بعض الأذرع تتدافع والبعض الآخر يتأبّط حزمة من الصحف التي أعرض عنها القراء. سقطت بعض الصحف حول الخمرة المراقة مثل دم متخثّر. لكنّها لم تلطّخ. جمعها صاحبها وتزاحم مع الاثنين الآخرين حول ثقب الأنبوب الذي يصب في الباخرة. كانت الباخرة فرنسية، استطاع حميد أن يقرأ اسمها: «أيفون 5». إنه يعرفها جيّداً، لأنها تمرّ كل خمسة أو ستة أشهر لتنقل الخمور المغربية المعتّقة إلى مكان ما في العالم. عندما ترسو «أيفون 5» فإن حميد يتغيّر نهائياً تتلبّسه حالات من الفرح العارم، وعندما ترحل ترحل عنه تلك الحالات، يعود إلى بؤسه الحقيقي. لم يكن يعرف للرجل اسماً، إلا أنه سينغالي أسود، الوحيد الذي لا يشرب في الباخرة ولا يأكل لحم الخنزير. البحّار الوحيد الذي يصلّي. كان البحّارة الآخرون يتندّرون به ويضحكون منه. لكن حميد كان يحبه. وعلى الرغم من سواده فهو مسلم حقيقي. أحسن من بعض المسلمين البيض الأثرياء الذين يعرفهم في المدينة. إنهم قساة. لا يشترون جرائده. فقط يشتمونه عندما يدخل المقهى أو يعرض عليهم صحفه.

كان رفاقه الثلاثة لا يزالون يتزاحمون حول أنبوب الخمر الذي يصبّ في الباخرة. يعرضون أفواههم للثقب الصغير الذي يسيل منه

ذلك السائل الأحمر، الشديد المرارة. لقد سبق لحميد أن ذاقه لكنه لم يستسغه، فهو مرّ، شديد المرارة. أخذ أحد رفاقه الثلاثة يترنّح، فتح فمه مرّة أخرى في الثقب. ثم أخذ يسعل ويتفل. ثم بدأ شجار بين الثلاثة. لم يعرف حميد سبب ذلك، قرّر أيضاً ألّا يعرف. ابتعد منهم بخطوات متثاقلة. ومشى نحو سُلَّم الباخرة الذي يمدّ قائمتيه فوق الرصيف، صعد الدرجات الأولى فسمع صوتاً من فوق يأمره أن ينزل. كان صوت حارس الباخرة. إنه أحد الحرس الشرسين.

- أنت هناك. انزل. إلى أين أنت صاعد؟

- سأبيع لهم الصحف.

- إنهم لا يقرأون. انزل.

- أريد أن أرى السينغالي.

- السينغالي خرج. اذهب وفتّش عنه في المدينة.

ألقى حارس الباخرة بقايا سندويش في وجه حميد، وجرع دفعة واحدة علبة بيرة، ثم طوّح بها تجاهه لكنها لم تصبه، تراجع حميد. ليس هناك أيّة إمكانية مع ذلك الوغد، مشى نحو رفاقه الثلاثة، كانوا قد انتهوا من الشجار. جلسوا فوق أنبوب الخمر، وأخذوا يتبادلون سيجارة واحدة.

قال أحد الصّبية:

- هل ذهبت عند صديقك السينغالي؟

أجاب حميد:

- ذهبت، لكن ذلك الوغد طردني.

قال أحد الثلاثة:

- إنّه ابن حومتنا، سأتوسّط لك عنده. ضحك الآخران. وقال الصّبي:

- لماذا تضحكان؟ إني أعرف أمّه. وخالته تسكن بالقرب من بيتنا.

قال أحدهما:

- إذا ذهبت، فإنه سيُلقي بك في النهر، ألا تعرف ذلك الخنزير، لا شكّ أنه سكران الآن.

قال حميد:

- لقد ضربني بعلبة بيرة، لكنها لم تصبني. إن الباخرة التي يحرسها لا يستطيع أحد أن يدخلها.

قال أحدهم:

- أحياناً يكون طيّباً، هل تعرفون؟ إن أمّه مومس، ليس له أب، أمّ سوداء وهو أبيض.

- ليس تماماً، وجهه مثل الغراب.

انفصل حميد عن الثلاثة. عندما ابتعد منهم أوقفه أحد الحمّالين. طلب منه أن يعيره الجريدة الوحيدة المكتوبة بالعربية. تمنّع حميد أول الأمر بدعوى أنه مشغول. لأنه يعير الجريدة بمقابل. ويبدو أن الحمّال فهم الأمر، وقال لحميد:

- هل تريد أن تصعد إلى تلك السفينة السويسرية؟ إنهم يقرأون الفرنسية، أعرني الجريدة وسأتحدّث مع حارس الباخرة حتى يسمح لك.

فكّر حميد قليلاً، نظر إلى الباخرة. رأى العلم السويسري يرفرف فتأكّد أن الباخرة لم تكن إنجليزية ولا إيرلندية. بعض الأعلام تختلط عليه. عرف أن السويسريين يمكنهم أن يقرأوا الفرنسية. أدخل يده بين الجرائد تحت إبطه، واستلّ الجريدة الوحيدة المكتوبة بالعربية. سلّمها للحمّال:

- طيّب. اصعد وتحدّث مع الحارس.

أمسك الحمّال الجريدة وألقى نظرة على الصفحة الأولى، وقال لحميد:

- انتظر. سأعود على الفور.

صعد درجات سُلَّم الباخرة بهدوء وببطء، ورآهما حميد يتصافحان ويتحدّثان ويضحكان ويتمازحان. كان حميد يعرف الحارس. إنه ليس شرساً مثل اللقيط الذي يحرس الباخرة الفرنسية. لقد سبق لهذا الحارس أن سمح له كثيراً بالصعود إلى عدّة بواخر. أمسك حميد بحبل السلّم وأخذ يصعد الدرجات. كانت مياه النهر القذرة ترتطم بأحجار الميناء، نظر إليها تحته، وخاف أن تنزلق قدمه فيسقط فيها، ضرب حارس الباخرة على كتفه، وهو يقول:

- إن بعضهم يتحدّثون الألمانية، ولا يقرأون الفرنسية، لكن أنت وحظّك.

قال حميد:

- سأحاول، سأجعلهم يقرأون بطريقتي.

اختفى أخيراً داخل الباخرة، وقال الحارس للحمّال:

- لقد أصبحت شرطة الميناء تتشدّد معنا، بعد نهب السفينة الدانماركية في الشهر الماضي. لا يمكن لأيّ شخص أن يصعد إلى الباخرة إلا بترخيص من مركز الشرطة. هل تعرف الحكاية؟

- نعم، وأعرف أنّ شخصاً واحداً هو الذي فعلها. يقال إنه اغتنى واشترى لنفسه متجراً كبيراً في أسبانيا.

- مجرّد دعايات، لا أحد يعرف أين اختفى.

- يقال إنه فعل ذلك بتعاون الشرطة والجمارك نفسها.

- لا تفتح فمك أكثر، ولا تنسَ أنك مجرّد حمّال. يجب أن تسكت.

قال الحمّال وهو يضحك:

- هل أنت مخبر أيّها الكلب؟

- على الرغم مني. كيف يسمح لي بحراسة الباخرة دون أن أكون مخبراً. لكنني مخبر فاشل.

- افعل مثلما فعل ولد الضاوية. لقد ارتقى وأصبح مخبراً من الدرجة الأولى بعدما اكتشف تلك الكميّة الكبيرة من المخدرات في جوف باخرة الفلّين الفرنسية.

- إني لا أستطيع أن أفعل مثله. إن له خبرة كبيرة في تصيّد الأخبار. وهو فوق ذلك، ثعلب محتال.

- لقد كنت دائماً أخشاه على الرغم من كوني مجرّد حمّال. كنت أخاف دائماً أن يكتشف أني أهرّب بعض زجاجات الويسكي وعلب السجائر، فيخبر شرطة الميناء.

- لست وحدك. كلّنا كنا نخشاه. حتى الشرطة والجمارك كانوا يخشونه رغم أنه مجرّد حارس باخرة.

- لكن ليسوا هم الذين عيّنوه، يقال إن له علاقة برجل كبير في المكتب الثاني بالرباط.

وعندما سمعا خطوات حميد فوق السلّم من جوف الباخرة، قال الحارس:

- اسكت، قد يكون هذا الطفل مخبراً من المكتب الثاني فيشي بنا.

ضحك الحمّال وقال:

- لقد عرفوا كيف يزرعون الشكّ في أنفسنا.

أطلّ رأس حميد من جوف الباخرة. بدا عليه فرح عارم. شعر الحارس بذلك فعرف بالحدس أن حميد لا شكّ قد قام بصفقة وعندما أصبح بالقرب منهما قال الحارس:

- هل بعت شيئاً؟

- بعت صحيفتين.

- الباخرة رست أمس فقط. لم يستطيعوا بعد أن يستبدلوا عملتهم بالعملة المغربية، لا شكّ أن جيبك مملوء بالدولارات.

- لا. أقسم لك. حصلت على أربع علب سجائر.

- أَرِنا إياها.

أخذ حميد يرتعد في خوف وقلق. دسّ يديه في جيبي بنطلونه. أخرج بالفعل أربع علب سجائر. لم يصدق الحارس. كان الحمّال يراقب ذلك في لامبالاة. اقترب الحارس من حميد وأخذ يتحسّس جسده من أعلى إلى أسفل، لم يعثر على شيء يثير الشكّ. ثم قال لحميد:

- هل سرقت شيئاً من المطبخ؟

- لا. أقسم لك، إن الطبّاخين موجودون.

- يمكنك أن تسرق حتى لو كان هناك طبّاخون.

- أنت تعرفني جيّداً، أنا لست لصّاً.

- من أين لي أن أعرف أصلك؟

كان الحمّال، والجريدة في يده، يستمع للحوار دون أن يعير اهتماماً. قال الحارس:

- هات علبة سجائر.

- لقد أعرت الجريدة للحمّال.

- أنا لا أقرأ الجرائد، إنما أحبّ التدخين. ماذا تفضل؟ علبة واحدة أم الأربع؟

مدّ علبة سجائر للحارس. تغيّر لون وجهه. أخذ يزرقّ قليلاً لكنه حاول أن يصارع تلك الحالة النفسية، حتى يبدو أمامهما قويّاً. نظر بعيداً إلى ما وراء النهر الذي ينعطف ويحاصر القاعدة الجوية الأميركية، ليصبّ في المحيط الأطلسي. استمر في النظر، كان فكر

في ردّ فعل عنيف، لكنّه وجد نفسه ضعيفاً أمام الحارس والحمّال. تناول جريدته التي كانت بيد الحمّال ونزل السلالم إلى الأرض، كان المرفأ خالياً من البشر. بعض المخازن فقط فتحت أبوابها، وبدت معتّمة من الداخل. ظهرت له في داخل بعضها صناديق من شتّى الأصناف: خشبيّة وكرتونية وبلاستيكية. وفي بعضها الآخر أكياس من مختلف الأصناف كذلك. لا يزال الأنبوب يصبّ في الباخرة والخمر تتدفقّ قليلاً وتسبح على الأرض حمراء وسوداء كدم في طريقه إلى التخثّر. مرّ بين أرجل الرافعات العملاقة. اجتاز خطوط السكة المتشابكة في أرض المرفأ التي يقطع بعضها بعضاً في هندسة متناسقة. لم يرد أن يخرج من الباب الرئيسي للميناء. فهو أكثر ازدحاماً وأكثر مراقبة. رأى صنبور ماء ملتصقاً بجوار أحد المخازن. اقترب من الجدار ووضع جرائده بعيداً من الصنبور. وضع أيضاً فوق حزمة الجرائد قطعة حجر كبيرة حتى لا تذهب الريح بصحفه فيدفع ثمنها بالتقسيط لرئيسه على مدى ثلاثة أو أربعة أيام. وربما أدى به ذلك إلى الطّرد. كم تمنّى أن يكون ماسح أحذية لأن حياة هؤلاء حرّة، لم يكن يتحكّم فيهم أحد، على عكسه هو، فقد كان يسمع الشتائم ويتلقى الصفعات من رئيسه:

«تحدّث يا ولد الـ. . . هل أعطيتك الصحف لتبيعها، أم لتذهب وتنام بها في الحديقة العمومية؟ قلت لكم مراراً يجب أن تتفرّقوا، كل واحد في شارع، أنتم تتجمعون كالذّئاب في مكان واحد، تكلّم يا خنزير. . . ».

كان الصّنبور الملتصق بالجدار أسود وصدئاً. وتحت فوهة الصّنبور ماء عكر تجمّعت فيه أحجار وأوراق مبتلّة. يمتدّ الماء في شبه قناة، ليختفي بين بعض النباتات القصيرة القامة. فتح حميد الصّنبور، ورفع كمّية إلى الزندين، شرشر الماء فأحنى رأسه تحت

الصّنبور. أخذ يدعك شعره بأصابعه. غسل وجهه أيضاً. وتراجع إلى الخلف، ثم أخذ ينفض شعر رأسه مثل جرو. نفض يديه كذلك، ومرّرهما على وجهه وتفل على الأرض. أحسّ بانتعاش غريب. ثم انحنى على خيوط حذائه الممزق يفكّها. جلس فوق قطعة حجر كبيرة ودلّى قدميه تحت الصّنبور. أخذ يدعكهما. ورأى ظلاً أمامه فوق الجدار المقابل. التفت في خوف. كان الرجل ببذلته الرسمية الزرقاء ينظر إليه بطريقة عدوانية ومسدسه يتدلّى عن يساره حتى ليكاد يسقط. لم يتبادلا أول الأمر أي كلمة. أخذا ينظران إلى بعضهما. العيون وحدها تتحدّث. بعضها خائف وبعضها غاضب. وقال الرجل ذو البذلة الزرقاء:

- ماذا تفعل هنا أيّها اللّقيط؟ كم مرة قلت لك ألا تعود إلى هذا المكان؟ هل عندك ترخيص لدخول الميناء؟

قال حميد:

- كان عندي وضاع.

- من سلّمه لك؟ كم زجاجة من الويسكي تهرّب كل يوم؟

- أنا لا أهرّب شيئاً، شرطة الميناء هي التي سلمتني الرخصة، إني مجرّد بائع صحف. صدّقني سيدي.

- هل تعرف أين نحتجز أمثالك؟ إنك تصلح لأولئك السكارى المهرّبين.

- لن أكرّرها مرّة أخرى. لن أدخل الميناء أبداً.

أخرج الرجل علبة سجائر، وضرب مؤخرة السيجارة على إصبعه ثم ألصقها بفمه. أشعل السيجارة وفكّر طويلاً. ابتعد من حميد بخطوات قليلة. وقف تحت الشمس ورفع مقدمة قبعته إلى أعلى قليلاً كمن يفكر في مشروع هام. عاد إلى الوراء قليلاً. اقترب من حميد ودفعه بقدمه دفعة خفيفة وهو يقول:

- طيب، اجمع صحفك. إذا عدت مرّة أخرى فسأعرف ما أفعل بك.

أدخل حميد قدميه في فردتي الحذاء وأسرع إلى صحفه يتأبّطها. ابتعد من الرجل في خوف:

- شكراً سيدي. لن أكررها مرّة أخرى، لن أدخل الميناء أبداً.

لم تكن هذه هي المرة الأولى التي يتعرّض فيها لمضايقات، ولم يكن هو وحده الذي يتعرّض لذلك من بائعي الصحف. إن هؤلاء الحرّاس أجلاف، كأنهم ولدوا وتربّوا في مواخير. لقد عرف بعض الشبان منهم الذين التحقوا أول الأمر بهذه المهنة. كانوا مؤدّبين، يتحدّثون بطريقة لطيفة، غير شرسين. لكن بعد مرور عام عليهم، أصبحوا مثل الآخرين يتصرّفون كأجلاف، ويتكلّمون بطرق منفّرة للذوق. وعندما جمع حميد صحفه ومشى بخطوات متخاذلة باتّجاه باب الميناء الأوسط الذي لا يكون فيه إلّا حارس واحد، فكر أنه ربما سيلاقي مضايقات أخرى. إنه يعرف أغلب الحراس، على الأقل أولئك الذين ينتزعون منه علب السجائر قسراً، على الأقل أولئك الشبان. أما المتقدمون في السنّ والذين يكونون قد اغتنوا بطرق غير مشروعة، وضمنوا لأولادهم المستقبل السعيد، علّموا بعضهم وزوّجوا بناتهم، فإنهم لم يكونوا ليطمعوا في أمثال حميد. صاروا حكماء يفكرون مليّاً قبل الإقدام على أيّ عمل. ولم يكن ذلك يمنع من مشاركتهم في بعض صفقات التهريب السرّية والتي لا يمكنها أن تجرّهم إلى مشاكل في أغلب الأحيان.

رأى حميد البراكة الصغيرة وقد بهت لونها البنّي، ورأى من الطاقة الصغيرة رأساً يعتمر قبعة، فوق كتفين يحملان شارات. لم يستطع أن يخمّن من يكون الحارس. كانت البراكة الصغيرة ملتصقة متّكئة على باب ضيّق. باب الميناء الأوسط، والباب مفتوح دائماً،

يؤدّي إلى وسعة متربة، ثم إلى طوار لم يرصّف جيّداً، ثم إلى طريق واسعة، تتفرّع بعد ذلك إلى وسط المدينة الحديثة. وعندما اقترب حميد من البراكة الصغيرة، حاول ما أمكن أن يحترس، وأن يمشي بخطوات لا تثير الانتباه. أخذ يصفّر، ثم ضرب حجراً بقدمه متظاهراً بالبراءة. وعندما كان يجتاز الباب انقض الحارس عليه وأمسكه من الخلف:

- تعال هنا. هل تعتقد أنك في بيتكم؟ ماذا تفعل لنا هنا يا كلب؟

- اعذرني سيدي. لم أرك.

- أنت تكذب. ترّس فيّ جيّداً. ألا تعرفني.

- آه، صحيح، إني أعرفك.

- تعرفني وتمرّ هكذا بسهولة دون السلام عليكم!.

- اعذرني سيدي.

جرّه الحارس إلى البرّاكة. شعر حميد بخوف، هؤلاء الأجلاف. كم هم قساة... كأنهم ولدوا وتربّوا في مواخير. ربما اختاروهم من المجرمين ومن سفاكي الدماء. انتزع الحارس منه الصحف، شتّتها فوق طاولة أمامه:

- ماذا تخبّئ هنا؟ هل هناك سجائر؟ هل هناك دولارات؟

- لا. أقسم لك.

- اسكت، أنا أعرف مهنتي.

أخذ ينفض الجرائد. لم يتساقط منها شيء، تكمش بعضها. فكّر حميد أن رئيسه سوف يشتمه في المساء، وسيتّهمه بأنه يدفع الجرائد لبعض الزبائن يقرأونها بمقابل ثم يردّونها له، الشيء الذي يسبّب خسارة لشركة التوزيع. سيركله الرئيس، وسيسبّ أمّه وأباه وكل أجداده. ومع ذلك، فإن حميد لا يعرف أجداده. أمّه وأبوه

قاسيان جدّاً. لا يحبّ أباه لأنه كسول، ينام كثيراً، وينتظر حميد في آخر الليل ليحصي أمامه أجرة اليوم. كان الأب عابساً دائماً، لكنه يبتسم ابتسامة ثعلب ماكر عندما تكون حصّة اليوم مرتفعة قليلاً ويمنّيه أحياناً باقتناء دراجة هوائية، لأن رجليه من غير شك تفسّختا من كثرة المشي.

عندما انتهى الحارس من نفض الجرائد، تظاهر بالغضب. رفع مقدمة قبعته إلى أعلى وأخذ يحك جبهته بإصبع واحد، وقال لحميد:

- لا يمكن أن تنطلي عليّ حيلتك.

جذبه بعنف ليدخل الخوف والتخاذل في نفسه، وأخذ يفتّشه بسرعة. شعر حميد بالخوف حقّاً هذه المرّة، إنه أمام وغد حقيقي، وغد وُلد وتربّى في ماخور.

وقال الوغد الذي وُلد وتربّى في ماخور:

- انزع سروالك. سأفتش كل شيء فيك.

أخذت بعض قطرات الدموع المستعصية تتسابق من عيني حميد:

- واللّه سيّدي، ليس معي شيء.

- انزع وإلّا أرسلتك إلى الشارع عارياً.

أخذ حميد يفكّ أزرار سرواله، والحارس يساعده في ذلك. كان حميد يبكي. عالم قاسٍ من حوله. وعندما انتهى الحارس من مهمّته، عثر على دولار واحد وعلب سجائر، شعر بنشوة حادة، ثم دفع حميد خارج البراكة:

- الآن يجب أن تتعلّم كيف تكذب عليّ!

تحامل على نفسه وغادر الميناء. عند أقرب جدار انهار تماماً، مدّد ساقيه على الأرض وألقى بحزمة الصحف جانباً. ثم أجهش بالبكاء.

امتداد شاسع من البراريك القصديرية، كلها تمتدّ في ساحة واسعة بضاحية المدينة، تتعرج أحياناً وتتشتّت لتلتقي في أماكن معينة. كل هذه الآلاف من الناس هي في خدمة سكان المدينة. منهم الحفارون والخادمات واللصوص ومنهم الصبّاغون والجيّارون والبائعون المتحوّلون والمتسولون وكل شيء. منهم كل شيء وكل شيء حتى بائعو الصحف، ومن بائعي الصحف حميد. لم يكن يعرف ماذا يفعل بنفسه أوّل الأمر، أحياناً كان أبوه يأخذه معه إلى الغابة لجني البلّوط وبيعه بثمن بخس لكنّ ذلك لم يكن يستمرّ طويلاً، فموسم البلّوط كان ينتهي بسرعة، لأن سكان البراريك العاطلين كانوا ينقضّون على الغابة مثل الجراد، فلا تبقى هناك بلّوطة واحدة. ورغم محاولات الدولة لمنعهم من ذلك فإنها لم تكن تفلح. كانت النتيجة العثور على عدد من جثث حرّاس الغابة ممزّقة أو مشوّهة، إنها المجاعة، وحيث يكون الجوع فإن قَتل الإنسان يكون مثل قتل ذبابة. وكم من حارس غابة قُتل في مثل هذه المواسم. كان حميد أحياناً يذهب مع رفاقه لجني البلّوط ويتقاسمون ثمنه فيما بعد. أبوه كان كسولاً، يفعل ذلك فقط (يجني البلّوط) عندما يحسّ أنه في حاجة إلى نقود لشراء سجائر، أو عندما تشتدّ به حميّة القرم كما يقول العرب، إذ تمر شهور دون أن يذوق

شنتيفة لحم، وقتها يعزم على أن يعمل. يأخذ حميد معه إلى الغابة ويعودان بكيس من البلّوط، يبيعه أبوه ثم يقصد مجموعة أشباه الجزّارين من ذبّاحين ومتعلّمين في مجزرة المدينة، الذين يأخذون كأجر لهم من عملهم، بعض السقط، يشتري كيلوغراماً من السقط. ويوصي زوجته بأن تطبخه جيّداً، وتحاول زوجته ما أمكن أن تردّد كلمة «لحم» وهي تتحدث إلى أطفالها الثلاثة: «ابتعد من الطجين، دع اللحم يطيب». تحاول ذلك أكثر من مرّة حتى يسمعها الجيران. وتشعر بنشوة كبيرة، عندما تدرك، من تكرار كلمة لحم، أن أفواههم تحلّبت، وأن أطفال الجيران بدأوا في البكاء والصراخ: «أمي لحم حم م!» لم يكن ذلك سوى مجرّد ردّ فعل، فالجارات أيضاً كنّ يفعلن الشيء نفسه.

لا تنسى الزوجة، أثناء تناول الطعام، أن تضع قطعة صغيرة من السقط في كسر خبز، وتنادي على إحدى جاراتها التي تحبّها، تنادي عليها بصوت مرتفع: «خذي هذه اللحيمة وأعطيها للطفل، حتى ينام». وقد تتخاطف اللحيمة العائلة كلها، وعندما يردع الأب حميّة القرم وحميّة التدخين يبقى بعد ذلك، طوال أيام، يحلم بذلك اليوم الذي أكل فيه السقط، كل الرجال يحاولون أن يتدبّروا أمر عيشهم. أغلب الرجال. لكنه هو، يجب أن ينام كثيراً، أن يثرثر كثيراً، أن يجلس عند باب حانوت، ينظر إلى الغادين والرائحين، أو يلعب الورق، أما حميد فلم يكن يعرف ماذا يفعل بنفسه. ثم حاول أن يفعل بنفسه شيئاً.

قال الضاوي:

- إلى متى ستظل هكذا؟ لقد أصبحت رجلاً. قامتك أطول من قامة أبيك.

- أعرف ذلك.

- تعرف وتظل نائماً مثل أبيك.
- عندما أكبر قليلاً سوف أصبح حمّالاً في الميناء.
- ريثما تكبر تعال لتبيع الصحف مثلي. الرئيس في حاجة إلى بائعين آخرين.

لم يكن يعرف ماذا يفعل بنفسه. لكنه الآن عرف ماذا يفعل بها. في الفجر أيقظته أمه على إثر طرقات الباب. دسّت في جيبه كسرة خبز. كان الضاوي يجرّ درّاجته الهوائية، مَشَيا وقتاً قصيراً على الرمل الذي كان يتشبّث ويعرقل دوران العجلتين. الضاوي يجرّ الدراجة وحميد يدفعها من الخلف، لم يكونا يتحدّثان. بقايا من نوم لا تزال تثقل أعينهما وشفاههما. بعد قليل ستشرق الشمس، ويجب أن يكونا في مكتب التوزيع قبل أن تشرق. عندما بلغا الطريق المرصّفة، امتطى الضاوي الدراجة وأردف حميد أمامه. المصابيح العمومية لا تزال مضاءة، بعد قليل سوف تنطفئ. سوف تظهر الأشعة الأولى للشمس، وسوف يكون حميد متأبّطاً لأوّل حزمة من الصحف. لم تكن له أية فكرة عن هذه المهنة، وهي مع ذلك سوف تكون أحسن من لا شيء. تمايلت الدراجة كثيراً، وأوشكا على السقوط مراراً قبل أن يصلا إلى مكتب التوزيع. كانت المسافة طويلة على الرغم من أن الضاوي يعرف كيف يختصر الطريق، هناك طرق ثانوية خالية، لكنها على كل حال تستطيع أن تؤدي إلى مكتب التوزيع، وفي أقرب وقت ممكن.

في الطريق، أخذ حميد فكرة عن الرئيس. عليه أن يكون مؤدّباً أمامه، أن يكون ساذجاً، فالرئيس لا يحبّ الأذكياء ذوي النظرات الحادّة، يحبّ المعتوهين المغفلين. إن أقدم بائعي الصحف كلهم معتوهون، لم يستطيعوا تغيير هذه المهنة منذ ما قبل الحرب العالمية الثانية. شاخوا وانسخلت أقدامهم، هذا هو النوع الجادّ، هو الذي

يكون مقبولاً من طرف الزبائن. بعضهم يشتري الجريدة ويلقي بها في أول مرحاض، أو يلفّ بها بعض أغراضه.

ذهل حميد لهذا الطابور المصطفّ أمام مكتب التوزيع. شيوخ وشبّان وآخرون في مثل سنّه. كان عددهم حوالي العشرين. بعضهم لا يزال يتثاءب وبعضهم تمدّد على الرصيف معطياً ظهره للجدار يغطّ في نوم عميق، لا بدّ أن هؤلاء الناس لا ينامون بما فيه الكفاية (عرف حميد ذلك فيما بعد. هو نفسه لم يكن ينام سوى ثلاث ساعات أحياناً من أصل أربع وعشرين ساعة). جرّه الضاوي من سترته الممزّقة. كان الجوّ بارداً، لكنّه لم يكن ممطراً، أشعّة الشمس الأولى توزّعت في السماء. انطفأت المصابيح العمومية. لكن هناك غبشاً لا يزال منتشراً في كل مكان. الأشجار على رصيفي الشارع مندّاة، وبعض العصافير تزقزق مختفية وسط أوراق الأشجار الكثيفة. وعندما اختلى الضاوي بحميد في زاوية ما، قال:

- لا يمكن أن أبقى معك الآن. بعد قليل سوف تأتي السيارة المحمّلة بالصحف. وبعد قليل كذلك سوف يستيقظ سي إدريس. إنه الرئيس.

- لا تتركني وحدي. ماذا أقول له؟

- لا تخف. قُل له إن الضاوي ابن عمتي. سوف أتحدّث إليه.

- ألا يمكنك أن تبقى معي.

- غير ممكن، لو تأخرت دقيقة واحدة لضيّعت العديد من زبائن الصباح، سوف تعرف ذلك فيما بعد.

(عرف حميد فيما بعد أن تلك هي الحقيقة، وأن الضاوي لم يكذب عليه).

وعندما توقّفت الأسطافيت، انطلق نفيرها يوقظ من لا يزال به

نوم، وعلى الفور خرج رجل سمين يضع نظارتين سميكتين على عينيه. كان شبيهاً بيهودي يبيع الفراخ والدجاج. تعوّد أن يقدم لحميد بقايا سندويش كلما مرّ أمام دكانه. لو لم يكن اسمه سي إدريس لاعتقد حميد أنه هو. كان في يد الرجل حزمة مفاتيح، وبدا في مشيته كما لو كان يزحف. لم يقل صباح الخير. ولكنّه تقدّم فقط من باب زجاجي مصبوغ نصفه الأسفل بالأبيض ونصفه الأعلى بالأخضر. صرّ المفتاح في الثقب. ثم انفتح الباب لتظهر عدّة مكاتب عليها بعض الأوراق. فتح الرجل السمين بعض الجوارير وأدخل تلك الأوراق. أنزل بعض الباعة حزم الصحف وألقوها على الأرض، ثم تبعوا الرجل السمين، في حين ظلّ حميد يراقب المشهد من بعيد، بعد قليل رآهم يغادرون المكتب وهم يركضون في اتّجاهات متفرقة ينادون بأصوات مرتفعة. وعندما خرج الضاوي أشار له برأسه أن يدخل هو الآخر، ثم امتطى دراجته بسرعة وهو يصرخ كذلك إلى أن اختفى نهائياً.

لم يكن حميد يعرف ماذا فعل بنفسه، ولكنه الآن عرف ماذا يفعل بها.

كان الرئيس يتحدّث إليه بصوت جاف وغير مسموع. سأله عن علاقته بالضاوي. شرح له شروط المهنة شرحاً مقتضباً. ثم تأمله من خلف نظارتيه السميكتين، كان في نظراته احتقار للعالم، جفاف، قسوة.

- كم سنّك؟

- ستّ عشرة سنة.

- آه، إنها السنّ المناسبة. هذه مهنة المستقبل، عليك أن تكون جادّاً إذا أردت أن تموّل عائلتك. هل تدخّن؟

- لا.

- مزيان. هل تسكر؟

- لا.

- مزيان أيضاً، لكن هذا غريب. إن الحثالة من أمثالك يكونون قد تعلّموا هذه الأشياء قبل بلوغ العاشرة. لا علينا. إذا لم تكن قد تعلّمت هذه الأشياء فالطريق أمامك مفتوحة. ستعرف كلّ أصناف البشر، اللّصوص، الموظفين، الجنود الأميركيين، المومسات، إنه عالم كبير ينتظرك، ستحتكّ به بعد حين.

كانت تلك هي الطريقة التي يتحدث بها سي إدريس بل أكثر من هذا، أحياناً يتلفّظ بكلمات منحطّة جداً، الأمر الذي يتناقض مع هيئته السمينة وشكله الموحي بالاحترام. وقال حميد: (هذه هي البداية). وتصوّر ذلك العالم الذي حدّثه عنه الرئيس. أغراه من كل ذلك العالم الجنود الأميركيين، سوف يصبح مثل أولئك الذين يعرفهم في الدوار، سوف يمتلك ساعة أميركية وتكون جيوبه مملوءة بالدولارات... تصوّر أشياء أخرى، وأخذ الرئيس يعدّ الصحف بسرعة فائقة. ثم ناول حميد حزمة.

- إذا ضاعت منك صحيفة واحدة فأنت الذي تدفع ثمنها، هيّا اركض، هل تعرف أزقة المدينة جيّداً؟

لم يجب حميد. تأبّط الجرائد وركض من باب المكتب دون أن يعرف أي اتّجاه يأخذ، ثم سمع صوتاً من خلفه، توقّف والتفت. كان الرئيس بجثّته الضخمة يصرخ فيه:

- يا حمار، إلى أين أنت ذاهب؟ اذهب من الطريق الآخر التي تؤدي إلى المقاهي حيث يتناول الناس إفطارهم.

هزّ حميد رأسه، وأخذ يركض في الاتّجاه الذي أشار إليه الرئيس، لكنه لم يكن يصرخ. لأنه لم يكن يعرف عناوين الصحف التي يتأبّطها. كان يركض، ويركض، يركض مثل مجنون.

3

على حصيرٍ بالٍ، باهت الصّفرة، تربّع حميد وتربّع الأب، في حين كان أخواه يغطّان في النوم، أو ربما كان أحدهما يتظاهر بالنوم. وهو يلتقط ما يدور في البراكة. ربما أيضاً، تمنى أن يصبح في مثل سنّ حميد، فيجد له هو الآخر عملاً، يتعلّم التدخين والشرب وكل شيء.

تظاهرت الأم، وهي تضمّ نفسها وتجمعها داخل خرقها البالية، تظاهرت بعدم الاهتمام بشيء. أخرج حميد تلك القطع النقدية الصفراء والبيضاء، بسطها بكل أمانة أوّل الأمر، لم ينفق منها شيئاً خفية كما سيفعل فيما بعد. الأب يحصي القطع النقدية والأم تتظاهر بعدم الاهتمام. اقتربت من الجمر وأخذت تنفخ عليه بفمها ويدها لأن النار أوشكت على الانطفاء. أمسكت برأس غطاء البرّاد ورفعته. رأت الشاي يغلي، وعادت إلى مكانها.

انتهى الأب من العدّ. ظهر في عينيه بريق. ابتسم حتى ظهرت أسنانه القذرة والسوداء، من كثرة التدخين، كأسياخ الحديد. رأت الزوجة ذلك فنقلت بصرها بين حميد وبين أبيه، قالت:

- اللّه! شيء خير من لا شيء.

- في هذا خير وبركة، قال الزوج.

وقالت الأم:

- قلها لنفسك. لو أنك تفعل مثل أسيادك: تستيقظ مبكّراً وتذهب إلى الميناء، تأخذ مكانك بين الحمّالين وتعود في المساء بثروة.

- أنت لا تعرفين الميناء. لا يصلك الدور إلا بالرّشوة أو إلا إذا كنت قوية كجمل.

- انظر إلى كتفيك، إنهما مثل كتفي بغل.

- يا بنت الناس ما عندي صحّة. ثم إننا لا نريد أن نتشاجر الليلة. اهتمي بتهيئة شايك.

لم يتدخل حميد. لأنه لا يمكن له أن يتدخّل، وعندما يتدخّل في مشادّات كلامية مثل هذه، ينهالان عليه ضرباً. هو ليس مثل أصدقائه من أبناء الحيّ الذين يضربون أمهاتهم حتى يسيل الدم من أنوفهنّ. كان يعتقد أن ذلك عيب ولا يرضي اللّه. لم يكن يحبّ المغامرة، أولئك عندما كانوا يرتكبون مثل تلك الفضائح يستطيعون أن يتغيبوا مدة شهر عن عائلاتهم. يظلّون يعيشون من مزابل المدينة وينامون في الحدائق العمومية وتحت أبواب العمارات، حتى تلتقطهم في نهاية المطاف سيارات الشرطة أو تطاردهم أثناء حملة تنظيف المدينة من أمثالهم. إذ ذاك يعودون، وتكون الأمّ قد نسيت ما وقع لها. وقد تقول إحداهنّ:

- مهما يكن يا فلانة، فهو ابني من لحمي ودمي. عندما يكبر أكثر يعرف أن ضرب الأمّ عيب.

ثم تتظاهر باللّوم وتشتمه شتماً خفيفاً وقد تضربه على قفاه: «يا مسخوط اللّه والعبد. ادخل وكل كسرة خبز. اللّه يلعنها ساعة. هذا قرن أربعطاش (14) لا هنا، لا معاش».

حميد لم يكن من ذلك النوع. لم تقع له أبداً مشادّة كال فيها لأمه ضرباً. وإن كان، في العمق، يريد أن يفعل ذلك. لكن هناك

أشياء تمنعه من فعل ذلك. جرّت الأمّ الصينية، توقفت عن مناوشة الزوج، أخذت تصبّ الشاي في الكؤوس. قطع الأب الخبزة إلى عدة كسر أمامه، جرّ طبق الزيتون، وهذه المرة دون أن ينظر نظرة شرسة إلى حميد. قدّم له الخبز والشاي كما يقدّمه لضيف صديق. في السابق، كان حميد يلعن تلك اللحظة التي سيتناول فيها الطعام.

الأب:

- كُل يا بغل. كتفاك مثل كتفي الحمل. لا ينفع فيك أكل.

الأمّ:

- كُل، تأكل فيه سمّاً.

الأب:

- متى يتدبّر هذا الحمار أمر نفسه؟ هذا كثير عليّ، كثير عليّ.

الأم:

- وأنا انظر إليّ. لقد جعلتم مني عجوزاً قبل الوقت. اشتغلت كل الحرف لكي أطعم زوجاً كالبغل وأطفالاً يأكلون كالجراد.

أحياناً، عندما كان حميد يسمع مثل هذا الكلام كان يفضّل ألّا يأكل بتاتاً. يخرج إلى بائعي التين الشوكي أو بائعي البرتقال أو بائعي البطيخ الأصفر والأحمر، ثم ينظم غارة هو وبعض أصدقائه، فيختطفون أو يسرقون ما يقتاتون به. وربّما كانت الغارة فاشلة، فينتهي أحدهم إلى مركز المقاطعة، حيث يشبعه ضابط القوات المساعدة أو الاحتياطية ركلاً وصفعاً، الركل والصفع من إنسان أجنبي فيه بطولة، خصوصاً إذا كان رجل سلطة، وهو خير من ذلك الشتم الذي يسمعه من أمه وأبيه.

الآن، يأكل حميد دون أن يحسّ بمرارة ما سيأكل، لقد أدّى الثمن. تلك النقود المعدنية البيضاء والصفراء استطاعت أن تحميه. لكنّ النهار كان متعباً، سيتعلّم فيما بعد كيف يستريح وقد بدأ يتعلّم.

كان أصدقاؤه بائعو الصحف أوّل الأمر لا يحبّونه. كل بائع جديد يحصل له الشيء نفسه. الموقف نفسه يتّخذه منه الباعة القدماء. لكن ذلك الموقف يتلاشى فيما بعد.

أكل حميد الليلة خبزاً وزيتوناً، شرب أيضاً شاياً. في السابق، كان يأكل الخبز فقط، أو يتناول الخبز والشاي. لم يكن يتحدث إلى أبيه وأمّه. كان يزدرد في صمت. ينظر إليهما في صمت أيضاً. وعندما اكتفى. تمدّد في زاوية ما من البرّاكة فوق الحصير، حنان آخر. قالت الأم:

- الحصير بارد، خذ تلك البطانية وافترشها.

مدّ يده إلى البطانية القديمة المهترئة عند رأسه، بسط جزءاً منها فوق الحصير، وغطّى جسده بالجزء الثاني. ثم وضع تحت ذراعه شبه وسادة، برزت من بعض ثقوبها حلفاء خشنة، أخذت هي الأخرى تفقد لونها الحقيقي. وسمع الأمّ تقول وهي تمضغ وترشف الشاي:

- يمكنك أن تنام، سوف تستيقظ مبكراً.

قال حميد:

- لا يهمّ، أستطيع أن أنام غداً عند الظهر، هناك مكان أنام فيه مع الضاوي دون أن يكتشفني الرئيس عندما يخرج في حملة تفتيش.

- إياك أن يكتشفك الرئيس فيطردك. اعمل ما يقوله لك دائماً.

لم يرد حميد أن يعنّفها. قال برأسه نعم ولكنّه كان يعرف ماذا سيفعل. سمع شخير أحد أخويه، كانا ممدّدين كسردينتين داخل علبة، فوقهما لحاف مرقّع، ظهرت عليه كثير من الألوان والرقع البالية. في السابق كان يتمدّد معهما في زاوية، في حين يتمدّد الأب والأمّ في الزاوية المقابلة، الآن أصبح رجلاً، أصبح له مكانه الخاص، وأيضاً، أصبح يخصّ ببعض الفواكه، مثله مثل الأب

والأمّ. شعر حميد بالتعب، جذب البطانية فوق رأسه لتلافي الضوء، أغمض عينيه لكنّه لم ينم، وسمع الأمّ تقول للزوج:

- يجب أن نبني له برّاكة صغيرة في الحوش. ألا ترى أنه قد أصبح رجلاً، وأن هذه البرّاكة لم تعد تكفينا.

ردّ الأب:

- أعتقد أنه لم يحن الوقت بعد، الفلوس لا تكفينا.

- تخسرها كلّها في شراء السجائر وفي لعب الورق ثم تقول إنها لا تكفينا.

- اتّقي اللّه يا وليّة، أنا لا أحبّ القمار.

- تكذب عليّ. كما لو كنت لا أعرفك.

- سوف نبني له عشّة في الحوش. لكن إذا اكتشفنا المقدم فإنه سيأخذني إلى المقاطعة أو إلى السجن. تلزم رخصة لبناء تلك العشّة.

- افعل مثل أسيادك، ادفع رشوة.

قال الأب بصوت غاضب:

- ألا تعرفين أن ذلك المقدّم يطلب الكثير؟ إنه كرش الحرام. لا يشبع من أخذ الرشوة أبداً.

- مهما يكن، فيجب أن نبني برّاكة للولد. لقد أصبح رجلاً. وأنا لن أستريح إلا إذا زوّجته وأبقيته بجواري. أخشى أن تأخذه مني امرأة أخرى فلا أنا بالفلوس ولا أنا بالولد.

هنا ثار الأب أيضاً:

- هل أنت حمقاء؟ نبني له برّاكة ثم نزوّجه؟!

- ولم لا؟

أخرج سيجارة رخيصة بانفعال شديد. ثم وقف بين الزوجة واللّمبة، بحيث حجب عنها الضوء، وقالت الزوجة:

- ما لك تظلّ واقفاً هكذا؟ هل ستؤذّن؟

لم يردّ الزوج، ولكنه غادر البرّاكة، غادر الحوش أيضاً. كان الظّلام منتشراً، أصوات الكلاب وأصوات طبول وبنادير بعيدة تعلن عن قيام حفلة دينية من غير شك. جلس على التراب، أخذ يدخّن وينظر في الظلّام. لم يكن هناك شيء سوى الظّلام، وأمامه في حوش برّاكة مقابلة شجرة طويلة، يتميز هيكلها في الظّلام. سمع خشخشة ثوب ينحدر من الزّقاق. رأى من بعيد شبح رجل، وعندما اقترب الشبح تعرّف عليه الزوج، قال الشبح:

- مَن؟ الحسن.

- نعم.

- ماذا تفعل هنا؟

- أشمّ هواء.

- لا شكّ أنك تشاجرت معها. تعال فرّج عن نفسك.

أخرج من تحت سترته زجاجتي نبيذ رخيص:

- تعال. إن معي امرأة.

قال الحسن:

- لا أرغب في ذلك. أريد أن أنام.

- ذاك شغلك.

ثم اختفى في الظّلام.

4

بعد جولة في مختلف الملاهي اللّيلية، توقّف حميد عند «وهران بار» وقام بجولة أيضاً داخل البار. الشمس لم تشرق بعد، البار صاخب، هناك سكارى كثيرون، وهناك أناس لا تستطيع أن تعرف هل كانوا شاربين أم لا، أمام فناجين قهوة أو كؤوس اللّبن المخلوط بالقهوة. بعضهم يأكل، والبعض الآخر يتأمّل في هذا العالم حوله. الشمس لم تشرق بعد، حميد يشعر أنه لا يزال في حاجة إلى النوم، كانت طاولة معزولة في زاوية من البار حولها ثلاثة كراسي. فكّر أن يذهب هناك وينام. أراد أن ينفّذ المشروع، تردّد قليلاً، لكنه في الأخير أخذ يشقّ طريقاً له بين زحام الزبائن الذين سكروا والذين لم يسكروا والذين يستغلّون فرصة من سكر لكي يبتزّوه بطريقة أو بأخرى. أوقفه أميركي ضخم الجثّة. كان في منتهى السكر. مدّ له زجاجة البيرة وتحدّث إليه بالأميركية، لم يفهم حميد كلمة مما خرج من فمه. لسان الرجل متعب من فرط الشراب. فهم أنه يدعوه للشراب، أشار حميد برأسه أن لا. لكن الأميركي خاطبه بالعربية:

- لا تريد؟
- لا.
- لماذا؟
- أنا مسلم.

- قُل أنا صغير أحسن.

ابتعد الأميركي جهة البار، وضع زجاجة البيرة المملوءة قليلاً، نظر إليه حميد وهو يتمايل بجثّته التي تشبه جثّة فيل. نادى على حميد، تبعه جهة آلة (الفليبر)، حيث كانت امرأة أجنبية تحرّك عجيزتها وراء الآلة، قال الرجل الضخم لحميد:

- هل تريد أن تلعب مع هذه الفرنسية؟ إنّها تحبّ العرب الصغار والكبار.

ضحك الأميركي وضرب المرأة من الخلف. صرخت المرأة دون أن تلتفت إليه: «أي، دعني ألعب، سأربح هذه الدورة، كم ستدفع إذا هزمت أيها السكير؟».

قال الرجل:

- سأدفع لك حياتي.

التفت إلى حميد وهو يتمتم:

- وحياة هذا العربي الصغير.

لم تعجب حميداً هذه اللّعبة، كان يفكّر في أن يستريح قليلاً على أحد كراسي الطاولة في الزاوية قبل أن تشرق الشمس، إنّه يعرف أن الناس لا تقرأ الصحف صباح ليلة السبت. أغلب الزبائن يفقدون وعيهم هذه اللّيلة. يصبحون أطفالاً صغاراً، في مثل هذه اللّيلة أيضاً يحصل الكثير من رفاقه الكبار، بائعي الصحف، على أشياء ثمينة: ساعات يدوية، علب سجائر، أقلام ذهبية وعادية، دولارات وعملات دولية. يتدفق على البارات الجنود الأميركيون والملّاحون من مختلف الجنسيات. تسكر المغربيات والأجنبيات. يتشاجرون في صباح هذه اللّيلة بالزجاجات وبالأيدي. الجنود الأميركيون بالخصوص، يدوسون كثيراً من الخادمات المغربيات والسّكارى بسياراتهم الطويلة العريضة. في هذا الصباح أيضاً من كلّ

أسبوع، تكثر مطاردات شرطة القاعدة الجوية الأميركية لهؤلاء الجنود الذين يزرعون الرّعب كما في الأفلام. الشرطة المغربية لا تحرّك ساكناً في الغالب، إلّا مع بعض المومسات الوافدات من سيدي يحيى وسوق الأربعاء أو جمعة المكرن أو سيدي علال التازي. قيل لحميد إن رجال الشرطة يعتقلونهن لابتزازهن أو لاغتصابهن. الكثيرات منهنّ لا يتوفّرن على ورقة تعريف مكتوب علهيا (شغالة) أو (محترفة). أحياناً تعتقل حتى المرأة التي تحمل ورقة المهنة: (محترفة)، بتهمة الزّنا، إن الإسلام يمنع الزّنا، والشرطة - في بعض الأحيان - تعترف به، إذا كانت المرأة تعرف كيف تدفع من جيبها أو من جسدها. الأشياء تبدو عادية لدى حميد. ليس هناك أيّ تناقض. انجُ بجلدك إذا ما رأيت سيّارة شرطة.

كان حميد يتغدى. تقاسم مع الضاوي قطعة الخبز والزبدة والليمونادة. سمع أحد باعة الصحف يحكي لأصدقائه، كان شاباً قويّاً، سأله أحدهم:

- لقد سكرت حتّى أخذوك إلى السجن شهرين. أحدثت فوضى.

- لا، لم أسكر.

- لقد كذبوا عليك إذن.

- نعم، من أجل امرأة تشتغل في بار، هي ابنة حيّنا. حرّضت عليّ شرطيّاً لسبب معيّن.

- إنّك تضخّم الأشياء. لقد سكرت وأحدثت فوضى.

قال الآخر من دون غضب، وحميد يستمع لمغامرة السجن هذه:

- لقد أصعدني الشرطي بالقوة إلى السيارة. هل تعرفون ماذا فعل فيما بعد؟ أتى بزجاجتي خمر فارغتين، وزجاجة ممتلئة حتى النصف، قال: لقد شربت كل هذا وفعلت كذا وكذا، لم أفهم شيئاً

من كلّ ذلك. قلت أمام المحكمة إنّني لم أشرب، وحاولت أن أشرح كل شيء لرئيس المحكمة، لكن الرئيس سألني:

- مهنتك؟

- بائع صحف.

قال الرئيس:

- تفعلها وتفعل أكثر منها أيّها الكلب.

- واللّه يا سيدي لم أفعلها، ثم إن الخمرة ليست حراماً. كلّ المسلمين يشربونها في البار، اذهب يا سيدي الرئيس إلى البارات لترى كيف أنّ جُلّ المسلمين يشربون الخمر. والشرطة فوق ذلك تحرسهم.

قال الرئيس:

- من أين تعلّمت هذا الكلام؟ هل تريد الإخلال بمقدّسات البلاد يا كلب؟ يجب أن ترى وتسكت، أن تسمع وتسكت.

وبعد ذلك:

- حكمت المحكمة على المتّهم... إلخ.

لم يفهم حميد من قصّة بائع الصحف شيئاً. ولكن بدا له أنّ كلّ شيء معقول، وإن كان غير معقول في الوقت نفسه، كان يشرب الليمونادة ويأكل الخبز بالزبدة، ويتلذّذ بهذا الطعام الذي يختلف كثيراً عن الشاي والخبز، أو الخبز والزيتون. الضاوي أيضاً يأكل بتلذّذ، وقال لحميد وهو يمضغ ببطء، ويبتلع ببطء كذلك:

- لا تثق بقصّته، يمكن أن يكون قد سرق لأحد الأميركيين شيئاً. إنّه يفعلها دائماً.

قال حميد:

- على كلّ حال، أنا لم أفهم شيئاً من قصّته! ولكن يبدو أنّه يريد أن يدخل في صراع مع الشّرطة والدّولة. عليه أن يعرف أن ذلك

ليس في مستطاع الفقراء أمثالنا. أنا شخصياً إذا رأيت شرطياً أطلق رجليَّ للريح.

قال الضاوي:

- يجب أن تفعل ذلك مثلي، أن تفعله دائماً.

المرأة ذات العجيزة والأميركي الضخم يتعانقان الآن، ويتدافعان عند البار. لا أحد ينتبه لهما. لأن هناك رجالاً آخرين ونساء أخريات يفعلون الشيء نفسه. يدخلون إلى الملهى الليلي من البار، ويخرجون من الملهى الليلي إلى البار. الطاولة لا تزال فارغة. ذهب حميد وجلس على أحد الكراسي الثلاثة. وضع حزمة صحفه فوق الطاولة. وحاول أن يغمض عينيه. فعل ذلك رغم الضّجيج. بعد لحظة ذهب في نوم خفيف، لكنّه شعر بضربة على رجليه. فتح عينيه. كان الجرسون واقفاً بقامته الطويلة، ويتحدّث إليه بعربية ذات لكنة:

- هيه أنت، هل تعتقد أنّ هذا الكرسي سرير؟ غادر البار فوراً وإلَّا ألقيت بك إلى الشارع من النافذة.

قال حميد:

- أريد أن أستريح قليلاً.

- اذهب واسترح في الخارج، فوق الطوار، أو في قمامة الزبال.

لم يُبدِ حميد أيّ اعتراض. تأبّط حزمة صحفه، أخذ يخترق الزحام ليغادر البار. أوقفه أوروبّي قصير القامة، يضع قبّعة سوداء على رأسه، اشترى منه جريدة، ودفع له أكثر من الثمن. شعر حميد بفرحة زائدة. كانت الموسيقى تنبعث صاخبة من الملهى الليلي وتمتدّ إلى داخل البار، وعندما وضع قدميه على عتبة البار، سمع الأميركي يناديه:

- إيه محمد!

التفت حميد. اقترب منه الأميركي ذو الجثّة السمينة:

- تعال هنا.

جرّه من ثيابه القذرة وهو يتمايل أكثر هذه المرّة. جرّه نحو الفاصل الخشبي، حيث كانت المرأة ذات العجيزة تترنّح هي الأخرى.

قال الأميركي:

- هل تعجبك هذه الفرنسية؟

قال حميد:

- لا.

- لماذا؟ ألا ترى أنها جميلة؟

- إنها أكبر من أمّي.

قال الأميركي:

- ماذا تقول فيّ، هل أنا نصراني أم مسلم.

- أنت أميركي. كل الأميركيين نصارى.

كان أمام الأميركي سندويش من لحم الخنزير. قضم منه شيئاً، وترك بعضه فوق الفاصل الخشبي. أخذ حميد ينظر إلى بقايا السندويش. وذات العجيزة لا تهتمّ بهما، لأنها لم تكن تفهم ما يدور بينهما. لاحظ الأميركي أن حميد ينظر إلى بقايا السندويش، فقال لحميد:

- ألم تأكل؟ هل تريد هذا؟

فسأله حميد:

- هل هو لحم الحلوف؟

- نعم.

- لا آكله.

- لا يهمّك. كُلْهُ، حتى تصبح سميناً مثلي.
وأردف الأميركي بلغته:
- (لقد حشوا رؤوسكم بأفكار فارغة. يجب أن تأكل حتّى لا تظلّ نحيفاً مثل معزة).
أمسك الأميريكي السندويش وحاول أن يدسّه في فم حميد بالقوّة وهو يضحك.
- يجب أن تأكل.
- طيّب، سآكله عندما أخرج.
- لا. كُلْهُ الآن أمامي.
تناوله حميد وعضّ منه قطعة صغيرة. أخذ يلوكها أمام الأميركي، ضرب هذا الأخير على كتفيه:
- فيري كود! يجب أن تأكل، سوف تصبح قوياً ورجلاً في بضعة أيام.
عندما غادر حميد البار، بصق ما في داخل فمه بتقزّز، وطوّح بالسندويش في الساحة الصغيرة أمامه، فانفصلت شرائح اللحم عن الخبز وتشتّتت. رأى طفلين مشرّدين، يركضان. يتخاطفان السندويش من الأرض. أخذا يلتهمانه بنهم. صرخ فيهما حميد:
- إنه حرام. إنه لحم الحلّوف. لا تأكلاه.
لكنهما لم ينتبها له ولم يسمعاه. أخذا يتخاطفانه ويلتهمانه، ويلتقطان بعض الشرائح من الأرض، من الأرض مباشرة إلى الفم، دون تقزّز. دون أدنى تقزّز.

5

هروباً من الرئيس الذي يطوف في المدينة بسيّارته، متفقّداً نظام البيع، واحترام الباعة للزوم الأماكن المخصّصة لكلّ واحد. اختفى حميد في مكان معيّن، بين المرحاض العمومي ومكاتب النقابة السياحية. بين شجيرات قصيرة كثيفة زرعها عمّال البلدية بشكل فوضوي. تعب من المشي، تعب من الصراخ، تعب من كلّ شيء. لم يأكل شيئاً، مبيعاته هذا الصباح كانت ضعيفة، إلى حدّ أنّه لم يكن في مستطاعه شراء خبزة وزبدة وليمونادة. إذا فعل ذلك، فإنه حتماً، سيهان هذه الليلة إهانة بشعة من أمّه وأبيه. سمع ذلك مراراً في ظروف مثل هذه.

تقول الأمّ:

- ماذا نفعل بهذه الفرنكات القليلة؟

تعقد ما بين حاجبيها، وتدمدم بكلمات لا يسمعها، لكنّ صوتها مع ذلك يعبّر عن غضب حقيقي. تطوف في البرّاكة. تخرج، ثم تدخل. تنظر بغضب في وجهه وفي وجه الزوج، ثم تقول بصوت مرتفع:

- هذه الدار خالية. واحد ينام حتى الظهر، والآخر يعود بفرنكات قليلة لا تساوي حتّى ثمن ربطة نعناع.

الأب لا يردّ، فقط يدخّن سجائر رخيصة، سيجارة تلو

الأخرى، يمدّد عضلاته فوق الحصير، ويسحب اللحاف المرقّع الوسخ فوق جسده. أحياناً يخرج عن صمته:

- كل يوم برزقه، دعي الطفل لحاله.

- أتركه لحاله. أتركه لحاله. لقد شبت قبل الأوان. لو أردت لتزوجت سيّدك.

إذ ذاك يتدخّل حميد:

- انظري يا أمّي، قدماي تورّمتا من المشي. أقسم لك، هذا ما حصلت عليه اليوم، اذهبي واسألي الرئيس إذا شئت، لم أبع سوى عشرين صحيفة هذا اليوم.

- اسكت يا شبيهاً بأبيه. إمّا أنك تظلّ نائماً في إحدى الحدائق العمومية، وإما أن هناك مسمومة تأخذ منك كلّ ما تحصل عليه. سوف أذهب إلى الفقيه الحريزي لكي يكتب لك تميمة تُبعد منك تلك الجنّية. ما أقل الرجال وما أكثر النساء! لقد كانت المرأة في السابق ذات شأن، لا تطمع في مدقع مثلك.

بسط حميد الآن حزمة الصحف تحت الظلّ بين الشجيرات القصيرة الكثيفة. كان جائعاً وجائعاً، عيناه مثقلتان بالنوم. فكّر أن ينام، أن يستريح قليلاً من كثرة المشي. ظلّ منتصف النهار مغرٍ، ظلّ الشجيرات الكثيفة المتشابكة، والتي تتدلّى من بعضها أزهار حمراء وبيضاء. كان المكان مثل غرفة صغيرة ينقصها الأثاث.

وتصوّر حميد تسرّب حيّة من بين سيقان هذه الشجيرات، لكنّه استبعد الصورة من ذهنه، لا يمكن أن توجد حيّات هنا في هذا المكان. إن عمّال البلدية يتعهّدون كلّ شيء هنا، بالأدوية القاتلة للحشرات والحيوانات الصغيرة المضرّة.

رغم الجوع، اضطرّ التعب حميداً أن ينام. كان الظلّ مغرياً، وكانت أصوات محرّكات السيّارات وزعيق الأبواق تأتيه في النوم

مثل حلم. بعد ساعة نوم مليئة بأحلام مزعجة ورهيبة، فيها كثير من الضجيج والصراخ وازدحام كثير لسيارات وشاحنات من مختلف الأحجام والأشكال الهندسية، استيقظ حميد على إثر ركلة من الضاوي:

- حميد، أَفِقْ. لقد عرفت أنّك هنا.

- لقد تعبت كثيراً، لم أبع شيئاً ذا بال هذا الصّباح.

- وأنا أيضاً. القضية قضية حظّ. كلّ يوم برزقه ومع ذلك يجب ألا تنام في هذا الوقت. المطاعم والبارات غاصّة بالزبائن.

- إنّه وقت الأكل والشرب. وليس وقت القراءة.

- تحرّك أوّلاً وسترى. لقد بعت في نصف ساعة ما لم أبعه طوال هذا الصّباح.

فرك حميد عينيه. ظلّ جالساً في الظلّ على الأرض التي نتفت بعض حشائشها واصفرّت. الضاوي أمامه منحنٍ بشكل متعب. تراجع الضاوي قليلاً إلى الخلف، رأسه يظهر الآن خلف الأغصان، المتشابكة كبطيخة. ساقاه منفرجتان، وبين الساقين المنفرجتين وخلفهما جدار أبيض يعكس أشعة شمس الظهيرة. جمع حميد حزمة الصحف التي كانت مكوّمة تحت جزئه الأعلى ووقف وقفة غير كاملة، ثم انحنى وغادر المكان. أمسك غصن بقميصه. تمدّد الغصن في فضاء محدود بسرعة وضرب حميداً ضربة في الرأس قويّة.

قال حميد: أيّ! وسمع الضاوي يقول:

- انتبه، كاد الغصن يفقأ عينيك. هل لا تزال نائماً؟

مشيا فوق الحشائش الخضراء بين المرحاض العمومي ومكاتب النقابة السياحية. أخرج الضاوي سيجارة، أشعلها وهو يلوك قطعة العلك. جذب أنفاساً عميقة منها ثم مدّها لحميد:

- هل تدخّن؟

- متى رأيتني أدخّن؟ هل تمزح؟
- دخّن. هل ستظلّ مثل عذراء طاهرة؟
- لا يمكن أن أدخّن. إنّي أسمع كلام الوالدة.
- يلعن أبوك... لقد كانت أمّي دائماً تقول لي إذا دخّنت فإني سأدعو اللّه أنّ يدخلك إلى الجحيم. أنا أريد أن أدخل إلى الجحيم مع بريجيت باردو ومارلين مونرو. هل تعرفهما؟
- لا.
- يجب أن ترى كم هما جميلتان في السينما، إنّهما من الكفار الذين يدخلون جهنّم.
- إنّك كافر، وهذا عار عليك.
عندما بلغا الحاجز القصير المشبّك الذي يفصل الحشائش عن الرصيف، قفز الضاوي فكادت قدمه تتعثّر. تبعه حميد وفعل مثله. وقفا لحظة صامتين، بعد ذلك قال الضاوي:
- أي اتجاه ستأخذ؟
أجاب حميد:
- جهة مطعم المادريغال. عندي زبائن هناك.
- أنا سآخذ الاتّجاه الآخر.
كان مطعم المادريغال قريباً. فكّر حميد أن يلتحق به بسرعة. الزبائن يتغدّون الآن. ربما كان نصيبه قطعة خبز ولحم. وبقايا زجاجة ليمونادة يسطو عليها في غفلة من الجرسون وهو يتهادى بأطباقه بين الموائد والمطبخ. ربما دسّ له الجرسون فخذ دجاجة في قطعة خبز. وقدّم له ذلك وهو يدفعه:
- دعني أشتغل... ألا يعجبك الدخول إلى المطعم إلّا وقت العمل؟ هذه المرّة إذا عدت فإنّي سألطخ وجهك بصحن.
على بعد أمتار رأى عائلة من الأجانب تدخل المقهى. كانت

مع العائلة فتاة في سنّه شبه عارية، جميلة جدّاً، تقف وتضحك مع صبيّ صغير يبدو أنّه أخوها. تشهّاها حميد لنفسه. وقف خلفها وأخذ ينظر إليها. دخلت إلى المطعم فأغلق الباب أوتوماتيكياً. ظلّ واقفاً لحظة ينتظر ريثما تجلس العائلة. الجرسون يكون غاضباً في مثل هذه الحالة. يكرّر أيضاً:

- لا يعجبكم الزحام معنا إلَّا في هذا الوقت، ماسح أحذية! بائع صحف! بائع يا نصيب! بائع أزهار! تفو. لم يعد هذا عملاً.

ظلّ حميد واقفاً تحت لفح شمس الظهيرة. اتّكأ على عمود كهربائي، وأخذ يراقب الزبائن من خلف الزجاج الذي تغطيه شراشف وستائر شفّافة. المطعم غاصّ دائماً في مثل هذا الوقت. لا شكّ أن اليهودية التي تملكه أصبحت غنيّة. ومع ذلك فزوجها الطويل القامة ما زال يعمل سائق شاحنة ضخمة. إنّهما يجمعان المال بأية طريقة. لا يمكنهما أن يتوقّفا عن جمع المال، هي وحدها تدير البار والمطعم، تضع نظارة على عينيها. تدخّن وتتحدّث إلى الزبائن، وتضغط على أزرار الآلة الحاسبة. لاحظ أنّ النساء يقفن خلف البار، وأمامه يسكرن ويعانقن أيّاً كان. وتمتلئ بهنّ سيّارات الشرطة في نهاية الأمر. تذكّر حميد شخصين كانا يتحدّثان على رصيف مقهى «ميلك ـ بار».

قال الأول:

- لا أدري لماذا لا يمكن لمغربيّة أن تدير هي أيضاً حانة خمر.

- إنّ القانون يمنع ذلك، نحن في دولة مسلمة.

- ولكن القانون يسمح للمغربيات باحتراف البغاء، يسمح لهنّ بتعاطي الخمور، أغلبهنّ يملكن أوراق العمل.

- الدّولة تسمح لهنّ بذلك، ولكنّها لا تسمح لهنّ بإدارة حانة. ذلك قانونهم.

ردّد حميد وهو متّكئ على العمود الكهربائي كلمة «قانونهم». ما هو القانون؟ إنّه لا يعرف. المهمّ أن يبيع أكبر عدد ممكن من الصحف في هذا المطعم، أو أن يخرج على الأقلّ بطعام. تقدّم نحو الباب، دفعه ببطء وحذر. كانت الأطباق قد صفّت فوق الموائد. بعض الزبائن يأكلون، والبعض الآخر يحملون (الطرشونات) إلى الأفواه يمسحونها بطريقة مؤدّبة. البعض الآخر يرفعون الكؤوس وهم يمضغون أو لا يمضغون. هناك رجل واحد في الزاوية يضع نظّارة على عينيه منهمك في المضغ والقراءة تعرّف إليه حميد. إنه أحد الشغوفين بمطالعة الصحف، لا يرى إلّا وهو يتأبّط حزمة منها. يدفع دائماً أكثر من ثمن الجريدة. تسلّل حميد جهة البار، رأته اليهودية السمينة من تحت نظارتيها، ابتسمت له، أعادت له الأمل، ربّما لن يستطيع الجرسون طرده. قالت:

- تعال هنا، هل تغدّيت؟
- لا، لم آكل بعد.
- سوف تتغدّى معي في البيت.

غادرت الآلة الحاسبة. وأشارت له من خلف البار أن يتبعها إلى المطبخ. تبعها حميد. هذه فرصة طيّبة جدّاً. قالت اليهودية السمينة:

- هل تستطيع حمل هاتين القفتين إلى البيت؟ سأدفع لك نصف درهم وسأغدّيك.

كانت القفّتان مليئتين بالخضر والفواكهه، اقترب حميد منهما، وحاول أن يختبر قوّته. رفع القفّتين بصعوبة، قال وهو يتظاهر بأنّه قادر على فعل ذلك:

- نعم، أستطيع.
- أليستا ثقيلتين؟

- لا .

- يبدو أنّك لا تقوى على حملهما، إذا كنت لا تستطيع فإنّي سأحاول أن أجد شخصاً آخر. إنّهم مشغولون في المطبخ فقط.

- بلى، أستطيع. انظري.

يكابد كثيراً لرفعهما مرّة ثانية، فيكاد جسمه يسقط أرضاً. يصمد أكثر. يستعين بطاقة نفسية لحمل القفّتين إلى أعلى قليلاً، ثم يقف منتصباً. يداه تؤلمانه لأنّ العروات الأربع خشنة وبارزة النتوء. قالت اليهودية السمينة:

- طيّب، أخرجهما وانتظرني في الخارج ريثما أصفّي حساباً. هل تعرف البيت؟

- لا. أعرف العمارة فقط، تلك التي توجد عند المخبزة في رأس الشارع.

- طيّب. أخرج القفّتين وانتظرني.

أخرج حميد القفّتين وهو يتمايل. كان قد وضع حزمة الصحف في إحداهما. وقف عند باب المطعم، وأخذ ينظر في خوف يميناً وشمالاً، لو ضبطه الرئيس لأشبعه لكماً ورفساً.

«يا ولد الـ. . . هل أنت بائع صحف أم حمّال؟ سأصفّي معك الحساب هذا المساء. إذا لم تعجبك المهنة فاختر أن تكون حمّالاً».

خاف حميد أكثر. انتابت جسده قشعريرة. تمنّى لو تخرج اليهودية السمينة بسرعة. انفتح الباب وظهر جسدها، كانت تتحدّث إلى أحد الزبائن وهي تبتسم: «أكلة شهية». مشت أمامه دون أن تعيره انتباهاً. تبعها حميد وهو يجرّ جسمه بتعب. القفّتان ثقيلتان، كان يتمايل. خشي أن تلتفت اليهودية فتراه على تلك الحالة. ثمّ تغيّر وجهة نظرها في قوّته. لكنّها لم تلتفت طوال المسافة التي كانت قصيرة. كانت العمارة قريبة من المطعم. وكان بيتها في الطابق

الأوّل. ربّما انفلت كلّ ما بداخلهما، لكن عندما بلغا باب العمارة قالت اليهودية:

- يكفيك هذا، انتظرني هنا.

صعدت إلى فوق. لم تنزل، لكن الخادمة هي التي نزلت، تناولت منه القفّتين، وقفزت الدرجات بخفّة، إنّها قوية مثل غولة. كان حميد وراءها يلهث من الجوع والتعب، وجد الباب مفتوحاً ودخل دون أن يأخذ الإذن بذلك. لكنّ اليهودية أيضاً لم تعر اهتماماً لذلك. أمرت الخادمة بأن تقدّم له صحناً من اللوبيا بقطعة من قوائم البقر. منذ شهور لم يأكل وجبة مثل هذه، ازدرد كل ذلك في لحظة وجيزة، أخذ نصف الدرهم، وعندما كان يغادر المطبخ، دسّت له اليهودية حزمة ثياب قديمة.

- خذ هذه الأثواب، وغيّر خرقك البالية الممزّقة تلك. هل يشتغل أبوك؟

- لا.

- وأمّك؟

- لا.

- يمكنها أن تعمل خادمة مثل باقي النّساء، أم أنها كسولة وبدوية لا تتقن أيّ شيء؟!

أطرق حميد، لم يجب، إن أباه وأمّه كلّ شيء. هما كلّ شيء. كسولان وبدويان، ومهاجران وكلّ شيء. تأبّط الحزمة وأغلقت اليهودية الباب دونه. عندما غادر باب العمارة أوقفه شرطي يجرّ درّاجته الهوائية فوق الرصيف، وقد تدلّى مسدّسه واتّسخت بدلته وبهتت.

- إيه أنت! تعال، ماذا تحمل تحت إبطك؟

- صحف.

- الأشياء الأخرى تحت إبطك؟

- ثياب.

- أرني تلك الثياب.

مدّ حميد الحزمة للشرطي. أخذ هذا الأخير ينشرها في الفضاء أمامه ويتأمّلها قطعة قطعة، ثلاثة قمصان وسروال. خطرت للشرطي فكرة:

- من أيّ سطح عمارة سرقتها؟

- واللّه لم أسرقها، أعطتها لي اليهودية، إنها تسكن في هذه العمارة.

- اسكت يا كلب. إني أعرف أمثالك، الشكوى في المركز كثرت من كثرة سرقة السطوح. قل لي من أيّ سطح سرقتها؟

- أقسم لك. لم أسرقها، أعطتها لي اليهودية.

- اسكت، لا تفتح فمك القذر.

جمع الشرطي الثياب تحت إبطه. ترك الدراجة متكئة على عمود كهربائي. وقال لحميد:

- انتظر هنا، سأتلفن للمركز حتّى تأتي سيارة الشرطة لتأخذك أيّها اللص.

دخل الشرطي إلى أقرب محلّ ليتلفن. وقف حميد لحظة يفكر فيما يفعل. لم يكن في مستطاعه إقناع الشرطي، إنّهم قذرون، فهم أن الشرطي لا بدّ أن يبتزّ منه تلك الأثواب. أخذ يجيل النّظر حوله، ثمّ أسعفته البديهية وأطلق رجليه للريح. كان يركض لينجو بنفسه.

6

أمام مقهى «الأركاد» وقف حميد ينظر إلى الطاولات على الإفريز. الناس كالحلزونات الملوّنة حولها، ليس هناك أيّ مقعد فارغ. يشربون البيرة والليمونادة ويأكلون الذرة التركية المقليّة. بعضهم يمصمص قواقع الحلزونات، البعض الآخر يحمل الصحن ليشرب إدام الحلزونات المتبقّي في قعرها، والذي عادة ما يكون مختلطاً بأوراق الزعتر. حميد ينظر إليهم: عالم غريب، يتحدّثون لغة أو لغات لا يفهمها، لكنّه يستطيع أن يميّز بعضها، في المنطق على الأقلّ. دار قبل لحظة على الزبائن، في الخارج وداخل المقهى. لا أحد يريد أن يشتري صحيفة. مرّ أحد زملائه من خلفه، وضربه على كتفه. قال حميد:

- لا تتعب نفسك، لا أحد يريد أن يقرأ.

لم يكترث له زميله، لكنّه قال:

- كلّ واحد وحظّه.

أخذ يطوف على الطاولات. دخل إلى البار، ثم اختفى، كان حميد يخرج منه في العمق، لكن من يدري؟ كلّ واحد وحظّه. لم يخرج زميله من الباب الذي دخل منه، يبدو أنه خرج من الباب الآخر. أخذ حميد يتمشّى قليلاً، لأنّه لم يعرف ماذا يفعل بنفسه. قدماه تعبتا كثيراً. توقّف عند مكان معيّن، وجلس على الطوار بين

سيّارتين. مدّد قدميه وأخذ يتأمّل البنزين الذي يتقاطر من أسفل إحدى السيّارتين، بحيث كوّن جلطة سوداء تنتشر ببطء وتتسرّب إلى حافة الطوار. فكر لو أنّه أشعل عود ثقاب، فتحترق السيّارة، ثم الأخرى فالأخرى. لكن بدا له أن ذلك غير ممكن، ومستحيل. لو كان الشارع خالياً لكان في إمكانه أن يفعلها، تحسّس جيبه. أدخل يده فيه. وأخذت أصابعه تلهو بالقطع النقدية داخل الجيب. إنّها كثيرة العدد لكنّها قليلة القيمة. لا يزال البنزين يتقاطر، قطرة فقطرة. والقطرة تلو الأخرى تملأ النهر. سمع صوت أقدام خلفه. توقّفت القدمان. أحسّ أن شيئاً غير عاديّ يحدث وراءه. التفت بسرعة فوجد زميله يكاد يهوي على قفاه بصفعة قويّة وهو يكتم ضحكة مألوفة.

- ماذا تريد أن تفعل يا بغل؟

- لو لم تنتبه لكنت قد سقطت على خطمك.

- هل تقوى على فعل ذلك؟

- ولم لا؟

ابتعد زميله في حذر جهة الحائط، وصحفه تكاد تنزلق من تحت إبطه. وقف حميد بتلكّؤ.

- لم تفعل لي شيئاً، تعجبني تلك القفا.

اقترب حميد منه ببطء متظاهراً بأنّه لا يريد به شرّاً. كان جسد الآخر ينزلق فوق الجدار. يتحرّك في كلّ اتّجاه. قال حميد:

- لا تخف، لن أصيبك بسوء. ما لك تحتكّ بالحائط كمن به جرب؟

- أقسم إنّك لن تؤذيني.

قال حميد:

- أقسم لك.

ثم انقضّ على زميله ووضع أصابع يده على رقبته وضغطها. تغيّر لون وجهه مرّات وسعل. انسحب حميد وهو يضحك في انتصار:

- تعلّم هذه المرّة كيف تصفع الناس على قفاها.

قال الآخر:

- كنت أريد أن أمزح معك.

- تعلّم ألّا تمزح بتلك الطريقة.

ارتفعت أصوات حوالي سبعة من الأميركيين بالغناء. كانوا على إفريز مقهى «الأركاد» وأمامهم العديد من زجاجات البيرة الفارغة والمملوءة. الناس يلتهمون الذرة التركية وأجساد الحلزونات الطريّة ويضحكون كأنهم في عيد. أجانب ومغاربة وأجنبيات. المغربيات لا يجلسن على الإفريز، يوجدن داخل البار يشربن أو يبتززن بعض الزبائن، أو يبكين على ماضيهنّ الريفي. من الريف مباشرة إلى الكحول، إلى السيجارة، إلى صالونات الحلاقة والتزيين، إلى لوك العلك. .استمرّ الجنود الأميركيون في الغناء. مدّ أحدهم يده إلى زجاجة البيرة، رفعها من فوق الطاولة وأفرغها على رأس أحد أصدقائه. وقف الآخر متثاقلاً ومحاذراً، لكنّ آثار الشراب كانت بادية عليه... كانت بادية عليهم. أخذ ينفض عن جسده ذلك السائل الذي بلّل بعض ثيابه. توقف غناؤهم. الناس أيضاً توقّفوا عن التهام الذرة التركية والحلزونات. انشغلوا بالنظر إليهم. عاد الأميركي المبلّل إلى مكانه فارتفع غناؤهم من جديد. بعض الزبائن أيضاً عادوا إلى الانشغال بأنفسهم. لكنّ الأميركي المبلّل فاجأ صديقه الأول وأفرغ عليه زجاجة البيرة. وقفا وتدافعا بالأيدي.

قال حميد:

- سوف تبدأ المعركة.

أجاب رفيقه:

- ذلك ما نتمنّاه، اشتقت لمعركة رعاة البقر أولئك.

- إذا بدأت فلن تنتهي إلَّا بالدم.

- وماذا يهمّنا؟ فليموتوا جميعاً.

ما زال الأميركيان يتدافعان بالأيدي. أصدقاؤهما يضحكون بصوت مرتفع، ويشجعّونهما على ذلك. ابتعد الأميركي الأول من الطاولة باتجاه الرصيف وهو يتمايل. تبعه الآخر وهو يجرّ رجليه بصعوبة. تشابكت أذرعهما من جديد. وتبادلا كلمات فيها نوع من الغضب. لكن حميد لم يفهمها، يبدو أنّها شتم. أثارا انتباه كل الزبائن فأخذوا يعلّقون أو ينتقدون المشهد. رجع الجنديان إلى مكانهما بالقرب من رفاقهما. لكنّ أحدهما دفع الآخر، فسقط كلّ ما هو على الطاولة. أريقت سوائل وابتلّت ثياب وتشابكت أيد. أطلّت اليهودية السمينة، مالكة «الأركاد» برأسها، وأشارت إلى الجرسون:

- هيه، أومحنّد! أنقذ الموقف.

لا بدّ أن يلبّي أومحنّد طلب سيّدته. قال أومحنّد:

- طيّب مدام!

دخل أومحنّد إلى المطبخ وهو يجري، خرج كذلك وهو يركض، بمكنسة طويلة في يده، أخذ يهوي بها على المجموعة، يضرب في كلّ اتّجاه. ضحك بعض الزبائن، علّق البعض الآخر:

- شيء جميل، الجنود الأميركيون يريدون أن يستعمرونا.

وقال مغربي آخر لصديقه:

- لقد استعمرونا بالفعل.

لا يزال أومحنّد يضرب الرؤوس والأذرع والأوجه وكلّ شيء. تشتّتت المجموعة على الرصيف وعلى الطريق. تعثّر جندي سكران

فسقط على وجهه. ظهرت بعض الرضوض بسرعة على الوجه، تحامل على نفسه. أخذت المجموعة تتلاحم من جديد. الأرجل تلوتي باسترخاء، والأذرع تتحرّك في الفضاء. وقف أومحنّد بعيداً منهم قليلاً ومكنسته الطويلة تدور في الفضاء. أصابت المجموعة نزعة الانتقام من أومحنّد. اقترب أوّلهم بسرعة سكران، لكن أومحنّد دفعه بالمكنسة. جاءته الإغاثة من الخلف، إذ خرج طباخ وكنّاس، في أيديهما مكنستان. أخذ الثلاثة يلوّحون بالمكنسات في الفضاء، فتشتّت الأميركيون من جديد، وارتفعت أصوات الزبائن.

قال حميد:

- إنّها معركة حقيقية.

ردّ زميله:

- إن الأميركيين ليسوا أقوياء الأجساد لأنّهم يأكلون لحم الخنزير. يقال إن في لحم الخنزير دودة تنخر القوة الموجودة في الجسم.

- ولكني رأيت كثيراً من الناس يأكلونه.

- إذا تشاجرت معهم تستطيع أن تهزمهم.

انفلت أحد الأميركيين من أكلة الخنزير وشاربي الخمور، لعنهم اللّه، وضرب الطبّاخ على قفاه بلكمة ألقت به أرضاً ـ رغم أنّه يأكل الخنزير. تفو ـ لكن أومحنّد فاجأه بالمكنسة وضربه عند الركبتين فوقع حيث لم يعلم أنه وقع، لكنه تحامل على نفسه، وظهرت في رأس الشارع سيّارة الشرطة العسكرية التابعة للقاعدة الجوية في رأس الشارع، ابتهج حميد لذلك، سوف يلتقطون هؤلاء المخمورين، مثلما تلتقط الكلاب الضّالة. فرّ أحد الجنود بنفسه ودخل ليختبئ في مرحاض عمومي. قال حميد:

- إنّهم يردفونهم في السيّارة بطريقة رائعة.

- سوف ترى الهراوات الآن، من لا يريد أن يصعد، يضرب في كلّ مكان.

- لقد قيل إنّهم يدخلونهم في زنزانة باردة حتى يكادوا يموتون من البرد.

- لا. إنّهم يحبسونهم في غرفة كبيرة يوجد فيها تلفزيون. يأكلون ويشربون أحسن منّا.

- إنك تكذب. لا يمكن أن يكون سجنهم بتلك الصورة.

- اسأل من تريد. إنّ سجنهم أفضل من سجننا.

- اللّه! كم أتمنّى لو دخلت سجنهم. إنّهم يقدمون في سجننا خبزاً ناشفاً وطعاماً تتبرّز فيه الفئران.

- يع. تفو! كيف يكون هذا الطعام؟!

- والصراصير والجرذان. ويبصق فيه الطبّاخون ويتمخّطون.

- يع، تفو! لا تصف لي ذلك.

- اللّه يدخلك السجن.

- اللّه يدخل تركتك.

وقفت سيّارة الشرطة الأميركية، البعض من المجموعة لم ينتبه لها. نزل ثلاثة من الشرطة طوال القامة بلباسهم الأبيض كاللقالق. هراواتهم في أيديهم وقد تدلّت قبعاتهم وعدساتهم. أمسكوا بأربعة جنود، أدخلوا ثلاثة منهم إلى السيّارة بلا عنف، لكن الرابع ذا الجثة الكبيرة السمينة بفعل أكل الخنزير وشرب البيرة (يع، تفو. لعنة اللّه عليه!) رفض أن يصعد، اهتمّ به واحد فقط، رفع هراوته وضربه على كتفه فصرخ الجندي متألّماً، لكنه مع ذلك رفض أن يصعد إلى السيّارة. أعاد الشرطي الضربة عند الركبتين فتهاوى المخمور أرضاً، حمله الشرطيان وألقيا به داخل السيّارة، بعد ذلك جيء بالبعض الآخر بسهولة. تحرّكت السيّارة، في حين بقي الجندي المختفي في

المرحاض يطلّ برأسه، وقد حاول أومحنّد أن يُفهم الشرطة أن هناك مخموراً آخر مختبئاً في المرحاض. لكنّهم لم يهتمّوا به. فكّر أن يتعقّبه ويُشبعه ضرباً بمكنسته، لكن اليهودية السمينة مدّت رأسها وصرخت فيهم:

- ادخلوا الآن، ذلك يكفي.

قال أومحنّد:

- مدام، لا يزال واحد منهم مختبئاً في المرحاض.

- ادخل، ليس ذلك شغلك. إذا كان قد سكر فاللصوص والمومسات سوف يحتفلون به هذه الليلة.

بعد ذلك، استمرّ الزبائن في مصمصة الحلزونات وأكل الذرة التركية وشرب الليمونادة والبيرة. افترق حميد عن رفيقه. المساء أخذ يصخب، ولا شك أنه سيكون هناك إقبال على قراءة الصحف.

7

بعد إلحاح الأم على أن حميداً أصبح رجلاً، وأنه قادر أن يشتغل بنفسه كباقي الرجال، ذهب الحسن إلى السوق العتيق، واشترى صفائح وقصديراً وخشباً ومسامير. ألصق شيئاً بشيء في حوش البرّاكة وقالت الأمّ لحميد:

- الآن أصبح لك بيت مستقلّ، لا بأس أن ينام معك فيه أخ لك.

كان الشيء الذي بُني في الحوش أشبه بمسكن كلب، وفيه مع ذلك كوّة ينفذ منها النور، وباب قصير لا يتّسع لقامة حميد. لكنّ المقدّم اكتشف الأمر، طرق الباب ذات صباح.

- لقد بنيتم برّاكة. وهذا ممنوع من دون رخصة.

- إنّها ليست برّاكة، مجرد مخبأ ينام فيه الطفل لأنّه قد كبر.

- لا يهمّني الطفل أن يكبر أو أن يتقلّص حتّى يصبح في حجم قملة، المهمّ أن أيّ بناء لا يتمّ إلا بالترخيص من الدولة، افتحي الباب سوف أدخل لأرى ما فعلتم.

فتحت الأمّ الباب وأفسحت للمقدّم الطريق. إنّه يمثّل الدولة، مشى نحو المسكن الصغير، ودار حوله يتفحّصه.

- إنّ هذا ليس مخبأ كما تقولين. إنّها برّاكة بالفعل تتّسع لأكثر

من اثنين. لا بد أن يكون لها ترخيص. سوف أعود غداً أو بعد غد لأجدكم قد هدمتموها.

- أرجوك السي المقدّم.

- لا سي فلان ولا هم يحزنون. القانون هو القانون، ويجب أن يطبّق على الجميع. أنتم خالفتم القانون، تنتظركم الذعيرة أو الحبس.

- سيدي، ما تقوله هو الحق.

ثم خرج المقدّم، كان الزوج داخل البرّاكة، لم يستطع أن يخرج لمواجهة الرجل الذي يمثّل الدولة. خاف أن يقتاده إلى المقاطعة ويحبسه هناك. وعندما تأكّد من أنّ المقدّم ابتعد منه كثيراً، أطلّ برأسه من الباب. قالت الزوجة:

- هل سمعت كلّ شيء؟

- سمعت كل شيء، أنت السبب في هذه المصيبة.

- ليست مصيبة ولا أيّ شيء، كلّ الناس تبني براريك، عندما يعود دسّ له عشرة أو عشرين درهماً. إنه يحبّ الرّشوة.

- وإذا لم يقبل؟

- ليس هناك من واحد في المملكة يرفض الرّشوة.

- يمكنك أن ترشوه بتلك الدراهم العشرة.

- الرجل أولى من المرأة لفعل ذلك.

- نتمنّى ألّا يأتي بأعضاء القوات المساعدة لتهديم كلّ مسكننا.

- فمك لحسه كلب، لم يفعل ذلك أبداً؟

- لقد فعلها مراراً.

- لكن مع براريك لا تحمل أرقاماً. نمرتنا مسجّلة في الأوراق عند الدولة 2834.

- إنّك تحفظين هذا الرقم كما لو كنت تحفظين رقم ثروة.

- هذا المسكن هو ثروتنا. وإذا هدم فسننام في العراء.

دفع الحسن الباب الواطئ بقدمه. أحنى قامته ثم غادر الحوش، مشى كالتيس ورجلاه تغوصان في التّراب. كادت تصدمه درّاجة انحرفت إلى اليسار، وهي تغوص في الرمل، الرمل وحده استطاع أن يخفّف من سرعتها. توقّف عند باب أول دكّان، كان هناك شخصان يلعبان (الدامة) لتمضية الوقت. كلاهما عاطل. أحدهما متقاعد، حارب مع فرنسا في الهند الصينية أوائل الخمسينات، أما الثاني فعاطل مسلول يعيش على الدقيق والحليب الأميركيين، وقد صنع من أحد الأكياس قميصاً، بحيث ارتسم على ظهره كفّان متصافحتان (أميركا تصافح هذا العاطل المسلول، إنّ الرئيس الأميركي يصافح كلّ عاطل في هذه البراريك، ويبتسم لكلّ مسلول أو مشلول. وأيضاً الأميركيون يلقون نفايات القاعدة الجوية، فيتسارع إليها كل ساكني البراريك ليلتقطوا الأجبان المدوّدة وبقايا المصبّرات القذرة، وقطع الخبز المبلّلة بسوائل لا يدري أحد ما هي، ويلتهمون كل ذلك بنهم كبير وهكذا تلتقي الكفّ بالكفّ فتتصافحان ويبتسم الرئيس الأميركي في مودّة لكلّ عاطل ومسلول ومشلول وأجرب... إلخ).

وقف الحسن فوق رأسيهما وهما منهمكان في لعب الدّامة، شعر بظلّه فوق اللوح، رفع المتقاعد رأسه.

- اجلس الحسن لتلعب، لقد أوشكت أن أهزم هذا المسلول.

قال المسلول:

- سوف ترى من الذي يهزم الآخر، اجلس سوف تقابلني.

قال الحسن:

- ليست عندي رغبة في اللعبة.

تجاوزهما إلى البقّال، دون أن يسلّم عليه، جلس فوق صندوق وهو عابس. قال البقّال:

- ما لك؟ هل تشاجرت معها اليوم أيضاً؟

- لا، ليس معها، لقد أصبحت أتركها تنبح كالكلبة دون أن أعيرها اهتماماً.

- ذلك أفضل، أنا أيضاً تعبت من ضرب تلك العرجاء اللّعينة، لقد ندمت على ذلك اليوم الذي تزوّجتها فيه وأنجبت منها.

- النساء كلّهن يتشابهن. المرأة ضلع أعوج ذلك ما قاله سادتنا الأوائل.

وقف صبيّ أشعث ومتّسخ أمام الحسن والبقّال وطلب زجاجة ليمونادة باردة. أخرج البقّال واحدة من سطل مليء بماء البئر الذي حفره في حوش برّاكته، تلذّذ الصبي بتلك الليمونادة المحلّية الرخيصة التي غالباً ما تتجمّع الأوساخ في قعرها. ثم غادر المكان فوراً ممتطياً درّاجة قديمة، وأخذ يضغط على دواستيها بقدميه الحافيتين المصابتين بالكدمات في كلّ مكان، وقال الحسن:

- لقد زارنا المقدّم قبل لحظة.

- من أجل البرّاكة؟

- نعم، الأخبار تتسرّب بسهولة، لقد اقترحت عليّ الجيفة أن تدفع له رشوة.

قال البقّال وهو يضحك:

- إن الجيف لا تكذب. يجب دائماً أن نستشيرهنّ، لكن ليس في كلّ شيء. من اتّبع طريقهنّ سقط في الهاوية.

قال الحسن:

- لكن لا أدري إذا كان المقدّم سيقبل رشوة.

- اضربها على حسابي، عندما يمرّ من هنا سوف أتكفّل أنا بذلك. هات خمسة عشر درهماً.

- ليس معي الآن. إذا عاد الطفل في المساء فسوف آتيك بها.

- عليك أن تعجّل بذلك. المقدّم رجل لا يحبّ المزاح، وهو جاف وقاس.

- ذلك ما أسمع عنه.

- سمعت أم لم تسمع، هذا ما أقوله لك. وإلّا فإنّه سيهدم البرّاكة ويأخذك إلى المقاطعة، حيث تحبس هناك على الأقلّ مدة أسبوعين لأنّك خرقت القانون.

سرح الحسن ببصره بعيداً، في سماء زرقاء وفضاء فسيح أزرق فوق البراريك. استمع لزقزقة الطيور وهي تحوّم أمامه فوق رأس شجرة نابتة في حوش إحدى البراريك. إنّه لا يملك شيئاً الآن، بضعة دراهم فقط تبقّت له، بعد أن اشترى هذا الصباح علبة سجائر رخيصة. كلّ ما ادّخره ابتنى به البرّاكة التي هي في حجم مسكن كلب. وذلك لإرضاء الجيفة التي تصرّ على أن يسكن ولدها وحده لكي تزوجه بجيفة مثلها... جيوبه مثقوبة دائماً، والفلوس لا تعرف الاستقرار فيها. لكن، متى اجتمعت لديه الفلوس؟ الأفواه تأكل وتأكل بنهم، تلتهم كلّ شيء. في السابق، وهو أعزب، كان يتمتّع قليلاً. كان يستطيع أن يدخن، وأن يشتري أثوابه من الخردوات، وأن يسكر، وأن يذهب إلى الماخور الذي يعجّ بالنّساء، لم يكن يستريح إلّا لامرأة واحدة من قريته، متزوّجة من رجل يبلغ الثمانين، هربت من قريتها بعد أن مات، لا يزال الحسن يذكر صورته الآن، وصورتها كذلك. في القرية، كانت تسوق بقرتين وثلاث عنزات كلّ صباح، تسلّمها لأحد الرعاة وتعود إلى البيت لتبقى إلى جانب ذلك

العجوز الذي كان لا يكاد يغادر فراشه، لكنّه في نهاية الأمر مات، وفرّت المرأة لكي لا تتزوّج برجل آخر في مثل سنّه.

قال البقّال:

- هل تضيّع فلوسك في القمار أم تخسرها على امرأة؟ إنّك (مزلوط) معدم؟

- متى كنت ثريّاً؟ إنّي دائماً مزلوط. أنت تعرف أني لا أشتغل. لو كان عندي رأسمال بسيط لفتحت حانوتاً لبيع الفحم، اللّهم العمش ولا العمى؟

- لقد أصبح ابنك يشتغل.

- كلّ ما ربحه دفعته الجيفة ثمناً لتلّك البرّاكة التي ستهدم على رؤوسنا.

قال البقّال:

- المهم أن تأتيني بالخمسة عشر درهماً. الدّولة قلبها واسع. كلّ شيء يسير بالفلوس.

8

تناول المقدّم خمسة عشر درهماً، طالب بأكثر من ذلك، تظاهر للبقّال بأنّه قام بخرق القانون من أجل الصداقة فقط.

- أنت تعرف أن هذا ممنوع، لو علم الخليفة بذلك لأوقفني عن العمل. ولكنّي أتحمّل كلّ شيء من أجل ناس طيّبين مثلك، من أجل أصدقاء. منذ كم سنة ونحن صديقان؟

أجاب البقّال:

- لا أذكر، ربّما قبل دخول الأميركيين بسنوات قليلة، أيّام المجاعة، يوم كانت الهليكوبترات تلقي علينا بقطع الجبن والشيكولاته والخبز والمنشورات التي لم يكن أحد يعرف قراءتها.

- إنّ ذاكرتك قوية، أمّا أنا فقد نسيت ذلك.

- ولكنّك مع ذلك لا تنسى الصداقة.

قال المقدّم:

- لقد كثر هؤلاء الذين يخرقون القانون، كلّ يوم تبني برّاكة جديدة، لكنّ الأخبار تصل بطريقة أو بأخرى.

- أعرف أنّ لكم أعيناً وآذاناً في كلّ مكان.

وعندما انصرف المقدّم، نادى البقّال الحسن، ضربه على كتفه:

- يمكنك أن توسّع تلك البرّاكة الآن. لن يقول شيئاً، وإذا ما تغيّرت الظروف، ربّما حصلنا لك على رقمها مقابل رشوة أخرى.

- إنّ ذلك ممنوع.

- من قال لك ذلك؟ أنت لا تعرف المقدّم. إنّه من أخطر المقدّمين في المقاطعة، يستطيع أن يبيع الخليفة وحتّى الباشا دون أن يسمع أحد بذلك. أنا أعرفه منذ سنوات، لقد كان مجرّد حشاش مقامر. وها هو الآن يعمل مع الدّولة، هل تعتقد أنّه وصل إلى ذلك بسهولة.

بعدها خرجت الزوجة عند الجارات. وتحدّثت عن البرّاكة الجديدة، وعن كون المقدّم أصبح صديقاً لها. وقالت امرأة لأخرى همساً: «إنها حمقاء. هل يهتمّ المقدّم بامرأة حافية عارية شمطاء مثلها؟».

وقالت الزوجة لجاراتها وهي تكذب:

- لقد أعطاني رقماً جديداً لبرّاكة ابني. ووعدني برقم آخر، ستصبح لدينا ثلاثة أرقام.

قالت امرأة:

- يا أختي تحدّثي لنا معه، منذ ستّة أشهر لم يحصل زوجي على نصيبه من دقيق التعاون الوطني.

وقالت امرأة أخرى:

- وأنا كذلك، ولداي كنسا كلّ المدينة. فهما يشتغلان مع البلدية مقابل الدقيق والزيت، ولكنّهما لم يحصلا على شيء إلى حدّ الآن.

قالت زوجة الحسن:

- عندما أزوره في المقاطعة سوف أخبره بكلّ ذلك.

وقالت واحدة:

- الأفضل أن تخبريه عندما تكونان على انفراد. وغمزت صديقتها.

رأت الزوجة الحسن قادماً نحو المجموعة فانفصلت عن النساء، خافت أن يسمع حديثها فيدسّ رأسها بين رجليها، ويملأ فمها بالتراب حتّى تغلقه نهائياً، وتكفّ عن التبجّح والكذب. دفعت الباب ودخلت. تبعها الحسن وقد بدا عليه نوع من الارتياح، لقد نجا من الحبس الآن، الفلوس تستطيع أن تحقّق كلّ شيء حتّى المستحيلات، الارتياح أيضاً كان بادياً على الزوجة. ابتعدت من الحسن وسط الحوش واتّجهت نحو المجمر، وأفرغت فحماً، كان أحد الطفلين يصفع أخاه ويهدّده بمعاودة ذلك إذا ما بكى.

كان الطفل الأصغر يبكي في صمت، خلف البرّاكة، وقالت الزوجة إن عليها الآن أن تهيّئ (برّاد) شاي لنفسها وللحسن.

- اذهب واشترِ ربطة نعناع.

- أين ولداك؟ نادي على أحدهما ليتشريه.

وصرخت:

- فضول، أين أنت؟

أتاها الجواب مكتوماً من خلف البرّاكة:

- نعم. أنا هنا.

- ماذا تفعل وراء البرّاكة يا ولد (الخانز)؟

قال الأب:

- هل تعتقدين أنّ في الدنيا من هو (أخنز) منك؟

- اسكت أنت. انظر إلى حالتك واسكت يا عيفة الرجال.

وعندما وقف الصبيّ أمامهما حافياً، وخرق معلّقة بجسده كأنها ثياب. قالت الأمّ للأب:

- انظر إلى ولدك. لو كانت فيك نفس لكسوت أولادك.

وللطفل:

- اذهب واشترِ نعناعاً وتعال لتشرب الشاي، نادِ أخاك إذا

وجدته في طريقك. لا تكثر من الخروج هذه الأيّام، لا أريد شجاراً مع الجارات، فالأطفال أصبحوا يتشاجرون في كلّ وقت كما لو كان قد أصابهم السعار.

قال الطفل:

- إنّه خلف البرّاكة يلعب في الظلّ.

وعندما انصرف الطفل انشغلت الأمّ بإشعال النّار في المجمر، لفّت قطعة شمع داخل خرقة بالية وأشعلت عود ثقاب. بعد ذلك أخذت تنفخ بفمها على النّار. ثم أتت بنافوخ مثقوب لا يكاد يخرج منه الهواء، وبحركة آلية استجاب لها النّافوخ، اشتعلت النّار، ووضعت الأمّ (البرّاد) فوق المجمر.

قالت للحسن:

- هل تعتقد أنّ المقدّم سيعود إلينا ليطالبنا بشيء آخر؟

- لا أعتقد. إنّه صديق الأعرج البقّال.

- ربّما يتآمران معاً علينا.

- لا أعتقد... إنّ الأعرج يحبني كثيراً.

- يجب ألّا تثق بالبشر.

- عليك ألّا تكوني كذلك. إنّ وضع الثقة في النّاس هو كلّ شيء، وبعد ذلك، كلّ شاة، غداً يوم القيامة، سوف تعلّق من قائمتيها الخلفيتين.

- هل تعرف يوم القيامة أيّها السكير؟ إنّ اللّه سيشوي لحمك عندما تكون بين يديه.

- إلعني الشيطان، يبدو أنّنا لن نشرب الشاي في راحة.

- ومتى شربته أنا في راحة؟ لقد جعلت طعمه دائماً مرّاً في حياتي.

قطّب الحسن جبينه، طقطقت أسنانه واحتكّت أضراسه ببعضها.

دفع الباب بركلة وخرج. توقّف عند البقّال، أخذ يرسل من صدره زفرات وينفث الهواء بقوّة، كما لو كان قد ركض آلاف الكيلومترات، لاحظ الأعرج ذلك، ومدّ له سيجارة رخيصة. تناولها الحسن. بحث عن علبة الثقاب في جيبه، فلم يعثر عليها. أشعل له البقّال:

- أنت لا تملك حتّى عود ثقاب، لهذا السبب فهي تنبح وراءك دائماً.

- لو سمعت الكلام الذي كانت تخرجه من ذلك الفم القذر.

- هل يداك مشلولتان؟ لماذا لا تضربها؟

- لقد تعبت من ذلك كلّه.

طلب منه البقال أن يجلس. جلس الحسن. ومدّ له البقّال نصف كأس من الشاي البارد:

- اشرب وانسَ همومك.

- لقد تركتها تهيّئ الشاي.

- اشرب هذا. وسوف يحنّ اللّه.

بعد ذلك وقف ولده أمامه كشبح، متسخاً، ليس من هذا العالم، وقف على بعد خطوتين منه.

- ماذا تريد؟

- أمّي هيّأت الشاي.

- قل لها إن شايها مرّ.

- لا أستطيع.

- اذهب يا وجه...

اختفى الطفل، ثمّ بعد لحظات، عاد يحمل صينيّة من المعدن الرخيص عليها كأسا شاي، وضع الصينيّة فوق التّراب واختفى دون أن يكلّم أباه. رأى البقّال ذلك. وقال للحسن:

- لا تغضب، قم وهات الصينيّة.

- لا أريد أن أشرب شايها.

- إلعن الشيطان، الشاي لا يزال ساخناً. ألا ترى معي أنّهن رغم كلّ شيء رؤوفات بأزواجهنّ.

قال الحسن:

- يلعن....

لم يكمل الجملة، وقف بتهالك، وحمل الصينيّة بأناة من فوق التّراب.

9

امّحت التّخوّفات. المقدّم لن يهدّد بعد الآن بهدم البرّاكة، بل أكثر من ذلك، أصبح في الإمكان توسيعها، على مرأى ومسمع. لقد دفع الحسن رشوة ثانية بواسطة البقّال. لكن، مع التأكيد أنه لا يمكن السماح بإعطاء رقم للبرّاكة. بعد ذلك أصبح حميد يسمع أمّه وأباه كلّ مساء عندما يعود يتحدّثان عن الزواج، من يتزوج من؟ فهم فيما بعد أنه المعني بالأمر. ماذا يهمّه؟ عمره ثمانية عشر عاماً. امرأة في البرّاكة؟ هذا شيء جميل. كم يتشهاهنّ في الشارع وهنّ بالبنطلونات الضيّقة. لكن أولئك، لا يمكن أن يصل إليهنّ أبداً. إنهنّ من عالم آخر. يتلمّظ أيضاً كلّما رأى بنات الأكواخ وقد التففن في جلاليبهنّ، أغلبهنّ يشتغلن خادمات أو لا يشتغلنّ أو يحترفن البغاء لإعالة أهاليهنّ. لكن ليس عنده وقت للحصول على إحداهنّ. إنَّه لا يعود إلَّا متأخراً في الليل، يلزمه أن ينام ليستيقظ مبكّراً، ومع ذلك، فهو يستطيع أن ينفّس عن نفسه بطرق يمارسها كلّ من هو في سنّه من أبناء جيله.

حاول الأب مراراً أن يبعد هذه الفكرة من ذهن زوجته.

- إن حميداً لا يزال صغيراً.

- لا تقل هذا الكلام، لقد تزوّج أبي وهو في الخامسة عشرة.

- ذاك زمان وهذا آخر.

- لماذا؟ لم يكن أبي يجد حتّى ما يقتات به، ومع ذلك فقد خلّف أحد عشر ولداً. أمّا حميد فهو يشتغل.

- افعلي ما تشائين إذا لم تريدي أن تستمعي إليّ.

وبالفعل قرّرت أن تفعل ما تشاء. استعرضت خمس أو ستّ فتيات، هذه شغّالة وهذه عاطلة. هذه عمشاء والأخرى تغمز بقدمها، لكنّها ذات ردفين وسمينة. تحيّيها كلّما رأتها، ويبدو أنها ستكون مطيعة لها. وعندما تحدّثت الأمّ إلى حميد طأطأ رأسه خجلاً. فكّر مليّاً، لم يرفع رأسه في وجهها.

- افعلي ما تشائين.

وبالفعل قرّرت أن تفعل ما تشاء أيضاً. اقترحت فيطونه التي تغمز بقدمها اليسرى، تخيّل حميد صورتها. لا بأس إذا غمزت بقدمها، لكنّها مع ذلك سمينة، تحلّب فمه وتملكته قشعريرة.

قال أحد أصدقائه:

- ستتزوّج وأنت لم ترَ من الدنيا شيئاً. هل سكرت يوماً؟ هل نمت مع أميركية؟ هل أنفقت عليك امرأة تبيت الليل كلّه تشتغل في ملهى ليلي من أجلك؟

- إن أمّي أرادت ذلك. ثمّ هل الزواج يمنعني من أن أمارس كل تلك الأشياء. هل تعتقد أن امرأة واحدة تكفيني؟

- هل تعتقد نفسك ثوراً؟

وقال صديق آخر:

- دعه يتزوّج. ما أبشع أن ينام رجل وحده في ليالي الشتاء البارد! خصوصاً في تلك البراريك الملعونة.

وقال حميد:

- هذا رجل يعرف ما يقول.

ثم ضربه على كتفه وهو يضيف:

- إنّ هذا يريدني أن أبقى من دون زواج حتّى أفقد رجولتي. هل تعرف؟ لقد تظاهرت لأمّي بالخجل، لكن في قرارة نفسي أريد ذلك. ما أروع أن تكون معك امرأة:

- سوف يحوم حولها الرجال.

- مثلما يفعلون بأختك.

أراد أن يتشاجرا. لكنّ الصديق الثالث تدخّل، فضّ النزاع وتفرقوا في الشوارع.

أشاعت والدته ذلك بين جاراتها، اغتبنها كثيراً، وتحدّثن عن حمقها، إنها امرأة لا تجد ما تأكل وسوف تزوّج ابنها، وقالت واحدة:

- كان عليها أن تتزوّج هي.

- واللّه يا أخيتي من يتزوّج جيفة مثلها؟ لقد تزوّجها ذلك الرجل الكسول لأنّه لم يجد امرأة تُقبِلُ عليه.

- اللّه يهديك. النّساء كثرن هذه الأيّام، أصبحن يقبلن حتّى على ذوي العاهات، المرأة اليوم تتلهّى بواحد كيفما كان، حتّى يأتيها اللّه بواحد أحسن منه. والمحاكم لم تخلق للزواج وإنّما خلقت للطلاق أيضاً.

- ولكن كيف يستطيع ذلك البرهوش أن يتزوّج؟

- إنّه أقوى من بغل. يستطيع أن يحبّل نساء قبيلة بأكملها.

وقالت واحدة:

- إذا كنّ حمقاوات وأقبلن عليه.

- وما له؟ إنّه شاب ويشتغل.

فكرة الزواج لم تتحدّد في ذهن حميد بعد. لكنّه حبّذها. سوف يفعل مثلما يفعل كل النّاس، يتزوّجون وينجبون. يحترمهم الجميع،

بعد ذلك، يلزمه أن يغيّر من سلوكه. سوف يتحدّث بطريقة خاصّة مثلما يتحدّث الرجال المتزوّجون، وسوف يكفّ عن ارتكاب حماقات مثل تلك التي يرتكبها العزّاب، بعض زملائه من بائعي الصحف الأكبر منه سنّاً متزوّجون. لكن يبدو أنّهم يعيشون مسحوقين، دائماً رؤوسهم مطرقة. يأكلون بامتعاض وتقزّز، غير أنّ ثيابهم نظيفة، عكس العزّاب الذين تظهر ثيابهم مسودّة باستمرار بفعل احتكاك الجرائد يوميّاً بها.

وقال أعزب:

- سوف يصبح لك أبناء، سيذهبون إلى المدرسة، يتوظّفون وينفقون عليك.

وقال أعزب آخر:

- سوف يهجر هذه المهنة القذرة، يجلس عند عتبة الدار التي يبنيها أبناؤه. يتأمل الغادين والرائحين. يا لها من شيخوخة مريحة!

شعر حميد أنّهما يسخران منه، لكنّه لم يكن في مستوى الردّ عليهما، لا يهمّ، المهمّ أنّهما ينطلقان من حسد حقيقي، ما من أحد منهما كره وجود امرأة بجانبه، تطبخ له الشاي، تضع له لبيخة على رأسه عندما يشعر بألم، تغسل له ثيابه. حميد يعرفهما جيّداً، أحدهما يعيش مع زوج أمه، ينتزع منه كلّ نقوده، والآخر يعيش مع أبيه الأعمى وأمّه الصّماء، ينفق عليهما. إنّهما لا يقدران على الزواج. لو استطاعا ذلك لما تحدّثا عنه بسخرية مؤلمة مثل هذه. لكن المهمّ أنه سيتزوّج. أمّه كلّمته في الأمر، وأخذ يتخيّل صورة زوجته التي تغمز برجلها، ذات الردفين والمتورّدة الوجنتين، تساءل ماذا تأكل تلك العجلة. إنّها عجلة فعلاً، غليظة وسمينة. إخوتها كلهم نحاف ضعاف الأجسام، أمّها قصيرة في طول خنصر، لكنّها هي، تبدو مثل يهوديات حيّ الملّاح اللواتي يأكلن الفلفل والباذنجان كثيراً.

قال زميل متزوّج:

- لا تهتمّ لذينك الأحمقين. إذا تزوّجت فسترى كيف أن الحياة تتغير. الزواج يدخل على صاحبه بالخير.

ضرب حميد قطعة حجر بقدميه لكنّه أخطأها. تأمّل قطعة الحجر وهي جامدة تماماً أمام حذائه القديم. كان يستمع لزميله المتزوّج بغير اهتمام، له ابنان، لكن الخير لم يدخل عليه. ربّما هو في البداية. سوف يدخل عليه الخير بعد سنوات.

وقال حميد:

- المهمّ أن تكون معي في البرّاكة امرأة. ألَّا أعرف كثيراً من النّساء؟ ليس عندي وقت لمطاردة إحداهنّ.

- أن يكون عندك وقت أم لا، هذا شيء غير مهمّ، سوف تعرف كيف أن الحياة تتغيّر، لكن في الشّهور الأولى من الزواج ستتأخر كثيراً عن العمل.

لم يفهم. قال حميد:

- ولماذا أتأخّر؟

- سوف تعرف فيما بعد؟ دع عنك كلام ذينك الوغدين. إنَّهما يسخران منك.

- لا. إنّهما لا يسخران، إنّهما يشعران بحسد، أعرفهما جيّداً. يسكنان بالقرب منّا.

بعد أن ظلّت الأمّ تغيّر خرقها النظيفة وتدور على الحارات، تشيع بأنّها ستزوّج ابنها، أصبحت النّساء يتحدّثن عنها، عندما يشربن الشاي، أو يغزلن الصوف، أو يصنعن الحلفاء. أو حتّى عندما لا يفعلن شيئاً. عندما يكنّ جالسات في ظلّ البراريك على التراب يغتبن بعضهنّ ويأكلن لحم إخوانهنّ وأخواتهنّ ميّتاً وما كرهنه. ولم تكن الأمّ وحدها هي التي تغيّر خرقها النظيفة فقط، بل أصبحت فيطونه

تفعل الشيء نفسه، تطلي وجهها بالأحمر وتكحّل عينيها وتكثر من الخروج إلى الحانوت أو الفرّان أو السقاية، لكنّ أمّها كثيراً ما كانت ترفض ذلك.

- أنت الآن مخطوبة، احشمي قليلاً.

- هل فعلت شيئاً فيه عيب؟!

- ضعي نقاباً على وجهك على الأقلّ.

- كلّ البنات يخرجن سافرات.

- قبل أن يتزوّجن.

- حتّى النساء المتزوّجات يخرجن سافرات.

- ذاك شغلهنّ، إن أمّك عندما خطبت أول الأمر لم تكن تخرج من بيتها حتّى خرجت نهائياً إلى بيت زوجها.

وقال أخوها الأصغر:

- دعيها يا أمّي تفعل ما تشاء، لكن إذا سمعت عنها شيئاً فإني سوف أكسر رجلها الأخرى. أنا وحدي أعرف كيف أعيد هذه العرجاء إلى الطريق.

أرادت فيطونه أن تنتف شعره، لكنّه ابتعد خلف الشجرة التي تتطاول وسط حوش برّاكتهم، أصيبت بنوع من التشنّج، لم تحاول أن تلاحقه لأنّها تعرف أنّها لا تستطيع أن تمسك به. اكتفت والدتها بتهدئتها.

- يا ابن قليل الفائدة. إنّك تشوّه سمعة سلعتك، متى كانت أختك عرجاء؟ هذه المرّة إذا كرّرتها فسوف أضربك (برابوز).

ثمّ إلى فيطونه:

- أنا أتحدّث إليك، يا ابنتي، من أجل مصلحتك فقط، افعلي ما تشائين، اسألي المجرّب ولا تسألي الطبيب.

بعد ذلك كفّت فيطونه عن الإكثار من الخروج لكنّها لم تتعرّف إلى حميد، لم يسبق لهما أن تحدّثا على انفراد، لكنّ صورته في ذهنها، شاب، قوّي وجميل، لا يرفع عينيه عندما تمرّ امرأة، فوق هذا، إنّه لا يدخّن الكيف، مثلما يفعل أغلب أبناء الجيران، وفوق هذا أيضاً إنّه يشتغل، على عكس أبناء الجيران الذين لا يعرف أحد من أين يأتون بالنقود لكي يشتروا الخمر والحشيش.

10

هل الزواج حقاً يأتي بالبركة؟ حميد، هذا القذر الذي لم تكن امرأة تنظر إليه أو تهتمّ به أصبح اليوم يغسل شعره كلّ صباح، يدهنه ويمشطه. أصبح يحلق تلك الشعيرات القليلة المنتشرة على عارضيه الأمردين. أصبح هو الآخر محبوباً من طرف فتاة تشتغل في ملهى ليلي، بدويّة مهاجرة من العوامرة. تعلّمت في خلال ثلاثة أشهر كيف ترتدي البنطلون وتقصّ شعرها وتضع الأصباغ وتشرب وتدخّن، وتعلّمت أيضاً بضع كلمات أميركية تستعملها عند الحاجة!

في صباح باكر قبل أن تطلع الشمس، كانت معركة حامية أمام ملهى «صليب الجنوب»، بين مغربي وجندي أميركي، المومس غنّو بينهما في منتهى السكر. كلّ واحد يجرّها نحوه. كانا سكرانين كذلك. أخرج الجندي الأميركي سكيناً قصيرة لكنّها حادّة. وضعها على عنق غنّو. كانت هي تنظر إليه فقط وعيناها مثقلتان بفعل الشراب والنّوم. يشتم الأميركي المغربي، ويدفع السكين في عنق غنّو. هي لا تكاد تشعر ولا تصرخ أو تستنجد. ابتعد المغربي قليلاً وأخذ يبول على جذع شجرة في غبش الفجر، شجرة تنشر ظلاً قصيراً تحت ضوء عمود كهربائي في الشارع. سحب الأميركي السكّين عندما شعر بالأمان. أمسك غنّو من يدها وأخذ يجرّها. كانا لا يقويان على المشي. حميد ينظر من بعيد وصحفه تحت ذراعه.

أخذت تتلكّأ. عيناها فقط تستنجدان بحميد. تشبّثت بجذع شجرة على الطوار، لكن الجندي الأميركي استطاع أن يجرّها بقوّة وعنف، كادا أن يسقطا. زرّر المغربي السكران سرواله ثم تبعهما، توقّف الأميركي من جديد وأخرج السكين القصيرة من جيبه، صوّب رأسها هذه المرة تجاه الرجل، لكن هذا الأخير لم يأبه لذلك. أخذ يشتمه بالعربية. اقترب منهما أكثر فتراجع الجندي، ثم تقدّم نحو المغربي ولوّح بسكينه في الفضاء، تحرّك حميد أيضاً نحو الثلاثة. كانت غنّو قد ارتخت نهائياً من الخوف، جلست عند جذع شجرة عندما خانتها ركبتاها. لم تعد تقدر على الوقوف. أخذ الشراب يتبخّر من رأسها. أصبحت تدرك قليلاً ما يدور حولها. تحرّك حميد أكثر، وبسرعة أطار السكّين من يد الأميركي بقدمه. جرى نحو السكّين، التقطها وأشهرها في وجه الرجلين. افترقا عن بعضهما ووقف حميد بينهما وألقى بجرائده في حضن غنّو. ثمّ أخذ يضرب في جنون. سقط المغربي على الطوار فتدفّق الدّم من جبهته. انقضّ على الأميركي بلكمات، كان هذا الأخير يحرّك قبضته في الهواء محاولاً الدفاع عن نفسه. لكنّه لم يكن يقوى على ذلك، ضربه حميد في وجهه وبطنه مرّات عديدة، ورغم ذلك، لم يسقط إلّا بعد أن تعب. حميد انهال عليه بضربة حذاء في وجهه فأصدر الأميركي صوتاً مثل صوت الخنزير. تمدّد مثل ميّت في غبش الصباح، دم المغربي لا يزال يسيل، كان هناك، أيضاً، في رأس الشارع سكارى آخرون يترنّحون ويتدافعون، لم يهتمّ أحد لما وقع. تقدّم حميد نحو غنّو، خافت أن يفعل بها مثلما فعل بالآخرين. وقفت وأخذت ترتعد، وضعت كفّاً على جذع الشجرة والصحف تحت قدميها، قال حميد:

- لا تخافي، يجب أن تتعلّمي مع من تسكرين هذه المرّة.

- كانا يدفعان عليّ. كلّ الناس يدفعون عليّ. لكنهما في

الأخير تشاجرا، كلّ واحد أرادني لنفسه. لا أستطيع أن أقسم جسمي إلى شطرين. ما أنا إلَّا وليّة ضعيفة.

انحنى حميد والتقط صحفه. رتّبها ثمّ تأبّطها.

- أين تسكنين؟ سوف أرافقك. هل ربحت كثيراً هذه الليلة؟

- قليلاً. إنّي أسكن هناك في زنقة «فرانسوا دي فيون» التي تلتقي مع شارع «علي بن أبي طالب».

- هل تسكنين وحدك؟

- نعم. كانت معي فتاة أخرى، هي أيضاً من «العوامرة». يقال إنّها دخلت السجن، ويقال أيضاً إنّها هربت مع جندي أميركي إلى أميركا، لا يزال سريرها وبعض ثيابها هناك، المسكينة! هي التي أخذت بيدي أوّل الأمر. لم أكن أعرف شيئاً عن هذه المدينة.

تبدّد الشراب أكثر، لكنّها مع ذلك كانت لا تزال تترنّح قليلاً، وضع حميد كفّه على ذراعها، لم تشعر بخوف ولا تقزّز، في حين شعر هو برعشة خاصّة. مرّت في رأس الشارع سيّارة شرطة، جرّ حميد غنّو إلى باب عمارة، دفع الباب وراءهما واختفيا تحت الدرج. مرّت لحظات صمت، لم يسمعا صوت محرّك سيارة الشرطة، يبدو أنّها لم تأبه لهما.

وقال حميد:

- انتظري سوف أعود، ربّما ضبطوك، سوف أرى ما إذا كانت السيارة قد اختفت.

أطلّ برأسه من باب العمارة، لم يكن هناك أثر لأيّ شيء. لا أثر لسيارة ولا أثر لبشر. هناك أصوات مترامية، متعبة، متثاقلة النّبرة تأتي من مكان ما. عاد حميد إلى غنّو، طمأنها ثمّ جرّها من ذراعها. كان أسفل الدرج شبه مظلم. عندما خرجا بدأت بعض أشعّة الشمس

تتوزّع ضعيفة في السماء. المصابيح لا تزال تضيء الطريق. سارا بخطوات سريعة إلى زنقة «فرانسوا دي فيون»، دخلا إلى ساحة واسعة تحيطها من أربعة جوانب غرف لصيقة ببعضها، فوق الطابق الأرضي طابق آخر، كلّ الأبواب مغلقة، إلّا باب واحد من فوق مفتوح، تنبعث منه موسيقى. فتحت غنّو الباب، وارتمت فوق أقرب سرير. كان هناك في الزاوية سرير آخر، فوقه كومة من الثياب، وتحته أكوام من أشياء لم يستطع حميد تمييزها. رأى باباً صغيراً عند رأس السّرير الثاني، توجه إليه لكي يتبوّل، لكنّه سمعها تقول:

- ليس هناك مرحاض، إنّه مطبخ. في الخارج، عن يمينك، تجد مرحاضاً مشتركاً.

وضع حميد صحفه فوق السرير، وخرج إلى المرحاض، ثم عاد ليجد غنّو تجهش بالبكاء. كانت تبكي وتحاول أن تمنع نفسها من ذلك، لكنّ نوبة البكاء تزداد، في الأخير كفّت عن ذلك. جلس قبالتها على السرير. أخذ ينظر إليها دون أن يتكلم. لكنّها قالت وعيناها مثقلتان بالنوم:

- ألست متعباً؟ ألا تريد أن تنام؟

- عليّ أن أذهب لأبيع صحفي، هذا الصّباح لم أكن بعت سوى صحيفتين، لمّا انشغلت بتلك الحادثة.

- غير مهمّ. كم تربح في اليوم؟

- كلّ يوم ورزقه.

- استرح قليلاً، يبدو عليك أثر التعب.

تقول ذلك ولا تنظر إليه لأنّها كانت ممدّدة على ظهرها وذراعها فوق عينيها.

ثم أضافت:

- يمكنني أن أقرضك من بعض ما حصلت عليه هذه الليلة، استرح قليلاً.

كان حميد ينظر إلى الجدار الذي علّقت عليه بعض الثياب النسائية. ركّز نظراته في غير اهتمام على تلك الثياب. لم يكن يفكّر في شيء، وقالت غنّو:

- أين تسكن؟

- في الدّوار، في تلك البراريك القذرة.

- إنّها قذرة فعلاً، كوخنا في العوامرة أحسن من أيّة برّاكة من تلك البراريك. لو لم تقع تلك الحادثة لكنت قد بقيت مع أبي وأميّ وإخوتي. العوامرة أفضل لي بكثير.

كانت تتحدّث كما لو كانت تهذي، حميد يستمع إليها، يندهش، لا شكّ أنّ وراء كل فتاة من هذا النوع حادثة. قال حميد:

- أية حادثة؟

- لا يهمّ، فعلها ولد الرايس فهربت بنفسي. إنّك متعب. حاول أن تنام. لا أريد أن أتكلّم أكثر.

فكّر أن يفعل ذلك، ليذهب الرئيس إلى الجحيم. ماذا سيحدث لو لم يبع صحفه هذا النهار. كنت مريضاً، ذهبت إلى المستشفى، حقنوني وقالوا لي: اذهب لتنام، ألا يمرض الإنسان أبداً في المهنة؟ هل نحن بشر من لحم ودم أم من صلب وحديد؟ بقي له أين ينام؟ أين يمكن أن يمدّد جسده؟ هنا أم هناك؟ تشجّع واندفع نحوها. خاف أن تزجره، لم يجرّب كثيراً هذه الأمور. جلس بخوف وتوجّس عند حافة السرير الذي تتمدّد عليه غنّو. لم تتأفّف، لم تنتفض، لم تزجره. إنّما، تزحزحت قليلاً وتنهّدت، ثم أفسحت له مكاناً بجانبها. استعاد ثقته بنفسه. تمدّد بجانبها، انتظرها ماذا تفعل، وهي

مغمضة العينين، أخذت تنزع ثيابها عنها وتلقيها على الأرض، فعل مثلها بدون خوف، كانت عيناه مفتوحتين الآن، لكنّ أشعّة الشمس التي تتسرّب من نافذة صغيرة فوق الباب، أشعّة الصّباح استطاعت أن ترغمه على إغماضهما.

11

حتّى حميد هذا القذر، أصبحت النّساء تجري وراءه!

فكّر أحد زملائه: لو أن العرجاء ذات الردفين علمت بذلك لاستطاعت أن تنشب أظافرها في عنقه، وتترك جداول الدماء تسيل منه. إنّه يعرف أمّها الشرسة التي تستطيع أن تدير معركة بكاملها مع جميع نساء الحيّ دون أن تنهزم أو ترعوي حتّى يأخذوها إلى المستشفى العمومي، ومن غير شكّ فإنّ العرجاء تشبه أمّها.

قال أحد الباعة:

- سيظلّ يتبع تلك المشؤومة حتّى تقضي عليه.

- كيف تقضي عليه؟ إنّه رجل. ثمّ، من لا يتمنّى أكبر عدد ممكن من النّساء؟

- كلّنا نريد ذلك، لكنّي أقصد أنّ لها كثيراً من المعجبين، سيضربه أحدهم ذات يوم بقنّينة أو بسكّين.

- أنت تحسده فقط.

- كيف أحسده؟ أنا أيضاً لي صديقتي، وهي أفضل من تلك القرويّة الغبيّة.

كلّ الزملاء يعرفون الآن أنّ لحميد علاقة مع غنّو، وحميد يحاول الآن أن يحصل على أكثر من غنّو واحدة، لم يكن ذلك في إمكانه، فتيات من هذا النوع لم يعدن يتشبّثن بأحد، إلّا إذا كان لا

يصحو وجيوبه مملوءة دائماً. كلّهنّ يحلمن بالزواج بأميركي. أصبح حميد أحياناً يبيت عند غنّو. أعطته مفتاحاً ثانياً، في بعض الأحيان لا تدخل غنّو إلى البيت، وقد فهم حميد فيما بعد لماذا كانت تفعل ذلك، كانت تذهب مع هذا الزّبون أو ذاك. وأحياناً أخرى يلتقي بها وقد انفتخ أحد محجريها، يسألها حميد:

- من فعل بك ذلك؟
- لم أعد أذكر. كنت شاربة.
- أنت تعرفينه، قولي لي من؟
- لا يهمّك ذلك. لا تمرّ ليلة إلّا وفيها مشاكل، هل تستطيع أن تحلّ كلّ تلك المشاكل؟

فهم حميد فيما بعد أيضاً أن تلك المهنة هي مهنة المشاكل حقاً. لكنّه كان يستريح لغنّو، فتاة لا تعطي أهمية للمال. كثيراً ما تدسّ في جيبه بعض النقود التي لم يكن في حاجة ملحّة إليها.

- أنت ستتزوّج. عليك أن تجمع مالاً لتعرّس.
- أمّي هي التي تكفّلت بكلّ شيء.
- لا تعتمد على أمّك. يمكن لها أن تلقي بالنقود والزوجة معاً في المزبلة ذات يوم، وإذ ذاك ماذا ستفعل؟ سوف تندم على كلّ شيء. يجب أن تجمع قليلاً من المال.
- أين أضعه؟ سوف يكتشفونني. أمّي تفتش برّاكتي كل يوم.
- احفر في الأرض.
- حتّى الأرض تفتّشها. أنت لا تعرفينها.
- ضعها هنا، ألا تثق بي. ثمّ إنّ لك مفتاحاً ثانياً. فلوسي أنا أيضاً موضوعة هناك في مكان ما.

في الغرفة كانت دائماً هناك زجاجات نبيذ وأنصاف زجاجات. ولكثرة ما تعوّد حميد على رؤيتها ورؤية غنّو وهي تشرب، حاول أن

يبدأ، في النهاية، بدأ بكأس مرّ. ثمّ بكأسين أقلّ مرارة... ثمّ... إلخ. وكانت أمّه تشعر بأن هناك شيئاً ما يدور في رأسه، لقد تغيّر كثيراً، فكّرت أنّ الرجل عندما تتغيّر عاداته، فإنّما المرأة هي التي تفعل به ذلك. وحاولت أن تخمّن من تكون تلك المرأة. لكنّها لم تستطع أن تصل إلى أيّة نتيجة. تصوّرت أن هناك اتّصالاً ما بينه وبين فيطونه. كيف يستطيع أن يفعل ذلك وهو لم يدخل بها بعد؟ قالت ذلك للحسن، رفع هذا الأخير كتفه وغمغم:

- ماذا يهمّ؟ إنّها زوجته، يتغيّر أو لا يتغيّر، هذا ليس من أمرنا.

- لكنّه لم يدخل بها بعد.

- يدخل أين؟ اللّه يدخلك إلى جهنم، اتركي الولد لشأنه.

- لم يعد يبيت في برّاكته.

- فليبت حتّى في المزبلة، هل ذاك شغلك؟

لكنّها مع ذلك تريد أن تعرف كلّ شيء. خشيت أن تكون هناك امرأة أخرى غير فيطونه، النّساء حراميات، أحابيلهنّ كثيرة، لكنّ حميد لم يعد يصمت ويحني رأسه مثل عجل، أصبح الآن يواجه أباه وأمّه. يرفع عينيه في أعينهما. يستطيع أن يكذب بثقة.

- أين نمت أمس؟

- ليس هذا شغلك، لقد نمت عند صديق.

- هل هو صديق أم صديقة؟

- صديقة.

- هل تتجرّأ يا كلب أن تقول ذلك أمام والديك؟ هذا جيل قمّش لا يحشم ولا يرمّش.

- لا، هذا جيل خزيت.

تضرب أمّه فخذيها وتصرخ في وجه الحسن:

- هل سمعت ما يقول هذا الملعون ابنك؟ لم تلد لي سوى البلاء.

- تقولين لي ذلك كما لو كنت أنا الذي حملت به تسعة أشهر.

ثم ينصرف الحسن، وتظلّ هي تضرب فخذيها وتردّد: «ويلي، ويلي على غدا يدي، النّساء يلدن بني آدم وأنا ألد الشمايت».

لم تفهم أمّه شيئاً في هذا التغيير الذي حصل لحميد. لم يعد يخشاها. في السابق لم يكن يستطيع أن يردّ عليها. دائماً كان يقول نعم، اذهب إلى الجحيم. الآن. اشنق نفسك، نعم، الآن، اسكت، نعم، لا تأكل، نعم، لكنّه الآن تغيّر، هذه امرأة ملعونة من غير شكّ هي التي فعلت به ذلك. قالت ذلك لبعض جاراتها، قلن لها: السبب منك. أنت التي أوعزت له بالزواج حتّى أصبح يشمّ رائحة إبطيه، وعندما يشمّ الفتى والفتاة رائحة إبطيهما فيا ويل العالم من حولهما. لكنّها لم تستطع أن تجد علاقة بين هذا التغيير الذي حصل وبين أمر الزّواج. فكّرت دائماً في المرأة، ثمّ أقسمت إنها سوف تكتشفها وتشرّدها في الطرقات. ستذهب عند الشوّافة هي التي تستطيع أن تخبرها بالمكان الذي تحطّ فيه هذه الملعونة - حطّ اللّه فوق رأسها الصخور! - وبعد ذلك تذهب إلى الفقيه الذي يسقط العصافير من السماء بسحره، ويجعل التفاحة دجاجة إذ ذاك سوف تأتيها مكتوفة الأيدي تبوس قدميها الحافيتين المتشققتين وتطلب المغفرة. لكنّها لن تغفر لها حتّى تنتف شعرها وتمزّق ثيابها وتريها أيّ نوع من النّساء هي.

لم يعد حميد يزور بيتهم إلّا مرة كلّ أسبوع تقريباً، فيطونه هي الأخرى علمت بذلك، أكّدت لنفسها أنّه لا يكذب، ربما ينام عند بعض الأصدقاء، على كلّ حال، هو رجل، لا يمكنها أن تخاف عليه لأنّه ليس فتاة عرجاء. حتّى العذارى اللواتي يشتغلن في بعض

البيوت كخادمات، لا يزرن بيوتهنّ إلّا قليلاً، لماذا تخاف عليه إذن؟ لكن من يدري؟ ربّما كانت هناك امرأة كما تقول أمّه. وحاولت أن تطرد مثل تلك الخيالات من ذهنها. حميد لا يستطيع أن يفعل ذلك. هو لا يرفع عينيه في امرأة أبداً، إنّه يخجل من ظلّه.

وقال أحد الباعة لصديقه:

- ألم أقل لك إنّ تلك البدويّة سوف تذهب بعقله؟

- دعه يتمتّع، فهو لا يزال شابّاً.

- يتمتّع؟ كلّنا نريد أن نتمتّع، لكنّه نسي زوجته ووالديه.

- ماذا يفعل بوالديه؟ لو لم يكن ذلك الحشّاش أبي، لكنت قد أنهيت دراستي وأصبحت موظفاً مع الدولة، هو الذي أوقفني عن الدراسة ودفعني إلى هذه المهنة القذرة، عندما أتذكر ذلك أعبّ زجاجة من النبيذ دفعة واحدة.

- ومع ذلك، فرضى الوالدين لا يفوقه سوى رضى اللّه.

- قل ذلك لنفسك، انتظر رضى الوالدين حتّى تسقط في حافة.

- إنّني ساقط فيها الآن.

- قلها لنفسك.

بدأ حميد يشعر أنّه شخص آخر، يشرب كلّ مساء وينتظر غنّو في نهاية الصّباح لتوقظه عندما لا تتغيّب أو تذهب مع زبون. الغريب أنّها لم تكن تشعر بغيرة تجاه فيطونه. ربما شعرت بذلك وأخفت عواطفها. إنّ المرأة الشرعية مقدّسة. أمّا هي فإنّها عابرة في حياته. أحياناً تتمنّى لو تنتزعه منها، لكن بطريقة شرعية، غير أنّها ليست عذراء وتخرج مع كثير من الرجال. في المستقبل، ربما لن يرضى حميد بذلك، وربّما فعل بها مثلما فعل بذينك الشخصين في ذلك الصّباح الباكر.

وقالت غنّو:

- متى ستعرّس؟

- قالت أمّي يجب أن أعجّل بذلك، لقد جرحت قدماي من الخروج، وتشكّكت في أن تكون هناك امرأة في حياتي.

- كم أريد أن أرقص في عرسك؟

- لو كنت شيخة لاستطعت أن تفعلي ذلك.

- لست محظوظة. لن أرقص حتّى في عرس من أبغي.

- بعد العرس. سوف ترقص هنا في الغرفة، وسوف نقيم عرساً ثانياً.

وذهبت غنّو إلى المطبخ، تأخرت قليلاً، ثمّ عادت بسوار صغير من الذهب، ثم قدّمته لحميد.

- بعه، أو افعل به ما تشاء، قدّمه لزوجتك إن شئت.

- أنت في حاجة إلى هذا، ربّما عائلتك أيضاً في حاجة إلى ذلك.

- عائلتي ليست في حاجة إلى شيء، لهم أغنام وأبقار في العوامرة، خذ السوار، أنت الذي في حاجة إليه.

شعر حميد أنّ هناك دموعاً تريد أن تتسرّب من عينيه. قاوم كثيراً، لكنّ دمعتين تدفّقتا من عينيه، وعندما رأت غنّو ذلك أجهشت ببكاء حقيقي. وضعت كفّيها على عينيها. ثمّ وقفت وهرولت مسرعة إلى المطبخ. ظلّت هناك فترة قصيرة، في حين بقي حميد يتأمّل السوار. ينظر في جدار الغرفة. ينظر في النافذة الصغيرة فوق الباب. كم هي طيّبة هذه الفتاة! كم هي صادقة! ليست من ذلك النوع الذي يحدّثه عنه زملاؤه في العمل. «اجعل المرأة أمامك، لا تجعلها خلفك، النّساء غدّارات وحراميات». غنّو يمكن أن يجعلها الإنسان خلفه وهو مستريح، هي من النوع الذي إذا (غاب عنها - زوجها - حفظته) كما يقول النبي (ﷺ). حاول حميد أن يقيم مقارنة بينها وبين

فيطونه، ذات الردفين، لكنه لا يعرف هذه الأخيرة جيداً، لم تتحدث إليه كثيراً، لم يعرف ما إذا كان بإمكانها أن تحفظه أو تصدقه، أن يجعلها خلفه أو أمامه، لكنها مع ذلك، ذات ردفين ووجنتين متورّدتين.

خرجت غنّو من المطبخ وآثار الماء على وجهها كانت تجفّفه بظهر كفّها وقالت:

- هذه الليلة سيكون عندي شغل كثير، ككلّ سبت دائماً، أتمنّى ألّا تقع لي مشاكل.

- إذا أردت فسوف ألحق بك في الصباح.

- لا داعي لذلك، لقد تعوّدت على هذه الحياة، قل لي لا تشربي كثيراً، حتّى أحافظ على مقدرتي العقلية.

- آه، ذلك أحسن.

- لكن ما يؤرّقني هو أننا سنفترق عندما تتزوج.

- لا أعتقد.

- لكن زياراتك سوف تقلّ.

- لا أعتقد ذلك. كلّ الناس متزوجون ولهم نساء أخريات في حياتهم. إنهم يستطيعون أن يوفّقوا بين الزوجة وصديقاتهم.

- ليس كلّ الناس.

- على الأقلّ بعض الأصدقاء المتزوجين الذين أعرفهم.

لم تكن غنّو مقتنعة تماماً، تتصوّر أنه لا يستطيع أن يفعل ذلك. هي لم تجرّب الزواج لكن من المحتمل أن يحصل كل شيء مما قاله. المساء يقترب. مدّت غنّو يدها إلى مكان تحت السرير وتناولت مرآة. وضعتها بالقرب منها فوق السرير، لم يكن في الغرفة سوى سريرين. ولم يكن هناك كراسي، وقالت لحميد:

- وقت العمل الآن، سوف أهتمّ بنفسي قليلاً.

وقف حميد بخفّة وصحفه تحت إبطه.

- أتركك الآن، نلتقي في ما بعد.

- عندما تعرّس، تعال لنقضي الليلة معاً كما قلت. ألن تأتي هذه الليلة؟

- لا أعتقد، يجب أن أوجد هناك، لم يبقَ ليوم السبت إلا أيام قليلة.

- أغلق الباب وراءك.

خرج حميد، اجتاز الساحة التي تحيط بها الغرف في الطابقين الأرضي والعلوي. كانت بعض الأبواب شبه مفتوحة. في الشارع الطويل، السيارات كثيرة، بعضها خلف بعض، وبعضها في اتجاه معاكس لبعض. غربت الشمس ولكن بقايا أشعّتها لا تزال في الأفق، باهتة، صفراء، مريضة، طَفّ، ثم اشتعلت أضواء المصابيح العمومية، وزقزقت بعض العصافير على أشجار الطوار، دخل إلى أقرب بار على اليمين، كان فيه ازدحام كثير. أناس واقفون وآخرون جالسون، وآخرون أيضاً يذهبون ويجيئون في أيديهم كؤوس أو لا شيء، ضاع من بينهم، ولم يهتمّ به أحد. كانوا يتحدّثون ويضحكون ويتأمّلون ويتألّمون، وكانوا أيضاً. . . إلخ.

12

قالت والدة فيطونه:

- اللّيلة ستعرفين كيف أني أعطيت لولدك فتاة كلّها نقاء وطهارة.

وقالت والدة حميد:

- والليلة ستعرفين كيف أنّي أعطيتك أشدّ الرّجال فحولة.

كان حميد مع بعض أصدقائه ملفوفاً داخل جلابية، يشربون الشاي. بعضهم كانوا يُخرجون من تحت ثيابهم قنينات نبيذ مصنوعة من البلاستيك، ويصبّونها في الجوف بنهم وشراهة، يضحكون ويحلمون بمثل هذه اللّيلة، كانوا حوالي سبعة غير متزوّجين. وفي أعماقهم يتلمّظون على ذات الردفين، كانت في نفوس أغلبهم، خصوصاً الذين يشربون، غريزة خيانة متحذّرة. رغم أنّهم يضحكون، ويشدّون على كتف حميد.

- هذه ليلتك يا فحل. حمّر لنا الوجوه.

- سوف أحمّرها حتّى تنزّ دماً.

ضحك حميد. خارج القيطون الذي يشدّ في زاوية من الحوش، عند الشجرة، أصوات كثيرة تختلط. وأحياناً ترتفع النقرات على التعاريج تتبعها أغنية شعبية شاحبة. تتحدّث في الغالب عن فراق

الحبيب وهجرته إلى بلد بعيد، وعن الذين أخذوه مرغماً، مال وزير حميد على أذنه:

- متى ستدخل بها؟

- بعدما يتعشّى النّاس، عندما تخلو الدنيا من هؤلاء البشر.

- عليك أن تشرب قليلاً حتّى تتشجّع.

- أستطيع أن أشرب زجاجة بأكملها قبل الدّخلة.

أطلّت أمّه من باب القيطون بوجهها المتجعّد:

- هل تريد شيئاً؟ من يريد شاياً؟

ثم أخرجت رأسها ونادت على إحدى بنات الجيران:

- تعالي يا فرتلانة. خذي (البرّاد) واملئي الشاي. اللّه يعطيك ولد النّاس ونشطح في عرسك.

اختفت والدة حميد، ودخلت الفتاة وهي تكاد تتعثّر بخيوط الحصير المستعار من الجيران. عمّ صمت داخل القيطون، كلّهم كانوا ينظرون إليها نظرات غريبة وهي تتناول (البرّاد)، خرجت وهي تبتسم لأحدهم، قال واحد:

- إنّك محظوظ، لقد ابتسمت لك.

- اسكت، إيّاك أن يسمعك أبوها. ألا تعرف أنّه يستطيع أن يمزّق بطنك بسكين؟

- إنّها فتاة على كلّ حال، إلى متى سيحتفظ بها؟ هل سيملّحها وينشرها مثل لحم عيد الأضحى؟

وقال آخر:

- رغم شراسته، فإنّي أعرف عنها الكثير.

وبصوت جماعي:

- ماذا تعرف عنها؟ قل لنا.

- لن أقول، أنتم تتحدّثون كثيراً. وإذا بلغ أباها الخبر فإنّه سيذبحها.

قال واحد:

- يستطيع أن يفعلها، يقال إنه ذبح خمسة عشر فيتنامياً في الحرب، عندما كان مجنّداً في الجيش الفرنسي، ولعق سكين بندقيته.

وقال آخر:

- أولئك هم الرّجال، اليوم أصبحنا نخاف من شرطي يمرّ أمامنا.

- أنت الذي تخاف منه، من يستطيع أن يخشى شرطياً يداه مثل يدي امرأة؟ من المدرسة إلى الوظيفة. واللّه لو شربت زجاجة واحدة للويت عنقه ونزعت منه مسدّسه.

- إنّك مجرّد مدّعٍ لا أكثر.

عادت الفتاة من جديد، ولم تتعثّر هذه المرّة، وضعت (البرّاد) فوق الصينيّة ولم تبتسم لأحد. عمّ صمت عميق أيضاً، وعندما خرجت قال أحدهم:

- من يشرب الشاي؟ لا أحد، نحن شرابنا معنا.

وأفرغ كأساً من النبيذ للذي بجواره.

- اشرب، هذه ليلة حميد.

ارتفعت النقرات على التعاريج في الخارج. وسمعت الأقدام تدكّ الأرض، والزغاريد يغطي بعضها على بعض في غير ترتيب ولا نظام. ثمّ سمع صوت رجل يغنّي غناء مبحوحاً كعواء ذئب، يرافق غناءه صوت كمنجة متحشرج. استمرّ ذلك لوقت غير قصير. ثم يبدو أن الأجسام والأكفّ قد أنهكت في نهاية الأمر، كانت السّاعة قد

تجاوزت منتصف الليل بقليل، ثم رفعت الصينيّات ووضع الأكل، وانصرف بعض الجيران، لكنّ أصواتاً نسائية، ارتفعت بعد ذلك، وعادت النقرات على التعاريج والدفوف.

وقالت والدة حميد:

- الليلة ليلتك، سترين كيف أنّي زوّجت ابنتك برجل كالرّجال.

- اللّهم حمّر لنا وجوهنا.

لم تكن لدى حميد شهيّة، في حين أكل أصدقاؤه بنهم كبير. اكتفى فقط بلقمتين أو ثلاث أردفها ببضع كؤوس صبّها بسرعة في جوفه. استأذن بعضهم بالانصراف وهم يشجّعونه.

قال وزيره:

- لا عليكم، أنا معه. سوف تسمعون صراخها من بعيد.

وقال حميد وهو يضحك:

- لا تتكلّم عن زوجتي هكذا.

- لم تصبح زوجتك بعد، سوف تصبح زوجتك إذا ما سمعنا صراخها.

ثمّ بعد ذلك أخرجوا حميداً من القيطون، وطافوا به قليلاً في الظّلام الذي يغطّي الأكواخ القصديرية، ثم عادوا به بسرعة ودفعوه إليها. دخل معه وزيره ثم خرج. ارتفعت أصوات الفتيات بالغناء والزّغاريد. واشتدت الضربات على الدفوف والتعاريج. وكانت أمّه تطوف كالمعتوهة لا تعرف ماذا تفعل. تتحدّث إلى هذه وتعطي الأوامر لتلك في حين انتحت والدة فيطونه مكاناً قصيّاً، وجلست القرفصاء تتأمّل الأرض ولا تتحرّك كأنّها مشلولة. ثم بعد مضيّ الساعة، قالت والدة حميد:

- سوف ألتحق بولدي لأرى ماذا يفعل.

- دعيه وشأنه.

- لقد تأخّر.

- ربما يكونان قد ناما.

- هل يناماان في مثل هذه الليلة؟ وماذا نفعل نحن هنا؟ إنّنا ننتظر الدّم حتّى نريه للأعداء.

هرولت إلى حيث العروس والعريس، طرقت باب الكوخ، فتح حميد وقد تغيّر لونه تحت ضوء اللمبة.

- باسم اللّه عليك يا ولدي! إيّاك أن تقول بأنك مسحور.

- لا يا أمّي أنا لست مسحوراً، أستطيع أن أتزوج قبيلة.

- ماذا بك إذن؟

- لكنها...

- لا تقلها. أليست عذراء؟

- ليست عذراء.

صرخت والدته: «ويلي!» وأخذت تلطم فخذيها، وتنتف شعرها. كفّت التعاريج والدفوف والزّغاريد. سمعت والدة فيطونه الخبر فقفزت من مكانها كالمجنونة. أخذت تتمرّغ في التّراب: «أناري! فعلتها بنت الحرام».

اختلط الغادون والرّائحون وسط الحوش. وتزاحموا على البرّاكة التّي كانت فيها فيطونه، لم يعد أحد يستطيع أن يسمع حديث الآخر. بعد دقائق اشتبكت الأيدي، وارتفع الصراخ والعويل بين أهل فيطونه وأهل حميد. جلبت العصيّ واصطدمت الرؤوس ورفست الأقدام بعض الجثث، كانت معركة جاهلية حقيقية. انسحب حميد من كلّ ذلك، لم يتشاجر مع أحد، فتّش عن المكان الذي وضعت فيه درّاجته. جرّها من مقوديها، لم ينتبه له أحد لأنّهم كانوا مشغولين

بالضّرب والرّفس والنّطح. جرّ دراجته في الظلام، سار لا يدري إلى أين. كانت بعض الكؤوس التي شربها قد بدأ مفعولها يتبخّر، فكّر أن يسكر هذه الليلة وكلّ الليالي القادمة، تحسّس، عثر على مفتاح غرفة غنّو، تصوّر الزّجاجات المليئة، وأنصاف الزّجاجات، ثمّ ضغط على الدّواستين بقوّة لكي يسرع، سوف يشرب ويشرب، وسوف ينام نوماً عميقاً في تلك الغرفة، نومة رجل فحل.

الثعلب الذي يظهر ويختفي

1989

1

بسم اللّه الرحمَن الرحيم أبدأ كلامي فأروي لكم ما يلي:

مدينة الصويرة كالمرأة والمرأة هي القفل والمفتاح معاً، مشيت بحذرٍ وذهول داخل الأزقة الضيقة. كانت الأزقة أحياناً تتسع لشخصين فقط. وأحياناً من دون منفذ. دخلت إلى أول فندق. نمت حوالي الساعة لأنني لم أنم أمس بما فيه الكفاية. قبل لحظة فوجئت لغرابة سلوك فتاة رجولية. شاب أخطئ تكوينه، لكن صوته صوت أنثى. عندما وقفت أمام المستخدم. تأملتني بسرعة وقالت:

- دعه يشاركني الغرفة. إن عندي سريراً إضافياً.

- هذا شيء ممنوع.

- لماذا تفعلون ذلك مع الهيبيين؟

- أنت مُسلمة. المعلم لا يهمه سوى الفلوس نامي مع من تشائين. لكن الشرطة تدس أنفها في كل شيء.

قالت الفتاة:

- سوف أجيء عندك إلى الغرفة في الليل. اختر له غرفة قرب غرفتي.

- أنت تريدين أن تخلقي لي المشاكل مع المعلم. سوف أُلقي بثيابك إلى الخارج.

- هل تستطيع ذلك؟ إني زمورية وأجرك على اللّه.

سكت المستخدم وناولني المفتاح. صعدَت معي الدرج وصعد مستخدم آخر. أخذت تجيل النظر في الغرفة.

- أنتم تريدون أن تقتلوه. النافذة من دون زجاج.

قال المستخدم:

- قوليها للمعلم عندما يأتي في المساء. ثم إن الفنادق كثيرة في الصويرة. هل وضعنا له ربقة في عنقه؟

انسحب المستخدم، وجلست هي إلى جانبي في السرير. أخرجت علبة سجائر من بين نهديها. ناولتني واحدة ثم انصرفت. نمتُ بعد ذلك حوالي الساعة. شعرت عندما استيقظت براحة فائقة. كان هناك صمت وهدوء تامان، صمت مثل صمت القبور. لا أصوات محركات ولا أصوات آدمية. كل شيء هادئ. ريح خفيفة تهبُّ من مربع الزجاج المكسور عندما وقفت وحاولت أن أطل من وراء النافذة، لم يكن هناك سوى ساحة صغيرة تراكمت عليها أزبال أو أشياء تشبهها. كانت هناك أيضاً نوافذ مغلقة، والمفتوحة منها كانت عليها ستائر. إذن لا شيء. إزار ونوافذ مغلقة على نساء ربما. قِيل لي قبل أن أزور المدينة أنهن - أي النساء - يختفين وراء الجدران والثياب، ولكنهن يفعلن في الفراش ما لا تستطيع زوجة الشيطان أن تفعله. شيء جميل ورائع أن يعيش الإنسان ازدواجية من هذا النوع. كل حياة الإنسان ازدواجية، والذي لا يعيشها هو الأحمق. مأساة تتكرر باستمرار. ولماذا لا أقول ملهاة. وطبيعة الحياة مأساة وملهاة في الوقت نفسه. إنها ازدواجية إذن. شممت الهواء النقي القادم من جهة البحر. السماء من وراء النافذة تبدو زرقاء صافية وشاسعة. البنايات القصيرة لا تحجبها عن عيني. سماء رحبة تدعو إلى التلاشي فيها لتحليق داخلها مثلما تفعل تلك السحُب الصغيرة البيضاء. ومرة أخرى، لا شيء إذن، أو هو كل شيء.

سماء وأزبال ونوافذ مغلقة. عدت من النافذة ودليتُ رأسي تحت الصنبور. كان الماء بارداً منعشاً. عندما جفّفت شعر رأسي أخرجت من الجرب النقود التي كنت قد حشوتها في مكان ما منه. فتحت حزامي ودسست بعض الورقات المالية في جيب المايوه، بينما وضعت الباقي في جيب السروال. إنه الجوع! منذ أمس لم آكل، وعندما توقفت سيارة النقل مراراً ونزل الناس ليشتروا لحماً وخبزاً، لم أتشجع لأن أفعل مثلهم، خفت أن يكون اللحم لحم نعجة عجوز فأصاب بإسهال طوال يومين أو ثلاثة. حصل لي هذا مِراراً. وحصل هذا أيضاً للناس مِراراً. أغلقت الباب ونزلت الدرج. وجدتها جالسة قبالة المستخدم وهي تضع رأسها بين كفيها. عندما رأتني قفزت من مكانها:

- هل نمت جيّداً؟

كان المستخدم ينظر إليها بطرف عينه وهو يتسلم المفتاح مني. قلت لها:

- نعم. نمت جيداً. كان هناك هدوء تام. حلمت أحلاماً لم أتذكرها.

- أنا أيضاً أحلم كثيراً في هذا الفندق. لا يحصل لي هذا عادة.

- من أي مدينة أنت؟

- أنا أشتغل أستاذة للرياضة في إحدى الثانويات في الدار البيضاء. وأنت؟ يبدو أنك فنان. هل ترسم؟ هل تمثل؟

- لا هذا ولا ذاك. أنا أيضاً مدرس.

- غريب. شكلك لا يوحي بذلك. ولماذا تترك شعرك طويلاً بهذا الشكل؟

- آه. . . تلك مسألة أخرى. كثير من الناس يتركون شعورهم

تطول. هذا غير مهم. هل تعرفين مكاناً آكل فيه؟ إني جائع. منذ أمس لم آكل شيئاً.

- يبدو عليك أنك لا تأكل جيداً. أنت هزيل. الطعام مهم بالنسبة إلى الجسد. يجب أن تأكل خصوصاً إذا كنت تتعاطى الحشيش. هل تتحشش؟

- نعم أحياناً. لكن لست مدمناً.

- وإذن فعليك أن تأكل جيداً.

كان بضعة أشخاص جالسين في البهو. رجل بجلابته فضَّل أن يجلس على إحدى الدرجات وقد حسر جلابته حتى الركبتين، وظهرت ساقاه المشعتان، في حين انحسر سرواله البلدي، وكوَّن بالوناً بين فخذيه. كان ينظر فيما حوله ببلادة تامة، توحي بها نظراته العديمة التركيز، التي تنتقل من هنا إلى هناك من الكرسي إلى البشر إلى السقف، وكأنما يدخل فندقاً لأول مرة. وعندما غادرنا الفندق كانت الفتاة تنظر بنوع من التحدي للمستخدم، لم يعرها أدنى اهتمام وقالت الفتاة:

- ماذا تريد أن تأكل؟ هناك مطاعم كثيرة. السردين المشوي، السندويشات.

- أريد صحناً من السقط. أو من قوائم البقر.

- ره. هناك مطاعم شعبية كثيرة. لكنها بعيدة قليلاً.

اخترقنا العديد من الأزقة الضيقة، التي كان يتجوّل فيها هيبيون وهيبيات. بعضهم كان يجلس أرضاً أو في إحدى الزوايا. وبعضهم كان يأكل بنهم أمام تلك الدكاكين الصغيرة سندويشات لا أدري مما تتكون. وقالت الفتاة:

- اسمي فاطمة... فاطمة الحجوجي. ما رأيك في هذا الاسم؟

- اسم رائع.

- لكنه اسم عادي. لا يشبه الأسماء التي توجد في الأفلام والمسلسلات التلفزيونية وأنت؟ ما اسمك؟

- علي. وأعتقد أن البقية لا تهمك.

آه. صحيح. غير مهم. الأسماء غير مهمة. إلا أنها تميز. أنواع البطاطس مثلاً. أنواع الطماطم. أنواع البطيخ. الناس مثل البطاطس والطماطم والبطيخ. يجب أن نطلق عليهم أسماء لكي نميزهم عن بعضهم. ومع ذلك فالأمر ليس بذي أهمية. ها قد وصلنا. تلك الأقواس هناك. كلها مطاعم مختصة في بيع وجبات السقط وقوائم البقر والغنم والرؤوس المبخَّرة على الطريقة الصويرية، إنهم يهيئون كذلك طواجين بطريقتهم الخاصة. لا تشبه الطريقة التي تهيئ بها الطواجين.

كان الوقت حوالي الساعة السادسة بعد الظهر. والشمس تميل نحو الغرب. لكن النهار لا يزال واضحاً. والناس لا يبدو عليهم إطلاقاً الإنهاك اليومي. كانت المطاعم متجاوزة. ليست مطاعم بمعنى الكلمة ولكنها أبواب كبيرة مفتوحة على ثلاثة جدران وسقف. تجولنا حواليها، ودخلنا من بعض الأزقة التي تدور حول نفسها مثل متاهة، في جدرانها كوات، تعرض بشراً وطواجين وخبزاً وكفتة من لحم الجمل. قالت فاطمة:

- أنا أعرفهم جيداً، إنهم قذرون ويغشون. لقد أصبت مرة بمرض في معدتي ألزمني الفراش أسبوعاً ظللت أتقيأ من فوق ومن تحت. ربما لا تعرف شيئاً عن نوع هذه المأكولات.

ومع ذلك كان الناس يلتهمون، وكان الهيبيون أيضاً يأكلون بأظافرهم وأنوفهم وأحناكهم وشعورهم... قلتُ لفاطمة:

- انظري الناس يأكلون. لا يهمهم كل ما تقولينه.

- لديهم مناعة. أنا لست مثلهم. إذا كنت تريد أن تأكل أي شيء فكُلْ. لا أحد يمنعك. أردتُ أن أدلك على طعام لا يضرك.

وهي تقول ذلك، توقفت أمام مطعم، كان فيه ثلاثة من البدو، رجل في زاوية، وجهه إلى الحائط وهو يلتهم شيئاً. بينما الاثنان الآخران كانا يأكلان من إناء واحد فوق الحصير. دخلنا إلى المطعم، بعد أن ألقت نظرة على الصحن الكبيرة المعروف في الباب، والمعرض للغبار. قالت: «إن صاحب المطعم معلم ويُتقن مهنته لا تخف من طعامه. رجل نظيف، يغسل يديه كل مرة ولا يكاد يفارق الصنبور»، جلسنا على الحصير. نظر إلينا البدويان بحذر وخوف، ثم استأنفا تناول ما بين أيديهما. وكان أحدهما يدخل أصابع يده اليمنى في فمه كاملة، وعندما يخرجها تحدث صوتاً بشعاً. قال المعلم صاحب المطعم:

- واحداً أم اثنين؟

أجابت فاطمة:

- واحداً من تحت.

- المحل محلك. أنت تعرفين كل شيء. منذ مدة لم تأتني بهيبيين. هل غضبت مني؟

- لم أغضب منك. حاشا. إنهم يفضلون أن يأكلوا شيئاً آخر، أو ليست معهم فلوس. أنت تعرف أنهم يقضون هنا أياماً قليلة ثم يسافرون.

- أعرف. لكن بعضهم يعود مرة أو مرّتين في السنة.

الحصير باهت اللون، بعض الأماكن منه فيها مزق. الأواني عند الباب، وفي إحدى الزوايا كرتونة كبيرة كوِّمت فيها أشياء،

وحولها شيء يشبه المعطف أو اللحاف. لا شك أن المعلم ينام هنا، وإذا لم يكن هو، فهناك شخص أو أشخاص آخرون. ذهبت لأغسل يدي. كل شيء قذر. صببت الماء ومسحت يدي في بنطلوني لأن الفوطة المعلقة لم تغسل منذ أيام ربما. كانت تنبعث منها رائحة وعلقت بها ألوان كثيرة ومختلفة، من السواد إلى الصفرة، إلى ألوان أخرى لا إسم لها.

جاء المعلم ووضع الصحن أمام فاطمة بعد أن فرش تحته جريدة. قال وهو يمسح يده في خرقة الثوب التي كان يحيط بها نصفه الأسفل:

- بالصحة والراحة. إنه عجل صغير.

التهمت الصحن كله، ولم تذق منه فاطمة سوى قطعة صغيرة، وظلت تدخن، وتطفئ سجائرها على التوالي بجوانب الصحن الذي آكل منه، ثم تضع الأعقاب وتكوِّمها على الجريدة. عندما انتهيت، قامت هي بتكميش الجريدة والأعقاب ووضعتها في الصحن.

قال المعلم:

- لماذا لا تزورينا؟ تعالي حتى لو لم يكن معك فلوس. نحن مسلمون، والمسلم هو الذي يأخذ بيد أخيه المسلم.

- إن شاء اللّه. أنا لا أحب دائماً أكل قوائم البقر.

قال وهو يضحك.

- لأنك لست جائعة. هناك بعض الحمالين يأتون منذ سنوات إلى هنا، يأكلون هذا الطعام في الغذاء والعشاء. وإذا رأيتهم فهم أقوياء مثل البغال. إذا جئت دائماً إلى هنا فإنك لن تزوري الطبيب أبداً. إنهم يأكلون هذا ويدخنون الحشيش بكثرة، ومع ذلك فهم أقوياء. شيء واحد يهددهم هو السل. إن ذلك يفعله الكيف. أنا أيضاً أدخن. لكنهم يدخنونه بكثرة.

ناولَته سيجارة أميركية. أخذها منها مسروراً ووضعها عند أذنه. دفعت له الدرهم. وغادرنا المحل. عبرنا ساحة كبيرة واسعة كان فيها أناس أمام أكوام من القمح والشعير والذرة وحبوب وقَطَاني أخرى. بعضهم يكيل، والبعض الآخر يتشمس في الغروب آخر أشعة الشمس، والبعض الآخر ألقى الباش فوق سلعته ونام قربها. الناس يعبرون في كل الاتجاهات، والمشترون قليلون جداً. قالت فاطمة وهي تشير إلى أكوام الحبوب:

- المغرب بخير. الزرع في كل مكان. ووجبة الطعام بدرهم واحد. أليس كذلك؟

- نعم نعم.

- لا أحد يمكنه أن يموت جوعاً. السجائر المهرَّبة متوفرة، والحشيش في كل مكان.

- نعم نعم.

- الحياة جميلة جداً.

- نعم. أعرف.

- لماذا تقول دائماً نعم؟

- لأن ما تقولينه صحيح.

- آه. خفت أن تكون تسخر مني.

- حاشا. ليس من عادتي أن أسخر من أحد. الحياة جميلة، وحتى لو أكلنا قبل قليل على حصير مثقوب.

- ماذا تقول؟

لا شيء، لا شيء...

اجتزنا الساحة، وخرجنا من قوس أدّى بنا جهة البحر. ولاحظت أن النساء كاللقالق على السور، وذاهبات في كل اتجاه.

عدد الرجال كان قليلاً، يمكن أن تكون هذه هي طريقة استقبال المساء في المدينة. نساء قرب البحر ورجال في أماكن معيّنة. أحسست أن فاطمة تدخل ذراعها تحت ذراعي. استسلمت لذلك ونحن نسير وسط هذا الزحام قرب البحر. لا شك أن آخرين يفعلون مثلنا وسط هذا الزحام. كل شيء ممكن إذن.

طلبت شاياً أسود وانحشرت وسط مجموعة من الهيبيين على مقعد طويل، بعضهم فضَّل أن يجلس على الأرض، وبعضهم تمدد فوق الحصير عند الجدران وكانت بعض الأبواب مفتوحة وتطلُّ على باحة المقهى. أبواب الغرف كانت مكاتب محكمة قبل أن تتحول إلى مقهى وفندق. بعض الهيبيين والهيبيات يطلون أيضاً من الطابق العلوي. موسيقى البوب تنبعث متحشرجة وزاعقة أيضاً. قالت الفتاة التي بجانبي:

- هل تسمح؟

- تفضلي.

قلت ذلك ولم أدرِ ما الذي كانت تريده. وافقت فقط. هذا عالم لا أعرفه، ربما كان مخالفاً تماماً لعالم طنجة أو مراكش. امتدت يد الفتاة التي كانت تعلِّق الوَدَع على شعرها وتحيط ذراعها بجلد ثعبان إلى كأس الشاي، ورشفت منه. لم تكن تشعر بأية عقدة. بعد ذلك رأيت أنهم يفعلون ذلك هنا حتى من دون استئذان. أخذنا نتعاقب على ارتشاف الكأس. ناولته لفتاة كانت تجلس على الأرض على بعد عدة أقدام منها. لكن الفتاة رفضت وقالت:

- شكراً. أريد أن أشرب طونيك.

أعادت كأس الشاي إلى الطاولة ودفعته جهتي، ثم قالت:

- هل أنت مسافر أم مقيم؟
- إنني لم أصل إلا أمس.
- الجنوب رائع. لقد زرنا تارودانت وطانطان، إنهما مدينتان جميلتان كل شيء هناك أصيل. كنا نفضِّل الذهاب إلى الأسواق.

كانت الموسيقى لا تزال تنبعث متحشرجة، والذكور والإناث يدخلون ويخرجون منتعلين أو حُفاة. وقف شاب طويل القامة أمامنا. شعره منسدل تحت كتفيه. كان له أنف سيرانو. أفردت له الفتاة مكاناً بالقرب منها. وقدمته لي:

- مكسيم. خطيبي.

لم أثر انتباهه كثيراً ولكنه طلب زجاجة سيفن آب. العرق يتصبب من جبينه، مدّ له الشخص الذي كان بجانبه شيلوماً محشواً بالكيب. كوَّر كفيه ودخن وهو ينظر إلى الأعلى. أعاد الشيلوم إلى نفس الشخص لكنه اقترح عليه أن يمرره إلى خطيبته. تناولته ولم تدخن... قدمته لي. كوَّرتُ كفي وفعلت مثل مكسيم. كان الشيلوم مصنوعاً من قرن ماعز. وقد تدلى منه خيطان أحمر وأخضر. أحسست أن كمية المخدر التي دخنت تتجول مباشرة في رئتي. أعدت للفتاة الشيلوم وشربت جرعة من كأس الشاي الذي برد تماماً الآن. كان شاياً أسود بالنعناع تكوَّن في قعر الكأس. النعناع يملأ نصف الكأس تقريباً. وعندما أعادت الفتاة الشيلوم إلى خطيبها التفتت إليّ:

- أنا لا أحبّ أن أُدخن. لقد جربت ذلك لكنه لم يعجبني.
- التجربة أساسية. وهي تولد العادة.
- ماذا تقول؟ لا أفهم. مكسيم استمع إليه. إنه يقول كلاماً لا أفهمه.

انتبه مكسيم إلينا بعد أن ردّ الشيلوم إلى الطرف الآخر:

- آه. ماذا تقولان؟

- إنني لا أفهمه.

- قلت إن العادة قبيحة. يتعود المرء شيئاً ثم يصبح أسيراً له. بمعنى أنه لا يمكن له الفكاك منه. عادات مثل حب الوطن، الجنس، التدخين.

كان مكسيم ينظر إلينا بذهول، وتحت تأثير الكيف لم يكن يتحدث. ولكنه كان يستمع إليّ. هذرت الفتاة قائلة:

- لا أفهم ما يقول. لكن يبدو أنه يتحدث في شيء مثل الفلسفة. قال مكسيم:

- دعيه يتحدث. أشياء جميلة وغريبة لا يتحدث فيها كل الناس. آه. استمر في حديثك عن العادة. نحن جميعاً نتعود أي شيء. صحيح ما تقوله. وربما تعودنا حتى على طريقتك في الحديث. أليس كذلك يا... ما اسمك؟ آه. علي. كلكم تُسمون عليّاً هنا. أنا أعمل مصوراً لإحدى الصحف. وأنت، ماذا تفعل؟

- مدرس.

- مهنة ممتازة. هل تتقاضى راتباً مناسباً؟

- ليس تماماً.

- مؤسف حقاً. يجب الاعتناء بالمدرسين والأساتذة. أعرف أساتذة في فرنسا يعيشون أوضاعاً مثل التي تحدثت عنها. أحمد اللّه لأنني لم أصبح أستاذاً مثلك. وهذه المعزى أيضاً تشتغل بالتدريس. أبوها بقّال، أصله من جبال البرانس.

قلت لمكسيم:

- اسمح لي أريد أن أطلب كأساً أخرى من الشاي.

أشرت للجرسون، فتأخر في المجيء. جاءت فتاة حافية ترتدي ثوباً مغربياً رخيصاً وقذراً. لكن ساقيها كانتا تلمعان تحت وهج ضوء

النهار، نظيفتين ومكتنزتين. وقالت للشاب الذي دار دورتين حول نفسه:

- يمكن أن تجلس.

- شكراً.

جلسا على البلاط، وأخذ الشاب يفتش عن شيء في جرابه. رأيت فاطمة تدخل، تذكرت:

مزقوا جيب فتاتهم لم يبالوا حرمة الرجلة

كان النهدان مختفيين تقريباً. الصدر شبه أملط. إنها رجل، رجلة. عيناها تتيهان في كل مكان. رأتني وجاءت لتحشر نفسها إلى جانبي.

- أنت هنا.

- نعم.

- بحثت عنك كثيراً. وسألت عنك في الفندق.

- الفندق للنوم فقط. رائع أن يكتشف الإنسان عوالم أخرى. هذا مكسيم وبريجيت.

أخذ مكسيم ينظر إليها وعيناه مثقلتان بالحشيش. كان يتأملها بنظرات ثاقبة. تناول شيلوماً آخر ودسّه تحت أنفه الطويل. انتقل الشيلوم على الفور إلى فاطمة. بعد ذلك قالت:

- حشيش رائع.

لم تكن تبدو مرتبكة، بل لم تكن من هذا العالم... كان عندي شعور بأنها لا تحس بالعالم حولها. وقفت وذهبت لتسلم على شخص ذي شعر طويل ربطه من الخلف بشريط أصفر فاقع. عادت لتقول:

- إنه إيطالي. مسكين. سرقوه، وهو ينوي إتمام رحلته إلى

مجاهل إفريقيا، يقول إنه ليس معه فلوس، ولكنه مصرّ على هذه الرحلة.

- كذاب.

- لا تقل هذا. كلهم هكذا. ليس معهم سنتيم واحد، ولكنهم يسافرون ولا أدري كيف، بعد شهر أو شهرين يبعثون لك بكارت بوسطال من مكان ما من العالم.

- أعرف. لكن ليس من غابات إفريقيا.

- آه. هذا شيء آخر.

كان الجرسون ذو العضلات القوية يمسك الآن بشاب نحيف. يشتمه بالإنكليزية. الفيل والنملة. الثور والذبابة. لكن هذه المرة لم تستطع الذبابة أن تهزم الثور، تحلّق حولهما أربعة أو خمسة أشخاص، في حين كان الباقون في أماكنهم ينظرون ببرود لما يجري. عندما دفع أحد الأشخاص ثمن ما شربت النملة، قال الفيل بالعربية، وهو يوجه حديثه إلى العجوز صاحب المقهى بصوت مرتفع:

- إنه دائماً يفعل ذلك. يشرب ويهرب. دعني أكسر عظامه. أنا أعرف الهيبيين كثيراً. أشار العجوز بيده وتمتم بهدوء ووقار.

قالت فاطمة:

- لقد سمعت أن هذا العجوز كان عطاراً. ولقد أصبح الآن غنياً في مدينة الصويرة، بعد أن حول هذه البناية إلى مقهى وفندق.

- بينه وبين القبر شبر.

- ومع ذلك فهو لا يرحم. قِيل إنه تزوج فتاة عمرها ست عشرة سنة، جلبوها له من شيشاوة.

- هذا أمر لا يفاجئني.

- أتمنى لو كنت زوجته. لعرفت كيف أسحق إليتيْه...

- أنت مدرِّسة ولا يصلح لك مثل ذلك الشبح.

- كلنا سوف نصبح أشباحاً. أنت شبح، وهذه شبح وهذا وذاك وتلك...

كانت تشير بأصابعها منفعلة. قال مكسيم:

- ماذا تقول؟

- Nous sommes des spectres

- Elle a raison

وقلت هذا أحمق مثلي ومثلها. ظلَّ ذلك الشاب يرتعد خوفاً من الفيل. ثم بعد ذلك غادر المقهى، وكانت الموسيقى دائماً زاعقة ومتحشرجة، والحُفاة والمتعلون يدخلون ويخرجون.

3

في ذلك المساء. تصورت أن العالم مقبرة متحركة. كان الناس في الشارع الضيق يدبّون كالدود فوق جثة كبيرة عفنة هي الأرض. يتحدثون، يعبسون ويضحكون. وطبعاً كان هناك منهم من يكيد للآخر. في مكان آخر من هذه الأرض، وفي شارع آخر، هناك بالتأكيد رجال يقتلون بعضهم، وآخرون يبتزون ضعافاً بالقوة أو بالحيلة. اللعبة التي تتكرر عبر العصور، والتي تأخذ طابع الجديّة. وما أصعب أن يكتب المرء بضمير المتكلم، لأن في ذلك رعباً للذات ورعباً للقارئ الذي يظل يبحث عن شيء في العديد من الكتب دون أن يعثر عليه طوال حياته حتى يزور المقابر، بعد أن ألهاهُ التكاثر. عوداً على بدء:

توقفت فاطمة التي كانت تتحدث إلى مكسيم وصديقته وهم يبتعدون مني بمسافة أربعة أشخاص.

- فيم تفكر؟ لماذا لا تشاركنا الحديث؟

- كنت أفكر في أشياء كثيرة.

- فلنتحدث فيها جميعاً. ربما كانت مشاكل نحلها جميعاً.

- إنها ليست مشاكل جماعية حتى نحلها جميعاً.

- لا أفهمك. ولكن لا بأس، إنهما يقترحان أن نأخذ زجاجتي

نبيذ وأن نذهب معهما إلى غرفتهما في الفندق. وأنا اقترحت أن نشتري أولاً سرديناً مشوياً.

- كما تشائين. يبدو أن مكسيم رجل ذكي.

- هذا مما لا شك فيه.

مشينا عبر الدروب الضيقة. الازدحام كثيف. نساء كثيرات ملفوفات في أثواب بيض ولا تظهر منهن سوى الأذرع البضة والعيون المكحَّلة وهناك من يرتدين لباساً أوروبياً. لكنهن في الغالب مراهقات وتلميذات. قالت فاطمة إنها تعرف يهودياً واحداً يبيع الخمر في المدينة. وكانت الخمور يسمح بيعها في ثلاثة بارات وفندق، لكن الحوانيت التي كانت تبيعها في السابق أُغلقت بأمر من السلطة المحلية. أو سحبت منها رخص بيع الخمور.

وأضافت:

- إن كل هؤلاء النساء الملفوفات في الأثواب زانيات. كل نساء الصويرة زانيات مثل خنيفرة.

- ماذا تقولين؟

- كما تسمع.

- لا أسمع شيئاً. لا تقولي هذا لمكسيم حتى لا يضحك منا.

- ولماذا لا أقول له ذلك؟ فالتي ترقص لا تغطي وجهها.

غير أنها لم تقل له. وكانت تضرب بعض أحجار الطريق، تقذفها من دون عنف. نادت عليهما وقالت «مِن هناك» ثم كنا أمام دكان وَطيء. بابه بني اللون ملتصق بالجدار الأبيض الحديث الطلاء. قالت لمكسيم مرة أخرى:

- اذهب وحدك. إنه لا يبيع للمسلمين. إذا رآنا معك فلن يبيعك خمراً. يبيع فقط للأجانب ولرجال الشرطة.

- بلد غريب. أنا لا أفهم شيئاً. رأيت المسلمين يشربون في البارات. ما الفرق بين البار والبقال؟

- أوه لا تحاول أن تفهم إذا كنت تريد أن تشرب.

- مجرد سؤال. أنا لا أتحدث السياسة. أعرف أنه ممنوع عليكم الحديث في السياسة. ولكني أتحدث في أمور عادية مثل الأكل والشرب والنوم. حتى هذا لا يمكن أن تتحدثوا فيه.

قالت فاطمة:

- هنا، يجب أن تأكل وتشرب وتسكت. . . أقصد أن تشرب ماء لا خمراً.

- أنت لا تفهم شيئاً. الخمرة ممنوعة على المسلمين.

- ولكنكم تشربونها. ورأيت ذلك بنفسي في كل المدن المغربية.

- سوف أشرح لك ذلك فيما بعد.

قلت وأنا أشعل سيجارة:

- اشترِ ثلاث زجاجات أو أربعاً. سوف تفهم كل شيء فيما بعد.

- الحشيش ممنوع عندنا وأنتم تتناولونه بكل حرية في الأزقة والشوارع والمقاهي، ما الفرق إذن؟ الحشيش أخطر من الخمر.

- سوف تفهم. إني أحس برغبة في الشرب. يمكن أن تذهب الآن إلى اليهودي.

- سوف أذهب عند اليهودي. أعرف أن اليهود يدسون أنفسهم في كل شيء، حتى في ثلوج القطب الشمالي. إنني من عائلة يهودية تنصّرت منذ قرن. ذهب مكسيم واختفى في ظلام الحانوت. قالت بريجيت:

- إنه يحب الشراب. لكنه لم يشرب كثيراً في المغرب. لو رأيتما كيف أنه يعبّ الخمر عبّاً عندما نكون هناك.

- في فرنسا؟

- إي نعم. في فرنسا. إنه يحب البوردلي، يشبه في ذلك والدي إلا أن والدي كان يبالغ كثيراً. فهو يشرب بسرعة ليسكر بسرعة...

كانت الشوايات مصطفة فوق رصيف الميناء، وإزاءها مقاعدة طويلة جلس عليها مغاربة وهيبيون أجانب يتحدثون لغات مختلفة ويلتهمون السردين الساخن بعد أن يعصروا فوقه قطع الليمون. منهم من فضَّل الجلوس على الأرض قرب بركة مائية تفوح منها رائحة السردين وتطير حولها ذبابات ذات طنين رتيب. كان مكسيم يتأبط كيساً بلاستيكياً وهو شارد وراءنا، لم يكن يبدو عليه عياء أو شيء آخر. قالت فاطمة:

- إن الناس يفضلون أكل السردين ساخناً، من النار للبطن. من البحر إلى النار إلى البطن. عندما يبرد يفقد شيئاً من مذاقه.

قالت بريجيت:

- نأكل قليلاً. ونأخذ معنا الباقي إلى الفندق.

- فكرة جيدة.

قررت ذلك الفتاتان. ولم يكن أمامنا نحن الرجلين سوى الإذعان. كانت الشباك هناك على بعد أمتار مبسوطة فوق الرصيف، وكانت المراكب وكان البحر وكانت الجزيرة وكان الأفق، وكان عالم آخر وراء الأفق، أميركا. ربما كان أيضاً هناك أناس آخرون على الشاطئ المقابل من الشرق الأميركي يتناولون أيضاً سردينا، ويفكرون فينا في اللحظة نفسها. يفكرون أن العالم ضيق وأن ما يفصلنا عنهم سوى مجرى مائي. كانت الأسماك تلمع تحت أشعة

الشمس وهي تفرَّغ في الصناديق أمامنا. أما فواكه البحر الأخرى المشهية فكانت تُجمع بعناية مثل سرطان البحر والجمبري والمحار. وكان الناس مجتمعين حول الرصيف واقفين أو جالسين ينظرون إلى عملية نقل الأسماك من المراكب، أو ربما يتاجرون لا أدري. رائحة السردين المشوي تنبعث من كل مكان، والناس يلتهمونه بنهم ولذة. الهيبيون لم يكونوا يفضلون أكله بالخبز. الشواؤون يعرفون ذلك جيداً، ولذلك فحصصهم من الخبز كانت تحوَّل إلى المغاربة.

أكلنا وأخذنا معنا سردينا، وعلى الرغم من أن فاطمة كانت تنصحني بعدم تناول الفلفل، فقد أكلت واحدة ولا أزال أتصبب إلى حدِّ الآن عرقاً. شعرت هي بذلك وقالت:

- ألم أقل لك؟ إنك تخرب معدتك وصحتك.

- لكنه يفتح الشهية.

- خير لك أن تأكل في الوقت الذي تشعر فيه بالجوع.

- في المرة القادمة سوف أفعل ذلك.

- هل تمزح؟

- لا واللّه. الإنسان لا يمكنه أن يمزح مع مثيلاتك.

- وما الفرق؟

- أنت تعرفينه.

وقال مكسيم وهو يضحك:

- هل تتشاجران؟

- لا. إنها تعطيني محاضرة عن الفلفل.

- آه. جميل. النساء يمكنهم أن يحاضرن في كل شيء حتى عن الفلفل. هذه المعزى التي خلفنا هي الأخرى تعطيني محاضرات أحياناً على الرغم من أنها لا تتقن الحديث. ولكن عندما يأتي وقت المحاضرة ينطلق لسانها، غير أني لست طالباً أو مستمعاً جيداً.

سمعته يتحدث عنها بصوت مرتفع وهي على بعد كعب منه، ولكنها لم تقل شيئاً. لأن وقت محاضرتها لم يحن بعد. وكفّت الأخرى عن الحديث عن أضرار الفلفل. ومشينا في دروب ضيقة كثيرة مثل متاهة. بعدها وصلنا إلى فندق «الراحة» الذي كان يقيم فيه مكسيم وبريجيت. . كان المستخدم يغفو خلف الفاصل الخشبي وخلفه سبورة المفاتيح. استيقظ من غفوته وقال لمكسيم وهو يتثاءب:

- ممنوع.

- ماذا؟

أشار المستخدم إلى فاطمة:

- هذه. لا يمكنها أن تدخل مع الذكور إلى غرف الفندق.

قالت فاطمة بالعربية:

- ماذا تقول أيها القواد؟

اضطرب المستخدم. ولا شك أنه لم يكن ينتظر مثل هذا ردّ الفعل.

ثم استعاد ثقته بنفسه، وتوجه إليها بلين:

- حرام أن تقولي مثل هذا الكلام. يبدو أنك بنت أصل. وأنا أطبق تعليمات صاحب الفندق فقط.

ثم تطاول بعنقه لينظر إلى الكيس البلاستيكي الموضوع أمامه على الفاصل الخشبي:

- أعطوني زجاجة ولا عين رأت ولا أذن سمعت.

قالت فاطمة:

- واللّه، لا ذقته.

- قال مكسيم:

- ما الذي يجري؟

- إنه يريد زجاجة.

- بسيطة.

ابتسم المستخدم، في حين أخرج مكسيم زجاجة نبيذ وناوله إياها. انكمش المستخدم على نفسه. ضمّ الزجاجة إلى صدره ثم عاد إلى جلسته الأولى فرحاً مثل طفل. لم يعد يحتج ولم يعد يطبّق تعليمات صاحب الفندق ولم يعد يخشى رجال الشرطة. لا عين رأت ولا أذن سمعت. ثم صعدنا الدرجات باتجاه الغرفة. جرّت بريجيت الستارة القديمة الحمراء. وضع مكسيم الزجاجات على الطاولة الصغيرة التي يوجد بمحاذاتها كرسيّ عتيق وحوض ماء وصنبور وقطعة من مرآة ملتصقة بالجدار.

قال مكسيم:

- يجب أن نأخذ راحتنا. تعال معي يا علي، فلنضع هذه الحشية أرضاً.

قفزت فاطمة:

- دعه. لا أعتقد أنه يستطيع أن يحمل هذه الحشية معك.

أمسكَت بزاويتي الحشية، وأمسك مكسيم بالطرفين الآخرين. أمسكت أنا من الوسط، ثم وضعنا الحشية على الأرض. كانت بريجيت تنظر إلى كل ذلك باندهاش وخوف من شيء ما. تربعنا ثلاثتنا فوق الحشية، في حين فضلت بريجيت أن تجلس على الكرسي. وضعت فاطمة السردينات المشوية الملوية في جريدة على الأرض وناولت بريجيت الكأس الوحيدة التي كانت موضوعة على الحوض تحت قطعة المرآة وهي تقول:

- أنا لا أريد أن أشرب سوى كأس واحدة. أفضل أن أدخن إذا كان مع فاطمة قليل من الحشيش.

قالت فاطمة:

- معي قطعة صغيرة تحشش قبيلة. لكن تعالي لتجلسي معنا. لا تبقي معلقة هناك مثل اللقلاق.

- أفضل أن أبقى جالسة الآن هنا.

- كما تشائين.

أزال مكسيم سدادة الزجاجة بأظافره وصبّ لنفسه جرعة. قال هو يتلمظ:

- إنه جيد.

- لكنه من النوع العادي.

- لكنه مع ذلك.

أخرجت فاطمة قطعة الحشيش الملفوفة في ورقة. فتحت الورقة وأخذت تحرق أطراف قطعة الحشيس. مارست طقسها بالكامل وأخذت تتبادل التدخين مع بريجيت ومكسيم. فضلت أنا ألا أُدخن.

وقال مكسيم:

- لماذا لا تدخن؟

- إنه لا يوافقني مع الشراب. ربما تقيأت وأصبت بوجع في الرأس.

- أنت تعرف نفسك.

كيف أعرف نفسي؟ من منا يعرف نفسه حقاً؟ كثيراً ما كنت أتوهم أنني أعرف نفسي. أعرف بعض العادات والأهواء المزمنة المستحكمة فيّ. لكن سرعان ما تتوالد تلك الأشياء في داخلي، وتنتج عنها عادات أخرى وأهواء أخرى أتعجب من صدورها مني كما لو كانت تصدر من شخص آخر.

- أعرف نفسي! إنها نكتة.

قال مكسيم وهو يمدّ لي الكأس:

- ماذا تقول؟

- لا شيء. قلت فقط إنني أعرف نفسي حقاً.
- رائع أن يعرف الإنسان نفسه.
- لا تلقِ بنفسك أبداً إلى ما يسوؤك.

وقفت بريجيت وذهبت تبحث في جراب مُلقى في الزاوية عن ترانزستور. شغّلته فأحدث حشرجة، ثم انبعثت منه موسيقى. عالجت الزر فارتفعت الموسيقى، طلب منها مكسيم أن تخفض الصوت ففعلت على الفور.

وقال لها:

- أنت دائماً تتصرفين مثل صبية يا عنزة السيد سيغان. لا أعرف ماذا تفعلين مع تلاميذك في الفصل.

نظرت إليه بخوف. وظهر نوع من الألم على ملامح وجهها. رأيت بعض الدموع تترقرق في عينيها.

- أنت دائماً تظلمني يا مكسيم. ماذا أفعل لك؟
- إنك مثل عجينة. كوني مثل فاطمة. دخّني حشيشاً واسكتي.

عندما وضعت الترانزستور على الطاولة، جاءت وقبّلته. جلست بالقرب منه وشعر هو بنوع من الحرج ربما. لا أدري. ذلك ما فكرت فيه. فاطمة لم تكن تنتبه إلى ما يدور حولها، بل كانت تستمتع بتدخين الحشيس. اتكأت بمرفقيها على الحشية بعد أن ناولت السيجارة المحشوة لبريجيت، ثم مدت ساقيها فوق البلاط وأخذت تتأمل السقف وهي تُحرك جزءاً من جسدها على إيقاع الموسيقى. وعندما تتابعت القطع الموسيقية دون أن يتدخل المذيع أو المنشط، قالت بريجيت:

- موسيقى رائعة. لا شك أنها إذاعة جبل طارق.

قلت:

- لا . . . يمكن أن تكون إحدى المحطات الإسبانية أو إذاعة

الرباط الدولية، فإذاعة جبل طارق لا تلتقط سوى في شمال المغرب.

- آه، فهمت، لم أكن أعرف ذلك. هل تلتقطون إذاعة فرنسا الدولية هنا؟

قال مكسيم بعد أن أفرغ الكأس كله في جوفه:

- اسكتي يا عنزة السيد سيغان. ألم أقل لك مراراً إنك جاهلة.

- إنني أريد أن أعرف فقط يا مكسيم. أنت لا تريدني أن أعرف أبداً. تريد أن تعرف في مكاني.

ماذا تقولين؟

- لا شيء يا حبيبي.

التفت مكسيم إليّ:

- اسمع ماذا تقول.

- دعها تقول ما تشاء. من الأفضل أن ندع المرء يقول ما يشاء حتى في السياسة والمعتقدات الدينية. لأنه من دون ذلك لا يمكن أن ندرك الحقيقة.

- لكن الحقيقة لا يمكن إدراكها بالثرثرة الفارغة. كثير من الناس ثرثروا عبر التاريخ لكنهم لم يضعوا إصبعهم على الجرح.

- لا يهم. هذا موضوع آخر. افرغ لي كأساً ودَع بريجيت تثرثر. نحن اليوم في غرفة مظلمة وفي واضحة النهار. والحقيقة ضائعة هنا في هذه الغرفة. وقفت فاطمة، مدّت ذراعيها كجناحي نسر في فضاء الغرفة، أخذت ترقص. كانت كمن تحلق في سماء صافية، سمعت طرقات على الباب، طرقات خفيفة. مدت يدها إلى المقبض. أطلَّ رأس مستخدم الفندق:

- هل تريدون حشيشاً جيداً وبثمن ملائم؟

قالت فاطمة:

- لا. شكراً. مدت له عقب السيجارة التي كانت محشوة تناوله وهو يبتسم.

- أنا فقط جئت لأؤكد لكم أنني أحبكم. وأنني لن أخونكم. إذا أردتم حشيشاً جيداً فهو موجود.

- قالت فاطمة:

- لا. لا. شكراً ثم إنهم لا يدخنون. أنا وحدي أدخن.

انصرف المستخدم. واستمرت فاطمة في الرقص وهي تقول:

- حمار! وقف مكسيم حافياً وأخذ يرقص مع فاطمة في حين بدأت بريجيت تنشغل بحشو سيجارة أخرى تناولتها من العلبة الموضوعة فوق الحشية. وكان المذيع لا يزال غائباً والموسيقى تتوالى من الترانزستور. أفرغت لي كأساً وشعرت أن تغيّراً يحدث على جسدي. شيء كالنمل في تلافيف مخي، آفاق واسعة تتفتح أمامي، تتسع الغرفة وتحلق فاطمة في فضائها. تتسع النافذة كذلك. أشم هواء رائعاً يدخل منها. هذا هو المجد في الحياة، المجد اليومي، والآن، لم يعد مكسيم مبتعداً من فاطمة ولكنه التصق بها عندما تغيّرت القطعة الموسيقية. أخذا يرقصان ملتصقين كعشيقين فُرِّقَ بينهما منذ سنوات. بعد لحظات عادا ليجلسا على الحشية. لم يكن يبدو عليهما أي نوع من التعب. وكانت بريجيت قد أشعلت سيجارتها المحشوة بالحشيش. دخنت بعمق، وهي تحرك رأسها دون عنف على إيقاعات الترانزستور. تناول مكسيم السيجارة، ثم قدمها إلى فاطمة بعد أن دخَّن منها. حاولت فاطمة أن تغريني لكن رفضتُ، وجرعتُ ما تبقى من الكأس دفعة واحدة، ثم ملأتها لمكسيم. قال:

- شكراً.

شعّت عيناه ببريق حاد. وعكست طلاء الغرفة، ثم سمعته يردد كلمات من الأغنية الإنكليزية. قال لفاطمة:

- هل سبق أن زرت فرنسا؟

- لا.

- إنك تتحدثين الفرنسية بطلاقة.

- طبعاً لأنني درستها في المدرسة.

- أقصد أنك تتكلمين مثل فرنسية من دون لكنة.

- لا أدري.

- علي، يتحدثها بلكنة. إنه يتحدث مثل الأوكسيتان عندنا.

ثم توجه إلى بريجيت:

- اذهبي وارقصي مع علي أيتها العنزة.

لكن العنزة كانت تتأمل في السقف ولم تعره أي اهتمام. فتحت القميص على صدرها، وبرز جزء من نهديها من دون حمالتين. كانت معتدلة. لا سمينة ولا هزيلة. مثل فاطمة تماماً. إلا أن فاطمة كانت أطول قامة منها، وأكثر ميلاً إلى الذكورة مع شعر مقصوص. تناولت بريجيت السيجارة منها وقبل أن تدخن بعمق قالت كلمات مهموسة لم يسمعها أحد.

وقفت وأخذت تتلوى في الغرفة بهدوء وليونة. عاد المستخدم ليعرض بضاعة مرة أخرى. ردّته فاطمة بكلمات مؤدبة هذه المرة. كان يبتسم بمكر. وقال مكسيم:

- يبدو أن هذا البغل قد سكر.

- وتحشش أيضاً.

- ألا يوجد في هذا الفندق غيرنا؟

- لا، هذا غير ممكن.

قال ذلك وهو يضحك. جذب إليه فاطمة فاتكأت على صدره

برغبة كبيرة. أخذ يمرر أصابعه في شعرها القصير. رأيتها تغمض عينيها على صدره. وكانت بريجيت تقوم بحركات واهنة وثقيلة في الغرفة تحاول أن تقلد راقصة شرقية. استرخى مكسيم على ظهره، فتمددت فاطمة فوقه. أخذت منه الكأس وملأتها لنفسي. دخنت سيجارتين دفعة واحدة وبانفعال شديد. نادت عليّ بريجيت فذهبت لأرقص معها رقصاً شرقيّاً. كانت مبتعدة مني وهي تحرك يديها في فضاء الغرفة بتثاقل. أمسكتْ بيدي وبعد أن أدارتني فوق البلاط تخلت عني وذهبت لتقوم ببعض الحركات الغريبة أمام الجدار. عدت إلى مكاني لأفرغ من الزجاجة الأخرى في حين كانت يد مكسيم تفتش عن شيء في جسد فاطمة. إنه المجد البشري اليومي إذن. وقفت وأشعلت الضوء لأطرد عتمة المساء. كنت أتلذذ بشرب الكأس وأنا أنظر إلى ما يجري في الغرفة. وأحياناً أتذكر بعض الصور من ماضي، لكنها سرعان ما تختفي. ألقت بريجيت بقميصها في إحدى الزوايا. واستمرت في جنونها. ودائماً بتثاقل. كانت تغمض عينها وترفع يديها إلى الأعلى وتفرد أصابعها في الهواء. جاءت في الأخير وجلست بين فخذيّ:

- علي، هل سكرت؟
- لم أسكر بعد.
- ظاهر أنك لم تسكر.

مدت ذراعها فوق كتفي. كان نهدها يلامس صدري. وكانت حرارة قوية تنبعث من نصف جسدها الأعلى. إنه النداء الأبدي.

4

منذ ثلاثة أيام لم أنم بما فيه الكفاية. السهر موجود هنا في كل مكان. تلتقي أشخاصاً في كل الأماكن، يتحدثون إليك بسهولة، بتلقائية كبيرة، ومن دون خوف. منهم من يقتسم معك السندويش، ومنهم من يقتسم معك زجاجة الليمونادة أو كأس الشاي. منهم أيضاً من يعرض عليك السفر إلى الجنوب أو إلى الشمال دون مقابل. السيارات كثيرة تظهر في هذا اليوم لتختفي في اليوم الآخر. كان يعجبني أن أتمشى من دون هدف، أنتقل من هذا الدرب إلى ذاك، الهيبيون في كل مكان. الهيبيون يسكنون فنادق رخيصة أو بيوتاً ضيقة ومظلمة في الغالب، هنا أو هناك في درب أهل أكادير، في درب الملاح القديم، في بني عنتر، في الحدادة؛ في صانديو. إنهم مثل الفئران، تخرج لتقتات ثم تعود إلى الجحور. ألم ألتقِ بفاطمة طوال هذه الأيام الثلاثة، ويبدو أنها سافرت إلى مكان آخر. لا أدري. كل ما أدريه أنني بعد تلك الليلة عدتُ وحيداً ومنهكاً وسكران في غبش الصبح إلى الفندق. وظللت نائماً حتى المساء. وقد حاولت أن أتقيأ من دون جدوى. كنت أتجشأ فقط رائحة النبيذ الرخيص والسردين والسجائر. وما كنت أتوجس منه وقعت فيه. وعندما استيقظت لم تكن لدي أية رغبة في الأكل إطلاقاً. كان الوقت وقت الغروب وأنا لا أحبه. إنه يذكرني بنهاية الكون. كل شيء يرقد لتستأنف المهزلة.

المهزلة الكبرى العظيمة. السيرك الكبير حيث تجتمع الطبائع التي تكرر نفسها عبر التاريخ، الحب، الحقد، العدل، الظلم، النفاق، السرقة، المعاملة الحسنة المغلَّفة بنوايا خلفية قد تكون صادقة أولاً. والآن، هو المساء مرة أخرى. كل شيء حدث اليوم لكني كنت غائباً عنه. وفي الواقع، حتى لو كنت مستيقظاً فإني في أغلب الأحيان أكون غائباً. كم من الأشياء تحصل لكنها تتكرر في هذا الزمن أو ذاك. هذا هو المساء. وهذه نهاية أشياء بالنسبة إليهم، وبداية أشياء بالنسبة إلي. ولكن من دونهم، لن تكون هذه الأشياء هي أشيائي. فهم الذين يشعرونني بأنها لي. إنها لعبة جميلة وقديمة. جزء من المهزلة الكبرى، جزء من المهلة، جزء من السيرك. وكان عليّ أن أتقمص دوراً في هذا السيرك. أنا أعرف الدب ولا أعرف الأسد ولا أعرف النمر. أعرف جيداً الحمار والبغل. ولكن بما أن الناس يحتقرونهما، فإني فضلت أن أكون ثعلباً هذا المساء، خصوصاً أن القطيع قد أُنهك طوال اليوم كله. وما أكثر ما قرأت عن أحَابيل الثعلب في الكتب المدرسية وما أكثر ما سمعتُ عنه وأنا صغير. كان القطيع يسير جماعات جماعات في الأزقة الضيقة، وبعض النعاج المصابة بجرب كانت تجرُّ أقدامها وحيدة قرب الجدران، وهي تمضغ همومها اليومية، وتفكر في همومها القادمة وكيف ستجد حلاً لمشاكلها، ومن يدري فقد يداهمها الموت ليضع حداً لكل شيء. فهموم النعاج لا تنتهي أبداً. ما إن تنتهي واحدة حتى تبدأ الأخرى، حتى لو لم تكن تلك القوة القادرة العليا والخفية لها يد في خلق هذه الهموم، إن النعاج تخلقها لنفسها ولغيرها. ورأفة بهؤلاء النعاج، التي لم تأخذ درساً من نهاية وانقراض القطعان السابقة، عبر سنوات خَلَت، فإن تلك القوة القادرة العليا والخفية خلقت شيئاً اسمه الموت. إنه الحكمة الصادقة. الدرس الأزلي،

الذي ما زال يُلقِّنُ لكل النعاج لكن دون جدوى. وها هي الآن تسير من حولي بعد أن قضمت عشب غيرها اليومي، دون أن تشعر بذرَّة واحدة من الندم. وتذكرت قول الشاعر العربي: «إنما العاجزُ مَنْ لا يسْتبد». ومع ذلك، فقد أصررت على أن أبقى ثعلباً هذا المساء وألا ألعب دور النعجة. لكن لا أحد منهم انتبه إلى خطمي أو إلى ذيلي، وأنني في أية لحظة يمكن أن أفترس واحداً منهم. لكنهم دائماً يظلون في غفلة مطأطئي الرؤوس أو رافيعها. يمشون بين الأزقة جماعات جماعات في بطء، وقليل منهم من كان يُهَرول. كانوا يتلامسون بالمناكب. وكانت أعناق بعضهم تشرئبُّ لتلامس أعناق آخرين. إنه المساء!

ووجدت نفسي في حي تغارت. هنا الفضاء الفسيح، وهنا البحر الممتد، والجزيرة التي تبدو كصخرة وسط البحر. اشتعلت الأضواء العمومية في حي تغارت الآن. ومن الجزيرة المهجورة يظهر ضوء خافت، قد يكون لسكارى أو لصيادين، دببة فضلت أن تنعزل عن القطيع. لا بأس! هذا أيضاً شيء جميل. الاستثناء الذي يحطِّم القاعدة. مشيت باتجاه البحر، ودخلت إلى مقهى «الشاليه» وطلبت بيرة باردة، كان الشاليه قفصاً في سيرك، تآلفت فيه أصناف من الحيوانات تتآلف في اللحظة الراهنة، ولكنها ربما غيّرت من طبيعتها في لحظات أخرى قادمة. جلست في زاوية الكونطوار وكنت أشرب بيرتي برغبة قوية، وليس من الضروري أن أصِف كل شيء داخل هذا القفص، ولكن هذا لا يمنعُني من أن أقول إن ثرثرة هادئة مشوّبة بنوع من الخوف والحذر هي التي كانت تسود المكان، ربما لأن الزبائن كانوا يشعرون بأنهم في حالة تلبس، فمرسوم «الخمر ممنوع بيعها للمسلمين» لا يزال معلقاً أمامهم منذ عهد الاستعمار. وهذه الحيوانات فضلت أن تنعزل أيضاً عن القطيع، مثلما فعلت دببة

الجزيرة. ذلك مجرد تصور! ومثلما يتصور القطيع عشبه وعشب غيره، وكيف سيسطو عليه، فإن من حقي أن أتصوّر دببة في الجزيرة، اختارت لنفسها طريقة عيش مغايرة. وعلى الرغم من أنني ثعلب، وأعرف مسبقاً أن الدب في الجزيرة خير من حيات القطيع، فالدببة وهذه الحيوانات المختلفة في الشاليه تأنف من أكل النعاج. هذا سلوك حسن. ولماذا لا يحدث ذلك، ولأول مرة، طوال هذا الزمن الذي ظلَّ فيه القوي يفترس الضعيف. النعاج غبية وبليدة. كانت كذلك عبر العصور، ولندعها إذن بعيدة تتمشى نحو الحظيرة، فهي بعد قليل سوف تنام لتخرج إلى المرعى غداً وبعد غد. هذا غير مهم. وعليَّ أن أخفي ذيلي، فربما استرجعت حيوانات قفص السيرك هذه طبيعتها الأصلية، وعرفت بأنني ثعلب، أنا لست ثعلباً، أنا مجرد حيوان مثلهم، في هذه اللحظة. وما سوف يحصل فهو حاصل. انتهينا.

- بيرة أخرى من فضلك.
- نعم؟
- بيرة.
- باردة مثل هذه؟
- نعم.
- هات بيرة باردة.

قالها ولم يلتفت إلى النادل. كانت البيرة أمامي. مثلجة ومشهية. أعرف أن الغازات تضرُّ بي، لكن لا بأس. فلأشرب وليكن ما يكون. تذكرت أحد البحارة الإسبان في إحدى حانات الدار البيضاء. كان يعبّ البيرة تلو الأخرى وهو يغمّس قطع الخبز في صحن من الصلصة الحارقة. خمّن أنني أتعجب منه. التفت إليَّ. وجهه وأوداجه حمراء، العرق يتصبب منه. قال وهو يبتسم:

- تتعجب مني لأني آكل بمثل هذه الشهية. . .

- لا يا سيدي. أنا شارد الذهن فقط. أنظر إلى هنا أو إلى هناك.

- عندك مشاكل.

- ممكن.

- دَع المشاكل وراءك واشرب، فلك الساعة التي أنت فيها. سأحكي لك شيئاً. أنا بحّار. وعندي أملاك. أحمد اللّه والمسيح والعذراء. ليس هذا هو بيت القصيد. ولكن، قبل أكثر من عشر سنوات، أصبت بمرض لا أدري ما هو. زرت الأطباء. كلهم أصروا على أن أكف عن أشياء اعتدتها مثل شرب القهوة والتدخين (أنا لا أدخن) وأكف عن شرب البيرة وتناول الفلفل الحارق، وإذا لم أفعل ذلك، فإني سأموت بعد ستة أشهر على الأكثر. كلهم كانوا يقولون ذلك. وها أنت ترى أنني أعيش إلى حدِّ الآن وسوف أعيش أطول إن شاءت السيدة العذراء. الأطباء يثرثرون كثيراً. كلهم ينصحون بالكفِّ عن شرب الشاي والقهوة والبيرة والحوامض والسجائر والمَرَق، وينصحون بالمشي. هل فهمت؟

- نعم. سيدي. إذا كان هذا يحصل عندكم. فالشيء نفسه يحصل عندنا.

اختفت صورة الإسباني، وصورة الحانة في الدار البيضاء. أفرغت البيرة الثانية في جوفي وطلبت بيرة أخرى ثالثة. كنت أتفقد ذيلي فوق المقعد الطويل أمام الفاصل الخشبي. ولا شك أنني فعلت ذلك مراراً. لذلك قال لي صاحب المقهى وهو يفتح البيرة الثالثة نيابة عن النادل:

- إنك تتحرك كثيراً فوق التابوريه. هل أنت مصاب بالبواسير. آه! لا تحدثني عن البواسير. لقد جربت تلك الآلام. أعطيك

نصيحة. سوف آتيك بقطع من الثلج اذهب إلى المرحاض وضع تلك القطع على إستك وسوف ترى النتيجة.

- لا لست مصاباً بالبواسير. إنه ذيلي. ذيل الثعلب.

- ماذا تقول؟ أنت لم تسكر بعد.

- أنا لم أسكر. لكني أقول ذيلي.

- فهمت. شيء جميل، أن تتحدث عن البواسير بهذا الشكل، تسميها ذيلاً. وشيء جميل أن يستحي الإنسان.

ذهب صاحب المقهى، وعاد بمكعبات الثلج ووضعها في كفي بالقوة.

- اذهب، لا تخجل، اعتنِ بصحتك. ادخل إلى المرحاض وافعل ما قلته لك.

أذعنت له وخفت أن يفتضح أمري، أن يعرف أنني ثعلب ماكر، وإذا عرف فربما يكون هو أسداً. دخلت إلى المرحاض، وألقيت بمكعبات الثلج هناك، تبولت ودخنت سيجارة. بعد ذلك عدت إلى مكاني. قال صاحب المقهى:

- بماذا تحس الآن؟

- الألم بدأ يختفي.

- ألم أقل لك؟ سل المجرب ولا تسل الطبيب، والآن سوف تشرب واحدة على حسابي.

وضع بيرة أخرى أمامي. الليل في الخارج. سيد كل الكائنات، كائنات نصف الكرة الأرضية، في الوقت الذي تكون فيه الشمس سيدة النصف الثاني.

قال أحد الحيوانات بجواري:

- هل أنت من مراكش؟

- لا. أنا من الدار البيضاء.

- ولماذا حالتك قذرة بهذا الشكل. فتش لك عن عمل واترك الهيبيين والهيبيات. لماذا تفعل مثلهم. احلق شعرك وتعال لتشتغل معنا صياداً. كثير من شبان الصويرة أصبحوا حمقى لأنهم يظلون ويبيتون يتحششون ويتخدرون. اعمل عقلك. لأنك سوف تكبر ذات يوم ولن تجد أحداً يعيلك، تصبح مثل شيء مستهلك وعفن مطروح على الطريق. هل تفهمني؟

- شكراً. إني أفهمك. سأعمل بنصيحتك. المسلم الحقيقي هو الذي ينصح أخاه المسلم.

رأيته يتفرس في وجهي وينظر إلى قدمي ووراء ظهري. لمست وجهي لأتأكد من أنه ليس له خطم ثعلب. ومررت بكفّي وراء المقعد لكي أتأكد من أن ذيلي لا يزال مختفياً. وعندما تأكدت من أنني أشبههم حاولتُ أن أنجو بجلدي وأغادر المقهى. وقال الحيوان:

- خذ لك بيرة حتى ندردش قليلاً.

- لا. شكراً عندي موعد.

- اللّه يعاونك.

غادرت المقهى. ومشيت أجوس في حي تغارت بحذر شديد. كان الحي قد بدأ يخلو من النعاج. وهناك بعض الخرفان لا تزال تنط في هذا المكان أو ذاك لاهية عن نفسها ولا تعرف أن ثعلباً يتجول بينها. ومن يدري فقد تكون هي الأخرى ثعالب أشد مكراً وإذاية. أما أنا فأعرف كيف أخفي مكري. وصلت إلى الكافي دو فرانس. جلست على الإفريز. وعندما جاء الجرسون طلبت كعكاً، لأنه لم يكن في إمكاني استساغة شرب أي شيء آخر بعد البيرة. كان كشك للصحف قرب المقهى، ورأيت الصحف معلقة هناك. كنت أتمنى أن أذهب لأشتري بعضها، إلا أني عدلت عن الفكرة. ثم سمعت صوتاً من ورائي:

- إيه علي، ماذا تفعل هناك وحيداً؟

شاب من الدار البيضاء. من دون شغل. عرفته في مقهى الكوميديا. كل ما أعرفه عنه أنه يعيش على حساب أختيه المحترفتي البغاء، وأحياناً على حساب بعض الشاذين جنسياً من الأجانب. سبق أن التقيته أيضاً في طنجة وفي مراكش وفي كل مكان توجد فيه أوكار الشذوذ الجنسي. وقفت من دون تردد وذهبت لأجلس معه، وكان محاطاً بأربع فتيات. هززن رؤوسهن بلا مبالاة. واحدة فقط، كانت تنظر إليّ بنوع من الترحاب. قالت:

- هيلو. يمكنك أن تجلس. شعرك الطويل هذا جميل. إذا غسلته فسوف يكون أجمل.

هززت رأسي، وقال عبده وهو يحرك كل جسده المقعد وذراعيه الطويلتين. قال بالعربية:

- إنك محظوظ. بنت الكلبة لم تبادلني ولو كلمة. تعرفت عليهن هذا الصباح.

قالت بفرنسية ركيكة:

- ولماذا لا تشرب شيئاً؟

- شربت بيرة قبل لحظات.

- آه. أنا لا أحب الكحول. والداي في جمعية لمحاربة الكحول في السويد.

كانت الساحة توشك أن تخلو من المغاربة. وكانت أفواج من الهيبيين تعبر الساحة، حُفاة أو منتعلين. وفي مواجهة المقهى سيارات تحمل أرقاماً وعلامات لدول مختلفة، لم تكن سيارات فخمة أو حديثة، ولكنها من النوع الذي يصمد في وجه الطرقات كيفما كانت. أنهيت الكعك وأشعلت سيجارة. صوت التلفزيون في الداخل يصلني زاعقاً. كنت أسمع بعض الكلمات المصرية دون أن

ألتقط جملة واحدة. لا شك أنه مسلسل مصري يتحدث عن الحب أو عن سيرة الرسول أو مشاهير التاريخ في الإسلام. هذه هي المواضيع المفضلة لدى عرب المشرق، أو على الأقل، هذا ما يعرضه تلفزيون الرباط. كان عبده يحاول أن يثير انتباه الفتيات بأية طريقة، يتحدث بالفرنسية تارة، وبلكنة شبيهة بلكنة الباريسيين، ثم أحياناً ينطق بعض الجمل بالإنكليزية. وكانت الابتسامة لا تفارقهن. قالت السويدية:

- إنك لا تتحدث كثيراً. يبدو أنك تعاني من شيء ما. أنت حزين جداً.

- صحيح. إنني حزين لأنني لا أملك نقوداً. لقد سرقوها مني. (هذا ما قاله الثعلب. ولم أقله أنا. ولو فتشتني لبصقت في وجهي).

- هذه الكلبة لا تشبه كل اللواتي عرفتهن هنا. إنها حمقاء. جميلة جداً. ألا ترى ذلك؟ وهي معجبة بشخص يسكن في كوخ قرب الذيابات يظل يخرّف عليها في أمور الدين.

- وماذا يفعل في ذلك الكوخ؟

- إنه مجرد أُمي. يتسول في جامع الفنا في مراكش ثم يعود إلى ذلك الكوخ ويوهم الحمقاوات مثل هذه بأنه نبيّ. عليك أن تأخذها منه. أنت أجدر منه بها.

- إنها جميلة بالفعل. ويبدو أنها غير عادية.

- حمقاء. ما أكثر الحمقى هنا في الصويرة.

- إنهم ليسوا حمقى. لو كانوا كذلك لما جابوا العالم كله، ومن دون فلس في الجيب. إنهم أذكياء. تربيتهم تختلف عنا.

- ربما كان كلامك صحيحاً. أنت أستاذ وتعرف أفضل مني في هذه الأشياء.

كان يتحدث وهو لا يزال يحرك كل جسده. وكانت ذراعاه الطويلتان النحيلتان تنوبان عنه أحياناً في الحديث. وقالت واحدة:

- عبده. ستذهب معنا إلى قرية الذيابات.

- طبعاً. كل مساء هناك حفلات في الهواء الطلق.

- نعرف ذلك.

توجه إليَّ عبده:

- هل زرت قرية الذيابات؟

- لا لكني أسمع عنها.

- إنها قرية للصيادين. كل الهيبيين يسكنون هناك وبأثمان رخيصة. يمكن أن تكتري كوخاً. وسوف تكون حراً في كوخك. ذلك أفضل من الفنادق هنا. إني أعرف أصحاب الفنادق زيادة على تحرشات البوليس. في الذيابات حتى رجال الدرك يتحششون هناك معنا طمعاً في واحدة من الهيبيات. لكنهن ينفرن منهم. ما رأيت دركياً قط استطاع أن يحصل على واحدة.

مرّت كروسة في الساحة، وفوقها جوق شعبي وأكياس من السكر والدقيق. كان الجوق يعزف ورجل في ثوب امرأة يدير عجيزته فوق الكروسة. لم يكن هناك إلا أناس قليلون حول الكروسة يصفقون بأيديهم. عدد الأطفال أيضاً كان قليلاً. ففي مناسبة مثل هذه يكثر الأطفال، لكن الآباء يفضلون في مثل هذه الساعة إغلاق الأبواب دون أبنائهم.

جاء الجرسون ودفع كل واحد ثمن ما استهلك، وقفنا جميعاً. التصقت بي. كانت داخل ثوب فضفاض وملون، وبدت لي مثل غجرية، أو أنها ليست بشراً. أي شيء إلا أن تكون بشراً. ويمكن للخيال أن يختار أي كائن هي، ما دام للخيال إمكانية أن يتصور ما يريد.

- طبعاً. ستذهب معنا إلى الذيابات. هل زرتها سابقاً؟

- لا.

- إنها قرية جميلة. لكني أفضّل مكاناً بالقرب منها اسمه «النبع». هناك يسكن رجل اسمه عمر، له علاقة حميمة مع اللّه. إنه يتكلم معه كما فعل مع موسى، ألا ترى أن ذلك شيء رائع؟

- أكثر من رائع. أريد أن أرى ذلك الرجل.

- هذه الليلة غير ممكن. ربما أتيحت الفرصة في وقت لاحق. ثم يمكن أن يكون موجوداً في مراكش الآن. إنه يتغيب أحياناً، ثلاثة أو أربعة أيام في الأسبوع. وأحياناً أكثر. هل تعرف هذا الشاب الذي معنا؟

- ليس كثيراً.

- أنا لا أستريح له.

- شاب بئيس ومسكين.

- وأكثر يبدو عليه أنه كذاب.

- لا أدري.

- هذا مجرد تخمين. تفضل، فلنركب معهن السيارة. أنا لا أملك سيارة على الرغم من أني لست فقيرة.

انحشرنا في الخلف. والتصقت بي مرة أخرى. كانت دافئة وتنبعث منها رائحة خاصة. لحمها كان طرياً مشهياً. شعرت بذلك فاقشعر جسمي. تحطمت كل الحواجز التي تفصل الإنسان عن الإنسان. النداء الأبدي الذي يطاردنا ما دمنا على قيد الحياة. حتى لو حاولنا الهروب منه فإنه يطاردنا. ارتفعت ذراعي دون إرادة مني. لفّت عنقها وشعرها. استسلمت وأرخت رأسها على كتفي. وكان عبده لا يزال يهرج، ولم أكن أفهم ما يقول، لأني كنت أحلم بشيء

آخر. وكانت أصواتهن ترتفع وتختلط والسيارة قد اجتازت حي تغارت باتجاه طريق مدينة أكادير. قالت بصوت خافت:

- اسمي سلمى.

- سلمى لاغرلوف.

- آه. تعرف، هي الكاتبة. الحائزة على جائزة نوبل. إنها من بلادي. كان عندي حدس أنك تعرف كل شيء. لم يخطئ حدسي. ولا يمكنه أن يخطئ أبداً. هل قرأت لها؟

- نعم.

- ماذا قرأت لها؟

- ما عدت أذكر.

- هل قرأت لكُتّاب آخرين من السويد؟

- نعم. لكني لا أتذكر أسماءهم. أتذكر سلمى لأن العرب يسمون الاسم نفسه.

- آه! صحيح.

- نعم.

انحرفت السيارة إلى طريق ترابي بين الأشجار المتزاحمة. تسير السيارة بصعوبة فائقة. كانت الحفر كثيرة، ورأس سلمى يضربني تحت الذقن. سمعت طقطقة أسناني فعدلت جلستها. لكنها ظلت دائماً تملك نفس الطراوة. كان جسمها لا يزال يلتصق دافئاً ناعماً داخل ذلك الثوب الرقيق، وما يني يزداد حرارة تنتقل إلى جسدي بين ثانية وأخرى. الأشجار فقط على الجانبين، متراصة ومتلاصقة يكشفها ضوء السيارة. امتدت يد إلينا بسيجارة محشوة، دخنت بلذة هذه المرة وقدّمت السيجارة إلى سلمى. دخّنت بعمق كذلك وأعادت العقب إلى واحدة منهن. وبعد فترة قصيرة، كنا قد وصلنا إلى قرية الذيابات على شاطئ البحر. بنايات قصيرة رابضة تحت الظلام. قفز

عبده، وفعلنا جميعاً مثله. كان صوت عزف يتردد صداه في سكون الليل، والبحر تلمع بعض موجاته وراء الأشجار. قالت واحدة:

- هل نذهب إلى بيت الدانماركية أم عند هؤلاء؟ الدانماركية تستقبل دائماً أناساً جدداً.

وعندما قالت: «عند هؤلاء» أشارت إلى بناية قديمة معزولة مثل قلعة كانت على بعد أمتار منا. ومن هذه القلعة كان العزف ينتشر في فضاء الليل. مشينا نحو القلعة دون أن يكلف أحد نفسه الإجابة على سؤالها. كنت في المؤخرة. وكانت سلمى ملتصقة بي. ولم أنتبه إلى أنها كانت حافية القدمين إلا بعد أن ارتطمت قدمها بحجر ربما فصرخت. كنا أمام بوابة كبيرة. نزلنا درجات سُلَّم حجري. ومشينا في الظلام. أزقة ضيقة في جانبيها بنايات لم أعرف فيم إذا كانت بيوتاً للسكنى أم دكاكين. ولم يكن هناك أي آدمي في هذه الأزقة. اقتربنا من العزف. وبدأت أسمع أصواتاً آدمية تختلط مع صوت الدعدوع. بلغنا ساحة تجمّع فيها كثير من الهيبيين والهيبيات. كانت الساحة دائرية، وفي وسطها نار تلتهم بعض أغصان الشجر وجذوعه. وهذه النار هي التي أضاءت المكان.

قالت لي سلمى:

- نجلس. هنا أفضل. أنا لا أحب الزحام.

وافقت دون أن أقول كلمة. جلست على التراب. فعلت مثلها، في حين جلست الأخريات بعيداً منا قليلاً، ووراء الحلقة المستديرة حول النار. وفكرت: «لا شك أن الإنسان البدائي كان يفعل مثل هذا. هذه الأشياء كلها مجتمعة الآن: الماء والهواء والنار والتراب الذي أجلس عليه». أخذت سلمى تحرك رأسها على نغمات الدعدوع. وشعرها يغطي وجهها وهو يتطاير. لكنها كفت عن ذلك وفضلت أن تلتصق بي. كنت أنظر إلى هذا العالم الغريب من

حولي. كان بعضهم نائماً، وكان هناك من يرقص أو يرفع صوته بلغة لا أفهمها. وهناك أكثر من زوجين ملتصقين ببعضهما دون أن يثيرا اهتمام الآخرين. تمددت سلمى على ظهرها ووضعت رأسها في فخذي. لم يعجبني هذا الوضع. كنت أتمنى لو فعلت أنا ذلك مكانها. أو لفعلنا مثل الآخرين. أدخلت كفي بين نهديها. شعرت بإحساس معيّن فتلوّت فوق التراب. استرخيت أنا على ظهري. زحفت هي، حتى أصبح وجهها مقابلاً لوجهي. ضممتها إليّ. صرنا اثنين في واحد. لكن رجلاً ذا عضلات وقف أمامنا كان في يده سطل. مدّ لنا السطل. قال لي:

- لا شك أنك من الدار البيضاء. أنا من مراكش. اسمي مصطفى. مرحباً بك. كيف استطعت أن تحصل على هذه.

- هل تعرفونها جميعاً؟

- ومن لا يعرف هذه الحمقاء. لكنها جميلة. كم أتمنى لو أنها أحبتني. إنها ليست مثل الأخريات. خذ بيدك. كُل قليلاً من المعجون فهو يساعد على إيقاظ الهمة.

أدخلت سلمى يدها في السطل ونقلت لقمة من المعجون إلى فمها.

قالت:

- المعجون يعجبني كثيراً. وأنت؟

- أنا أيضاً.

فعلت مثلها. انتقل الرجل ذو العضلات بسطله إلى أشخاص آخرين. كان لساني يبحث عن بقايا المعجون داخل فمي. شيء لذيذ الطعم. استعذبت كثيراً مذاقه. نظرت إلى النار وإلى الجموع من حولي وإلى الظلال المعكوسة على الجدران التي بهت بياضها:

الجميع جالسون، لكن هناك ثلاثة أشخاص يتخطون الرؤوس ولا أدري ما الذي كانوا يفعلونه أو يقولونه. هذه الطقوس لا أعرفها. وباستثناء العزف كان كل شيء عادياً إلا جمال بعض النساء. فضلت أن أسترخي على ظهري وأتأمل النجوم ما دامت أنثى جميلة بالقرب مني. فعلت سلمى الشيء نفسه. كنت أحس أنها ما زالت تمضغ شيئاً.

- لذيذ أليس كذلك. قلت.

- رائع، رائع جداً. أنا أحبه كثيراً. هو أفضل من .L.S.D. أنا لا أحب تلك الأشياء الاصطناعية. أحب ما هو طبيعي. ثم إني لست مدمنة على تناول المخدرات.

- أنا مثلك. لكني أحب أحياناً أن أشرب.

- عندي شعور بأن الإنسان يمكنه أن يتخلص من المخدرات لكنه لا يستطيع التخلص من الإدمان على الخمور.

- الخمر لا يمكن أن يتخلص منها الإنسان. إنها مثل الجنس والهواء والماء والطعام.

- ما كنت أعرف هذا. ألم أقل لك قبل لحظة إنك تعرف أشياء كثيرة. مع ذلك فأنا لن أشربها.

الإيقاعات تنتشر دائماً في الفضاء. توقفٌ قصير أحياناً. ثم يستأنف الضرب على الدعدوع وترتفع الأصوات لتخفت. ما عدنا نهتم لذلك، عندما مررت بأصابعي على جفني سلمى. لقد أغمضت عينيها. بالتأكيد أنها لم تنم. أنا أيضاً شعرت بثقل أجفاني. وبدأت النجوم تتراقص أمامي في السماء. وبدأ السواد يتحول إلى ألوان قزحية ففضلت أن أغمض عيني وأترك لأصابعي تفعل ما تشاء في جسد سلمى. كانت هادئة ودافئة وشهية وحكيمة وممتلئة وطرية

وحالمة وأشياء أخرى والباقي من عندك. ثم فتحت عيني على أشعة الشمس الأولى. لم يكن هناك إلا حوالي عشرة أشخاص ممددين على التراب ورماد في وسط الساحة. كل زوج في واحد. وفضلت أن أفعل مثلهم. فأدخلت رأسي تحت إبط سلمى حتى لا تضايقني أشعة الشمس الأولى...

5

بعد أيام غادرت ذلك الفندق واكتريت بيتاً في القرية بثمن أرخص بكثير. وكلما رخصت الحياة طالت الأيام هنا. وماذا أفعل في الدار البيضاء؟ ليس عندي فيها لا الحسن ولا الحسين. كل ما عندي هناك غرفة قذرة ومرحاض ودوش وقطعة إسفنج أنام عليها وحصير وكتب متراكمة فوق الأرض. وماذا أيضاً؟ ثلاث أو أربع أستاذات يحببنني كثيراً في أول الشهر، يساعدنني على تبذير تلك الحوالة البئيسة في الأيام الأولى. يا إلهي! كم يعجبهن الشراب إذا كان بالمجان. وماذا في الدار البيضاء مرة أخرى؟ هناك السهر حتى الصباح من حانة إلى أخرى مع أصدقاء. وكل ليلة تمر إلا وتقع فيها مشادات بالأيدي والأرجل والألسن. إنهم جميعاً يحاولون أن يكتبوا. والأكثر حظوة منهم في النشر، هو الذي يكون ضحية عندما يسكر الجميع. إنها سنوات الستينيات. ولا أدري ما الذي ستكون عليه الأمور في السبعينيات والثمانينيات، هل ستنشأ أجيال أخرى مثل هذه؟ هل ستتكرر؟ طالما طرحت على نفسي هذا السؤال وأنا في القسم أمام التلاميذ. ثم ماذا سيصبح عليه هؤلاء الهيبيون والهيبيات فيما بعد؟ إذن فلنترك الجواب للعقدين القادمين. دائماً يجب النظر إلى المستقبل. وهذا لا يفعله الناس عادة. وذلك هو سبب مشاكلهم اليومية. انظر إلى ما مضى وتأمل في ما سيكون.

فلنتأمل على الرغم من أننا لا نملك اليقين. بقدر ما نقوم بتلك العملية نكون أقرب إلى وضع أنفسنا في أحجامها الحقيقية. فالذين من حولنا إما أن يضخمونا وإما أن يخربونا. وغالباً ما ينفخون في البالون ثم يثقبونه. والعالم هنا، مختلف تماماً عن حياة القطيع. شيء واحد يتشابه فيه مع عالمهم هو السرقة. كل يوم نسمع أن باباً كُسر قفله. ولم يكن هؤلاء الهيبيون هم الذين يفعلون ذلك. ولكنه القطيع الذي يتسرب من الضواحي. إنه يفرض أخلاقه على هذا العالم الهادئ المسالم. ولكني كنت أعلم أنهم لن يكسروا قفل البيت الذي اكتريت لأنهم يعرفون أني لا أملك آلة تصوير أو آلة تسجيل. والغالب أنهم يعرفون كل شيء عن أي شخص هنا. قال لي أحد الشبان الذين يتاجرون في المخدرات:

- إنهم ليسوا صويريين حقيقيين هؤلاء الذين يفعلون ذلك. كلهم يأتون من القرى المجاورة. أما الذين تراهم هنا لا يهمَّهم سوى الحشيش والنساء. فكثير من الصويريين تعرَّفوا إلى أوروبيات أو أميركيات ورحلوا معهن دون أن يعودوا إلى مدينتهم. اللّه أراد لهم ذلك. فهذه مدينة لا توجد فيها معامل ولا أي شيء. لقد لاحظت ذلك أنت بنفسك. وحتى مهنة الصيد لا تردُّ شيئاً. أنا أربح من الحشيش أضعاف ما يمكن أن أتقاضاه لو أني خرجت مع مركب وفي موسم صيد جيد. هل فهمت؟ لكن لا يمكنني أن أسرق.

قلت له:

- على كل حال ليس لديّ ما يسرقونه.

- أنا لا أتحدث عنك. إنهم يشمون رائحة الأرانب من بعيد، من قُراهم. يعرفون ما يفعلون. وقل لهم أن يتجرؤوا عليّ أنا. أستطيع أن أمزق أحشاء أحدهم. لا الموت ولا السجن يمكنهما أن يقفا في وجه شرف الإنسان.

ثم أخرجَ سكينه. كانت تلمع تحت وهج الشمس. سكين جزار حقاً. وأعاد السكين إلى مكانها. وتذكرت السكين في **الغريب** لكامو. وقلت إن الفرنسيين شوهونا في العالم. إذا كان أندريه جيد قد قال في كتابه **لو أن الحية لا تموت** أن للعربي شيئاً آخر، فإن كامو حوّل ذلك الشيء إلى سكين في يده. كلها أشياء إذن. ولا بدَّ للعربي من أن يكون له شيء يميزه. وليكن هذا الشيء أو ذاك. وأرجو أن يسعفك عقلك فتفهم. وليخفت الشاب والسكين، فأنا في حاجة إلى أن ألقي بنفسي بين أمواج البحر. الساعة العاشرة صباحاً. كانت القرية صامتة. امرأة منحنية تفلح شيئاً هناك، وأخرى تخفي وجهها عني. لا بأس. اذهبي وامطري في مكان آخر، فأنا لست في حاجة إليك. أنا في حاجة إلى الرمل والبحر. كنت أجوس وسط الحشائش بين الأشجار. رفع حمار رأسه إليّ وحدق في، استمر في التحديق، وخلفه كانت دجاجة، وخلفه كان كوخ ملتصق بشجرة. عندما اجتزتُ المكان وصلت إلى وسعة. كان فيها حوالي عشرين شخصاً عراة تماماً يتشمسون ويتحدثون، ووراء الوسعة التي تحيطها الأشجار يمتد البحر. مكان جميل حقاً. لم يهتم بي أحد منهم. فعلت مثلهم. نزعت ثيابي، وكأني شعرت بإحساس غريب، عندما رأيت الهيبيات العاريات يتقلبن فوق الرمل. أغمضت عيني وركضت جهة البحر. كانت الملوحة في فمي وكانت البرودة في جسدي. سبحت قليلاً، ثم عدت إلى ثيابي المكومة. تمددت على الرمل وتقلبت فيه. كان الرمل ساخناً عندما تمددت على بطني. وعندما استيقظ إيروس في داخلي انقلبت على ظهري وأنا مغمض العينين تماماً. هذا شيء لم أحلم به إطلاقاً. ولك أن تحلم به أنت بين أربعة جدران عندما تعود منهكاً من العمل اليومي. ولك أيضاً أن تظل تحلم حتى يأخذوك إلى القبر. لا أقصد إذاية أحد ولذلك أقول

إن الشمس كانت حارة هذا الصباح وأن الرمل كان حاراً كذلك وأن الماء كان بارداً وأن الملح لا يزال في فمي وأني مغمض العينين الآن في وسعة بين أناس يفعلون مثلي. وكنت أسمع كذلك زقزقة بعض العصافير من حولي وبعض الهمهمات وتلاطم الأمواج. سمعت فوق رأسي:

- هل تشعل لي؟

فتحت عيني. كانت عارية تماماً. صورة حواء في خيال كل واحد. إنها أمنا جميعاً. (وكلنا نحترم أمهاتنا). وعلينا أن نلبي كل رغباتها حتى ندخل إلى الجنة التي أخرجتنا منها. فهي التي أخرجتنا منها أول الأمر وهي التي سوف تعيدنا إليها عندما نحترمها في آخر الأمر. أية سلطة!! دسست يدي في كومة ثيابي، وأخرجت علبة الثقاب. أشعلت لها حتى تدخلني إلى الجنة غداً يوم القيامة. رأيت نوعاً من الرضا في عينيها فسررت لذلك. لأنني على الأقل قد ضمنت جنتي. قالت:

- شكراً. رأيتك. في الكافي هيبي ذات مساء. ألم تتذكرني؟
- لا. لا أتذكر.
- لقد شربت من شايك.
- لا أتذكر.
- صحيح أنه لا يمكنك أن تتذكر لأنك كنت شارداً ذلك اليوم. لقد دخنا جميعاً.

شكراً مرة أخرى.

انصرفت، وانضمت إلى فتاتين أخريين وشاب كان يثرثر ويخط شيئاً في الرمل. أغمضتُ عيني. وكنت أسمع زقزقة الطيور في كل مكان على الأشجار، وكلام وضحكات. أشعة الشمس قوية تلهب جلدي. استرخاء تام ورغبة في نوم طويل عميق كالموت. وطبعاً.

فأنا لست متأكداً من أن الموت نوع عميق حقاً. أم أن الروح ما إن تفارق الجسد حتى تصبح واعية بذاتها، وتخرج من حالة اللاوعي التي تعيشها هنا فوق الأرض. تزول عنها تلك الغشاوة التي استطاع الصوفيون والزهّاد والأنبياء وحدهم تمزيقها في الأرض قبل أن تغادر أرواحهم الجسد. قاومت تلك الرغبة في النوم، انتفضت من فوق الرمل وركضت كالمجنون جهة البحر. وعندما ألقيت بنفسي فيه التفت مرة أخرى لأتأكد من ألا أحد يهتم بي. بالفعل، كان الأمر كذلك. لكنها هي كانت تنظر إليّ من بعيد وتضحك. نهداها أبيضان مثل الشمع. وقفت هي الأخرى وركضت جهتي وألقت بنفسها في الماء.

- إنه رائع. ما أجمل الاستحمام بين الأشجار. هل تعرف هذا المكان؟ منذ حللنا في الصويرة ونحن نأتي إليه.

- أنا لا أعرفه. سمعت أن هناك من يسبح عارياً في مكان ما. لكني نزلت هنا بالصدفة.

- هناك مكان آخر، لكنه مزدحم.

- ورجال الدرك؟ ألا يضايقونكم؟

- ما رأيت دركياً قط هنا. عليك أن تجرب السباحة في الليل عندما تكون الليلة مقمرة. هذا المكان هو الجنة بعينها. تعال معنا هذا المساء، بعد أن نتحشش عند الدانماركية.

- سوف أحاول أن أفعل.

غطست في الماء. ثم رأيتها تحرك ذراعيها وهي تتقدم إلى الداخل. كانت تغطس وتضرب برجليها في الفضاء، ليظهر رأسها فيما بعد.

نادت عليّ بعد ذلك:

- تعال هنا. كلما تقدمت كلما تغيّر ثقل الماء على الجسد.

لم أفعل. ولكني فضلت أن أترك نفسي لتلك الموجات الصغيرة تدفع بجسمي إلى الرمل فأعاود الكرّة. وعندما لم ألبِّ رغبتها التحقت بي وأخذت تفعل مثلي. واستطاعت بعض الموجات أن تصدم جسدينا. وفي إحدى الصدمات كانت تتشبث بخصري. وضعت كفي على كتفيها، ونزلت بكل ثقلي عليها، تخلصت مني وهي تضحك:

- هل تريد أن تغرقني؟ أنا لا أريد أن أموت ما زلت أريد أن أرى أشياء كثيرة في الحياة.

لم تكن عندي رغبة في قتلها. ربما كانت تمزح، وربما كانت تتحدث بجد. وعلى الأقل، في تلك اللحظة، لم أكن أتخيّل، مجرد تخيّل، قتل أحد حتى لو كان من ألدّ أعدائي. أعرف جيداً أننا ما أكثر ما نتمنى قتل بعض الأشخاص: الأعداء السياسيين، الزوجات، الحبيبات الخائنات، الغرماء، والبشر اللؤماء. لكن بما أنها لم تكن هذا ولا ذاك، هذه أو تلك فإني لم أفكِّر قط في قتلها. وفي هذه اللحظة بالضبط. لم أكن قادراً على إيذاء أحد. على الرغم من أني أتصور أحياناً أن الإذاية هي مجرد ردّ فعل. وهكذا تتواتر ردود الأفعال فينتج عنها الشر. وردّ فعلي إذن لم يكن شريراً. كنت أمزح فقط. ضحكت وغطست في الماء مرة أخرى، فعلت مثلها وفتحت عيني لكني لم أستطع الاستمرار في ذلك. فركت عيني، وظللت واقفاً أنظر إليها وهي تلعب مثل الفقمة. كانت تنادي عليّ. غير أني لم أجرؤ أن ألحق بها. غادرت الماء وجلست فوق الرمل المبتل. الأفق بعيد، الأشجار ممتدة والشمس والهدوء الكامل. وعندما التحقت بي، ألقت بنفسها إلى جانبي:

- رائع. الماء رائع جداً. لقد تعبت.

- إنك تسبحين مثل سمك القرش.

- هل سبق أن رأيته؟ إنه يرعبني.
- رأيته في الصور.
- هل أكلته؟
- لا أدري. لا أذكر.

عارية تماماً. وكنت أحاول أن أضع يدي بين وركي لكي أستتر. لكنها لم تفعل ذلك. شعرت بريح خفيفة تدغدغ ما بين فخذي. وفضلت أن أذهب إلى الرمل الساخن. قالت:

- الآن أحب أن أدخن، أشعر بلذة كبيرة عندما أدخن بعد السباحة.
- ليس معي حشيش.
- لا يهم. معنا قطعة مهمة. اشترتها كريستين أمس.
- هل أفطرت جيداً؟ عليك أن تأكلي قبل التدخين.
- إنني آكل بشهية كبيرة. لا تخشى عليّ.

مشت أمامي. كنت أتلهى بقذف بعض الصدفات جهة البحر. هذا شيء لم أتعود عليه قط. ركضت قليلاً فوق الرمل المبتل وضربت بعض الموجات بقدمي. ثم قررت أن ألتحق بها. وبالقرب من كومة ثيابي. كانت فتاة مغربية تتعرى. عرفتها. اشمأزت أول الأمر لكنها بعد تردد استمرت في نزع ثيابها. لم أتحدث إليها قط. قِيل لي إنها من مكناس متزوجة ومطلقة وتتاجر في الحشيش. كانت نظراتها تطردني من المكان. ردّ الفعل. لكني لم أفعل لها شيئاً. ظهر جسدها برونزياً ومشهياً. وقلت لنفسي إنني لا أستطيع أن أفعل معها ذلك حتى لو قتلوني. لأني ما رأيتها تبتسم قط مع مغربي. وزوجها وحده هو الذي يعرف ربما لماذا لا تبتسم في وجه المغاربة. تمددت على الرمل الساخن بالقرب منهم دون أن أتحدث إلى أحد. كنت أرمق جسد المغربية. عانتها مثل سدرة محروقة سوداء. جسد مكتنز.

لم تكن تتحرك تحت الشمس، جامدة مثل تمثال مُلقى على الشاطئ.
سمعت صوتاً وراء ظهري:

- هل تدخن؟

تناولت السيجارة، أخذت لي نفسين متتابعين ثم أعدتها لليد التي مدتها لي دون أن أنظر إلى الخلف. كنت أنظر إلى الأمام، إلى التمثال المُلقى على الرمل. ولم يكن في مقدوري أن أخمن في أي شيء كانت تفكر. حاولت ولكني فشلت. لا أزال أذكر اشمئزازها من أي مغربي يحاول أن يتقرب منها في الكافي هيبيز. الغريب أنها كانت تلاطف رجال الشرطة السريين. قِيل لي إنهم كلما احتاجوها أخذوها إلى المخفر. كلهم يشتهون جسدها حتى أنه صار بالنسبة إليهم مبتذلاً. ولا شك أنها ستفعل الشيء نفسه لو أن رجال الدرك هاجمونا الآن بين هذه الأشجار. نهضت في تلك اللحظة. كانت تمشي بكبرياء جهة البحر. ألقت بنفسها في الماء وأنا أنظر إلى كل ذلك. سمعت صوتاً من خلفي:

- هل أعجبتك؟ إن لها جسداً رائعاً.
- لا. ليست من النوع الذي يعجبني.
- ولكنها مع ذلك جميلة.

قال الفتى:

- آه لو أرادت أن تصبح صديقة لي.
- التحق بها. ربما لن تمانع في ذلك.

قلت ذلك، ونظرت إلى إليتيه المتدليتين في الرمل الساخن. كان يتابعها بنظراته وهي تلعب في الماء. وخيل إليّ أنه لم ينبض فيه شريان واحد. وخيل إليّ أيضاً أنهم خصوه منذ زمان وأنه يتحدث فقط ولا رغبة له فيها. وبالفعل قال:

- أنا أمزح فقط، لا أحب الجنس من دون حب.

- هل سبق لك أن أحببت؟

- نعم. ولا أزال أحب واحدة ولن أحب غيرها.

- أنت رومانسي.

- ممكن. يجب أن نعطي لحياتنا نفساً مغايراً. ما كل ما يفعله الآخرون يجب أن نفعله. قلت لنفسي «هذه وجهة نظر. قد يكون معه حق». لا أستطيع أن أجزم بالطريقة التي كان يعيش بها الآخرون في الماضي. فالكتب وقصائد الغزل ربما لم تكن صادقة، وهي وإن كانت تعطي صورة عن عقلية معيّنة سائدة في عصر معيّن، فقد لا تستطيع الإخبار عن النوايا الخفية المتسترة لأولئك الناس الذين ماتوا، والذين كان منهم المغرور والحالم والظالم والمظلوم والبخيل والكريم. آه! كلهم ماتوا. وما كانوا يعرفون أنهم سيموتون... وما أقبح أن يذكر الموت عندما تتجسد الحياة بين الأشجار، قرب البحر، في مكان خالٍ، وسأعود إلى الجسد البرونزي فأقول: ها هو الآن يتخايل أمامي. إنها تمشي برزانة وثقة مثل زوجات المسؤولين الحكوميين في سوق عمومي. لم يكن ينقصها الآن سوى الثياب والخدم. وقال الفتى مرة أخرى:

- أجمل واحدة رأيت هنا.

قالت الفتاتان في وقت واحد:

- معك حق.

قلت:

- المسكينة. إن رجال الشرطة يحتاجونها دائماً.

- هل تريد هي ذلك؟

- لا أدري.

- إذا كانوا يفعلون بها ذلك مرغمة، فهذا شيء فظيع وغير إنساني، وليس من حقهم.

قال الفتى:

- إنهم يتشابهون في كل مكان. أنت لا تعرفين شيئاً. مرة حوكم شرطي لأنه اغتصب فتاة في نيس. عمرها ثلاث عشرة سنة.

قالت:

- أي رعب! هذه وحشية.

تمددت المغربية على الرمل ووضعت قميصها على شعر عانتها. في حين ظلَّ نهداها عاريين. لم تتكلم مع أحد. جامدة مرة أخرى مثل تمثال، ربما استغرقت في نوم. دسست رأسي بين ذراعي، وأنا مغمض العينين، كانت ألوان قزحية تتراقص فيهما. فتح ترانزستور بالقرب مني. وسمعت موسيقى روك لم تكن صاخبة. ثم قالت إحدى الفتيات:

- هيه. انظر هناك. هل هم رعاة؟ منذ وقت وهم يتطلعون إلينا من وراء الحشائش. رفعت رأسي. كان هناك حوالي خمسة أشخاص من البدو يضحكون وراء الحشائش في حين كان الهيبيون لا يأبهون بهم. يتشمسون ويدخنون ويسبحون، لم يكن البدو يضحكون بصوت مرتفع. وكانت على وجوههم علامات الذهول والفزع. أعينهم تلمع وراء محاجرها وتدور. سمعت أحدهم يقول:

- إنه مسلم مثلنا، ذلك المصران ذو الشعر الطويل.

وبما أنه لم يكن هنا مغربي آخر في هذه الوسعة فقد فهمت أنني المقصود. وسمعت بدوياً آخر:

- ولماذا يتعرى مثلهم. لا شك أنه ليس رجلاً حقيقياً.

قال آخر:

- لا أعتقد. ربما يفعل ذلك لكي يحصل على واحدة منهن. وإذا فعل ذلك فهو مسلم حقيقي. أنت تعرف أننا نحن المسلمين فحول مثل الثيران.

خطر في ذهني ما يمكن أن يقع. بحكم تجارب سابقة، وبحكم عوامل أعرفها جيداً، ولا يمكن لهذا الخلق الممدد تحت الرمل أن يعرفها.

قالت واحدة:

- إنهم يضحكون مثل البلهاء. ألم يروا جسداً عارياً قط؟ ألم يذهبوا إلى الحمام؟ ألم يناموا مع نساء عاريات؟

قلت:

- لا أعرف. مجرد بدو. يستغربون من كل شيء.

- فليفعلوا مثلنا.

- تقاليدهم تمنعهم من ذلك. ولكنها لا تمنعهم من فعل ما هو فظيع.

- المساكين!

وعندما قالت ذلك أصبحوا عفاريت. رأيتهم يقفزون وسط الوسعة، كل واحد منهم هجم على جسد عارٍ. اختلط المكان بالرمل واللكمات التي كان يسددها الذكور لبعضهم. فضلت أن أنسحب بسرعة وأحمل ثيابي لأرتديها وسط الحشائش، ولأستر عورتي وأنجو بمؤخرتي. فهذا النوع من المسلمين يمكنه أن يفعل أي شيء حتى لو كان مضاجعة حمار أو سمكة. فقد سمعت أنهم يفعلون ذلك في الجنوب حتى مع الضربان، ثم يأكلونه فيما بعد. تفو! رأيت أحد البدو يسقط على الأرض من دون حراك. لقد تلقى ضرة قوية من أحد الهيبيين. كان صراخ الإناث يرتفع تحت عراك أجساد الذكور. استطاع بعضهن أن يرتدي جزءاً من الثياب. اختفى بدويان في مكان آخر بعيد مني، في حين كان واحد يحاول أن يقاوم الركلات على وجهه دون جدوى. وكانت مجموعة من الهيبيين تتكوم فوق أحدهم. كنت أشاهد ذلك بخوف على الرغم من أني توقعته. تفرقت الجماعة

المكتومة في الوسعة وهي تنظر بانذهال إلى ما حصل. وقف آخر البدو وهو يحاول أن يهرب جهة البحر. كان الدم يسيل من عنقه. وكان يجر رجله مثل ذئب وقع في المصيدة. رأيتها عارية، واهنة، وسكين في يدها اليمنى تقطر دماً تحت وهج الشمس. أصبت بخوف حقيقي وأنا مختبئ داخل الحشائش. تصورت أنها يمكن أن تذبحني مثله. فقد كانت نظراتها زائغة. وعندما تأكدت أن السكين التي في يدها ليست هي سكين **الغريب** وإنما هي سكين أوروبية، فضلت أن أهرب. وأخذت أركض بسرعة جنونية فوق الحشائش وبين الأشجار حتى بلغت القرية...

6

قال المسيح: «خِرافي تسمع صوتي وأنا أعرفها فتتبعني»، وفكرت: إن خرافي تسمع صوتي وأنا أعرفها، لكنها لا تتبعني، بل تتحول إلى ذئاب شرسة أحياناً. وهكذا يصبح من الضروري قتل المسيح في داخلي والتحول إلى نعجة أو ذئب أو ثعلب. وقد فعلت ذلك مراراً في الليل وفي النهار. وها هو النهار الآن، ولن يكون من دون شك مثل جميع الأيام، فكل لحظة لا تشبه أختها فكيف بالأيام؟ وواهمون أولئك الذي يعتقدون أن لحظاتهم تتشابه. لأنها إذا كانت تتشابه في الظاهر فإنها في داخل النفس البشرية تختلف بين ثانية وأخرى أو أقل من ذلك بكثير. كنت أجلس على حجرة قرب الدكان الوحيد الموجود بالقرية، وكان بعض الزبائن من الهيبيين في الغالب يتوافدون عليه ليبتاعوا بعض ما هم في حاجة إليه. يلقون التحية بلغاتهم أو بإشارات. نوع من الألفة. ربما اعتادوا على ذلك في أمستردام أو كاتماندو أو في بعض الأحياء الخلفية في لندن. انتهيت من أكل سندويش علبة سردين صنع آسفي ونصف خبزة. شربت الكوكاكولا. بقيت بين يدي قطعة خبز، لففتها في ورق جريدة ووضعتها عند الجدار الذي كنت أتكئ عليه. بعض نملات كانت تتحرك وعلى الفور، وبغريزة ما، نحو القطعة المتبقية. بعدما أكلت شعرت بأنني في حاجة إلى شيء آخر. وعبثاً حاولت أن أعرف طبيعة

هذا الشيء الذي أرغب فيه. دار شريط أمامي. امرأة. كأس نبيذ. مشاجرة. شيلوم. سيجارة. سيجارة محشوة. في النهاية أخرجت علبة السجائر وأخذت أدخن بعمق. رفعت رأسي ورددت على فتاة قذرة: «هيلو!». اختفت، وهي تسير حافية على الرمل الساخن. كانت تحمل في يدها زجاجة والماس. السماء فوق البحر تبدو صافية زرقاء. أما السحب البيضاء القليلة فهي كالعِهن المنفوش. صدق اللّه العظيم. وكان إبراهيم يجر وراءه قافلة من الهيبيين. وعندما رآني اتجه نحوي وهو يمضغ شيئاً في فمه، تأكدت فيما بعد أنه قطعة شوينغوم:

- أستاذ، ماذا تفعل هنا؟ ألم تنزل إلى البحر؟

- لقد أكلت. كان بي جوع شديد.

- مزيان. عليك أن تأكل كلما شعرت بجوع حتى لا تبقى نحيفاً على هذه الحالة. كان الهيبيون وراءه ينظرون إليّ في صمت. أحدهم وضع ذراعه على كتف فتاة شقراء. وانحشرت هي تحت إبطه. قبّل جبهتها دون أن ينبس بكلمة. ظلوا ينظرون إليّ. قلت لإبراهيم:

- هل وصلوا اليوم؟

- لا، جاؤوا من مراكش. وقد ناموا أمس في مكان ما. منذ الصباح الباكر وأنا أبحث لهم عن مأوى ألا تأخذ البعض منهم معك؟ إنك تسكن وحدك، ويمكنهم أن يدفعوا لك ثمن الكراء. أنت مجرد أستاذ فقير ولا تتاجر في الحشيش. تلك الأجرة البسيطة التي تتقاضاها لن تنفعك في شيء. ثم إن معرفة الرجال كنوز. من يدري قد تستفيد منهم. أعرف شخصاً تعرَّف إلى هيبية أخذته إلى لوس أنجلس وأصبح أستاذاً للدارجة المغربية هناك. تصور هذا. وأنت تبارك اللّه متعلم وذكي. ولو كانت لي ثقافتك لما بقيت في المغرب يقسو عليّ الصبيان منهم من أمه قوادة وأخته قحبة...

- هذا شيء آخر يا إبراهيم. إنني أعمل من أجل إنقاذ هذا الوطن.

- ومن تكون يا أستاذ؟ أنقذ نفسك أولاً. هم يبنون الفيلات والعمارات وأنت حاشي الإصبع.

- ابْنِ وعلّ، سرْ وخلِّ...

- ذاك شغلكَ.

التفتَ إلى المجموعة وتكلم إليهم بالفرنسية. وقفت ومشيت وسط سبعة أشخاص، أربعة ذكور وثلاث إناث. قال أحدهم:

- من الصعب أن يجد الإنسان مأوى هنا.

- حسب الظروف. الناس لا يمكثون هنا طويلاً. ثلاثة أو أربعة أيام ثم يرحلون إلى أماكن أخرى في العالم.

- نحن أيضاً سوف نسافر إلى فاس بعد أيام. هل تذهب معنا؟

- لا. أنا أفضِّل هذا المكان. سأبقى هنا بعض الوقت ثم أرحل إلى الدار البيضاء.

- الدار البيضاء كبيرة وفظيعة مثل أية مدينة أوروبية.

- تماماً.

وصلنا إلى البيت. كان واحد منهم يتحدث الفرنسية بلكنة ظاهرة، وعلمت فيما بعد أنه ألماني، أمرد ونحيف لكنه لطيف جداً. وكان الذي لا يتحدث ينظر إليّ بريبة ولا يبتسم في وجهي. من أصل بلجيكي ويبدو أنه شاذ جنسياً، وهذا النوع طبعاً لا يخفى على أحد. وربما خرج فيما بعد إلى الغابة يتصيد بعض الرعاة. اللّه يستر! وعندما دخلنا وضع كل واحد حوائجه كيفما اتفق. وأخرجَت واحدة طبلة صغيرة وأخذت تنقر عليها. قال لي الشاب الألماني:

- هل سبق أن تحششت بالغيطة؟

قلت وأنا أكذب نعم. وكنت أعرف أن الغيطة ألقت بالعديد من

الناس في مستشفى برشيد. أدخل الشاب يده في جرابه وأخرج كمية من الأوراق اليابسة. قال:

- نريد أن نجربها، لكننا لا نعرف طريقة استعمالها.

- أمرها سهل. أنا أهيئها لكم.

- وهل تتحشش معنا؟

- طبعاً.

كانوا ينظرون إلى تلك الأوراق الذابلة بذهول. أحدهم ثبت نظارتيه أكثر فوق أرنبة أنفه وأخذ ينظر إلى تلك الأوراق بفرحة ظاهرة، مثل فرحة طفل أمام لعبة جديدة يكتشفها لأول مرة. قلت للألماني:

- هل معكم كامبينغ - جاز وإبريق؟

سمعت شاباً آخر يقول:

- سوزي! اذهبي إلى السيارة. هناك الكامبينغ - جاز وكل شيء. اختفت الفتاة. وبعد أن حدق أحد الشبان في الجدران المبنية من الطوب، وفي أرجاء الغرفة الخالية من الأثاث. قال:

- إنها غرفة رائعة وواسعة. هل أكتريتها بثمن مناسب؟

- نعم.

- لقد حاولنا أن نبحث عن غرفة هنا دون جدوى. إنها اقتصادية ثم إننا سمعنا عن قرية الذيابات الشيء الكثير. أقصد أنا وهيلين. الباقون تعرفنا إليهم في الطريق. طريق العالم، هذا الطريق الطويل الذي تلتقي فيه بأنواع من البشر ثم يتم الافتراق إلى الأبد. كم هي رائعة وسخيفة هذه الحياة! أليس كذلك؟

قلت في نفسي: «هذا أحمق آخر. فلأجرب معه».

أجبته:

- ما تقوله معقول. النهاية هي الموت لكنهم لا يدركونها. إننا نؤنس بعضنا في طريق مظلم للوصول إلى هدف. وعندما نصل نتسامح ونتوادع كل يلقى مصيره.

- ولكن لماذا لا يكون الطريق مضيئاً؟

- لو كان مضيئاً ما احتجنا إلى مؤانسة.

أطرق ثم نظر بزاوية عينه إلى التي كانت تنقر بهدوء ورتابة على الطبلة. لم تهتم به ولا بنظراته، لم يهتم بنا الآخرون كذلك. كانوا يتحدثون ربما في أشيائهم وعن أشيائهم أو إلى أشيائهم. وعادت سوزي بالكامبينغ - جاز وبإبريق أزرق، اسوَدَّ قاعه، ثم جاءت كذلك بالماء في زجاجة من البلاستيك ومربعات السكر. وكانت تلف حول عنقها خرقة حمراء، اندسّ أحد طرفيها بين نهديها، وتدلى الطرف الآخر على كتفيها طويلاً. كانت الأخرى لا تزال تنقر برؤوس أصابعها على الطبلة، وكان الآخرون في عالم خاص. أما الشاب الألماني فبالتأكيد أنه لم يكن معهم في عالمهم ذاك. نظر إلي، وقال بحماس:

- هل تهيئ لنا الغيطة؟

قربت الكامبينغ - جاز. ملأت الإبريق ماء ووضعته ليغلي فوق النار. الواقع، أنها أول تجربة لي لتهيئة الغيطة. فقد سمعت عن طريقة تهييئها ولم أكن متأكداً من شيء. وقال لي الثعلب: «جرب مثلما جربوا قنبلة هيروشيما، ومثلما جربت أول قنبلة. جرب مثلما جربت نوايا الشر البشرية عبر التاريخ». وقلت للثعلب، وبهدوء تام: «سوف أفعل». وهكذا عندما رأيت بخاراً يتصاعد من الإبريق. ألقيت بكمشة من أوراق الغيطة داخله. هذه المرة، لم يسجنوا أنفسهم داخل عالمهم الخاص، لكنهم أخذوا يترقبون النتيجة. سمعت سوزي:

- هل سنتناولها في كؤوس أو من الإبريق مباشرة؟ نشمها أم نشربها؟

قلت:

- لا. إنها تتناول في كؤوس مثل الشاي والقهوة. نسيت أن أقول لك ذلك.

- سوف أذهب فوراً لأحضر بعض كؤوس البلاستيك من السيارة. رفعت غطاء الإبريق. كانت الوريقات الآن تعقد لونها وتتحرك في ذبذبات ضعيفة. وعندما تغيّر لون الوريقات، قال لي الثعلب: «يكفي هذا ما دمت لست متأكداً فكن حذراً. وفي كل تجربة أولى لا بدَّ من الحذر، وعليك أن تعلم أن الراعي غالباً ما يكون وراء الحمل أو النعجة». أطفأت النار، وانتظرنا سوزي لتعود بعد قليل بكؤوس من البلاستيك. لم تتأخر كثيراً. وأمرني الثعلب أن أبدأ بنفسي فقلت نعم. ثم صببت قطرات في كأسي، وتوالت القطرات في كؤوس الآخرين، كان الجميع ينتظرون البادئ، ولا أحد تشجع ليغامر بنفسه، أدركت ذلك، وكنت أتظاهر بثقة في النفس، وأن ما نفعله إنما هو أمر عادي وعادي جداً، وأن ما نتناوله ليس سوى نبات غير ذي مفعول يذكر، بل ربما بعث فينا المسرة، وقربهم إلى ما ينشدون من السعادة المطلقة. ولم أكن أعرف حقاً فيما إذا كانت هناك سعادة مطلقة. كان التردد بادياً عليهم جميعاً، لأن بعضهم قرّب الكؤوس وأخذ يتشممها، كما يتشمم حيوان ما بعض الأطعمة قبل أن ينقض عليها. أما أنا فلم أشم كأسي، وإنما قرّبتها من شفتي، ورشفت بصوت مرتفع جرعة صغيرة، بكل حذر وخوف. ورأيت بعض الأيدي لا تزال تقرّب الكؤوس من الأنواف والشفاه دون أن تجرؤ على شرب ما فيها. أعدت الكرّة، رشفت شبه جرعة ولكن بصوت مرتفع. كنت أضحك وأفتعل مرحاً وسعادة

مطلقة. في الأخير تشجع أحدهم وشرب جرعة، سُئل عن مذاق ذلك فقال من دون تردد: رائع. رائع جداً. ثم أعاد الكأس إلى فمه وشرب جرعة أخرى. تعمدت دائماً أن أرتشف بصوت مرتفع. ثم فعل الآخرون مثلنا. سارت الأمور بشكلها الطبيعي. قال شاب:

- هذا شيء أحسن بكثير من القهوة والشاي.

أجابت واحدة:

- تماماً. شراب رائع. مع الأسف لم أكن أسمع شيئاً عن هذه الغيطة.

قلت من دون شعور:

- سوف أتفرج عليك أيتها القردة.

قالت:

- ماذا؟

قال الثعلب: «ماذا تقول؟ هل جننت؟ تكلم معها بلغتها».

قلت لها:

- إن الغيطة رائعة. سوف تشعرين براحة فائقة بعد قليل. سوف نحلق جميعاً في عالم خيالي بديع.

قال آخر:

- هل ما تقوله صحيح؟

- سوف ترى.

تمدد أحدهم على الحصير. لم يعد يقوى على الكلام. كان يحدق في لا شيء، هنا وهناك وبعد مرور قليل من الوقت بدأ الآخرون يفعلون مثله. ثم أخذوا ينامون الواحد تِلو الآخر، أنا أيضاً شعرت بأن النوم بدأ يداهمني. ثقلت أجفاني. وضعت الكأس أمامي وقد رشفت منها جرعات فقط، شبه جرعات، وبصوت مرتفع. كان

نوع من الدبيب يتملك كل جسدي ورأسي. وقلت: هذا ما تفعله الغيطة إذن. فهي منوم قوي. ولو شربت كأسي لكنت نائماً الآن مثلهم. لكني لم أنم. شعرت بحالة غريبة لم آلفها عند تناول الشراب أو الحشيش أو الكيف. بقيت وحيداً في الغرفة - الكوخ. أهل الكهف كانوا نائمين أمامي وحولي. أصبت برعب. سمعت أحدهم يشخر شخيراً شبيهاً بصوت الخنزير. كان آخر يقول كلاماً غير مفهوم وقد انبطح على بطنه. وقفت كالملسوع. ثم دلقت كأسي بقدمي وأنا أغادر المكان جرياً. أردت أن أستنجد بالثعلب لكنه اختفى. وتعجبت كيف أنه يتخلى عني في مثل هذه الحالة. ركضت وركضت. بيوت. أشجار. تراب. صمت. أصوات. خواء. خلاء. أشجار. رمل. بحر. شمس. كنت أحس وأنا بين الأمواج كما لو كنت أجرُّ كيساً ثقيلاً، فثيابي المبتلة ثقّلت على جسدي. خبطت في الماء دون جدوى، محاولاً أن أستعيد حالتي العادية لكي أطرد هذا التنمل والاسترخاء. ثم غادرت الماء منهمكاً وألقيت بنفسي على الرمل تحت وهج الشمس. ولم أحس بمن حولي. نمت ولم أستيقظ إلا في وقت بدأت الشمس تميل فيه نحو الغروب. كانت بعض الأشباح الآدمية تتحرك بعيداً على طول الشاطئ. نظرت إلى ما حولي وأخذت أسترجع بعض الصور والخيالات التي رأيتها في نومي. لم أفلح لأنها كانت كثيرة وغريبة. شعرت بأن ثيابي لا تزال مبتلة. نفضت عنها الرمل، ومع ذلك لم أشعر بالبرودة. مشيت نحو القرية. كانت شبه مهجورة، أحسست بجوع وذهبت إلى البقال. وعندما وقفت أمامه قال:

- ألم تحضر مهزلة هذا اليوم؟

قلت له:

- إن بي جوعاً. كاس - كروت. أي شيء. أعطني أكلاً.

- لا شك أنك دخنت كثيراً من الحشيش. أحمد اللّه لأنك لست مثل أولئك المجانين. لقد خربوا القرية اليوم.

- من؟

- أولئك الهيبيين الذين جاؤوا اليوم. لقد تناولوا الغيطة من دون شك. كل الناس يقولون إن ذلك لا تفعله سوى الغيطة.

- وإذا كانوا قد تناولوها فإن الناس عرفوا كيف يعيدونهم إلى رشدهم. حاول الهيبيون إضرام الناس في بعض الأكواخ. أحدهم ركب على امرأة عجوز، انتزع منها السكين التي كانت تنظف بها فروة الماعز لتجعل منها قربة. ثم مزق الفروة بالسكين. كاد أن يقتلها ففرت لتستنجد بصهرها. لقد هربوا إلى الغابة مثل الذئاب الجائعة بعد أن أشبعهم السكّان ضرباً بالعصي...

كنت أبتلع دون أن أمضغ وأنا أسمع لحكاية الغيطة هذه. لو أني شربت كأسي كلها لكان مصيري مثلهم. وقلت للثعلب: «برافو عليك! هذا إنجاز رائع قمت به. وهكذا أريدك دائماً».

قال:

- اذهب تفقّد حوائجك؛ واركب أول سيارة بالأوطو - سطوب. وغادر القرية إلى الصويرة، ونشرب لك زجاجة نبيذ هناك ولا تتحشش هذه الليلة، فربما كانت العاقبة سيئة. ونحرص على أن تسمع خرافك صوتك.

قلت: «فكرة جيدة». ثم نفحت البقال ثمن ما أكلت وغادرت المكان.

7

كانت فاطمة قد اختفت عني أو أنني اختفيت عنها. في أحد الدكاكين الصغيرة الذي مدَّ على أرضه حصير بالٍ جداً، كانت جالسة في الزاوية. وعلى الحصير عدد قليل من الناس يأكلون ويدخنون الكيف والحشيش. وقفت على التو:

- عليّ! توحشتك ألزين. أين كنت؟ لقد غادرت الصويرة قليلاً ثم عدت لها. هذا الجو يعجبني كثيراً. يبدو أنني لا أستطيع أن أعيش في مكان آخر من العالم تعال اجلس معنا.

أشارت جهة شاب يبدو أنه من عائلة ثرية. كان يبحلق فيّ بصمت. لم تتسخ ثيابه بعد. جديد على هذه الحياة من غير شك. تخطينا بعض الأقدام والرؤوس، وجلست قبالة الشاب على الحصير البالي.

- هذا علي. أستاذ في الدار البيضاء.

هزّ الشاب رأسه دون أن يتكلم، حدق في بوابة الدكان بعينين زائغتين وحمراوين. لا شك أنه دخن كثيراً من الحشيش، أو تناول شي مصيبة أخرى أقوى من الحشيش. وقد يخطئ ظني. فربما لم يكن متحششاً ولا هو من عائلة ثرية. قالت فاطمة:

- منذ مدة لم أرك.

- دائماً بين الصويرة والذيابات. من الأفضل أن يختفي الإنسان أحياناً، لاكتشاف عوالم أخرى أو لاكتشاف ذاته.

- صحيح. أنت تتكلم دائماً في أشياء صعبة بقدر ما هي معقولة إذا ما تأملها الإنسان. كل كلماتك لا أزال أتذكرها. ولا تعتقد أنني بليدة ولا أفهم شيئاً.

- لم أقل هذا أبداً.

التفتت إلى الشاب الذي كان لا يزال ينظر من بوابة الدكان إلى طلاء الجدار المقابل.

- عز الدين. ألا تزال معك سيجارة محشوة؟

ظلَّ الشاب صامتاً وجامداً. أدخل يده في جيب الجاكيت وبهدوء تام أخرج علبة السجائر الأميركية، وشيئاً آخر مدّه إلى فاطمة. ثم إن هنداً أنجزَتْنا ما تعد؛ مع أنها لم تعدْنا بشيء، ولم نطلب منها ذلك.

قالت:

- لم أعد أسكن الفنادق الآن. أنا أسكن في بيت يملكه عز الدين في الملاح القديم. هناك نقضي أياماً ممتعة مع رفاق له ومع عابرين وعابرات. نظر إليها عز الدين بتفحص وصمت دائماً. خصلات شعره متهدلة على الكتفين، سوداء نظيفة، فكرت أنني منذ مدة لم أغتسل، لذلك كنت لا أنام جيداً. وأتقلب في الفراش كثيراً، خصوصاً في الصباح عندما يذهب مفعول الكحول أو الحشيش. أبدأ أحك وأحك، وأحس بحرارة فائقة في أماكن معيّنة من جسمي. أشم أيضاً رائحة البحر، مختلطة مع ما تفرزه المسام. يبدو أن لعز الدين حماماً في هذا البيت الذي تحدثت عنه فاطمة. كان يدخن بعمق أمامي، وبصعوبة يتسرب دخان الدكان إلى الخارج، بل إنه يظل يدور ويلوب في فضاء المكان المعتم.

استمرت فاطمة:

- لقد كانت ليلة أمس رائعة. أليس كذلك يا عز الدين؟

رفع الفتى عينيه، وتكلم أخيراً:

- نعم. لولا تلك الهولندية الحمقاء التي أرادت أن تنتحر عندما بدأت تضرب رأسها بالجدار. لكن هذه أشياء تعوّدنا عليها هنا.

قلت:

- هل أنت من الصويرة؟

ردّ ببطء واتزان:

- أصلي من الصويرة. والبيت الذي أسكنه هو لجدي. إننا نقيم في الدار البيضاء.

- لا شك أنك طالب.

- نعم. شعبة الأدب الفرنسي. لكن ذلك لا يرضيني. ليس هناك أساتذة أكفاء. لولا والدتي المشلولة لكنت قد تابعت دراستي في فرنسا أو سويسرا أو بلجيكا. ولكنها المسكينة تتشبث بي كثيراً. أنا الذكر الوحيد في العائلة. كل أخواتي الأربع متزوجات. من أجل تلك المسكينة تحملت الدراسة في الرباط. ثم إني لا أحضر كل المحاضرات. أفضّل أن أقرأ في البيت.

- ذاك شيء رائع. كثير من العباقرة كانوا عصاميين. إن كليات الآداب لا تصنع أدباء.

- أعرف ذلك جيداً. وعندما أنهي إجازتي يفرج مولانا. ربما تكون الوالدة قد توفيت، وسأرحل لأهيئ دكتوراه دولة عن مسرح جاك أوديبرتي. وقفت فاطمة. رأيتها تنادي بصوت مرتفع عند الباب فازداد الدكان عتمة، تجمع حولها هيبيون وهيبيات. مرت امرأة ملفوفة في حايك، لا يظهر منها سوى عينها اليسرى. كانت تنظر إلى

فاطمة بتلك العين الواحدة. ولا شك أنها كانت تقول: «اللّه يستر على قحبة. فالقحوب يجب أن يكون بقواعده، مع الستر والعز والنفخة والنخوة وهلم جرًّا». دخلت فاطمة وهي تجر وراءها هيبياً حافياً متسخاً، وقد تمزق سرواله عند الركبتين، ويظهر لحم عجيزته أبيض كالشمع.

قالت:

- جونتر. شاب لطيف.

قال عز الدين:

- لقد كان معنا ذات ليلة. لا تأتي بمثل هؤلاء. إنه أحمق. ونحن لا شأن لنا بالمجانين.

قال جونتر:

- هيللو!

كان يشد شعر رأسه من الخلف بخيط مطاطي. لم يرد عز الدين على تحيته، بل التفت إليّ:

- لم يبقَ لنا سوى هؤلاء. إذا أنفقت فلوسي فأنا أعرف على من أنفقها، لا على أمثال هذا المعتوه. بعض الهيبيين أذكياء. يتحدثون في كل شيء. في الأدب في الفن في الفلسفة. أما هذا فلا تعرفه ماذا يقول. فقط يأكل مثل غول جائع. تصور أن أكل تلك الليلة طنجية بأكملها دون حتى أن يغسل أظافره الوسخة.

- معك حق. أنا أيضاً لا أحب مثل هؤلاء الرجال الجوف.

قالت فاطمة:

- لكنه المسكين طيب ولطيف.

قال عز الدين:

- لأنه جاهل مثلك.

فوجئت أنا بما قاله عز الدين، تصورت أن فاطمة ستحرق

الدكان فوراً وستحطم كل شيء. لكن الكلمات انحبست في حلقها. ابتعلت ريقها وصمتت. آه. قلت. نموذج الإنسان بازدواجيته. أسد ونعامة. خيّر وشرير. شجاع وجبن. تذكرت: «أنا زمورية وأجرك على اللّه». أمام هذه الطبيعة البشرية السائدة لا يبقى هناك زموري ولا دكالي ولا فاسي، آسي ولا سامي. البشر يشتركون في أشياء بقدر ما يختلفون في أخرى. صارت فاطمة نعجة ضعيفة في حالة نفاس. استسلمت للراعي. أما أنا فقد كنت متأكداً من أنها تخفي الأفعى في داخلها مثلما أخفي أنا ثعلبي، والذي ظلَّ ينظر إلى ما يجري في المكان بهدوء ووقار وحكمة. تلك أيضاً طبيعة توجد حتى في الثعلب، فهو يجبن أحياناً، يتراجع إذا أحس بالخطر، وأحياناً أخرى يهاجم.

قلت لعز الدين:

- لا بأس. اتركه يجلس معنا حتى ينصرف في خاطره. وفوق هذا يبدو أنه محشش بما فيه الكفاية.

- محشش أم لا. المهم أنه لن يشم رائحة حشيشي. إنني أستطيع أن أنفق كل رأسمال معمل أبي على الأذكياء. ولكن مثل هؤلاء. أنا لا أرتاح لهم. إنهم عالة فقط.

ثم التفت إلى فاطمة:

- لا تقولي إننا سنأخذه معنا إلى البيت مرة أخرى.

- أنا لم أقل هذا. ثم إن البيت ليس بيتي.

قالت النعجة ذلك واختفت ذكورتها. أصبحت تظهر لي الآن أنثى حقيقية. تغيّرت صورتها في الذهن، صورتها الأولى في أول اللقاء. وكان جونتر غير آبهٍ لما يدور بيننا، يلتفت حواليه وينظر إلى الهيبيين في المكان وهم يأكلون أو يتحششون. حيا فتاة من بعيد

فابتسمت له. تحرك قليلاً فوق الحصير إلى الأمام فتراجع عز الدين في اشمئزاز.

نظر إليّ لكي أشاركه اشمئزازه. قلت لجونتر:

- ماذا تفعل؟

- أتجول في العالم.

- هل تركت الدراسة لهذا الغرض؟

أجاب بفرنسية ركيكة:

- لقد درست في السجون والإصلاحيات. آخر مدرسة عامان سجناً في إيران. أنا معجب بشاه إيران إنه رجل عظيم، لكن السجن هناك قاسٍ.

قال عز الدين:

- هل سمعت ما يقول هذا الحلوف؟ ماذا يمكنك أن تستفيد منه؟

قلت لعز الدين:

- لا بأس. نتعلم كيف نستمع إلى كل الناس. فمن أخطائهم نستفيد لنصحح أخطاءنا.

- إن وجود مثل هذا على الكرة الأرضية خطأ فادح.

- ومن أدراك. قد يكون وجودنا نحن هو الخطأ. أقصد وجود الأقلية على الأرض.

سرح في دخان الفضاء. لم يردّ ولكنه أمر فاطمة أن تحشو سيجارة أخرى.

وقال جونتر بفرح ظاهر:

- آه معكم حشيش. رائع، رائع جداً.

قال عز الدين بالعربية:

- واللّه لن تلمس هذه السيجارة شفتيك.

قالت فاطمة:

- كن مطمئناً. سوف أصرفه بطريقة مهذبة.

- ذاك شغلك.

لكنها أمرته أن ينصرف بطريقة غير مهذبة:

- جونتر. نلتقي مرة أخرى. نريد أن نتحدث مسائل خاصة الآن. قال بكل عفوية:

- نعم. نعم. نلتقي في الكافي هيبيز.

- تماماً.

- باي باي.

ثم غادر الدكان بعد أن تخطى بعض الأرجل والرؤوس، فسمعت عز الدين يتنهد تنهيدة الخلاص.

قال لفاطمة:

- لا تفعلي مثل هذا مرة أخرى.

- لم أكن أعرف أنك تكرهه. لن أكرر ذلك مرة أخرى.

- أنت تعرفين أنني أختار أصدقائي.

التفت إليّ:

- اسمح لي. أنا لا أتحدث عنك. إني أتحدث عن هؤلاء الهيبيين لأنني أعرفهم جيداً. أنت البيت بيتك. لا تضرب حسبة. الأكل والشراب والحشيش والبنات من الآن. إن أمثالنا قليلون هنا.

قلت:

- شكراً. أنا مقيم في الذيابات الآن.

- أترك كوخك هناك وتعال لتسكن معنا. لكن يبدو أنك تفضّل العزلة.

- إنه عالم غريب هناك، ولذلك فضلت أن أكتشفه، ربما أختزن

شيئاً في الذاكرة لأكتب عن ذلك العالم في المستقبل رواية أو أي شيء.

- رائع. هل تكتب؟

- بعض القصص القصيرة.

- أنا أيضاً أكتب شعراً لكني لا أنشره. سوف أقرأ لك بعض القصائد فيما بعد. أما هذه، فإنها لا تفهم في هذه الأمور. لكنها طباخة ماهرة وإن كانت غشاشة.

زعقت الموسيقى فجأة. صوت جيمي هيندريكس. عرفته للتو. إنه الصوت الذي لا تخطئه الأذن. اهتز جسد عز الدين، لم يعد جامداً كما كان، تغيّرت ملامح وجهه فجأة وانشرحت. ما كنت أعتقد أن الموسيقى تستطيع أن تفعل ذلك في الإنسان. أصبح عز الدين شخصاً آخر قوياً مقتحماً جريئاً. دغدغت فاطمة السيجارة برفق بين كفيها ثم أشعلتها وقدمتها له. دخن ثم قدمها لي. كان صوت الجيتار يملأ المكان. يتسرب بين دخان الكيف في الفضاء وربما أيضاً ينتشر في الفضاء الخارجي.

قال عز الدين:

- هذا مبدع حقيقي. إنه يكتب بالجيتار، يرسم لوحات خارقة، يحلق في فضاء حلم. خصوصاً إذا استمعت إليه وأنت محشش. هززت رأسي موافقاً، وناولت فاطمة السيجارة. كنت أزم شفتي، وأترك للدخان الذي استنشقت فرصة أن يتوغل في عمق هذا الجسد الذي لم يعد جسدي ولا جسد الثعلب. كثيراً ما شعرت بهذه الحالة. أتصور هذا الجسد مجرد عربة تحمل شيئاً ما قد يكن الروح. ولكن الروح أمْر ربّي، وقد يكون شيئاً آخر. والدخان الآن يتسرب داخل تلافيف العربة ليدغدغ ذلك الشيء. فكرت أن الجسد مجرد أداة، يدافع عن ذلك الشيء الموجود في كل شيء حتى في

صوت الجيتار. الجسد وقاء. جسدي هذا وأجساد باقي الكائنات الحية. أما ذلك الشيء الآخر الذي قد يكون اسمه الروح فأمره غريب. أقصد روح الإنسان، روح الحيوان، روح الرائحة، روح الصوت، روح شعاع الشمس، روح الكون بأكمله والتي لن تكون سوى اللّه. والسير في المتاهة الأزلية لن يؤدي إلّا إلى شيئين، النفي أو الإثبات. الشك أو اليقين...

قال عز الدين:

- فيمَ تفكر؟ أشعر أني في حالة خاصة. هل أنت كذلك؟

- نعم أنا أيضاً. حالات من الذهول تنتابني أحياناً فأنفصل نهائياً عن القطيع.

- هل تسميهم قطيعاً؟ برافو عليك! إنهم قطيع بالفعل.

- كلما دخنت الكيف أو الحشيش أشعر بجفاف في حلقي وبجوع.

- عليك أن تطلب ليمونادة. كُل أي شيء. أنا قلت لك. لا تضرب حسبة. أعرف أنك أستاذ فقير ولا شك أن وراءك عائلة تنفق عليها. لا تعتقد بأنني غبي فأنا لا أفهم في هذه الأمور.

قلت:

- معي قليل من النقود، سوف أذهب لأشرب بيرة.

- فكرة حسنة. ولِمَ لا تدعونا لنشربها معك. هل تعتقد أنني أصلي على فروة السبع؟

وقف عز الدين. دفع لصاحب الدكان، ثم ذهبنا إلى بار صغير يعرفه جداً. فاطمة تشرب بصمت. تغيّرت تماماً. اختفى من سلوكها ذلك النزق الذي عرفته فيها. لم يكن عز الدين رجلاً من النوع الذي يتكلبن أمام المرأة. كان يبدو صارماً ولطيفاً في الوقت نفسه. لاحظت خلال هذا الوقت القصير أن له ثقة كبيرة في نفسه، الشيء

الذي لا يتوفر لدى القطيع. أمحت نهائياً الصورة التي كونتها عنه أول الأمر. الفتى الثري، المدلل، الغبي، الذي لا ثقة له في نفسه ولا في الآخرين. الآن فقط بدأت أعرف لماذا كان صامتاً وخجولاً. لم يكن ذلك الصمت سوى ترصد. دراسة مسبقة للإقدام على أي فعل أو قول. لكن شعرت أنه استراح للقائي. على الأقل وجد من يتحدث معه عن مشروعه، جاك أوديبرتي مسرحياً. وأن تتحدث في هذه الأشياء مع الناس فذلك نوع من الحمق. ففي هذا المغرب الصَّقع جرت العادة ألا يتحدث الناس سوى عن فروجهم وما سوف يمتلكون من دور أوْ فيرمات. وفي حالات مثل هذه ليس على أمثال عز الدين سوى الصمت، الاستماع، واجترار الآلام الداخلية من جراء ما يتردى فيه القطع من بلادة وانحطاط، والذي يريد قسراً أن يعكس كل ذلك على الأقلية التي تتحمل آلامها الخاصة وآلام القطيع.

- الشيء نفسه. باردة جداً.

قال الجرسون:

- حاضر.

قال عز الدين:

- قليلاً من السردين من فضلك.

ثم توجه إليّ بالخطاب:

- كنت ستحتفل وحدك. . . ولماذا لا نشرب جميعاً؟

- ما كنت أعتقد أنك. . . إني أتحفظ من البشر أحياناً، بل قلْ دائماً.

- ذلك هو طبعي أيضاً. ولكن كان عليها أن تعرّفنا إلى بعض. لا أدري شيئاً من أمر هذه المخلوقة.

قالت فاطمة:

- ما عرفتش.

- ومتى عرفت في حياتك شيئاً؟

لا مجال لأن أتعجب. رأيتها تبحلق في فضاء البار. ثم مدت يدها لتحمل كأس البيرة إلى فمها. وجاء الجرسون بثلاث بيرات مثلجة. بعض الصيادين يشربون النبيذ في زوايا البار، ويتحدثون بهدوء. لا شك أنهم مقموعون هنا من طرف السلطات المحلية. الشاربون في الدار البيضاء حتى لو كانوا ماسحي أحذية، يتقمصون شخصيات القايد والوالي والوزير عندما يشربون نصف زجاجة من النبيذ. ولا يستعيدون شخصيتهم الحقيقية إلا عندما يجدون أنفهسم في أقبية مراكز الشرطة أو المقاطعات أو ملفوفة رؤوسهم بضمادات على إثر معركة طاحنة بسكين أو زجاجة أو كأس. . . كنت أشعر بانشراح بعد البيرة الثانية. ظهر ذلك على عز الدين أيضاً وأمر فاطمة أن تحشو سيجارة أخرى.

قلت له:

- لا شك أننا سنفقد وعينا قبل حلول المساء.

- الوعي الحقيقي لا يُفقد سواء بالخمر أو بالحشيش. في حين أن الوعي الزائف سوف يظلُّ زائفاً من دون سكر إلى أن يفتضح أمره بعد تناول مادة مسكرة أو محششة.

- أقول إننا سوف نشعر بتعب حقيقي هذا المساء. وأنا أحب عالم الليل. فيه أدخل المطلق. وإذا استمررنا هكذا فإن الليل سوف يفلت من بين يدي على الأقل.

- لا تخف. ما دمت معي فلن يفلت منك أي شيء. أنا أعرف المدينة وأعرف كل ما يجري هنا. لا تخف. وإذا تعبت فما عليك إلا أن تنام. لقد قلت لك: إن البيت بيتك. ولا تقل إنك سوف تذهب إلى قرية الذيابات هذا المساء.

جاء الجرسون بثلاث بيرات مثلجة، دون أن يطلبها منه أحد. فتحها بسرعة معهودة في الجراسين المحنكين. قال عز الدين:

- لماذا هذا؟ لماذا تكلف نفسك؟

رد الجرسون:

- كانت الأيام زينة عندما كان أبوك يملك هذا البار. خيرك سابق يا سيدي.

قال عز الدين:

- عندي فلوسي. لماذا تكلف نفسك؟

- اللّه يكثرها عليك. اللّه يزيدك. أنا لا أكلف نفسي. خيرك سابق.

قلت لعز الدين:

- هل البار كان في ملك أبيك.

أجاب بإيماءة من رأسه. ثم التفت إلى فاطمة التي كانت ذاهلة، تنظر إلى بعض الصور المعلقة في الجدار الأيسر للبار:

- اشربي. سوف نذهب إلى البيت. إنها الخامسة. هذا المساء سوف تطبخين طجيناً معتبراً على شرف الأستاذ. أحسن ما فعلت في حياتك أنك قدمتني لصديق ربما دامت الصداقة بيننا مدى العمر.

قلت:

- العفو. أتمنى أن يحصل ذلك. ربما كان مزاجنا متشابهاً. أحسن أيضاً أننا نعاني نفس المعاناة في مجتمع القطيع هذا.

- مرة أخرى، أؤكد لك أنهم قطيع فعلاً. ولا يمكن أن يعيش وسطهم إلا الثعالب... حركت عجيزتي فوق التاوري. كان الذيل يريد أن يمزق السروال. لمست أنفي وفمي ثم عطست. ظلّت الأمور كما هي. لم يبرز خطم ولا ذيل. وحمدت اللّه على ذلك لأنه لم يفضحني أمام شاب يحسن الظن بي. ولاحظت أن الثعلب اختار له

مكاناً معيّناً وانزوى فيه. وقلت في نفسي: «خير لك أن تفعل هذا. أنت القدوة. أخرج في الوقت المناسب واختفِ في الوقت المناسب أرجو ألا تورطني». ورأيته يغمض عينيه ويفتحهما بكسل ظاهر، في ذلك المكان المعيّن بالضبط. ثم سمعت النعجة تقول لي:

- سوف أهيئ هذه الليلة طجيناً تأكل من أجله أصابعه.

- ما عرفت عنك هذا.

- وكم تعاشرنا حتى تعرفني حقاً؟

قال عز الدين:

- خير لك أن تعرفها. فهي غشاشة وتعتبر نفسها أذكى من الآخرين. ضحكت، ولم تقلقها كلمات عز الدين. ورأيته يرشف كأس البيرة دفعة واحدة ويتزحزح من مكانه بهدوء كامل. قال:

- لننصرف، حتى نهيئ كل شيء قبل حلول الظلام.

فعلت مثله، في حين لم تستطع فاطمة أن تفعل مثلنا. غادرنا البار، ومشينا وسط أزقة ضيقة خالية وعامرة. وصلنا إلى باب تقليدي على واجهته خرصة نحاسية. لم يطرق عز الدين الباب ولكنه دفعه بقدمه. صعدنا درجاً حجرياً إلى أن وجدنا أنفسنا في صالة واسعة امتدت فوق أرضيتها زريبة مغربية ملونة. قال عز الدين:

- الدار دارك. لك غرفة هناك. هل تريد أن تراها الآن؟

قلت:

- فيما بعد. أشكرك.

- إن هذه تنام معي في غرفتي. وغالباً ما ننام هنا في هذه الصالة. أنت تدري أن الإنسان عندما يسهر حتى الصباح فإنه لا يفكر كيف ولا أين ينام.

- حصل لي هذا مراراً.

- مرة نمت في مزبلة بعد مضايقات بعض الحلوف.

- أنا أيضاً فعلت ذلك. كيف أن حياتنا تتشابه هذا الأمر غريب.

ثم قال لي الثعلب:

- لا تبالغ قليلاً. لا تحاول أن تجاريه في كل ما يقول.

قلت:

- أمرك.

قال عز الدين:

- ماذا تقول؟

- قلت أنا أيضاً حصل لي الشيء نفسه. هذا أمر غريب.

قال عز الدين:

- تفضل اجلس، ذلك الصندوق مملوء بقنينات الخمور. وإذا أردت أن تدخن أو تستمع إلى الموسيقى فتصرف كما تشاء. سوف أتغيب فترة قصيرة.

كانت فاطمة قد جلست قبلي وأخذت تتصفح بعض المجلات المُلقاة فوق الزريبة. في الواقع لم تكن جالسة ولكنها كانت ممددة على بطنها. وقال عز الدين وهو لا يزال واقفاً:

- اهتمي بالأستاذ. إذا كان يريد أن يأكل فالمطبخ تعرفينه جيداً. وإذا زارنا أحد احترمه فافتحي له الباب. لا أريد مجنوناً أو هبياً في هذا البيت. انصرف عز الدين. وقفت فاطمة وذهبت لتشغّل الكاسيت. . . صوت دافئ لنينا سيمون. لم أعترض ولكني تمددت على ظهري. كنت أنظر إلى السقف وأدخن. ثم أخذني النوم بعد ذلك. لم أستيقظ إلا على صوت عز الدين:

- دعي الأستاذ يستريح. لا توقظيه.

كانت أصوات أخرى وموسيقى ورائحة كيف وحشيش. فتحت عيني. امتلأت الصالة بهيبيين وهيبيات. لم يلتفت إليّ أحد ولم يهتم

بي أحد. استرحتُ لذلك. هذا شيء خارج عن المُعتاد. استرحت أكثر عندما رأيت هيبياً ممداً وهو يغط في نومه أو في تحشيشته وسط الصالة. لا هذا يهتم بذاك ولا هذه بتلك. فتحت عيني أكثر وظللت أتأمل أي عالم أنا موجود فيه. كان عز الدين جالساً عند رأسي لا يراقب أحداً ولا يهتم بأحد، ويبدو أنه كان يتحدث إلى الذي يجلس عن يمينه. وقال عز الدين:

- هل استرحت بما فيه الكفاية؟

- نعم. يكفي. لا أدري كيف أخذني النوم.

- الغالب أنك تعبت أمس.

- واللّه لا أدري.

- تشرب أم تدهن؟

- أفضل أن أذهب إلى التواليت أولاً. لا أزال في عالم آخر.

- أي عالم؟ أنت لا تزال في عالمنا. العالم الآخر لا أدري كيف سوف يتحمل كل هذا القطيع. القطيع الذي انقرض ومات، والقطيع الذي لا يزال يدبُّ على وجه الأرض.

- عندما أغسل وجهي، سوف أحاول أن أنسجم. لا شك أنك جربت هذا. وفي التواليت كانت فاطمة تمسكني من شعري، وهي تقول:

- آلنعاس. أفق آلنعاس! لن تنام هذه الليلة. حاولت أن أوقظك ولكن عز الدين منعني مراراً وتكراراً. كنت أقول له إنك لن تنام هذه الليلة.

- لا يهم. أنا متعود على ذلك. يعجبني أن أرى نور الفجر على شاطئ البحر. انصرفت وتركتني وحدي. أحنيت رأسي تحت البزبوز وتسربت قطرات الماء إلى ظهري فشعرت بانتعاش. لم أتحمل أكثر تدفق الماء فوق رأسي. جففت شعري بالفوطة النظيفة

المعلقة على الباب. وقال لي الثعلب: «ها أنت الآن إنسان آخر. وعليّ أن أتركك تتصرف كما تشاء». وتساءلت مع نفسي كيف أستطيع أن أشاء. وكيف يستطيع أي إنسان على الأرض أن يشاء أو يريد؟ وفكرت مع نفسي أن القطيع هو الذي يريد لنا ما نريد. ويا حبذا لو تحقق جزء بسيط مما تريده النعاج في هذه الحياة. لأنها تريد دائماً وتظل تريد إلى أن تذهب إلى البرزخ دون أن يتحقق كل ما أرادت. وأما الإرادة الحقيقية فهي إرادة الخير، أما إرادة الشر فالقطيع كفيل بتحقيقها، ويعمل كل ما في مستطاعه لتنفيذ تلك الإرادة الخبيثة. واسمحوا لي إذا أصبحت أخلط شعبان في رمضان. إن الحديث يجر الحديث. فلأعد إلى حوض الماء وأتمخط فيه وأفتح البزبور من جديد وأغسل أنفي، ولأستمر في حكاية الذي جرى. عادت فاطمة إلى التواليت، قالت بعد أن دفعت الباب بقوة:

- هل عاودك النوم؟ لقد تأخرت.

- كنت أتمخط.

- عندما كنا صغاراً، كنا نأكل مخاطنا. كان مالحاً ولذيذاً. كم ضربتني أمي من أجل ذلك.

- إخ تفو. . . لا يليق بأنثى أن تقول هذا الكلام.

- ما فيها عيب. أنا لست متكبرة. كل المغربيات أكلن المخاط في طفولتهن. وهنّ الآن لا يرضين بذلك، بل أكلن ما هو أفظع. أعرف صديقات لي فعلن ذلك. ولكنهن الآن توظفن وارتدين لباساً أنيقاً وأصبحن يتحدثن بالفرنسية. أنا لا أشبههن. وعلاش أكذب عليك؟ هل ستتزوجني؟

- اذهبي فأنا أريد أن أبول.

- وَخّا! عز الدين هو الذي أرسلني إليك.

اختفت. وقمت ببعض الحركات في الفضاء. لقد ولدت من

جديد. وقليلة هي الأوقات التي يشعر فيها الإنسان حقاً أنه ولد من جديد. قد تمر تلك اللحظات دون أن يعيرها اهتماماً، وعوضاً من أن يستغلها فإنها تفلت منه في دوامة آلية حياة القطيع. هذه اللحظات سعيدة وأعرف أنها لن تدوم. لا بدَّ أن يحصل الطارئ الذي يعكرها. وهذا على الأقل ما علمتنيه تجارب الماضي. فلتكن إذن هذه اللحظات لحظات صفاء. وسمعت من خلف الباب وسط ضجيج الموسيقى صوت فاطمة:

- عليّ! تعال فكأسك تنتظرك.

عدت إلى الصالة وجلست في المكان الذي كنت ممدداً فيه. كان الباب المؤدي إلى السُلَّم الحجري شبه مفتوح وفي زاوية الصالة، رأيت سلمى ولم أصدق عيني. قلت لعز الدين إني أعرفها فقال إنها حمقاء، وهذا لا يمنع من أنها جميلة. ثم أضاف:

- هل تريدها؟ اذهب إليها.

- إنها تعرفني. لقد نامت معي، ويبدو أنها لم ترني.

- لقد دخلت مع أولئك الثلاثة عندما كنت في التواليت.

ظللت أرمقها وأنا أرشف من الكأس التي قدمها لي عز الدين. كان لطعم الخمرة مذاقٌ خاصٌ وغريبٌ... أشعلت سيجارة وأنا لا أزال أرمق سلمى إلى أن رفعت رأسها نحوي. حدقت فيّ من خلال دخان الحشيش والكيف لتتأكد من أنها لم تخطئ. بالفعل وقفت واتجهت لترتمي عليّ، دون أن يهتم بها أحد... عز الدين فقط هو الذي نظر إليها، ثم انخرط في عالم الصالة:

- عليّ. أين اختفيت؟ كنت أبحث عنك.

- هل جئت مع القرية؟

- نعم. مع أصدقاء. تركت هناك حفلة.

- من الأفضل أن يغيّر الإنسان الأماكن أحياناً.

- معك حق. والأشخاص أيضاً. هذا ما حاولت أن أفعله دائماً.

- وأنا أيضاً. إلا أني قلّما أغيّر النساء حتى يغيرنني أما الأماكن والذكور فأسهل وممكن بالنسبة إلي...

طلبت من عز الدين أن يسقيها كأساً. فقال إنها لا تشرَب... تتحشش أحياناً. قلت له لنتأكد بأنها لا تكذب. وعندما أفرغ لها كأس النبيذ رفضته وقالت أنا أفضّل أن أدخن فجاءها الشيلوم من مكان ما، وكان يبدو عليها أنها تناولت كمية من الحشيش في السابق. ولا يمكن لمثلي أن يخطئ في هذه الحالة، خصوصاً أنني استيقظت من النوم للتو، ورغبتي موزعة بين أن ألحق بالركب أو أن أظل متأخراً عليه. ولكن ما فائدة أن أظل في المؤخرة؟ إنه الليل ولا أحد يراني سوى اللّه. ولا أحد يعرفني أو يعرف في داخلي ثعلباً سوى اللّه. والذين يعرفونك أو يدعون أنهم يعرفونك جيداً من الأصدقاء أو الأقارب هم الذين يوقظون فيك الثعلب مهما حاولت أن تقْبره. أما في لحظات مثل هذه فما على الثعلب إلا أن يستريح وينام على جنب الراحة، وإذا تطلّب الأمر أن يستيقظ فعلى كل حال لن تكون مهمته عسيرة بالشكل الذي يمكن أن نتصوره.

وعوداً على بدء...

مرت ساعات وشعرت أني سكرت. رقصت وراقصت. واختلط الحابل بالنابل أقصد الفم بالفم واليد بالنهد أو بأي شيء آخر. وكانت الموسيقى تتجدد والغرفة عامرة بالدخان. يدخل أشخاص ويخرج آخرون. اختفى عز الدين عني وسط الصالة وكانت سلمى نائمة الآن إلى جانب زجاجة النبيذ التي ما فتئتُ أفرغ منها لنفسي رغم شعوري بالاكتفاء. وقلت في نفسي: هذا عالم يجب أن نكتب عنه وأن يقرأه التلاميذ في المدارس. وفكرت شخصياً: أنني تعبت

من تدريس قصائد في مدح الخلفاء والملوك وقصصاً عن القط السمين والقط الهزيلِ والأم الحنون التي تساعد ابنها على ارتداء ثيابه وغسل فمه بمعجون الأسنان، وتقول له: «قبِّلْ ماما» لأني لاحظت أن أغلب تلاميذي صفر الوجوه. مُسَوَّسو الأسنان من جراء الكيف، لا يفطرون في الغالب ولا تساعدهم أمهاتهم على ارتداء ثيابهم. آه! ولماذا بالضبط الكتابة عن عالم الحشيش؟ لماذا لا تكون عن بؤسهم الحقيقي. مثلاً: الأم التي تذهب كل صباح إلى الموقف. الرجل الذي سُرقتْ دراجته. الأب الذي تزوج امرأتين وخلّف عشرة أبناء. الأخت التي تقحّب من أجل إعالة أطفالها أو إخوتها. كم هي صعبة الكتابة عن هذا البلد؟ وتصورت لو أن همنغواي ولد في ابن مسيك لصار ماسح أحذية. وهنري ميللر لو ولد في الحي المحمدي، لكان على أكبر تقدير خرازاً. ولماذا أهوم كثيراً؟ ولأعد من حيث بدأت. لكن من أين بدأت؟ أين الثعلب وأين قزيبته؟ كنت سكران ولم أرد أن أستمر في هذا الجو. عندما أشرب تنتابني أحياناً رغبة في الخلوة. ما عدت منسجماً مع هذا العالم. جاء عز الدين وقال لي:

- مالك؟ سكرت؟ هذا ما نحلم به جميعاً.
- لا. لم أسكر لكني أريد أن أختلي بنفسي.
- أذهب إلى الغرفة المجاورة. هل تريد أن تأخذ معك هذه الجثة الميتة.
- لا داعي لإيقاظها. لا شك أنها تحلم بأمها وبأبيها.
- أيقظها.

ثم رفعها من إبطيها. فتحت عينيها الذابلتين اللتين غلب عليهما النوم.

- اذهبي إلى الغرفة الأخرى ونامي مع الأستاذ.
- أوكي.

تحاملنا على بعضنا إلى الغرفة الأخرى، سقطنا ووقفنا مرتين، كان جسمها ثقيلاً، وكانت قدماي لا تستطيعان حملي. تمددنا على الأرض. قبّلتني وأغمضت عينيها. أشعلت لي سيجارة وتمددت على ظهري وظللت أبحلق في فضاء وسقف الغرفة. وكانت صور كثيرة وأخيلة وهلوسات وعنف، كلها تتحرك في رأسي. ظللت على تلك الحال مدة غير يسيرة، وسمعت صوت الموسيقى يرتفع عندما انفتح الباب ودخل شخصان محششان إلى الغرفة التي كنت فيها مع سلمى. ارتمى أحدهما فوق الأرض وفعل الآخر مثله. أخذ أحدهما يكلمني ويشير إلى سلمى وقلت إنه ربما كان يعرفها من قبل. هززت رأسي له وتركت أصابعي تعبث بشعرها، في حين أخذ هو يفعل نفس الشيء بشعر صديقه. لكنهما بدآ يقبلان بعضهما. فقلت: ربما كان الواحد منهما يتصور الآخر أنثى، إلا أنهما في النهاية تخلصا من سرواليهما. اشمأززت من ذلك المنظر. استرجعت وعْيي وطارت الخمرة من رأسي، وقفت وأنا أتعثر باحثاً عن عز الدين. جاء ورأى ما يجري ثم قال لي:

- استرح ولا تهتم لما يحدث. هذا أمر عادي.

- أنا لا أتحمل رؤية ذلك. فاللّه خلق الأنثى وخلق الذكر. ولو كان هذا أمراً عادياً لخلق مع ضلع آدم آدم آخر وانتهت المشكلة.

- ولماذا تفلسف يا أستاذ؟ احرص على إستك والسلام.

- أنا لا أؤيد أن أرى هذا.

- وكيف ستكتب إذا لم ترَ كُلّ شيء؟

- لقد رأيت بما فيه الكفاية، حتى إنني أصبحت أعجز عن الكتابة عما رأيت. اسمح لي أن أنصرف لأنام في القرية.

- اللّه يهديك. تذهب على قدميك في نهاية الليل إلى القرية...

- سأذهب على طول الشاطئ. أعرف طريقاً تؤدي إلى القرية.

- أعرف تلك الطريق. لكن يمكن أن يعترض سبيلك أحد اللصوص.

- سيكون معي ثعلبي.

- ماذا تقول؟ هل جننت؟ ثعلب؟ لا شك أن الخمرة أثّرت عليك. من الأفضل أن تنام الآن. أنا سوف أخرجهما فوراً.

وعندما كنا نتحدث، كانا يلهثان، ثم استرخيا فوق الأرض. قلت:

- تفو!

قال عز الدين:

- ها أنت ترى. إنها مجرد لحظة عابرة وتافهة.

سوف يحصل لك الشيء نفسه مع التي تنام بجوارك...

ثم دفعهما إلى خارج الغرفة وتركني واقفاً. ضربت الجدار بقبضة يدي. لعنت شيئاً ما في الفضاء. لكني في النهاية التصقت بجسد سلمى. وكنت أتصور ما يمكن وما لا يمكن تصوره إلى أن أخذني النوم دون أن أفعل ما كان عز الدين يتصور أنني سأفعله...

8

تتغرز أشعة الشمس في سحب خفيفة، تغطي المدينة والبحر، تنقشع تلك السحب لتتلوها أخرى، ثم تعاود الأشعة تحديها. ولا شك أن العملية استمرت ملايين السنين، لم تقهر فيها السحب ولا الشمس ولا البحر. يقهر الإنسان. وتقهر إبداعاته التي طالما مجّدها ومجّدها أسلافه. إلا أن الغيمة تقهر لتنتقض مرة أخرى. ويكون الإنسان قد ذهب وترك وراءه الماء والنار والهواء والتراب والرغبة... الرغبة!

كنت أفطر في الواحدة ظهراً في الكافي دوفرانس. أشرب القهوة الممزوجة بالحليب مع كعك هلالي. وقف أمامي. لم أتبيّنه أول الأمر. قال:

- أستاذ. أنا إبراهيم. هل أنت دائخ؟ لا شك أنك تتحشش وتسكر كثيراً. قلت:

- اجلس. اجلس.

قال:

- هذه حوائجك تتركها هناك وتنصرف. أنت لا تعرف الصويرة ولا الذبابات.

- إنهم لن يسرقوها.

جلس بطريقة غير مريحة. ليس واقفاً ولا جالساً.

- أريد أن أتحدث إليك. يجب أن نغادر المقهى فوراً إلى أي مكان. الأمر يهمك ويهمني وإلا قضيت طول عمرك في السجن.

شعرت برعب حقيقي. حتى لو كان ما يقوله مجرد مزاح أو مجرد هلوسة حشاش فإن فرائصي بدأت ترتعد. وعلى كل، فوجود حوائجي معه لن يكون مزاحاً، وإن كان يمكنه أن يكون هلوسة. وضع جرابه فوق كتفه. اجتزنا الساحة ومررنا قرب محطة الحافلات.

قلت له:

- فلنذهب إلى الصخور إذا كان الأمر خطيراً.

- لن نذهب إلى أي مكان يعرفونه.

بحثت عن خطمي وذيلي دون جدوى. هكذا يمكن للثعلب أن يتخلى عنك في اللحظة غير المناسبة. مشينا حتى بلغنا ضريح سيدي مجدول. وسار بي وسط أشجار كانت تتخللها بعض الأكواخ وبعض البيوت الصغيرة البيضاء في حجم بيض الرخ. لم يكن هناك أثر لبشر. ويمكن أني رأيت حماراً أو دجاجة لا أدري. جلسنا قرب مجموعة صغيرة من الأشجار القصيرة وخلفها كان يمتد سهل فسيح غير خصيب.

قال إبراهيم:

- الآن لا يمكن لأحد أن يتعرف على مكاننا. نحن لم نفعل شيئاً ولكن الدولة لا ترحم.

- إنني لست مهرباً. وأنت تعرف أن بيع الحشيش مباح وهو مصدر رزقك.

- لا أقصد هذا يا أستاذ. فلأتحدث معك بصراحة الآن. نحن وحيدان في هذا المكان ولا أحد يسمعنا. لقد عثروا على ثلاث جثث لهيبيات وسط الأشجار.

- وما لنا نحن؟ هل قتلناهن؟

- أنت لا تعرف شيئاً. أحياناً تقع حادثة بسيط فيقوم رجال الدرك في الذيابات والبوليس في الصويرة بجمع كل الهيبيين. أنت لا تعرف هذا. وكثيراً ما صدرت أحكام في أبرياء عرفتهم شخصياً. أحكام قاسية. أرجوك! خذني معك إلى الدار البيضاء. أنقذني وأنقذ نفسك. لن أكون ثقيلاً عليك. أمكث معك في بيتك يوماً أو يومين، فإني أعرف أصدقاء أوروبيين يتاجرون في الحشيش هناك، أبحث عنهم في يوم أو يومين، ثم أترك لك راحتك...

- لا أفهم شيئاً في هذه الحكاية. ثم إني لم أقتل أحداً.

- قلت لك أنت لا تعرفهم. سوف يأخذونك، سوف يأخذوننا جميعاً ويعلقوننا. لقد فعلوا بنا هذا مراراً من أجل لا شيء. فكيف بالقتل؟ هل تعتقد أنهم سوف يحترمونك لأنك أستاذ؟ أعرف أستاذاً سبقك إلى هنا في إحدى العطل، أخذوه إلى المركز وظلَّ فيه أسبوعاً ينظفه... مسكين! حلقوا له شعره وأقسم ألا يعود إلى هذه المدينة أبداً. أنت لن يقصوا شعرك، وإنما سوف يحزون رقبتك.

ومرّر بيده على عنقه. ونظرت إلى السهل الفسيح غير الخصيب، ثم إلى السماء. لا أحد. لا بشر. لا حيوان. الصمت تقطعه زقزقات الطيور فوق الأغصان. ويبدو أنني رأيت قبل لحظة حماراً أو دجاجة لا أدري. أشعلت لي سيجارة وناولت واحدة لإبراهيم. وفكرت ألا أحد يريد أن تلحق به متاعب حتى لو كان مازوشياً، وكثيرون هم الذين يرغبون في إلحاقها بالغير لكي يتفرجوا ويتشفوا. كما يتمنى العبد للسيد. والخادمة لربّة البيت. والمحب المهجور للحبيب الهاجر. وأنا لا أريد لي متاعب، وقد كنت أقبلها على مضض لو أنني كنت سبباً فيها بمحض إرادتي، ثم إني لا أنظف حتى غرفتي في الدار البيضاء فكيف أنظف مركز الشرطة أو نقطة الدرك...

قال إبراهيم:

- فيمَ تفكر يا أستاذ؟ أعرف أنك ذو عقل كبير، ولكني أدرك ما لا تستطيع إدراكه. أعرف أولاد القحاب جيداً. إن ما وقع، حريرة وأية حريرة؟! حريرة يابسة. ومن البلادة أن نطبخ في هذه الطنجرة، رزقنا اللّه عقلاً نفكر به. فلننصرف إذن من هنا. لقد بدأت الاعتقالات في قرية الذيابات وسوف تمتد إلى الصويرة. وإذا بقينا هنا فإن مصيرنا لن يكون حسناً بالشكل الذي يمكن أن تتصوره. أنا أعرفهم. أعرفهم جيداً.

سقطت تينة من الشجرة التي كنا تحتها. تناولها إبراهيم ومسح التراب عنها. أزال قشرتها بأناة، وهو منهمك في حديثه عما سنتعرض له لو وقعنا في يد الدرك أو البوليس. أقتسمنا التينة وأكلناها. قال وهو يتلمَّظ:

- لقد اشتركنا في أكل طعام واحد. وأنا لا أكذب عليك ولا أغدر بك. وإذا فعلت، فهذه التينة سوف يكون لها مفعول على ركبتي، لن أتحرك بهما منذ الآن. وعلى عيني. لن أبصر بهما منذ الآن.

قلت:

- اللّه ينجيك ويحفضك ويخليك لأمك العزيزة.

وما دام الأمر كذلك فقد فكرت أن نحْلق شعرنا فوراً وأن نتنظف قليلاً، ونسافر إلى الدار البيضاء بأية وسيلة. قلت ذلك لإبراهيم فاقترح عليّ أن نسير على الأقدام مسافة معيّنة، حتى نصل إلى محل حلاقة يوجد قرب محطة بنزين تتوقف فيها الشاحنات. ومرة أخرى، فأنا لا أريد متاعب لنفسي ولغيري. وكثيراً ما كان إلحاق الأذى بالآخرين ناتجاً عن شيء فوق طاقتي. لست إلهاً ولست ملاكاً... اجتزنا وادياً صغيراً لنسير فيما بعد على جانب

الطريق الرئيسية، ولم تكن هناك أشجار، إلا أن بعض الخضرة تظهر من بعيد. ووسط تلك الخضرة تظهر بقع بيضاء، وعلى جانب الطريق كان هناك حفير موازٍ لها.

فكرت لو أني رأيت سيارة درك مثلاً أن نختفي فيه. قلت لإبراهيم فقال إن الأمر لم يعد يهمنا ما دمنا قد ابتعدنا عن المدينة وأن عليَّ أن أتبعه، ومهمتي تنحصر الآن في أخذه معي إلى الدار البيضاء. قلت في نفسي سمعاً لكن الطاعة لا أدري. ولا يمكن أن أضمنها لك ولنفسي. ثم بعد مسافة معيّنة وصلنا إلى القرية الصغيرة، حيث محطة البنزين وبنايات قصيرة ضيقة، وحوانيت قليلة وقهوة ينبعث منها صوت موسيقي، وأمام القهوة دراجات نارية قديمة. ثم قال إبراهيم:

- سوف نذهب لنحلق شعورنا. إني أعرف الحلاق جيداً فهو صديق لي، ويدخن الكيف كثيراً، إلا أنه لا يحب الهيبيات ربما لضعف همته.

قلت:

- المسألة التي تؤرقني الآن هي كيف الوصول إلى الدار البيضاء.

- لا عليك. هذه المسألة أتكلف بها.

مشى أمامي وأنا أتبعه، ورأيته يبتعد مني قليلاً. ثم توقف ليتحدث إلى عامل المحطة، وبعد ذلك انطلق من الجهة اليسرى، فتبعته دائماً. وعندما بلغ وسعة متربة توقف بصلابة وجمود، التفت جهتي فرأيت في عينيه نوعاً من الذهول والدهشة وعدم التصديق. خمنت أن في الأمر شيئاً، سألته من بعيد وأنا أقترب منه.

- ياك لا بأس! ماذا هناك؟

- ليس موجوداً.

- من؟

- الحلاق.

فكرت قليلاً قبل أن أقل:

- وماذا بعد؟ أليس هناك حلاق آخر غيره؟ وفوق هذا نحن لسنا بقاتلين. لقد زرعت في نوعاً من الخوف حتى تبعتك. أنا لم أقتل أحداً. إذا قتلت القحاب فهن يعرفن لماذا قتلن. أنا لا أستطيع قتل حتى ذبابة.

شعرت بالعرق يتصبب، وبحالة غريبة تنتابني كلما كنت غير موافق على فعل أتخذه بإرادتي. وتساءلت مع نفسي ما الذي حصل لي الآن. أخذت أتنفس بعمق وتواتر وبطء، فهي طريقة تحميني وتطرد عني أية حالة عصبية، ثم جلست على التراب واستسلمت لعالم الداخل، اقترب مني إبراهيم.

- أستاذ، نحن لا نريد سوى مصلحتينا. لا نريد أن يضحك علينا أولاد الناس.

- نحن نضحك على أنفسنا الآن.

- لا تغضب.

- ما ذنبي أنا إذا وجدت ثلاث هيبيات مقتولات في غابة أو في الشاطئ؟

- لقد شرحت لك ذلك. إياك أن تقول إن علينا أن نعود إلى مدينا الصويرة أو قرية الذيابات. وإذا عدنا فإن خراءنا لن يلحسه كلب.

كان عالم الداخل يغلي مثل طنجرة. كذابون هم الذين يقولون إن عالم الداخل يتحكم في عالم الخارج، يشكله، يؤطره، يغيره وأشياء أخرى مثل كيت وكيت وكذا وكذا كما يقول العرب أو كذا وكذلك كما يقول الفرنسيون. نوع من الحيرة أصابتني، ولكن التنفس

البطيء الرتيب المنتظم المتواتر كان يقضي على تلك الحالة. ثم رأيت إبراهيم يتحول أمامي إلى حمار أسود عجوز، ووراءه ثعلب يشم ذيله، والحمار يحرك قائمته الخلفية اليسرى يريد أن يركله. لكن الثعلب كان يتراجع، بدهاء وثقة في النفس. ومسحت عيني بظهر كفي. فتحتهما جيداً، لم يكن سوى إبراهيم أمامي منتصباً في الوسعة. قال:

- أستاذ! لقد تركت وصية عند عامل المحطة. إذا كانت هناك شاحنة ذاهبة إلى الدار البيضاء فإن بإمكاننا أن نركبها بثمن مناسب. إن معي فلوساً، سأدفع عنك، إذا لم تكن معك فلوس. المهم أن نصل إلى الدار البيضاء وأن نبتعد من هذا البلاء. فقد قال سادتنا الأولون: «ابتعد عن البلاء قبل أن تبتلي به». وكل كلمة خرجت من أفواه سادتنا الأوائل إلا ولها شأن. أنت أستاذ وتعرف كل هذه الأشياء.

- أنت الأستاذ! ولست أدري كيف ابتليت بك؟

- لا تقل إن عليك أن تبتعد مني.

- ابتعد مني ودبّر أمر الشاحنة مع عامل المحطة.

سار باتجاه المحطة، تحول إلى حمار مرة أخرى ورأيت امرأة عجوزاً تسوطه من الخلف، على ظهره حمل صقيل من الحطب. لم أملك إلا أن أضحك من هذا المنظر. لو كان حماراً حقاً لكان أفضل، على الأقل فهو لن يتكلم ولن يعرف ما قاله سادته الأوائل، وسيتحمل كل ما فوق ظهره سواء كان حجراً أو حطباً، تبعته إلى المحطة، وعندما بلغناها فضلت أن أبقى بعيداً، وجلست على قطعة حجر جانب حائط قصير. ولم أهتم لما قد يحصل، واستسلمت مرة أخرى لعالم الداخل من دون تركيز. كان شريط طويل فيه الملائكة والشياطين والدبّابات والضباط العسكريون يتبخترون في بذلاتهم،

وفي الشريط أيضاً نساء محتشمات وعاريات، وأضاء علماء نفس ملتحون، ومر أمامي في الشريط كذلك قطيع من الثعالب تدير رؤوسها يمنة ويسرة. استمر الشريط طويلاً وكرر نفسه مراراً. هلوسة حقيقية. وفكرت فيمَ إذا لم تكن الحياة نفسها هلوسة. وخشيت أن أقول إنها هلوسة إلهية. لكن اللّه أبعد ما يكون عن مثل هذه الصفات. وأنه لم يخلق هذه الحياة إلا لحكمة معيّنة لم يدركها إلا القليلون. أما القطيع فثُغاؤه يرتفع في كل مكان، ويتناطح في كل مكان. ومرّ أمامي في الشريط رجال كثيرون يلهثون فوق النساء ولعابهم يسيل كالكلاب، ثم انفصلت النساء عنهم، وفتحن أفخاذهن للتو وأخذن يصرخن ويتوجعن «آبي»!! ثم خرج من بين أفخاذهن أطفال صغار مثل القردة. تمت العملية بسرعة بين اللهاث والولادة. ثم بدأ الأطفال يمشون دون أن يتعلموا الحبو. ثم رأيتهم يلعبون بأسلحة نارية وقلت لا بدَّ أنهم سيتحاربون. لأنه كان عندي يقين أن الحروب هي في أول أمرها لعبة. توقف الشريط عندما سمعت إبراهيم يقول:

- هيا. الشاحنة جاءت.

تبعته وبعض أشباح الشريط كانت لا تزال تتراقص في رأسي. ثم ركبنا الشاحنة بين أكياس مليئة بالقمح. وخطر لي خاطر: هل يكون إبراهيم كاذباً في ما ادّعاه؟ ومن أدراني أيضاً؟ هل يكون مشتركاً في جريمة القتل؟ بدأت أسئلة كثيرة تتقافز أمامي. الشاحنة تهتز في الطريق وإبراهيم صامت صمت المتهم النادم على فعلته. وأدركتني هواجس أخرى: إن عيون الدولة لا تنام.

وقال رجل ممدد بين الأكياس، وقد غلبه السكر أو العياء:

- هل تشربان؟ ابحثا هناك داخل ذلك الكيس من التبن ففيه زجاجتا نبيذ. إلى أين أنتما ذاهبان؟

أجبت بفتور:

- إلى الدار البيضاء.

- آه، الدار البيضاء رائعة. ويمكن للإنسان أن يعيش فيها مستوراً. مددت يدي إلى كيس التبن، وناولني الرجل كأساً غير نظيفة. في حين ظلَّ إبراهيم في صمته الغريب. صمت المتهم النادم. وقلت في نفسي: «متى أصل إلى بيتي لكي أستريح، وأكتب فيما بعد قصة جديدة؟...».

الحي الخلفي

1992

الجزء الأول

كانت هناك، إلى جانب الطريق الرئيسي، من الطرف الآخر، عمارات من أربعة طوابق أغلب شبابيكها مغلقة، وهناك مساحات أخرى إما مستوية وإما محفورة بين شتى العمارات، نبتت فيها أعشاب قصيرة متوحشة، أو تكوّمت فيها أتربة من مخلفات الحفر. ومثل هذه العمارات المغلقة النوافذ أو التي لم يستكمل بناؤها والمنتشرة هنا وهناك لا بد وأن يحتلها بعض السكان الغرباء إلى حين قرب الصيف، موعد عودة أصحابها الذين يشتغلون في أي شيء في أوروبا، ويناموت في أي مكان حتى لو كان حظيرة أو زريبة ويقتاتون مما يمكنه أن يملأ البطن وفي نهاية العمر يعودون إلى الوطن من أجل تحصيل ثمن الكراء بعد أن يكون الجسد قد أُنهك. وبطبيعة الحال فإن مجموعة من هؤلاء الذين يحتلون تلك البنايات قد لا تكون لهم صعوبات حتى لو كان لهم أبناء فهم ينجبون والسلام. فكما وُلدوا في البادية من دون هوية ومن دون علم من الدولة فهم يفعلون نفس الشيء في الضواحي أو في أماكن أخرى مثلما يفعل الذباب والصراصير والزنابير، وهم من دون هوية دائماً إلا وقت الانتخابات إذ يخرجون كجرذان ليقولوا بصوت واحد «نعم» وبعد ذلك يعودون إلى جحورهم المظلمة. عين المقدم تمرّ بكل تأكيد في كل زقاق وتتسرب إلى أية بناية مسكونة أو مهجورة وهو يعرف أسماء

أصحابها الأصليين واحداً واحداً، كذلك فإن الساكن الغريب الطارئ لا بد وأن يدفع دون أن يبلغ جاره وحتى لا يبلغ الجار جاره، وحتى لا يسمع مسؤول كبير بذلك.

فالمقدم مجرد منفذ وكان السكان الغرباء يفهمون ذلك جيداً، ويعرفون أنهم مطرودون في هذه اللحظة أو تلك، بل قد يتعرضون للسجن، لذلك، وبعيداً من هذه البنايات تكوّمت مجموعة من أكواخ الصفيح الواطئة المتربة، هي في الغالب ملك لهؤلاء الغرباء مغتصبي أملاك غيرهم ، أو هي ملك لأقاربهم، فعندما تشمّ أدنى رائحة، أو يسمع أدنى طنين فإن الغريب يجرّ أبناءه ويهرب إلى تلك الأكواخ وإذا لم يكن له جحر هناك، فإنه يتربص على قارعة الطريق وينتظر أول شاحنة لتنقله إلى أقرب نقطة للقرية التي هاجر منها، وحتى هذه تكون فرصة لكي يتفقد دجاجته أو شاته أو حماره، آملاً أن يعود بعد أيام أو شهور إلى المدينة، حالماً بدجاجات وشياه وحمير آخر، أو حالماً بثروة طويلة عريضة يستطيع على إثرها مغادرة البادية نهائياً والاستقرار في المدينة بصفة نهائية. كثيرون هم الذين جاؤوا إلى الدار البيضاء متشعبطين في عربة أو شاحنة أو مشياً على الأقدام، ناموا في الشوارع الخلفية والأزقة والحدائق العمومية والإسطبلات، ولكن بعد مرور الوقت أصبحوا أثرياء بنوا الدور والعمارات والفيلات وأسسوا شركات وأصبحوا أعضاء في البرلمان والجماعات المنتخبة وهم لا يفرِّقون بين الألف والهراوة، ومن الأفضل ألا يفرِّقوا لأن الهراوات نزلت كثيراً على ظهورهم لكنها لم تقصمها، بل استطاعوا أن يمتلكوا هم فيما بعد هراوات ذات رؤوس مدببة وشائكة. الآن بعد أن اغتنوا زادهم اللّه غنىً في غنىً، وكل ذلك في مصلحة أبناءهم الذين لم يعرفوا ذات يوم قبضة العتلة والفأس.

في ذلك المساء الشتوي البارد كانت الحركة غير عادية، وكان

الضوء ينبعث باهتاً خافتاً من بعض النوافذ، فأغلب الغرباء يضيؤون بالشمع، ويصبح حديثهم همساً حذراً كأنهم يتوقعون دائماً شيئاً مفاجئاً، لكنهم لا يخافون ذلك الشيء المفاجئ لأنهم يتوقعونه وعندما يتوقع الإنسان شيئاً ما فإنَّ تحمّله لوقوعه يكون أهون، ظلّت سيارة القائد واقفة على حافة الطريق يركبها سائق أكرش دائماً ومنفذ دائماً، وخلفها كانت سيارة أخرى رابضة هي الأخرى وقد نزل سائقها وترك الباب مفتوحاً ليُدخن سيجارة على مزاجه في غيبة القائد، والسائق يقدّر جيداً المدة التي يمكن أن يتغيب فيها القائد إذا نزل في مهمة مثل هذه، يمكنه إذن أن يدخن حتى أربع سجائر وأن يشرب شاياً ساخناً في خاطره، لكن من أين له الشاي؟ فكأن القائد يعرف كل ما يجري في هذه البنايات في حين أن المقدم كان متيقناً بأن القائد لا يعرف شيئاً وتفرض طبيعة السلطة أن نترك الآخرين مخدوعين، ذلك هو تفكير القائد، فهو دائماً يسأل المقدمين والشيوخ عن أشياء يعرفها جيداً مدّعياً أنه جاهل بها. لعبة شدّ الحبل (أمسك من الطرف الأول جيداً ثم أتخلص منه في الوقت المناسب لأتركك تسقط في النهاية). القائد الصامت الجاد المهتم يعرف كل شيء عن هذا الحي، مثلما يعرف أشياء كثيرة عن أحياء أخرى تابعة لمقاطعته، ولكن دائماً مندهش، حذر، قلق على خرق القانون - على الأقل أمام موظفيه وأعوانه - لكن الجانب الآخر الخفي يبقى دائماً في الظل ومبعثاً للشك، ومهما يقل عنه فلا أحد يستطيع أن يصدق أو ينفي ذلك، كل ما يعرف عنه أن أصله من تاونات، وأنه لم يتزوج إلا مؤخراً وأنجب بسرعة ثلاثة أبناء على التوالي، وفصل زوجته الممرضة عن العمل لأن لها احتكاكاً يومياً بأكبر عدد ممكن من الناس، بل إنه منع حتى أطفاله من اجتياز عتبة الفيلا الصغيرة حتى لا يختلطوا بأقرانهم. كان له عالمه الخاص وكانت له حاسة شم قوية

مثل سلوقي متمرن، سلوقي يتربص قبل أن يطارد، هو الآن في هذا المساء البارد غير الممطر لا يتربص ولا يطارد بل هي مجرد جولة روتينية تثبت أنه حاضر دائماً.

قال أحد الأعوان:

- كان عليك يا سيدي القائد ألا تأتي بنفسك في هذا البرد، نحن نستطيع أن نتكفّل بكل شيء ونأخذهم إليك واحداً واحداً مكبلين.

- لا يهم، هذا شغلي، والواجب يقتضي مني ذلك.

وقال عون آخر:

- معك حق سيدي. أنت أدرى بالأمور وما علينا نحن إلا أن ننفّذ، سيدي لأني ما أزال أتتبع خُطى الأسود المدعو فنطوس، يقال إنه اغتنى في هذه الأيام لأنه جلب كمية من النبيذ الإسباني معلبة في علب كارتون غير قابلة للكسر مثل الزجاج، وسمعت أن له امرأة سيسفرها إلى سبتة لتجلب له هذا النوع من النبيذ الرخيص الثمن، وهي أيضاً تسكن هنا في هذا الحي، لكن من تكون؟ كثيرات هن اللواتي يسافرن إلى سبتة أو مليلية.

- تلك مهمتكم أنا لن أظل رابضاً مثل كلب حتى أعرف هذا من ذاك، تعرفون أنه ليس لدي حتى الوقت لأحك قنة رأسي.

كانت أزقة الحي مليئة بالحفر وغير مبلطة وكان القائد يسير ببطء كما لو أنه يمشي على البيض، لم تكن هناك أصوات في هذا الفضاء المظلم وكانوا يسيرون من زقاق لآخر، وكان المفروض أحياناً أن يتجمع مجموعة من الشبّان يثرثرون ويتحششون في زاوية هذا الزقاق أو ذاك ويشربون ماء الحياة المجلوب من مدن الجنوب، فهو رخيص الثمن ويستطيع مع قليل من الحشيش أن يحلق بصاحبها إلى مركز الشرطة، ثم إلى قاضي التحقيق ثم إلى سجن غبيلة، لا بأس!

فالسجن أهون من الإقامة في مركز الشرطة، ففي السجن هناك على الأقل حشيش وأكل وأحياناً علب سجائر أميركية، يحصل عليها السجين بالدفع، دفع أي شيء حتى لو كان... لم يعد أي شيء عيباً في هذه الحياة ما دام الإنسان مصراً على أن يعيشها.

وقال المقدم الأشقر للقائد:

- سيدي! لقد انطفأ الضوء دفعة واحدة في نافذتي بيت فاطنة، لا شك أنها أحسّت بشيء وأن لديها مومسات وزبائن.

وظهر الجانب الخفي لدى القائد عندما قال:

- ألا تترك عليك تلك المرأة.

سكت لحظة ثم استدرك:

- أنت لا تجلب لي من بيتها سوى تلك الفتيات المحروقات الجلد، ماذا نفعل بهن عندما نقدمهن للعدالة؟ هل نقول عثرنا عليهن من دون بطاقة هوية؟

- سيدي، أحياناً يكون عندها زبائن لا يحبون الظهور في الأماكن العامة.

- معنى ذلك أنك تريد أن تورطنا إذا ما اصطدمنا بشخصية مهمة، وماذا يفعل زبون من هذا النوع في خرابة مثل هذه، ومع أولئك الجرباوات.

- إنهم لا يفعلون شيئاً سيدي، يشربون ويتمتعون بالكلام البذيء ثم ينصرفون.

- هل رأيت سياراتهم الفارهة واقفة عند الباب؟ هذه المرة عندما تريد أن تتكلم، فكر فيما تقول، طيب اذهب إليها وأخرج كل من في البيت.

قال الأشقر:

- حالاً سيدي.

ابتعدت المجموعة قليلاً وهي تتلافى الحفر وبعض الأحجار أو أكوام الطوب التي تصلبت، سمعوا سعالاً واهناً ضعيفاً قادماً من جهة الباب الذي اقتحمه الأشقر، كانت فاطنة ملفوفة في بطانية، وقد شدّت على رأسها فوطة فوق المنديل وتبعها الأشقر في تخاذل تام، وشعر بكل ما يشعر به إنسان حقير ضُبط متلبساً، ولم يجد أدنى فرصة للدفاع عن نفسه وقال الأشقر:

- سيدي، ليس هناك أحد.

وقال القائد غاضباً:

- ولماذا جئتني بها وهي في هذه الحالة تسعل مثل جروة تحتضر؟ هل تريدها أن تموت في القسم؟

وقالت فاطنة وهي ترتمي على قدميّ القائد:

- أرجوك سيدي، إني مريضة منذ ثلاثة أيام، لقد جلبت معي البطانية إذا أردتم أخذي إلى القسم. الجو بارد جداً سيدي القائد، اللّه يخلي لك أولادك، اللّه يرحم والديك.

قال القائد بصوت صارخ مفتعل:

- ادخلي إلى بيتك، إن أخبارك تبلغني لا شك أن أواخر عمرك سوف تقضينها في السجن. ألا تثوبين إلى ربك؟

قالت:

- ليس عندي أحد في هذه الدنيا يا سيدي.

لكزها أحد المقدمين:

- اسكتي عندما يتحدث إليك سيادة القائد.

- نعم يا وليدي.

- اذهبي.

ذهبت وذهبوا، فكانوا يحفون بالقائد ويمشون مشيته مزهوين بأنفسهم رغم أن الليلة كانت غير عادية، وإذا ما ظلّوا على هذه

الحال فإنهم لن يلقوا القبض على أحد في هذه الليلة لكنهم يعرفون جميعاً أنه يلبي نزوة داخلية فقط، وبعد لحظة فقط سوف يأمرهم بالرجوع بعد أن يكون قد قام بواجبه هو، وبعد ذلك سوف يترك لهم القيام بواجبهم الذي يعرفونه ويعرفه جيداً، عندما يعودون سوف يتوزعون المهام، كل واحد منهم يعرف أوكاره، لا بد أن تكون الليلة مربحة وإلا ماذا سوف يأكل الأطفال. إن ما يتقاضونه في الشهر لا يكفي حتى لملء خزّان الدراجة النارية القديمة بالزيت. إن كل واحد عليه أن يتدبر أمره ما دام متشبثاً بالحياة، الشبان في الأزقة يتدبرون أمورهم وأخواتهم يفعلن نفس الشيء، وأحياناً يغفلن ما يفعلن فيصبحن مهربات يذهبن إلى تطوان أو سبتة أو أية مدينة في الشمال لجلب السلع المهربة، وفي طريق الذهاب والإياب لا أحد يعرف ما يفعلن إلا أنهن فتيات جادّات يكسبن رزقهن بعرق جبينهن، وعلى كل حال فهن لسن ساقطات يتعيشن من بيع أجسادهن هكذا قالوا، وهكذا نام الأب مستريح الضمير ووقف الأخ في رأس الشارع مزهواً أمام أقرانه، لأن أخواته الأربع أو الخمس المتكدسات في غرفة واحدة فاضلات، ولذلك لم يتزوجن، فالزواج اليوم من قسمة الفاجرات لكن كل واحد يتدبر أمره لكي يعيش، يدخن الأخ سجائر أميركية فاخرة وفي الحانة يفعل المقدم نفس الشيء أمام زجاجات بيرة مثلجة، وعلى كل حال فالأمور تسير، سواء في هذا الحي أو حتى في حي مدن الصفيح، هناك أكتاف عريضة كثيرة، وهناك أرداف لا تتحرك إلا بالكاد من كثرة السمنة، فكأنما أصحابها يأكلون التين المعسل. يا سبحان اللّه! كانت المصابيح في الطرف الثاني من الحي تضيء الطريق الرئيسي، ولم يكن يظهر أي أثر لحي الصفيح، انتهت الجولة في الظلام ومشى القائد باتجاه السيارتين وتنفس كل من يرافقه، لقد لبّى رغبته الأثيرة. ومن يدري؟ فلربما لم تكن رغبة

ولكنها عمل شاق كريه من المفروض عليه أن يسميه واجباً، وباسم الواجب يتم الحسم في كل شيء حتى لو كان ذلك الحسم ظلماً.

ألقى السائق عقب سيجارته الثالثة. عندما رأى المجموعة قادمة صعد إلى السيارة وحلم بشاي ساخن وبزوجته تدلّك قدميه بالماء الدافئ، بعد أن تزيح عنهما فردتي الحذاء الثقيل. وكان من حق الآخرين الوافدين كذلك أن يحلموا، ثم تحركت السيارتان باتجاه المقاطعة وبعد حوالي ربع ساعة أصبح الحي المظلم مثل سوق عمومي وأشعلت الأضواء في النوافذ وتجمّع الشبان في الأزقة ليتحششوا ويثرثروا ويحلموا إلى آخر الليل.



الجزء الثاني

تنتصب البلوطة العجوز وحيدة منفردة في الخلاء بعيداً من بيوت الصفيح ومن باقي الأشجار الأخرى المتشبثة في الأرض كيفما اتفق، وعند جذع البلوطة حفرة كبيرة قد يكون طولها حوالي العشرة أمتار وعرضها من دون مقاس، يتجمّع فيها ماء المطر في الشتاء لينتن ويعطن ويجف فيما بعد، ويحف بالحفرة شجيرات قصيرة يمكنها أن تحجب الإنسان وهو جالس، وعند البلوطة الآن كانت هناك جماعات متفرقة من شيوخ وشبان. الشيوخ يلعبون الورق أو الضامة، بينما الشبان يقامرون من أجل سكرة هذا المساء، وكان الأطفال بعيداً منهم يتصايحون ويصرخون وراء الكُرة في ساحة صلبة، وكانت أيضاً بعض العصافير تزقزق في مكان ما. قال الهراوي:

- لم يحصلوا على شيء أمس، لقد جابوا الحي كله ولم يحصلوا على شيء، حتى فاطنة لم يجدوا عندها أحداً.

- لا تقل هذا الكلام إنهم أذكياء ولو أراد القائد أن يفتش كل البيوت لفعل ولعثر على السلعة المهربة التي تجلبها من سبتة.

لم يكن الهراوي من الغرباء ولكن البيت الذي يسكنه هو وأمه وأخته ملك لهم. لقد اشترى والده قبل أن يموت بقعة من الأرض وبنى الطابق الأرضي، لكنه لم يحقق حلمه فمات. كان ينوي بناء ثلاثة طوابق إلا أنه مات في حادثة سير. سوف يكبر الهراوي وسوف

يكمل دراسته وسوف يتوظف وسوف يزوجه أبوه ويسكنه في الطابق الأول ويربي أبناءه، لكنه مات مثلما ماتوا ويموتون وطُرد الهراوي من المدرسة لكثرة تغيّبه ولأنه كان صغيراً وصبياً جميلاً أفسده من هم أكبر منه سناً. وها هو الآن قد كبر وتشوّه وجهه بضربة سكين معلم. وهذا لم يمنعه هو بدوره من إفساد الصبيان الذين علّق عليهم آباؤهم أملاً فدلّلوهم ليدرسوا ويكبروا ويتوظفوا وينجحوا وينقذوا عائلاتهم من حياة الكلاب تلك، لكن الهراوي لم يحقق أي شيء لنفسه وما تزال والدته تحمل له المؤونة والسجائر إلى السجن كلّما وقع في حملة تطهير، مثلما تفعل باقي الأمهات والأخوات والصديقات لهؤلاء الذين يغامرون الآن تحت البلوطة، وكما سيفعلن بالتأكيد مع أولئك الأطفال الذين يلعبون الكرة هناك والذين سوف يشيخون قبل الأوان إما في زنزانة أو في زاوية أحد الشوارع منهكين متعبين مثل جياد جرباء عرجاء مشوّهة تُساق إلى المجزرة في صباح باكر أغبش.

كانت أوراق الشجيرات القصيرة تبعث خشخشات واهنة من حولهم وأحياناً عندما يخسر أحدهم يكسر أحد الأعواد ثم ينزل إلى الحفرة كأنما يدفن نفسه، ثم يصعد إليهم من جديد لكي يستأنف اللعب، أو ينصل من الطرف الثاني من الحفرة، يعود فيما بعد أو لا يعود، كانوا الآن ثمانية وقد يحصل أن يمرّ مقامر غريب ليلقي ببعض نقوده وينصرف، فهم لا يرحمون المقامر الغريب العابر إذ سرعان ما يتكتلون ضده لكنهم في النهاية لا يرحمون بعضهم على بقعة القمار، وبقدر ما يتكتلون ضد مقامر غريب عابر، فهم يتكتلون في السجن، ويشتركون في الطعام والسجائر والحشيش، كما يتكتلون ضد أي اعتداء على واحد منهم وخصوصاً ذلك الاعتداء القبيح المعروف الذي تنفر منه النفس، لأن الرجل رجل، والمرأة امرأة، وقال العطاوي لأحمد الذي انتقلت الدورة إليه من يد الهراوي:

- هذه الحيلة ليست معي لا تفعلها معي، أنا أعرف أنك غشّاش.

قال أحمد:

- انظر إلى أصابعي، هل تعتقد أنني ساحر؟

- إذا لم ترد أن تلعب فاسحب فلوسك أنا أستطيع أن ألعب معك بمئة درهم أمام الشهود، هل تستطيع ذلك يا ابن العريان؟

ثم ألقى الأوراق وسط المجموعة ووقف منتصباً بقامته الطويلة وأدخل يده في جيب سرواله الخلفي وأخرج كمشة من الأوراق النقدية لا يعرف أحد من أين أتى بها، غير أن الذهول لم يظهر على وجه أي واحد منهم، ولكن النظرات المشعة كانت تشي فقط بالتساؤل، من أين له كل هذه الثروة؟ فهم أيضاً يصبحون أثرياء بهذه الطريقة أو بتلك لكنهم يعيشون لحظة الثراء تلك بالطول والعرض، ينفقون في الحانات ويجرجرون معهم مومساتهم إلى بارات عين السبع أو عين الذئاب أو إلى كل العيون حتى تنفذ تلك النقود أو حتى يجدوا أنفسهم في أحد مراكز الشرطة.

المهم أن يتمتع الإنسان حتى لو دفع الثمن من لحمه ودمه.

وقال العطاوي:

- المهم أنني أتحدث عن الغش في اللعب، لماذا ترينا فلوسك؟ اذهب وأنفقها في أي مكان مع نعجتك، إن الفلوس تحضر وتغيب.

ثم وقف العطاوي، في حين جلس أحمد على التراب، ومضى العطاوي باتجاه الأطفال وهو يدخن سيجارة بعصبية، ترك المجموعة وراءه تستأنف اللعب، وبطبيعة الحال لم يهتم به أحد، فمشادات من هذا النوع تحصل بين لحظة وأخرى، وهم متعوّدون عليها لذلك لم يأبه أحد لغضب العطاوي ولا لغضب أحمد الذي بدا منتصراً، لكنه

قد ينهزم في أية لحظة أخرى، هنا وعلى هذه البقعة بالذات ومن يدري؟ فقد يهزمه العطاوي نفسه عندما يعود. فلعبة النصر أو الهزيمة قد تخضع للحظ رغم حسن التدبير. استمروا في اللعب، وكانت مجموعة أخرى قد تكونت إلى جانبهم، بعض الوجوه مألوفة وأخرى غير مألوفة لكن من يهتم بمن؟ ففي لعبة النصر والهزيمة، لعبة الربح والخسارة عليك أن تهتم بنفسك، غير أن الذي خسر كل شيء في حياته، عفواً، فقد يكون ربح كل شيء. يقف الآن على رؤوس المجموعة الأولى. لم يلتفت إليه أحد، وليس ذلك ضرورياً البتة لأنه ليس مقامراً غريباً عابراً، اختار مكانه وراء ظهر الطاهر وجلس على التراب، كان وحده يستمع إلى زقزقة العصافير وإلى صراخ الأطفال وإلى هدير محرك سيارة عابر من بعيد، التفت إليه الطاهر:

- هل تغدّيت؟

- ليس بما فيه الكفاية.

- لقد ربحت قليلاً من المال، عندما ننتهي سوف نذهب لنأكل دجاجة مشوية، هل باتت عندك شنيولة أمس؟

- لم أرها منذ أربعة أيام.

- دعني أكمل اللعب معهم.

يشعرون به أو لا يشعرون إلا أنه واحد منهم لا يثير حقد أحد، وفي نفس الوقت لا يحتكمون إليه عندما تقع بينهم مشاكل في الحي.

وفي العمق يحبونه لأن الدولة ظلمته عندما طردته من وظيفته كمعلم لكثرة مخالفته، وهربت زوجته بطفلين لتتزوج يهودياً أعلن إسلامه ويعمل رئيس قسم في أحد البنوك، هربت زوجته هو الآخر إلى كندا - هذا على حد علمه... كانوا منهمكين في اللعب، وكان المعلم المطرود وحده يستمع لزقزقة العصافير وصراخ الأطفال وشتائمهم، وإلى هدير محركات السيارات ولربما إلى أصوات أخرى

آتية من مكان مجهول، كان يدخّن بصمت ويتأمل وليستبطن من دون خوف من عمق ما يفكر فيه، لقد تعودوه دائماً صامتاً، لكنه عندما يتكلم يقول أشياء غاية في الخطورة، ومع ذلك فإنهم لا يأخذونه إلى السجن، وهو أحياناً يفكر مع نفسه لماذا سيأخذونه إلى مكان يسمونه سجناً، فهو يعيش فيه مع اختلاف بسيط. لم تطل غيبة العطاوي ولكنه عاد ليجلس قرب المعلم مولياً ظهره للمجموعة، لم يتحدث مع المعلم لأن المعلم عوّدهم ألا يتكلم، وهذا لا يمنع من أنه يردّ على الكلام، إلا أن بادرة طرح السؤال لا تأتي منه في أغلب الأحيان، فهو في العادة يكتفي بطرح الأسئلة على نفسه والإجابة عنها رغم أن كل إجابة عنده تولّد سؤالاً آخر وهكذا.

وقال العطاوي:

- هل تغدّيت؟

- ليس بما فيه الكفاية.

وقال في نفسه: «ولماذا نفس السؤال؟» وانتظر سؤالاً آخر عن شنيولة لكنه لم يتم.

قال العطاوي:

- أنا لم آكل منذ ليلة أمس، شربت أمس فقط حتى تقيأت مصاريني وليست عندي شهية للأكل على الإطلاق، عندي شهية فقط للذهاب إلى تلك البراريك ومضاجعة امرأة.

- لكنك من دون قوة سوف تموت بين أحضانها.

تأمل العطاوي كلام المعلم وقال إن الحق معه عليه أن يأكل جيداً ليصبح قوياً مثل بغل وفحلاً مثل ثور. أشعل سيجارة وأخذ ينظر باتجاه الفضاء الفسيح الذي كان ينظر إليه المعلم، كانت هناك سماء وعصافير تتناقر وفكّر لماذا ينظر المعلم إلى تلك العصافير المتناقرة، وأراد أن يسأله لكنه تراجع وخاف أن يقول له المعلم

كلاماً يُشعره بجهله فسكت (يا إلهي! لماذا لم أكمل دراستي؟ ولكن ماذا بعد؟ لقد تعلموا وأصبحوا موظفين مع الدولة، وفي الشركات لكنهم طُردوا. أُغلقت كثير من المعامل والمصانع، أما النساء فقد كان باب الجنة مفتوحاً أمامهن لمن استطعن إلى ذلك سبيلاً، وأما الرجال فقد غرقوا في الوحل حتى الأذنين).

وقال للمعلم:

- لا بدّ أن ألعب ولا بدّ أن أربح.

كان المعلم دائماً صامتاً ينظر إلى العصافير التي لم تعد تتناقر الآن ولكنها كانت تتفرق وتتباعد ليختفي بعضها، وكرّر العطاوي:

- قلت لك لا بدّ أن ألعب ولا بدّ أنْ أربح ولا بدّ أن آكل.

قال المعلم:

- كلْ واشربْ حتى تصبح قوياً.

- هل تذهب معي هذا المساء إلى مكان معين لنأكل ونشرب ونصبح قويين؟

لم يُجب المعلم ولم ينتظر منه العطاوي جواباً لذلك تركه ينظر إلى السماء وانضمّ إلى المجموعة لكي يلعب ويربح، وكان بين حين وآخر يأتي إما راجلاً وإما راكباً على دراجة هوائية أو نارية. لكنه في الغالب لا يقضي وقتاً طويلاً معهم. استمروا في اللعب طويلاً، وكانت مشاداتهم الكلامية لا تنتهي لأنها داخلة في اللعبة، أما هناك بعيداً منهم فقد أنهى الأطفال المباراة بشجار عنيف تهشّمت فيه بعض الأنوف وعُطبت فيه بعض الأرجل وتطايرت قطع أحجار فوق الرؤوس، وعلى كل حال فغداً سوف تتكرر العملية بعد أن تذهب والدة هذا الطفل أو ذاك لتشتكي لأم طفل معتد أو مكذوب عليه، وتُهددها بأن المخزن موجود وحاضر إذا لم تربِّ طفلها لأن الدنيا ليست سائبة، ينتهي شجار الأطفال في النهار ليبدأ شجار الكبار في

المساء، ويتصالح الأطفال في الصباح في حين تدوم خصومة الكبار لأيام أو لشهور.

وقال المعلم:

- إنهم يلدون مثل الفئران.

لكن أحداً لم يسمعه وحتى لو رفع صوته بالأذان فإن أحداً بكل تأكيد لن يسمعه ولن يفهمه لأنهم كذلك ولدوا مثل الفئران ولعبوا الكرة وتشاجروا في طفولتهم وفعلوا أشياء أخرى قبيحة اشتكت أمهاتهم وتصالحن فيما بينهن، منهن من حملن المؤونة إليهم في السجن، ومنهن من ذهبن إلى الآخرة وعلى كل حال فاللّه عظيم الشأن، إذا لم توجد الأم فهناك الأخت أو أية قحبة أخرى، لكن المهم أن يعيش الإنسان بهذه الطريقة أو تلك وقلوب النساء مليئة بالرحمة وواسعة والعياذ باللّه أن يقول المرء إنها أوسع من رحمة اللّه. لا يهم لقد تشاجر الأطفال وجُرحوا كما جُرح الذين من قبلهم ولسوف يُجرح الذين يأتون من بعدهم، فتلك هي حال الدنيا، تتغير باستمرار. وعلى سبيل المثال فها هو أحمد قد وقف منتفضاً مثل تيس جريح وألقى بنفسه في الحفرة لأنه خسر كل فلوسه. أخذ يتمرغ في التراب وينتف شعره ويبكي، وعلى الرغم من أنه طويل القامة فقد أخذ يبكي، وعلى الرغم من أنه طويل القامة فقد أخذ يتمرغ في التراب، وعلى الرغم من أنه طويل القامة فقد شتم دين أمه، - وأيضاً - دين أمهاتهم والدنيا هكذا، قد يربح الإنسان فيها وقد يخسر، وقد يُجرح أو يموت أو يقوى أو يضعف أو يتمرغ في التراب فلا يهتم به أحد ولربما وعى أحمد ذلك جيداً، لذلك وقف ونفض عنه التراب ومسح دموعه ومرر أصابعه في شعر رأسه ثم انصرف باتجاه البراريك فقد كان يسكن في حي الصفيح، وقد كان بإمكانه أن يحتل مرآباً هناك لإحدى الدور التي لم يكتمل بناؤها، وهو يعرف

بعضها، ويستطيع أن يكسر أقفالها، إلا أنه لم يرضَ بذلك مثلما فعل آخرون، ثم إنه ليس عيباً أن يسكن الإنسان في براكة، فهي آمن وأفضل إلا في الشتاء. وعندما انصرف أحمد وقف الطاهر نافضاً يديه، بعدما ألقى الأوراق وسط المجموعة عندما خسر الدور، وعندما انسحب إلى الخلف قليلاً، سمع الجيلالي يقول:

- هل ستفعلها أيضاً؟ عليك أن تكمل اللعب معنا، ما هكذا يفعل الرجال، ملأت جيوبك وتحاول أن تنصرف.

وقال الطاهر للمعلم:

- لقد وعدتك بدجاجة مشوية لكننا سوف نحتفل هذه الليلة، على طريقتنا الخاصة.

وقال الجيلالي:

- إنه سوف ينسحب وأنتم لا تقولون شيئاً.

غير أنهم كانوا مشغولين باللعب وعلى آذانهم صمغ أو طين، وكانت النقود تتداول من يد ليد بينما الجيلالي أصبح يتوسل:

- أخي الطاهر أعطني خمسة دراهم سوف أكمل اللعب معهم.

وقال الطاهر للمعلم:

- لا يهم إذا لم تلتقِ بشنيولة في هذه الأيام الأخيرة، هناك نساء كثيرات.

وقال الجيلالي:

- اللّه يخلي لك أمك العزيزة.

مدّ الطاهر يده إلى جيبه وألقى إليه ببعض الدراهم دون أن يلتفت إليه فأخذ الجيلالي يلتقطها من الأرض، وقف المعلم ومشى أمام الطاهر فتبعه. الشمس الآن تميل نحو الغروب وتهبّ ريح خفيفة إلا أنها باردة قليلاً، وقال المعلم:

- لقد تزوجت يهودياً ومعنى هذا أنها كانت لها علاقة به في السابق، لا يستطيع أحد أن يعرف ما يدور في رؤوسهن.

قال الطاهر وهو يمشي خلفه:

- لن نأكل فقط دجاجة مشوية ولكننا سوف نشرب حتى الصباح سواء في المرأب الذي تسكنه أو في كل الحانات، إن الحانات أفضل، بعدها تعود إلى المرأب، منذ مدة لم تأكل الدجاج، أليس كذلك؟

وقال المعلم:

- أنا لا أفهم، إذا كانت لا تحبني فلماذا لم تصارحني بذلك؟ أم أنني أصبحت فقيراً. كان عليها أن تساعدني حتى أجد لي شغلاً ونربي الطفلين وكل شيء. لقد كان الطفلان سعيدين. لكنها فعلتها.

وقال الطاهر:

- سوف نشرب أولاً عند العربي، وبعد ذلك نذهب إلى عين الذئاب، عندي موعد مع خديجة. ستكون مع الأخريات، لكننا سوف نسكر مع خديجة وحليمة.

وقفا عند حافة الطريق، وكانت سيارات وشاحنات كثيرة تعبر وعندما اجتازا الطريق سوية ولم يعد أحدهما يمشي وراء الآخر، قال المعلم:

- هل ربحت كثيراً؟

أجاب الطاهر:

- سوف نعيش مثل ملكين هذه الليلة.

- وأين سنقضي هذه الليلة؟

- وماذا كنت أقول لك؟ ألم تكن تسمعني؟ العربي، الحانات، عين الذئاب، خديجة، حليمة.

- آه! ذكرتني بحليمة، إنها تحمل اسم زوجتي، تفو!

الجزء الثالث

إنها في الحقيقة ليست صديقتي، رغم أن الناس يعتقدون أنها كذلك. لا بأس أن نسهر معاً هذه الليلة مع الطاهر والمعلم، لقد قضينا ليالي كثيرة مع غرباء، وغالباً ما كانت تخلق مشاكل فتلقى العقاب من سكير أو من دورية الشرطة. كنت أنجو من ذلك لأن لساني ليس سليطاً، لكن هذا لا يمنع من أنني تعرفت عليها في سيارة للشرطة قبل حوالي أربع سنوات، وقضينا فترة الاعتقال معاً، أحببتها كثيراً في مركز الشرطة وفي الأيام القليلة التي قضيناها في السجن، لكنها بعد ذلك تغيرت كثيراً لأنها كانت تكذب رغم أنها تعرف بأنها تكذب، وعيب القحبة هو الكذب والسرقة. أنا لا أكذب ولا أسرق ولذلك يحبونني كثيراً، ولو كان المعلم يعرف أنني أكذب وأسرق لما جاء يبحث عني وعنها، ورغم أنه لا يحب اسمها، فهو يذكّره باسم زوجته التي خانته مع يهودي، فأنا قحبة ولا أحب أن أذهب مع اليهود، أعطيه لابن عمي المسلم ولا أعطيه ليهودي، وفي النهاية فلن يأكله سوى الدود، واللّه سبحانه وتعالى سوف يغفر لي لأنه يعرف أنني سيئة الحظ، وبكل تأكيد فإنه لن يغفر لزوجة المعلم الخائنة، لأن ذلك الرجل ليس فيه أي عيب. وكم تمنيت لو أنه أحبني رغم أنه عاطل، فرجل من ذلك النوع أحسن من كل أثرياء العالم، فأنا أعرف الرجال جيداً رغم أني أبلغ الثالثة والعشرين

فقط، لكن حتى الثالثة والعشرين عمر، ألم أتزوج في العشرين عندما رسبت في الباكالوريا؟ لحسن حظي أني لم أنجب من ذلك الوغد، وها هي حليمة وراء ظهرها الآن طفلان وأحياناً أقول إن معها الحق عندما تكذب من أجل ذينك الطفلين، فهي مضطرة لكي تدفع مقداراً من المال يومياً للمرأة التي تعتني بهما في حي السالمية، وما أكثر النساء اللواتي يرعين أطفال (البنات) في الدار البيضاء، لكنهن لا يرحمن، لقد كنّ في السابق مثلنا، وعندما كبرن أصبحن قاسيات. لقد أعطين كل شيء للرجال، لكن الرجال تخلوا عنهن، غير أنه والحق يقال كثير من النساء تخلين عن الكثير من الرجال. وهذا المعلم الجميل الذكي الصامت تخلت عنه زوجته من أجل يهودي، ولا أدري عندما يكبر طفلاها ماذا سيقولان عنها، أما حليمة فلا شك في أن طفليها سوف يحبانها عندما يكبران ويمكن أن تكذب عليهما أية كذبة، فكثير من الأمهات كذبن على أبنائهن فصدقوهن واقتنعوا بطهارتهن وأرسلوهن إلى الحج، ثم إن اللّه يمحو كل الذنوب عندما يتوب الإنسان في نهاية الأمر فيصدق ويصوم ويصلي ويذهب إلى الحج لزيارة قبر الرسول (ﷺ)، وأنا متأكدة أنّ اللّه سبحانه سوف يغفر لحليمة عندما تكفّ عن الكذب، ويكبر طفلاها وتصبح عاجزة عن الخروج مع الرجال، لأن الرجال لا يحبون إلا الفتيات الصغيرات. صحيح أن المعلم قد لا يكون مثلهم، فهو لا يلهث وراء النساء، وأنا أقرأ في عينيه أنه لم يكن يفعل ذلك حتى قبل أن يُطرد من العمل، وها هو صامت الآن يشرب وينظر إلى الجدار لا إلى النساء، ولا أدري ماذا يدور في رأسه، بينما الطاهر يختفي وسط زحام البار ليعود إلى كأسه ثم يختفي مرة أخرى، ولا أدري ما الذي كان يقوله لحليمة وللمعلم، فأنا لا أسمع شيئاً وسط هذا الضجيج. فالناس لا يستمعون حتى لأم كلثوم، عفواً... هناك

رجل مطرق ربما كان يستمع إليها أو ربما خانته زوجته مثلما فعلت زوجة المعلم، وربما زوجات معلمين آخرين، وزوجات رجال آخرين غير المعلمين. وعلى كل حال فأنا لم أخن زوجي لأنني أحببته، لكنني خرجت مع رجال كثيرين من بعده. ومع ذلك فقد ظلّ يحبني وأحبه رغم أنه وغد ولن يعوّضه رجل آخر في حياتي أبداً، قد أحبّ المعلم، وأنا في الحقيقة أحبه، لكن حبي لزوجي مختلف تماماً عن حبي للمعلم، وهنا أقع في حيرة تامة لا أدري من الذي يستطيع أن يفهمها، هل يستطيع الإنسان أن يحب اثنين معاً وفي نفس الوقت؟! لكن زوجي يبقى هو الأسمى، إنه نذل، قذر، وغد غير أنه هو الأسمى، إني لا أستطيع العيش معه لكنه سيد الرجال، فحل وكل شيء وحليمة لا تحب زوجها لكنها تلتقي به في الخفاء ويمارسان ذلك الشيء وأحياناً أتصور أن ذلك شيء عادي لو أنها كفّت عن الكذب واهتمت بالمعلم، وإذا لم تهتم به فإنني أستطيع أن أفعل ذلك مكانها، لكن المعلم الآن كفّ عن صمته، فأراه يتحدث إلى الطاهر ويقول له ما لم أستطع سماعه لأن صوت أم كلثوم أقوى من كل الأصوات وبدأت أشعر بنشوة حقيقية ثم اقتربت من حليمة وهي تقول بصوت مرتفع:

- لا شك أنك سكرتِ. فيمَ تفكرين؟

- أستمع إلى الموسيقى.

- قولي أي شيء، هل تفكرين في زوجك؟

- كل الرجال سواء، لم يعد هناك حب، الحب هو جيبك.

- وأنا ماذا يهمني من كل هذا؟ إنني أحب رجلاً واحداً رغم أنني لا أستطيع العيش معه، إن ذلك مأساة، تصوري أنه كاد يغرقني في البحر ذات مرة لولا أن أحد أصدقائه أنقذني من بين الأمواج.

- عندما تبدئين في إعادة هذه الأسطوانة التي سمعتها منك

مراراً أعرف أنك سكرت وأنك سوف تتشاجرين مع إحدى البنات.

وقال المعلم للطاهر:

- من الأفضل ألا نذهب إلى الحي لنكمل السكرة، وأن نشرب في الحانات. فولد الروايس في آخر الليل يمزج الخمرة بالباربا ويضيف إليها الكحول. إن شرابه يستطيع أن يقتل فيلاً.

وقال الطاهر:

- إنني غني هذه الليلة وأنت تعرف أني أحبك لأنك تعلمني الكثير فلنشرب في أي مكان تريده مع هاتين، اطلب ما تشاء، هل تريد سندويشاً إذا كان بك جوع؟

- ليس الآن.

وقالت حليمة لخديجة:

- قولي له أن يشتري علبتي سجائر أميركية.

- قوليها له أنت، إن لك لساناً تنطقيبن به. غداً أو بعد غد سوف يصبح مفلساً، إني أعرفه جيداً.

كانت الموسيقى هي الطاغية في هذا الضجيج تحت الضوء الباهت للحانة، وكان أناس يدخلون وآخرون يخرجون مترنحين في الغالب، وكان خلف هذا المكان مكان آخر بابه مغلق، لكن موسيقى غريبة كانت تأتي من هناك خافتة جداً حتى أنها لا تكاد تُسمع، وبين الفينة والأخرى ينفتح ذلك الباب ليدخل شخص أو ليخرج شخص سكران مجروراً مثل ذبيحة ليلقى به في الشارع حتى يلقى مصيره، بالشكل الذي سوف يُراد له.

ثم أخذت حليمة وخديجة تتحدثان فيما بينهما حديثاً خاصاً لم يكن يهم المعلم ولا الطاهر، ومهما تكن العداوة بين امرأتين في الحانة أو في بيوت اللذة، فإنهما قد تتفقان ولو لحظة، وفي تلك اللحظة بالذات وبعدها فليحصل ما يمكنه أن يحصل، تلك قوانين

العلاقة الإنسانية وبالخصوص في ذلك الميدان، أهلاً بك اليوم وإلى اللقاء غداً، ثم أهلاً بك مرة أخرى ووداعاً إلى الأبد، كانتا تتحدثان وربما في الغالب عن الرجال لأن مشاكلهما الشخصية كانت معروفة وكأن الطاهر لم يكن موجوداً، فهو يختفي ليعود مرة أخرى وكأس الجعة في يده لا تفارقه. إنه يحتاط دائماً حتى لو كان سكران من أن يضع له أحد قرصاً أو قرصين في الكأس، لقد فعلوها له ذات مرة فجرّوه شبه ميت إلى قسم المستعجلات لينظفوا معدته من ذلك السم القاتل، وقد شكّ بعد ذلك في أن قحبة هي التي وضعت له الأقراص في الكأس لكنه لم يكن متأكداً، على كل حال على الإنسان أن يحتاط حتى من أخيه الذي ولدته له أمه سواء من أبيه أو من رجل آخر، وقال المعلم:

- أليس كذلك؟
- نعم.
- حتى من أخيه؟
- لكن ماذا تقول؟ هل سكرت؟
- قلت أن يحتاط من أخيه.
- اشرب، اشرب لا بدّ أنك قد سكرت.

وسمع صراخ أنثى في الطرف الآخر من الحانة الواسعة خلف الأجسام المتداخلة مثل يوم الحشر، وكانت تسمع كلمات مثل عوك عوك دين أمك، الحبس، البوليس الكوميسارية ولد كذا وكذا، إلى آخر ذلك من شتائم قاموس الغضب المغربي، ولكن لم يكن أحد ليهتم بذلك لأن النتيجة واضحة، فبعد لحظة سوف يلقى بهما في الشارع إذا لم تكن الأنثى من المشتغلات في الحانة.

وقال الطاهر بصوت مرتفع دون أن يراهما:

- اضرب دين أمها فرقع لها العين.

وقال للنادل وهو يطقطق بكأسه الفارغة فوق الفاصل الخشبي:

- هات أربع بيرات أخرى.

وقال للنادل وهو يفتح الزجاجات متملقاً لزبونه:

- إنهن دائماً يخلقن المشاكل عمداً، حتى يتسببن في مشاكل وحتى تغلق الحانة فيلقى بنا جميعاً في الشارع، إنهن يستطعن أن يتدبرن أمرهن أما نحن الرجال...

وقال الطاهر للمعلم:

- اسمع المعقول.

وقال المعلم:

- اشرب، اشرب، وأنت ما علاقتك بها؟ هل تعرفها؟ إن بالقرب منك واحدة.

سمعته حليمة ورفعت كأسها وقد بدا عليها العياء لأن الوقت تأخر:

- في صحة الجميع.

ورنّت الكؤوس في فضاء الحانة الذي يملأه الدخان الكثيف، ثم سقطت خديجة من فوق التابوري فاندلقت الكأس على ثيابها لكنها بقيت في يدها دون أن تنكسر، إلا أن يداً امتدت إليها من الخلف وساعدتها على الوقوف. وقالت:

- صافي! أنا سكرت.

ومع ذلك أفرغت ما تبقى من الزجاجة في كأسها، ضغطت على الزجاجة كما لو ودّت أن تعصرها لكن ضغطها كان واهناً مرتخياً وكانت شتائم قاموس الغضب المغربي قد كفّت الآن، ويمكن للمرء أن يتصور ما يمكنه أن يكون قد حصل بعد ذلك، فللحانة أربعة أبواب، اختفى الطاهر مرة أخرى وسط الزحام. تلك كانت عادته عندما يشرب، فهو لا يستقر في مكان واحد أبداً وغالباً ما كان

تحركه داخل الحانة بذلك الشكل يجلب له مشاكل مع بعض السكارى، قد يكونون أكثر أو أقل نشوة منه. بدت حليمة متعبة جداً إلا أن ذلك لم يمنعها من أن تقول للمعلم:

- إن الطاهر غني هذا المساء، فلماذا لا نذهب إلى المجزرة البلدية لنأكل رأس غنم مبخّر؟

وقالت خديجة:

- وأنا اشتهيت الطحال المشوي منذ مدة لم آكله، كان المعلم صامتاً، يشرب وينظر إلى ما حوله في لامبالاة وكأنه ليس من هذا العالم، إنه يعيش في عالمه الخاص، عالم الطيور والزواج والطلاق والتلاميذ والسماء والتوقف عن العمل وكل شيء، لكزته حليمة وهي تقول:

- ألا تحب رأس الغنم المبخر؟

وجذبته خديجة:

- ألا تحب أكل الطحال المشوي؟ ألا تشرب بيرة أخرى؟

قالتها وهي تتجشأ، وكان مرفقها ينزلق فوق الفاصل الخشبي المبلل، تدارك النادل ذلك، فمسح الفاصل بالخرقة المهترئة التي يضعها في مكان ما بين زجاجات البيرة المرصوفة بانتظام خلف ظهره، قال المعلم للنادل:

- هات أربع بيرات أخرى.

تصرف كما لو كان ما بجيب الطاهر بجيبه، صحيح أن جيبك هو جيبك وبما أن للطاهر جيبه، فهو بالضرورة جيبه، ثم إن خديجة أعادت:

- قل لي: ألا تحب الطحال المشوي؟

لكنها هذه المرة لم تتجشأ، وقال المعلم القليل الكلام:

- سوف نأكل الطحال المشوي وسوف نأكل رأس الغنم المبخر ولكني أخشى أن يأتي الطاهر بامرأة أخرى، إنه عندما يسكر لا يعرف ما يفعل.

وقالت حليمة:

- لو جاء بأية قحبة أخرى فإني سوف أنتفها، كلنا بنات تسعة أشهر، وهل أنا عايبة؟

لكن الطاهر لم يعد بامرأة أخرى بل عاد بكأس فارغة وهو يتمايل ويغني، وكانت الحانة قد بدأت في طرد السكارى وكثر التصفيق في كل مكان، بعد أن رنّ جرس أول الأمر وسكتت الموسيقى وأصبحت الحانة مضاءة. إنها نهاية الساعة، ساعة الفرج العابر أو المستمر أو الدائم، لا أحد يدري وكان غناء الطاهر ثقيلاً من دون وزن مجرد كلمات غير مفهومة، يبدو أنه كان يردد إحدى أغنيات شيخات وادي زم، وقال النادل وهو يتظاهر بمسح الفاصل الخشبي:

- سوف نذهب لننام مع أبنائنا. انتهى الوقت.

قالها بصوت مرتفع دون أن يشعرهم بالإهانة. فهو في حاجة إلى ثلاثة أو أربعة دراهم، ولم يبقَ في الحانة الواسعة العريضة إلا بضعة أفراد يجرّون أقدامهم باحثين عن شيء ما، ثم دخل رجل قصير القامة، وقف عند الباب، بعيداً منه بمتر أو مترين.

- هناك سيارة خصوصية، إنها سيارة رجل موظف ومحترم. الثمن ملائم ليست هناك سيارة أجرة الآن.

وقالتا على التوالي:

- أنا أريد أن آكل رأس الغنم المبخر.

- وأنا أريد أن آكل الطحال المشوي.

دفع الطاهر الحساب وهو يتمايل وكانت حليمة تضع يدها تحت

إبطه الأيسر، وهما يغادران الحانة، دردش الطاهر قليلاً مع البواب، لم يفهم البواب ما كان يقوله وكان الرجل القصير يصيح:

- تعالوا، إنها سيارة رجل موظف محترم.

لكن شرطياً خرج من وراء جذع شجرة وهو يمضغ شيئاً في فمه.

- إنها فوضى حقيقية في هذا البلد المسلم. السكر والفساد معاً.

ثم جاء شرطي آخر، لم يقل كلمة واحدة، لكنهما دفعوهم داخل الجيب، أما الرجل القصير فقد بقي بعيداً ينظر إلى المشهد، وقد فاتت منه فرصة الحصول على بضعة دراهم، ولكن اللّه رحيم بالجميع سواء بهذه الطريقة أو تلك.

الجزء الرابع

الغرفة ضيقة مثل زنزانة مربعة، فيها فراشان ضيقان متقابلان في حين اتكأ صندوق كبير على الجدار الثالث، تضع فيه الضاوية ثيابها وأدوات زينتها، وفي وسط الغرفة مائدة صغيرة قديمة مستديرة اشترتها من بائع خردوات متجول بثمن سهرة ليلة مع رجل عجوز من بني ملال. سكر وتقيأ وبكى، تركته وحده في غرفة الفندق بالمدينة العتيقة وانسحبت لكي لا تخلق لنفسها مشاكل، عندما نام في قيئه وهو يشخر كخنزير ويهذي بكلام لم تكن تلتقط منه سوى: «سيري بحالك الحمارة سيري بحالك الخانزة». ولم تكن تعرف ما إذا كانت هي المقصودة أم امرأة أخرى حمارة وخانزة بالفعل، كان فوق المائدة زجاجة نبيذ رديء وفجل وخس وتحت المائدة زجاجات نبيذ أخرى، كانت الضاوية تخرج وتدخل من باب ضيق إلى مكان تُسميه مطبخاً فيه إبريق وكؤوس وثلاثة صحون ومرميطة وقنينة غاز صغيرة وعندما تدخل لا تنسى أن تشرب جرعة من كأسها ولم يكن أحد يعرف ما الذي كانت تفعله هناك إلا أنها هذه المرة عادت بصحن عليه طماطم وبصل مفصوص، وقال العطاوي:

- اجلسي معنا، نحن جئنا لنشرب لا لكي نأكل.

وقال الهراوي وهو يصب لنفسه:

- اجلسي يا الضاوية.

قالت الضاوية:

- لا بدّ أن أشوي لكما شيئاً من الكفتة.

قال الهراوي:

سوف نأكل فيما بعد، اجلسي معنا.

وقال العطاوي:

- اجلسي.

جرّت الوسادة التي كانت بالقرب من الهراوي وجلست متربعة فوق السرير القصير إذ كان البلاط عارياً وكم تمنت لو كان بمقدورها أن تشتري زربية لكانت الآن قد جلست على الأرض مثلما كانت تفعل في بيتها عندما كانت متزوجة. لكن ذلك الزواج أصبح مثل الحلم لأنه لم يدم سوى ستة أشهر، فعمّتها لم تكن تحرمها فقط من الجلوس على الأرض بل كانت تحرمها من أشياء أخرى وتتدخل في كل شيء حتى في الفراش مع زوجها.

- أنت لست امرأة، إنه يخرج مع نساء أخريات وأنت دائماً نائمة في البيت، يعود سكران في آخر الليل بعد أن يكون قد بذّر كل ما في جيوبه.

- يا عمتي إنه رجل وقد علّمتني أمّي أن الزوج عندما يتجاوز عتبة البيت فهو في ملك الأخريات.

- إن أمك حمقاء، أنتن بنات اليوم لا تفهمن شيئاً في الحياة. أنا أكبر منك سناً، ثم إني أخته الكبيرة.

رشفت جرعة من كأسها وكانت تنظر إلى البلاط العاري الذي تمنت لو كان مغطى بزربية. تنظر في ذهول، في حين كان العطاوي والهراوي يقولان كلاماً لم تدركه على الإطلاق لأنها كانت في عالمها الخاص، لكن الأغنية المنبعثة من الترانزستور، والتي لها

علاقة بلحظات معينة من حياتها، أعادتها إلى جو الغرفة. ثم قالت وعيناها تنظران في الظلام خلف الكوة الضيقة الوحيدة في الغرفة:

- إن الطاهر متعود والبنتان كذلك، لكن ذلك المعلم المسكين ليس له حظ على الإطلاق في هذه الحياة، إنه بكل تأكيد لن يتحمل تلك المهانة.

وقال العطاوي بعد صمت وتأمل:

- وهل هناك إهانة أكثر من أن يوقفوه عن العمل؟

وقال الهراوي:

- كلنا زرنا تلك الأماكن، على المرء أن يتعود وبعد ذلك سوف يصبح الأمر سهلاً، ثم إن قاضي التحقيق سوف يطلق سراحهم بعد يومين أو ثلاثة. لم يفعلوا أي شيء، لقد سكروا فقط.

وقال العطاوي:

- صحيح لم يفعلوا أي شيء، ليسوا مهرّبين ولا لصوصاً ولا بائعي مخدرات حتى يساوموا على أنفسهم فيبتزهم الجميع بالرشاوي، سوف يُطلق سراحهم، نحن نعرف بلدنا والحمد للّه.

في هذه الأثناء كانت الأغنية قد انتهت، وكان صوت وراء الميكروفون يتحدث عن إنجازات تمّ تحقيقها وعن وضع الحجر الأساسي لمشاريع كثيرة سوف يتمّ تحقيقها بمناسبة حلول أحد الأعياد الوطنية التي يحتفل بها العديد من الناس في أقبية مراكز الشرطة لأنهم سكروا ولأن قدراً كبيراً من ميزانية الدولة يعتمد على الإتجار في الخمور في بلد مسلم يُحرّم فيه الإسلام الخمر. وقالت الضاوية بعد أن أفرغت كأسها دفعة واحدة:

- لم أعد أعرف رأسي من رجلي في هذا البلد، فبدل أن يصبح ذلك المعلم ضابط شرطة، يأخذونه إلى المركز لأنه شرب قليلاً، ألا يكفيه ما هو فيه؟ مسكين.

قال العطاوي:

- هذا شيء عادي، سوف يجفف بلاط المحكمة وسوف يطلقون سراحه، لقد فعلت هذا مراراً حتى يتعلم أين ومع من سوف يسكر، إن سيارات الشرطة لا تقف أمام الفنادق الكبرى، وهو لماذا ذهب إلى تلك الحانة القذرة؟

قالت الضاوية:

- هل تمزح؟ إن جيوبه فارغة، لقد كان الطاهر هو الذي يدفع وربما دفعت خديجة أيضاً فهي تحبه كثيراً، وقد قالت لي الفتاة التي رأت رجال الشرطة يردفونهم في السيارة إنهم لم يطلبوا منهم حتى أوراق التعريف.

قال الهراوي:

- حتى لو طلبوا منهم أوراق التعريف، ما الذي سيحصل؟ إن التهمة عندهم جاهزة دائماً: السكر والفساد، وإذا تمّ أدنى احتجاج فستنضاف هناك تهم أخرى مثل إهانة موظف أثناء مزاولة عمله، ألا تعرفين بلدك؟

- كلنا نعرفها والحمد للّه - لكن كنت أريد أن أقول: لو عرفوا بأنه معلم لأطلقوا سراحه.

- احكي كلامك هذا للحوت في البحر فقد يفهمك.

- إني أعرف مفتشاً للشرطة، سوف أذهب معه غداً إلى المركز. أعطياني فلوساً لأشتري له على الأقل سجائر وحليباً، لا شكّ في أنه يموت جوعاً هناك. أنا أعرف تلك الأماكن لقد سبق أن زرتها وأنتما تعرفانها أحسن مني.

قال الهراوي:

- يلعن دين أمك، تريدين أن تقولي بأننا مجرمان.

- يلعن دين أمك أنت، اشتمني أنا ولا تشتم أمي، أمي أشرف من أمك، تأكل طعامي في بيتي وتشتم دين أمي، إنك تعرفني جيداً.

وقال العطاوي وهو يفرغ لهما:

- كفى شجاراً، يبدو أنكما سكرتما.

وقال الهراوي:

- هل سمعت ما تقول؟ إنها دائماً هكذا لن تتغير، اللّه يستر.

قالت الضاوية:

- اللّه يستر على الأعمى والزحّاف، أما أنا فما أزال أدردك مثل عجلة.

قال الهراوي:

- نعم مثل نعجة.

وقالت الضاوية للعطاوي:

- اسمع.

وقال العطاوي:

- هذا كلام أطفال، حلفت مراراً بألا أكون معكما أبداً، لكن لا أدري ما الذي يصيبني؟

وقال الهراوي:

- أين خبأت علبة سمك التون؟ اذهبي افتحيها وضعيها فوق الطماطم والبصل، إن هذا الشراب الرديء سوف يقطع مصاريننا.

وقالت الضاوية:

- أنت الذي اشتريته.

ثم شربت ما تبقى من الكأس دفعة واحدة، وقفت ونشرت ذراعيها في فضاء الغرفة الضيقة وأخذت ترقص بتمايل على وقع أغنية شرقية منبعثة من الترانزستور تردد بعض كلماتها وتنظر إلى السماء المظلمة خلف الكوة كما لو كانت تناجي أحداً غائباً، ومن

الكوة كانت تهبّ ريح خفيفة، استمرت في الرقص وهي تخطو جهة المطبخ. اختفت وكان صوتها يسمع من وراء الباب وهي تردد كلمات الأغنية.

وقال الهراوي:

- أنا أعطي مئة درهم وأنت مئة درهم، ما رأيك؟

قال العطاوي:

- معي سبعون درهماً فقط، أعطيك خمسين والباقي سوف أدفعه لك فيما بعد، عندما يخرجون فإن الطاهر سوف يردّ لنا الدين.

- لا يهم، هات الخمسين، سوف أدفع الباقي. إنني لن أنسى خيره كم مرة جاءني بالقفة إلى السجن ولم يطلب مني أي شيء، إنه رجل طيب وشجاع وكان يتمنى أن يكون شخصاً مهماً إلا أن الظروف لم تساعده، ولذلك فهو يحب المعلم والمعلم يفهم قوالب هؤلاء الذين يحكمون ولذلك طردوه من العمل.

- معك الحق، إنهما يستحقان أكثر. المعلم رجل طيب على الرغم من أنه صامت دائماً، والطاهر نعرفه جيداً. أخشى أن تحصل على الفلوس وتسكر بها.

- كأنك لا تعرفها جيداً.

- إنها أحياناً تصبح حمقاء ولا تعرف ما تفعل بنفسها.

كانت الأغنية الشرقية لا تزال تتحدث عن الحب والبعد والهجر، وكان صوت الضاوية المحب للبعيد المهاجر يتردد في شبه المطبخ، وبكل تأكيد بعد قليل سوف يدق الجدار جارهم الأعزب في الغرفة المجاورة، فهو يتناول الأقراص ولا ينام بشكل جيد وربما طرق الباب وقال لهم: «إنني أريد أن أنام، عندما تأتي خطيبتي من فاس فإنني لن أسكن هنا أبداً لكني أهيئ نفسي وسوف يكون لي أبناء، وسوف أكون رئيساً في مصلحة الأرصاد الجوية». هذا الكلام

تحفظه الضاوية عن ظهر قلب، ويحفظه الهراوي والعطاوي والآخرون الذين قد لا يعرفهم الهراوي ولا العطاوي، وعندما فكرت الضاوية في الفاسية رفعت صوتها أكثر، لكن يبدو أن موظف الأرصاد الجوية غير موجود في غرفته ويمكن أن يكون قد ذهب إلى فاس لزيارة خطيبته، وقال الهراوي بصوت مرتفع:

- هل ذلك غناء أم نهيق حمار؟ اتركي الرجل وشأنه.

قال العطاوي:

- هل سكرت؟ عن أي رجل تتحدث؟

- أنا أعرف تلك القحبة جيداً، تعالي اجلسي معنا، هل تطبخين جملاً؟

وبكل تأكيد فإنها لم تسمع كلامهما، ولكنها استمرت في الغناء وهي تقلب كريات الكفتة في المقلاة وكانت هناك عن يمينها ثلاث بيضات في كل مرة تتناول إحداها وتحركها عند أذنها لكي تتأكد ما إذا لم تكن فاسدة، تفعل ذلك بشكل آلي وهي تقلد الأغنية، في بعض الأحيان تفضل أن تخلط الكفتة مع البيض والطماطم، وأحياناً أخرى تضيف قليلاً من البصل أو الثوم، لكن الهراوي لا يحب تلك الأكلة بالثوم وهي تعرف ذلك جيداً، وعندما كانت صغيرة لم تكن تحب الثوم، لكنها عندما كبرت وتزوجت وطلقت وتعرفت على رجال كثيرين، شرح لها أحد الرجال فوائد الثوم، وقال لها إنه يزيد الوجه نضارة ويحافظ على الشباب ويكثر من الجماع، ومن يومها بدأت تُكثِر من تناول الثوم، إلا أن الهراوي لا يحب الثوم، لكن لا بأس، فهو نضير الوجه دون أن يتناول الثوم، ومحافظ على شبابه وفحل في الجماع، لكنه كثير الصراخ، وقد كان يصرخ.

الضاوية تعالي اجلسي معنا.

- أنا جاية.

وبدأت تكسر البيضة تلو الأخرى متمنية ألا تكون إحداها فاسدة، وعندما كسرت واحدة فوق المقلاة وسال زلالها فوق الكفتة رفعت صوتها بالغناء منتشية لأنها كانت محظوظة ولأن بيضاتها لم تكن فاسدة، ومرة أخرى تقول دون أن يناديها أحد:

- أنا جاية، إني أهيئ لك ما سوف تحنجره.

لكن لم يسمعها أحد. تركت المقلاة فوق قنينة الغاز، وعادت إلى الغرفة لتشرب كأسها وهي واقفة في حين كان العطاوي قد فتح زجاجة أخرى وناولها الزجاجة الفارغة دون حتى أن يلتفت إليها، لأنه كان مشغولاً بالاستماع إلى الهراوي الذي كان يحدثه عن مشروع السفر إلى منطقة الشمال لاقتناء سلع مهربة، وقال له إن الآلات الإلكترونية متوفرة هذه الأيام وبثمن بخس وقال له أيضاً، لكن من أين لهما رأس المال؟ ها هي الفكرة واضحة، لكن الفقير يبقى فقيراً، وها هو ولد حليمة الذي لم يعد يقامر معهم في الحفرة يكاد أن يصبح غنياً، ولا شك أنه ذات يوم سوف يغادر الحي ويشتري داراً أو متجراً في أحد الأحياء الراقية ويتركنا نحن دائماً في الحفرة.

قال العطاوي:

- إن أمه باعت ذهبها، وأعطته رأس المال وقالت له: كنْ رجلاً، كيف يعقل أن تذهب النساء إلى الشمال لتهريب السلع وأنت دائماً في تلك الحفرة يا ولد الفاعلة، شتمت نفسها ولكنها أعطته رأس المال، وأصبح رجلاً.

وقال الهراوي:

- آه! لو وجدت رأس المال لما عدت إلى تلك الحفرة أبداً، وحتى ما أربحه في القمار يذهب في الخمر، لعنة اللّه على الخمر. هات، صب كأساً أخرى.

- وما لك؟ هل أنت مزروب؟ الذين زربوا ذهبوا إلى القبر، ثم إن الليل طويل.

- أريد أن أشرب على حياتي.

جاءت الضاوية ووضعت المقلاة أمامهما وهي تقول:

- قولا باسم اللّه.

وقال الهراوي وقد بدأ يتعتع قليلاً:

- أنت ما لك تنطين كالقردة.

لكنها لم تعره اهتماماً وعادت إلى الجحر، شبه المطبخ، لتجلب شيئاً آخر قد يكون فجلاً أو بقدونساً أو ما لا يمكن أن يتصوره إنسان. مهما يكن فقد عادت إلى شبه المطبخ ولم تعر أدنى اهتمام. وسواء قال باسم اللّه أو لم يقل ذلك فإن البيض والكفتة والطماطم والخمرة وكل شيء أمامه، وكذلك البصل المفصوص والترانزستور والكوة والموسيقى والعطاوي. إن كل شيء أمامه عدا الثوم، وماذا يريد أكثر من هذا في هذا العالم؟ هل يريد أن يقدد؟ ثم قالت وهي تفعل شيئاً ما في المطبخ:

- أنا جاية.

لكنها لم تجئ بعد وقد أكل الهراوي كل ما في المقلاة وحده وهو شبه مغمض العينين في الوقت الذي كان فيه العطاوي مشغولاً بالبحث عن محطة إذاعية أخرى قد تتحدث عن مظاهرات أو انقلابات عسكرية، فهو دائماً يحب أن تنقلب الأمور دون أن يدري لماذا، وكم تمنى لو انقلبت الأمور لكي يذهب إلى سبتة أو مليلية، ويهرّب من هناك سلعاً يابانية أو حشيشاً أو أي شيء آخر، حتى يتمكن من الخروج من الحفرة، لكن الأمور لا يمكنها أن تنقلب أبداً ما دام الهراوي قد أتى على المقلاة كلها وانقلب على بطنه الآن وبدأ

يصدر زفيراً وحزاقاً، بينما الأخرى كانت تغني واكتفى العطاوي بتناول قطعة من الطماطم وصبّ لنفسه كأساً وصاح:

- الضاوية تعالي شوفي صاحبك.

- أنا جاية.

- تجيكي في الرأس، تعالي اشربي كأساً.

امتلأت الغرفة الآن بالدخان رغم أن الكوة مفتوحة لكن يبدو أن رئاتهم متعودة على امتصاص كل شيء إلى أن تصاب بداء السل، ثم عادت الضاوية وهي تمسح يدها في فوطة صفراء باهتة وقالت وهي تنظر إلى المقلاة:

- لقد أكلتما كل شيء، لكن لا بأس أنا شبعانة.

- أنا لم آكل شيئاً، هو الذي علف المقلاة كلها.

- صب لي كأساً، أعرفه جيداً، عندما يتحشش ويشرب فإنه يستطيع أن يأكل خروفاً، لكنه بعد قليل سوف يستيقظ وكأنه لم يأكل ولم يشرب شيئاً.

ثم طبطبت على حنكه وهي تقول:

- ياك الكلب! ياك الخانز! هذه دائماً هي أفعالك!

أصدر خواراً وانقلب على جنبه الشمال، وأعطى وجهه للحائط، قبّلت قفاه من دون طائل ثم شربت كأسها دفعة واحدة ووقفت ترقص بعد أن حركت زر الترانزستور ليرتفع صوت المغنية، وعندما كانت تحرك عجيزتها أمام العطاوي، كان هذا الأخير يرفع كأسه في وجهها ويمسد فخذيها من أعلى إلى أسفل ومن أسفل إلى أعلى، ثم أمسكت بيديه وأوقفته ليراقصها على صوت الأغنية العبدية، كان صوت الشيخة يأتي من الترانزستور متحشرجاً، فيه ألم وحزن، ويبدو أن الأغنية كانت تعبّر عن حالة حقيقية، وقعت في

مكان ببادية عبدة، وقد تكون هذه الأغنية معبّرة عن حالات أخرى مماثلة في تلك المنطقة أو في مناطق أخرى، وعلى كل حال فما يمكن حصوله هنا يمكن حصوله هناك. والأمر ليس جدياً بالقدر الذي يمكن أن يتصوره الإنسان. فهو مجرد قصة حب: يتولّه الإنسان ثم يغار فيكره فيبتعد أو يقتل، وتقول الأغنية إن المحبوب تعلَّق بواحدة أخرى، وتتكرر هذه اللازمة، لازمة أن نتولّه ونغار ونكره ونبتعد أو نقتل أو نتعلق بواحدة أخرى، إلا أن جسم الهراوي قد بدأ يتحرك، لكن لا أحد منهما انتبه إليه، وكان الترانزستور لا يزال يبث أغنية أخرى عن الهجرة إلى أوروبا، وقالت الضاوية للعطاوي:

- هل تعرف أنني أحبه كثيراً؟

قال العطاوي:

- ذاك شأنك.

لم تعد تقدر على الوقوف، واسترخت تماماً بين ذراعيه. كان هو الآخر قد شرب بما فيه الكفاية، وكانا يفعلان مثل قطين صغيرين يتعاركان ويتنابشان، ثم التفّت الساق بالساق، وبدآ في الهذيان والشخير، أصبحا جسماً واحداً محموماً. وبعد فترة استيقظ الهراوي بتثاقل وأخذ يدور في الغرفة الضيقة وهو يفرك عينيه ويتثاءب، نظر إليهما وهما متلاحمان يشخران، ومن دون شعور امتدت يده إلى زجاجة فارغة وصوّب جهتها وهو يصرخ، لكن أحداً لم يسمعه، كان الشخير طاغياً في الغرفة إلى جانب الموسيقى المنبعثة من الترانزستور، اقترب من الضاوية ولكزها في مؤخرتها، ففتحت عينيها بصعوبة، ومدّت ذراعها اليسرى إليه، جرّها نحوه إلى السرير الآخر وهو يقول:

- سكرت الخانزة.

قالت:

- آه!

لقد كان الشخير متواصلاً في السرير الآخر، وبعد ذلك لم يحصل أي شيء سوى ما يمكن أن يتصوره الإنسان بعد ليلة مثل هذه.

الجزء الخامس

ثم قال المعلم: إنهم قد لا يفهمونني جيداً. ومن الأفضل ألا يفهموني، فليفهموا أنفسهم أولاً لكن إذا لم أعش في جحر في هذا الحي الخلفي فأين سأعيش. ولو كنت أعرف أنني سأنتهي هكذا لبقيت في فرنسا. عندما كنت أسافر إليها أيام العطل الصيفية، وكنت وقتها أعزب، وقبل أن أصل إلى فرنسا، كانت لي مغامرات مع إسبانيات جميلات. إسبانيا رائعة رغم مضايقات اللصوص والحرس الوطني وسكاكين الغجر، لكن في الجنوب الفرنسي هناك أناس طيبون، كنا نذهب من مختلف الجنسيات لجني العنب من الكروم بثمن بخس لكنه كان على كل حال كافياً للمساعدة على قضاء بقية العطلة في باريس، لم نكن نشعر بالتعب على الإطلاق، طوال النهار، كانت تتوفر لكل واحد منا وجبتا طعام في اليوم وزجاجة نبيذ من الصنع المحلي الجيد، وفي الليل كنا نشعل النيران في الخلاء ونشرب ونرقص ونشوي لحم تلك الخنانيص الصغيرة، كم كان طعمها لذيذاً مع النبيذ والفواكه الوافرة! ولربما - إذا لم تخنّي الذاكرة - فقد كان عدد الفتيات أكثر من عدد الشبان. كنا نرقص في العراء ونختلي ببعضنا في أي مكان، كل واحد مع صديقة، وقد يغيرها أو تنفر منه فتختار شخصاً آخر. لكن الأمر كان عادياً ومألوفاً وقد تزوج البعض منهم واختفوا باتجاه الجنوب أو الشمال، ولا

شك أنهم أنجبوا أطفالاً سوف يكبرون وسوف يعودون إلى الأماكن التي كان فيها آباؤهم، وسوف يجنون العنب ويشربون النبيذ المحلي الجيد، ويشوون الخنانيص ويرقصون ويتعارفون ويتزوجون وينجبون أطفالاً آخرين ليفعلوا مثلهم فيما بعد.

إنهم لا يفهمونني جيداً، ومن الأفضل ألا يفهموني، كما أنهم لا يفهمون الظروف التي يعيش فيها أولئك العمال المهاجرون الذين يبنون هذه الدور في الحي الخلفي، كما أنهم لا يعرفون كم تساوي كل آجرة من حبات العرق. إنني صامت فعلاً، ليس لأنني لا أعرف ما أقول، ولكني لا أستطيع أن أقول ما أريد قوله، فأي اختيار حر يسبب الطرد من أية جماعة كيفما كانت. إن اليوتوبيا في هذا العالم هي مجرد فكرة فقط، وكم كنت مغفلاً عندما كنت يوتوبياً، لقد أردت أن أختار فطُردت من العمل، وللأسف لا أزال أصرّ على الاختيار لأني مغفل والمشكلة الأساسية هي أنني أعي ذلك ولم أستطع تجاوزه. إنني أصمت وأعاني، أتأمل تلك العصافير التي تتناقر في الفضاء وأعاني، أسكر وأعاني، أتذكر طفلي وأعاني أكثر. عندي أمل في أن أعود إلى العمل، لأن بعض النقابات تطالب بإعادة المدرّسين المطرودين إلى مناصبهم، وحتى لو عدت إلى عملي، فإني لا أستطيع أن أتصور الحياة الجديدة التي سوف أعيشها، وكيف أربط علاقات أخرى، هل أقدم للناس وروداً وابتسامة، أم نفوراً وكراهية؟! لكن ممن أنفر، ومن أكره؟ لا أدري، عندما يعيدونني إلى الشغل ربما أصبح شخصاً آخر، ولن أطرح على نفسي مثل هذه الأسئلة، وأتمنى أن تكون في يدي دائماً وردة الدالاي لاما، لكن دون أن أدّعي الربوبية. شيء جميل أن يصمت الإنسان، لكن عليه أن يتحدث في الوقت المناسب. وسبب مشاكل الناس أنهم يتحدثون في الوقت غير المناسب، والمغاربة يقولون إن اللسان ما فيه عظم،

أي أنك يمكن أن تقول ما تشاء فتخرب العائلات وتفرق الأصدقاء وتطرد الناس من العمل، وهذا اللسان المغربي الذي ليس به عظم يستطيع أن يملي قرارات يمكنها أن تلقي بنا سواء في الحي الخلفي أو في الزنزانة أو في برشيد، كما كانوا يلقون بهم - أو لا يزالون في سيبيريا، أو في مراكز إعادة التربية في الصين لأنهم أرادوا أن يختاروا، وأحياناً يمكن لمن يختار أن تدوسه دبابة أو يدفن حياً أو يربط بأغلال أو أن يؤتى بسياف ليقطع رأسه أمام الملأ، فينصرف الناس، بعد أن يكونوا قد شاهدوا ذلك المنظر، إلى المساجد لأداء الصلاة، هذا بطبيعة الحال، في بلدان دين الرحمة والإخاء والتعاطف والمودة والإحسان والخير والعدل ونكران الذات والتسامح والتفاهم وإعطاء كل ذي حق حقه، وبلد عدلت فنمت (مقتولاً) يا عمر، لأن عينك لم تكن ساهرة، وعلى كل حال فالإنسان لا يمكنه أن يسهر على كل شيء، على العائلة مثلاً أو على الدولة، وعمر بن الخطاب أنهكه السهر بعد أن عدل وذهب ليستريح قليلاً فقتلوه، لكن العناية ارتضته ثم أرضته فأردته، وهذا سوف يحصل لنا جميعاً، والناس يعتقدون أنهم خالدون في هذا العالم، وكلهم يتخوفون مما وراء هذا العالم، إنهم لا يتخوفون على أنفسهم فقط، بل يتخوفون حتى على أبنائهم بعد وفاتهم، سوف يخلفونهم وراءهم وسوف يشمت بهم الآخرون، يا إلهي! ما جدوى شماتة الآخرين بعد وفاتي؟ إن الإنسان ينفصل عنهم ويذهب لكي يحلق في تلك الآفاق البعيدة التي يبدو أنها رائعة جداً، وأتمنى ألا يتعجل المكتئبون في فهم فكرة تلك الآفاق البعيدة فهماً سيئاً فيُقدموا فوراً على الانتحار لأن العالم لا يزال في حاجة إليهم لكي يأكلوا ويشربوا ويتناسلوا ويتآمروا ويتقاتلوا ويكذبوا على بعضهم البعض. أما أنا فآكل وأشرب، وقد تناسلت لأنني مغفل، لكني لم أفكر قط في أن

أتآمر أو أكذب أو أقتتل، ربما لكوني رجلاً مغفلاً، ومن يدري، فقد يكون الآخرون مغفلين، ليست هناك أية مقاييس في هذه الحياة، هناك من يحب الجبال وهناك من يحب البحار وهناك من يحب الخوض في المستنقعات الآسنة، لذلك فضّلت أن أبقى صامتاً ولكن القايد يعرف أنني أتكلم، إنه ينظر إليّ نظرات خاصة تقول إنه يفهمني جيداً، أقرأ في عينيه بأنه يعرف ما أعاني لكنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً من أجلي، فهو لا يسلم عليّ، وأنا أعرف لماذا، وأقدّر ذلك جيداً، إن العيون في كل مكان، ومن الأفضل أن يبتعد مني قبل أن يبتعد من وظيفته أو يُلقى به في أية جيحة من هذا البلد، حيث لن يتأقلم أبناؤه مع التلاميذ والمدرسين إلا بصعوبة، أما زوجته فلا بأس. إنها في البيت لا أدري كيف تتأقلم مع أثاث بيتها، أو كيف تقلّم أظافرها، ومن الأفضل لذلك القايد المسكين أن يبتعد مني أو من طريقي، فهو يعرف جيداً أنني مطرود، وربما كان يحمل نفس الأفكار التي طُردت من أجلها، إلا أنه لم يستطع أن يختار، ولربما عرف أن في الاختيار صعوبة، هاك حكاية، إذا وُفقت في روايتها: ذات مرة وقف خروتشوف أمام ممثلي الشعب السوفياتي لينتقد سياسة ستالين بشدّة، إلا أن صوتاً من ممثلي الشعب قال:

- لماذا لم تقل هذا الكلام وهو حيّ؟

توقف خروتشوف عن الكلام وتوجه إلى ممثلي الشعب في غضب:

- من الذي قال هذه الجملة؟

ظلّ الجميع صامتين أمام غضب السيد الرئيس، ولكي يستأنف خروتشوف نقده لستالين قال:

- إن الذي قال جملته هذه رجل جبان، وأنا أيضاً كنت رجلاً جباناً في عهد ستالين.

وإذن فالقايد المسكين رجل جبان، ليست له حرية الاختيار، ليست له حرية أن يقول «آح» حتى لو ضُرب بالكرباج، وصعب أن يقول الإنسان «آح» فيجد نفسه في الشارع وفي الحيّ الخلفي من دون أسرة ولا علبة سجائر ولا علبة عود ثقاب، ولحسن الحظ أن في هذا البلد نساء يستطعن أن يتدبرن أمورهن بهذه الطريقة أو تلك فينقذن الرجال ذوي الأكتاف، فالمرأة تستطيع أن تقحب من أجل الرجل إذا أحبته، والحب ليس معناه أن يبقى جسد تلك المرأة لك وحدك، فقد تنام المرأة مع رجال آخرين لكنها في الأصل تنام معك وحدك وهذا ما يحصل لي مع بعض نساء الحي الخلفي، وقد حصل لي كذلك مع سيدة متزوجة كانت تشتم زوجها صباحاً مساءً ولا تزال، إن فضلها عليّ كبير، وعندما أسألها لماذا لا تطلب الطلاق تجيبني دائماً: «لا أستطيع، وماذا سوف يقول الأولاد، ثم لا تستطيع أن تتحملهم لو تزوجنا» وعندما أجيبها: «إنني أستطيع» تقول: «إنك لن تستطيع، ولو استطعت لتحملت أبناءك» ولكنها لم تفهمني على الإطلاق، على الرغم من أنها تقول إنها تحبني وتستطيع أن تموت من أجلي. عالم غريب حقاً ولا يستحق إلا أن تصمت فيه إلى أن يحين وقت الكلام. أما متى يتكلم الإنسان، فالجواب عن ذلك صعب جداً، لأن المسألة مسألة اختيار، وكلمة واحدة تستطيع أن تخرجك من الجنة إلى الأبد، وفي البدء كانت الكلمة التي أخرجت أبانا آدم من الجنة وألقت بأبنائه في الأحياء الخلفية وفي المستشفيات وفي الخنادق وداخل الدبابات والطائرات المقاتلة وآلات الدمار وداخل الزنزانات. في البدء كانت الكلمة، ولذلك فضّلت أن أصمت وأنصت لعظامي كما يقول المثل الشعبي، والإنصات خير من الكلام ولذلك أنصت القايد لعظامه، وأنصت آخرون لعظامهم وخيراً فعلوا. وفي نظرهم طبعاً لكي يأكلوها لقمة باردة. بمعنى أن جسدهم لم

يتصبب عرقاً لكي يحصلوا على تلك اللقمة الباردة. أصمت لكي أستمع إلى ضوضاء العالم. هناك أصوات كثيرة لا نستمع إليها جيداً لأننا نتحدث كثيراً، وعندما يثرثر الفم كثيراً فإنه لا يعطي الفرصة للأذن لكي تسمع جيداً. وأنا أعتقد أن الإنصات أحسن من الكلام. وعلى الرغم من أن الكلمة كانت في البدء فإني أعتقد أن الإنصات كان هو الأبد. صمت كبير وشامل، يبعث الراحة ويعطي فرصة للتأمل. قبل الكلمة لم تكن هناك وزوزة الفئران ولا طنين الذباب ولا أصوات المدافع ولا مفرقعات عاشوراء. كان هناك صمت أبدي مثل صمت الأموات. ولذلك فضّل أن يصمت القايد على زبايله إذا كانت له زبايل، وبطبيعة الحال فإن زبايله قليلة بالنسبة إلى الآخرين الذين يعتقدون أنهم يخفونها في حفر لا تراها الأعين ولا تدركها الأبصار. إنهم لا يفهمونني، وهذا شيء جميل، ومن الأفضل ألا يحاول الإنسان أن يفهمك، بدل أن يفهموك خطأ. ومن الأفضل ألا يتكلم الإنسان كثيراً حتى لا يؤوَّل كلامه، لأن بعض الآذان لا تلتقط إلا ما تريد سماعه، لقد قلت ذات مرة لأحد الأشخاص، وكان معلماً مثلي (لم يُطرد لحسن حظه): «شيء جميل أن تشم تلك الوردة التي في يدك» فأجابني غاضباً: «ماذا تقول؟ هل أشم بعرة؟ البعرة هي أمك». وكاد أن يضربني لأن أذنيه كانتا طويلتين ورغم أنهما طويلتان فإنهما لم يلتقطا كلمة وردة والتقطتا كلمة بعرة، وكنا سنقع في مشكلة وقد نتشاجر ونقدَّم إلى المجلس التأديبي أو إلى مركز الشرطة أو إلى المحكمة من أجل وردة وبعرة، وقد لا تلتقط آذان أعضاء المجلس التأديبي أو قاضي التحقيق حروف كلمتي وردة وبعرة، فتصبح المشكلة أعوص. ولذلك فضّلت ألا أتحدث كثيراً. صحيح أنه في البدء كانت الكلمة ولكن الإنصات كان أولاً. تلك المرأة قالت إن زوجتي ذهبت مع يهودي أعلن إسلامه، لكنها لا

تفهم حقيقة ما يجري، فكثير من اليهوديات المغربيات تزوجن بمسلمين مغاربة وأنجبن منهم أطفالاً كبروا، وهربن إلى فلسطين لكن الأفظع من ذلك أن الأبناء ضربوا العرب في عام 1967 وظلّ الآباء المغاربة المسلمون يسكرون في الحانات من جراء الفقسة والغدايد لأنهم أنجبوا أبناء يقتلون أبناء عمومتهم ولأنهم تزوجوا بيهوديات كانوا يعتقدون أنهن مخلصات وفيات للسيد المسلم. لكنهم لم يكونوا يعرفون بأن اليهودي يبقى يهودياً، واليهودية تبقى يهودية، اسأل موسى أو عيسى عليهما السلام. لست ضد أي كائن بشري ولكن عليكم السلام جميعاً. تركتني زوجتي، هذا غير مهم على الإطلاق، ومع يهودي مغربي فهذا لا يهمني كذلك. الجنس هو الجنس في كل مكان من أنحاء هذا العالم، لكن الألفة هي سبب كل المشاكل في العلاقات الإنسانية بين الرجل والمرأة. وقد يستطيع الإنسان أن يألف قطاً أو فأراً أو ذئباً أو قرداً أو كلباً أو ذبابة أو أية خانزة أو خانز في هذا الوجود. تلك مشكلة البشرية جمعاء وإن كانت تتظاهر بغير ذلك. إن هذا الرجل الذي يملك سيارة كبيرة وفيلا واسعة عريضة فيها خدم وحشم إذا كانوا يحشمون على فعايلهم بالفعل، يعتقد أنهم ينظرون إليه كربّ الأرباب - معاذ اللّه - في حين أنه يعيش نفسياً حياة لا يمكن أن توصف على الإطلاق، ولا يستطيع أي محلل نفسي أن يختبرها، وهكذا فاليهودي واليهودية يظلان صامتين زمناً طويلاً إلى أن يأتي يهودي فينجب من امرأة مسيحية ولداً لقيطاً اسمه هتلر استطاع أن يخرّب العالم. في البدء كانت الكلمة ولكن عليّ أن أكفّ عن الثرثرة، هناك كلام كثير يمكن أن يُقال، ولكن هناك أيضاً عصافير تزقزق وشاحنات تهدر وموسيقى في الحانات وخُطب في المساجد وأخرى في التلفزيون، وكلام كثير في الكتب مثل هذا الكتاب الذي أتحدث من خلاله. شيء جميل أن

تُتاح لك فرصة التعبير عن نفسك سواء في المدرسة أو الجامعة أو المسجد أو حتى في الحيّ الخلفي، وعلى المرء أن يعبّر عن نفسه متى سُمح له بذلك، لكن أحياناً يكون الصمت حكمة كما قال العرب المقموعون منذ زمن طويل، هناك أشياء كثيرة يجب أن تُقال، ومن الأفضل أن أصمت وأستريح.

- خديجة، حليمة، كريطة: أين كأسي؟

- منذ وقت طويل وأنت صامت لا تتحدث كأنك لست موجوداً معنا.

- آه! عفواً اسمحي لي لقد كنت أفكر في أشياء.

- هل كنت تفكر فيها مرة أخرى، إنني أفهمك يبدو أنها سحرت لك، انسها وابدأ حياتك من جديد.

- لا، أنا لا أفكر فيها.

- وإذن أنت تفكر في سبب طردك من العمل.

- سوف تعود إلى عملك إن شاء اللّه، اشرب في صحتك، إن الأعمار قصيرة، أعطه شيئاً لكي يأكله، إنه لم يأكل هذا اليوم إنه يشرب فقط ولا يتحدث، رفعت الكأس في وجهه وقالت:

- إن الذي يشرب ولا يتكلم فإنه يقتل نفسه، لا تقتل نفسك.

صمت المعلم ولم يقل شيئاً وتجرّع كأسه دفعة واحدة.


الصفعة

- لماذا توقفت هنا؟ من تكون هذه القحبة؟ ولماذا وقفت بسيارتك أمام مركز الشرطة؟ هل تريد أن تُلقي قنبلة؟ من تكون هذه القحبة؟ هات أوراقك، ماذا تعمل بالضبط؟

لم أفهم بالضبط ماذا يُقال لي! ارتجفت وخجلت من نفسي، أذكر أنني قلت وأنا في حالة خاصة جداً لا أستطيع أن أصفها إلى حدِّ الآن:

- إنني أستاذ يا سيدي.

- فقيه ومعك قحبة، ألا تخجل من نفسك يا ابن الكلبة؟

- سيدي إنها زوجتي.

- هات عقد النكاح.

- لا يمكن يا سيدي لأي متزوج أن يحمل معه عقد النكاح، خرجت مع زوجتي لكي نتناقش بعيداً من العائلة، هذا قد يحصل لنا جميعاً.

- قد يحصل لأمك ولتريكة أمك، أنا لم يحصل لي هذا على الإطلاق، بناتي متزوجات بخير، أفضل من تريكة أمك، انزل.

وعندما نزلت أشبعني لكماً ورفساً وقال ما لا أستطيع أن أصفه إلى أن تخليت عن التدريس واجتزت مباراة للالتحاق بأكاديمية في مدينة القنيطرة لكي أتخرج قائداً وأصبحت أحكم مقاطعة تضمُّ حياً

خلفياً يسكنه شحاذون ولصوص ومعلم مطرود لأنه أراد أن يختار، إني أعرف كل الأشياء عن هذا الحيّ، وصمتي أكثر من صمت المعلم المطرود، إنني أفهمه لأنني اشتغلت بالتدريس قبل أن أصبح قائداً لهذه المقاطعة، عندما كنت صبياً اشتغلت مع أخي الأكبر كمتعلم في حانوته، وكنت أستيقظ في الصباح الباكر، عند آذان الفجر بالضبط، وكم لكزني ونهرني السكارى لكنها كانت حياة أليفة مع ذلك، وظللت صامتاً إلى أن تعلمت وتخرجت أستاذاً وصفعني الشرطي وقال لي انزل ومن تكون هذه القحبة فقال لي دماغي، اجتز المباراة والتحق بالأكاديمية لكي تصفع أناساً آخرين، لكني - واللّه يشهد عليّ - لم أصفع إلا الذين يستحقون الصفع، وأحياناً لا أصفع بيدي ولكن بأيدي الآخرين، أقصد الأعوان والمخازنية، لأنني لا أزال أتذكر تلك الصفعات التي تلقيتها من أخي الأكبر وأنا صغير والصفعات التي تلقيتها في الشارع، لكن تلك الصفعة التي قررت مصيري لن أنساها على الإطلاق، كما أنني لا أستطيع أن أنسى ذلك الوشم على أرنبة أنف ذلك الشرطي العجوز الذي زوّج بناته واستراح وخرج ليصفع أستاذاً داخل سيارته مع زوجته في شارع ما من الحيّ الحسني ولم يكن ذلك الأستاذ المسكين إلا رجلاً كتوماً خجولاً لا يستطيع أن يواجه زوجته أمام العائلة. لكن الصفعة أحياناً توقظ الساهي، فالناس يسهون حتى في الصلاة أمام ربّهم وقد نزل عليهم الويل في القرآن الكريم. أما أنا فقد أنزلت عليّ تلك الصفعة ويلاً ورحمة في نفس الوقت ولا أدري كم يتلقى الناس من الصفعات في الحياة، سواء على الوجه أو القفا. لكني أعتقد أن صفعة واحدة كافية لكي يلتفت الإنسان إلى ما حواليه، والذين يتلقون الصفعات ولا يلتفتون شمالاً أو يميناً هم أصحاب السلطة الكبار، لأنهم أحياناً يعتقدون أن تلك الصفعات هي مجرد هبّة ريح. إنني أصمت لأنني

في السلطة، أو على الأصح أنا جهاز للسلطة وليفعل المعلم ما يشاء فليصمت ما شاء له أن يصمت. وإذا ما أُتيحت له الفرصة لكي يتحدث فإني سوف أضع قطناً على أذنيّ. مسكين بئيس! يبدو أنني لست أبأس منه. أحياناً أتصوره حراً أفضل مني، أحسن الاختيار وعندما أتذكر الأطفال أقول في نفسي أنه لم يُحسن الاختيار. تلك الحياة جميلة من دون أطفال ومن دون صفعة شرطي موشوم الأنف زوّج بناته بخير واستراح، لكنهن بكل تأكيد لا يعشن بخير ولا شك أن كل واحدة من بناته تقحب في حارة وزوجها يقحب في حارة أخرى، وقد يكون الآن قد ركّب طاقم أسنان ووضع نظارتين على عينيه وجلس على رصيف مقهى ليشاهد رُكَبَ وأفخاذ فتيات الثانويات بعد أن أصبح عاجزاً جنسياً، ونسي كل الصفعات التي كالها للآخرين. طاقم الأسنان والصفعة هي كل ما يمكنه أن يحتفظ به. يأتون من الشمال أو الجنوب بسلع مهرّبة هذا لا يهمني على الإطلاق، فمن حقّهم أن يعيشوا، لقد هرّب الأغنياء أموالهم إلى الخارج، وكذلك فعل رجال السياسة رغم أنهم يخطبون بشكل جيد ويحرّضون العامة حتى يصوّتوا عليهم في الانتخابات وأنا لست سوى شخص منفذ للأوامر وخصوصاً في تلك الأمور السياسية. إذا ما طُلب مني تزوير الانتخابات فما عليّ إلا أن أفعل وإذا ما طُلب الحرص على النزاهة فما عليّ إلا أن أفعل، لأنني لا أريد أن أُصفع مرة أخرى، وأنا ربّ عائلة وإذا ما صفعت فلمن أترك هؤلاء الأبناء الصغار زغب الحواصل. هل أتركهم للماء والحجر ويا حبّذا لو تركتهم للشجر يقتاتون من فواكهه ويتدفأون بأعواده. إن الصمت جميل وكثير من رجال السلطة يثرثرون كثيراً تجني عليهم كلماتهم ويُجرّون من ألسنتهم الطويلة ويَجرّون معهم آخرين أبرياء. كم من رئيس دولة قُتل أو فرّ مع أتباعه لأنه يتحدث كثيراً ولا يزن كلماته

خصوصاً إذا كان يرتجل خطبه وليس هناك من يُنسق أفكاره ويراجعها. إن الكلمة مسؤولية وقد تُخرّب شعباً وتؤدي به إلى ما نراه اليوم في أنحاء العالم. على كل حال، أنا رجل مصفوع على قفاي ولذلك طأطأت رأسي وأغمضت عيني. إن أولئك الناس الذين يهربون أو يقحبون ما هم إلا مجرد مساكين ولكي تعيش لا بدّ أن تفعل أي شيء أن يلكزك السكارى عند الفجر وأنت صبي، أو أن تصبح قايداً لمقاطعة في حي خلفي، لكن عليك أن تصمت دائماً وإلا أصبحت شماتة مثل المعلم الذي اختار وتحدث فجُرّ من تلابيبه ولسانه إلى الحيّ الخلفي، مسكين! لا بأس! أعتقد أن مشكلته سوف تُحل ذات يوم فالنقابات تتحدث كل يوم عن أمثاله، ويبدو أنني أتحدث في السياسة وهذا شيء ليس من حقي على الإطلاق لكنني أتحدث من خلال قصة، وهذه بالنسبة إليّ فرصة مهمة لا يسمح لي بها التلفزيون أو الإذاعة لأنني قائد، وأحياناً أصبح قوّاداً عندما تنعقد بعض المؤتمرات في بلادنا، لكن ذلك عمل والعمل ليس عيباً كيفما كان، المهم أن يتدبر الإنسان أمر عيشه بهذه الطريقة أو تلك، سواء كان وحيداً أو كان يجرّ وراءه قافلة من الكسالى المتعبين من أسرته، والذين حتى لو سعيت لإيجاد شغل لهم فإنهم يفضّلون النوم حتى الساعة الثانية بعد الظهر ومع ذلك فإنهم ينفخون أشداقهم وأكتافهم ويقلبون الصحون في وجوه أمهاتهم وأخواتهم وهم يصرخون: «ما هذا الأكل؟ حتى الكلب يعاف هذا الطعام» وبحكم مهنتي، فأنا أعرف هذا النوع جيداً، وكثيراً ما تقدموا لي بطلب جواز سفر فحصلوا عليه بالفعل، وعندما يسافرون إلى أوروبا فإنهم يعودون فوراً لأنهم لا يستطيعون أن يشتغلوا، كل واحد منهم يعتقد أنه عُيّن سفيراً. هناك، ما إن يبلغ الشاب سناً معينة حتى يعتمد على نفسه، حتى وجبة غداء يتقاسم دفع ثمنها الابن والأب، أما أصحاب

الأكتاف وذوات الأرداف عندنا فأمرهم غريب. وربما تكون ذوات الأرداف أفضل من ذوي الأكتاف، إنني أعيش هذه الحالات يومياً وأنا لا أتحدث من فراغ، وأحياناً أقول في نفسي إنني لم أسئ اختيار هذه المهنة. لقد قربتني أكثر من ذوات الأرداف ومن ذوي الأكتاف، كان عليّ ألا أتحدث بهذا الشكل، وما دامت الفرصة قد أُتيحت لي فلم لا أتكلم؟ إن وَقْعَ الصفعة لا يزال يُنبهني إلى أشياء كثيرة قد لا أستطيع أن أتحدث عنها، لكن قد يُتاح لي أو لغيري الحديث في مثل تلك الأمور الخفية المستورة بثوب شفّاف مثلاً. أنا أعرف ما يفعله الأعوان من ارتشاء وابتزاز للمواطنين سواء في الحي الخلفي أو في الأحياء الأخرى لكنني أستر كل ذلك بثوب شفّاف، إنهم يعيشون والآخرون كذلك يعيشون وأنا أيضاً أعيش، والمعلم المطرود يعيش كذلك معهم. هكذا نعيش جميعاً وراء ستار شفاف، الكل يعرف كيف نعيش جميعاً وراء هذا الستار، وعندما يحاول أي شخص أن يُزيل ذلك الستار فإنه يطرد فوراً من جماعة لعبة الستار تلك. «كل ووكل» هذا ما يقوله مثلنا الشعبي، والحمد للّه فكل المغاربة يأكلون حتى ولو كان الأمر يتعلق بالخبز والشاي ونحن لسنا مثل بعض الدول التي يأكل مواطنوها الحشرات. إننا نقرأ في الصحف ما يحصل في بعض دول أميركا اللاتينية، وآسيا وإفريقيا، لكن المغرب جميل، وما يعوزه هو أن تكال لكل واحد منا صفعة، سواء على خده أو على قفاه، لقد تلقيت الصفعة وأنا الآن أحمد اللّه وأشكره. لست نادماً على شيء لكن الوطن يبقى هو الوطن، وإن كنت للأسف عاجزاً عن الصفع، فهناك من يصفع نيابة عني.

الجزء السابع

يسود الظلام الآن في هذا الوقت المتأخر من الليل. ظلام كثيف حقاً ورغم أن الأمطار غزيرة والوقت متأخر فقد كانت هناك نافذة ما زالت مشرعة، لكن من الجانب الغربي الذي لا يمكن أن تتسرب منه قطرات المطر. في الصيف الماضي، وفي مثل هذا الوقت، كانت كل النوافذ مضاءة ومشرعة. لقد عاد المهاجرون ليستكملوا البناء وليستخلصوا الكراء. وذهب الغزاة إلى البادية ليتفقدوا حصادهم أو مواشيهم، ومنهم من ركن إلى حيّ الصفيح المجاور ليتسول بأبنائه أو لكي يكتري أبناء جيرانه بعد أن يلطخ أوجههم ويلبسهم أسمالاً وغالباً ما كان الأطفال في حيّ الصفيح يرتدون الأسمال. في هذا الوقت المتأخر من الليل لم ينزل القايد من السيارة وأمر السائق باختراق الطرقات التي تمّ تعبيد بعضها خلال هذه الشهور الأخيرة بعد أن نبّه إلى ذلك أحد المراسلين المتجولين في إحدى الصحف. والقايد يعرف جيداً أن أي مراسل متجول ما هو إلا معلم أو أستاذ في مكان ما من أنحاء المملكة ينتمي إلى هذا الحزب أو ذاك، ويظل مراسلاً متجولاً إلى أن يضايق السلطات المحلية فيتم نقله إلى مدينته حتى يقترب من العائلة فيتزوج وينجب ويكمل بناء الطابق العلوي، ويصمت ويتنكر للمبادئ. ولو أن الظروف بقيت كما كانت عليه قبل عشرين سنة لاجتاز المراسل المتجول مباراة الدخول إلى إحدى

المدارس أو المعاهد ليتخرج ضابط شرطة أو قائداً. والقايد يعرف كل هذا. ولذلك فهو صامت بعد أن أصبح قائداً، ولو كانت له علاقات لأصبح قائداً ممتازاً أو ربما محافظاً، لكنه من عائلة مقطوعة الجذور ومتزوج من عائلة مقطوعة الجذور كذلك. ولم يفكر أول الأمر قبل الزواج، فقد تزوج من امرأة كانت تنظر دائماً إلى الأرض. وكان يعتقد أن ذلك من علامات الحشمة والحياء، وبالفعل فهي كذلك إلا أنها أصيبت بالربو عندما أغلق عليها البيت والنوافذ. لكنه الآن يقترب من تلك النافذة الوحيدة المشرعة في نهاية الليل تحت المطر. تسير السيارة ببطء وأحياناً تهتز تحت حفرة أو قطعة حجر. فالدروب لم تعبّد جيداً على ما يبدو لأن المراسل المتجول ربما لم يكتب مقالته بشكل جيد أو ربما قام محرر صفحة الشؤون الاجتماعية بحذف بعض الفقرات أو الجمل. وقد يحصل أحياناً ألا تنتبه السلطات إلى تلك المراسلات، وقد تُهملها أو تعتقل المراسل المتجول فتسجنه أو تجلده. لكن بعض المراسلين المتجولين يستمرون في عنادهم ومشاكستهم إلى أن يُصبحوا أعضاء في المجالس القروية أو الحضرية. أو حتى أعضاء في البرلمان. القايد يعرف كل هذا ويعرف غيره، ولذلك فهو يفضل الصمت ومن يدري؟ فقد يصبح ذلك المعلم الصامت ذات يوم عضواً في البرلمان أو حتى وزيراً للداخلية. القايد يعرف أن كل هذا قد يحصل سواء في المملكة أو خارجها. وقد يصبح عاملٌ في ورشة رئيساً لجمهورية بولونيا، كما قد يصبح جندي بسيط رئيساً للجمهورية، أو يصبح ممثل من الدرجة العاشرة رئيساً للولايات المتحدة الأميركية، وقد تصبح راقصة في ملهى رئيسة للدولة، والقايد يعرف جيداً أن التاريخ يخلق المفاجآت ولذلك فضّل أن يصمت دائماً إلا أنه يتحدث في الوقت اللازم وفي مثل هذا الوقت اللازم قال للسائق:

- يمكنك أن تتوقف الآن قليلاً، حتى تلتحق بنا السيارتان.

قال السائق:

- أمرك يا سيدي.

- يمكنك أن تدخن وأن تشعل لي سيجارة.

- حاضر يا سيدي.

- ويمكنك أن تنزل لتبوّل قرب الجدار، رغم أن المطر يهطل بغزارة. ورغم أن السائق لم يكن يشعر بالرغبة في ذلك فقد قال:

- أريد ألا أراك وأنت تبوّل.

- حاضر يا سيدي.

كان يردد «حاضر يا سيدي» مثل ببغاء وهو يشعل السيجارة للقايد، ويشعل لنفسه رغم أنه لم يكن يريد أن يدخن. وعندما أشعل سيجارته بدأ يزرر بنطلونه.

فقال القايد:

- ماذا تفعل أيها الحمار؟ هل تريد أن تبوّل في السيارة؟

فتح السائق الباب بسرعة وبخوف وقال:

- عفوك يا سيدي!

ثم ركض تحت المطر حتى أنه كاد أن يتعثر فيسقط. اختفى لحظة، وكانت السيارتان الأخريان قد التحقتا بسيارة القائد. نزل أحد ضباط المخازنية وأطلّ على القائد وهو يعالج قبعته تحت المطر:

- ياك لاباس يا سيدي! إن النافذة لا تزال مشرعة مضاءة، نتمنى أن تكون الوشاية كاذبة.

- لا بأس! إنه الواجب. إننا نقوم بتنفيذ الأوامر فقط.

وأضاف القايد للضابط بعد أن فتح له الباب:

- تعال اجلس بجانبي، المطر غزير. نحن صديقان قبل كل

شيء. أنا لست رئيسك وأنت لست مرؤوسي، إننا نقوم بالواجب وكفى، وهناك أشياء يجب أن تحترم.

نزع الضابط قبعته ونفضها بين ركبتيه وقال:

- كل ما تقوله سيدي صحيح. لقد علمتنا أن الواجب فوق كل شيء وأتمنى أن تكون الوشاية كاذبة، ثم إن المعلم لا يستطيع أن يفعلها ولا يمكن لرجل يخفي سلاحاً ومناشير أن يترك النافذة مضاءة ومشرعة في مثل هذا الوقت من الليل، وفي مثل هذا الحيّ الخلفي الذي لا يسكنه سوى أناس أنتم أدرى منّا بهم.

قال القائد:

- اذهب وابحث عن السائق، لقد تأخر.

قال الضابط:

- أمرك يا سيدي.

وما إن فتح الباب حتى رأى السائق يركض تحت المطر تجاه السيارة وقال السائق للقائد:

- العفو يا سيدي إذا كنت قد تأخرت قليلاً، لقد ضربني بعض السكارى بقطعة حجر على ظهري وكانت معهم واحدة فتبعتهم إلا أنهم اختفوا تحت المطر في الظلام داخل زقاق ضيق يؤدي إلى زقاق أضيق.

قال القائد:

- اركب. اركب.

وركب السائق، ثم عاد الضابط إلى سيارته وتقدمت السيارات بتثاقل لأن الرؤية كانت مستعصية وماسحات الزجاج لم تكن لها فاعلية أمام غزارة المطر. ومع ذلك، فقد كان ضوء النافذة واضحاً، لأنه الضوء الوحيد الذي يُرى من قرب أو من بُعد. فكل أضواء النوافذ مطفأة. وفكّر القائد إنهم يعرفون كل شيء ولذلك أطفأوا

الأضواء. لكنه لم يفهم على الإطلاق فكرة أن يخفي المعلم سلاحاً في ذلك البيت بالضبط. والقائد يعرف جيداً بأنه بيت لامرأة تشتغل بكل شيء إلا إخفاء السلاح. وحتى لو أخفت سلاحاً ما، فهي لا علاقة لها بأي شيء آخر. وكانت السيارات الثلاث تقترب وتتدحرج أحياناً. غير أن شبحاً مرّ بسرعة أمام سيارة القائد واختفى في الظلام. لكن ذلك لم يثر أي مخزني لكي ينقض عليه كالعادة من السيارة ربما لأن الجو كان ممطراً والوقت متأخراً وفوق هذا، فالذي يخاف ينجو بنفسه.

ثم خرج السائق عن صمته عندما اقتربوا من النافذة المضاءة، ولأول مرة أو لآخر مرة يتشجع على قائده:

- اسمح لي يا سيدي، أعرف المهمة التي جئنا، عفواً جئتم من أجلها، لا أعتقد أن المعلم يفعل ذلك.

سكت القائد لحظة، وليس من عادته الصمت عند إبداء الملاحظات، لكنه قال وبكل وضوح:

- متفق معك. سوف نرى لكننا نقوم بالواجب، إنها الأوامر.

- أعرف سيدي، ذلك شغلك، عفواً إنه شغلنا جميعاً نحن نحافظ على أمن الدولة.

- لقد علّمتكم ذلك. إننا نحافظ على أمن الدولة، لكن آن لك أن تسكت لقد اقتربنا، ويمكنك أن تتوقف الآن وتنزل وتقول للمخازنية أن ينزلوا وأن يطوّقوا العمارة.

توقف السائق بالفعل ونزل ثم ذهب إلى المخازنية في السيارتين الأخريين تحت المطر، كان القائد يتحسس مسدسه ويشدّ حزامه ويضغط على قبعته فوق رأسه ويفكر في أن المعلم لا يستطيع أن يفعلها. وهذا الحيّ الخلفي لا يمكنه أن يخفي سلاحاً. ومتى أخفي السلاح في الأحياء الخلفية؟ حصل ذلك قبل الاستقلال وسنة

1965، عندما كان يقفز شخص اسمه شيخ العرب، ضبط وهو ينط فوق السطوح مثل قرد. لقد أراد أن يقوم بثورة في البلاد، أو على الأقل في الدار البيضاء، وكان يعتقد أن الأمور سائبة وأن عين الدولة غافية. وفكّر القائد أن المعلم لا يستطيع أن يفعلها فهو رجل ذكي، وبكل تأكيد فإنه ليس شبيهاً بأولئك الرجال الذين وضعوا قنبلة في علبة تجرّها دراجة وقتلت فرنسيين أبرياء كانوا يدافعون عن استقلال المغرب. إن المعلم ليس غبياً إلى هذا الحد. ولا يمكنه أن يفعل ذلك بتاتاً. ولا يمكنه أن يفعل ذلك في الحيّ الخلفي، في حيّ القائد الصامت الساكت على همزته أو على خبزته. إن الأمور كلها تسير على ما يرام في هذا الحيّ. قلّما يزور الحيّ رجل رفيع المستوى، لكن الأمور تسير على ما يرام مثلما تسير مياه بركة آسنة، مثلما تتموج مياه بركة كبيرة أخرى آسنة اسمها لا يستطيع القائد أن يذكره. إلا أن المعلم لا يستطيع أن يفعلها لكن من يدري؟ فهم في الدول المجاورة والأكثر تخلفاً يلقون بالقنابل ويهاجمون قصور الرؤساء ويطردون الوزراء أو يشنقونهم. والمعلم الصامت قد لا يفعلها، لكن الساكت حجته معه.

كان القائد يفكر في الذي قد يحصل لو أنهم بالفعل ضبطوا سلاحاً في تلك الغرفة ذات النافذة المضاءة. وأحسّ بأنه قد تخلى عن مهمته العسكرية. لذلك فتح الباب بسرعة ونزل يجري تحت المطر وهو يتحسس مسدسه. نسي كل ما تعلمه في الأكاديمية. لأنه لم يجد نفسه على الإطلاق أمام امتحان مثل هذا. وعندما رآه أحد المخازنية الذي كان مصوباً بندقيته تجاه النافذة قال له:

- سيدي القائد، المطر غزير، تعال خلفي وراء السقيفة.

نفض القائد قبعته، توقف قليلاً وهو يلهث، ثم قال للمخزني:

- اتركني لأرى ما سيقع.

ثم جرى مرة ثانية نحو مخزني آخر وقال له بغضب:

- اسمع، اصعد أنت ورفيقاك واكسرا الباب إذا لم يرد أحد فتحه.

صعد الثلاثة، ورغم أن عدد المخازنية لم يكن كافياً، فإن القائد كان مرتاحاً لأن الأمر لم يكن متعلقاً سوى بمعلم وبأسلحة في حيّ خلفي تنقصه الإنارة ولا تنقصه الرشوة ولا الحشيش ولا الكحول. إنه حيّ هادئ جداً. فكل المشاكل تحل هنا بسهولة وبعيداً من السلطة المركزية. إلا أن مشكلة السلاح هذه هي التي جعلت القائد يفقد أعصابه. لكن أحد المخازنية أعاد لكل الناس صوابهم وهو ينزل متقدماً صديقيه:

- سيدي، ليس هناك أي سلاح في بيت تلك الفاسدة. والمعلم غير موجود.

كان صديقه في الخلف يحمل جنيناً ملفوفاً في خرقة بالية، وقال للقائد:

- انظر يا سيدي، إنهن يفعلن ذلك دائماً في الحيّ. إنهن يحملن في أماكن أخرى ويأتين إلى هذا الحيّ ليلقين بأبنائهن.

وقال القائد:

- نحمد اللّه لأن الأمر لا يتعلق بسلاح. ولكن هذا الجنين سلاح من نوع آخر. خذه معك. خذه إلى أي مكان فأرض المملكة واسعة. ألا ترى أن المطر غزير وأن الحيّ الخلفي مظلم وأن النساء يلقين بأبنائهن وأنك تحمل بندقية وأنني صُفعت وأن أحداً لن يفهم ما ورد في هذا الكتاب، وأن كذا وكذا وانتهى.

أفواه واسعة

1998

1

يكتبون كتباً جيدة أحياناً، لقد قرأت بعضها، كما قرأت بطبيعة الحال كتباً أخرى سيّئة. ولكن لم يحصل أن قام بطل إحدى القصص القصيرة أو الروايات بمواجهة الكاتب، أو واجه ممثلٌ مولفاً مسرحياً. لقد خدعوني كثيراً عندما قرأت لهم أو شاهدت مسرحياتهم، ولكن الحيلة فيما بعد لم تعد تنطلي عليّ، يريد أحدهم اليوم أن يفعل بي ما يشاء، سوف أترك له الفرصة، غير أنه سوف يجد نفسه أمام بطل لن يشابه ما كان يفكر فيه. لم أحلم بأن أكون سياسياً أو كاتباً ذات يوم، وبما أن الكاتب يصرُّ على الكتابة عن الناس من أجل المنفعة المادية أو الشهرة، فلماذا لا أشتهر من خلاله؟ أقصد من خلال ما ينوي كتابته.

إنه يفكر الآن في كتابة نصّ قصصيّ عن شخصيات كثيرة، لكنه سوف يجد معي مشكلة، ذلك أنني لن أصمت، وسوف أتحدّث إليه حتى يكفّ هذه المرة عن الكتابة أو أن يكتب بشكل جيّد، حتى يبقى خالداً، وإلا فلنرحل جميعاً إلى دار البقاء، إذا كانت ستبقى حقاً، أو هي باقية بالفعل ذلك أمر لا يعلمه إلا اللّه والكاتب، وطبعاً فإن علم اللّه فوق علم الكاتب مهما علا شأنه أو سفل. سوف أجرّب مع الكاتب، وأرى كيف أن بإمكانه أن يغتصب عوالم كائنات بشرية، جاءت إلى هذا العالم بغير إرادتها مثلما جاء هو

نفسه، أعرف أن الكتّاب يثرثرون كثيراً، ولكنهم لا يفكرون بشكل جيّد في حقيقة وجودهم في هذا العالم الغريب. على الأقل فهو غريب بالنسبة إلي، لأنني لم أهضم أي شيء فيه، ويبدو لي أني في رحلة قصيرة، دون جدال، كلّنا في رحلة قصيرة، وحسب ما نعرف فقد مرّ من هنا الكتّاب والملوك والقوّاد والقوّادون وباقي أصناف البشر، وحتى الذي يقرأ هذه القصة سوف يمرّ من هنا، من هذا العالم الغريب، لكن لماذا لا نقرأ شيئاً قليلاً عن حياة كما يتصوّرها الكاتب.

عفواً، وأنا أقول هذا الكلام دستُ على صرصار، كان يزحف قرب قدمي وأنا جالس على الكرسي، هناك صراصير أخرى في المطبخ ولكني لم أتمكن من قتلها. إنّ الكاتب يعرف بأن عندي صراصير في المطبخ، وهو وحده يعرف لماذا لم أستطع قتلها.

في سنوات الجفاف الأخيرة التي ضربت المملكة كثرت الصراصير التي تفرّخ بسرعة هائلة، وسمعت من الناس أنها موجودة في كل البيوت، حتى في الفيلات أو المطاعم الفاخرة، ولا أستطيع أن أتصوّر كيف يستطيع أن يأكل إنسان ثري طعاماً مرتفع الثمن في مطعم فاخر فيخرج له صرصار من طرف المائدة، أتصوّر كذلك، أن ذلك الثري، سوف يتظاهر بأنه لم يره، خصوصاً إذا كانت معه امرأة. فقد تحتجّ عليه لأنه أخذها إلى مطعم فيه صراصير. حتى لو كان في بيتهم صراصير، فإنها كانت ستحتجّ، فهي لم تتعوّد على العيش بين الصراصير، ولم ترَ في حياتها قط جرذاً، وحتى لباسها قد تكون جلبته لها أختها من إسبانيا أو إيطاليا، فكثير من النساء لا يحببن الصراصير والجرذان والخفافيش. إنهن يخفن منها، لكن أبناء الشوارع الخلفية المشرّدين يضعون الصراصير في قطعة خبز إلى جانب قليل من المازوت يلتقطونه من أرضية إحدى محطات البنزين،

فيأكلون ذلك لكي يتحششوا، وربما يكون واحد منهم أخ فتاة تتناول طعامها في مطعم فاخر.

قصص كثيرة من هذا النوع يعرفها الكاتب ربما. ذات مرة التقى رجل بهمنغواي في قطار، وقال الرجل لهمنغواي ماذا تفعل، قال إنني كاتب قصة، فقال الرجل اذهب إلى المغرب ففيه كثير من القصص.

والحقيقة أن نشأة هذه المملكة هي قصة بحدّ ذاتها، كم من المعتوهين حكموها؟ حتى أن المهدي بن تومرت كان يخرج بعد صلاة العصر، ليضرب الناس بعصا في الشارع العمومي، من أجل ردّهم إلى طريق اللّه.

فتح الباب فدخلت والدتي:

- إنك تقرأ كثيراً يا وليدي، لو استمرّيت على هذه الحال فسوف تعمى عيناك، أو أنك سوف تصاب بالجنون.

قلت لوالدتي:

- هل استعملت مبيد الحشرات؟

- لقد استعملته ليلاً، اختفت الصراصير، إلا أنها عادت يا وليدي، إن اللّه إذا أراد أن يسلّط على الإنسان مصيبة، فتلك مشيئته.

- صحيح يا أمي، تلك مشيئته.

- هل بك جوع يا وليدي؟ لقد طبخت عدساً مع لحم رأس العجل، وأصررت على الجزار أن يقتطع لسان العجل، فأنت تحبّه كثيراً، ووضعت في الطعام ثوماً فأنت تحب الثوم.

- سوف نأكل سوية، عندما أنتهي من قراءة هاتين الصفحتين.

- سوف آكل معك يا وليدي، لأنني أعرف أنك لا تستطيع أن تأكل وحدك، ورغم أن العدس يثقل عليّ فسوف أتناول الدواء وآكل معك ولو لقمة.

ذهبت الوالدة، ولم أستمر في القراءة، بل كنت أنظر إلى السماء من خلال النافذة.

وعندما حوّلت عيني إلى البلاط رأيت صرصارين يزحفان لكن بعيداً مني، ولم أتمكن من أن أدوسهما، ثم قلت في نفسي: مهما دسنا من الصراصير فإنها سوف تتوالد، إن الطبيعة وحدها التي خلقتها هي الكفيلة بالقضاء عليها. شأن ذلك شأن الإنسان، فمهما تمّ القضاء على الأشرار إلا ويولد آخرون في صورة مرشدين دينيين أو رعاة كنائس أو قادة سياسيين في الحقيقة، الكِتاب الذي كنت أقرأه لم يكن يتحدّث عن هؤلاء بل كان يتحدّث عن لغة الطيور ولغة العصافير، شيء جميل أن يكتشف الإنسان ما حوله، ويعرف أنه ليس هو الوحيد الذي يتكلم. ولو كان الصرصار يتكلم لقال لي قبل لحظة: لماذا دستني؟ هل أنا أفعى أم عقرب؟ أنا لا ألدغ. وآنذاك كنت سأقول له معك حق، أنا أعتذر، إلا أن منظرك قبيح. وكان سيقول لي: انظر إلى الشارع، كم من الوجوه القبيحة والشريرة ترى كل يوم فلِمَ لا تسحقها؟ وكنت سأقول له: إنني لم أخلقها وخالقها هو الذي سوف يدوسها. ثم إنني في نهاية الأمر لا أحبّ العنف، أعتذر مرة أخرى عن قتلك. وكان سيقول: إنك عاجز، لم تستطع أن تقتل سوى صرصار بئيس، وبما أنه لا يتكلم فلم يستطع أن يقول هذا الكلام.

ودخلت والدتي:

- إن الطعام جاهز يا وليدي.

هززت رأسي، وقفت وتمططت، وتبعت والدتي لتناول العدس ولحم رأس العجل واللسان.

2

المقهى على مشارف المحيط الأطلسي، أمواج عالية، لا شك أنها كانت تهدر. إذ لم يكن بإمكانه سماع هديرها، لأن زجاج المقهى كان يمتص هدير الأمواج وأصوات طيور النورس التي تحلّق في السماء وتحاول أن تلتقط شيئاً من صفحة البحر. ومن بعيد، كانت تظهر له باخرة تتحرك ببطء شديد كما لو أنها كانت راسية. إنه يحبّ هذا المكان، يأتي إليه في الصباح ليتأمل البحر ويقرأ الجريدة، جاءه النادل ووضع أمامه قهوة دون أن يطلبها منه، فالنادل معتاد على ذلك. يعرف عادته، وأحياناً لا يقول له حتى «صباح الخير». إنه شخص غريب بالنسبة إلى النادل فهو لا يُكلم أحداً. يشرب قهوته ويقرأ الجريدة. وعندما يتعب ينظر إلى البحر طويلاً، وقد يبتسم أو يُكلم نفسه، شخص غريب حقاً، تذكّر النادل أنه عندما كان صغيراً رأى رجلاً مثله في تارودانت كانوا يسمّونه عالم العلماء، يجلس على الطوار، يقرأ الجريدة، وبعد ذلك يقف ليتمشى ويتحدّث إلى نفسه لكن بصوت جهوري ولكنه يتمتم فقط ويحرك يديه.

التفت الشخص لأنه سمع حركات غير عادية:

دخلت فتيات عليهن أثر النوم، يبدو أنهن كنّ ساهرات في الحانات الليلية المجاورة.

إنه يعرف ما يجري على شاطئ المحيط الأطلسي، لكنه كان

يبتعد دائماً منهن، لقد جرّب، إلا أنه لم يستطع تحمّل كذبهن وحيلهن، ولذلك فضّل أن يبقى نعجة جرباء.

تهافت النادل على خدمتهن، وبالسرعة الفائقة أكثر من اللازم، لأنهن يدفعن بشكل جيد، وبطبيعة الحال، فهنّ كريمات، لأنهن بتن جائعات وعليهن أن يأكلن في الصباح استعداداً لجوع المساء، كان يحرك يديه، إلا أنه كفّ عن ذلك ربما خجلاً منهن، وهو يعرف جيداً أن الرجال يضعفون أمام النساء فيخجلون، ربما كانت حالته تلك، لقد حصل له ذلك في السابق، كان يخجل من امرأة إلا أنه اكتشف في نهاية الأمر أنها عادية، ولم يكن هناك داعٍ للخجل منها، إذ لم تكن سوى امرأة، لكن الشيء الجميل فيها أنها كانت تحبّ العطور والزهور والعصافير والكذب، وأجمل شيء فيها أنها كانت تعرف كيف تكذب عليه حتى إنه كان يصدّقها إلى أن فطن للأمر واختار العزلة. وأراد أن يحبّ أخرى، إلا أنه قال في نفسه ذات مرة: «إن الحب ليس إرادة». وفكر أيضاً: «إن العزلة هي الإرادة». التفت مرة أخرى ليتأمل المحيط الأطلسي، ربما كان يهدر، ولم يكن بأمكانه سماع هديره.

جاء النادل:

- أنت تعرف العادة، إنها الساعة الحادية عشرة والنصف، سنهيّئ الموائد للغداء.

قال:

- أعرف، هل تناولت الفتيات إفطارهن؟

- انظر، لقد انصرفن، ولم يبقَ إلا أنت.

دفع ثمن القهوة، وقف وأخذ ينظر إلى المحيط، في حين انصرف النادل بالفنجان والصحن. عاد النادل ووجده لا يزال واقفاً يتأمل المحيط، ثم قال له:

- قرب وقت الغداء، عليك أن تنصرف الآن، إنك لست من زبائن تناول طعام الغداء، تعال إذا سمح لك بتناول قهوة في هذا المكان. تأبّط جريدته وانصرف.

- كاتبه؟ من يكون هذا الكاتب؟ هل يستطيع الكتّاب أن يفعلوا بالناس ما يشاؤون، إنهم لم يخلقوهم حتى يفعلوا بهم ما يشاؤون. فالكتّاب أنفسهم مخلوقون مثل الجميع، وأقول دائماً: إن ما يهم هو ما الذي سيحصل لحظة الوصول إلى هناك، إلى الأعالي، كل واحد لا يعرف ما الذي سوف يحصل. والناس لا يعرفون حتى ما هو حاصل هنا، بله الذي سوف يقع هناك. أنا أعرف أن عليّ أن أغادر المقهى لأن هناك أناساً سوف يأتون لتناول الغداء. وهذا شيء طبيعي، لكني لا أعرف ما الذي يمكن أن يختاره أي إنسان من طعام، هناك مثلاً من يكون مصاباً بمرض السكّري أو بالقرحة أو بمرض الوهم. لم يكن ضرورياً أن يقول لي النادل: ما الذي سوف يفعله بك كاتبك. ويبدو لي أحياناً أنني أعرف ما أفعل بنفسي، وللأسف فأن الناس يتدخلون في شؤون بعضهم، كأن يتدخل النادل أو الكاتب أو رجل السياسة أو حتى من لا شغل له في حياتك. إن الناس يتحدثون عن العُقَد، وإذا كنت أعاني من عقدة فإنها بكل تأكيد تخوّفي من تلصص الناس عليّ، فأحياناً تبدو لي نظراتهم خبيثة، مُبهمة، وكلامهم فيه الكثير من التناقض، فهم في نفس الوقت يحبونك ويكرهونك، يريدون لك السعادة والشقاء في نفس الوقت، ويريدون لك الموت، لكي يستريحوا منك ويريدون أن يتشفوا فيك: مريضاً، مطلقاً، مفلساً، مطروداً من العمل. باختصار: «خلاء دار أبيك!» إذا لم يكونوا قد أخلوها بالفعل، وبدل أن يخلوا سبيلك فإنهم يخلون دار أبيك (إذ لم تكن لقيطاً بالفعل).

قال النادل ما قال، ويمكن للكاتب أن يقول ما يريد أن يقول.

ليس الإنسان حيواناً ناطقاً ولكنه كائن قوّال. فحتى الأبكم يتقوّل في الناس، ولو علم الذين يتكلمون ما يقوله الأبكم لحفروا لهم قبوراً.

المشهد اليومي العادي: إنهم يمرّون بسياراتهم أو على دراجاتهم أو سيراً على أرجلهم، وتمرّ أشياء كثيرة في رؤوسهم، فيمَ يفكرون؟ لا أحد يعرف، لكن اللواتي أفطرن بشكل جيد في الصباح، لا شك أنهن يفكرن في كيف سيحصلن على ثمن الإفطار القادم، وعلى أجرة القوادات اللواتي يسمّينهن مربّيات. كي يحتفظن لهن بلقطائهن ولقيطاتهن الذين سوف يكبرون واللواتي سوف يكبرن، ولن يفكك معهم ومعهن إذ ذاك حتى صابون تازة.

3

إن النادل أحمق، وهو لا يعرف بأن الكاتب سمعه ورآه كيف يتصرف في المقهى أمام الزبائن في ذلك الصباح على شاطئ المحيط. لم يفعل الكاتب شيئاً سوى أنه دخل معنا إلى المقهى ورأى ما حصل لي ذلك الصباح. وعلى كل حال، فكل ما قد حصل يعتبر شيئاً عادياً، قد يحصل في أي مكان من أنحاء العالم، علماً بأن هناك أناساً كثيرين فوق هذه الكُرة الأرضية لا يجدون حتى ما يدفعون به ثمن بصقة بله قهوة وكعكة، ويمكن للكاتب أن يؤكد لكم ذلك، فلا شك أنه يتتبع ما يجري وما جرى فوق الأرض، وإذا لم يكن يعرف ذلك فلا داعي للكتابة. إنه يعرفه بكل تأكيد، يعرف أن هناك فقراء وهناك أغنياء، يعرف - كما نعرف جميعاً - أن هناك ساسة محتالين ورعايا مغفّلين يثقون بكل ما يقال لهم، ولا شك أن الكاتب كتب عنهم كما كتب عن ماسحي الأحذية وكاسحات الألغام. لحسن الحظ أن مملكتنا ليست مزروعة بالألغام تحت التراب، ولكن تلك الألغام القاتلة مزروعة في الرؤوس، كم قتلت من مرضى في المستشفيات غير المجهزة!! إن الكاتب يعرف كل هذا، أو من الواجب أن يعرفه. أن يعرف أيضاً كيف لم يستطع إنسان أن يدفع ثمن قهوة أو شحمة، وكيف أن امرأة باعت جسدها لأنها لم تجد ما تقتات به، وكيف أن شاباً يجلس بالقرب منها على

رصيف مقهى على شاطئ المحيط، في انتظار زبون يأتي لكي يأخذها إلى أقرب فندق ثم يعود بسرعة لتدفع بعضاً من تلك الدراهم لذلك الشاب، الذي غالباً ما يكون وسيماً حتى لا يثير الشبهات.

إن الكاتب يعرف كل هذا، وأنا أعرفه كذلك، ولا أبالغ إذا قلت إنكم أيضاً تعرفونه وربما عرفتم أشياء أخرى أكثر مما نعرف. فالمعرفة لا تقصر على شخص بعينه، هل يعرف أحد أنه كان سوف يولد ذات يوم؟ وأنه سوف يصاب بجنون؟ أو أنه سوف يصبح رئيس دولة أو أن يُلقى به في السجن أو في ساحة المعركة أو يصبح حمّالاً في ميناء الدار البيضاء؟ وهل كنت أنا نفسي أعرف أن كاتباً سوف يترصدني وسوف ينطّقني بما كنت أحاول أن أخفيه؟ وأن يتتبع حتى حركاتي؟ وكل واحد منا يحرص ما أمكن على إخفاء كل شيء عن الآخر حتى لو كان أقرب الناس إليه، لكن مهما بلغ هذا الكاتب من قدرة فإنه لن يستطيع معرفة كل شيء عني، فعلماء النفس والحكماء لم يستطيعوا معرفة الشيء الكثير عن أنفسهم بدءاً من كونفوشيوس وموتز إلى رايش. من القرن الخامس قبل الميلاد إلى القرن العشرين. فكيف إذن بهذا الكاتب يستطيع أن يعرفني؟ عليه أن يعرف نفسه أولاً، أنا لا يهمني ما يريد أن يقوله عني، ما يهمني هو أن أعيش حياتي بالطريقة التي اخترتها لنفسي. كما اختار كل واحد منكم حياته، وبطبيعة الحال، فإنني لن أختار طريقة مماتي، غير أن الموت لا يرعبني، ما يرعبني هي الحياة، كنت في عالم ما فوجدت نفسي أشرب القهوة وأدفع ثمن الكراء ويتبعني كاتب لا أدري من أين جاء، ربما كان جاري في ذلك العالم الغيبي الذي جئت منه، ولا شك أنه عالم أحسن بكثير من هذا العالم الذي أنا فيه، والذي يصيبني فيه أحياناً أرق ومرض وأرى فيه وجوهاً عابسة وأخرى صارمة وأخرى تضحك بهستيرية، ليست عندي فكرة عن ذلك العالم

الغيبي الذي جئت منه، ولكن يبدو لي - وأتصور ذلك على الأقل - أنه ليست فيه قنابل ولا خناجر ولا طائرات مقنبلة ولا مدافع ولا حسابات في البنك ولا ديون ولا فقر. لا أدري، ربما كان الكاتب يحمل نفس أفكاري، المهم أنني جئت من عالم آخر لكي أعيش في هذا العالم، وأحياناً أشعر كأنني كما لو كنت في فسحة، لكن مع أناس لا أعرفهم ولذلك أشعر بالوحدة في بعض الأوقات، وأتساءل مع نفسي: ماذا أفعل في هذا العالم؟ فأجد الجواب سريعاً: الذي جاء بنا سوف يعيدنا إلى المحطة التي جئنا منها.

صحيح أننا غرباء لكننا نؤنس بعضنا في انتظار الحافلة التي تعيدنا إلى المحطة، لكنها تأخرت. إنها رحلة صعبة حقاً لكنها ممتعة مع ذلك، أعتقد أن الكاتب نفسه يعرف ذلك، ولهذا فإنه يتسلى بكتابة قصص، ولو لم يفعل ذلك، ماذا كان بوسعه أن يفعل؟ هل يذهب لِيُلقي بنفسه في البحر أو أن يرشّح نفسه للانتخابات؟ ففي هذه الرحلة القصيرة يفعلون كل شيء مما لا يخطر على بال: يحبّون ويقتتلون ويكرهون ويسرقون ويصلّون ويتزوجون وينجبون. وبما أن الحافلة تتأخر أحياناً فإنهم يعتقدون بأنهم سوف يبقون هنا، ولذلك فإنهم يبنون بيوتاً وعمارات، ولا يعرفون بأن الحافلة عندما تصل وتنقلهم إلى المكان الذي جاؤوا منه، لن يبقى من ورائهم سوى الغبار. وسوف يجيء مسافرون آخرون. وأنا أعرف جيداً أن كل إنسان شرب قهوة على رصيف مقهى عليه أن يترك المكان لغيره، بعد أن يرشف قهوته بتلذّذ أو امتعاض لا يهم. ودون أن يقول لي النادل إن الوقت قد حان لكي أترك مكاني، فإني كنت أفكر في ذلك بشكل جاد، رغم أني كنت أتظاهر بالسهو، أو ربما كنت ساهياً بالفعل، وسبحان من لا يسهو ولا ينام. لذلك انصرفت، ولم أكن أحسّ بالجوع، قد آكل سندويشاً رخيصاً، أو قطعة خبز أحشوها بعلبة سردين، فالأكل لا

يهمني كثيراً، إنهم يأكلون كثيراً ويمرضون وهناك من لا يجد أكلاً فيلتجئ إلى الصلاة في المساجد أو الكنائس أو البيع أو المعابد. كأن صلاته سوف تطعمه، وإذا ما يئس من هذه الصلاة التي لا تجلب له الطعام، فإنه يلتجئ إلى السلاح متربصاً بالذين يأكلون ولا يتركون له حتى الفتات. الذين يأكلون هم الذين يصنعون السلاح ويعطونه للجياع، وعندما يفشل المصلّون الجياع في قتل الأَكَلة، فإنهم يقتلون بعضهم آملين في الوصول بسرعة إلى ذلك المكان الذي فيه الطعام بعد وفاتهم. ولا أدري إذا كانوا سوف يجدون طعاماً متنوعاً مثل هذا الذي يتمتع به الأَكَلة؟ فالعلم عند الذي جاء بنا من هناك وسوف يعيدنا إلى هناك. لكن الحافلة التي أقلّتنا جميعاً تتأخر، فتقع فوضى في المحطة، فمنّا من ينام (ليس على جنب الراحة طبعاً) ومنا من يسرق ومنا يَغتصب أو يُغتصب أو يغصب.

يبدو البحر شاسعاً، وأمواجه تتكسر على الصخور، وقفت متكئاً على الحاجز أتأمل زرقة البحر وبياض زبد الأمواج، شاهدت أشجار الرتم الخضراء القصيرة، كانت كثيفة متشابكة تشكّل غابة، وقلت في نفسي: لماذا لا أذهب إلى تلك الغابة لأفعل شيئاً لم أكن أعرف ما هو، كما فعلت في سنوات سابقة. فقد تفعل أشياء لم تخطر لنا على بال. أحياناً يفكر الإنسان في فعل شيء، إلا أنه يفعل شيئاً آخر. هناك إرادة خفية تتحكم فيه. قد لا ينوي القتل إلا أنه يجد نفسه قاتلاً، وقد لا ينوي خيانة صديقه، إلا أنه يجد زوجة صديقه بالقرب منه في الفراش. وإذ ذاك لن تنفعه كلمة «تفو»، شيء فوق إرادته قد حصل وانتهى كل شيء، ندِم ولاتَ ساعة مَندَم. ما حصل قد حصل في نهاية الأمر، إذن سوف أذهب إلى الغابة، وقد أفعل ما لا أفكر فيه الآن. المهم أنني سوف أفعل شيئاً في الغابة، وبكل تأكيد فإنني لن أقطع الأشجار.

4

لا تقولي إنه لا يتحدث إلى أحد، إنك مخطئة، ولا تقولي أيضاً إنه أحمق، لأنه يتحدث إلى نفسه أحياناً، ألم تشاهدي في الشارع أو المقهى كثيراً من الناس يتحدّثون إلى أنفسهم؟ وبكل تأكيد فإنك تحدثت إلى نفسك مراراً ولم تشعري إلا في آخر لحظة ثم تلتفتين حولك لتري فيما إذا كانوا ينظرون إليك.

أنا لا أعرفه جيداً، ولكني أعرفه، إنه يفضّل أن يأتي كل صباح إلى المقهى ليشرب قهوته أو يقرأ جريدته، ودائماً يجلس في نفس المكان يتأمل البحر من وراء الزجاج، ينظر هنا وهناك إلى الموائد الفارغة أو إلى الفتيات اللواتي لا يزال عليهن أثر النوم، لكن أيّ واحدة منهن لا تثير انتباهه، تقولين ماذا؟ افطري أولاً، وسوف أحدّثك عنه فيما بعد. نحن لم نأكل بما فيه الكفاية ليلة أمس. لقد شربنا كثيراً ولم نأكل إلا قليلاً، أنا على الأقل أكلت صحن طماطم بأكمله، أما أنتِ فقد كنتِ منشغلة بالثرثرة والتقاط حبّات اللوز القليلة، التي لم يكن عددها يفوق عشر حبّات. إن على الإنسان أن يأكل حتى لا يموت، وإذا لم تأكلي فإنك سوف تموتين حتماً ولن تجدي من يشتري لك كفناً.

صحيح أنك تقولين إن لك عائلة غنية في تيفلت وإن والدك يملك حقولاً من أشجار الزيتون والأزهار والكروم وقطعاناً من

الماشية، كل الفتيات اللواتي عرفتهن يقلن ذلك، وأنا بكل صراحة لو كان والدي الذي مات وأنا في بطن أمي يملك كل هذه الأشياء لما تعشيت أمس بصحن طماطم. تقولين إنك تعافين الطماطم وأنا متأكدة أن الشخص الذي كنت تثرثرين معه وتحكين له عن الحقول كان بمستطاعه أن يدفع لك ثمن صحن، بل كان بإمكانه أن يطلب علبة من سمك التون وقطعة من البصل وقطعة خبز. وكنت سوف تأكلين بنهم. ولكن لمّا علم أنك شبعت شواء وزيتوناً وركبت على فرس أدهم كان يفضّل أبوك أن تركبي عليه، فضّل ألا يدفع، خصوصاً عندما تحسّس جيبه. وربما لم يأكل المسكين لحماً منذ أيام رغم أنه يرتدي بذلة أنيقة، ويدخّن علبة سجائر أميركية، بكل تأكيد إنها من السجائر المهرّبة من إسبانيا، هل شممت رائحة عطره الرخيص؟ لا شك أن ذلك العطر مهرّب من إسبانيا كذلك، حتى لا تموتي، خذي كعكة ثانية، لا يهمك، فأنا أستطيع أن أدفع عنك، لأن معي ثروة اليوم. وغداً سوف يكون شأن آخر. أنا أتحدّث معك وأنت تنظرين إليه، دعيه وشأنه، تلك هي عادته. إنه ينظر دائماً إلى البحر ويرشف قهوته ويتلذّذ، ولا يهمّه شيء في هذا العالم سوى أن يتحدث إلى نفسه. ماذا يقول؟ لا أدري، وكل الناس يتحدثون إلى أنفسهم دون أن يحركوا شفاههم أما هو فلا يهمّه أن تنظري إليه أو أنظر إليه. سوف نلتقي به مساء في حانة الميريلاند، وسوف ترين كيف أنه يصبح شخصاً آخر، يشرب النبيذ. وعندما ينتشي يشتري باقة ورد لا أدري لمن يقدّمها، وأحياناً ينساها أو يهملها، يشتري لك كذلك بعض حبّات اللوز أو الفستق. إن ثمن الفستق مرتفع، وهو يحبّه، يهرسه بأسنانه، ويتأمل الحبة ثم يلقيها في فمه، وعندما تفرغ زجاجة النبيذ الصغيرة يطلب أخرى، تحوم حوله بعض الفتيات، يتحدّثن إليه، ولكنه لا يجيب إلّا بحركة من رأسه، فتنصرف الفتيات.

اقتربت منه ذلك المساء، وطلبت منه سيجارة. كانت العلبة موضوعة أمامه، إنه لا يشبه أولئك الذين يضعون علبة السجائر في الجيب، طلبت منه أن يشعلها لي ففعل، قلت له:

- هل يمكن أن أجلس معك ولو دقيقة واحدة؟ أعرف أنك تفكر في شيء ولا تريد أن يزعجك أحد.

قال:

- يمكنك أن تجلسي.

وعندما قال ذلك، التفت ينظر خلف الزجاج إلى الشارع الغاصّ بالمارّة والسيارات والدراجات النارية، تلك عادته دائماً، إنه يختار زاوية المقهى قرب الزجاج، كأن العالم داخل المقهى لا يعنيه، انظري إليه، إنه ينظر دائماً جهة البحر.

وعندما جاء النادل قال لي:

- أنت لم تجيئي لكي تعزّي في وفاة أحد، إنها حانة، وعليك أن تشربي شيئاً.

نظرت إليه ونظرت إلى النادل، وبكل هدوء أعصاب قال للنادل:

- أعطها.

- بيرة.

- اشربي ما تشائين، دخّني.

أخذت علبة السجائر وأشعلت لنفسي لأن يده لم تمتد إلى الولاعة، شربت البيرة تلو الأخرى في حين كان هو قد أتى على زجاجتَي نبيذ صغيرتين. بدا لي أنه عندما انتشى أحسّ بالرغبة في الكلام، وأخذ يجيل نظراته داخل الحانة، ثم قال بصوت خافت:

- عجيب!

قلت:

- هل رأيت عجباً؟ لا تتعجب فالدنيا كلها عجب.

- صحيح، كلها عجب.

- قل لي، هل رأيت شيئاً لم يعجبك؟

ثم قلت له:

- يبدو لي أني أعرفك منذ زمان.

- كلّهن يقلن نفس الكلام.

- مَن هن؟ أنا أتحدث عن نفسي.

- كل النفوس تتشابه في الأشياء السيئة.

- لا أفهم ماذا تقول؟ عفواً، فهمتك.

- اشربي ودخّني.

ثم نادى على النادل وطلب زجاجة نبيذ أخرى وبيرتين دفعة واحدة وصحن مقانق. ولم يكن من عادته أن يطلب صحن المقانق. كان فقط يحب حبّات اللوز والفستق، وفكرت: لا شك أنه طلب صحن المقانق من أجلي، وفيما بعد عرفت كم هو كريم، حتى إنه كان يدفع لي ثمن شرابي دون أن أجالسه.

ولماذا تتعجبين؟ فليس بالضرورة أن يتشابه الرجال. أنت تقولين إنهم يتشابهون وإنهم مخادعون، أنا اختلفت معك فربما التقيت في حياتك برجال سيئين. مثلاً، أنا أحب صديقاً لا تعرفينه، ولو لم يطرد من العمل لما كنت هنا أو في الميريلاند. هو يعرف ذلك جيداً ويعرف أنني أحبه، ولكن أين يذهب؟ لقد فكر في الذهاب إلى أوروبا لكنه لم يستطع الحصول على تأشيرة، وكثير من أصدقائه يظلون يطوفون بجوازات سفرهم الخضراء أمام القنصليات والسفارات لكن دون جدوى. يأتي أحياناً ليأخذني من باب الميريلاند. نتمشى قليلاً على الشاطئ وراء السور بين الأشجار القصيرة التي تحف المسابح، حتى لا تدركنا إحدى دوريات الشرطة

فتأخذنا إلى المركز بتهمة ذلك الشيء الذي تعرفينه، أو نعرفه نحن جميعاً. كلنا سلكنا تلك الطريق، ولا أنسى الشهور الثلاثة التي قضيتها في السجن، ولا شك أنك دخلت السجن، لا تدمعي، فذلك هو قدرنا.

تنظرين إليه مرة أخرى!! دعيه يتكلم، ربما يقف ويخرج من الباب الأيسر لينظر إلى البحر ثم يعود، تلك عادته، قلت لك إنك لا تعرفينه، وأنا أعرفه ولا أعرفه، هل تريدين كعكة أخرى؟ اطلبيها ولا تخجلي من أختك المسلمة، ولن أكرر لك بأنني غنية اليوم، اطلبي عصير برتقال إن شئت. نعم؟ السجائر موجودة. هل تريدين تبغاً أسود أم أشقر؟ دخّني، انظري، ها هو قد عاد إلى مكانه، وبعد ذلك سوف يغادر المقهى وسوف يتمشى باتجاه الغابة على طريق سيدي عبد الرحمن، أقول لك: في ذلك المساء أتيت على صحن المقانق كله وطلب مني أن أستزيد، فخفت، لأن الإذاعة كانت تقول إنها سامة في هذا الموسم، وأنا لا أتحمل الألم، يكفيني الألم الذي أنا فيه في هذا العالم، أنا لا أملك ما أشتري به ثمن الدواء، إن المرض شيء قبيح خصوصاً إذا كان الإنسان وحيداً وليست له عائلة.

ذات مرة أصبت بمرض - عافاك اللّه - فأُلقي بي على الأرض في مستشفى عمومي من دون أكل ولا غطاء، وحتى الفراش كان مجرد قطعة حديد، باردة، موخزة، مؤلمة. ولولا بعض المريضات اللواتي كنّ يقدّمن لي بعض الطعام والغطاء لكنت قد مت منذ زمان. أنا التي أعرف معنى الموت ومعنى الحب. لكن الحب، لا ينقِذ من المرض أو الموت. تناولي الكعكة حتى لا تموتي. اطلبي أي شيء ولا ترددي. انظري إليه الآن، أنه ينظر إلينا ويبتسم، ابتسمي له، لا تخجلي، انظري كيف يمشي نحونا بتؤدة، كأن هذا العالم لا يعنيه في شيء.

- صباح الخير.
- أهلاً! صباح الخير، تفضّل، اجلس معنا قليلاً، اشرب أي شيء.
- لقد شربت قهوتي، هل نمت أمس جيداً؟
- نعم، لكنني حلمت بأشياء غريبة.
- كلنا نحلم، والإنسان الذي لا يحلم حتى لو كان في اليقظة هو إنسان غير عادي، هل تريدان أن تشربا شيئاً آخر؟
- لا، شكراً، هذا يكفي.
- لا تدفعا ثمن ما تناولتماه.

(اختفى من الباب الواسع، بين شجيرات المقهى، بعد أن صعد الدرجات في تؤدة كعادته دائماً).

ألم أقل لك: إنني أعرفه ولا أعرفه؟! إنه رجل كريم. يا ليت كل الرجال مثله، ها قد دفع ثمن كل ما تناولناه.

تقولين هذا إنسان غريب! ليس غريباً ولا أي شيء، يبدو أنه ابن أصول ولا يحب الناس التافهين. أما أن يتحدّث إلى نفسه فذلك شيء يخصّه، علينا ألا نتدخل في شؤون الناس، على كل حال، إنه لا يتحدّث إلى أحد ولا يسيء إلى أحد.

انظري هناك، إنه يسير ويهش بجريدته، لا شك أنه يطرد ذبابة، لقد كثر الذباب هذه الأيام ولم يعد ينفع معه أي دواء.

إنه يحبّ أن يمشي في تلك الطريق دائماً باتجاه الغابة، ربما يسكن هناك، أنا لم أتعود أن أسأله، أنا لست فضولية، ثم إن ما يفسد العلاقة بين الرجل والمرأة هو فضولهما.

الرجل مثل طفل، راقبيه من بعيد ولا تزعجيه، حتى يعرف ما يفعل بنفسه، ذلك ما أفعله مع حبيبي!!

5

إنهم يستطيعون أن يكتبوا بأنفسهم عن أنفسهم. وبما أن أفواههم مشرّعة حتى الأذنين فإنهم يستطيعون أن يقولوا ما يشاؤون، لم يحصل لي أن كتبت عن أحد، وما كتبته مجرّد خيال، لا علاقة له بواقع هؤلاء الذين يثرثرون.

لست كاتباً، وإنما أنا مجرّد إنسان يحاول أن يعطي انطباعات عن هذا العالم، مثلما سبق للآخرين أن أعطوا انطباعاتهم، مثلما سوف يعطي الآخرون انطباعاتهم في المستقبل القريب أو البعيد.

سوف تشيخ الكرة الأرضية، ويشيخون، وسوف يموتون مثلما مات السابقون الذين كانت لهم حضارات. مات أنبياؤهم وأولياؤهم الصالحون، وجاءت الرسالات السماوية، ومن يدري، فبعد أن ينقرض هؤلاء بعد ألف عام أو ألفين، فقد يُبعث زرادشت آخر وماني آخر. وأتساءل أحياناً لماذا ولد هذان الشخصان في أذربيجان وانتقلا إلى إيران ثم عادا إلى أذربيجان، وبالقرب منهما أفغانستان وأوزبكستان، ولماذا تنتهي أسماء كل هذه الدول بالألف والنون، كلها دول لمّت شملها ما عدا واحدة اسمها كردستان، ولا يستطيع المرء أن يعرف ماذا سوف يحصل لهذه الدولة.

على كل حال، سوف تنقرض كل الدول أو تندمج فيما بينها، وقد يتصاهر الهوتو والتونسي. وقد يصبح الأفريقي الأسود أبيض،

والآسيوي الأصفر أو الذهبي أسود. وقد تبيضّ وجوههم أو تصفرّ أو تحمرّ في الدنيا قبل الآخرة، أي بعد ألف أو ألفي سنة، لا يهم.

أنا لست كاتباً، ولم أحلم بأن أكونه ذات يوم. إنني أعرف أن كثيراً من الناس يحلمون بأن يكونوا كتّاباً أو رسامين أو مغنيين أو ممثلين أو فاضحي عوراتهم حتى يقال إنهم موجودون وإنهم أنجزوا شيئاً في هذه الحياة. وإنهم سوف يظلون موجودين. هذا هراء، ولهذا لم أفكر في الكتابة ذات يوم، لا من أجل إثبات الذات ولا من أجل الخلود. لكن لا بأس! لماذا لا يستغل الإنسان الفرصة إذا ما أتيحت له حتى لو بابتسامة ماكرة؟ أن توجد أو لا توجد، فتلك مسألة لا تعني أحداً إلا أنت. كل إنسان لا يهتم إلا بنفسه ولا يعجبه إلا طنين رأسه، وإن كان يعتقد بأن الآخرين يهتمون به.

عندما يكتب الكاتب فإنه يعتقد أن كل الناس يهتمون بما يكتب. وفي الحقيقة فإنهم عندما يقرأونه، فإنما ليبحثوا عن أنفسهم وعن مثالبهم الخفية في ما يكتب. ولذلك لم أفكر في الكتابة على الإطلاق لأنني لا أبحث عن مثالب الناس. كيف يمكن لإنسان أن يكتب وهو دائماً حذر، قلق، خائف حتى من ظله (أحس بذلك في انطباعاتي عندما أعيد قراءتها).

وقالت لي تلك الحذرة، القلقة، الخائفة من ظلها:

- حبيبي! إنك تفكر كثيراً وأراك أحياناً تسوّد بعض الأوراق. فلماذا لا تكتب كتاباً فتصبح مشهوراً، ونصبح أغنياء. وإذ ذاك لن أكون مضطرة للحاق بأختي في سويسرا، سوف نتزوج وأبقى معك في المغرب حتى تدفنني أو أدفنك.

- كوني متأكدة أنني لو كتبت كتاباً، فإنه سوف يكون رديئاً، وعندها لن تحبّي كاتباً فاشلاً، فالمرأة لا تحب إلّا الرجل الناجح،

أقصد الرجل الذي يملأ جيوبه ليغلق أفواه الآخرين التي تتكلم كثيراً.

- كم أنت عنيد! أفكار جيدة تستطيع أن تكتبها.

- سوف نكتبها جميعاً إذا ما وجدت لي عمن نكتب. لقد كُتِبَ كل شيء ولم يبقَ لنا سوى أن نقرأ وننظر وننتظر ماذا سوف يحصل فيما بعد.

- لست متفقة معك. إنك كاتب وإن لم تكن تعترف بأنك كاتب.

- أعرف أن كتابة كتاب واحد، خير من كتابة ألف كتاب، إن ألواحاً قديمة سوف تظلُّ خالدة في أذهان الناس، لكن ما الذي استطاعت أن تغيّره كل تلك الكتب أو الأفكار المكتوبة على الجلود أو الأحجار في سلوك الناس. لقد تغطرسوا منذ عهد أطلنطا الغارقة، وهيربيديس التي تنام تحت الأنقاض على ضفة مصب نهر اللوكوس. بكل تأكيد لقد كان من بين أولئك الناس حكماء ومفكرون، ولكن لم يفهم أحد كلامهم، كانوا غرباء عن الآخرين لكن اللّه دفن الجميع تحت الأنقاض، هل زرت مدينة العرائش، فهي مدينة يسكنها أحياء، يستأنسون برائحة أجدادهم الأموات في هيربيديس. سوف تنقرض مدينة العرائش. وقبل أن يموت جميع سكانها سوف يأتي أحفادهم يشوون سمك المحيط الأطلسي، ويشربون النبيذ في دار إسبانيا، وبعد أن يموتوا، سوف تتوالد الأسماك وتنبت كروم أخرى. وهذه الأشياء - ما دمت تصرّين على أن أكتب - هي التي يجب أن أكتب عنها.

- حبيبي، إني أعرف أنك قادر على أن تفعل الكثير، كن حكيماً منبوذاً. فأنا لا يهمني الأمر، إذا ما نبذوك فإني سوف أظل بالقرب منك، حتى نموت سوية. حتى نلتحق بسكان أطلنطا الغارقة

أو هيربيديس التي نزلت عليها لعنة اللّه فأصبحت كومة من التراب، أقصد أصبح سكانها المتغطرسون كومة من التراب.

- ومنها خلقناكم وإليها نعيدكم.

- تقصد الأرض، لا أدري هل خلقنا منها أم من غيرها. الأمر سواء يا حبيبي، المهم أننا خلقنا وكفى، وعليك أن تكتب، وعلينا أن نحب بعضنا، وإذا لم ترد الكتابة عن تلك الأشياء الأخرى، فاكتب عن حبنا، وقل لهم إن هناك اثنين في زمان ما تحابّا.

- الحب شيء جميل، ولكن هناك من يشوّش على من يحب، فيجعل الحب كراهية.

- اكتب هذا يا حبيبي.

- سوف أسجل ذلك حتى لا أنسى.

ثم التقط منشفة من المناشف التي كانت ملفوفة فوق المائدة، وأخرج قلماً وأخذ يدوّن بعض الملاحظات، بينما كانت هي تنظر إلى البحر في صمت، متأملة في عالم غريب.

تركته يخربش على المناشف، وغادرت المقهى. كانت تتمشى دون أن تهتم بهؤلاء الذين يتمشون حولها. وقفت عند حاجز حجري، وأخذت تتأمل البحر، وهي تتنفس بعمق رائحة البحر.

كانت تفكر فيما كان يقوله لها حبيبها الذي بكل تأكيد سوف يكتب ذات يوم كتاباً عظيماً، فتلك القصص القصيرة الجميلة التي يكتب تعجبها كثيراً.

فكرت في المجلات والندوات والرحلات واللقاءات الفكرية التي سوف يحضرها. بينما كانت تحلم، أحسّت بيد توضع على ذراعها، كان يضع نظارتين سوداوين على عينيه، قال لها من دون مقدمات:

- ما نشوفوكش.

سحبت ذراعها من كفّه، لم تنظر إليه، بل كانت تنظر إلى البحر دائماً. كرر الرجل نفس الكلام، إلا أنها انسحبت في هدوء عائدة لتلتحق بحبيبها في المقهى، تبعها الرجل بضع خطوات إلا أنه توقف.

وعندما دخلت إلى المقهى وجدت حبيبها قد لفّ تلك المناشف ووضعها أمامه وهو يدخن في انتظارها.

قالت له:

- هل سجلت بعض الملاحظات؟

- نعم.

- إذن ها أنت تحاول أن تكتب، هناك أناس كثيرون تجب الكتابة عنهم، إن لحظة بسيطة واحدة في حياة أي إنسان تستحق الكتابة عنها. لو كنت كاتبة مثلاً لسجلت على سبيل المثال أن امرأة كانت واقفة تتأمل البحر وهي تحلم، وجاء رجل لا تعرفه، ووقف بالقرب منها لامساً ذراعها وهو يقول: «ما نشوفوكش».

- كان على المرأة أن تقول له شوف مع البحر، وتنتهي الحكاية دون الكتابة عنها.

- إنك تفكر جيداً يا حبيبي.

غادرا المقهى، وأخذا يتمشيان على نفس الرصيف الذي تمشت عليه قبل لحظات.

وضع كفّه على ذراعها وهما يسيران، لكن لمسة يده لم تكن مثل لمسة ذلك الرجل ذي النظارتين السوداوين.

6

أعرف الكاتب لكنه لا يعرفني، لقد رأيته مراراً وخصوصاً في ذلك المقهى على شاطئ المحيط، تكون في الغالب معه تلك الصديقة. هي كذلك بطبيعة الحال لا تعرفني، لا تعرف بأنني أنا الذي لامست ذراعها وهي تنظر إلى البحر، ليس من عادتي أن أفعل ذلك مع النساء، لكن يبدو أن كل شيء ممكن فعله مع زوجة أو صديقة كاتب أو أي رجل معروف، لأن صورته تكون في صورتها، كانت تحلم وتنظر إلى البحر، وحتى عندما لامست ذراعها لم تُبدِ أي تبرّم، إلا أنها بكل تأكيد ظلت تحلم. وعندما يستغرق الإنسان في الحلم فإنه لا يعود إلى الواقع إلا بعد فترة قد تطول أو تقصر، وهناك من يظل يحلم طوال حياته من دون طائل، ولربما كانت صديقة الكاتب من ذلك النوع.

لم أكن أريد أن أشوف معها بالفعل، ولكني فقط كنت أريد أن أعرف ردّ فعلها، إلا أنها ظلت حالمة، ومشت بخُطى هادئة لتلتحق به، ولا أدري ما الذي قالته له، وقد تقول له إن رجلاً ما غازلها أو قد لا تقول ذلك، فالمرأة تخفي كثيراً من الأشياء، وأنا لا أثق عادة بالنساء ما عدا أمي. ويبدو أن الكاتب يثق بصديقته تلك، ربما لأنها تحلم كثيراً. وهناك كثير من الناس يحبّون الحالمين، وفي نهاية الأمر، فالحلم الجميل إذا تحقق، وما أقل ما يتحقق! (على الأقل

بالنسبة إلي. . .). وإذا ما تحققت أحلام بعض الناس فإن ذلك يتم من طريق الصدفة، إن صديقة الكاتب كانت تحلم، أمام البحر، ولربما لم تكن تفكر، وهي تتأمل البحر، في شيء آخر غير السفر إلى مكان بعيد، ووالدتي حلمت كثيراً بأن أصبح رجلاً مهماً في الدولة، لكن عندما لم يتحقق حلمها، أصبحت تطبخ لي جيداً ونأكل معاً.

وأنا أحب ما تختار وما تطبخ، ربما لأنني أحب أمي، ولأنني أحب أمي فإنني لم أفكر قط في الزواج، كانت تحلم مثلاً هكذا:

- اسمع يا وليدي، لقد ترك لنا والدك ما نستطيع أن نعيش به، ما ينقصك هو أن تعثر على بنت الناس، فتتزوج وتنجب، لا عليك بعد ذلك، فأنا أستطيع أن أتكفل بتربيتهم.

كان ذلك حلم أمي، وأعتقد أنه حلم أية أم لها ابن واحد، ولا أعرف فيمَ إذا كان للكاتب أمّ أم لا. لكنني أعرف بأن له صديقة، والرجل أحياناً ينظر إلى زوجته أو صديقته كأنها أمّ، وعندما تحسّ المرأة بذلك فإنها تحاول أن تصبح أماً بالفعل. لا أدري فيمَ إذا كان الكاتب يشعر بنفس الإحساس تجاه صديقته؟ فالكاتب هو وحده الذي يستطيع أن يعرف، وأحياناً قد يجد نفسه بأنه لا يعرف شيئاً، صحيح أن كل واحد يتمنى أن يكتب عن حياته، وخصوصاً عن الجانب الشقي فيها، ولكن ما كل شخص قادر على الكتابة، حتى لو توفرت له القدرة على الكتابة فإنه يخشى أن يبصقوا عليه، مع العلم أنهم مبصوقون في هذا العالم، ومبصوق عليهم كذلك. ويبدو لي أن الكاتب المسكين تعذّر عليه أن يكتب هذا البُصاق. ومن الأفضل له أن يكتب قصة حب يكون فيها اللقاء والفراق والخيانة والانتحار إلى غير ذلك مما يحصل في قصص الحب، ويمكنه أيضاً من خلال تلك القصص أن يربّي الناس، مع أنهم للأسف لم يربوا ولن يربوا أبداً.

حاولت كثيراً أن أتصور قصة الكاتب مع صديقته، ولكن الأمر

صعب عليّ جداً، ويبدو أن قصتهما يجب أن تكتب، وهو الأجدر بالكتابة عن تلك القصة. وامرأة حالمة مثل تلك يجب أن يكتب عنها، هذا في حالة إذا كانت حالمة ولا تتناول مخدرات. وكم يبدو أصحاب مدمني بعض المخدرات في هدوئهم وسكينتهم كما لو كانوا حكماء آسيويين أو أولياء صالحين، وإذا ما فتحوا أفواههم وتحدّثوا فما على المرء إلا الفرار إلى بؤر جهنم، وتركهم في جنتهم، وعلى ذكر الجنة، فقد قالت لي والدتي ذات يوم:

- اسمع يا وليدي، إن الإنسان يكبر ويشيخ ويمرض في هذه الحياة، ولذلك فهذا البلاء كله يبعده اللّه منا بالصلاة، وأنا أتمنى أن تقوم بشعائر الصلاة، فصلاتك سوف تدخلك إلى الجنة، وستنسى كل شيء في هذه الدنيا بعد الممات.

وتمنيت لو أن الكاتب سمع هذا الكلام من أمي، ثم إني لا أعرف فيمَ إذا كان يصلّي أم لا؟ وهل يعتقد بالآخرة أم لا؟ فالكتّاب تكون لهم نظرة أخرى للحياة حتى إنهم ينتحرون، بعد أن يكونوا قد نحروا مجموعة من الناس بأفكارهم.

لا يهم. لقد قلت لوالدتي:

- إني أصلّي بطريقتي الخاصة.

- وهل هناك طريقة خاصة؟ أنا لم أرَك أبداً تصلّي مثل المسلمين.

- هناك أناس في الأرض يصلّون بطريقة خاصة.

- أعوذ باللّه يا وليدي، أولئك هم المجوس، ومأواهم جهنم، اسأل عن ذلك الفقيه الفرتلي، فأنا أذهب كل جمعة للاستماع إلى خطبته.

- إن الفقيه الفرتلي مجرّد حشاش.

- حرام أن تقول هذا الكلام يا وليدي.

وكان في يدها طبق فسقط إلا أنه لم يتكسر.

انصرفت والدتي وهي ترتعد، ولم أكن أسمع من كلامها سوى «العياذ باللّه، العياذ باللّه»، وأنا بطبيعة الحال، أعوذ باللّه دائماً من وساوس بني آدم ومن وساوس الشيطان، من هنا يصعب على الكاتب أن يتحدث عني أو عن غيري، فأنت تستطيع أن تعاشر الإنسان دهراً ولا تعرف ما يدور في رأسه، حتى إنك عندما تفاجأ بتصرف من طرفه لم يخطر لك على بال، تقف على حافة الجنون، وتقول في نفسك أو لغيرك: هل هذا معقول؟! وفي الحقيقة، إنه معقول، لأن أصل المعقول هو اللامعقول. وعلى سبيل المثال - وقد يستطيع الكاتب أن يشرح هذا - هل من المعقول أن أوجد في حياة لا أرغب أن أوجد فيها؟ وهل من المعقول أن أعيش فقيراً ومظلوماً ومريضاً ومتألماً، وأجد نفسي داخل زنزانة أو مجنوناً؟ إن المعقول هو أن أبقى هناك وما دمت قد وجدت هنا في هذه الدنيا، فما يُسمّى لامعقولاً يصبح هو المعقول. لا أؤمن في هذا على كل حال، ولكن الكتّاب الذين يتحدثون كثيراً يستطيعون أن يبيّنوا الفرق بين المعقول واللامعقول، ولعلّ هذا هو السبب الذي جعل الكاتب يتردد في كتابة كتابه الذي تحلم به صديقته، فكل شيء قد قيل، لكن في الواقع لم يُقَل أي شيء بعد. لكن ربما كان للكاتب ما يمكن أن يقال. فلا أحد يعرف ما تخفيه رؤوس بني آدم، قد يبدو الإنسان ملاكاً إلّا أن في داخله شيطاناً. وهذا والعياذ باللّه ما لا يستطيع الكاتب كيفما كان أن يعرفه.

أنا أحب الوحدة حقاً، لكن لسبب وحيد فقط، هو أنني كلما اقتربت من شخص وحاولت أن أتعرف إليه لم أظفر بطائل. ولو عرفت امرأة على سبيل المثال معرفة حقيقية لتزوجتها ولبّيتُ رغبة أمي، إلا أن تلك المرأة لن تكون بكل تأكيد أفضل من أمي، حتى لو

اختارتها لي أمي فإنني لن أتزوجها. ولا أدري فيمَ إذا كان الكاتب يفكر في الزواج بصديقته، أم يفكر في كتابة القصص عن الناس؟ لكن يبدو أنه متشنج وعصبي، بقدر ما تبدو هي حالمة وهادئة، ولا أعتقد أنهما يستطيعان أن يعيشا تحت سقف واحد، لكن كل شيء ممكن، فأحياناً يكون ملح الزواج هو الشجار المستمر أو المتقطع، وإلى جانب الوفاء تكون هناك خيانات زوجية جانبية، هي بمثابة توابل تضاف إلى الطعام. وعندما تتم تلك الخيانات الزوجية الجانبية، تخلق حالة من الحنان مرفوقة بطبيعة الحال بشيء من الندم. لكن سرعان ما يتبدد كل شيء لتُعاد الكرّة. ولذلك لا أريد أن أتزوج، بمعنى: لا أريد أن أحنّ وأندم. لكن والدتي - اللّه يهديها - قالت لي ذات مرّة:

- إن الإنسان يا وليدي، قد يمرض ولا يجد بالقرب منه حتى من يقدّم له كأس ماء أو قرص دواء.

قلت للوالدة:

- كلامك معقول، ولكن عندما يحين الوقت سوف أقول لك يا أمي بأنني راغب في الزواج.

وقد تذكرت أحد جيراننا الذي مات مؤخراً، كان المسكين - وكلنا مساكين أو ساكنين إلى اللّه حتى لو كنا نعبده على حرف - يعاني كثيراً من داء السرطان الذي أودى في النهاية بحياته. وعندما علمت زوجته بأنه سوف يموت لا محالة، أزالت الحجاب، وأصبحت تضع الأصباغ على وجهها، وأصبحت تخرج مع ابنتها إلى الفسحة، تلك الفسحة التي نعرفها جميعاً. وكان هو طريح الفراش، لا يستطيع أن يقول كلمة واحدة. كان رجلاً صارماً حازماً، لكن المرض قال له: «شوف واسكت». وهكذا مات، ولم يجد من يناوله كأس ماء، فقد كانت زوجته وابنته في فسحة، أما هو فقد ذهب

ليتفسح في مكان آخر، إلى جوار ربّنا جميعاً. أما فسحة صديقة الكاتب فلا أدري كيف ستكون. وقد تُقَدِّم له كأس ماء وأقراص دواء، وقد تدلق عليه الكأس عندما يتزوجان. لكن الكتّاب يعرفون ما يفعلون بأنفسهم من حيث لا يعرفون شيئاً على الإطلاق. على كل حال، لن ألامس ذراع صديقة الكاتب هذه المرة، ولكنني سوف أتحدث إليها مباشرة، وربما قد أتحدث إليه هو نفسه.

نترك ذلك إلى فرصة مؤاتية، فكل شيء يجب تركه إلى أن تحين الفرصة المؤاتية، وإن كانت أحياناً تقع بعض الأشياء لم نكن نتوقعها، وهذه الأشياء تدخل في ما نسمّيه فرصة قد لا تكون مؤاتية.

إن الحياة غريبة، ولن يستطيع أن يفهمها الكاتب مهما حبّر من الأوراق، ولم يفهمها حتى الأنبياء والرُّسُل الذين عانوا الأمرَّين.

وذلك شيء أراده اللّه سبحانه عزّ وجلّ، هناك من الأنبياء من اضطهد، وهناك من الصوفيين الذين ماتوا حُفاة عُراة جياعاً أو قُتلوا على أيدي الغوغاء.

وقد قرأت ذات مرة أن الصوفي الجليل مولاي عبد السلام بن مشيش العلمي، الذي اختار أن ينعزل على رأس جبل ويشتغل بالفلاحة، قد قتله أحد الغوغاء، لأنه ربما رفض أن يتقلد منصباً في الدولة.

والرجال الذين يريدون أن يقولوا الحق، لا بدَّ أن يلقوا ذلك المصير بعد أن يشرب الحاكم الزَّقَّ. وخير للكاتب أن يكتب قصة حب أو أن يفعل الحب. وإذا كان في قلب الحاكم كراهية، فإن على الكاتب أن يكون في قلبه حب.

وقالت الوالدة:

- اسمع يا وليدي، ليس هناك في هذه الدنيا أفضل من حب اللّه وحب الناس وطاعة الوالدين، وحب الرسول (ﷺ).

- أعرف يا أمي.

- أعرف بأنك تعرف يا وليدي، وأعرف أن قلبك عامر بالحب، ولكن الدولة لا تحبّك لأنها لم تجد لك عملاً، لكن لا بأس إنك تعيش بمال أبيك. أنا لا أريد شيئاً في هذه الدنيا، تصدَّق على الفقراء وابقِ لي فقط ثمن كفني عندما أذهب لملاقاة ربي.

- أطال اللّه عمرك يا أمي.

ولا أدري فيم إذا كان للكاتب أم كما سبق أن قلت. فالإنسان الذي ليس له أمّ أو أب يكون من طينة أخرى، كأن يدّعي النبوّة مثلاً، والعياذ باللّه، فالأنبياء اصطفاهم اللّه حتى لو كانوا من الفقراء، بكل تأكيد، فالكاتب يعرف كل هذا - ومن يدري؟ - فقد لا يعرفه، فخير العارفين هو اللّه.

7

دعيني أظل صامتاً فإن ذلك يكون أفضل لي ولك ولهم، لا تدفعيني إلى الكتابة إذا كنت تحبّينني، لأنني إذا كتبت ما أفكر فيه فإنهم سوف يفرقون بيننا. علماً بأنهم يعيشون فرقاء في هذه الحياة، ورغم أنهم يتجمعون ويتكتلون فإنهم فرقاء.

فالرجل والمرأة أحياناً يبدوان على وِئام لكنهما مفترقان روحياً، كل واحد منهما يجذب الحبل من طرف لكي يهزم الآخر، ولكن في النهاية ليس هناك مهزوم أو منتصر، فالنصر للموت في آخر الأمر. ولكن عندما نفكر في الموت يا حبيبتي تنتابنا رعشة لكي لا يعرف أحداً منا ما الذي سوف يحصل له.

قبل ثلاثة آلاف عام كان الناس متيقّنين مما سوف يحصل لهم. كانوا يعدّون قبورهم ويحنّطون أجسادهم، وكانوا متيقّنين من أنهم سوف يُبعثون وأن ليس هناك عقاب شديد ينتظرهم، بل هي مجرد استراحة ويعودون إلى الحياة. ومن يدري فقد يكونون عادوا بالفعل، لكننا نحن بعد ثلاثة آلاف سنة عشنا الوعيد لا الوعد. يكفينا نحن يا حبيبتي هذا الوعيد الذي نعيشه في الدنيا، تكفينا هذه المجازر والأوبئة والشرور، فهل هناك أفظع مما نتلقاه في الدنيا؟ وهل اللّه سبحانه عزّ وجلّ ليس له شغل سوى تعذيبنا في الدنيا والآخرة؟ - معاذ اللّه! - لقد خُلِقنا لكي نعيش في سلام هذه الفترة القصيرة من الرحلة الأبدية.

لقد خُلِقنا لكي نحب بعضنا بعضاً، ولكي نشمّ الأزهار ونقطف الثمار ونداعب الحيوانات ونكتب كتباً جميلة تؤنس الآخرين ولا تشوش أدمغة الناس. بكل تأكيد أن ذلك قد حصل قبل ثلاثة آلاف سنة. لكن طوال هذه الثلاثة آلاف سنة حصل شيء مريب. فهناك من صعد إلى الجبل وهناك من صُلب وهناك من شُجّت رأسه. واحد مصلوب، والآخر صاعد إلى الجبل والآخر مشجوج الرأس. وأصبحنا يا حبيبتي نصلب بعضنا بعضاً ونشجّ رؤوس بعضنا أو نحمل الأسلحة ونصعد إلى الجبل. ماذا أستطيع أن أكتب إذن؟ عن رجل يتجول على شاطئ المحيط الأطلسي ولا يريد أن يتزوج؟ ذاك شأنه ولا دخل لي فيه على الإطلاق. وإذا كنت تريدين أن أكتب عن قصة حبنا فذاك شيء مقبول على كل حال، وإذا ما كتبتها فأتمنى ألا تنتهي نهاية فاشلة، كأن تنتحري أو أن أنتحر أو نقتل، لأننا جدفنا في حقهم، لأنهم دائماً على حقّ ولا ينتظرهم الموت أبداً. إنهم يعتقدون أنهم خالدون وإلى الأبد، يعيشون في الأوهام التي لا حدّ لها ولا فاصل. انظري كيف يجلس الحاكم على كرسي الحكم، وكيف يخاطب أو يتصرف مع منافقيه، انظري إليهم كذلك، كل واحد منهم يفتعل الوقار، ووجوههم كلها تشي بالخبث.

انظري إليهم على شاشة التلفزيون. . . كيف يقفون وكيف يتحركون وكيف يشربون الأنخاب المليئة بدماء الآخرين. وانظري إلى حركات رموش عيونهم كيف يتغامزون لكي يكيدوا لبعضهم البعض. أما الحاكم الواثق من نفسه، فهو مستريح البال، إلى أن يقضي عليه ساطور أو تصيبه رصاصة غير طائشة، وهذه المرة لم تنطلق من الجبل الذي صعد إليه أغبياء، وإنما من أذكياء يمسحون له الحذاء ويقدّمون له الحساء، لأنه مصاب بالعياء والعناء من كثرة المشاغل.

إن قصص الحب فيها كثير من العناء، مثل قصص التوصل إلى الحكم. حصل ذلك قبل ثلاثة آلاف سنة، وما حصل خلال هذه الثلاثة آلاف سنة كان أفظع، وما سوف يحصل يا حبيبتي بعد ثلاثة آلاف سنة أخرى بعد مماتنا لا يعلمه إلا اللّه.

في الحقيقة، إنني أريد أن أكتب، لكنني أخاف من النقّاد ومن الحكّام، فالنقّاد يحرّضون الحكّام على حرق الكُتب ونفي المفكرين أو قتلهم ودفنهم، ونقل رفاتهم من مكان إلى آخر. حماقات كثيرة يا حبيبتي!! لقد عادت الروح إلى المكان الذي جاءت منه، أما تلك الرفات التي بقيت في الأرض فإن الحمقى يتلاعبون بها، لقد ذهبنا إلى المكان الذي جئنا منه والسلام، والذين تلاعبوا بالرفات فإنهم سوف يعودون إلى هناك. لكن هذه المرة من دون غمزات ولا لمزات ولا همزات. هل أكتب هذا الكلام في قصة حبنا؟ أعرف أن لا أحد يستطيع أن يتقبّل كلامنا، إذا ما اشتركت معي في كتابة قصة الحب هذه. وأنا متأكد أنه حتى الذي يحب أكل رأس العجل لن يتقبّل أفكارنا، وحتى إذا ما حكى لأمه ما نفكر فيه، فإنها سوف يغمى عليها، وقد يغمى حتى على إمام المسجد الذي تقدّره، ويلقي خُطباً جميلة في المسجد الذي ترتاده عندما تكون على طهارة. أعتقد أننا طاهران يا حبيبتي، أليس كذلك؟! لم نقترف ذنباً سوى أننا أحببنا بعضنا البعض، أن تكتبي عن أشخاص موجودين أو متخيلين فإن ذلك أمر صعب حقاً، ومع ذلك فقد ألبّي رغبتك وأكتب قصة حب، وأنت تعرفين أن قصص الحب قد تتحول إلى قصص كراهية. وقد يبلغ الأمر بأصحابها حدّ الانتقام، أو حدّ الخيانة أو القتل، وإياكم من حبيبين خان أحدهما الآخر! حتى إن المرء ليتعجب كيف استطاع هذان الحبيبان أن يفترقا، وينتقما من بعضهما البعض. كذلك الأمر في السياسة يا حبيبتي، كم رجل سياسة أعتقد أن له أصدقاء خلّصاً

أوفياء، ولكنه في النهاية يكتشف أنهم أول من كان يتربص به. وعندما يصاب بمرض اللّعنة الأبدية، فإنك ترين أتباعاً له يحملون حقائبهم ومتاعهم الدنيوي ويتبعونه إلى السحرة والمستشفيات أو المنجّمين حتى يبقي اللّه على عمره. منهم من يتمنى موته، ومنهم من يتمنى بقاءه. لكنهم لا يعرفون بأنهم سوف يموتون بعده. وعندما يصبحون في حالته، فإن أتباعهم سوف يعيشون نفس الاكتئاب ونفس التلهف على التشبث بدنياهم، لكن أروع ما في هذه الدنيا يا حبيبتي هو الطبيعة، تبدو صامتة لكنها حية. والإنسان عوض أن يتآلف معها وينسجم معها فإنه يستغلها لإذلال نفسه وإذلال أخيه الإنسان. إنهم بؤساء في هذا العالم يا حبيبتي. لا تقولي إني متشائم. أحياناً أتصور أن أي كائن حي أبكم لا يقضي كل وقته في التفكير في الكيد لمن مثله من الحيوانات، بل إنه يدافع عن نفسه في الوقت المناسب. اسمحي لي، فذلك الشخص الذي أراد أن يتحرش بك على الشاطئ، كان فقط ربما يريد أن يعرف مدى حبي لك ومدى حبك لي.

- آه! صاحب النظارات.

- نعم.

- لقد نسيت ذلك منذ زمان، كم أن لك ذاكرة قوية.

- إننا لا نعرف ما تخفيه رؤوس البشر.

- كان ذلك حدثاً عادياً يا حبيبي، وأنت تعرف أن قصصاً من هذا النوع تحدث كثيراً فوق الأرض.

- لم أرد أن أتحدث عن الحادثة، ولكن ما أريد قوله هو أننا لا نستطيع أن نعرف ما تخفيه رؤوس البشر، نحن مثلاً متأكدان من حبنا لأننا إذا لم نربح شيئاً فإننا لن نخسر شيئاً.

- كنت متأكدة يا حبيبي أننا لسنا حاكمين، وليس في أيدينا سلطة للاعتداء على أنفسنا وعلى الغير.

- دعيني من هذا الكلام، إن كتابة قصة حب بدأت تخطر لي على بال.

- هذا ما كنت أتمناه.

- نبدأ كتابتها في المستقبل.

- ذاك ما أحلم به يا «حبيبي» قبّلني.

قالت الوالدة مراراً وتكراراً: «يا بُني عليك أن تصلّي» وطالما قلت لها: «يا أمي، إن اللّه ليس في حاجة إلى قيامي وقعودي وصومي وحجّي. إنه بعيد كل البُعد عما يفكر فيه البشر».

لكن والدتي لا يمكنها أن تفهم هذه الأشياء. شيئان اثنان يشغلان بالها هما الجنة والنار، ولكن من يضمن لأحدنا الجنة أو النار. قال أحدهم لرسول اللّه (ﷺ): «يا رسول اللّه لقد فعلت كذا وكذا فهل تضمن لي معك مكاناً في الجنة؟!» فأجاب رسول اللّه (ﷺ): «وهل ضمنتها حتى لنفسي».

إن والدتي لا تفكر إلا في الجنة أو النار. ولكنها لا تعرف بأن الناس يحترقون في هذه الدنيا. فهذا العالم بقدر ما هو جنة لمن يعرف كيف يعيش فيها، بقدر ما هو جحيم. وأغلب الظنّ أنه جحيم، فالناس يقتتلون ويحترقون، وإذا لم يفعلوا ذلك، فالطبيعة كفيلة بالقيام بذلك. يكون الناس أحياناً نياماً، فيقع زلزال وتنهار البيوت على أصحابها، وتتساقط الأشجار، وتموت الأزهار والطيور، ويئنّ الأطفال والشيوخ تحت الأنقاض. وعندما يحصل ذلك، فلن تنفع عندها صلاة ولا استرجاع الأرواح التي قيل إنها ميتة، غير أن الأرواح لا تموت.

كيف أقول لوالدتي إن الأرواح لا تموت وإنها خالدة وإنها من

روح لا يموت، وبما أن الروح هي من روح اللّه فكيف يمكن للروح أن تعذّب نفسها. إن اللّه سبحانه لا يمكنه أن يعذّب في يوم القيامة كائنات لم تختر أن تكون. وللأسف فإن والدتي لا تحب التفرج على التلفزيون كثيراً، فعندما يرى الإنسان تلك الجبال وتلك البحار وتلك الصحارى وتلك الأسماك التي تأكل بعضها، وتلك الحيوانات التي تفترس حيوانات أخرى ويرى أناساً داخل الدبَّابات أو الطائرات وهي تلقي بالنيران لقتل أناس آخرين فلن يسعه إلا أن يقول: «يا سبحان اللّه! إنه لعلى كل شيء قدير». وبطبيعة الحال، فوالدتي لا تشاهد التلفزيون إلا لماماً، ولكنها تذهب إلى المسجد، لسماع خطبة لا تفهمها، ولا يفهمها حتى الإمام الذي قرأها لأنه لم يحضّرها وإنما أرسلتها له وزارة الشؤون الإسلامية لكي يقرأها. يا سبحان اللّه مرة أخرى! فكل شيء قد يحصل في البيعة أو الكنيسة أو المسجد. ولا نتحدث عما كان يحصل في دور العبادة قبل ثلاثة آلاف سنة. وعلى كل حال، فاللّه كان حاضراً قبل ملايين السنين، وسوف يظل حاضراً حتى بعد وفاتنا وحروبنا وشرنا وخيرنا. إن في حياتنا شراً لنا وخيراً لنا.

لن أذهب بعيداً لأن والدتي لن تفهم شيئاً من ذلك، فكل ما تعرف أنها فقدت زوجها وأنها تطبخ جيداً وأن هناك مسجداً تذهب إليه كل يوم جمعة، وأنها تتمنى لي أن أتزوج. لكن مسألة الزواج هذه لا تؤرقني على الإطلاق، فقد قال الرسول الكريم (ﷺ): «من أحسّ منكم الباءة فليتزوج»، وأنا لم أحس الباءة في نفسي، فكيف أتزوج؟ إن المتزوجين يتشاجرون كثيراً، ويقولون كلاماً قبيحاً عن أنفسهم، وينافقون بعضهم بعضاً عندما يرون الأطفال أمامهم. إن الأطفال عندما يكبرون سيفعلون مثل آبائهم، وتتكرر المهزلة الأبدية. قلت إن اللّه (كان) حاضراً، لكن أبناء الثلاثة آلاف سنة أرادوا أن

يحتكروه لأنفسهم، ونسوا أن أبناء آسيا قبل ثلاثة آلاف سنة كانوا يتقربون إليه بوسائلهم الخاصة التي لا يعرفها إلا هو لأنه أصل المعرفة. جاء أبناء الثلاثة آلاف سنة ليقتتلوا فيما بينهم، وكل فئة منهم تعتقد أنها هي التي تعرف الطريق إليه ومن لم يسلك تلك الطريق فإنه يحكم عليه بالموت، وهم لا يعرفون أن في الموت راحة من هذا الجحيم.

لقد خلقهم لكي يستمتعوا، لكنهم حوّلوا فرصتهم تلك إلى ألم. هل أقول هذا الكلام لأمي؟ إنها لن تفهمني، كما أنها لا تفهم ما يقوله إمام المسجد، وكما لا يفهم يهودي أميّ ما يقال في البيعة بالعبرية أو المسيحي الأميّ الذي يعيش في الأقاصي ما يُتلى عليه باللاتينية. إنهم يصلّون في (بيشاور) لكنهم لا يعرفون لغة قريش التي نزل بها القرآن الكريم.

وعلى كل حال، فاللّه سبحانه عزّ وجلّ موجود بكل اللغات، فهو الذي يحيينا ويميتنا متى أراد، وإذن علينا أن نضع أسلحتنا وأن ننظر بعيداً، ثم نقول ثمّة وجه اللّه.

وقالت لي الوالدة مرة أخرى:

- عليك أن تتزوج وتنجب أطفالاً، وتترك وراءك ذرية حلالاً تشفع لك غداً في يوم القيامة.

- من يشفع لمن يا أمي؟

- إنني لا أفهم كلامك يا وليدي، إن كلامي واضح، فحتى إذا مات أبناؤك صغاراً لا قدّر اللّه فإنهم يصبحون ملائكة في الجنة، ثم إنك عندما تتزوج فإنك سوف تجبر خاطر أمك التي حملتك تسعة أشهر في بطنها وأرضعتك حليبها.

- إن شاء اللّه يا أمي، عندما يحين الوقت فإنني سوف أفعل ذلك.

- تزوج وبرهن لأمك على فحولتك، وعلى رجولتك.

- إنني رجل.

- لا يمكن للرجل أن يكون رجلاً من دون امرأة، البنات في كل مكان، في الشوارع والحدائق وكل مكان.

- حتى في مراحيض البارات.

- ماذا تقول يا وليدي؟

- لا شيء يا أمي، ماذا ستطبخين للغداء اليوم؟ لقد سئمت أكل لحم رأس العجل واللسان.

- سأطبخ لك طجيناً بالملوخية فهي تعجبك كثيراً.

مسكينة أمي، إنها تقضي كل وقتها في شغل البيت، لكن ماذا عساها كانت ستفعل، ولو كانت تعرف القراءة لانشغلت بقراءة الصُّحف على الأقل. ثم إنها ليس لها صديقات كثيرات، فهي إلى حدّ ما تحب العزلة، ولا تحب أن تكون همزة لمزة، لأن اللّه في القرآن الكريم دعا بالويل لكل همزة لمزة.

وأنا أقرأ كثيراً، وقد عثرت على كتّاب كثيرين يهمزون ويلمزون في الوقت الذي يعتقدون فيه أنهم فقط يغمزون. وكثير من الكائنات تلسع ثم تموت. وكثير من الكتّاب عبر التاريخ أرادوا أن يلسعوا فماتوا، وقد جرّوا أنفسهم إلى التهلكة، لكن البقاء للّه. كلنا سنموت سواء لسعنا أو صلّينا أو تزوجنا وأنجبنا. وسواء أحببنا أم كرهنا، وسواء كدنا لبعضنا أو كيد لنا، وسواء كنا حكاماً أو رعاعاً.

كنت أقرأ كتاباً عن ستالين، ووجدت فيه كم قتل ستالين من الناس، وكم غيّر اسمه من مرة، لكنه في الأخير مات والتحق بأولئك الناس الذين قتلهم. ولا أدري ما الذي سوف يفعلون به هناك، في ذلك المكان الذي سوف نذهب إليه جميعاً. ولا أدري فيمَ إذا كانت غريزة الانتقام لدى الإنسان ستبقى بعد الوفاة؟ أسئلة كثيرة

من هذا النوع يجب أن يطرحها الكتّاب بدل الهمز واللمز. والآن أفهم لماذا يجن بعضهم أو ينتحر، فهم غير قادرين على طرح أسئلة بله الإجابة عنها. وأنا نفسي لا أطرح أسئلة كثيرة لأنني لست قادراً على الإجابة عنها، حياة عادية. نعم، جنة داخلية. نعم، لن أهمز ولن ألمز، كالعادة سوف أذهب إلى أقرب حانة، وسوف أشرب بيرة أو ربع ليتر من النبيذ.

يقول ابن قدامة في **المُغْني**: «سألت أحمد (الإمام أحمد بن حنبل) عن شرب الطلا (الخمر) إذا ذهب ثلثاه وبقي منه الثلث، قال: لا بأس به. قيل لأحمد: إنهم يقولون إنه يُسكر. قال: لا يُسكر، ولو كان يُسكر ما أحلّه عمر» وعمر الذي نزل التحريم بسببه. المهم أن طجيناً بالملوخية ينتظرني، وسوف أذهب لأشرب ربع ليتر من النبيذ. أكثر اللّه من أمثال أمي.

9

إنه وليدي وأنا أحبه كثيراً. وهل هناك امرأة لا تحب أولادها؟ فحتى القطة تحب صغارها وحتى الكلبة تحب جراءها، فالقطة تحضن صغارها والكلبة تدافع عن جرائها، فكيف إذن لا يمكن لامرأة من بني آدم ألّا تحب أولادها؟ إن وليدي من أحسن الرجال، وعيبه الوحيد أنه يقرأ كثيراً. ولا يريد أن يصلّي أو يتزوج. وقيل إن قراءة الكتب تصيب قارئها بجنون، لا أريد لوليدي أن يصاب بجنون، فأنا أحبه وأطبخ له ما يشاء، وليفعل ما يشاء. غير أنني أريده أن يبتعد من ذلك الشيء الذي لا أعرف ما هو، فقد أخذه ذات مرة رجال الشرطة، ولا أدري ماذا فعلوا به، بل قالوا له إن فمك واسع وعريض، وعليك أن تغلق فمك.

تلك الحاجة بعيدة منك ولا تتحدث فيها، وأنا لا أعرف عن تلك الحاجة شيئاً. فيمَ كان يتحدث؟ لا أدري. ولكن يبدو أنها مسألة صعبة لا يمكن للمرء أن يتحدث فيها، ومن حقّ رجال الشرطة أن يقولوا للناس لا تتحدثوا في بعض المسائل، فاللّه سبحانه هو الذي يعرف تلك المسائل، فإذا كانت قبيحة فعلى الإنسان ألا يتحدث فيها، علينا أن نعرف الأشياء الصالحة من الطالحة، ولا داعي لأن ينبهنا أحد إلى ذلك.

قد يكون وليدي قال كلاماً ووشى به الوشاة، مع أن وليدي

يعرف ما يقول، إلا أنني أحياناً لا أفهمه عندما يتحدث عن اللّه وعن الجنة وعن النار وعن الزواج. لكنه بكل تأكيد سوف يتزوج. وأعتقد أنه لا يريد الزواج لأن عينه خضراء، بمعنى أنه قد يريد هذه أو تلك. إنه يشبه أباه، فقد كانت عينه خضراء، لكنه في نهاية الأمر كان يعود إلى بيته، كنت أحبه وكان يحبني، والرجال دائماً يتشابهون وعلى المرأة ألا تشبه الأخرى.

إن سيدها في البيت هو سيد الأسياد، وإذا ما حاولت أن تستبدله فإنها لن تجد إلا أكرف منه. ولذلك فعليها أن تصبر وأن تربّي أبناءها. أتمنى لوليدي امرأة تتزوجه وتصبر، إنه لا يفعل شيئاً قبيحاً. وكما قلت، إنه يقرأ كثيراً، وعليها أن تفهم أن من يقرأ كثيراً قد يعتقد الناس أنه مجنون. وإذا كانت عينه خضراء فإن لونها سوف يتغير مع مرور الوقت، وعندما كنت شابة كانت عيني أنا أيضاً خضراء، كنت أتمنى الزواج بهذا الشاب أو ذاك. لكنني لم أكن أفهم وقتها شيئاً، وبعض الذين تمنيت أن أتزوج بهم ماتوا أو شاخوا أو أصبحوا مثل فزاعات الطيور. كم يكون الإنسان جميلاً في شبابه لكنه عندما يشيخ أو يحدودب ظهره، أو يفقد شعر رأسه، فلا يتمنى له الإنسان إلا القبر. وقد يستعيد شبابه وجماله في الآخرة، وقد لاحظت أنهم لا يفقدون شبابهم وجمالهم، بل إنهم يصبحون مثل المجانين أحياناً. يقولون كلاماً غريباً، ويتصرفون بشكل غريب لا يليق حتى بالأطفال. ولو ذهبوا إلى المسجد لهداهم اللّه. لكن بعضهم أصبح يشرب الكحول الخالص أو يدخن الكيف. لقد كانوا شباناً لكنهم ماتوا أو أصيبوا بحمق أو فقدوا أسنانهم وشعرهم أو احدودبت ظهورهم. وبكل تأكيد فإن وليدي لن يحصل له ذلك، لأنه لا يرتكب الذنوب ولا يسيء إلى الناس. وعيبه الوحيد أنه يتحدث في تلك الأمور التي لا أعرف عنها شيئاً، ولا يريد أن يتزوج وينجب

وأنا أربّي. إذا قلت إن وليدي سيد الرجال فأنا أعرف ما أقول. وأنا لم أربِّ نعجة بل ربيت رجلاً. وكم من الشمايت يعتقدون بأنهم رجال، تراهم يتطاولون ويفتحون أفواههم حتى الأذنين. ونحن نعرف أن اللسان ليس به عظم، لكن وليدي لا يتطاول ولا يفتح فمه حتى الأذنين. وإذا قال له رجال الشرطة إن فمك واسع فبكل تأكيد أنهم لم يسمعوا جيداً ما كان يقوله، وماذا عسى وليدي أن يقول؟ لا شك أنه تحدّث عن إمام مسجد وعن الجنة والنار وعن الرشوة وعن أولئك الفتيات الصغيرات البئيسات اللواتي لم يجدن شغلاً، هذا ما يستطيع أن يقوله وليدي. وأحياناً أسمعه يتحدث لي عن الحكومة، وأنا لا أفهم في تلك الأشياء. يقول لي إن الحكومة فعلت كذا وكذا وهذا لا يليق بهذا. لكنني لا أعرف ما هي الحكومة وما هو أصلها وفصلها ومن أين جاءت. إن وليدي يعرف تلك الأشياء، وربما لهذا السبب استدعته الشرطة وقالت له أغلق فمك. فربما كانت الشرطة أخت الحكومة، أو عمتها أو كنّتها أو ابنتها أو أمها، أخشى أن أكون قد قلت كلاماً عن وليدي.

كل ما أعرف أنه طيب ومهذب ويحب وطنه ويقرأ كثيراً ويشرب نبيذاً ولا يرغب في الزواج. يقول مراراً - ومعه حقّ - كلنا يا أمي إلى زوال، ويقول كلاماً آخر لا أفهمه. ويعجبني وليدي عندما يقول: «إن لقاءنا سوف يكون مع اللّه، لا غالب ولا مغلوب في هذه الدنيا يا أماه!». أنا راضية على وليدي ورضى اللّه من رضى الوالدين كم قال إمام المسجد يوم الجمعة الفارط، ولا أدري ما الذي سوف يقوله يوم الجمعة المقبل إذا ما بقي حياً، فالأعمار بيد اللّه. وأتمنى لوليدي أن يبقى حياً حتى يتزوج ويصلّي ويذهب لزيارة قبر الرسول الكريم، وأن يترحم على والده وأن يقبّل الكعبة. لكنني أخشى على وليدي عندما يتوجّه إلى مكة المكرّمة ويكون عائداً إلى

بلده أن تتحطم الطائرة ويموت مع جميع الحُجّاج مثلما وقع لبعض السنغاليين عندما حجّوا وعادوا فماتوا.

لا أريد لوليدي أن يموت بتلك الطريقة، فأنا لا أريد أن أدفنه أو يدفنني. وأتمنى من اللّه أن يكون قبره بالقرب من قبري وأن نُبعث معاً غداً يوم القيامة وأن نلتقي بأبيه ونسلّم عليه ونقول له إننا تأخرنا كثيراً عليك. ونسأله أيضاً: وكيف كانت الرحلة؟ هل وصلت بالسلامة إلى هنا؟ سوف يحصل ذلك إذا ما تزوج وليدي وأنجب أطفالاً مثل باقي الناس الذين يبنون العمارات ويسرقون الحدائق والعواطف والشركات ويصلّون ويكذبون وينهبون ويموتون.

إن وليدي ليس له مثيل في هذا العالم، فهو لا يسرق ولا يكذب. يا سبحان اللّه! إنه يشبه أباه في كل شيء، إلا أنه لا يصلّي ويقول عن إمام المسجد إنه كذاب. وأقول لوليدي أحياناً لا تقل هذا الكلام فاللّه وحده المطّلع على النفوس. ذات مرة قلت إن وليدي هداه اللّه فقد أصبح يتكلم مع إحدى بنات الجيران، حتى إنها أصبحت ترسل له كل يوم جمعة صحناً من الكسكس وكان يأكل خضره ولحمه بنهم. وقلت ربما سوف يتزوجها، لكنه تأخر كثيراً، فجاء رجل مهاجر من بلجيكا ذات صيف فتزوجها ورحلت معه. وقد تغيّرت أحوال وليدي بعض الوقت، لكنه يبدو أنه نسي كل شيء. فكثير من الرجال ينسون بسرعة، ومنهم من يهمل نفسه، ومنهم من يلقي بنفسه في بحر أو في بئر. لكن وليدي لم يحصل له شيء من ذلك بل أخذ يتحدث إلى فتاة أخرى جميلة، تمنيتها له كما تمنيت أباه لنفسي. وكم كنت أحبه، وهو اليوم في دار الحق، بعد أن تركنا في دار الباطل. أنا عادة لا أرقص في الأعراس، ولكنني سوف أزغرد وأرقص في عرس وليدي، وسوف أضع الكحل والسواك والحِنّاء. وأنا لم أفعل هذا منذ وفاة أبيه، ولِمَ لا أفعل ذلك في ليلة

العرس؟ ففي ليلة العرس تفرح الملائكة، وعندما نحرق البخور تختفي الشياطين.

إن وليدي سيد الرجال، ولأمت بعد ذلك اليوم الذي أنتظره، لكني أتمنى ألا أموت حتى أربّي أبناء وليدي.

10

أعرف أنك تحبينني كثيراً، وتتمنين لي أن أكون كاتباً. وأعرف أنك لا تعطين أهمية للمال، هذا شيء جميل، وتقولين إن المال ليس كل شيء في الحياة. لكنك أحياناً تقولين إن المال يستطيع أن يشق البحار مثل عصا موسى، لكن موسى مات ومات الفراعنة وتشرّد اليهود، ثم تجمّعوا مرة أخرى مثلما سوف يتجمع ذات مرة الأرمن والطوارق والغجر، ومن الذين لا أصل لهم، أو لهم أصول نسوها، كل واحد يبحث عن جذوره لكنه لا يعرف بأنها انقطعت نهائياً، وأن الحقيقة الكبرى هي ما هو كائن. ولا أحد يستطيع أن يتنبأ بما سوف يكون. تلحّين عليّ أن أكتب، لكن عمّن سوف أكتب؟ عن «وليدها»؟ إنها تعرفه أحسن مني، وهو يعرف نفسه أحسن مني.

وفي الحقيقة هناك من يركبون رؤوسهم ويعتقدون أنهم يعرفون كل شيء، حصل ذلك قبل ثلاثة آلاف سنة، ولا يزال يحصل الآن، لا يمكنني مثلاً أن أكتب عمّن يريد أن يسود ويحكم في نفس الوقت. قرأت ذلك عن البئيس شاه إيران الذي انتهى تلك النهاية السيئة التي أتمنى ألا تكون نهايتنا جميعاً. وفكرت يا حبيبتي لو أنه فضّل أن يسود دون أن يحكم لظلّ سيد الأسياد، ولو ترك لشعبه حرية الاختيار لما جاء رجل عادي ليطيح به. وعلى فكرة، فقد كان

عندهم في إيران حاكم سمّوه النبي المقنّع، لم يرَ أحد وجهه على الإطلاق، لأنه كان مصاباً بالجذام، وحكمهم بقبضة من حديد، وكانت له نساء كثيرات ورجال عديدون، مخلصون أو غير مخلصين. هذا لا يهم، المهم أنه كان محاطاً بالرجال، وكثير من الحكام يا حبيبتي يقرّبون إليهم أناساً يعتقدون أنهم أقرب إليهم من حبل الوريد، لكن أول من يقطع حبل وريد الحكام هم أولئك المخلصون، بالتواطؤ مع المخلصات. أنا لا أستطيع أن أكتب عن «وليدها» أو عن الحكام.

كان شاه إيران المسكين يختلي بنفسه في الخلاء ويوهم الناس بأنه ذهب هناك للقاء المهدي المنتظر. وكثير من الناس لا يزالون ينتظرون من يهديهم. هي أشياء كثيرة لا أستطيع أن أتحدث فيها لأنها سوف تجرّ علينا المتاعب، ولندعهم في غيّهم يعمهون.

هل لاحظت كيف أن رؤساء تلك الدول الشيوعية تساقطوا مثل الأزهار الذابلة في الخريف؟ لكن تلك الأزهار للأسف كانت لها رائحة نتنة. لقد ذهبوا وخلّفوا وراءهم روائح كريهة، أتمنى أن تكون مصابة بزكام حتى لا تشميها. شيء جميل عندما تقولين لماذا لا يكتب الإنسان قصة حب؟ لكن المشكلة أن الحب يتحول أحياناً إلى كراهية... لا، لا. أنا لا أقول إن حبنا سوف يتحول إلى كراهية. إن هذا لن يحصل أبداً، قد يقع سوء تفاهم بيننا لكنه لن يتحول إلى كراهية، أنا أعرفك جيداً وأنت تعرفينني جيداً، ما قلته لي أول أمس صحيح، قد يتحابّ اثنان طوال نصف قرن ثم يفترقان. لن يحصل هذا على الإطلاق بيننا. وهناك من يظل مخلصاً لمن يحب، مثل التي لا تزال مخلصة لأب «وليدها» ولا تزال تتمنى أن تلتقي به هناك.

إن قصة حب من هذا النوع يمكن أن يكتب عنها، كما أنه يمكن أن يكتب أيضاً عن قصة حب زائفة بين امرأة مغربية ورجل من

الإمارات العربية المتحدة، وإذا ما قلت امرأة مغربية فإنما أتحدث عن أولئك البئيسات الفقيرات.

- لا تكتب قصة حب من هذا النوع يا حبيبي، لأنك سوف تشوّه سمعتنا.

- هذا مجرد افتراض.

- لا تكتب هذا، لأنهم سوف يقلقون ويذهبون إلى فتيات بئيسات أخريات في التايلاند، وتبقى فنادقنا وبطوننا فارغة.

- قلت لك إنه مجرد افتراض.

- افترض ما تشاء إلا قصص الحب الزائفة تلك.

- وإذن سوف أكتب عن «وليدها». اسمعي يا حبيبتي، لقد كتب كل شيء عن كل شيء، من الأفضل أن يغلق الإنسان فمه وأن يأكل ويشرب وينام ويترك كل واحد وشأنه.

- لا تكن متشائماً يا حبيبي، لقد خُلِقنا في هذه الحياة لكي نعيشها.

- متفق معك، لكن مع ذلك تظل كل الأمور مجرد افتراض.

- اكتب في الدين إذن.

- لا، ذاك أمر صعب، ثم عن أي ديانة أكتب؟ إن للناس ديانات كثيرة ومعابد كثيرة، على سبيل المثال، بعد النبي (ﷺ) قتل الخلفاء الراشدون، واقتتل المسلمون فيما بينهم ولا يزالون يقتتلون. وكثر الأئمة وكثرت كتب الصحاح. لماذا لا يكون هناك إمام واحد وكتاب صحيح واحد؟ وكان من الأئمة الأربعةِ مولى، هذا شيء جميل أن يصبح المولى إماماً، ولِمَ لا؟ ولِمَ لا يصبح رجل أسود أو أصفر أو أحمر على رأس هرم الفاتيكان؟ هل تفهمينني؟

- أفهمك يا حبيبي، وإذا لم ترد أن تكتب قصة حب، فاكتب قصة الأديان.

- سوف أفعل ذلك عندما يبعث لنا زوج أختك تذكرة سفر إلى سويسرا، ونفكر جيداً في الأمر هناك، بعد أن نكون قد أصبحنا لا نشعر بالاختناق هنا. ولكي يفكر الإنسان ويختار ما يشاء، عليه بقسط من الراحة، نحن في حاجة إليها يا حبيبتي. ثم إنني لا أستطيع أن أكتب ما أشاء. ربما إذا سافرنا واختلينا بأنفسنا سوف نتأمل بعمق في ذلك البؤس البشري، وربما فكرت في الكتابة عن قصة حبنا أو عن «وليدها» أو عن قصة الأديان، أو عن قصة أخرى أتخيّل فيها ما الذي يمكن أن يحصل لهم بعد ألفين أو ثلاثة آلاف سنة.

- إنك تذهب بعيداً، نحن نعيش الآن، وما سوف يحصل لهم ذاك شأنهم. إننا سوف نذهب إلى الجنة، أما هم فسيظلون يعيشون كالخنازير. المهم أننا مررنا من هنا وكتبنا وأحببنا بعضنا. ونقول لهم إننا لم نشبه الآخرين من ساكني الصناديق الحجرية أو المزابل أو مدن الصفيح. أعرف أن لك أفكاراً مغايرة ولذلك أحببتك، إن الآخرين لا يهموننا بقدر ما يهموننا. أفهمك جيداً. قلت لي مراراً كل واحد لا يعجبه سوى ما يفكر به وأنه دائماً على صواب.

- تلك هي مشكلتهم. ولكن الرائع في كل هذا هو إقامة طقوس بعد الوفاة في كل الديانات، تستمر تلك الطقوس ليوم أو لأيام، ثم تستمر حياتهم على ما كانت عليه، ومن هنا يا حبيبتي فإن الموت لا يعنيني في شيء.

- وأنا كذلك يا حبيبي، أتمنى أن نموت معاً لأن الحياة من بعدك لن تعني أي شيء بالنسبة إلي، وما معنى أن تبقى روح تتعذب لفترة من الوقت حتى تلتقي بالروح الأخرى هناك؟ من الأفضل أن تبقيا معاً، أو تختفيا معاً من هذا العالم المليء بالتلوث. اكتب هذا، لا تتردد في ذلك.

- عندما نكون في سويسرا كما قلت لك، سوف نتأمل ونقرأ

بعض الكتب ونفكر ونكتب. لكن مشكلتنا هي أن يرسل لنا زوج أختك تذكرتي سفر.

- أنا أعرف جيداً، سوف يفعل ذلك بكل تأكيد، والحقيقة أن المشكلة في هذا العالم هي مشكلة تذاكر وتأشيرات.

- إنني متفق معك، في السابق كانوا يسافرون من دون تذاكر ولا تأشيرات وكانوا أحسن أو أسوأ حالاً، هذا لا يهم. على كل حال، كانوا يسافرون ويمرضون ويجوعون وينجبون أولاداً من غير أجناسهم، لكنهم فعلوها واستمتعوا أو تعذبوا فماتوا. كل هؤلاء الطواويس الذين تنظرين إليهم في الشارع سوف يموتون، ولا أحد منهم يصدّق ذلك.

ثم دخلا إلى المقهى كالعادة، وأعطيا وجهَيْهما لهواء المحيط، اندسا بين موائد متفرقة على الإفريز وظلا يحلمان ويتحدثان عن الرحلة إلى سويسرا وكيف أنه سوف يكتب هو كتاباً لا يشبه باقي الكتب. لأن كل ما يُقال سبق قوله، المهم أن طريقة قوله تختلف.

وفكر في شخصية وليدها، لكن الأولاد كثيرون في هذا العالم ولا يتشابهون عندما كان يفكر في ذلك. دفع وليدها ثمن قهوته ومرّ بالقرب منهما غير عابئ ولا مكترث، قطع الطريق إلى الرصيف المقابل باتجاه الحانة لكي يشرب قنينة نبيذ صغيرة كالعادة، ولم يكن يهمه من يكتب عنه أو من يريد تزويجه.

المحتويات

الأعمال الروائية الكاملة

يأتي هذا الأثر المتمثّل في الأعمال الروائية الكاملة للروائي الراحل محمد زفزاف، ليرسم صورة عن مسار تجربة طبعت المشهد الأدبي والثقافي مغربياً وعربياً بفرادتها، وهو ما أهّلها للتداول الموسّع، كما للحظوة النقدية العميقة والدالة، وللترجمة إلى أكثر من لغة.

ويحق القول من جانب آخر إن هذه التجربة، ومنذ الرواية النواة **المرأة والوردة** (1972) وإلى آخر نصٍّ روائي **أفواه واسعة** (1998)، شكّلت نقلة على مستوى الشكل حيث كسرت تقاليد الكتابة الروائية بالتأسيس لبدائل تساير تحولات الكتابة الروائية عالمياً. وأما من حيث المعنى المعبَّر عنه، فلامست الواقع الاجتماعي والأدبي بجرأة نادرة. ومن ثم ينبغي النظر إلى هذه الأعمال الروائية الكاملة في ضوء كونها تعكسُ نسيجاً من التكامل والامتداد، يفرض قراءتها في ضوئه.

وبذلك إن القارئ المغربي والعربي سيجدُ في هذه الطبعة الجديدة المتميزة أفقاً مفتوحاً لإعادة قراءة المتن الروائي للراحل محمد زفزاف، بهدف تجديد التعامل مع الأثر وفق رؤية شمولية ومتكاملة.

❖ ❖ ❖

محمد زفزاف (1945-2001) كاتب مغربي كَتب القصة والرواية والمسرحية، مثلما ترجم أعمالاً أدبية عالمية. تابع دراسته بشعبة الفلسفة في كلية الآداب بالرباط، ليعيَّن أستاذاً للغة العربية في مدينة الدار البيضاء التي أمضى فيها حياته كاملة.

ISBN 978-9953-68-845-9





المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء: ص. ب. 4006 (سيدنا)
بيروت: ص. ب. 113/5158
markaz.casablanca@gmail.com
cca_casa_bey@yahoo.com